المركز القومي للترجمة

ماري كلار جاب الله بولحبال

بين الصحافة والأدب

النهضة عند إبراهيم المويلحي ومعاصريه

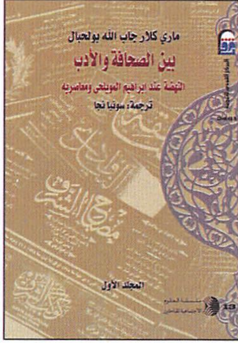
ترجمة: سونيا نجا

2461

المجلد الأول

سلسلة العلوم
الاجتماعية للباحثين





يُعد هذا الكتاب- الذي يقع في مجلدين- دراسة متعمقة لـ"آل المويلحي"، فيطرح تحليلاً أدبياً هائلاً لكتابات إبراهيم المويلحي مقارناً إياها بكتابات ابنه محمد المويلحي. كما يقدم أيضاً إجمالي تاريخ نشأة الصحافة في مصر بوصفه سياقاً نشأ فيه فكر آل المويلحي فأثّر فيه وتأثر به، مبرزاً الروابط القوية بالنهضة العربية ومفهوم "آل المويلحي" ومعاصريه لها.

تصميم الغلاف: رحاب حسن

بين الصحافة والأدب

النهضة عند إبراهيم المويلحي ومعاصريه

المجلد الأول

مجالات التخصص: الأدب والصحافة المكتوبة العربيان الحديثان

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين
المشرف على السلسلة: أحمد زايد

- العدد: 2461
- بين الصحافة والأدب: النهضة عند إبراهيم المويلحى ومعاصريه (المجلد الأول)
- مارى كلار جاب الله بولحبال
- سونيا نجا
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

Entre journalisme et littérature feuilletonesque:

La Nahda Selon Ibrahim Al-Muwaylihî et ses Contemporains

Par: Marie Claire Djaballah ép. Boulahbel

هذا العمل يصدر بالتعاون مع مؤسسة فورد

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

المعهد القومي الفرنسى للغات و الحضارات الشرقية
INALCO
برنامج الدكتوراه ED 265
مركز أبحاث الشرق الأوسط وبلدان البحر المتوسط
(CERNOM)

أطروحة دكتوراه في اللغات والآداب والمجتمعات

بين الصحافة والأدب

النهضة عند إبراهيم المويلحي ومعاصريه

المجلد الأول

مجالات التخصص

الأدب والصحافة المكتوبة العربيان الحديثان

تأليـــــف: ماري - كلار جاب الله بولحبال
ترجمـــة : سونيـــــا نجـــا



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بولحبال؛ - ماري - كلار جاب الله.
بين الصحافة والأدب: النهضة عند إبراهيم المويلحى ومعاصريه (المجلد الأول) / تأليف مارى - كلار جاب الله بولحبال؛ ترجمة: سونيا نجا.
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٤٩٢ ص، ٢٤ سم
المحتويات: من وجهة نظر "إبراهيم المويلحى" ومعاصريه (القسم الأول).
مجالات التخصص.
١ - الصحفيون المصريون.
٢- المويلحى ، إبراهيم بن عبد الخالق بن إبراهيم بن أحمد، ١٨٤٦ - ١٩٠٦.
(أ) نجا ، سونيا (مترجم)
(ب) العنوان ٩٢٠,٧

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٧٣١٨
الترقيم الدولى 2 - 0196 - 92 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية


الجوائب
مصباح الشرق

المحتويات

الباب الثاني

الخطاب الصحفي ذو المغزى السياسي والدولي: "الاتحاد"، و"ما هنالك" ومقالات إبراهيم المويلحي في "المقطم" و"المؤيد"

الباب الثالث

الثيمات المرشدة ومفهوم "النهضة" فى "مصباح الشرق" والكتابات الأخرى لإبراهيم المويلحى ومعاصريه

إهداءات المؤلفة وكلماتها

إلى ابنتي لور

إلى زوجي نسيم

إلى جدتي خميسة

إلى خالتي فرانسواز وأختي زهرة

إن فهم أي شـــيء لا يعنـــي البتـــة أن يختـــصه المـــرء لنفـــسه، وإنمـــا يعني نقل الذات بنوع من الافتراق إلـــى مركـــز الآخـــر(...). وجـــوهر اللغـــة أو كنهها يجب أن يكون نوعا من الافتراق، فلا يمكننا فهم ذواتنا إلا بالدخول فـــي نسق الآخر[1].

ونتساءل هنا كما كنا نفعل في السابق بشأن اللغة، أي دور لعبته كل مـــن الكتابة والطباعة في البحث عن الحقيقة؛ أوجدت الكتابة أشياء تتكلم، أما الطباعة فقد ضاعفتها إلى ما لا نهاية وخلدتها؛ وبذا استطاع الفكر هزيمـــة المكـــان والزمـــان والموت. اللغة والكتاب والجريدة ثلاثة مجلدات لتطور الإنسانية تمثل لترابطها فيما بينها منطقيا مراحل حاسمة في الأدوات والآليات الفكرية (...)[2].

لزمن طويل أحجمنا عن تصديق فكرة أن الصحف يمكن أن تكـــون مـــادة لدراسة تاريخية. هذه المطبوعات العابرة المقدر لها الاحتفاء والزوال بعـــد قـــراءة سريعة لم تكن توحي لرجال الأدب والعلماء الذين كان مـــن الممكـــن أن يولوهـــا اهتماما إلا كل احتقار لم يغير من استعدادات المثقفين إلا الميل المتنـــامي للوثـــائق خلال القرن التاسع عشر. كان "مانت بوف" بفضوله المتأجج دوما من الأوائل الذين

---

(١) لويس ماسينيون، ١٩٧٥، التطور الدلالي للثقافات السامية "أوبرا مينورا" الجزء الثاني ص٦٣١.

(٢) فيل Weill 1934 ص٥.

كتبوا عام ١٨٣٩: "يجب رصد تاريخ الصحف وكتابتها، غير أن المهمة التي أقترحها حاليا التي تعد نوعا من الأحلام والتي لا سند لها في الواقع والتي تبدأ وتنتهي في حدود المكان الذي أخط فيه سطوري، هذا التاريخ غير الكامل والذي من العسير التثبت منه هل سيفوز أحد بكتاباته؟ أشك قليلا في ذلك (...)، وقد تطلب الأمر بعض الوقت حتى يفهم المؤرخون أهمية الصحف"[١].

أدركنا بعد ردح من الزمن؛ ولكننا أخيرا أدركنا منذ سنوات قلائل قيمة الصحف من وجهة النظر التاريخية؛ ففي الواقع لا يوجد مكان آخر يمكننا أن نجد فيه معلومات أكثر غزارة -وفي مجملها أحق بالثقة- عن تاريخنا الأخلاقي والسياسي والأدبي:

فبطرح الأسئلة وجده على هذه الأصداء لكافة الآراء، وعلى هؤلاء الشهود المفوهين على الأحداث الذين كانوا جزءا لصيقا منها وبمقارنتها ومضاهاتها يمكننا الوصول لحقيقة أن[٢]:

"الأرض والكون كتاب

أولوا قراءته واكتشافه كل الاهتمام"[٣].

---

(١) فيل Weill 1934، ص٤.

(٢) هاتين Hatin 1965، ص٧.

(٣) إبراهيم المويلحي، "مرآة العالم" المقامة ١ ص١ الفقرة ٢.

شكر وعرفان

في حياتنا أوقات لا تكون فيها الكلمات بالقوة المطلوبة للتعبير عن أفكارنا ومشاعرنا؛ وقت كتابة شكرنا وامتناننا واحد منها؛ كيف يتأتى لنا تبيان عرفاننا لكل الذين استمروا دون كلل في دعمنا من قريب أو بعيد مساهمة منهم في إنجاز هذا البحث، الذي يمثل أكثر منه دراسة إنجازا علميا وشخصيا لجزء مهمّ من حياتي؛ لذا أرجوكم مقدما أن عرفاني يجاوز هذه السطور القليلة وأنني ممتنة إلى أبعد حد لكل هذه المساندة التي منحتموني إياها.

وأحرص كل الحرص على التعبير عن عرفاني العميق للأستاذين لوك - ويلي دوفلز Luc - Willy Deheuvels، وروجر آلن Roger Allen لتوجيههم إياي وإذاقتي جمال الأدب العربي الحديث ومساندتي وإرشادي في أبحاثي من أطروحة الماجستير حتى أطروحة الدكتوراه هذه.

وأشكر الأساتذة لورانس دينوز Laurence Denooz، وفريديريك لاجرانج Frédéric Lagrange، وبطرس حلاق Boutros Hallaq، وصبحي بستاني Sobhi Boustani لقبولهم عضوية اللجنة الممتحنة، وكذلك كل أعضاء هيئة التدريس في قسم اللغة العربية بالمعهد القومي للغات والحضارات الشرقية INALCO، وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور جيروم لانتان Jerôrme Lentin لنصائحه ودعمه، والأستاذان أبو بكر شرايبي وخادم جهاد حسن.

كل شكري للمعهد القومي للغات والحضارات الشرقية وبرنامج الدكتوراه به والـ CERNOM (معهد أبحاث الشرق الأوسط وبلدان البحر المتوسط) والـ CARMA (حلقة بحث المستعربين عن العالم العربي لمساندتها لي ولتمويلها أبحاثي الميدانية ولبرامج التعليم بها.

وأشكر بشكل خاص صديقتي الغالية إيمانويل بيــران Emmanuelle Perrin لمراجعاتها ودعمها القوي لي، كما أشكر نادية كوميللي Nadia Comilli، وشارلوت لوجون Charlotte Lejeune، ونادية مكوار Nadia Makouar، وماري إيميه جرمانوسو Marie Aimée Germanosu للمناقشات التي شاركنني فيها لاقتسامهن معي لــسنوات طوال حياتي كباحثة وتحملهن بشكل إيجابي مجرياتها.

شكر كبير لابنتي وزوجي اللذين تحملا انشغالي واللحظات الــصعبة التــي أضفت إيقاعها على الأربع سنوات ونصف التي أمضيتها في البحث داعمين ومتفهمين إياي بكل سعة صدر. شكري وامتناني لخــالتي فرانــسواز فيــون Francoise Vion لتشجيعها المتواصل وإنصاتها الدائم لي ولسيلفي ونويل ديكودان لمساندتهما لي.

أحرص أيضا على الإعراب عن شكري العميق لأسرة المويلحي التي وثقت في وتعاملت معي كفرد منها، وللسيد خليل المويلحى الذى سمح لي بسهولة الاطلاع وعلى الوثائق الخاصة؛ بل على الإقامة في الشقة التي خصصها لمكتبته الخاصــة وتكفل بمراجعة النص العربى. كما أشكر شكرا صادقا أعزائي؛ طارق المــويلحى وسيدة العقباوي ومواهب المويلحى وعبير المويلحى وأميــرة المــويلحى وأحمــد المويلحى.

كــل شــكري لأولئــك الــذين ســاعدوني طيلــة وجــودي بــأرض مصر الأستاذ الــدكتور جــابر عــصفور، والمرحــوم الأســتاذ آلان روســيون Alain Roussillon، والأب رينيه فنسان دوجرأنلونيه René-Vincent du grandlaunay من آباء الدومينيكان بالقاهرة، والأساتذة رندة صبري، وأمينة رشيد مــن جامعــة القاهرة، وتوفيق أقليماندوس، وهاجر أواردجي من الــ CEDEJ (مركز الدراســات والتوثيق الاقتصادي والقانوني والاجتماعي بمصر والسودان)، وســيلڤي دونــواه Sylvie Denoix من الــ IFAO (المعهد الفرنسي للآثار الشرقية).

يتبقى شكري لكل من أثرى لقائي الودي أو المهني به مسيرتي على مدى سنوات حياتي المهنية في التعليم: جاكلين شابي، وفيفيان كوميرو، وزواغي محمد، ونوري ميمون، وفتيحة إيدلكادي، وفرانسواز مودولا.

شكري لصديقي ميشيل جانتزر ولكل من ضاقت المساحة فلم أستطع ذكر أسمائهم، وشكري إلى كل من آمنوا بي وأعطوني الفرصة لإتمام هذا الإنجاز الشخصي العلمي والمهني.

شكر صادق للجميع

اختصارات

ANRT	- الجمعية القومية للبحث و التكنولوجيا.
BIULO	- المكتبة "المشتركة بين الجامعات" للغات الشرقية.
BULAC	- المكتبة الجامعية للغات و الحضارات.
CARMA	- حلقة المستعربين للبحث.
CEDEJ	- مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية و القانونية و الاجتماعية في مصر و السودان.
CERNOM	- مركز أبحاث الشرق الأوسط وبلدان البحر المتوسط.
E. I	- موسوعة الإسلام.
E. I^2	- موسوعة الإسلام الطبعة الثانية.
ERISM	- فريق بحث متناظم (متعلق بعدة فروع من العلم) عن مجتمعات البحر متوسطية الإسلامية
JDEO	- معهد الدومينيكان للدراسات الشرقية.
IFAO	- المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (مصر).
IFPO	- المعهد الفرنسي للشرق الأدني (سوريا).
ISBN	- رقم الإيداع.
REMMM	- مجلة العالمين الإسلامي و البحر المتوسطي.
TLFI	- كنوز اللغة الفرنسية (نسخة إلكترونية).

تمهيد

تطرح علينا السيدة الدكتورة "مارى - كلار جاب الله بولحبال" بهذه الدراسة المتعمقة نظر جديدة فى أسرة مصرية (ذات أصول معرفية فية شمال الحجاز) هى أسرة "آلا المويلحى"، وتخص الباحثة فى دراستها لهذه الأسرة الأب/ إبراهيم المويلحى (١٨٤٣-١٩٠٦)[١] ونجله/ محمد المويلحى (١٨٥٨-١٩٣٠) (الذى قد يفوقة شهرة) ميرف "حديث عيسى بن هشام" الذى تم نشره فى صورة كتاب للمرة الأولى عام ١٩٠٧، وأعيدت طباعته مرات عديدة بعد ذلك. وأنا أقدم نفسى هنا باعتبارى ناشرًا لأحدث إصداراته (الأعمال الكاملة، القاهرة ٢٠٠٢).

ويعد بحث السيدة الدكتورة/ "مارى - كلار جاب الله بولحبال" نتاج عمل دؤوب ودقيق ساهمت فى كمال إنجازه ظروف مواتية أمدت الباحثة بما لزمها من وثائق أساسية؛ نرجع أو هذه الظروف إلى الزميل المصرى الفاضل الأستاذ الدكتور/ "جابر عصفور" الذى نكن له كل تقدير فقد ساعد السيدة الدكتورة/ مارى- كلير بولحبال فى الحصول من "الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية" على قرص مدمج يحوى النسخة الأصلية الكاملة من دورية "مصباح الشرق"، وهى الدورية التى كان الأب والأبن قد قاما بطباعتها خلال الفترة الواقعة بين ١٨٩٨ و١٩٠٣، وكانت كتابات كل منهما قد ظهرت فيها لأول مرة. وقد تمكنت السيدة الدكتورة/ "مارى - كلير بولحبال" من العثور على أحد أحفاد "إبراهيم المويلحى" وهو السيد خليل المويلحى الذى قبل بسماحة وأريحية إطلاعها على محتوى مكتبته الشخصية بالقاهرة. من هنا تمكنت الباحثة فى إعدادها الميدانى المتميز لهذه

---

(١) تم التحقق من تاريخى ميلاد هذا "الأديب - الصحفى" ونجله من الوثائق التى اطلعت عليها ودرستها السيدة الدكتورة/ مارى - كلار جاب الله.

الدراسة من الإطلاع على نصوص أصلية قيمة معروفة بالكاد، بل وبالنسبة للبعض غير معروفة بالمرة. وقد ألحقت السيدة الدكتورة أطروحتها هذه بنسخ من الطبعة الأصلية لهذه النصوص، وهو ما يعد إضافة بالغة القيمة للبحث العلمي.

تتناول هذه الدراسة المؤطرة والمتعمقة حياة "إبراهيم المويلحى" الشخصية ونشاطه الصحفى والسياسى. والملاحظ أن خمسة عشر عامًا فقط تفصل بين ميلاده (١٨٤٣) وميلاد نجله محمد (١٨٥٨)، مما يعنى أنهما قد عاشا معًا سنوات طويلة منها عدة أعوام فى المنفى.. هذا من ناحية. ويقدم هذا البحث من ناحية أخرى إجمالى تاريخ نشأة الصحافة فى مصر ومحصلة الفكر المويلحى، مبرزا صلاتها بالنهضة العربية. كما يطرح تحليلاً أدبيًا هائلاً لكتابات إبراهيم المويلحى السردية مقارنا إياها بكتابات نجله.

ارتبطت الأهمية السياسية لهذه الأسرة جزئيا بثرائها ويسرها المادى باعتبار أفرادها من كبار تجار المنسوجات الحريرية. والواقع أن الخديوى إسماعيل هو الذى أقال آل المويلحى من عثرتهم وأنقذ ثروتهم عام ١٨٧٢ حين كان إبراهيم على وشك فقدها بالكامل فى البورصة. عقب هذه المحنة القاسية، أصبح إبراهيم من المقربين إلى الخديوى بل وتبعه فى منفاه عام ١٨٧٩ حين أجبرت السلطات الفرنسية والإنجليزية الخديوى على ترك مصر. وقد وجد إبراهيم المويلحى نفسه منفيا بدوره (وقد طال ابنه ذات المصير بعد هذا التاريخ بنحو ثلاث سنوات).

قضى الأب والابن على هذا النحو ما يقرب من خمسة عشر عامًا بعيدًا عن الوطن. حط رحالهما أول الأمر فى إيطاليا ثم انتقلا إلى فرنسا ليستقرا فى نهاية الأمر فى بريطانيا العظمى. انشغل الاثنان بالشئون السياسية وخاصة ما تعلق بالطبع منها بالأحداث فى مصر وبالمؤامرات العثمانية. شارك "إبراهيم" بنفسة مع شخصيات أخرى كان قد تم إقصاؤها (ومنهم محمد عبده وجمال الأفغانى) فى تحرير مقالات فى صحف عربية كانت تنشر فى باريس. فى خط مواز لهذا النشاط

أسس "إبراهيم" صحيفة خاصة به أطلق عليها اسم "الاتحاد" (كانت موضوع أطروحة الماجستير الخاصة بالسيدة الدكتورة/ "مارى – كلار جاب الله") تلقى "إبراهيم" عام ١٨٨٥ دعوة من "السلطان عبد الحميد الثانى" للذهاب إلى "اسطنبول" العاصمة العثمانية. فى بادئ الأمر أرسل "إبراهيم" نجله "محمد" لسبر الوضع واستطلاع الأمر ثم ذهب إلى هناك بنفسه. انشغل إبراهيم كعادته فى "اسطنبول" بالأمور السياسية والثقافية. غير أن الرقابة العثمانية وجواسيس النظام الشرطى العثمانى قد أزعجوا إبراهيم وأشعروه بعدم الراحة.

لدى عودة "إبراهيم المويلحى" فى نهاية الأمر إلى مصر عام ١٨٩٥ بدأ من فوره فى كتابه مقالاته الشهيرة التى حملت عنوان "ما هنالك" (شكلت هذه المقالات الموضوع الرئيسى لبحث السنة التمهيدية المقدم من السيدة الدكتورة مارى – كلار جاب الله بولحبال) ونشرت بشكل دورى فى جريدة "المقطم" على مدى عامى ١٨٩٥ و ١٨٩٦. ويمكننا وصف "ما هنالك" بأنها تقري عن فترة "إقامة" إبراهيم المويلحى" فى "أسطنبول" ونقد لاذع للفساد السياسى وللمناخ الاجتماعى فى العاصمة العثمانية. بعد نشر هذه المقالات فى صورة كتاب عام ١٨٩٦ تلقى الكاتب أمرًا من "أسطنبول" بإرسال كل نسخ هذا الكتاب إلى السلطان العثمانية لمصادرتها وإتلافها. وقد امتثل للأمر، غير أنه كان من الطبيعى أن يحتفظ لنفسه ببعض النسخ.

يحمل المؤلف الرئيسى الآخر لإبراهيم المويلحى عنوان "مرآة العالم" أو "حديث موسى بن عصام" (وهو أحد موضوعى أطروحة السنة التمهيدية المقدمة من السيدة الدكتورة مارى – كلار جاب الله بولحبال) وقد نشر إبراهيم هذا العمل فيما بين عامى ١٨٩٩ و ١٩٠٠ فى عدة أعداد من دوريته الأسبوعية الأسرية "مصباح الشرق" التى أسسها فى القاهرة عام ١٨٩٨. الواقع أن "إبراهيم" الأب هو الذى فتح مجال الكتابة أمام نجله "محمد". مما ساعده على تأليف أعظم أعماله الروائية: "فترة من الزمان" ونشرها فى عدة أعداد مسلسلاً، "الكتاب الشهير" حيث عيسى بن هشام الذى طرح بالأسواق للمرة الأولى عام ١٩٠٧.

ويعتبر قيام الدكتورة/ "ماري – كلار جاب الله بولحبال" بإعادة طبع الأعمال الكاملة لإبراهيم المويلحي ودراستها لها بالرجوع إلى أصول دورية "مصباح الشرق" نفسها: إنجاز يمكننا إضافته إلى أعمال إبراهيم الكاملة التي نشرت أخيرًا بالقاهرة عام ٢٠٠٧.

بفضل الجهد البحثي الذي قامت به السيدة الدكتورة/ "ماري – كلار جاب الله بولحبال" والذي نرى نتاجه دور ابنه (الأكثر شهرة) ورؤية الاثنين معا لا كمشاركين فقط مهمين/ في تأسيس تقليد سردي حديث مصري وعربي، وإنما مبدعين أيضًا لمرايا تعكس المشاعر الوطنية والحقائق الاجتماعية والثقافية الخاصة بالعصر: وهي عناصر أساسية في تطور الحركة الروائية العربية التي عرفت درجة نضج أعلى لاحقا.

روجر آلن

مقدمة عامة

يعادل الشرق الصحراء فى غموضها. الشرق كلمة سحرية مضيئة ومظلمة فى آن معا. الشرق ليس إلا مصر، هذا البلد الساحر، أرض الفراعنة وموسى والنيل[1].

الشرق، مصر، النيل وموسى، أماكن وأسماء غامضة، ساحرة ومضيئة يعلمنا إياها آداب العالم وتاريخه منذ آلاف السنين، ويروى لنا عنها إبراهيم المويلحى بين خطاب صحفى مرجعى وخطاب سردى روائي. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الرجل ما زال بمشقة معروفا بل مجهولا. فى الحقيقة ليس الرجل فى حد ذاته الذى يهمنا؛ وإنما كتاباته التى تشكل جزءا من أدب النهضة الثقافية العربية فى القرن التاسع عشر. الواقع أن هذه الكتابات تم تحريرها خلال السنوات ١٨٧٠-١٩٠٥ أى خلال عصر النهضة، وبالتالى لا نملك إلا السؤال عن الأسباب التى أبقت كتابات إبراهيم المويلحى فى الظل خاصة إذا ما كنا نعلم إلى أى مدى وصلت شهرة ابنه محمد المويلحى باعتباره أول روائى عربى بفضل مقاماته المنشورة تباعا فى جريدة أبيه إبراهيم المويلحي.

نظرا لشهرة روايات الابن وللمعلومات النذيرة والمبعثرة المتناقضة والأسطورية الخاصة بالأب وكتاباته فقد ثارت تساؤلات عديدة، على سبيل المثال لماذا تغيب المرجعية عن كتابات هذا الرجل الذى عاش خلال أهم سنوات النهضة العربية فى القرن التاسع عشر؟ إلى أى الأنواع الأدبية ترجع هذه الكتابات وعمَّ تتحدث؟ إذا ما استثنينا الرواية الشهيرة للابن "فترة من الزمن" التى كانت صحيفة "مصباح الشرق" تنشرها أى دور وأى مكانة تحتلها هذه الدورية فى داخل المجال النهضوى وخاصة الصحفي؟ هل كان لإبراهيم المويلحى هو أيضا نص روائى

(١) بارتيليمى لانفان Lenfant، Barthèlèm كما ذكره رفعت السعيد، ٢٠٠٨، ص٢٨.

نموذجي منشور فى هيئة حلقات ومنتسب إلى المقامات؟ إذا كان الرد بالإيجاب هل نشره فى صحيفته أم فى صحيفة أخرى ولمَ بقى مجهولا حتى القرن الحادى والعشرين؟ ماذا كان يحوى وهل كانت تجمعه صلة بمقامات الابن؟ إذا ما نحينا صحيفة "مصباح الشرق" جانبا هل كان لإبراهيم المويلحى صحف أخرى أو مقالات منشورة فى دوريات أخرى فى ذلك الوقت؟

إذا كان الرد بالإيجاب فما هذه الدوريات؟ وما الثيمات الغالبة فيها وتأثيراتها على السياق النهضوى آنذاك؟ وما إجمالا العلاقات التى أقامها إبراهيم المويلحى مع معاصريه النهضويين؟ وبأى شيء شارك فى النهضة؟ للرد على هذه الأسئلة من الضرورى بادئ ذى بدء التعرف على سياق القرن التاسع عشر فى مصر، البلد الذى شهد تحرير معظم كتابات إبراهيم حتى يمكننا فهم ماهية النهضة فى هذا العصر. الواقع أن هذا يسمح بفهم أفضل لكل خطاب وجهه إبراهيم الذى كان طبيعيًا أن يكون انعكاسا للأحداث الفورية. لكن هذا لم يكن كل شيء، فكثيرا ما كان خطابه يستدعى الماضى السحيق والقديم والقريب.

بعد الإلمام بهذه السياقات العامة تطلب الأمر عمل إثبات حالة لما تم من أبحاث عن إبراهيم المويلحى وعن كتاباته، وذلك حتى يمكن الفرز والفصل بين ما يتقاطع وما يرجع للمشكوك فيه أو لِنقَل: الأسطوري؛ وإنما أيضا حتى يكون ممكنا معرفة ما تم إنجازه من أبحاث حول هذا الموضوع وما يُنتوى عمله ويكون من الصائب دراسته فى الآونة الراهنة.

سمح لنا العمل الميدانى خلال السنوات الخمس المنصرمة بعمل هذا الإثبات للوضع، ودراسة كتابات إبراهيم الممكن مراجعتها حتى الآن من وجهتى النظر النقدية والتحليلية، هذا بالإضافة إلى عمل حصر للأبحاث التى تم عملها عنه. بفضل هذه المرحلة سيتضح مسار الرجل ويتم إحصاء كتاباته. وهنا تجد التساؤلات الأولى إجابات، أو تصبح الإجابات الموجودة أكثر وضوحا، بينما تعرف بعض من الإجابات المتاحة زيادات. خلال هذه المرحلة نتعرف على نصوص غير منشورة؛ مثل مقامات إبراهيم "مرآة العالم" التى نشرت هى الأخرى فى صورة حلقات

مسلسلة فى صحيفته "مصباح الشرق"، ومثل "ما هنالك" التى ظهرت فى هيئة كتاب بعد أن نشرت مسلسلة فى الصحافة الموالية للبريطانيين. محتوى هذه الرواية الأخيرة متفرد من وجهة نظر التاريخ العثماني.

نكتشف فى هذه المرحلة صداقته بالخديو إسماعيل ومشاركته عن بعد فى الثورة العرابية، ووظائفه فى الإدارة العليا بداية فى مصر، ثم فى اسطنبول إلى جانب طرده من فرنسا عام ١٨٨٤ وأحداث أخرى كثيرة. ونتساءل هنا من جديد ليس بتلقائية؛ وإنما بشرعية "لم لم يكن موضع دراسة وبحث؟ لم بقيت كتاباته فى غياهب النسيان"؟ خاصة وأنه طبقا لبعض هذه الإيضاحات نفهم أنه لم يكن رجلا عاديا، وأنه قد شغل مناصب سياسية مرموقة، وأنه شارك فى تاريخ عصره من خلال كتاباته المتعددة، ونتيقن أن كتاباته كانت تنشر دوما فى بادئ الأمر فى صحف، تخصه أو يملكها غيره، ونستنتج من ذلك أن الصحافة كانت وسيلة نشر أساسية. ويثور هنا سؤال عن الدور الذى لعبته على مدى هذا العصر الذى توافق زمنيا مع النهضة.

تساؤلات تحتية عدة تفرض هنا نفسها من جديد وتوجه أسلوب تناولنا لكتابات إبراهيم المويلحى (المجلد الأول). كبداية وقبل أن نخوض فى التحليل كان يتوجب عمل فحص دقيق لصحيفة "مصباح الشرق" (المجلد الثاني)؛ وذلك حتى يتم حصر كافة الثيمات الغالبة والثانوية التى عالجها إبراهيم.

بعد التقييم والتصنيف وفق المعايير الصحفية اتضح أن الكتابات المويليحية (الخاصة بإبراهيم) تتناول جميعها موضوعا واحدا وبدقة أكبر الإشكاليات والتساؤلات الخاصة به: وهو النهضة العربية.

ظهرت لنا علاقات تربط بين صحف وبعضها وبين صحفيى العصر أى بين النهضويين، بغض النظر عن الأسئلة غير المباشرة الخاصة بمستقبل الشرق العربى والإسلامى ناقش إبراهيم تساؤلات عديدة ومحصلات كثيرة متعلقة بمستقبل الأمة والإمبراطورية العثمانية ومصر. كانت كل هذه الموضوعات تشكل محور نقاش

مسلسل فى حلقات ويتوجه بها إلى جمهور بعينه: هو الأمة. أخذت هذه الأنواع من الخطاب أشكالا وصورا عدة؛ فمنها المقالات الصحفية ومنها الحكايات المسلسلة وإن كانت على غير الهيئة التى نعرفها حاليا. التقت الأنواع الصحفية والأدبية واللغة العربية بكافة مستوياتها والثيمات المعاصرة لتخرج إلى الوجود أنواعا جديدة.

أنساب من بين الصحافة المكتوبة والأدب تاريخ كل من الأدب والصحافة العربيين الحديثين وهى المجالات التى بنيت عليها هذه الدراسة. والتساؤل هنا على أى أنواع أدبية تغذت هذه الصحافة المكتوبة العربية الوليدة وأى أنواع أدبية جديدة ساهمت هذه الصحافة فى نشأتها؟ أى علاقة ربطت بين الصحافة العربية الحديثة والأدب العربى فى الفترة ذاتها؟ كيف تفاعل كل منهما مع الآخر؟ ما مكتسبات كل منهما من الآخر؟ وأخيرا ماذا يتبقى من هذه الصحافة الأدبية ومن أدب النهضة الدوري؟ أى أدوار نيطت بهما؟ وأى مكتسبات ومساهمات متبادلة قدماها للسيرورة النهضوية؟ هل هناك فائدة ترجى من دراستهما؟ وإذا كان الرد بالإيجاب فما تحديدا؟ هل بهما ما يحسن العلاقات بين الشرق والغرب التى كثيرا ما تناولها إبراهيم ومعاصروه؟ هل الأحداث المعاصرة فى القرن الحادى والعشرين ذات صلة بأحداث القرن التاسع عشر التى تناولتها كتابات إبراهيم بالوصف والتحليل والنقد؟ هل توجد صلة سببية بين بعض الثيمات وبعض أنواع الخطاب وبعض المواقف الماضية والحالية؛ مثل التعصب والإرهاب والاستعمار والديمقراطية، وإجمالا بين الصلات الماضية والحالية التى تربط بين الشرق والغرب؟

قبل البحث عن إجابات لكل هذه التساؤلات يتطلب الأمر معرفة محتوى الكتابات (البابان الثانى والثالث)، وكذلك الإلمام بالسياق (الباب الأول). يسمح التناول بهذه الصورة بتفهم أكبر لمحتوى الكتابات النهضوية وسياقها ونخص منها هنا الكتابات المويليحية كما أنها أكثر من ذلك، تسمح لنا بجمع العناصر الضرورية للإجابة. هذه العناصر تشكل مصدرا ملموسا يمكن ارتكازا عليه تعريف النهضة من وجهة النظر الصحفية. غير أنه للتمكن من صياغة تعريف استنادا لمادة علمية تقوم مقام "دراسة حالة" (كنموذج متناهى الصغر لنموذج أكبر) يتوجب التمكن من

رؤية النصوص المكونة لها بنوع من الاستمرارية. ذلك أنه دون ذلك لن يكون هناك تعريف؛ وإنما مجموعة من الأقوال متناثرة تتناولها كلها الشيء المراد تعريفه. هناك إذن ما يضطرنا مع تقدمنا فى التحليل النقدى والأدبى إلى إثبات وجود الاستمرارية من عدمه بين الخطب والحكايات محل الدراسة. يسمح هذا النهج بتحديد صلاحية وعدم صلاحية المعايير المستند إليها للتعريف بهذا الجزء من التاريخ النهضوى عن وجهة النظر الصحفية والأدبية.

من هنا يمكننا القول: إن دراسة إبراهيم المويلحى لا تنحى هنا منحى التراجم؛ وإنما تتناول تاريخ الأدب والصحافة المكتوبة العربيين الحديثين النهضويين فى القرن التاسع عشر. تعنى دراسة الكتابات المويلحية الإحاطة بالمجالين الإعلامى والأدبى الخاصين بالنهضة العربية. الهدف من هذه الدراسة التى تشير التساؤلات بملامحها هو فهم النهضة من منظور صحفي، فالصحافة تبدو وكأنها قد شاركت بفعالية فى هذه الحركة الاجتماعية، التى تولى مسئوليتها الكتاب الصحفيون، وأصبحوا فاعلين فيها.

استنادا إلى كل ما سبق أى صحافة نعني؟ أكانت منقولة نقلا عن الصحافة الغربية؟ إذا كان الأمر كذلك فعن أى صحافة تم النقل؟ وعلى أى المستويات؟ وهل كانت هذه الصحافة قد تبنت نموذج الحلقات المسلسلة؟ وبفرض حدوث النقل ما الجوانب المستقاة من الداخل وتلك المقتبسة من الخارج؟ وكيف ومتى صاغت لنفسها نموذجها الصحفى الخاص؟

كيف تأتى الصحافة المكتوبة العربية بين الشرق والغرب، فى حيز البين بين الذى شكل خلفية القرن التاسع عشر التعامل والتآلف مع الثمة الرئيسة للعلاقات الحضارية بين الذات والآخر؟ أى الأحداث القومية والدولية استأثرت بصفة خاصة باهتمامها؟ هل كانت حداثية أكثر منها محافظة من الناحية الأيديولوجية؟ وأخيرا أى تصورات اجتماعية وسياسية وثقافية حاولت نقلها أو لنقل فرضها على جموع القراء العرب والمسلمين؟

وإجمالا أى دور تقنى اضطلعت به ليس فقط باعتبارها وسيلة تواصل واتصال؛ ولكن باعتبارها المتحدث نيابة عن الصفوة الفكرية النهضوية فى هذه الفترة؟ للرد على كل هذه التساؤلات ستكون الصحف مصدر معلوماتنا الوحيد. بعد تحليل كل أشكال الخطاب والحكايات والأنواع الأدبية التى تحويها سيكون بإمكاننا تحديد المصطلحات الجوهرية، والأفكار الرئيسة التى تكون التعريف المأمول وتشارك فيه. وسيكون فكر إبراهيم المويلحى حينئذ حسبما يتضح لنا من درجة وثاقة صلته ومشاركته الحقيقية أو غير الحقيقية عينة ممثلة أو غير ممثلة للنهضة العربية من وجهة النظر الصحفية.

من هنا وبغض النظر عن النتائج المتوصل إليها والخاصة بإبراهيم المويلحى وكتاباته ومشاركته فى النهضة، وبفضل هذه الدراسة للحالة باعتبارها نموذجا نهضويا متناهى الصغر، فإن التاريخ الصحفى للنهضة العربية فى القرن التاسع عشر قد تم تحديد مساره؛ بهدف معرفة مكانة الصحافة العربية المكتوبة ودورها فى مسيرة التحول المجتمعى وفى تطور الأدب العربى نحو الحداثة.

الباب الأول

السياق النهضوى ونشأة الصحافة المكتوبة فى مصر فى القرن التاسع عشر

"تنتابنى دهشة متقدة أن أجد نفسى على بعد ألف ميل من وطنى، وأن أفتح حواسى شيئا فشيئا لهذه الانطباعات المبهمة عن عالم هو النقيض التام لعالمنا"[١].

---

(١) جيرار دى نرفال، ٢٠٠٤ (١٨٤٦) ص٧١.

مقدمة

"مصر هى هذا البلد الذى يجمع الثلاث قارات الأكثر ازدحاما بالسكان (...) والذى بركونه لبحرين (...) يجمع الشرق والغرب" (آدم Adam، ١٩٢٢، ١٣). وهى أحد ملتقيات العالم... جامعة للأديان، فقد بقى فيها لفترة كل من عيسى ويوسف وموسى... واصل بين الحضارات الفارسية واليونانية والرومانية والعربية والتركية التى هبطت أرضها يوما. اهتمت أوروبا بهذا الملتقى وقطعت فيها شوطا، خاصة فى القرن التاسع عشر، فيما يسمى حداثة وسباق إلى عرش الحضارات[١].

ظهر إبراهيم المويلحي[٢] وخرجت أعماله إلى الوجود فى هذه الأجواء وهذه الأزمان: فى مصر وفى القرن التاسع عشر.

---

(١) سيتم على مدى هذه الدراسة رؤية الإشكالية بين الحداثة والحضارة؛ وذلك لأنها تمثل محورا غالبا فى الخطب والحكايات فى مادتنا العلمية الصحفية والأدبية. غير أنه يتوجب إجمالا القول: إن هذين التصورين –والشعارين– كانا واجهة سياسية تبرر غزو أوروبا (التى كانت آنذاك تمثل ما نسميه الغرب) للأراضى الأجنبية. ينبغى أن نذكر أن الحداثة ليست بالضرورة متفردة وإنه يمكنها أن تظهر بأشكال ثقافية مختلفة. والأمر كذلك بالنسبة إلى الحضارة فهى لا يمكن أن تكون كونية؛ وإنما متعددة مثل التعددية الثقافية للشعوب. يرجعنا ذلك إلى مفهوم "التأخر" الذى ينبغى أن يكون نسبيا (من هنا تجب مراجعته)، إذا ما انطلقنا من فرضية أن الحضارة والحداثة كونيان فالشرق والعالمان العربى والإسلامى كانوا متأخرين؛ ولكن فقط نسبة إلى أعين الغرب ومفاهيمه. أما إذا ما انطلقنا من مبدأ أن الحضارة والحداثة متعددتان وبالتالى خاصتان بكل ثقافة هنا لن تظهرا متأخرتين. من هنا يمكننا القول: إن مفهوم التأخر نسبى طبقا للمحور الذى ينطلق منه تفكيرنا. غير أنه فى سياق القرن التاسع عشر الذى كان يطمح إلى الانتشار عالميا بسرعة فائقة كانت النظرة تعبر بالضرورة عن طريق نظرة الآخر. من هنا فقد رأى الشرق نفسه من خلال الغرب وقدّر اختلافاته قياسا على هذا الآخر؛ أى أنه تم تفسير هذه الاختلافات فى هذا الإطار وهذا السياق كنتيجة لتأخره عن أوروبا مركز العالم آنذاك.

(٢) حتى لا نثقل النص سوف نشير إلى إبراهيم المويلحى فى حالات الضرورة باسمه ولقبه أو باسمه مقرونا بتاريخ وفاته (١٩٠٦) حتى نميز بينه وبين حفيده الذى يحمل الاسم ذاته فى غير الضرورة سوف نشير إليه باسمه فقط. المؤلفون الآخرون الذين يحملون اسمه سوف تذكر أسماؤهم مقرونة بألقابهم هذا يعنى أننا سوف نقصر استعمال اسم إبراهيم على إبراهيم المويلحي. أما بالنسبة إلى ولده الأكبر محمد المويلحى فسوف نشير إليه أحيانا باسمه ولقبه وأحيانا باسمه ملحقا بتاريخ وفاته.

إدراك السياق الاجتماعى والإنسانى والتاريخى والاحتفاظ برؤية شاملة له أمر ضرورى لفهم كتابات إبراهيم. هذه الأحوال كانت بالأحرى مركزية نظرا لأن ركائزها كانت هى ذاتها ركائز النهضة[١] العربية التى تندرج الأعمال المويليحية تحتها.

يسمح فهم مداخل القرن التاسع عشر ومخارجه إذن بتحديد مداخل كتابات هذه المرحلة الزمنية ومخارجها؛ ومنها كتابات إبراهيم المويلحى ومعاصريه. لتحقيق ذلك سوف نرى عن قرب المحاولات الأولى للتغيير والتحديث وتطورها، المشجعين والمروجين لها إلى جانب المشاكل الجسيمة التى أثارتها حالة الغليان والجيشان المشعبة. بفحص المؤسسات المدنية والتعليمية والإدارية من أعلى (الدولة) والمؤسسات الصحفية والأدبية والاجتماعية من أسفل (الصفوة)؛ ستكون لدينا رؤية شاملة لعصر القرن التاسع عشر المصرى وإجمالا للنهضة. فى هذا الإطار سينصب اهتمامنا على رؤية المكان الذى احتلته الصحافة وشغله الصحفيون فى هذا المسار المغير والاجتماعي[٢]، سنولى اهتماما لتكوين الفكر السياسي، والاجتماعى، والثقافى فى مصر فى القرن التاسع عشر. ترتيبا على ذلك سنكترث بكل شيء أمكنه المساهمة بها من قريب أو بعيد فى تكوين الفكر العربى خلال هذه الفترة.

يسمح لنا ضم النتائج إلى العناصر المستقاة من مادتنا العلمية بالوصول إلى تعريف خارجى وداخلى للنهضة من وجهة النظر الصحفية. سنحاول أولا فى هذا الباب فهم وتحديد أى أماكن احتلها التعليم والترجمة والطباعة والنشر والصحافة المكتوبة فى المجتمع العربى، وأى أدوار نيطت بها فى إطار حركة النهضة هذه.

---

(١) على مدى هذه الدراسة، سوف ندرس هذه الحركة من ناحية، انطلاقا من الأبحاث التى تمت حول هذا الموضوع. ومن ناحية أخرى اعتمادا على ما تقوله لنا مادتنا العلمية فى هذا الصدد. بتقدمنا فى هذه الدارسة سنلقى معطيات متاحة وأخرى غير منشورة أو معاد نشرها من خلال مادتنا العلمية. كما سنصل فى نهاية الأمر لرؤية جديدة (تعريف) للحركة النهضوية. هذه الرؤية ستكون مفتاحا جديدا للبحث، وهو التعريف الصحفى للنهضة أو للحقل الصحفى للنهضة. ولنعلم مؤقتا أنها حركة قامت بها صفوة عربية شرعت بواسطة الكتابة فى تغيير مصير العالمين العربى والإسلامي، وهى بعبارة أخرى حركة اجتماعية وثقافية لتحسين المجتمعات المقصودة وتغييرها. كانت الصحافة كما سنرى ركيزة لهذه الكتابات؛ بل أكثر من ذلك.

(٢) أى "الخاص بالمجتمع".

وتعد المؤلفات وكتابها والاستخدام الجديد للغة العربية بالنسبة إلينا مؤشرات فيما يتعلق بالنهضة. وسنحاول اكتشاف مصادرها الوطنيـــة والغربيـــة، وســـيكون الهدف وضع اليد على العناصر ذات المنشأ الداخلي[١] وتلك التى منشؤها خارجي. فى خطوة مبدئية سنعاود النظر فى النهضة من خلال الأعمال الأدبية التى تناولتها، ونحاول بعد ذلك إعادة وضع إبراهيم المويلحى (مسيرته وكتاباته) فى سياقه؛ لكى نرى نوعية الأدب الصحفى الخاص بالنهضة من خلال كتابات إبراهيم ومعاصريه الصحفيين الفاعلين.

---

(١) أى أصولهم من البلد (مصر) أو من الإقليم (الشرق) الذى يعيشون فيه.

الفصل الأول

إرهاصات المرحلة الانتقالية: تحول وتحديث

١ - القاهرة: مظاهر المدنية فى الحياة اليومية فى مصر

لم يكن هناك ما يميز القاهرة فى مطلع القرن التاسع عشر من ناحية المدنية طبقا لما جاء به Luthi ليس ذلك وحسب، بل كانت هذه المدنية تثير خوف السائحين وذعرهم[١]. كانت الأزبكية -مقر باعة الكتب القديمة حاليا[٢]- مكانا مهجورا به بحيرة ينفر المارة من رائحتها الكريهة. أما الأزقة الضيقة التى تعج بالحيوانات الضالة فقد كانت تضفى على القاهرة هالة من الرعب تجعلها أشبه بمدينة الأشباح.

حدثت بعد ذلك بعض التغييرات بداياتها مع بونابرت (١٧٩٨ - ١٨٠١)، ومراحل أخرى منها خلال حكم محمد على وخلفائه من بعده (١٨٠٥ - ١٨٤٨). ففى أثناء الحملة الفرنسية على مصر قام الفرنسيون ببعض أعمال التمدين، والتحضر؛ كإلغاء الأبواب الداخلية للمدينة، وتعبيد الطرق، وتقليص مساحة ترعة الأزبكية، بالإضافة إلى زرع الأشجار، ومقاومة الأوبئة عن طريق تأسيس هيئة لنظافة الطرق العامة وتطهيرها. من هنا يمكن القول: إن القاهرة آنذاك لم تكن تملك المقومات التى يملكها أى مجتمع يتصف "بالعصرية" فى أوروبا. فى إطار هذه الجهود لاستعادة المستوى اللائق اجتماعيا أصدر محمد على عام ١٨١٦ أمرا بهدم[٣] كل المنازل القديمة المتهالكة. وفى العام التالى طلب الباشا[٤]. أن يقوم

---

(١) لوتى luthi 2003، ص٥٠.

(٢) بالإضافة إلى باعة جائلين غير أنها فى الأساس لباعة الكتب القديمة.

(٣) راجع لوتى luthi 2003 ص٥١.

(٤) سنستخدم لاحقا هذا اللقب للإشارة إلى محمد على باشا.

السكان (مواطنو المستقبل الذين يتم إعدادهم) بتنظيف الأماكن الواقعة أمام مداخل منازلهم، وأن يتم تأسيس مرفق لتنظيف الطرق. بهذه القرارات بدأ تكوين مجتمع عام فى القاهرة، على الرغم من كل ما سبق فقد كان لمصر جاذبيتها كما قال بعض المستشرقين والرحالة، ومنهم شامبليون الذى كتب عن مصر:

"ما إن جاوزنا هذا الباب (باب الأمراء) حتى تراءت لأنظارنا ساحة القاهرة الكبرى المسماة بالأزبكية. غمرنا شعور رائع. كان المكان أشبه بمتوازى أضلاع، مساحته شاسعة، محاطا بمنازل عالية تم تشييدها بعناية. بعض هذه المنازل كان جديدا؛ ومنها ذلك الذى يقطنه محمد بك دفتردار صهر الباشا، الذى تم بناؤه فى موقع مركز قيادة الجيش الفرنسى نفسه. القاهرة مدينة وبحق عظيمة الحجم. قليلة هى الشوارع التى لا تجد فيها بيوتا مشيدة (على الأقل الدور الأرضى منها) بأحجار جميلة ضخمة وأبوابا منحوتة ومزخرفة[١]".

أما جيرار دى نرفال Gerard de Nerval الذى مكث فى مصر بضعة أشهر ما بين شهرى يناير ومايو من عام ١٨٤٣، فقد كتب وصفا لها لم ينشره إلا بعد أن زار سوريا وقبرص ورودس وأزمير والقسطنطينية. وبعودته إلى فرنسا فى أكتوبر من عام ١٨٤٣ عاد ليواصل نشاطه الصحفى، وبدأ عام ١٨٤٦ فى نشر قصة رحلته إلى الشرق فى مجلة: Revue des Deux Mondes ولم يتم نشرها فى مجلدات إلا عام ١٨٤٨ على الأقل، تلك التى تحمل عنوان: "امرأة من القاهرة".

يصف لنا هذا النص القاهرة إبان هذه الفترة مبرزا إلى أى مدى تعد أركانها مثيرة ومحملة بعمق التاريخ، يتناول الجزء الثالث الذى يحمل عنوان: "الحريم" الماضى والمستقبل، وهو يقول موجها لنا الحديث:

---

(١) لوتى luthi 2003 ص ٥١.

"لم أندم على الاستقرار لفترة فى القاهرة، وعلى سلوكى كمواطن منتمٍ لهـذه المدينة؛ فهى فى اعتقادى الطريقة الوحيدة لفهمها وحبها. عادة ما لا يعطـى الرحالة لأنفسهم فسحة من الوقت لمعرفة دخائـل الحيـاة، والولـوج فـى جمالياتها، وذكرياتها، وما يتباين ويتناقض فيها. القاهرة هى المدينة الـشرقية الوحيدة التى يمكننا فيها رؤية طبقات متراكبة من عصور تاريخية عديدة"[١].

يختم جيرار دى نرفال بعد ذلك سطوره ملخصا ليس فقط تجربته الشخصية؛ ولكن أيضا الطابع العصرى لتلك المدينة بالغة الروعة والسحر:

" أشعر بالأسى لمغادرتى القاهرة؛ تلك المدينة العتيقة التى وجدت فيهـا الآثـار الأخيرة للنبوغ العربى، التى لم تختلف ألبتة عما كنت قد كونته عنها من أفكـار عبـر الحكايات والتقاليد الشرقية. كثيرا ما رأيتها فى أحلام صباى حتى خيل إلى أنى زرتهـا من قبل دون أن أعرف تحديدا متى. لقد كنت أعيد بناء القاهرة خاصة وسط الأحيـاء المهجورة والمساجد الآيلة للسقوط، وكان يبدو لى وكأنى أطأ بقدمى الآثار نفسها التـى خلفتها سابقا. كنت أذهب وأحدث نفسى قائلا: إذا جاوزت هذا الحائط أو مررت بهـذا الباب سوف أرى كذا، وبالفعل أجد ما كنت أتوقعه.. أطلالا.. ولكن حقيقة.

دعونا ننحى ذلك جانبا.. مدينة القاهرة هذه ترقد تحت الرمـاد والثـرى، هزمها العقل والتطور الحديثان، كما هزمها الموت... هذا التقديس للموت يعد من السمات الأزلية لمصر، فهو على الأقل يساعد فى حماية تاريخها القديم الباهر ونقله إلى العالم"[٢].

استمرت الإصلاحات المدنية إذن، فتم إغلاق المقابر الداخلية، مثـل مقـابر الأزبكية؛ وذلك لأسباب وقائية. كما تمت توسعة بعض الأزقـة، وإعـادة طـلاء واجهات المتاجر والمنازل باللون الأبيض؛ امتثالا لرأى الباشا، ولأسـباب وقائيـة

---

(١) جيراردى نرفال Gerard de Nerval ٢٠٠٤ (١٨٤٦) ص١٢٨.
(٢) جيراردى نرفال Gerard de Nerval ٢٠٠٤ (١٨٤٦) الصفحات ١٩٧ - ١٩٨.

أيضا. ووضعت أنظمة لتنقية المياه، وأصبحت "بولاق" الترعة التى تحفها الأرصفة والمنازل الجميلة، وعديد من المقاهى (Luthi 2003 53) أما فيما يخص شكل الحياة فى القاهرة أحيلكم إلى أمبير Ampere الذى مر بالقاهرة عام ١٨٤٦ الذى قال:

"[...] ليس هناك ما هو أكثر ازدحاما من شوارع القاهرة.. لكم أن تتخيلوا ثلاثين ألف شخص يركضون، أو يمتطون حمرهم فى شوارع ضيقة ملتوية. والشخص الأجنبى الذى يمشى لأول مرة فى شوارع القاهرة يكون ضحية القلق المستمر، والانزعاج من صراخ سائقى الحمير والمارة. مشدود الذهن من فرط حرصه على عدم دهس النساء والأطفال، الذين يفترشون الأرض، غير عابئين بالصخب المحيط بهم، وأكفاء البصر الذين يجولون على غير هدى. الأجنبى الذى يقطع للمرة الأولى شوارع القاهرة فريسة لقلق داهم مستمر؛ من فقدان بعض من ملابسه، أو نفسه فى هذا الخضم الذى يلفه ويصطدم به من كل جانب، يجتاحه شعور أن تيارا يجرفه، غير أننا سرعان ما نألف كل شيء؛ بل نجده مسليا؛ حتى إنه ليخيل لنا فى كل مرة نخرج فيها للنزهة أننا فى ميدان سباق أو ضحية هجمة سلاح الفرسان"(١).

بعد الإنجازات التى حققها محمد على، لم يكترث خلفاؤه الثلاثة(٢) من بعده بالمدينة باستثناء عباس الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤)، الذى قام بإنشاء حى جديد: يسمى "العباسية" فى مكان كان فى الأصل قفرا وغير مطروق. بنى عباس فيه ثكنات جيشه، وشجع المكان على الانتقال إليه، والسكنى فيه؛ وذلك بمنحهم أرضا فيه، ثم جاء إسماعيل (١٨٣٠ - ١٨٩٥) الذى كان نائبا للخديو فى الفترة من

---

(١) لوتى luthi 2003 ص٥٣.
(٢) ابراهيم (١٧٨٩ - ١٨٤٨) حكم عام ١٨٤٨.
عباس الأول (١٨١٦ - ١٨٥٤) حكم فى الفترة من عام ١٨١٦ وحتى عام ١٨٥٤.
محمد سعيد (١٨٢٢ - ١٨٦٣) حكم فى الفترة من عام ١٨٥٤ إلى عام ١٨٦٣.

عام ١٨٦٣ إلى عام ١٨٦٧، ثم الخديو من عام ١٨٦٧ إلى عام ١٨٧٩. شهد عاما ١٨٦٣ و١٨٦٧ أحداثا مهمة؛ ففي أولهما تم تأسيس المصرف العثماني، أما في ثانيهما فقد حصل إسماعيل من السلطان العثماني عبد العزيز الذى حكم في الفترة من عام ١٨٦١ وحتى عام ١٨٧٦ على لقب "خديو"[١]. وقد رفعه الأخير إلى منصب يلى السلطان مباشرة ويسبق الوزير. ما يؤخذ على هذا الأمر الذى كان يضمن ليس فقط الوصول للعرش فى مصر؛ وإنما توريثه لخلفه أيضا، كانت الضريبة التى يجب عليه تأديتها للسلطة المركزية العثمانية. هذا لا يعنى أنه لم يكن يدفعها فى السابق؛ ولكن أن ثمن الاستقلال كان يجاوز الحد المعقول: فقد كان يتراوح بين ثمانين ألف وخمسمائة ألف صرة نقود (وهو ما يعادل مبلغا بين ١٠ و١٨ مليونا من الفرنكات)[٢]، فى الفترة ذاتها ورث إسماعيل مشروع شق قناة السويس، هذا المشروع الذى كلفه مبالغ طائلة. بالإضافة إلى هذه النفقات، هناك بنود أخرى تتم إضافتها كلما دخل الخديو فى مشاريع اقتصادية وسياسية مختلفة.

شابه إسماعيل جده محمد على فى حلمه بمصر رغدة مزدهرة ومعروفة عالميا. ونظرا لرغبته العارمة فى إعطاء صورة متحضرة [...] لم يكن- طبقا لما أورده لوتى (Luthi 1998 13)- يكترث النفقات وهذا ما أدى إلى خسارته.

استغل الأوروبيون هذه الثغرة حتى عزلوه من منصبه عام ١٨٧٩، ووضعوا مصر تحت الحماية البريطانية عسكريا، ثم سياسيا، وذلك فى عام ١٨٨٢. وأيا ما كان الأمر فإن إسماعيل قد ساهم[٣] بشكل فعال فى تطور مصر لا سيما على

(١) أصل الكلمة فارسى ومعناه: السيد، الأمير، العاهل، راجع لويس Lewis الصفحتان ٨٤ – ٨٥ وهوامش ٢١ فى الصفحتين ٢٠٣ – ٢٠٤.

(٢) لفرنك الجديد، راجع لوتى Luthi، ١٩٩٨ ص١١.

(٣) يمكن الإلمام بالكثير عن فترة حكمه بمراجعة الكتب المذكورة فى قائمة المراجع؛ ومنها:

Sabry Moustapha ،1934 ،Episode de la question Afrique: L'Empire egyptien sous Ismail et l'ingerence anglo – Franc.aise .

صبرى مصطفى ١٩٣٤: فصل من القضية الإفريقية: الإمبراطورية المصرية تحت حكم إسماعيل والتدخل الإنكليزي. الفرنسى – باريس Geuthner ص ٥٧٠ =

المستويات؛ المدنى، والثقافى، والاقتصادى، والإدارى، ولهذا كله وكما جرت العادة، تم إطلاق اسم الخديو على مدينة: الإسماعيلية. بدأت الأعمال عام ١٨٦٨، ولم تنته إلا فى عام ١٩٠٠[١]. كانت فكرة إسماعيل تقوم على إنشاء حى على الطراز الفرنسى الهوسمانى (طبقا لتصميمات هوسمان)، وهو الذى طالما أحب رحلاته إلى فرنسا فى عامى ١٨٤٤ و١٨٦٧- إلا أن الحى لم يظهر للوجود بالصورة المرجوة. واقع الأمر أنه نظرا لضيق الوقت ونظرا لكون الهدف أن يكون جاهزا لافتتاح قناة السويس المحدد له ١٨٦٩، فإن هذا الحى قد حمل ملامح الأحياء الإيطالية بأبنيتها العالية أكثر منه حيا فرنسيا.

رأت القاهرة نفسها مزدانة بشوارع واسعة تحفها الأشجار الباسقة، أحياؤها جديدة، ومحلاتها فاخرة وذاخرة للتجارة. وبدأت المقاهى تستقبل الأوروبيين والنخبة المصرية التى تعتمر الطربوش[٢]. فى غطاء رءوسهم دلالة على انتمائهم، ووضعهم الاجتماعي. فى عام ١٨٦٩ بدأ رصف المحاور الأساسية وبناء الأرصفة. أما فى عام ١٩٠٣ فقد استلزم ظهور السيارات مكدمة[٣]. الشوارع. الأزقة والشوارع الجانبية بقت طويلا متربة. أبدى إسماعيل اهتماما بأمر آخر هو تطهير المياه، فاستقدم مهندسا فرنسيا يدعى ج. م كورديبه (١٧٨٥-١٨٥٩)، وضع

= Sabry Mohamed ‹1924 ‹La Genese de lesprit national egyptien 1863 – 1882.
صبرى محمد ١٩٢٤ تكوين العقل القومى المصرى ١٨٦٣ – ١٨٧٩ – باريس Association Linotypiste الصفحات ٦٦- ٩٥.

Brehier ‹1903 (1900) L'Egypte de 1798 à 1900 ‹Paris ‹Combet et Cie 334p.
بريية، ١٩٠٣ (الطبعة الأولى ١٩٠٠) "مصر من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٠" باريس، كومبيه وشركاه ص٣٣٤.

(١) راجع لوتى Luthi ١٩٩٨ ص٣٢.

(٢) لمزيد من المعلومات عن الطربوش: هو غطاء الرأس من قماش اللبد الأحمر، عثمانى الأصل، اعتمره أفندية مصر حتى الخمسينيات، ولم يعد أحد يرتديه اليوم إلا كبار السن المشتاقين للماضى وشيوخ المساجد. راجع ريزوفا Ryzova ٢٠٠٤، ص١٣٩.
أما عن الأعمال الأدبية حول ما ترمز له هذه القطعة من مكملات الملبس وعلاقتها بالهوية راجع سوليه Sole ١٩٩٥، ص٤١٢، وتايا Taia ٢٠٠٤، ص١٣٤.

(٣) تعنى هذه الكلمة تغطية الطرق بخليط من الأحجار التى تم تكسيرها؛ أى الحصباء مع الرمل والقار مضغوطة ضغطا شديدا.

تصميما للمصانع. غير أن المشروع لم يبدأ إلا بعد ذلك بكثير عام ١٨٦٥. لم يعانِ السقاءون رغم ذلك من البطالة، فقد استمرت الأحياء الراقية فى تلقى احتياجاتها. يمكننا فى نهاية الأمر من بين المشاريع الكبرى التى قام بها إسماعيل ذكر الإضاءة الليلية للشوارع اعتبارا من عام ١٨٦٥. كانت صيانة هذه الخدمات الجديدة: المياه النقية، والإضاءة، والطرق، والمستشفيات، والترام بعد ذلك بقليل، بالإضافة إلى البريد المركزى، والبنك الأهلي... موكلة إلى "التنظيم أو الطرق المدينية"؛ وبذا استقرت "حياة عامة"[١]. ولم تقف إنجازات محمد على وإسماعيل عند حد الأعمال الكبرى فى المدن، فأهدافهما لم تكن مركزة فقط على مظهر المدن؛ وإنما على نمط معيشى مدينى يتسم بالنظافة، والجمال، والتنظيم، مضافا إليها العلم، والمعرفة.

٢- وضع المعارف: التعليم الأهلي: إنشاء وتغيير وتطوير

"التعليم ضرورة كالخبز والماء"[٢].

استمر لفترة طويلة تفسير اهتمام محمد على بالتعليم بوجود أهداف عسكرية له. حقيقى أن واحدا من الأهداف الرئيسة لتأسيس التعليم فى البداية كان تكوين عسكريين من الدرجة الأولى؛ تحسبا لأى عدوان خارجى، وتدعيما لإمكانية غزو بعض البقاع فى العالم، إلا أن محمد على سرعان ما أثبت أن هذه لم تكن أهدافه الوحيدة. واقع الأمر أن واحدا من الطلاب البارزين الذين شكلوا أول "بعثة دراسية" عام ١٨٢٦[٣] كان المصلح رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣)[٤]. ابتعث

---

(١) مصطلحات تمت استعارتها من لوتى Luthi 1998 ص٣١.

(٢) ترجمة دولانو Delanoue لفقرة من كتاب فى التربية لرفاعة الطهطاوى بعنوان: "المرشد الأمين للبنات والبنين"، ١٨٧٢ ص٦٣ (راجع دولانو ١٩٨٢ ص٤٨٢ و٢٩٠).

(٣) لمزيد من المعلومات حول البعثات الدراسية فى مصر، راجع دولانو ١٩٨٢ (a) المجلد الثانى ص٣٨٧ الحاشية ١٥ وآرتان ١٨٩٠ الملحق E ص٢٠٩ وعبد الملك ١٩٦٩ ص١١٩ – ١٢٨. يزودنا عبد الملك بجداول لإجمالى عدد المبتعثين فيما بين ١٨٠٩ و١٨٤٩ طبقا لإحصائيات كتاب مختلفين عاشوا خلال هذا العصر وآخرين لاحقين لهم تناولوا الموضوع ذاته.

(٤) لعب هذا الرجل كما سنرى دورا رئيسيا فى تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر وبالتالى فى النهضة العربية، راجع دولانو، ١٩٨٢ (a) المجلد الثاني، ص٣٨٣ – ٤١٥.

لا كعسكري، فهو لم يكن منتم لهذه الفئة؛ ولكن باعتباره إماما[(١)] للبعثة يضطلع بمسئولية تذكير الطلاب المبتعثين إلى باريس لمدة خمس سنوات[(٢)] بواجباتهم كمسلمين؛ بذا بدأ الإصلاح الكبير تحت حكم محمد على بتأسيس نظام هدفه تعليم المصريين. غير أن هذا المشروع التعليمى لم يكن يعنى كل المصريين فلم يلتحق به إلا المنتمين للأرستقراطية المصرية. أما الفلاحين فلم يؤخذوا فى الاعتبار كما سنرى، إلا فى المرحلة الثانية من هذا الإصلاح المجتمعي. كانت المسألة إذن متعلقة بالمجتمع على الرغم من أن البداية كانت من أعلاه، ولأهداف متعلقة بالدولة وبالنواحى العسكرية. وقد استحالت تدريجيًا مشروعا قوميًا[(٣)] يهدف إلى التقدم، وهو حجر الزاوية بالنسبة إلى النهضة وإلى الكتابات النهضوية، مثل المؤلف الأساسى لرفاعة الطهطاوي؛ "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز"[(٤)] الذى سنعود إليه لاحقا.

كان التعليم قسما من أقسام نظارة الحربية (...) يحمل اسم: "مجلس التعليم الأهلي" (لوتى Luthi ٢٠٠٣، ١٢٧). بدأ المشروع بافتتاح العديد من المدارس العسكرية. وفى عام ١٨٢١ ظهرت منشأة مختلفة، مدرسة غير عسكرية تقوم بتدريس علوم كاللغات (العربية والتركية والإيطالية) والرياضيات (الحساب والهندسة). وقد تلت هذه المدرسة مدارس عدة ظهرت إلى الوجود فى الفترة من عام ١٨٢٢ وحتى عام ١٨٣٦، ومنها تلك التى قام رفاعة الطهطاوى بإدارتها؛ كمدرسة اللغات (وكانت تسمى قبلا مدرسة الترجمة). أنشئت هذه المدرسة كما يذكر إلياس إلياس حنا نزولا على رغبة الباشا عام ١٨٣٥ الذى أراد ضمان "قسما للترجمة مكلفا بإمداده يوميًا بالمعلومات الأجنبية" (إلياس ١٩٩٣، ١٦) ونذكر من

---

(١) تحمل كلمة "إمامة" معنى "فى المقدمة" وقد بدأت بمن يؤم الصلاة ويقف أمام المصلين فى الصلاة. وقد عنت بعد ذلك؛ يدير ويحكم الأمة أى رئيس الدولة السياسى – الديني.

(٢) راجع دولانو، ١٩٨٢ (a) المجلد الثانى ص٣٨٧.

(٣) أى مصرى وليس بمنظور إسلامى أو عربى أو عثماني.

(٤) تمت ترجمة هذا العنوان بطريقتين:

Purification de l'or pour la description de Paris (Hallaq et Toelle 2007).

La Raffinement de l'or – Abrege de Paris (Delanoue, 1982 a ،386).

بين المنشآت الأخرى التي تم تأسيسها خلال هذه الفترة: مدرسة ضباط الصف، والمدرسة العسكرية، ومدرسة الموسيقى عام ١٨٢٧، ومدرسة الأمراء عام ١٨٢٦ ومدرسة الهندسة العسكرية، ومدرسة الكيمياء التطبيقية عام ١٨٢٩، ومدرستان للصيدلة عام ١٨٢٩ و ١٨٣١[١]، ومدرسة الفروسية عام ١٨٣١، ومدرسة الري عام ١٨٣١، ومدرسة الأمومة عامي ١٨٣١-١٨٣٢، ومدرسة الهندسة عام ١٨٣٤، ومدرسة الإدارة والترجمة عام ١٨٣٤، وهذه المدرسة لا يتوجب الخلط بينها وبين مدرسة الترجمة عام ١٨٣٥ التي ستصبح لاحقا مدرسة اللغات عام ١٨٣٦، ومدرسة الطب والتوليد عام ١٨٣٧، ومدرسة الطرق والكباري، ومدرسة الهندسة والجغرافيا[٢].

كان القائمون على التعليم خلال هذه الفترة مدرسين أجانب وأكثرهم من الفرنسيين والإيطاليين، بالإضافة إلى مدرسين مصريين من خريجي الأزهر[٣] خصيصا لتدريس اللغة العربية والقرآن، وفي ذلك سبيل لتهدئة غضب العلماء[٤] الذين كانوا يتوجسون خيفة من أمر اقتباس طرق التدريس على الكفار الغربيين. بقيت هذه المشكلة السياسية -الدينية الماسة للهوية طويلا- واحدة من المسائل الشائكة الخاصة بالنهضة التي تعرض لها العديد من النهضويين؛ مثل طه حسين

---

(١) أرتان يعقوب ١٨٩٠، الملحق C (ص ١٧٥-١٩٨). يضم هذا الملحق عدد المدارس التي تم رصدها بين ١٨٢٠ و١٨٩٠: ٩٣ مدرسة ابتدائية، ٣ مدارس إعدادية و٣٦ مدرسة عليا ومتخصصة. في هذا الملحق أيضا تحديد للإقليم وتاريخ افتتاح المدرسة وتاريخ إلغائها إلى جانب المديرين وبعض الملاحظات.

(٢) بشأن المدارس المقامة والتعليم الأهلي في مصر راجع أرتان يعقوب ١٨٩٠ وهيثورث - ديون Heyworth-Dunne ١٩٣٨ وكل المؤلفات المذكورة في هذا الفصل.

(٣) مسجد القاهرة الكبير وبالتالي أيضا مسجد العالم الإسلامي الذي يرتاده المؤمنون لتلقي التعليم الديني. كان الأزهر وما زال منذ افتتاحه عام ٩٧٢هـ جامعة العالم الإسلامي الدينية. حتى تأسيس جامعة القاهرة عام ١٩٠٨ كان الأشهر هو الجامعة الوحيدة في مصر. طرح مشروع جامعة القاهرة عام ١٩٠٢ عن طريق الصحافة وتحديدا مجلة الهلال لصاحبها جورجي زيدان. طرح بعده نقاش ونوع من الاستفتاء مختلف عما نعرفه اليوم عام ١٩٠٤ بواسطة مصطفى كامل في جريدة "اللواء" نرى من ذلك أن الصحافة كانت المركز الذي تمر منه كافة مشروعات المجتمع اصطبغ المشروع بالصبغة الرسمية عام ١٩٠٧ وتم افتتاح الجامعة في الحادي والعشرين من ديسمبر ١٩٠٨. نذكر هنا أن أول جامعة مصرية حديثة هي الجامعة الأهلية الحرة التي أنشئت في الإسكندرية عام ١٩٠٠.

(٤) "متخصصون في الدين (...) مالكو العلم (المعرفة) (Lewis, 2000.49).

(١٨٨٩-١٩٧٣). كانت المسيرة للتغيير قد بدأت بالفعل. وقد لوحظ أن عدد الكتاتيب[١] قد انخفض تدريجيًا. يقول عبد الملك لنا فى هذا الشأن: "كان نائب الملك يصرف تلاميذ المساجد والكتاتيب[٢]، التى بدأت تختفى فى الصعيد عام ١٨٣٣، فى حين كان عددها يهوى فى باقى أنحاء البلاد". (عبد الملك ١٩٦٩، ٤٧)، وقد أضاف:

"بدءا من عام ١٨٣٦ بدأت مسيرة تحديث التعليم من أعلى من المدارس المتخصصة لتهبط بعد ذلك إلى الفئتين الأدنى فى التعليم؛ وهى المدارس الإعدادية والابتدائية"[٣].

فى عام ١٨٣٦ تأسست مدارس من نوعية جديدة؛ مثل "مدرسة أركان الحرب"، كان جمهور هذه المدارس من فئتين: المصريين وغير المصريين. انقسم المصريون إلى طبقتين عربيتين: الصفوة والطبقة الدنيا[٤]. أما غير المصريين فكانوا يتكونون من المماليك، والشراكسة، واليونانيين، والأكراد، والألبان، والجيورجيين، والأتراك. كان هؤلاء يلتحقون بالمدارس العسكرية، ويتعهدون بخدمة الباشا، بينما المصريون يرتادون المدارس المدنية الخاصة[٥]؛ أى المدارس العلمية؛ كمدرسة الطب، ومدرسة الطب البيطرى، ومدرسة الهندسة، ومدرسة الإدارة.

ظهرت المدارس الابتدائية والإعدادية فى غضون عام ١٨٣٦[٦]. فى ذلك العام كانت بمصر أربع مدارس ابتدائية فقط فى مدينة القاهرة، وواحدة فى الإسكندرية، وخمس أخرى فى باقى أنحاء البلاد. كان مديرو هذه المدارس ويطلق عليهم آنذاك "نظار"[٧] جميعهم من شيوخ الأزهر[٨]. وتفسير هذه الظاهرة هو على

---

(١) للحصول على معلومات إضافية حول الموضوع راجع (Lavergne. 2007) ص٧٤-٨٩.
(٢) خطأ.
(٣) عبد الملك ١٩٦٩ ص١٤٧ حاشية ٥١.
(٤) لوتى (Luthi) ٢٠٠٣ ص١٥٩.
(٥) لوتى (Luthi) ٢٠٠٣ ص١٢٨.
(٦) راجع أرتان يعقوب ١٨٩٠ الملحق (c) ص١٧٥-٢٠٢.
(٧) كان مصطلح (ناظر) يعنى تبعا للسياق فى ذلك الوقت مدير أو رئيس أو وزير.
(٨) يعنى المصطلح بشكل عام الرفعة والسطوة فى النظام القبلى عند العرب، ثم أصبح ذلك فى النظام الدينى عند المسلمين.

ما يبدو الرغبة فى عمل نقلة هادئة من الكتاتيب القديمة التى كانت فـى طريقهـا للانقراض إلى النمط الجديد من المدارس. شهدت هذه التطورات وهذه التغييـرات العلمية انطلاقة فى عام ١٨٤٠؛ كانت المدارس بكل أنواعها قد وصل عدد الطلاب فيها إلى ما لا يقل عن تسعة آلاف طالب.

فى ذاك الوقت كانت الدولة ترعى الطلاب رعاية كاملـة؛ فعلـيهم مـأكلهم ومسكنهم، بل إنها كانت تمنحهم مبالغ مالية. ومقابل ذلك بسيط للغاية فقد كان على "أفضل العناصر الالتحاق بالمدارس الخاصة. أما الآخرون فتغذى بهـم صـفوف الموظفين فى الإدارة (Luthi, 2003, 129) وعلى الرغم من ذلك فإن النتائج لم تكـن على مستوى توقعات الباشا.

ومن ثم فقد كون "ديوان المدارس" وضع على رأسها سليمان باشـا[١] الـذى كلف بدوره "إنفنتان Enfantin"[٢]. أوضح التقرير عدة أوجه خلل أكثرها وضـوحا؛ نقص التنظيم، والبرامج الحقيقية. الواقع أنه بين حكم محمد على وحكم إسماعيل أى بين عامى ١٨٤٨ و١٨٦٣ أدت الصعوبات الاقتصادية، وافتقاد الاهتمام بالتعليم إلى نقص أعداد الملتحقين بهذه المدارس. "كان صغار السن فى أسـرة نائـب الملـك والطبقة الأرستقراطية يتلقون تعليما فى منازلهم (Luthi, 2003, 131) أما عامة الشعب فكانوا قد كفوا عن التقدم. لم يعد الاهتمام بأمر البعثات الدراسية[٣] إلا إبـان حكـم

---

(١) كان يطلق عليه "الفرنساوي" واسمه الحقيقى جوزيف إنثيلم سـيف (١٧٨٨-١٨٦٠) كـان يحمل رتبة "عقيد" فى جيش نابليون. قام بتكوين جيش محمد على باشا من جديد، وأصـبح قائدا عاما له اعتبارا من عام ١٨٣٣، ارتقى كل الدرجات الممكنة والمتخيلة وشغل الوظائف التالية: مهندس باحث فى مناجم الفحم عام ١٨١٩، كبير المعلمين بالجيش المـصرى عـام ١٨٢٠، مسئول عن تأسيس ديوان المدارس عام ١٨٢٤، حاكم Tripolitza عام ١٨٢٥، قائد عام للجيوش المصرية عام ١٨٣٣، تزوج أبناؤه وأحفاده من عائلة الباشا.

(٢) رئيس السان – سيمونيين فى مصر راجع رينييه Regnier ١٩٨٩، ص١٩٢.

(٣) مجموع الطلاب الذين تم ابتعاثهم فى الفترة من ١٨١٣ و١٨٨٨ ٥٦٦ طالبا منهم ٤٢ سافروا إبان حكم توفيق وقد احتاج الأمر ٧٠٩ ٥٥٦ جنيها مصريا لتمويل بعثتهم (أرتـان ١٨٩٠ ملحق E ٢٠٩) حول عمليات الحصر أشرنا إلى دراسة عبد الملـك ١٩٦٩؛ ص١١٩-١٢٨؛ وهى دراسة قدمت عن طريق الجداول والمقارنة بين الأرقام المقدمة من بعض معاصـرى البعثات الدراسية وتلك التى قدمها كتاب لاحقون ومنهم على سبيل المثال: رفاعة الطهطاوى وجورجى زيدان وأرتان يعقوب.. إلخ، هذه الإحـصائيات توصـلت بـشكل نهـائى إلـى الأرقام التالية:

٣١٩ طالبا بين عامى ١٨١٣ و١٨٤٨ (راجع الجدول ص١٢٠). =

الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩)، الذى أرسل نحو ١٧٢ طالبا فيما بين عامى ١٨٦٣ و١٨٦٩ فى حين أنه لم يتم ابتعاث سوى ١٩ طالبا أثناء حكم عباس، و١٤ طالبا طيلة فترة تولى سعيد[١].

على الرغم من كل الجهود السياسية والفردية لقدامى المبتعثين فإن موقف العامة بقى جامدا على ما هو عليه كما شهد بذلك بعض "المصريين قدامى أعضاء البعثات الطلابية إلى فرنسا، الذين صرحوا أنهم قد فشلوا فى وضع أقل فكرة من تلك التى تم اكتسابها فى الغرب حتى فى ذهن أقرب أصدقائهم إليهم" (Luthi, 2003, 133).

من هذا كله يتضح مدى الصعوبة التى كانت عليها عملية تنفيذ "بعثة التعليم العام" بدءا من العقد الواقع بين ١٨٤٠ و١٨٥٠. ساهم سمت آخر فى التعليم فى تعميمه. وضع المبشرون المسيحيون أساسا لتعليم اللغات ومواد كثيرة أخرى فى إطار قيل عنه علمانى مخصص للفتيات[٢] اللائى كن حتى هذه اللحظة بعيدات عن المدارس.

فى عام ١٨٤٤ أسست راهبات الإحسان (الفرع النسائى للعاذريين) أول مدرسة للفتيات. بعثات دينية عديدة مثل بعثة (الأب إتيان العاذري)، سمحت بالاتفاق مع نائب الملك المكلف بفتح مدارس كاثوليكية عام ١٨٤٠ مثل مدرسة الراعى الصالح للفتيات بالقاهرة (١٨٤٥-١٨٤٦)، أو مدرسة الفرير الجديدة بالقاهرة عام ١٨٥٤، بالإضافة إلى مدرستين أخريين للآباء الفرنسسكان (١٨٥٠-١٨٥٣)، وبيت لراهبات الفرنسسكان فى القاهرة عام ١٨٥٧، وكثير غيرها[٣] من هنا ففى عام ١٨٦٣ ولدى وصول نائب الملك إسماعيل كانت هناك ما بين ٣٢ و٤٧ مدرسة[٤]. هذا التقرير عن التعليم وعلى الرغم من أنه يترجم طفرات ملموسة فإنه يبقى مركبا ومعقدا.

= ١٩ طالبا أثناء حكم عباس (راجع الجدول ص١٢٤).
١٤ طالبا إبان حكم سعيد (راجع الجدول ص١٢٥).
وأخيرا ١٧٢ طالبا خلال حكم إسماعيل (راجع الجدول ص١٢٦).
وقد اخترنا الاستناد إلى هذه الأرقام لكونها الأكثر حضورا فى أذهان معاصرى هذه الفترة بالإضافة إلى كونها تلك التى رأى المؤرخون والباحثون مثل لوتى ودولانو اختيارها.

(١) راجع أرتان ١٨٩٠ ص٢٠٩.
(٢) راجع أرتان ١٨٩٠ ص١١٣-١٤٧ الفصل الخامس: "تعليم المرأة فى مصر".
(٣) راجع لوتى Luthi ٢٠٠٣، ص١٣٣.
(٤) راجع عبد الملك، ١٩٦٩ ص١٥٤.

"اكتشف إسماعيل لدى وصوله إلى السلطة واحدا من أكثر المواقف تعقيدا فى نشر التعليم فى مصر. فإلى جانب هذه المنشآت المدرسية الحكومية هناك كليات تمولها الأوقاف[١]، أو البلديات، ومدارس خاصة، ومنشآت فى الدور والمنازل. هل كان هناك سبيل لتناغم كل هذه الجهود التى لتبعثرها لم تكن تؤدى أى خدمات للبلد[٢]؟

هنا حدث تغيير جديد فى الموقف، فقد نحا إسماعيل للفصل بين ما هو عسكرى وما هو تعليمي. لتنفيذ ذلك عين نائب الملك على مبارك (١٨٢٤-١٨٩٣)[٣] كوزير لديوان المدارس ثلاث مرات (١٨٦٨-١٨٧٠، ١٨٧١-١٨٧٢، ١٨٧٨-١٨٧٩) وتبنى قانون ١٨٦٨ النظامى المعروف بلائحة المدارس المصرية بالقاهرة والأقاليم (أنور ١٩٦٩، ١٥٥) وبذا: "وضعت المدارس العسكرية فى ذلك العصر تحت المسئولية الحصرية لوزارة الحربية. أما كل المدارس الأخرى فقد اندرجت تحت اسم المدارس المدنية وتبعت إدارتها وزارة المعارف العمومية. وقد تم تقسيمها إلى ثلاثة أنواع تتفق ومراحل التعليم الثلاث: ابتدائية وثانوية وعالية.

"تم تنظيم التعليم الأهلى فى كل مرحلة من مراحله بواسطة مناهج وبرامج مفصلة. كما نشرت لوائح خاصة تنظم سير العمل داخل المدارس وواجبات مديريها ومعلميها وطرق تعيينهم وترقيتهم"[٤].

كما أنشئت فى عهده المدارس التى يطلق عليها "المدارس الحكومية للبنات" فيما بين عامى ١٨٧٣ و١٨٧٨ مثل المدرسة السيوفية[٥] (١٨٧٣ – ١٨٨٧)،

---

(١) وفقا للمعجم الإلكترونى لمتحف اللوفر فإن "الوقف": "وثيقة تعين مؤسسة خيرية أو منقول مرصود تم التنازل إلى الأبد عن عائده لعمل دينى خيرى أو لمنفعة عامة".
لمزيد من الإيضاح فى هذا الصدد هناك مؤلفات عدة يمكن مراجعتها، منها مقال دينواه Denoix ١٩٩٩ ص١٩-٢٦ وجارديه Gardet ١٩٨١ ص٨٢-٨٦.
"استخدام المال (الزكاة، الوقف) راجع الملحق رقم ٤ ص٣٦٣.
(٢) لوثى Luthi ١٩٩٨ ص١٣٦.
(٣) لمزيد من المعلومات عن هذا المصلح والمفكر المصرى الكبير فى القرن التاسع عشر، راجع دولانو Delanoue ١٩٨٢ ص٤٨٨-٥٦٤.
(٤) أرتين، Artin ١٨٩٠ ص٩٧ – ٩٨.
(٥) راجع أرتين ١٨٩٠ ص١٩٨. وهى المدرسة التى تبعت دائرة الأميرة والزوجة الثالثة للخديوى وألحقت بعد ذلك بإدارة الأوقاف.

والمدرسة الكلابية عام ١٨٧٥ التى كانت تضم ٢٤٤ تلميذة[١]. وقد تأسس فى فترة حكمه أيضا "مكتب أو قلم الترجمة" وعهد بإدارته إلى رفاعة الطهطاوي. من هنا نرى أن إسماعيل قد استطاع الإفادة من هؤلاء الرجال الذين كان جده محمد على قد ساهم فى تكوينهم؛ مثل: رفاعة الطهطاوى، وعلى مبارك[٢]، الذى تم تكليفه بوظائف ومهام سياسية مهمَة خاصة فى مجالى التعليم والمعارف العمومية. الواقع أنه:

"فى هذه الفترة شرع رفاعة فى الإشراف على ترجمة القانون الفرنسى، وقد شارك فى كل المجالس واللجان التى اضطلعت بمهمة تنظيم التعليم العام والمعارف العمومية وإصلاحهما. وقد أدى مع على مبارك دورا فى ترميم مدارس الحكومة وإصلاحها. وقد كلف رسميا بتوجيه القائمين على تعليم اللغة العربية من وجهة النظر التربوية وذلك فى جميع المدارس[٣]".

فى هذه الفترة تحديدا ظهرت مدارس جديدة؛ منها: مدرسة الحقوق عام ١٨٦٨، ومدرسة الزراعة (١٨٦٧ - ١٨٧٥)، ومدرسة الفنون عام ١٨٧٥، ومدرسة التلغراف عام ١٨٦٨، ومدرسة المصريات (١٨٦٩ - ١٨٧٦)، ومدرسة الصم والمكفوفين عام ١٨٧٥[٤].

---

(١) راجع لوتى Luthi، ١٩٩٨ ص١٣٨.
(٢) كان على مبارك زميل دراسة للخديو إسماعيل خلال البعثة الدراسية إلى فرنسا راجع دولانوه Delanoue، 1982 ص٤١٠ وص٥٠٢.
(٣) دولانوه ١٩٨٢ ص٤٠٩.
(٤) ارتكزنا فى تحديدنا لتواريخ افتتاح المدارس على المعطيات التى ساقها أرتين يعقوب سكرتير الدولة السابق فى ديوان وزارة المعارف العمومية المصرية. وقد كانت لنا أحيانا إضافات لمدارس لم يورد أرتين ذكرها، فقد توقفت الدراسة الخاصة به عند الأعوام ١٨٨٧- ١٨٨٩، وقد حرصنا فى هذه الحالات على ذكر مصادرنا. ونسجل هنا أن مؤلف أرتين يحوى ملاحق مهمة نلخص ما جاء بها:
الملحق (A): معطيات إحصائية. الملحق (E): عدد الطلاب.
الملحق (B): قائمة بالمديرين والوزراء. الملحق (F): قائمة الصحف والمجلات فى مصر.
الملحق (C): عدد المدارس ويشير ذلك إلى دور الصحافة الاجتماعى والسياسى والتعليمي.
الملحق (D): العلوم التى كانت تدرس بالأزهر.
وقد عثرنا على سطور بها تفسيره الشخصى لاختياره إضافة ملحق عن الصحافة المكتوبة يقول فيها: =

ندرك من كل ما سبق أن عام ١٨٦٨ كان عاما مصيريا سواء من ناحية عدد المدارس التى خرجت إلى النور، أو من حيث وضع القانون النظامى الأساسى للتعليم الذى نسوق منه هنا مقتطفات تبين التقدم الباهر لمصر فى مجال الفكر التربوي:

"يجب أن تزود التربية الطفل بالمعرفة والخير؛ وبذا يرضى الأهل عن أبنائهم، الذين سيكونون نافعين لأوطانهم. سيحاول المعلمون جهدهم القيام بمهامهم بلياقة عالية، ويسر، وأسلوب ملائم لأعمار التلاميذ وصحتهم وطباعهم. لن يتملكهم الغضب، وسوف يحجمون عن إبداء أى تصرف مبالغ فيه؛ كالسباب أو اللكمات... إلخ. وفى كلمة واحدة سيتفادون ما من شأنه التسبب فى تمرد أو عصيان. سيكون سلوكهم تجاه التلاميذ كسلوكهم تجاه أبنائهم لكونهم فى المكانة ذاتها؛ أى إنهم سيقومون بتوجيههم بالنصح موضحين لهم ما يترتب على السلوك القويم وغير القويم وفائدة الاعتياد على الفضائل بدءا من السن الغض"(١).

إبان حكم إسماعيل، ومثله فى ذلك كمثل من سبقوه، فتحت كثير من المدارس الأجنبية أبوابها؛ نسوق حتى لا نثقل النص بعضا فقط منها:

- المدارس الفرنسية: ليسيه كليبر عام ١٨٧٨، ومدرسة آباء التبشير الأفارقة فى ليون عام ١٨٧٧، ومدرسة الچيزويت عام ١٨٧٩.

- المدارس الإيطالية: أول مدرسة إيطالية خرجت إلى الوجود فى مصر كانت فى الإسكندرية عام ١٨٦٢، والثانية فى القاهرة عام ١٨٦٧.

= "فى الكتاب الذى يحمل عنوان "المعارف العمومية فى مصر" (باريس، لورو ١٨٩٠) رأيت لزاما على إدراج قائمة بالصحف والمجلات المنشورة فى مصر فى الملحق (F) تعبيرا عن الحركة الفكرية والأدبية فى هذا البلد. (أرتين يعقوب باشا - ١٩٠٦) دراسة إحصائية للصحافة المصرية (نهاية عام ١٩٠٤) ص٨٩ - نشرة المعهد المصرى - القاهرة - السلسلة الرابعة - العدد السادس ١٩٠٥ ص٨٩ - ٩٧.

(١) عبد الملك ١٩٦٩ ص١٦٢.

- المدارس اليونانية: أنشئت أول مدرسة فى الإسكندرية عام ١٨٤٤ باسم "توسيتزا"، أما إبان حكم إسماعيل فقد فتحت عام ١٨٦١ مدرسة "أبيت" أبوابها فى القاهرة.

- المدارس الأرمنية: أنشئت مدرسة بوغوسيان بالإسكندرية عام ١٨٦٥، ومدرسة كولستيان فى القاهرة؛ ولكن لاحقا عام ١٩٠٧.

- المدارس الألمانية: المدرسة العلمانية فى الزمالك عام ١٨٧٣ (وهو حى راقٍ جديد بالقاهرة).

- المدارس الإنجليزية: مدرسة ڤيكتوريا بالقاهرة عام ١٩٠١.

نشأت مؤسسات تعليمية أخرى خلال السنوات من ١٨٨٠ إلى ١٨٩٠ منها l'Alliance Française عام ١٨٨٤ بالقاهرة، التى لعبت دورا مهما فى تدريب مدرسى المدارس والمعاهد العليا. "وبالتالى فإن جامعة الأزهر[1] ومدرسة "أبيت" تستعين بالـ Alliance فى هذا المجال" (Luthi. 1998, 141). تأسست مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة فيما بين عامى ١٨٩٢ و١٩٥٠. وكانت من مهامها تكوين وتدريب رجال القانون والموظفين والإداريين ثنائيى اللغة (اللغتان الفرنسية والعربية).

فيما بين عامى ١٨٧٦ و١٩٤٩ كانت المحاكم المختلطة تلجأ إلى هذه المؤسسة؛ لانتقاء قضاتها والمشتغلين بالقانون والإداريين الذين تحتاجهم. وقد تم تأسيس أول جامعة شعبية حرة بالإسكندرية عام ١٩٠٠، وفى عام ١٩٠٧ أطلق مشروع إقامة جامعة القاهرة، التى تم افتتاحها بعد هذا التاريخ بعام واحد؛ أى عام ١٩٠٨[2]. حتى نتمكن من ترتيب الأفكار اعتمادا على الأرقام ذكرنا فى الصفحات التالية طبقا لما جاء فى كتاب أنور عبد الملك أنه لدى وصول الخديو إسماعيل إلى الحكم عام ١٨٦٣ كان يوجد ما بين ٣٢ و٤٧ مدرسة فى مصر ملتحق بها نحو تسعة آلاف تلميذ. أما لدى أرتين عام ١٨٧٥ فى نهاية حكم إسماعيل فقد كان هناك

---

(١) خطأ.

(٢) راجع فيما يتعلق بتاريخ الجامعات فى مصر، هانوتو Hanotaux ١٩٣١ ص١١ وريد Reid ١٩٩٠ -XVIII ص٢٩٦.

فى مصر ٤٧٢٤ مدرسة[١] من جميع المراحل تضم عددا من التلاميذ يصل إلـــى ١٣٢١٠٩ تلميذ. ذكر أرتين أن ازدهار المدارس كان آنذاك مذهلا. وأكثر من ذلك فبعد هذا التاريخ بنحو عشر سنوات وصل عدد المدارس إلـــى ٨٤٠٩ مدرســـة[٢] تضم فقط ١٣٣٤٤٨ تلميذا. أما المدارس الأجنبية فقد تدرج عدد التلاميذ بها مـــن ٨٩٦١ تلميذا عام ١٨٧٥ و ٢٢٧٦٤ تلميذا عام ١٨٨٧ إلى ٢٧٠٠٠ عـــام ١٩١٩، فى حين لم يتجاوز عدد التلاميذ فى المدارس الحكومية المصرية أبدا الألفين تلميذ. وهو أمر نسبيا منطقى، فالمدارس الحكومية لم يجاوز عددها تسع مـــدارس عـــام ١٨٧٥ لعدد ١٣٨٥ تلميذا. وقد وصل عددها بمشقة إلى إحدى عشرة مدرسة عـــام ١٨٨٧ تَسَعْ ١٧٧٩ تلميذا[٣].

كانت انطلاقة الشرق الأدنى نحو التقدم على هذا النحو قد بدأت وبالقدر ذاته فى مصر وسوريا ولبنان. ثلاثة أنواع من المدارس تعايشت فى المنطقة: المدارس الأهلية أو الشعبية التى يرى البعض تسميتها بالمدارس الوطنية، والمدارس الأجنبية التى كانت تصنف باعتبارها مدارس دينيـــة (ذات مرجعيـــة مـــسيحية)، وأخيـــرا المدارس الحربية. بمرور الزمن أصبحت هناك نقطة مشتركة بين هـــذه الأنـــواع الثلاثة وهى اللغة العربية.

---

(١) يضم هذا الرقم مدارس الحكومة المدنية (٩) والمدارس التى تشرف عليها الأوقاف على نمط المدارس المدنية (٢٧) ومدارس المساجد (جامعات الفقه والمؤسسات الدينية) (٣) والمدارس الابتدائية التى تديرها الأوقاف أو الأحيـــاء (٢١٤٢). أمـــا مـــدارس الجاليـــات الأجنبيـــة أو الأبرشيات فقد كان عددها (٩٣) وتضم ٨٩٦١ تلميذا.

(٢) شمل هذا الرقم بعد عشر سنوات مدارس الحكومة المدنية (١١) والمدارس التى تديرها إدارة الأوقاف على نمط المدارس المدنية (٢٨) ومدارس المساجد (جامعات الفقـــه والمؤســـسات الدينية) (٣) المدارس الابتدائية الواقعة تحت إشراف الأوقاف أو الأحيـــاء (٧١٤٢) بينمـــا كان عدد مدارس الجاليات الأجنبية أو الأبرشيات ١٩١ لعدد ٢٢٧٦٤ تلميذا. ونلاحـــظ أن عدد المدارس الابتدائية هو الذى كان يزداد بينما لم يرتفع عدد التلاميـــذ الملتحقـــين بهـــا. الواقع أنه طبقا لحـــساباتنا واعتمـــادا علـــى معطيـــات أرتـــين (١٨٩٠ ص١٥٤ – ١٥٥) فإن زيادة عدد المدارس الابتدائية كانت نسبتها ٦٥. ٥٩% بينما لم يزد عدد التلاميـــذ بهـــا إلا بنسبة ٦. ٨٤%.

(٣) أرتين، ١٨٩٠ ص١٥٤ – ١٥٥.

لعبت أديرة لبنان وسوريا و"الأزهر"[١] فى مصر و"الزيتونة" فى تونس و"القرويين" فى المغرب دورا أساسيا فى الحفاظ على اللغة العربية. أقدم المدارس هى مدرسة "عين ورقة" التى تأسست عام ١٧٨٩ فى دير مارونى بجبل لبنان[٢]. وأغلب هذه المدارس غير الحكومية نشأت أولا فى لبنان، ثم انتقلت بعد ذلك إلى مصر. باستثناء المدرسة القومية لصاحبها بطرس البستانى، فإن أغلب المؤسسات كانت تدين بالديانة المسيحية، ويعد "البستاني" الوحيد الذى بدأ عصرا جديدا فى لبنان بتأسيس مدرسة ذات طابع وطنى لا ديني.

من الملاحظ أن الشعب فى مصر عزف لفترة طويلة عن الالتحاق بالمدارس الأجنبية، وأن الملتحقين بها لم يكونوا من أديان متعددة مثل سوريا ولبنان. كان الناس يترددون فى إلحاق أبنائهم بهذه المدارس مثلما يترددون فى وضعهم فى المدارس العسكرية؛ خشية إرسالهم إلى ميادين القتال. السبب الآخر وراء هذه الظاهرة هو لغة التدريس أو اللغة التى تتم دراستها. فى المؤسسات الأجنبية كان التعليم يتم بلغة الأمة التى تنتمى إليها المؤسسة، وبالتالى فقد كان هناك ترويج للغات الأجنبية، وفى المقابل إهمال للغة العربية[٣]؛ "لذا فقد أحجم المتحدثون بالعربية –وهى بالطبع الأغلبية الوطنية– عن إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس". (لوتى Luthi ١٩٩٨، ١٤٠). هذه المشكلة كانت أكثر تجذرا مما تبدو عليه، وقد استمرت فى التواجد حتى نهاية القرن التاسع عشر. وقد رأى يعقوب أرتين "سكرتير الدولة بوزارة المعارف العمومية" أن هذه المدارس الأجنبية ضعيفة التأثير على الشعب، ولا يتأتى لها ذلك إن حدث إلا كرد فعل فقط. (لوتى، ١٩٩٨، ١٤٠-١٤١). واحدة من دلائل هذه الظاهرة يمكن تبينها فى صحف ذلك العصر ومجلاته. فقد أوضح رشيد على سبيل المثال فى مجلته "المنار" أنه لا يوجد ثمة خطر

(١) بشأن هذه المؤسسة، راجع أرتين، ١٨٩٠ ص٣٤ – ٦٨.
(٢) إلياس، ٢٠٠٣ ص٢٠.
(٣) بينما فى المدارس المصرية كانت يدرس إلى جانب اللغة العربية الحساب والقرآن والتاريخ والهندسة بالإضافة إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية (أرتين ١٨٩٠، ٩٩).

فى إلحاق الأبناء بهذه المدارس الأجنبية[١]. من هنا فقد أخذ أسلوب تعلم الأمــة[٢] بالوصول مباشرة إلى المعارف فى التشكل تدريجيا فى مصر والعالم العربي.

بالنظر إلى نوعية التقدم المتمناة فى آن واحـد مـن الـسلطات الـسياسية المصرية، ومن فئة معينة من المستشرقين، ومن الوسطيين الأوروبيين فقد كان أمام مصر[٣] الكثير من الجهد لتلحق بركب الحضارات.

على الرغم من هذه الإمبريالية الغربية فإن وصول المـدارس الـنمط ذاتـه الأوروبى إلى مصر قد شحذ الهمم ليس فقط للتعلـيم؛ ولكـن لارتيـاد المكتبـات والمتاحف وشراء الكتب. الحقيقة أن إسماعيل اهتم اهتماما بالغا بالمتاحف حتى إنه يعد أساس وجودها فى مصر[٤]. فقد أقام على سبيل المثال متحف الآثار المصرية الذى افتتح عام ١٨٦٣، ومتحف الفن العربى الذى رغم ما بذله من جهد لإقامته لم ير النور إلا عام ١٩٠٣، وقد استمرت المبادرات بعده؛ ففى عام ١٨٩١ أقيم متحف

---

(١) إلياس، ١٩٩٣.

(٢) راجع مصطلحات nation,nationalismé,nationalité و patriotisme و patrie فى الملحق الـسادس: "قاموس لغة الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر". كـان مـصطلحا "قـوم" و"وطـن" ومشتقاتهما أساسيين وساهما فى تكوين فكر النهضويين وخطابهم السياسي. كانت معانيهمـا مركبة وبالغة الحساسية، غير أنهما كان يمكن سماعهما خـارج كـل النقاشـات العلميـة (التاريخية والألسنية) تارة بمعنى حزب وتارة أخرى بمعنى "قبيلـة"، "جماعـة أو شـعب". لمزيد من العناصر راجع المؤلفات الببلوجرافية الخاصة بالقومية العربية والفـصول ٢، ٣، ٨، و ٤.

(٣) راجع الملحق السادس: "قاموس لغة الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر" لنعـى أولا أن كلمة "أمة" تعنى طبقا للسياق جماعة أو شعب. وهى لفظة ترجع إلـى مـا قبـل الإسـلام، أصولها كلمة Lumiya من جنوب الجزيرة العربية.
ذكرت هذه الكلمة عدة مرات فى القرآن وتغير معناها فى كل مرة طبقا للـسياق مـن هـذه المعانى هناك المعنى الإثنى الذى يذكر بأمة العرب (جماعة) والمعنى الدينى الذى يشير إلى الأمة الإسلامية. تم بعد ذلك تبنى الكلمة للدلالة على الأمة العربية (لويس ١٩٨٨، ٦٩).
لوى جارديه Louis Gardet أسماها "المدينة الإسلامية" تلك التى فى رأى البير حورانى تملـك طاقة كونية (١٩٩١، ٣). وهى تمثل من منظـور لـورانس Laurens "النمـوذج الجمـاعى والمشترك الذى يصل فى النهاية إلى فكرة الأمة فى الوقت ذاته الذى يصل فيه إلـى فكـرة الجماعة".

(٤) راجع لوتى Luthi ١٩٩٨ ص٥٦.

"الإثيناوم" غير أنه لم يكتمل إلا عام ١٨٩٢ ليصبح المتحف اليونانى الروماني. أما المكتبات فبدايتها مع إنشاء "المكتبة الخديوية عام ١٨٧٠ بناء على أمر الخديو إسماعيل؛ بغية الحفاظ على التراث الثقافي. فقد تم جمع المؤلفات المتناثرة فى كافة المكتبات والمساجد لتوضع بها. "وقد وصل عدد المجلدات فى بداية القرن إلى ٦٤٠٠٠ مؤلف. أما القراء فقد وصل عددهم عام ١٩٠٥ إلى أربعة عشر قارئ وارتفع إلى ١٧٠٠٠ عام ١٩٠٦" (لوتى ١٩٩٨، ٥٩) انضمت إلى هذه المكتبة مكتبات أخرى؛ منها مكتبة الجمعية الخديوية الجغرافية ١٨٧٥، ومكتبة المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية IFAO (١٨٨١)، ومكتبة الآباء اليسوعيين (الجيزويت) بالفجالة عام ١٨٨٦، ومكتبة جمعية الاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع عام ١٩٠٩، ومكتبات أخرى. ولا نغفل أخيرا ذكر المكتبة البلدية بالإسكندرية التى أنشئت عام ١٨٩٢، ومكتبة إدارة الحجر الصحى، ومكتبة جمعية الآثار بالإسكندرية، ومكتبة محكمة الاستئناف المختلطة عام ١٨٧٦.

احتلت الجمعيات العلمية بالتالى مكانة متميزة فى الحقلين الثقافى والفكرى الذين كانا قد بدءا فى التكون فى هذا العصر. من هذه الجمعيات ما ذكرناه ونحن نشير إلى مكتباتها التى ساهمت فى تيسير الوصول إلى الكتاب ومناقشته.

من بين أكثر المكتبات عراقة نذكر مكتبة المجمع العلمى المصرى عام ١٨٥٩، التى نقلت إلى القاهرة عام ١٨٨٠. كان بهذا المجمع خمسون عضوا وضعوا لأنفسهم منه هدفا، وهو تطوير ودفع أنوار الفكر فى مصر[١]. إبان حكم إسماعيل وتحديدا عام ١٨٧٥. أقيمت "الجمعية الخديوية الجغرافية" وكانت مهمتها تمييز المعرفة بالقارة الإفريقية وتطويرها على أفضل وجه. تأسس "المعهد الفرنسى للآثار الشرقية" (IFAO) بالقاهرة، واهتم بعلمى الآثار وفقه اللغة قدر اهتمامه بتاريخ العالم. من هنا فقد تزايدت هذه الجمعيات العلمية ونشأت على سبيل المثال جمعية العلوم الطبيعية فى الإسكندرية عام ١٩٠٨، والجمعيات الفنية والأدبية والأثرية وتلك الخاصة بالمسكوكات عام ١٩٦١.

---

(١) راجع لوتى Luthi 1998 ص١٤٤.

ترأس هذه الجمعيات مديرون أوروبيون أغلبهم من الفرنسيين والإيطاليين والألمان وعدد قليل من الإنجليز[١]. هؤلاء الرجال والنساء سعوا لمعرفة أفضل ليس فقط بمصر؛ وإنما على نطاق أوسع بالشرق وإفريقيا. بغض النظر عن المؤسسات العسكرية والسياسية التى تخرج عن نطاق حديثنا هنا، التى على الرغم من ذلك فإننا لا نغفل مساوئها وتوابعها فإن وجود الأوروبيين كان من آثاره نشر الاهتمام بالعلوم والمعرفة والقراءة والكتب بين المصريين. وفى هذا جزء من العوامل خارجية المنشأ التى ساعدت فى إدراك المصريين لذواتهم وفى إزجاء إرادة التغيير، وقد عُبر عن ذلك كله بتيار اليقظة. ولكن على الرغم من ذلك فإنه قد بقى عدد مكتبات بيع الكتب محدودا. فلم يكن فى القاهرة كلها إلا ثمانى مكتبات، واستمرت أسعار الكتب على ارتفاعها. وقد حاولت المكتبات الحكومية ومكتبات الجمعيات العلمية مداواة الأمر. غير أن محاولتهما جاءت متأخرة، فقد كان الاحتياج ملحا منذ زمن. وقد جاءت الصحافة ملبية لهذا الاحتياج برد جديد ومتخصص خارجى وداخلى المنشأ.

٣- الطباعة والنشر والصحافة: عالم جديد من التواصل

يندرج فى هذا السياق الغربى الإمبريالى المفروض، سياق "السباق نحو التقدم" وصولا إلى لقب "الأمة المتحضرة"، جهد مواز لسباق الوصول إلى المعرفة، وهو الجهد الخاص بالتواصل عن طريق كل ما هو مكتوب والكتاب والصحافة.

احتلت الترجمة[٢] كما سنرى فى هذا الإطار مكانة مهمَّة، واعتبرت لفترة طويلة ركيزة أساسية فى مطبوعات الصحافة المكتوبة التى كانت تنشرها فى صورة مقالات مسلسلة[٣]. ويعكس كل ذلك نوعا من الوعى الفكرى للعصر. وهو

---

(١) فيما يتعلق بوجود الإنكليز فى مشروعات المعارف العمومية المصرية راجع المؤلفات التى تتناول الحماية الإنكليزية على مصر خاصة كتاب جولييت آدم Juliette Adam 1922 ص١٠٠ – ١١٧.

(٢) لمزيد من المعلومات راجع لطيف زيتونى ١٩٩٤ ص١٩٠، وجاك تاجر ١٩٤٥ ص١٥٨.

(٣) نذكر هنا على سبيل المثال الترجمات المتعاقبة للرواية الفرنسية "بول وفرجينى" التى قام بها على التوالى محمد عثمان جلال عام ١٨٧٢ وفرح أنطون ١٩٠٢، ولاحقا مصطفى لطفى المنفلوطى عام ١٩٢٣، وإلياس أبو شباك عام ١٩٣٣. أغلب هذه الترجمات نشر فى أول الأمر فى المجلات فى صورة حلقات: راجع ديهوفلز ٢٠٠٧ ص١٥٣-١٦٩ و١٩٩٥ ص٤٢٥ – ٤٦٦.

إحدى ثمار مبادرات محمد على والحكام التاليين له، الذين خلقوا المناخ والإطار الضرورى لهذا الإنجاز؛ وهو الترجمة بشكل مكثف والنشر وإعادة النشر أى الكتابة التى ساهمت فى إخراج الصحافة على نطاق واسع إلى الوجود[١].

الواقع أنه فى عصر محمد على سرعان ما أصبحت الطباعة، "هذه الرافعة للمعرفة" (لوتى Luthi، ٢٠٠٣، ص٢٠٠) واحدة من ركائز اهتمام الباشا. من هنا فقد ألحقت بكلية القصر العينى عام ١٨٢١ مطبعة صغيرة ومكتبة للاطلاع. بعد ذلك بعام واحد زيدت مساحة المطبعة، وتم نقلها إلى بولاق، وأصبح مسماها "مطبعة بولاق"، وبهذا تأسست أول مطبعة مصرية[٢]. كان على هذه المطبعة فى المرحلة الأولى مهمة طبع اللوائح، والكتيبات العسكرية، بالإضافة إلى وثائق الدولة الإدارية. كانت الطباعة الحجرية هى الطريقة المستخدمة[٣]. فى عام ١٨٢٢ وبينما كانت هذه المطبعة الأولى من نوعها توسع من نشاطها وتغير مقرها واسمها تم تزويدها بطريقة طباعة جديدة تستخدم فيها مجموعات الحروف. وقد جلبت لها

---

(١) خلافا لما يقال دون سند أو دليل نزعم أن هذه الصحافة المكتوبة سرعان ما أصبحت جماهيرية (راجع أسانيدنا ص١٥٠ والحاشية ٤٤٣ فى الصفحة ذاتها). ونحن نعنى بالصحافة الجماهيرية صحافة لها عدد كبير من القراء من الجماهير المحلية والإقليمية والدولية. ندرك تماما من خلال شهادات الرحالة المستشرقين والشرقيين من مؤلفى القرنين التاسع عشر والعشرين أن الصحف كانت مقروءة من قبل أقلية متعلمة؛ ولكنها فى الوقت ذاته كانت مسموعة من قبل الأغلبية غير المتعلمة فى المقاهى والبيوت والأماكن العامة الأخرى وحتى فى الشوارع وفى واجهات المحال والحوانيت (راجع ص١٥٠) هل يمكننا طبقا لهذه المعطيات تجاهل هذه الفئة من شعب هذه الحقبة؟ لا نعتقد، من هنا كان اعتبارنا هذه الصحافة جماهيرية. وسنرى لاحقا كم هى كثيرة وبليغة تلك الشهادات التى ننقل لكم عباراتها. ويتوجب هنا عدم الخلط بين ما يطلق وسائل الإعلام والصحافة الجماهيرية فى يومنا هذا وما كان فى القرن التاسع عشر منها فى مصر.
فكلمة "جماهيرية" لا تحمل المعنى نفسه من قرن إلى آخر. ومما لا شك فيه أنها بطبيعة الحال أقل عدد وأشد اختلافا عما كانت عليه فى القرن التاسع عشر فى أوروبا وأكثر من ذلك قياسا على مدلول اللفظ فى القرن الحادى والعشرين.

(٢) يستلزم الأمر تمييز المطبعة المصرية عن المطابع الأجنبية فى مصر، فأول مطبعة فى مصر كانت أجنبية وجاءتها عام ١٧٩٨ مع بونابرت أما أول مطبعة مصرية فقد رأتها مصر عام ١٨٢١ / ١٨٢٢ مع محمد علي.

(٣) طريقة للنسخ تستخدم فى الطباعة، يتم فيها وضع النص المكتوب أو الرسم بالحبر الكثيف على حجر جيرى والضغط على الورق لنقلها.

الآلات الضرورية من إيطاليا على يد نيقولا مسابكى (الذى تولى إدارتها لاحقا وكان الباشا قد أرسله إلى إيطاليا للتدرب على استخدام هذه الماكينات). تم آنذاك نشر العديد من الأعمال المترجمة فى خط مواز لما كانت تقوم به المطبعة من طباعة للوثائق الرسمية والعسكرية. مما طبع آنذاك نذكر كتاب "الأمير" لمكيافيللى وكتاب عن فن صباغة الأقمشة أيضا. وقد تمت ترجمة أعمال عن فن القتال تختص بكيفية استخدام الأسلحة وفن إدارة الحروب. وقد قامت المطبعة بنشر أعمال بلغات مختلفة مثل الفارسية والتركية إلى جانب الأعمال المكتوبة باللغة العربية بالطبع.

"لقاء أربعة قروش كان يمكن الحصول على مقتطفات من "مذكرات سانت هيلانة" ومقابل ٣٠ بارة كان من الممكن أن يثقف أى إنسان نفسه عن "الطاعون" من خلال كتاب الدكتور كلوت. فى عام ١٨٢٦ ونقلا عن چومار E. Jomard وضعت مطابع بولاق تحت إمرة الجمهور أربعة وستين مؤلفا عن مبادئ العلوم والتاريخ والجغرافيا. فى مذكراته، يذكر الدكتور كلوت أن طلابه كانوا قد نشروا ترجمة أفضل المؤلفات الطبية (٥٢ مطبوعة فى القاهرة نشرت من كل منها آلاف النسخ). غير أنه على الرغم من قيمتها الفكرية وسعرها المعقول فإنها قد بقيت الكتب مكدسة فى المخازن لعدم وجود قراء"(١).

كانت المطبعة التى جاءت بها إلى مصر حملة بونابرت فى الثامن من يوليو عام ١٧٩٨ التى سجل مجيؤها بداية لعصر من المبادلات الثقافية الفرنسية المصرية قد بدأت بعمل أول مطبوعة لها؛ وهى: الإعلان الفرنسى، بعده وقبل خروج أول مطبعة مصرية إلى الوجود عامى ١٨٢١ / ١٨٢٢ عرفت مصر أول مطبعة خاصة بها وكانت فرنسية لا مصرية عام ١٨٢٠ بالإسكندرية.

فى عام ١٨٥٨ قام على إدارة هذه المطبعة أنطوان مورس A. Mourès الذى سافر إلى فرنسا، وعاد مصطحبا معه آلات طباعة حديثة؛ وهى المطابع الميكانيكية. تزامن هذا التطور الآلى مع مشروع قناة السويس. هذه المطبعة التى حملت اسم

(١) الجريدة الأسيوية، باريس سبتمبر ١٨٤٣ التى يوجد بها قائمة بالمؤلفات التى خرجت من مطبعة بولاق حتى هذا التاريخ.

المطبعة الفرنسية شهدت إقبالا ضاعف من الطلبيات التى كلفت بها مما اضطرها للتوسع لاستيعاب هذا الكم من النشاط المتنامى، بل وتأسيس مطبعة ثانية فى بورسعيد عام ١٨٧٥. وأخيرا فمع زيادة عدد المدارس، والجمعيات العلمية، والمتاحف، ومكتبات الاطلاع زاد الطلب مما جعل الطباعة تعرف انطلاقة كبرى. وقد ساهم "قلم الترجمة"[١] عام ١٨٣٥، الذى تحول عام ١٨٣٦ إلى "مدرسة الألسن" أدارها رفاعة الطهطاوى من عام ١٨٣٥ إلى عام ١٨٤٩[٢]، هو أيضا فى زيادة الطلب.

ويمكن القول بالتالي: إن الترجمة ساهمت فى تطور الطباعة والنشر. بعيدا عن التكليفات الرسمية الأولى التى كلف بها الباشا "قلم الترجمة" وهى الخاصة بالنواحى العسكرية والإدارية، كانت من مهامه ترجمة عدد كبير من الكتب المدرسية للمدارس الابتدائية والإعدادية والخاصة فقد كانت الحاجة إليها ملحة. من هنا فقد طلب نائب الملك إحضار كتب من أوروبا وحتى من تركيا وأمر بترجمتها. وكان على قدامى طلاب البعثات الدراسية آنذاك بعد اكتمال تدريبهم، ترجمة مؤلف شهريا[٣]. كان يتوجب أن تخدم هذه الكتب التلاميذ والمدرسين؛ فقد كان هؤلاء تنقصهم المقررات، وطرق التدريس للقيام بمهامهم فى هذه المدارس المصرية بالغة الحداثة.

بحركة الترجمة هذه أقيم جسر ثقافى بين أوروبا ومصر. ساهمت إذن الترجمة فى تطور الطباعة، وفى اهتمام المصريين العلمى بالتقنيات العسكرية الجديدة، وهذا شيء مؤكد، كما دفعتهم إلى طلب معرفة التقنيات الصناعية والعلمية والطبية؛ وبذا أصبحت إحدى المجلات المؤسسة والداعمة لهذا الحوار غير المباشر المهيمن والإجبارى بين الشرق والغرب فى بداية القرن التاسع عشر. وقد حاول العرب فهم هذا الحوار بفهم كنه هذا الآخر المهيب المسمى بالغرب بترجمة كتابات هذه الحداثة المتحضرة.

---

(١) راجع لمزيد من المعلومات حول قلم الترجمة ومشاركة رفاعة الطهطاوى فى تطويره: Delanoué ديلانو ١٩٨٢ (a) ص٤٠٠-٤٠٢.

(٢) راجع فى هذا الصدد ديلانو ١٩٨٢ (a) ص٣٩٨ - ٤٠٠.

(٣) عبد الملك، ١٩٦٩ ص١٣٢-١٣٣.

والأمر هنا يتعلق بهذا الشق الذى نصفه "بالخارجي - داخلى المنشأ لإرهاصات هذه اليقظة الثقافية المسماة بالنهضة الثقافية العربية. من هذا الاهتمام بالترجمة والطباعة ظهرت الصحافة العربية المكتوبة إلى الوجود، وفيما بين عامى ١٨٤٢ و١٨٤٩ عين رفاعة الطهطاوى الذى كان مديرا لقلم الترجمة رئيسا لتحرير أول صحيفة مصرية رسمية وهى "الوقائع المصرية"[١] التى كان محمد علـى قـد أسسها فى الثالث من ديسمبر عام ١٨٢٨. وتكفلت حينذاك مطبعة بولاق بطباعة ونشر هذه الجريدة الحكومية المتفردة، وعُد ذلك ميلادا للصحافة المصرية. رأى أول عدد من هذه الجريدة النور فى الحادى والعشرين من يناير عام ١٨٢٩، وقد صدرت أول الأمر باللغة التركية. غير أنها سرعان ما أصبحت ثنائية اللغة، وانتهى الأمر بالاقتصار فى صدورها على اللغة العربية فقط[٢] لفترة طويلة لم تحوِ هذه الجريدة إلا المراسيم والتصريحات الرسمية والإرشادات الإدارية التى تصحبها بعض المقالات الأدبية أو العلمية، بالإضافة إلى قصص قصيرة مأخوذة عن كتاب "ألف ليلة وليلة" للتسرية عن القارئ.

مع تبؤ رفاعة الطهطاوى لرئاسة تحرير هذه الصحيفة عام ١٨٤٢ راجت اللغة العربية وأصبحت لغة الصحيفة الوحيدة. أما محتوى الصحيفة فقد أصبح:

"أكثر تغذية للقارئ. فقد كان هناك تناول حذر لبعض المفاهيم السياسية العامة ذات المصادر الأوروبية والإسلامية فى آن واحد. فنجد على سبيل المثال رفاعة فى مقال واحد يحلل بإيجاز فكرة فصل السلطات، ثم يسعى لتبيان أن الحكام المسلمين على عكس ما يعتقده بعض الأوروبيين ليست لديهم سلطة مطلقة؛ وإنما سلطة محكومة بالطاعة للقانون الإلهي؛ وينطلق بعد ذلك فى تعداد مناقب الأمير المسلم المثالي. ونرى هنا حداثة قد لا تتحلى دوما بالتماسك والوضوح ملاصقة لفكر تقليدى، وهو خلط ومزج شائعا الوجود فى كتابات رفاعة"[٣].

---

(١) فيما يتعلق بإدارة رفاعة رافع الطهطاوى لهذه الجريدة راجع ديلانو ١٩٨٢ (a) ص٤٠٢-٤٠٣.
(٢) الأمر الذى يعيدنا إلى اللغة التى كان يتحدث بها محمد علي. ويذكر روجر آلن فى هذا الصدد أن فصلا كاملا من كتاب "فترة من الزمان" يتناول هذا الموضوع.
(٣) ديلانو ١٩٨٢ (a) ص٤٠٢-٤٠٤.

تلخيصا لما سبق يمكننا القول: إن صحافتين مختلفتين قد ظهرتا إلى الوجود في بداية القرن التاسع عشر في مصر؛ صحافة أجنبية أسسها الفرنسيون والإيطاليون واليونانيون، وصحافة عربية كان وراء نشأتها اللبنانيون والسوريون والمصريون، وقد سبقت الأولى الثانية. ونسوق هنا لمحة عنها(١).

رأينا قبلا كيف اهتم الباشا بالصحافة المكتوبة؛ الحكومية بالطبع والأميل إلى الطابع العسكري والإداري منها إلى الطابع الشعبي الحر. وقد استمر على انشغاله وحرصه على هذا السبيل الجديد للتواصل، حتى إنه كنوع من المساهمة والدعم له كان من حين إلى آخر ينشر بها بعض الأوراق الرسمية. وعلى الرغم من اكتمال عناصرها فإن هذه الجريدة لم تكن تحظى بإقبال من القراء حتى لا نقول إنه لم يكن يبتاعها أحد قط. تطلب الأمر الامتثال لفكرة إهدائها مجانا للقراء حتى يقرأ ما بها: (...) "ترك نائب الملك أمر الصحافة برمته فمن المؤكد أنه كان لديه أمور أجَل ينجزها" (لوتي ٢٠٠٣، ٢٠٢) ولم يمنع ذلك كله من استمرار صدور هذه الصحيفة طيلة ثمانية عشر عاما.

بعد بضع سنوات لم يول فيها محمد على الصحافة اهتماما خاصًا. قام الباشا بإصدار دورية جديدة "لومونتيور إجيبسيان" "المرشد المصري" عام ١٨٣٣، وهي تعد أول صحيفة مصرية بلغة أجنبية. وكان الهدف من وراء هذا الإجراء منافسة ومنازلة أول دورية تركية صدرت هي الأخرى باللغة الفرنسية وهي "لومونيتور أو تومان" "المرشد العثماني" عام ١٨٣١(٢)، التي قد صدرت منها نسخة باللغة التركية بعنوان: "رزنامه الأحداث" بعد ذلك بعام واحد. (كرامر ١٩٩٥، ٧٢). جدير بالذكر أنه في عامي ١٧٩٨ و١٧٩٩ كانت هناك جريدتان باللغة الفرنسية(٣)، أجنبيتان على عكس جريدة "لومونيتور إجيبسيان"(٤) قد ظهرتا إلى الوجود أثناء الحملة الفرنسية(٥):

---

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع فيو Viaud 1993 ص٥٦ وصبابات ١٩٨٢/١١/٢٥ ص١٥-١٨ بالإضافة إلى كل المراجع الببليوجرافية السابق واللاحق ذكرها حول هذا الموضوع.

(٢) كرامر ١٩٩٥ ص٧٢.

(٣) فيما يتعلق بتاريخ الصحافة الفرانكفونية في فرنسا كما في العالم.. راجع فيو Viaud ١٩٩٣ ص٥٦، كورتوا العدد الأول أكتوبر ١٩٨٥ Courtois وجاميل Gamil 1993 ص٧٠-٧٣، وكريمر ١٩٩٥، ص٢٢٣.

(٤) جريدة أخرى تحمل الاسم ذاته ظهرت إلى الوجود عام ١٨٩٤.

(٥) راجع جاميل ١٩٩٣ ص٧٠-٧٣ وصبابات ١٩٨٢/١١/٢٥، ص١٥-١٨.

"لاديكاد إجيبسيان" (العقد المصري) وهى صحيفة أدبية واقتصادية سياسية فى ٣ مجلدات (١٧٩٩-١٨٠٠) و"لوكورييه ديحيبت" (بريد مصر) ١١٦ (١٧٩٨-١٨٠١)[(١)] و"التنبيه"[(٢)].

"أدت صحيفة "لوكورييه ديجيبت دورها تجاه الجيش بتوليف الأوراق الآتية من أوروبا وبث الأخبار عن الإسلام ومصر والمصريين مساعدة منها فى أقلمة الجنود وتكيفهم". أما "لاديكاد إجيبسيان" التى كان لها تأثير أساسى فى "الهوس المصري" الذى استبد بعموم باريس خلال هذه الحقبة فقد أدارها جون – لومبير تاليان Jean Lambert Tallien المفوض الفرنسى، الذى كان يحضر جلسات "الديوان ومجلس التسعة حكماء" وهو المجلس الذى كان من المفترض أنه يرمز للشرعية المحلية. هذه المجلة الشهرية كان يقوم بإصدارها المعهد الفرنسى بالقاهرة، وهو المعهد الذى كان يضم كل علماء الحملة. كانت هذه المجلة العلمية توصف بكونها "دورية أدبية اقتصادية سياسية" وتتناول الاكتشافات الأثرية وتصف الأمراض والطرق المختلفة لجنى القطن كما تنشر ترجمة لقصائد عربية.

---

(١) رونيه مونييه ١٩١٨ ص٢٤. فى هذا المؤلف هناك باب بعنوان: "قائمة مسلسلة زمنيا للمجلات المنشورة فى مصر فيما بين عامى ١٧٩٨ و١٩١٦ مذكور بها المجلات الصادرة بلغة أوروبية مع تاريخى الصدور والتوقف واللغة المحررة بها. فى الصفحتين السابقتين على هذه القائمة (ص ٢٣ و ٢٤) توجد قائمة المؤلفات المنشورة قبلها والتى حاولت حصر هذه المجلات الصادرة بلغة أوروبية فى مصر. كل ذلك يكون قائمة مراجع مميزة لدراسة الصحف الأجنبية فى مصر فى القرن التاسع عشر. يمكننا فى الصدد ذاته مراجعة كتاب جول مونييه ١٩٣٠، ص٥٩ واشنطن سرويس ١٩٨٧ ص١٤٠، هارتمان ١٨٩٩ ص١٤٤، قسطاكى ١٩٢٧ ص٣٦٠، عبده ١٩٤٥، ص٣٠٤، وأخيرا مراجعة المجلد الثانى الملحق ٢: عدد الدوريات العربية والأجنبية فى مصر فيما بين عامى ١٧٩٨ و١٩٠٣ والملحق ٣: قائمة الصحف المؤسسة فى مصر بين عامى ١٧٩٨ و١٩٠٣.

(٢) تطبيقا للنقحرة السائدة فى العصر والتى ننقلها بلفظة "التنبيه". فيما يتعلق بهذه الصحيفة نلاحظ أن أغلب الأبحاث التى تتناول هذا الموضوع تتفق فى أنها لم تجاوز مرحلة المشروع وأنها لم تظهر إلى الوجود. بل إن الباحثين جميعهم لم يجدوا أثرا يدل على صدورها.

فى دورية "لوكوريبه ديجيبت" كان المحررون بمرور سنوات الاحتلال وامتدادها حريصين على وصف البلد. من هنا كان سعيهم وراء المعلومات من خلال مراسلين ونشر لحكايات السفر والترحال والتجوال فى ربوع القاهرة؛ سعيا وراء مشهد فني. باعتبارها سباقة ومن الرعيل الأول فى استخدام التقنيات السردية أعطت صحيفة "لوكوريبه ديجيبت" مذاقا مسبقا لتحقيقات القرن التاسع عشر الكبرى ومراسلى الحروب(١).

على الرغم من ذلك فإن هذه الصحف لم يكن لها تأثير كبير على المصريين، ويبدو أن للغة دخلا كبيرا فى ذلك... فى عام ١٨٢٧ تم تأسيس جريدة جديدة باللغة الفرنسية "ليكوه ديه بيراميد" لم يصدر من هذه الصحيفة سوى أربعة أعداد وهذه الظاهرة شاعت وطالت عددا كبيرا من الدوريات.

الواقع أن الباشوات من أصحاب النفوذ كانوا يمنعون الصحف القائمة على المبادرات الخاصة بحجة أمدادهم المصريين بمعلومات كثيرة بشكل فوضوي. الحقيقة أن الخوف من يقظة متسرعة كان يمثل مخاطر عالية للمصالح الشخصية للساسة فى مواقعهم وبالتالى فقد أمليت أوامر المنع والتصريح.

ارتأينا عمل عرض لمدى الاتساع الذى حققته الصحافة الأجنبية(٢) المكتوبة فى مصر فى بداية القرن التاسع عشر وقبل ظهور الصحافة العربية، وبالتالى لزم التنويه ببعض المراجع (أما المجلات الأخرى)(٣) والصحف التى لم يرد ذكرها فيمكن الرجوع إلى الملحق رقم ٢(٤) بشأنها. إلا أنه يتوجب قبلها وعلى قدر الإمكان تخيل الروح السائدة وقت ظهور صحافة اللغة الأجنبية، ثم صحافة اللغة القومية.

---

(١) كرامر ١٩٩٥، ص١٠٠.

(٢) لمزيد من التحديد سبق لنا القول: إنه كان ضروريا التفرقة بين الصحافة المصرية والصحافة العربية بشكل عام وبين الصحافة الأجنبية التى كانت اللغة هى معيار الاختلاف فيها. ونضيف هنا أن الصحافة المصرية والعربية بشكل عام هى التى يؤسسها ويرأس تحريرها العرب أيا كان أصلهم ودينهم. أما الصحافة الأجنبية فهى بالضرورة تلك التى ينشئها ويرأس تحريرها أجانب أى أوروبيون وبشكل أكثر شمولا الغربيون، من هنا فإن الصحافة المصرية والعربية يمكن أن تشمل صحفا بلغة أوروبية أو أجنبية مثل الفارسية والتركية والأرمنية عندما يكون رئيس التحرير من أصل عربي.

(٣) نلاحظ هنا أنه فى ذاك العصر لم يكن الاختلاف بين مسمى "مجلة" ومسمى "صحيفة" واضحا، ولم تكن هناك بالتالى معايير للفصل بينهما. وقد اتسع مدى المشكلة مع انطلاقة الصحافة المكتوبة، فالفارق كان قليل الوضوح ليس بين "الصحيفة" و"المجلة" فقط؛ ولكن بين كافة أنواع الصحف والمجلات أيضا. فى هذا الصدد راجع شلش، ١٩٨٨ ص١٧-٢٧.

(٤) راجع الملحق ٣: قائمة الصحف التى تأسست فى مصر فيما بين عامى ١٧٩٨ و١٩٠٣.

"فى مصر مجلات أدبية عديدة خرجت إلى النور فى بداية القرن: مثل "لانوفال روفو ديجيبت"La Nouvelle Revue d'Egypte التى كان يلتقى فيها فرنسيو المشرق واليونانيون والسوريون اللبنانيون وبعض المصريين الذى يطمحون لخلق تفكير علمى مصري؛ ولكن باللغة الفرنسية". وقد دهش موريس بارس لدى مروره بالإسكندرية وأظهر دهشته لاحقا فى مؤلفه "تحقيق فى بلاد المشرق" فى قوله: "لا يضارع أبعد أماني عن التحقيق ما رأيته: آلاف من الفتية والفتيات من كل أجناس الشرق يتكلمون الفرنسية ويظهرون إعجابا شديدا بفرنسا"(١).

هذا الوصف يوضح لنا حالة الحماس الفكرى التى كان الأجانب "وبعض المصريين" (راجع الاستشهاد السابق) يحاولون خلقها فى مصر باستعمال لغة أجنبية وبشكل أكثر تحديدا اللغة الفرنسية. يضيف قول موريس بارس اللمسة الأخيرة فى اللوحة، وهو يشهد باختلاط هؤلاء المفكرين ما داموا طبقا لعبارته "آلاف من الفتية والفتيات"، كما يشهد بمزج إثنى ما دام الجمع يضم "كل أجناس الشرق" (المرجع ذاته).

ندرك من هنا أن الأمر تعلق بمبادلات بين الشرق والغرب، على الأقل وفقا لأقوال كل من موريس بارس M. Barres وكرامر Kraemer التى تفهم منها أن مصر كانت فى مرحلة مشاركة وتبادل.

تطلعا لقدر من الوضوح يسمح بفهم أكبر للوضع الاجتماعى للشعب فى علاقات طوائفه بعضها بالبعض الآخر نسوق مثالا عما كان عليه الوضع فى القسطنطينية (عاصمة السلطة المركزية العثمانية).

أسس أول صحيفة تركية -تماما مثلما حدث فى مصر- فرنسا، وكان ذلك قبل صدور جريدة "لومونيتور أوتومان" (المرشد العثماني) بفترة طويلة عام ١٨٣١ حملت هذه الجريدة عنوان:

"نشرة مفوضية (Le Bulletin de la Legation de la Republique Francaise 1795) الجمهورية الفرنسية".

---

(١) كرامر ١٩٩٥ ص١٠٠.

وفى عام ١٧٩٦ تحولت هذه النشرة لجريدة بعنوان: "لاجازيت فرانسيز دو كوستنتينوبل" (الجريدة الفرنسية للقسطنطينية أو الآستانة) وصارت أول صحيفة تركية بلغة أجنبية. فى البداية كانت هذه الصحيفة نصف شهرية، ثم أصبحت شهرية مهمتها "نقل أحداث الساعة الثورية بالإضافة إلى الأحداث المحلية". كان قراؤها من التجار الغربيين والمثقفين العثمانيين. وقد منعتها السلطات التركية فور وطء نابليون لرمال مصر (كرامر ١٩٩٥ ص٤٤) وهذا يعنى ارتباط مصيرى مصر وتركيا العثمانية ومن ثم صحافتهما. تطلب الأمر مرور عدة سنوات حتى يتصالح السلطان مع فرنسا عام ١٨٣١. عندئذ بدأت تصل جريدة "لومونيتور أوتومان" عام ١٨٤٦ وتلتها عام ١٨٤٦ جريدة القسطنطينية Le Journal de Constantinople.

فى خط مواز لكل ذلك كانت الصحافة الفرنسية كما رأينا قد استقرت فى مصر. والحقيقة أنها لم تكن الصحافة الأجنبية الوحيدة الموجودة بها، فقد كان للصحافة الإيطالية وجود طاغ. من المجلات ذات التأثير واسع المدى نذكر المجلة الأدبية MiscellaneaAegyptiaca التى أسسها بريس دافان إلياس إدريس أفندى Alias Idris Effendi Prisse d`Avennes عام ١٨٣٧ و"ما زالت المقالات العلمية التى تشكل أكبر جزء من مقالات هذه المجلة حتى يومنا هذا" (لوتى Luthi ٢٠٠٣ ص٢٠٣). وهذا يعنى أن هذه الصحافة الجديدة المصرية الأجنبية كانت متميزة. وقد ظهرت الجريدة الإيطالية[(١)] Specttatore Egiziano ثنائية اللغة (الإيطالية/ الفرنسية) فيما بين عامى ١٨٤٦-١٨٤٧ وعام ١٨٦٧ ويمكننا إجمالا القول: إنه قد تأسست عام ١٨٥٩ الصحف التالية مع كثير غيرها:

"لابرس إجيبسيان"، و"لوسفنكس إيجيبسيان"، و"لوكورييه دو لاجيروند" و"لوبولتان دو لا نستيتو إجيبسيان". وهذه الصحيفة الأخيرة كانت نشرة عن مجتمع طبقة العلماء الجديدة التى سبق لنا الحديث عنها قبلا والتى يعرف الجميع مطبوعاتها حتى يومنا هذا.

---

(١) "المشاهد المصري".

فى عام ١٨٦٢، صدرت صحيفتي: "ليزيكو دولوروب" Les Echosde L`Europe و"ليكوديجيتو"[١] تلاهما عام ١٨٦٣ صحيفة "ليجيبت". أما فى عام ١٨٦٧ فقد ظهرت جريدتى "لوجورنال دوكنال" Le Journal du Canal، و"لوجورنال دو كنال أو نينجيبت" Le Journal du Canal en Egypte، ويسمح اسماهما بإدراك أن الأمر يتعلق بقناة السويس، وأن الدعاية قد بدأت تكتسب أهمية فى مصر. وقائمة الصحف طويلة، ونكتفى لختامها بذكر صحيفتين صدرتا عام ١٨٧٥ هما: "لاجازيت دى تريبونوه" La Gazette des Tribunaux، و"لوبولتان دو لاسوسيتيه كيديفيال دو جيوجرافي"[٢] Le Bullehin de la Societe Khediviale de Geographie وهذه الدوريات تشهد بوجود تغييرات فى الحياة اليومية فى مصر. الواقع أن تأسيس صحيفة للمعلومات والأخبار القضائية[٣] يعد تطورا مؤكدا.. ما يمكن على الرغم من ذلك تأكيده هو أن أعداد النسخ الموزعة[٤] كان محدودا للغاية ولا يتجاوز قط الثلاثمائة أو الأربعمائة نسخة للصحيفة الواحدة، وهو ما كان يعد إنجازا فى هذه الفترة. فى عام ١٨٨٠ شهدت الصحافة المكتوبة بلغة أوروبية انطلاقة كبيرة لا من حيث عدد الصحف فقط؛ ولكن من ناحية تلقى القراء لها. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال صحيفة "الإجيبشيان جازيت"[٥] The Egyptian Gazette عام ١٨٨٠ و"ولوبسفور إجيبسيان" "Le Bosphore Egyptien" عام ١٨٨١ التى أثرت أصداؤها بشكل كبير على الصحافة المصرية العربية؛ وتعد السنوات السابقة واللاحقة لعام ١٨٩٠

---

(١) "صدى مصر".

(٢) راجع "الجمعية الخديوية للجغرافيا بمصر Societe Khediviale de geographie 1912-1875، نشرة الجمعية الخديوية للجغرافيا – القاهرة – مطبعة أركان الحرب المصرية. دورية يمكن الاطلاع عليها لدى رهبان الدومينيكان بالقاهرة.

(٣) بعد هذا التاريخ كثر عدد الصحف من هذا النوع؛ ففى عام ١٨٧٦ على سبيل المثال صدرت صحيفتان قانونيتان: "قرارات محاكم الاستئناف ومصر القضائية"، أما فى عام ١٨٧٧ فقد ظهرت إلى النور صحيفتان أخريان: "القانون" و"نشرة التشريع وقرارات محاكم الاستئناف".

(٤) فيما يتعلق بهذه الإحصائيات، من المؤسف إدراك مدى النقص الذى نعانيه فى العناصر والدلائل القديمة. بعض المراجع تشير إلى ذلك ومنها أعمال أرتين الصادرة عامى ١٨٩٠ و١٩٠٦. ويمكن توقع دراسة متعمقة حول هذه المسألة تستند إلى مقالات الصحافة ذاتها، وتعتمد بشكل أساسى كمصدر على مقالات "لا روفوديدومند" والصحف العربية ذاتها التى تناولت الموضوع بجدية وحماس مثل مجلة "الهلال".

(٥) "الجريدة المصرية".

أكثرها إسهابا. من بين الصحف الكبرى الأجنبية خلال هذه الفترة نذكر، "لوبروجريه" عام ١٨٩١، و"لوبروجريه إجيبسيان" عام ١٨٩٣، و"لوريفاى إجيبسيان" عام ١٨٩٤ -الذى يحمل اسمه دلالة- "لوكورييه دوريون" و"لوجورنال دوكير" عام ١٨٩٨. ونذكر من الصحف الست الصادرة عام ١٩٠٠: "لابورس إجيبسيان"(١) و"لوبولتان دولا سوسيتيه مديكال دوكير" و"لوبولتان دولا سوسيتيه كيديفيال دو مدسين".

طبقا لما ذكره رونيه مونييه R. Munier فقد صدرت فى مصر أربع وستون مجلة وصحيفة بلغة أوروبية فيما بين عامى ١٧٩٨ و١٩١٦؛ أما إبراهيم عبده فقد قدرها بمائتين وستين دورية، والفارق كما هو ملاحظ كبير ويستدعى دراسة تتم فيها مضاهاة المعطيات ببعضها البعض، فالأرقام تختلف من دراسة إلى أخرى.

تكمن صعوبة الحديث عن كل الصحف والمجلات الصادرة باللغات الأوروبية واللغة العربية فى مصر فى أن الوصول إليها كان وما زال صعبا للغاية، حتى لا نقول: مستحيلا. إما لأنها قد اختفت، أو لأن الاطلاع عليها غير مسموح به؛ من هنا كان أَخْذ بعض مؤلفى الصحف والمجلات -التى لم يصدر منها إلا أعداد محدودة- فى الاعتبار، وتَرْك مؤلفين آخرين لها. ونضيف فى النهاية أن الوصول إلى مراجع الموضوع المتناول يكون أحيانا هو أيضا بالغ الصعوبة. ونشير هنا إلى أن أهمية الأرقام ثانوية حتى إن اعتبرناها مؤشرا قيما ومهما بالنسبة إلى الاهتمام العام بالصحافة المكتوبة، وبمدى نجاحها لدى المصريين وجماعات الأجانب المقيمين فى مصر فى القرن التاسع عشر. (راجع نتائج أبحاثنا حول هذا الموضوع - الملحقان الثانى والثالث).

ويعد ظهور الصحيفة والمجلة الأجنبيتين أو تلك التى تم تحريرها بلغة أجنبية أول انعكاس لاهتمام مؤكد بالصحافة فى مصر. وهى تشير إلى هذا الاتصال المباشر بين الغرب والشرق. من بين اللغات الأوروبية التى صدرت بها الصحافة

---

(١) بعض أعدادها يمكن الاطلاع عليه لدى الرهبان الدومينيكان بالقاهرة. ويمكننا كما سنرى لاحقا القول: إن بورصة السوق كان لها دور كبير ليس فقط فى حياة إبراهيم المويلحى، وهو أمر مؤكد؛ وإنما أيضا فى كتاباته.

فى مصر نذكر اليونانية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية، وقد لحقت بهـا اللغـة الألمانية. رأينا إذن كيف ساهم الفرنسيون والإيطاليون واليونانيون وبعدهم الإنجليز والألمان فى انطلاقة مصر على المستوى الحضرى والتعليمى والـصحفي. ومـا رأيناه هو استعراض لهذا الجانب ذى العناصر الخارجية، الذى استخدمته النهـضة من خلال اتصالها بالجوار الاجتماعى والثقافى، الذى أتيح لها منذ وصول بونابرت حتى محمد على وخلفائه خاصة الخديو إسماعيل. وقد استخدم المصريون وبـشكل أكثر تحديدا العرب فى مصر ومنهم اللبنانيون والسوريون كـل هـذه العناصـر داخلية[١] المنشأ فى فكرهم الخاص، انطلاقا من ثقافتهم، مرتكزين بوجه خاص على ما كان محمد على قد سمح لهم فى السابق باكتسابه عن طريق البعثات الدراسـية وحركة الترجمة التى تعد إحدى الركائز داخلية وخارجية المنشأ فى آن واحد.

(١) يقصد بهذا المصطلح كل ما هو متأصل فى المنشأ.

الفصل الثاني
ركائز النهضة ومحركاتها

الواقع أن المبادرة المصرية التى أمر بها الباشا انبعثت من الداخل، وبالتالى فهى داخلية المنشأ. هذا لا يمنع أن دوافعها كانت خارجية المصدر؛ فقد تأججت نتيجة الرغبة فى مساواة أوروبا (هذا الغرب) الذى أملى الصدام والتبادل معه بشكل كبير ما تبع من أحداث. كانت نتائج البعثات الدراسية المصرية التى أرسلت إلى أوروبا داخلية وخارجية التأثير، وقد شمل اتساع مداها على المستوى القومى كافة المستويات. نذكر من بين هذه النتائج نشاط الترجمة الذى كان خارجى التأثر من حيث ما تتم ترجمته[1]، وداخلي... خارجى التأثر من حيث أسلوب الترجمة واستعماله للغات وأهدافه ومنتجه النهائي. عن هذه الصحوة تحديدا نبغى هنا الحديث. هذه اليقظة التى استمدت من أوروبا ونهلت من الشرق حتى دفعت ببعض الكتاب الصحفيين، العصاميين على القيام فى مصر بهذه الصحوة المسماة بالنهضة الثقافية العربية.

١) الأسس داخلية وخارجية المصدر للنهضة

لم تعد النهضة موجودة على الأقل بالصورة التى كانت عليها فى القرن التاسع عشر، إلا أنها ما زالت أحد محركات المجتمعات العربية. ما زالت تلعب فيها دورا، خاصة من خلال روائع الأعمال التى ما زالت تدرس وتقرأ وينظر إليها بها كمراجع أدبية وتاريخية واجتماعية من الصعب تجاوزها. وتشهد إعادة طباعة هذه الأعمال والمؤلفات والصحف فى صورة كتب بمدى الاهتمام بهذه الحركة،

---

(١) وأغلبها من الروايات الأوروبية وكتب التاريخ وكتب فى الفلسفتين الأوروبية واليونانية ومقالات صحفية وبرقيات.

وبفترة النهضة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين من جانب العالم العربي. بل أكثر من ذلك تعد هذه الإعادة دليلا على معاصرتها فهى صورة مكررة لعصر: الاستعمار عن طريق ما بعد الاستعمار[١] الذى من نتائجه النهضة عن طريق ما بعد النهضة.

وكثيرا ما تتم مقارنة هذه الحركة المسماة بالنهضة[٢] بالثورة الفرنسية التى عرفتها فرنسا عام ١٧٨٩؛ وذلك من قبل مؤلفين غربيين وشرقيين، والحقيقة أنه لن يستغرقنا هذا التناول. إلا أننا نسجل هنا أننا لا نتفق وهذه المقاربة، فالأمر لم يكن "ثورة"؛ وإنما تصحيح وتقويم للمجتمع. ونضيف هنا أنه لم تقم ثورة من جانب الشعوب العربية. ولا ينبغى لنا أن ننسى أن هذه الحركة لم تكن قاصرة على مصر وحدها، فقد كانت حركة عربية وإسلامية[٣] من المشرق إلى المغرب. والنقاط

---

(١) نعنى بعبارة: "ما بعد الاستعمار" العصر الذى تلا مباشرة حركات الاستقلال حتى يومنا هذا. تمتد إذن فترة "ما بعد الاستعمار" لمدى طويل، ونلاحظ أنه طوال هذه الفترة استخدم مصطلح "نهضة لأهداف عدة وطموحات وآمال عربية من هنا ففترة "ما بعد الاستعمار" هى "زمكان" جديد لنهضة جديدة أو نهضات يتوجب تعريفها وإيضاح معانيها المختلفة. وتعريف النهضة باعتبارها حركة تغيير مجتمعى تشكل جزءا من انشغالاتنا، وهى هنا رئيسة سيتم تفصيلها تباعا فى هذا البحث. أما عن الاستخدام المعاصر والشائع فى فترة "ما بعد الاستعمار" لمصطلحى "نهضة" و"نهضات" فسوف نشير إليه فى الوقت المناسب وفى مستقبل قريب سنتناولهما بدراسة أعمق. وبشكل أعم يمكن الإلمام بالمزيد من المعلومات عن "النهضات" مراجعة لاروى Laroui ١٩٧٤ ص١١٥-١١٩ و١٩٨٦، ص٣٧٨، وأمين ١٩٧٦ ص١٥٦، وغالى ١٩٨٣ ص٣٦٣.

(٢) يقصد بما "بعد النهضة" ما يسميه البعض إما "نهضة" أو "نهضة ثانية" اعتبارا من النصف الثانى من القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا، وهو ما تستخدمه الصحافة العربية الحالية حتى الآن (على سبيل المثال فى المجلة الأدبية "أخبار الأدب" لجمال الغيطانى بالقاهرة). فى دراستنا هذه لن يتعلق الأمر بفترة ما بعد النهضة التى ستكون لاحقا محل بحث ودراسة من جانبنا.

(٣) هذه النقطة شديدة الحساسية. فالأمر هنا أشبه بالسؤال عن تلك الأمة التى كان النهضويون (أى العناصر الفاعلة فى النهضة) يتحدثون عنها. هل كانت الأمة العربية؟ أم الإسلامية؟ أم العربية – الإسلامية؟ أم الإقليمية (المصرية السورية اللبنانية)؟ ليس بوسعنا استخدام مصطلح "العالم العربي"، فالعالم العربى كما نفهمه ونعيه الآن لم يكن قد وجد بعد. غير أننا يمكننا القول: إن هذه الحركة كانت حركة العرب والمسلمين كافة؛ فالعناصر الفاعلة العربية المسلمة والمسيحية فى الشرق حتى الهند وفى جميع أنحاء العالم كانوا يكونون مجموعة النهضويين، من هنا فليس من الحكمة القول: إن هذه الحركة كانت تكون "العالم العربي"=

المشتركة الوحيدة بين هاتين الحركتين ثوريتا الطابع... ما دامتا قد غيرتا مصير المجتمعات التى تنتميان إليها. تكمن احتمالا فيما اقتبسته النهضة من الثورة الفرنسية وقامت باستخدامه وهى تحديدا نقاط فى المجالين الأدبى والقانوني. الواقع أن النهضويين قد عرفوا قانون الصحافة لسنة ١٨٨١ الذى كما سنرى لاحقا كانت الثورة الفرنسية مصدرا له. إلا أننا نسجل هنا أن الاستخدام الإنجليزى - الفرنسى ثم الإنجليزى المصرى لهذا القانون كانا بعيدين كل البعد عما كان عليه هذا القانون فى الأصل. وهذا الأمر قد يكون الأهم على الإطلاق باعتبار أنه ذو صلة مباشرة بما نعتبره أساس النهضة أى أداتها الرئيسة: وهو كتابة الصحافة المرجعية والروائية.

الحقيقة أن النهضويين قد اقتبسوا من الثورة الفرنسية وعلى نطاق أوسع من الثقافة والأدب الفرنسيين وسيلة تعبير هي: الجريدة. وبالتالى اقتبسوا بنية وركيزة تواصل مما يجعلنا نقول: إن العرب قد خطوا أول خطواتهم الصحفية بطريقة ليست نابعة منهم. من هنا فبعد أن فاق بونابرت أعداءه بتصديره للركائز العلمية وتأصيله للعلاقات بين الشعوب قام محمد على بتطوير مصر بدوره ارتكازا على هذه المقتطفات الغريبة من هنا وجب القول: إنه استنادا إلى الواردات خارجية المنشأ تطورت بعض أسس النهضة داخلية المنشأ، التى نعتبرها نحن أسسا "خارجية - داخلية" المنشأ، ونشير هنا إلى رأى باتريك كونتان[1] Patrick Quantin؛ الذى يعتبر أن اقتباس أفكار الآخر هو فى حد ذاته تجربة داخلية أى نابعة من الذات، وهو فى مرحلة تالية يكوّن ويولّد منتجا خاصا بالمقتبس.

من هنا يتوجب علينا -قبل الاهتمام بالنهضة فى حد ذاتها وبمعرفة كيف تأتى لها أن تنشأ- أن نلفت النظر إلى أن استخدام كلمة "رينسانس" ترجمة لكلمة نهضة ينشئ لبسا مع مرجعية غربية، وهى "النهضة الأوروبية فى القرن السادس عشر". وهو أمر لا يحظى بالكثير من القبول والرضا.

= أو "عالما عربيا" أو أنها كانت تدافع عن "أمة عربية" أو الأمة العربية، فهذه الحركة كانت تعى وفقا لرؤيتها ومعاييرها "عالما عربيا وإسلاميا" الهدف منه "الأمة"، وينبغى لنا هنا الإشارة إلى أنه لم يكن هناك إجماع على هذا الموقف وأن بعض النهضويين لم يكونوا يتوجهون إلا لأمتهم (جماعة دينية أو إقليمية).

(١) أقوال تم تسجيلها خلال واحدة من مداخلاته بعنوان: "تنوع النماذج والتجارب الديمقراطية فى أفريقيا المعاصرة" فى ندوة عقدت فى "كولاج دو فرانس" بتاريخ ٧ و٨ يونيو ٢٠٠٧ بعنوان: "العمومية الديمقراطية، هل هى نموذج جديد؟".

نلاحظ أولا أن التقريب بين النهضة العربية ونهضة أوروبا ليست واردة بالذهن. فالأولى هى يقظة "خارجية وداخلية المنشأ"، أما الثانية فمن بين سمات عدة تصفها هى "عودة إلى الماضى اليونانى الروماني" (توميش ٩٠١ Tomiche E. L. 901). ونضيف هنا أن الجذر "ن، هـ، ض" اشتقاقيا كان معناه عام ١٨٦٠ طبقا لقاموس بيبرشتاين كازيمرسكى "B. Kazimirski" هو الوقوف فى سرعة وعجلة"[١] أو القيام مع فرد الأجنحة استعدادا للتحليق (وتقال للطيور)، أو الانتصاب على الفرع (وتقال للنبات)، واسم الفاعل هنا طبقا لقول كازيمرسكى يعنى "الذى يقف"، أما اسم المفعول فيعنى "الواقف المنتصب القائم على قدميه". وكلمة "نهضة" فى حد ذاتها لم يكن لها وجود آنذاك فى المعاجم وكان من النادر استخدامها، كما لم تظهر إلا مؤخرا عام ١٨٩٠ فى الصحف. وما لم نخطئ فلم يشع ويتردد ويكثر استعمالها إلا بدءا من عام ١٩٠٢[٢].

ولم يظهر مصطلح "نهضة" بمعنى "اللحاق بركب" وبمعنى "المقدرة والقوة" وليس بمعنى "اليقظة المجتمعية والقيام" إلا فى معجم بطرس البستاني:

"محيط المحيط" (١٨٤٩-١٩١٢) وقاموس "البستان" لعبد الله البستانى (١٨٥٤-١٩٣٠). وبعيدا عن الصحافة والمعاجم فإن أول مرة استخدم فيها مصطلح "نهضة" ترجع إلى عام ١٨٧٠، حين استخدمه سليم البستاني (١٨٤٧-١٨٨٤) عام ١٨٧٠ خلال مؤتمر عقده بعنوان: "النهضة العربية"[٣] (Yagya Najarayan 2005)، أما عن شيوع استعماله واستخدامه من قبل النهضويين أنفسهم فقد جاء متأخرا جدّا عن هذا التوقيت، واستخدمه أغلبهم فى الصحافة المكتوبة فى نهاية القرن التاسع عشر. وقد تأخر استخدامه بتوسع فى الأعمال الأدبية إلى القرن العشرين. وعلى شاكلة ما شهده معنى مصطلح "النهضة" واستعماله من تطور متدرج نجد أن تكوين الحركة النهضوية والتصريح بمكنوناتها كانا هما أيضا يتدرجان فى تطورهما. ويلاحظ هنا بالضبط مثل (Yagya Najarayan 2005) أننا إذا وضعنا جانبا الدراسات التى تتناول أدب القومية العربية بشكل عام فإن النهضة لم تمثل محورا أو موضوعا رئيسيا فى دراسة، فلم يتطرق إليها أحد إلا باعتبارها خلفية تسمح بتحديد موقع عمل، أو مؤلف، أو حركة سياسية فى سياقها.

---

(١) صفة للكائن الحى أو الإنسان الذى لا يتوانى ويتصرف دون تأخير (TLFI).
(٢) راجع الفصل العاشر.
(٣) "لارينسانس آراب" "La Renaissance Arabe".

الواقع أن النهضة تمثل المشهد الزمكانى (الزمانى - المكاني) أى أنها أشبه بموجة مؤسس للأعمال والمؤلفات المكتوبة خلال فترة تكونها. ونخلص من ذلك إلـــى أن المؤلفات وتيارات الفكر العربى فى القرن التاسع عشر تعد فى الوقت ذاته مكونـــة للنهضة ومتكونة منها ولأجلها.

على الرغم من كل ذلك فإننا سنستخدم مصطلح "نهضة"، واختيارنا هذا ليس نابعا من قناعتنا أنه الأكثر ملاءمة لأداء معنى "النهضة" وإيصاله إلى الذهن؛ وإنما لأنه المصطلح الذى تبنته واستخدمته الجماعة العلمية. فنحن نفضل استخدام كلمـــة "نهضة" ذاتها وهى كلمة رسخت فى الذهن الأوروبى وتـــسمح بتفـــادى أى خلـــط أو لبس. ولنكن واضحين فإنه إذا كان علينا اختيار لفظة تعبر عن هذه الحركة التى سنسبر غور صحافتها لنقدم تعريفا صحفيا لها فسنختار بترتيب الأفضلية:

"استيقظ"، و"تقويم"، و"تجديد" و"تطهير" وسبب هذا الاختيار يرجـــع إلـــى أن "الاستيقاظ" (الذى لا يعد جديدا) هو إفاقة للعالم العربى والإسلامى فـــى مواجهـــة الغرب. وقد سمح هذا الاستيقاظ له بإدراك موقفه ووضعه فى نظر الغرب. والقول: إنه "تقويم" يرجع إلى أن هذه الحركة قد وضعت لنفسها هدفا هو تقـــويم المجتمـــع العربى بدءا من جذوره مع الاقتباس من جيرانها الأوروبيين. أما "التطهيـــر" فقـــد اخترناه لكون هؤلاء الرجال قد حاولوا بخطبهم الصحفية الجامعة لعدة أنواع أدبية(١)

(١) نعنى هنا بكلمة "Transgenerique" التقاء عدة أنواع أدبية تكون معا نوعا جديدا. دون انتقاص لأى منها. وهذا يعنى أن هذا النوع الجديد (راجع الحاشية التالية) يصبح هو ذاته نوعا قائما بذاته كما يرى إدوارد خراط. وهذا الالتقاء والمزج بين الأنواع لا يتأتى إلا لأن كل الأنواع التى تدخل فى تكوينه كاملة فى ذاتها مستقلة المعالم وقابل كل نوع منهـــا للتمييـــز. وهـــذا المعيار يرى بطرس حلاق أنه يفسد تعريفنا الذى يرى فى هذا المزج أسلوب كتابة الأنـــواع أدبيا قائما بذاته. فى هذا المزج لا يختلط فقط الشعر بالنثر؛ وإنما تختلط الأنـــساق النوعيـــة واضحة المعالم (...) مما يحيل النص إلى تكوين يضم شتاتا متناثرا من النوعيـــات. هـــذا التكوين الجديد هو بالضبط ما يطلق عليه transgenerique ونعتبره نوعا انتقاليا إما إلى نـــوع أدبى كائن بالفعل مع شيء من التجديد (مثال ذلك: مقامة القرن التاسع عشر) أو إلى نـــوع أجنبى (مثال ذلك الرواية الفرنسية) أو إلى نوع جديد قائم بذاته (الرواية العربية). "(بطرس ٢٠٠٨ ص٤٠٦) راجع أيضا فى الصدد ذاته مؤلفه ٢٠٠١ ص١٥٧-١٦٦ السابق ذكـــره ص٤٠٧ وص٤١٣. من هنا يمكننا القول: إن التطور الأدبى مثله فى ذلـــك مثـــل التطـــور المجتمعي، على الأقل فيما يتعلق بالأنواع هو انعكاس لتوزيع بين الاقتباســـات والمـــصادر الذاتية أى بين ما هو خارجى وداخلى المصدر والمنشأ.

والمستخدمة لها أحيانا فى نص واحد(١) تطهير تقاليـدهم وعـاداتهم الاجتماعيـة والدينية بل كتاباتهم الشعرية والنثرية فى آن واحد(٢).

فى هذا الترتيب للأفكار يتوجب الالتفات إلى أنه فى أدب النهضة توجد أنماط مختلفة من "النهضة" باعتبارها حركة مجتمعية وأدبية وثقافية وأيديولوجية. وهـذا يعنى أننا أمام إما عدة مراحل فى نهضة طويلة أو عدة نهضات(٣) أيا مـا كانـت المسلمة المختارة فإنه يتوجب تقسيم الفترة الطويلة إلى فتـرات قـصيرة ليتـسنى دراستها مع الأخذ فى الاعتبار ما قبل رأسمالية العالم العربى والإسلامى وما بعدها أى ما قبل عام ١٨٠٠ وما بعد عام ١٨٨٢. وإذا ما رأينا مد هذه الدراسة إلى أبعد من القرن التاسع عشر، ففى هذه الحالة يكون هناك ما بعد عام ١٩٠٨ أى ما بعـد ثورة تركيا الفتاة وما بعد عام ١٩١٤ (الحرب العالمية الأولى) وما بعد عام ١٩٦٧ (حرب الستة أيام).

بل وما بعد عام ٢٠٠١ (الحادى عشر من سبتمبر) وغيرها من التـواريخ. فيما يخصنا، رأينا التوقف عند الفترة التى ظهـرت خلالهـا الـصحافة العربيـة المكتوبـة، التـى شـارك فيهـا إبـراهيم المـويلحي. فـى هـذه الطريقـة القائمة على التقسيم الزمنى لفترات قصيرة تسهيلا للدراسة هناك بالفعل ما يمكـن تقسيمه ما دامت النهضة لم تعرف مرحلة واحدة. فياغيا ناجاريان Yagya Najarayan يرى فيها على سبيل المثال مرحلتين ويعتبرهما مرحلتين فى النهضة الكبـرى(٤)، وهو يحللها إلى فترتين: فترة النهضة الثقافية القومية –وهـى موضـوع كتابـة– ونهضة سياسية قومية يعتبرها وعن حق استقطبت بشكل كاف وربما حصرى انتباه الدراسات التى تناولت النهضة. تمتد النهضة الأولى من بونابرت عام ١٧٩٨ إلـى

---

(١) نعنى بكلمة Multigenerique استخدام عدة أنواع فى نص واحد أى فـى حكايـة أو خطـاب صحفيين وهذا ما يعنينا. ومن هنا فإن ما يعرف بـ Multigenerique هو فى حد ذاتـه الـ Transgenerique فى مرحلة الخلط والمزج بين الأنواع ودون ما ينجم عن هذا المـزج مـن نتائج أى دون الوصول إلى نوع انتقالى أو أجنبى أو جديد.

(٢) أى هذه النهضات متفرقة أو مجتمعة. فى حالة انضمام نوعيتى الكتابة يكون هناك مزج بين نوعين رئيسن من الأدب (الأدب العربى الكلاسيكي). نوعان يميز بينهمـا وبـين الأنـواع الأدبية التى نطبقها على كافة أساليب الكتابة النثرية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نفصلها عن الأنواع الثيماتية التى نطبقها على الكتابة النثرية والشعرية (مثل شعر الغزل والروايـة الاجتماعية التى تكون الثيمات المتناولة بها هى العشق والاجتماعيات).

(٣) راجـع لاروى Laroui ١٩٧٤، ص٢٢٣، و١٩٨٦ ص٣٧٨، وأمـين ١٩٧٦، ص١٥٦، وغالى ١٩٨٣ ص٣٦٣.

(٤) ممتدة من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين.

ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨، أما الثانية فتبدأ من هذه الثورة وتستمر حتى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤. وهناك آخرون يقسمونها إلى ثلاث مراحل مضيفين إلى المرحلتين المشار إليهما عالية مرحلة إضافية تمتد من عام ١٩١٤ وحتى عام ١٩٤٥. ويذهب بعض ثالث إلى اكتشاف وجود مرحلة رابعة تبدأ من عام ١٩٤٥ وتمتد حتى عام ٢٠٠٠[١].

يعنى ذلك أن النهضة قد عرفت أكثر من مقترح للتقسيم من وجهات نظر زمنية وأيديولوجية وتاريخية بل سياسية وأدبية.

فيما يتعلق بنا سننطلق من مسلمة أولى تنسب النهضة إلى العالم العربى والإسلامى وتطلق عليها: "النهضة العربية الإسلامية"، مرتكزين على مبدأ أن هذه النهضة الكبرى الشاملة قد عرفت مركزا أوليا هو لبنان وسوريا ومركز لجوء وهو مصر. ولن يجعلنا هذا نراها مصرية أكثر منها سوريا ولبنانية فهى بالنسبة إلينا نهضة عربية وإسلامية. إلا أننا إذا ما تراءى لنا احتياج ما سنقول: "النهضة فى مصر أو فى لبنان أو فى سوريا أو فى تونس.. إلخ أو النهضة العربية أو النهضة الشرقية". وهذا لا يعنى انتقاصا أو إعادة للنظر فى مشاركة كل بلد فى هذه النهضة الكبرى. الأمر إذن لا يعنى طمس الطابع الشخصانى أو القومى لهذه الحركة؛ وإنما إبراز أن المسألة القومية وفقا لكل بلد على حدة لم تكن فى القرن التاسع عشر ذات تأثير بعد، كما أصبح الأمر بعد ذلك فى القرن العشرين. وبالتالى فسمات هذه الحركة وملامحها كانت إذن دولية، فقد كانت مكونة من مشاركات وإسهامات مصرية، وسورية، ولبنانية، وتونسية وأخرى.

أما تقسيم النهضة إلى فترات زمنية قصيرة تسهيلا للدراسة فسنقوم بها فى الوقت اللازم؛ ذلك أننا نفضل أولا رؤية الكيفية التى نشأت بها هذه الحركة واستمرت عليها خلال هذه الحقبة الزمنية، وقام بتنظيمها هؤلاء الصحفيون – الفاعلون والضالعون بها. وفيما يتعلق بتحديد نوعية النهضة التى سنعكف على دراستها فسيتضح ذلك من خلال الصحافة المكتوبة؛ أى إن ذلك سيكون مواكبا لدراستنا لمادتنا العلمية؛ وبذا فنحن نترك للكتاب الصحفيين الفاعلين مهمة شرح ووصف الثيمات الرئيسة والملحقة (باستيقاظهم وتقويمهم وتجديدهم وتطهيرهم). ويمكننا القول مؤقتا: إن هذه النهضة توصف وعن حق بالنهضة الثقافية والأدبية

(١) راجع أعمال سمير أمين.

والاجتماعية والسياسية والإصلاحية، غير أنها نادرا ما يقال عنها نهضة صحفية. لنرى إذن ما اقتسمته النهضة الكبرى من صفات مشتركة مع واحدة من فروعها وهى النهضة الصحفية.

باعتبار مصر المركز الرئيسى والملجأ والملاذ للنهضة فإن تاريخ هذه النهضة مرتبط بأرضها التى شهدت إرهاصاتها وازدهارها وانحدارها. نذكر هنا أن تاريخ مصر الحديث يبدأ وفقا لرأى غسان توينى لا بسقوط الدولة العثمانية عام ١٩٢٢؛ وإنما بمقدم محمد على عام ١٨٠٥[1]. فالحقيقة أنه إبان حكم هذا الباشا الكبير بدأ التطور الحضرى والتقنى والصناعى والعسكرى والزراعى والعلمى وتطور المواصلات ذات النوعية الحديثة. وقد أدت سياسة الانفتاح التى انتهجها محمد على إلى دخول الغرب إلى الشرق الأوسط الذى كان قبل هذه الإطلالة على العالم الحديث منغلقا وممنوعا على الغرب (لاكوتور Lacouture etal ٢٠٠٢، ٩)[2].

ويعد محمد على هذا الرجل الألبانى الذى جاء لمقاومة قوات بونابرت الفرنسية تحت اللواء الإنجليزى ممثلا لمنعطف فى تاريخ مصر التى مع بقائها ولاية فى الإمبراطورية العثمانية كانت قد أصبحت مستقلة بذاتها تتمتع بسياسة جديدة تماما على العصر والإقليم. وقدومه كما وصفه غسان توينى "الحدث الأكبر الذى قلب الإمبراطورية العثمانية رأسا على عقب" (لاكوتور ٢٠٠٢، ٢٠٠٩).

---

(١) بينما يرى آخرون مثل بيتر جران Peter Gran أن البدايات تعود إلى القرن الثالث عشر لا إلى القرن التاسع عشر، راجع جران ١٩٩٨ (١٩٧٩) ص٥٧، ٢٧٨، الحقيقة أن مسألة معرفة "التاريخ الذى تعود إليه بدايات التجديد فى مصر" أو فى أى مكان آخر تبقى مركبة ومختلفة باختلاف طرق تناولها وفى نهاية الأمر أليس العالم فى تطور وتجديد دائمين؟ هل يمكننا الجزم أن حركة مجتمعية، خاصة من هذا النوع، يمكنها الاستمرار أو الاختفاء فى تاريخ أو آخر؟ إذا كانت الإجابة بالإيجاب يكون تحديد موعد انطلاق أمرا ممكنا. وإذا كانت الإجابة بالنفى يكون أمرا بالغ الصعوبة ومستحيلا تقريبا أن نقوم بتجديد بداية هذه الحركة المتجددة دوما التى قد لا ننسب لها بداية ونهاية؛ وإنما مراحل تطور وانتقال مع ذرى وهاويات. هذه هى رؤيتنا للنهضة التى لا يعد القرن التاسع عشر بداية لها؛ وإنما بداية لواحدة من مراحلها التطورية. وتعد القرون التالية علامات فارقة لانهيارها ومحاولاتها فى التجديد.

(٢) جون لاكوتور، غسان توينى وجيرار د. خوري، ٢٠٠٤ (٢٠٠٣) "قرن سدي" الشرق الأوسط العربى من الإمبراطورية العثمانية إلى الإمبراطورية الأميركية، بيروت، دار النهار، ص٣٧٨، Jsbn: رقم إيداع: ٣-٤٢٤-٨٤٢٨٩-٢ هذه الطبعة مستنسخة من الطبعة الأصلية التى ظهرت فى باريس عام ٢٠٠٢ لدى دار النشر إلبان ميشيل ورقم إيداعها: ٢-١٣٤٨٣-٢٢٦-٢.

ونشير هنا إلى أنه لا أسباب ومدعاة مجيئه إلى مصر ولا أصوله الألبانية قد أدت إلى اعتباره أجنبيا أو بتداعى الأفكار المنطقية إلى اعتبار ما جلبه خارجى المصدر والمنشأ. وعلى الباحثين أخذ هذه النقطة فى الاعتبار على الأقل فى تقديرهم لما هو داخلى المنشأ وخارجى المصدر لهذه الحركة، علما أن أوروبا فى ذاك الوقت كانت تعيش عصر ما قبل الاستعمار، ولم تكن قد بدأت بعد صراحة سباقها نحو اكتساب المزيد والمزيد من الأراضى الأجنبية؛ وإنما شرعت فى سياقها "المحضر والممدن".

ارتدت قناع الصديق الجالب للتقدم والحداثة للبلدان الأخرى التى كانت تعتبرها فى حالة تخلف كامل؛ ولكن هذا لم يحل بينها وبين منظورها المهيمن الإمبريالي. الحقيقة أن الأمر كان سباقا رأسماليا. أيا ما كان الأمر فإن هذه المعزوفة اشتركت فيها القوى الخمس الأوروبية التى يطلق عليها "تحالف القوى الخمس" (...) فرنسا – إنجلترا – روسيا – النمسا – وألمانيا. وقد انضمت إليها عام ١٨٦٤ قوة سادسة هى إيطاليا (لاكوتور ٢٠٠٢، ٢٠١٠). جزء من أهداف هذا التحالف كان سياسيّا ومعلنا لإرهاصات ما عرف لاحقا بالقرن التاسع عشر الاستعماري(١).

فى هذا السياق التاريخى الذى كانت فيه القوى الأوروبية متورطة فى نوع من التنافس على المركز الأول بين الدول الممدينة، ثم المركز السياسى على مستوى العالم، جاء ألبانى إلى مصر وقلب مواضع الأشياء رأسا على عقب على المستويين العثمانى والأوروبي. فى هذه الأجواء من التحديث والتسييس وفى خضم الانتقالات والحركات بين الشرق والغرب نشأت حركة أخرى داخلية. هاجر اللبنانيون والسوريون إلى مصر رمز الحرية والحداثة آنذاك، وشاركوا فى إظهار الصحافة إلى الوجود أى فى النهضة، وبعبارة أدق فى تقويم المجتمع وإرشاده إلى هذه الحداثة المفقودة والمطلوب استعادتها(٢).

---

(١) راجع جران Gran ١٩٩٨ (١٩٧٩) ص٢٧٨.

(٢) نعنى هنا أن الحداثة ليست بالضرورة واحدة ومتفردة وأن الشخص العادى العربى والإسلامى فى ذاك الوقت قد عرف إذن حداثته حين كان منضويا تحت لواء الحضارة الإسلامية، كما كان الفراعنة على درجات متفاوتة من الحداثة وفقا للأسر التى ينتمون إليها. كذلك عرف اليونانيون والرومان حداثتهما. وقد حظى القرن التاسع عشر بحداثته التى=

حدد هؤلاء الرواد لأنفسهم مهمة تربية وتعليم المجتمع (الأمة)[1]، وقد أولوا التربية والمأسسة أهمية كبرى. وكان جل همهم آنذاك أن ينجحوا في إرساء ركيزتين غربيتي المنشأ[2] (السياسة والإدارة) مع محاولة البقاء على ولائهم للإسلام. وكان هذا تحديدا القياس الأقرن" (الديلمة) الذى أقلق كبار المفكرين تماما مثلما أقلق هواة هذه المحاولة للإفاقة المجتمعية العربية والإسلامية. من هنا فقد حاول هؤلاء أثناء تفكيرهم وفى مختلف كتاباتهم، ويعنينا منها الصحفية (المرجعية والروائية) التوفيق بين الحداثة والتقاليد. ولم تكن إجابة هذا التساؤل الرئيسى لا كاملة ولا مرضية حتى بالنسبة إلى من توصلوا لها. وقد طولب دوما أن تكون هذه الإجابة داخلية المنشأ، نابعة من الداخل بالنظر إلى ما قام به محمد على داخليّا، وجدير بالذكر أنه يمكن اعتبار مشروع محمد على هذا خارجى المنشأ نظرا لكون القائم به ألبانيا لا عربيّا.

= وصفت بالصناعية والعلمية تماما مثل القرن العشرين الذى يقرن بالحداثة التقنية و"بدرجات الاستهلاك القصوى". من هنا فنحن لا نعتقد بإمكانية الحديث عن "حداثة واحدة دولية أو كونية"؛ وإنما عن أنواع متعددة ومتباينة من الحداثة. وبالتالى فكل تاريخ وكل ثقافة يشارك فى تعريف حداثته. هذا المفهوم هو الوحيد المؤكد لسيرورة الإنسانية فى تجدد دائم ويفسر هذا تعبيرنا الخاص "بالحداثة المفقودة"، أما عن إضافتنا لصفة "المتجددة" فهى تسمح لنا بالتأكيد على كون النهضويين قد حاولوا تجديد حداثتهم كما حاولوا تجديد انتمائهم الممدين. ويسمح لنا هذا بالقول: إنهم قد سعوا تحديدا لتقويم مجتمعهم باقتباس ما جلبوه من الخارج وأقلمته مع مصادرهم الداخلية التى كان يجرى تجديدها.

(١) ينبغى لنا هنا الاتفاق على ما أسميناه "بالأمة" فهناك مقاصد عدة نسوق منها: الأمة العربية الجامعة لكل العقائد والأديان بالإضافة إلى الإسلام فى كل البلدان دون تمييز (طبقا للعالم العربى والإسلامى الذى اتخذناه قاعدة للحديث عن العالم النهضوى آنذاك).
٢) الأمة العربية (طبقا للنهضويين الذين يعتبرون الأمة عربية).
٣) الأمة الإسلامية (طبقا للنهضويين الذين يعتبرون الأمة إسلامية).
٤) الأمة العربية – الإسلامية (طبقا للنهضويين الذين يعتبرون الأمة عربية – إسلامية).
ولنذكر هنا أنه من الصعب وأحيانا من المستحيل تحديد الأمة التى يقصدها النهضويين بحديثهم؛ لذا نقوم كلما كان ذلك ضروريا بتحديد ما يمكن أن يكون مقصود منها.

(٢) ما دمنا نعتبر أن الاقتباس لا يكون اقتباسا إلا فى اللحظة التى يتم فيها، وأنه تنتفى عنه هذه الصفة بدءا من اللحظة التى تنضم فيها مكوناته وتتكيف مع مصادره الخاصة. كذلك الأمر بالنسبة إلى الأفكار التى تصبح تجربة شخصية اعتبارا من اللحظة التى تقرن فيها بأخرى تكون لدى المقتبس نفسه.

ومن المؤكد أنه على هذه الأسس -المعروفة والمقبولة باعتبارها نابعة من مصادر داخلية- تم النظر إلى أسس التغيير فى مصر وفى العالم العربى الإسلامى فى بداية القرن التاسع عشر. وقد تم التعبير عن هذا المشروع بعدة مجالات عمل منها الحضرى والصناعى والزراعى والتربوى والتعليمي.

كان لزاما لإنجاز هذا المشروع المجتمعى الشامل أن يكون هناك تواصل واتصال بين الباشا ورعاياه، ثم بين الباشا والغرب ولاحقا باسم الأمة، من هنا فقد أصبح الاتصال شيئا فشيئا مركز اهتمام سياسى فى مصر والعالم العربى والإسلامي. وقد ترتب على ذلك قيام النهضويين بعرض ومناقشة رهانهم هذا الخاص بالمجتمع العرب، فى الصحف بشكل أساسي. وتعد عملية وضع هذه الكتابات فى هيئة كتاب آخر مراحل تطور أولى للنشر الدوري.

نادرون أولئك الذين أمكنهم الوصول إلى هذا النوع من الإنتاج النهائى، فقد توقف أغلبهم عند مرحلة المقالات المنشورة هنا وهناك فى صحيفة أو أكثر. أصبحت الدورية هذا السبيل للتواصل والاتصال أداة النهضويين الرئيسة. بفضلها ومن خلالها استطاع الصحفيون المرتجلون والمتمرسون التحريض والدعوة إلى الفعل؛ وولدوا خواطر ونقلوا أفكارا بل مثاليات سرعان ما أصبحت ثوابت جماعية للعالم العربى والإسلامي. من هنا أصبحت الصحيفة رابطا تتواصل بواسطته الصفوة العاملة بالصحافة والجماهير أى الأمة. من خلال هذا الرابط تم ضخ الطاقة التى أرادات الصفوة شحن باقى الشعب بها؛ وبذا أصبحت الصحافة المكتوبة الموضع الذى انبثق منه ما كون هذه الحركة المجتمعية المعروفة بالنهضة.

ننتهى هنا إلى القول: إن النهضة العربية فى مصر كانت فى بداية الأمر حركة من قبل الدولة، قام بها محمد على، واستجاب لها المصريون وعرب المشرق بل تطوعوا لإنجاحها من خلال التعليم والترجمة والكتابة فى الصحافة.

النهضة إذن عملية تطوير حضرى صناعى اقتصادى سياسى إدارى تربوى تعليمى زراعى اجتماعى ثقافى وأدبى، رمى محمد على فى مصر أساساتها الأولى. وقد استؤنف هذا المشروع بعد تطبيق الحماية الإنجليزية على مصر عام ١٨٨٢

بواسطة جزء من الشعب لم يكن في حوزته إلا الأقلام الصحفية سلاحا. من هذه الزاوية وطبقا لكل ما كتب فى هذا الصدد فإن النهضة فى مصر قد عرفت مرحلتين خلال القرن التاسع عشر. تمتد الأولى من عام ١٨٠٥ إلى عام ١٨٨٢ ويمكن أن يطلق عليها مرحلة وضع الأساس الضرورى لبناء مجتمع حديث على الطريقة الأوروبية، أما الثانية فتمتد من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٠٨ وتتلخص في مقاومة الإمبريالية الأوروبية. الحقيقة أن وصول الإنجليز إلى مصر عام ١٨٨٢ يمثل تغيير وجهة فى الفكر المصرى والعربى تجاه الغرب؛ أى تجاه هذه الحداثة الغربية المرغوب فيها، التى تم الادعاء بكونها عالمية كونية من قبل الغربيين. مع مقدم الاستعمار وإدراك مدى هذا العدوان الأوروبى تبددت بعض أوهام النهضة التى كان من أهدافها الرئيسة إدخال مصر وبصورة أوسع العالم العربى في زمرة الأمم المتحضرة على شاكلة هذا الغرب النموذجي. تحولت الصلة بهذا الغرب الذى كان يدعى الصداقة إلى صدمة الواقع أن أوروبا والغرب لم يكونا يوما صديقين للعالم العربى والإسلامى أو الشرق. لم يتجاوز الأمر يوما سرابا سعت أجزاء من الشعوب الشرقية والغربية إلى الإيمان به وتوقف الأمر عند هذا الحد.

"كان دور أوروبا الأساسى إذن هو دور الوصى والحليف السياسى (...) إلا أن الأزمة الشرقية فيما بين عامى ١٨٧٥ و١٨٧٨ بينت أن جيوش القوى الأوروبية كان يمكنها الوصول إلى قلب الإمبراطورية (...) والأمثلة الواضحة على ذلك هى احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ واحتلال إنجلترا لمصر عام ١٨٨٢. اعتبارا من هذا التوقيت حدث تغير جذرى فى فكر الشرق الأوسط السياسي"[١].

اعتبر أول جيل نهضوى (١٨٠٥-١٨٨٢) هذا الاحتلال عدوانا وإهانة من بين إهانات أخرى لإنجازات محمد علي. وفى الآلية القائمة على مواجهة هذا الوضع الجديد كانت النهضة شعبية وغير تابعة للدولة؛ أى أنها بدأت من القاع وليس من القمة. أداتها الرئيسة فى ذلك هى التواصل بواسطة الصحافة المكتوبة من

---

(١) حوراني، ١٩٩١، ص١٠٧.

خلال عدة صحف تصدر لا باللغة العربية فقط؛ وإنما باللغة التركية واللغات الأوروبية أيضا. فى هذه المجلات والصحف تمت مناقشة مصيرى الأمة والوطن(١) والمشروعات الإدارية، والقانونية، والمؤسسية، والتربوية، والاقتصادية حتى السياسية والمالية.

قامت النهضة إذن فى البداية من جانب الدولة بوضع أسس تطوير البلد؛ فى شكل بنية تحتية منظمة ومزودة ببنيات هيراركية وتقنيات جديدة على النمط الغربى، ثم أصبحت شعبية فى تطور الأفكار وتقدم الفكر العربى الحديث. من هنا فقد كانت النهضة هى هذه الحركة التى شارك فيها طيلة قرن كامل وذكر فيها رجال السياسة والسياسيون والمثقفون وصولا إلى كيفية تطوير العالم العربى والإسلامي. كان هدفهم جميعا توصيله ورفعه إلى مصاف الأوطان التى يقال عنها متحضرة، أما مشكلتهم فكانت تحقيق ذلك مع البقاء فى توافق مع ذواتهم. كان الرهان والتحدى فى هذه العملية التى سرعان ما تشكلت واتخذت "النهضة" اسما لها أن توجد تصالحا بين ما يجلب من الخارج وما ينبع من الداخل. استقرت مسألة الهوية فى قلب النقاش، وتشكل هذا ما اصطدمت به أجيال المفكرين النهضويين واحد بعد آخر ودون استثناء.

وربما كانت المشكلة تكمن هنا حتى يومنا هذا. بالطبع كان السياق يتغير من جيل إلى آخر، وكانت الإشكالية تتطور مع هذه التغييرات فى الأوضاع، إلا أن المسألة بقت كاملة. والواقع أنه فى ذلك تحديدا يقبع فشل النهضة فهى لم تستطع قط تجاوز هذه المسألة المحورية الخاصة بالتوفيق بين الإسلام والحداثة، بين الخضوع والامتثال من ناحية والعقل من ناحية أخرى، بين الطاعة لله والإذعان للقدر

(١) راجع بشأن هذين المصطلحين الملحق ٦: "قاموس لغة الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر". ونلاحظ هنا أن الأمر كان يتعلق بأمة ووطن كل العرب وكل المسلمين فى العالم بأسره. كان العرب يعتبرون أن وطنهم هو العالم العربى والمسلمون يعتبرون الأرض كلها كذلك، وهو ما كان إبراهيم المويلحى يفكر فيه فبالنسبة إليه لا يجب أن تكون هناك حدود بشرية تقام بين أبناء الدين الواحد فالمسلمون فى رأيه إخوة متحدون رغم المسافات الجغرافية (راجع الفصل الثامن الفقرة ٤). غير أنه وكما سنرى لم تكن الأمور بهذا الحسم. وبالتالى لم ينج إبراهيم من التناقض والازدواج اللذين سادا فى أذهان النهضويين آنذاك خاصة فيما تعلق بمفهومى "الأمة" و"الوطن"، وقد تطورت رؤيته للأشياء قليلا مع الزمن.

والمبادرة البشرية (باعتبار الإنسان مشاركا فى أقداره). أيا ما كان الأمر فلهذه الانشطارات لم يحدث أن وجدت يوما إجابة جماعية واحدة مقبولة من الجميع. على الرغم من تعدد الأفكار التى اقترحت ونوقشت على مدى سنوات طوال فإنه لم يتم التوصل إلى إجماع. وبعيدا عن الصعوبة التى وجدها المسلمون فى إيجاد رد يجب ألا ننسى أن السياقين السياسى والاجتماعى لم يساعدا بشيء فى هذا البحث عن الهوية. لفهم أفضل ما تثيره وتبطنه هذه المشكلة وسبب بقائها دون رد حتى الآن لنر معا المراحل التى اضطر مفكرو النهضة إلى اجتيازها.

٢- أفكار النهضة وخواطرها: التعليم والوعظ والإرشاد

لفهم هذه الحركة المسماة بالنهضة ورهاناتها من الضرورى تناول المراحل والمفاهيم التى انطلاقا منها تكوَّن الفكر النهضوي. من هنا نجد أن مسيرة أهم الفاعلين بها والضالعين فيها أرضا طيبة لإدراك ذلك. فمسيراتهم متماثلة فى بعض النقاط ومتعارضة فى نقاط أخرى، وفى ذلك تحديدا يكمن ثراؤها وأهميتها. استطعنا فى السابق تقسيم النهضة إلى مرحلتين زمنيتين استنادا إلى معيار تاريخي؛ وذلك بالنظر إلى الإصلاحات الحكومية والأحداث السياسية التى منها الحملة الفرنسية ومقدم محمد على، وأخيرا الإنجليز إلى مصر. فى داخل هاتين المرحلتين تتوارى مراحل فرعية يتبدى وجودها كلما درسنا أفكار هذه الحركة وخواطرها. هذه المراحل الفرعية ستظهر بتقدمنا فى هذه الدراسة وبالتالى سيكون لدينا رؤية شاملة للنهضة وفقا لمعايير تقسيم زمنى مختلفة.

وسنلاحظ بفضل دراسة المادة العلمية كيف عاشها واستوعبها وعبر عنها هؤلاء الكتاب الصحفيون الضالعون فيها. ما يهمنا هنا هو التعرف على الأفكار المكونة والمشكلة للنهضة الصحفية، ورؤية إذا كان فيما بينها ما يمكن أن يكون مشتركا مع النهضة فى مجملها أى مشترك ثقافي، وأدبي، وسياسي، واقتصادى واجتماعي.

ما نصبو إليه أيضا هو اكتشاف كتابات ومفاهيم غير منشورة، أو إعادة اكتشاف للأفكار النهضوية من زاوية جديدة وتحديدا صحفية؛ لإتمام هذا الأمر لنر ما نعرفه عن الفكر النهضوى بحيث يمكننا لاحقا إدراكه بصورة أفضل انطلاقا من الكتابات الصحفية.

لنبق أولا فى الذهن أن "تناول النهضة العربية المعاصرة أو ما اتفق على تسميته بذلك يلائم ويريح مؤرخ الأفكار تماما مثلما يريح ويدعم عالم الاجتماع الثقافى، الذى تشغله كل المخاوف التى غالبا ما تثيرها النهضات عبر العالم" (روسيون Roussillon، ٢٠٠٠، ٢٩١). وكذلك الأمر بالنسبة إلى المتخصصين فى الأدب العربى وتاريخ الصحافة العربية المكتوبة وتاريخ الفكر فى مصر وفى العالم العربى الحديث.

الحقيقة أن النهضة ليست الشغل الشاغل القاصر على مؤرخى الأفكار، أو علماء الاجتماع الثقافى، أو المتخصصين فى الأدب. فهى تشغل أيضا مؤرخى الصحافة سواء أكانت صحافة أدبية، أو سياسية، أو علمية. وهى تعنى أيضا مؤرخى تاريخ الأدب الصحفي. وبذلك تعد "موضوع – ملتقى" جامع، وهو ما يزيد المهمة صعوبة؛ ولكن فى الوقت ذاته يضفى عليها فيضا من الحيوية. فى هذا الإطار وانطلاقا من هذه الصفة تنشغل أطروحتنا بالنهضة التى قبل أن تكون الفترة الزمنية التى كتبت خلالها مادتنا العلمية (فترة إلقائها وتبويبها) كانت الموضوع الذى تناولته الصحف (نصوص صحفية) المكونة لمادتنا العلمية. بعيدا عن هذه الاعتبارات، لنضف هنا أنه لا ينبغى أن يخفى عن أعيننا أن الجريدة كانت الناقل والمحرك لإنتاج الأفكار والخواطر الجديدة المكونة للفكر النهضوى وأدبه أيضا. ودراستنا استلهاما من مادتنا العلمية ذاتها تنحو إلى تناظم فروع العلم المختلفة. كانت النهضة إذن متناظمة أى متعلقة بأكثر من علم ومستعرضة، وكذلك أفكارها وخواطرها. كان للمفكرين ميول متشابهة وأخرى متباعدة من هنا؛ فالفكر النهضوى كان مكونا من قناعات هشة وتناقضات. إذا لم نتمهل أكثر أمام هذا الفكر فنحن

نخاطر بعدم فهمه. ففى هذا العصر كان شائعا ويسهل تأكيد ذلك من خلال النصوص كما سنرى تباعا كانت الأقوال محل تناقض قوى ومؤلم.

الحقيقة أننا نفضل الحديث عن البحث عن الذات[١]. لم يكن الموقفان السياسى والاجتماعى بالبسيطين، ولم تكن مهمة النهضويين باليسيرة، بل كانت أقرب إلى المستحيل من فرط صعوبتها. وقد ساهم كل ذلك فى تكوين نخبة مرتجلة وغير معدة مسبقا تحت ضغط موقف ليس بالفردى أو الجماعي؛ وإنما إقليمى المستوى إن لم يكن دوليًا، فقد كانت تشمل مصر ولبنان وسورية على جانب تونس والجزائر والهند الإسلامية أى إجمالا العالم العربى والإسلامي. ولفكر النهضة امتداد مكانى على شاكلة امتداد النهضة ذاتها. غير أن الجزء الأساسى بها حدث فى مصر مهد الحرية فى إمبراطورية عثمانية كان منظورا إليها فى تلك الحقبة باعتبارها ظالمة جائرة.

ذكرنا فى إيجاز أن النهضة بدأت أولا خارج مصر بنشاط المسيحيين السوريين واللبنانيين، من هنا يمكن اعتبار النهضة قد بدأت مع قدوم المطبعة النابليونية أو مع مشروع محمد على باشا. غير أنه لا يجب أن يغيب عن أنظارنا أن صرامة الوجود الأجنبى للفرنسيين مع بونابرت وفترة حكم محمد على لم تكن بالمواتية لحرية التعبير عن الفكر وكان هذا الأخير نسبيًا حرا. ومن المهم هنا التذكير أن كل ما كان يصدر عن النهضة لم يكن ثمرة هذه الحركة فقط؛ وإنما أيضا نتاج استمرارية الفكر والثقافة والأدب العربيين مجتمعين عبر الزمان. لم يكن الأمر يتعلق إذن بفصم أو قطع؛ وإنما باستمرارية.

ولنعد إلى القرن الذى يشغلنا؛ ففى سوريا ثم فى لبنان بدأت جذور الفكر الحر فى الإنبات. حلت حرب ١٨٤٠ – ١٨٦٠ ومزقت كل من سوريا ولبنان تحت القهر والجور العثمانى الذى كان يخشى أن تنتشر هذه الأفكار الجديدة سلوكا من التمرد بين أفراد الشعبيْن السورى واللبناني. فى هذه الآونة ظهرت مصر كملجأ

---

(١) راجع فى هذا الشأن لاروى ١٩٧٣ (١٩٦٧) ص٢٢٤ (Laroui).
وكيريسى محمد عاكف Kirecci Mehemet Akif (٢٠٠٧ صفحة IX).
وجورسل بوركو Gürsel Burcu (٢٩٠ صفحة VII).

وملاذ لرجال الفكر السوريين واللبنانيين المسلمين مثل المسيحيين. قبل قدوم السوريين واللبنانيين كان بعض المصريين قد شرعوا فى مهمتهم النهضوية التى تمحورت أول الأمر حول محاولة فهم أوروبا والحداثة بشكل أفضل. أما بعد وصولهم إلى مصر فقد تضافرت الجهود المصرية والسورية واللبنانية إراديا وغير إرادي.

لم يكن لأحد منهم هدف آخر غير إخراج العالم العربى الإسلامى من تخلفه وتوجيهه إلى التقدم الملائم للأمة فى مجملها أى المناسب لكل الأصول والأجناس والأديان. كان الأمر يتطلب إذن التوفيق بين الدين والتقاليد والحداثة، وهو ما يمثل جل اهتمام الفكر النهضوى ومحوره. الواقع أن المسألة الرئيسة كانت فى استعادة تقاليد قويمة تتفق والدين الحقيقى الذى كان مطلوبا تحديثه وتنقيته من ممارسات عدة دخيلة عليه. من هنا كانت المهمة الأكثر صعوبة أمام النهضويين المسلمين هى إثبات أن الإسلام لديه قابليه للتحديث وتطوير الحياة المجتمعية الإسلامية بشكل يواكب التقدم.

من هؤلاء الرجال نذكر أولا الجبرتي[١] (١٧٥٣/١٨٢٤-١٨٢٥)[٢] "الذى من فرط ملاحظته الدقيقة والمحددة لسلوكيات الفرنسيين" يمكن اعتباره الأب الوهمى أو الاعتبارى للنهضة والمبشر بكل التطورات اللاحقة" (روسيون ٢٠٠٠، ٢٩١) وهذا يعنى أننا لن نبدأ برجال القرن التاسع عشر؛ وإنما بأولئك المنتمين إلى القرن الثامن عشر. الحقيقة أنه لا يجب تجميد التاريخ عند يوم بعينه معترف به من قبل جزء من جماعة علمية أو من الجماعة بأكملها. وفى هذا الصدد نشير إلى جلبيير ديلانو G. Delanoue الذى أسهب فى مقدمته[٣] فى شرح كيف أنه من دراسة تاريخ الوعاظ ورجال السياسة، الذى كان يعتقده لاحقا لعام ١٨٨٢ قد أدرك عدم جدواه، إذا لم يلق نظرة على ما كان من حياة أولئك الذين عاشوا قبل عام ١٨٨٢

---

(١) راجع فيما يخص هذا المؤلف، ديلانو (a) ١٩٨٢، ص٧٣٩ وكمقدمة لقراءة هذه الكتابات راجع دونون Denon ٢٠٠٨ (١٩٩٨) ص٣٢٩.

(٢) ديلانو ١٩٨٢ (a) ١٩٨٢ ص١-٩٠.

(٣) ديلانو ١٩٨٢ (a) ص١٧× - ×١.

وتحديدا فى الفترة بين عامى ١٧٩٨ و١٨٨٢. يقول ديلانو فى الصفحات الأربع الأولى من مؤلفه الضخم:

"بدا لى أنه لفهم أفضل للفترة المشار إليها – وبالتالى أيضا للفترة التالية من التاريخ الثقافى والفكرى لمصر حتى يومنا هذا – يتوجب على العودة بالزمن إلى الوراء وتغيير نظرتى للأمر – لم يجب فى دراسة تتطلع لتفنيد الأفكار الدائرة حول المجتمع وأهدافه فى بلد مثل مصر حد الانتباه، والاهتمام برجال الفكر الذين احتكوا بشكل كبير أو قليل بالحداثة؟ الواقع أننا إذا أردنا تفادى الفهم الخاطئ لفكرة عن بلد أو عصر ما، ينبغى الإلمام بكل المشهد الفكرى لهذا البلد وهذا العصر"(١).

لهذا رأينا البدء من مدون الحوليات الجبرتي(٢) وصولا إلى هؤلاء الذين عاشوا فى نهاية القرن التاسع عشر. ونحن وإن كنا قد ذكرنا ذلك بوضوح نرى أنه لا يجب التغافل عما سبق القرن التاسع عشر أو إنكاره، كما لا يجب التطرق إلى فكرة الفصم أو القطع. غير أنه نظرا لضرورة تحديد الفترة محل الدراسة والمادة العلمية بالإضافة إلى المحاور اضطررنا للقيام ببعض الخيارات.

امتثالا لهذا المنظور رأينا دراسة إبراهيم المويلحى (١٨٤٣/١٨٤٦-١٩٠٦). لم يكن هذا الكاتب ينتمى بالضبط إلى جيل الجزء الأول من القرن التاسع عشر؛ ولكنه ينسب إلى المفكرين الذى يعدون من الرعيل الأول، والذين قاموا بأول فعل فى الصحافة والنشر قبل عام ١٨٨٢. ما يميز هذا الكاتب والصحفى – الفاعل هو كونه قد عاش الفترتين حتى إن كان منتميا لفترة ما بعد عام ١٨٨٢ أكثر منه انتماء لما قبلها، فكتاباته الأكثر اتساقا قد ظهرت إلى الوجود خلال ١٨٧٠، و١٨٨٠، و١٨٨٤، و١٨٩٦، و١٨٩٧ وفيما بين عامى ١٨٩٨ و١٩٠١ ثم ما بين عامى ١٩٠٤-١٩٠٥، كان إبراهيم المويلحى إذن من أوائل رواد الصحافة المكتوبة

(١) ديلانو ١٩٨٢ (a) ص١١×.
(٢) نشير هنا إلى دراسة تطور الفكر المصرى (والعربي) ستتم بالتنقل جيئة وذهابا من كاتب لآخر.

والنشر العربيين فى القرن التاسع عشر. فقد أسس فى الرابع عشر من جمادى الأولى عام ١٨٧٠ مع محمد عثمان جلال (١٨٢٨-١٨٩٨) واحدة من أوائل الصحف الحرة الشعبية غير الحكومية "نزهة الأفكار"[١] التى يعنى عنوانها الكثير.

ولكن على الرغم من العلاقات الوثيقة التى كانت تربط إبراهيم بالخديو إسماعيل، التى سنتطرق إليها لاحقا، فقد منعت هذه الصحيفة بعد صدور عددين منها، وفى الحادى عشر من نوفمبر من العام ذاته ١٨٧٠ أشارت دورية[٢] "وادى النيل"[٣] (النيل ١٨٦٦، القاهرة، أبو السعود) إلى صدور مؤلف جديد عبارة عن ترجمة كان إبراهيم قد شارك فى ظهورها باعتباره ناشرا. الواقع أنه قبل هذا التاريخ بعامين أى فى عام ١٨٦٨ كان إبراهيم قد أسس جمعية تحمل اسم "جمعية المعارف" وهى فى الأصل دار نشر حددت لنفسها مهمة إعادة نشر الأعمال القديمة مع ترويج الإصدارات الجديدة. من بين هذه الأخيرة الكتب المترجمة[٤] التى كما رأينا من قبل لعبت دورا أساسيًا فى ترويج "مذهب التعقلية العربية" خلال القرن التاسع عشر. هنا أيضا نجد نوعا من الشراكة بين محمد عثمان جلال وإبراهيم المويلحى الذى انضم إليه. قام الاثنان بترجمة عمل يتناول المسرح الإيطالى

---

(١) فيما يخص هذه الصحيفة راجع الفصل الثالث الفقرتين الثانية والثالثة والمجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (b) المنقول بها مقالات جريدة "وادى النيل" (العدد ٣٤ الصادر فى ١٨٧٠/٨/٢١ ص٢-٤) وجريدة "الجوائب" (العدد ٤٥٧ الصادر بتاريخ ١٨٧٠/٨/٣١ ص١-٣ الأعمدة ٣ و ١) بشأن "نزهة الأفكار".

(٢) نستخدم هنا مصطلح "دورية" وليس "صحيفة" أو "مجلة" لأنه فى الصفحة الأولى من هذا العدد من "وادى النيل" عبارة "صحيفة أهلية مصرية" و"كراسة" فى الواجهة وكلمة "صحيفة" يمكن ترجمتها "بورقة ودورية وجريدة" أما كلمة "كرامة" فقد تعنى "ورق مجمع فى غلاف أو ملحق جريدة". وقد اخترنا "دورية" التى تبدو لنا أكثرها حيدة وأكثرها احتراما للمعانى المبطنة فى هذا المسمى المختلف عن "الصحف" والمجلات التى كانت تنحو أكثر إلى تقديم نفسها "كجريدة" أو "مجلة".

لمزيد من المعلومات فى هذا الصدد راجع الملحق السادس "قاموس لغة الصحافة فى القرن التاسع عشر".

(٣) "حول هذه الجريدة" راجع الفصل الرابع.

(٤) لمعرفة ما تمت ترجمته إلى العربية خلال القرن التاسع عشر راجع إبراهيم فتح الله أحمد ونوال لطفى البشلاوي، ١٩٩٨، ص١١٥، وكاميليا صبحى ٢٠٠٣، ص٢٨٤ إلى الفرنسية وص٣٠ إلى العربية.

بعنوان: "ألعاب تياترات"[١] وهذا العمل يشير إلى انفتاح على الآخر واهتمام به ومعرفة باللغات الأجنبية ومنها الإيطالية.

هنا وقبل المضى قدما ينبغى لنا تحديد ما نعنيه "بالصحفيين النهضويين الفاعلين" وتحديد المعايير التى يستند إليها فى ذلك. يذكر لنا ديلانو فى هذا السياق ما يعنيه بكلمتى "الوعاظ والساسة":

"الوعاظ والساسة": نعنى بهاتين الكلمتين كل الرجال الذين بكتاباتهم وأحيانا فقط بما يعلمونه شفاهة قد اقترحوا على غيرهم –على نخبة مختارة ومعدة من مريدين أو افتراضيا على جمهور غير محدد أو على جموع الشعب– نماذج حياة وتعليمات ونصائح وخطط إصلاح. لن تدهش أن نجد بينهم –فى هذا العمل كما فى مصر القرن التاسع عشر– أغلبية كبرى من رجال الفكر من الطراز القديم من هؤلاء العلماء الذى سنتحدث عنهم لاحقا– هذه هى المجموعة التى تضطلع بمستويات عدة بواجب التعليم[٢] والإرشاد[٣] مفهومان قد يكونا غير قابلين للترجمة بشكل محدد؛ ولكننا سنحاول شرحهما أو بالأحرى سنحاول تبيان الكيفية التى تم بها تفعيلهما فى مجتمع وزمن محددين سلفا[٤].

ها هم الصحفيون – الفاعلون بالنسبة "لديلانو" – وعاظ وساسة بالمعنى الذى ارتأيناه: كل من بكتاباته الصحفية قد ساهم فى تشكيل الأمة، فى تعليمها وفى تربيتها، وفى توجيه خطاها، وفى تكوين المجتمع وإثراء ثقافته وتراثه العلمى

---

(١) راجع الفصل الثالث الفقرتين ٢ و٣ والمجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (٢) التى تم بها نقل جزء من هذه الترجمة بواسطة صحيفة "وادى النيل" العدد ٥٨ الصادر فى ١٨٧٠/١١/١١ ص٢-٤.

(٢) تعليم: هى الترجمة الشائعة لهذه الكلمة غير أن ما تفعله كافة جماعات المفكرين التى سنهتم بها هو أكثر من تعليم. تراودنا فكرة ترجمتها بـ"مذهبة" أو "غرس عقائد" لو لم يكن هذا المصطلح فى اللغة الفرنسية محقرا ومنتقصا.
(ديلانو، ١٩٨٢ (a) 15).

(٣) "إرشاد": توجيه الضمير إذا كان من يتم توجيهه فردا (...) توجيها معنويا ودينيا بمعنى أكثر شمولا واتساعا". (ديلانو) ١٩٨٢ (a) 15.

(٤) ديلانو، ١٩٨٢ (a) ص١٤-١٥.

والثقافي. صحفيونا الفاعلون يلحقون بوعاظ وساسة "ديلانو" فى نقاط مشتركة: فهم يضطلعون بهذه المهمة التى كانت على عاتق المفكرين العرب فى مصر فى القرن التاسع عشر:

إرشاد الأمة بالتعليم والوعظ. كان هؤلاء الصحفيون وعاظا كما سنرى. كما كانوا ساسة باهتمامهم بالسياسة التى كان يرتبط بها سلام الأمة وأمانها، غير أنهم فى ذلك كله كانوا مختلفين. البعض منهم مثل إبراهيم المويلحى كانوا من المقربين لرجال السياسة، بينما كان الآخرون بعيدين كل البعد. كان إبراهيم المويلحى على سبيل المثال سكرتيرا للخديو إسماعيل فى المنفى، ثم عضوا بالتعليم العثماني. آخرون مثل أخيه عبد السلام المويلحى (١٨٤٧-١٩١٠)[١] كانوا قريبين من الساسة باعتبارهم أعضاء فى مجلس النواب عام ١٨٧٦.

خلال هذه الفترة، كان الرجال المنتمون لهذا الجيل الذى عاش الأعوام من ١٨٢٠ إلى ١٨٨٢ فى مجملهم محافظين ومرتبطين كل الارتباط بالهيراركية ورجال الدين والمثقفين ويدعون بحماس لاحترامهم. غير أنه مع تزايد الإحباطات تحولوا إلى ناصحين ووعاظ لرجال الدولة والعلماء حتى للباب العالي[٢] وذلك تحديدا من عام ١٨٨٢ حتى نهاية القرن، بل ربما بعد ذلك أيضا. من هنا فقد كان صحفيونا الفاعلون وعاظا ومعلمين ومرشدين للمجتمع العربى والإسلامى فى زمنهم. وكما سنرى لا يوجد فى كتاباتهم ما لا يدعو لتحسين الحياة اليومية للأمة. كانوا جميعهم يدعون إلى تقويم المجتمع العربى وتجديده. لا يوجد مقال واحد منشور لا يتناول قضية الأمة ويقظتها[٣]. كانت الصحف الأداة والمكان الذى من خلاله يعمل الصحفيون الفاعلون للتغيير ولتطوير المجتمع العربى والإسلامي. ومن

---

(١) راجع فيما يخص هذا الشخص كل الأعمال التى تتناول إبراهيم المويلحى ومنها مؤلف راميتش ١٩٨٠، ص٤٥٤.

(٢) أى الإمبراطورية العثمانية التى كانت تمثل آنذاك الدولة المركزية للولايات والأمصار التابعة للإمبراطورية والتى حملت اسم الخلافة مع وصول عبد الحميد الثانى إلى الحكم عام ١٨٧٦.

(٣) يذكرنا ذلك بالبعد الدينى الذى كانت تحويه هذه النداءات والدعوات ومنها الدعوة للجامعة الإسلامية، التى كانت الخلافة تحتل فيها مكانا أساسيا فى فكر البعض ومنهم إبراهيم أو الأفغانى وعبده ومريديهم أمثال رشيد رضا.

خلال عملهم هذا أصبحوا وعاظا له وفاعلين بعملهم الوعظى المربى والمعلم الذى كانت أدواته الأقوال والكتابات. وسنتيقن من ذلك من خلال كتاباتهم أى من خلال أعمالهم التى نقلوا عبرها هذه الثقافة النهضوية الداخلية والخارجية الأصول بين الأحياء والاقتباس[1]. ومن هنا فلا يمكن إنكار الشطر الحديث فى فكرهم ولا التركيز عليه.

سنهتم على العكس من ذلك بطرفى هذا الفكر الذى يتشكل حتى نتمكن من تمييز الإبداع والابتكار من ناحية، والأساس من ناحية أخرى، والتفرقة بين القديم والحديث. هذا المزيج كما سنرى لم يثمر على الأقل كما كان القائمون عليه يأملون أو فى الاتجاه الذى كانوا يرجون أن ينحو إليه؛ وإنما أتى على الأقل بنتائج فى الوسط الفكرى العربى فى الشرق وفى الغرب، حتى إنه وصل إلى أميركا؛ حيث كان بعض النهضويين المنفيين يقيمون.

ويمكننا فى النهاية القول إن النهضة لم تتوقف عام ١٩٠٨، وهو التاريخ الذى عنده تنتهى مرحلتها الثانية. فقد استمرت حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى بعد ذلك (راجع الحاشية ١٥٤). بعد الحرب المشار إليها دخل النهضويون فى مرحلة يأس[2] لن نتناولها هنا - ويمكننا القول الآن وفى القرن الحادى والعشرين وتحديدا ٢٠٠٩: إن النهضة فى جميع الأذهان وتشير لها الصحف العربية الحالية بكثرة. واستعمال هذه الصحف لمصطلح النهضة بعيدا عن مرجعيته فى القرن التاسع عشر يستدعى تناوله بالدراسة عن قرب[3] ونذكر هنا أنها ترجع إليه كنقطة بداية وكمرجع. من هذا المنطلق يكون عادة عثورنا على تغيير "النهضة الثانية"[4]

---

(١) فيما يتعلق بهذين المفهومين ورهانهما النهضوى راجع حلاق وتويل Hallaq & Toelle ٢٠٠٧، ص ٧٨٧.

(٢) أمين، ١٩٧٦، ص١٥٦، وغالى ١٩٨٣ ص٣٦٣.

(٣) راجع رزق ٢٠٠٩ ص٢٣٩. كما أشرنا من قبل هذه "النهضات" وهذه النهضة الثانية سيأتى ذكرها عند الضرورة. غير أننا لا يجب أن ننسى أن محور أقوالنا هو نهضة القرن التاسع عشر. أما النهضات التى يأتى ذكرها فى الصحف والأبحاث الأخرى والدراسات الأحادية فى القرنين العشرين والحادى والعشرين فستكون موضوعا لدراساتنا القادمة.

(٤) هذه التسمية التى يلجأ إلى استعمالها الكثيرون ومنهم عبد الله لروى A. Laroui ١٩٧٤، ص٢٢٣ وأنور عبد الملك ١٩٦٩ ص٥٧٥ وآخرون ما زالت مستعملة. كان يمكننا توقع "النهضة الثالثة" أو "السادسة"... إلخ وفقا لنظرتنا للأمور. وأيا ما كان الرقم المقرون بكلمة "نهضة" فقد استقر الأمر على النهضة "الثانية" بعد النهضة الأولى. ومجرد دراسة هذه الظاهرة =

فى الصحف المصرية الحالية[١].

ودراسة النهضة، على الأقل فى رأينا ليست عديمة الفائدة. فهناك رابط سببى مباشر بين القرن التاسع عشر والقرون التالية له بما فيها قرننا هذا. قبل أن تكون ما تمثله بالنسبة إلى عصرنا (وهو ما كان يمثل مستقبلها) شكلت حاضرا لما مضى قبلها أى للقرن الثامن عشر[٢]. وباعتبار أن فهم الماضى هو مفتاح المستقبل، الذى يعد حاضرا للأجيال القادمة، فإن عدم معرفته، وعدم السعى لفهمه، وإدراك معناه العميق هو مخاطرة بتكراره بل وعمل الأكثر سوءا منه[٣]. من هنا فإن اهتمام النهضة بالماضى هو المساهمة فى عيش الحاضر بشكل أفضل. سيتساءل البعض بالقطع: "ولكن لمن؟" من المؤكد أنه للعرب؛ ولكن ليس من أجلهم وحدهم؛ أى أن ذلك يحدث للشرق والغرب أيضا، للذات وللآخر، لفضاء - العالم الذى يعد وجهاه الأساسيان هما هذا الشرق وهذا الغرب.

= فى حد ذاتها هى دراسة كاملة تسمح نتائجها بإيضاح سبب وجود هذه التسمية المميزة بين الأولى والثانية. ونشير هنا إلى أنه عندما يتعلق الأمر بالنهضة الثانية التى تحمل هذا الترتيب حتى لو اعتبرت الثالثة والرابعة. هل هذه علاقة بالزمن (القرون ١٩، ٢٠، ٢١) أم بالفضاء - العالم (الاستعمار / ما بعد الاستعمار / الاستعمار الجديد) أم إلى الزمن التاريخى (قبل الاستعمار وبعده)؟ من هنا فإن من يعتبرون القرن الحادى والعشرين جزءا من زمن ما بعد الاستعمار يعتقدون فى وجود نهضتين أولى وثانية. أما فرضيات تقسيم الزمن الأخرى فقانعة بوجود إما نهضات متعددة أو نهضة وحيدة متعددة المراحل. ولا يجب علينا فى نهاية الأمر نسيان أولئك الذين يعتبرون أن هناك نهضة واحدة وجدت فى الماضى وتوجد حاليا ويستمر وجودها إلى الأبد؛ أى أولئك الذين يدفعهم فهمهم للإنسانية إلى الاعتقاد فى مجتمعات دائمة التطور أى فى نهضة دائمة أو بعبارة أدق فى وجود تجديد وتغيير ومواءمة وانطلاقات دائمة. فى داخل هذه الحركة المتجددة دوما يوجد بالضرورة مراحل على الأقل بالنظر إلى الزمن. من هنا ففى حالة النهضة الواحدة المتجددة للمجتمعات كل واحدة منها لها بالطبع مراحل محل نجاحات وإخفاقات. يتعلق الأمر إذن هنا بظاهرة عالمية وثيقة الصلة بالجماعات. بهذا الإيقاع يمكننا الذهاب بعيدا واعتبار الإنسان فردا يعرف خلال حياته نهضات شخصية بنجاحات وإخفاقات، وكذلك الأمر فى المجتمع الذى يتطور فيه.

(١) مثال ذلك مقال: "مراحل النهوض العربى ما منطقها؟ المنشور فى مجلة "أخبار الأدب، القاهرة العدد ٧٢٠ فى ٢٩/٤/٢٠٠٧ وفى داخل هذا المقال عنوان بالأحرف الكبيرة "شروط النهضة"؛ وهو يستعرض الزمن من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين.

(٢) يمكننا العودة إلى الوراء بالزمن حتى القرن السادس عشر وهى الفترة التى كان فيها "التجار الأوروبيون يحصلون من السلطة العثمانية على الامتيازات التجارية التى يمنحها إياهم نظام الامتيازات الأجنبية. كانت الطبقة العربية منهزمة وأوروبا منتصرة" (أمين ١٩٧٦، ٣١) هنا أيضا نرى جيدا أن التاريخ العربى منظور إليه كما تم عيشه نسبة إلى هذا الآخر أولا تحت الهيمنة الأوروبية ثم الغربية.

(٣) فيما يتعلق بالصلة بين الماضى والحاضر، راجع جورج سانتايانا G. Santayana.

في عصر العولمة بعد حقبة الحق الطبيعي وفترة الحضارة والحداثة ثم فترة الديمقراطية إذا لم تبدو هذه المهمة العلمية بشكل طبيعي لازمة وضرورية، فهذا يعني أننا لم نفهم بعد رهان الشرق والغرب.. ذلك الرهان الذى تتجاوز نتائجه المصالح الاقتصادية والمالية، والذى نستشعر تردداته على نسقنا الكوني (المتعدد وذى الثقافات المتباينة) حتى يومنا هذا[1]. هل يتوجب علينا انتظار المزيد من الأخطاء؛ لكي نحاول أخيرا إعادة النظر فى تناولنا له وتحسينه وتجديده بهدف معرفة ذلك الآخر، وهو الشرق بشكل أفضل؟ أم أن عليه وحده أن يبحث عن نفسه فينا؟ أم أنه علينا معا محاولة فهم بعضنا للبعض الآخر بشكل متبادل؟ هناك بلا شك الكثير من الدراسات حول هذا الموضوع؛ ولكن هل غطت كل التساؤلات التي تنبثق منه؟ إذا كانت الإجابة بالإيجاب فهل كانت كافية؟ هل يمكننا القول: إننا بذلك قد أحطنا بالأمر؟ وأخيرا هل يمكننا اعتبار الماضى قد أغلق تماما وفى غير حاجة للفهم أو للإعادة إلى الحياة على ضوء التوابع القديمة والحديثة؟

وفقا لرد كل شخص سيبدو هذا البحث ملائما أو غير ذلك عاجلا ضروريا وملحا، أو على العكس تماما فاقدا للقيمة وخاصًا بماضٍ لا طائل من ورائه[2]. أيا ما كان الأمر فقد وجد النهضويون جدوى من الانكبابّ على هذا الغرب، ومن البحث عن الذات فى نظرته ونسبه إليها. وقد يكون ذلك ما يعبر عنه فى أيامنا هذه الصحفيون – الكتاب– الفاعلون العرب فى القرن الحادى والعشرين؛ مثل جمال الغيطاني (١٩٤٥) بنشر مقال يتناول النهضة[3]. لكل هذه الأسباب سنبدأ مثلما فعل "ديلانو" قبلنا من عام ١٧٩٨ باعتباره بداية النهضة؛ وإنما باعتباره بداية لواحدة من مراحلها المؤثرة والأساسية. إلا أننا على عكس "ديلانو" الذى اهتم أكثر بالفترة الواقعة بين عامى ١٨٠٠ و١٨٨٢ (١٩٨٢، ٢٣) سنولى اهتمامنا للفترة التى

---

(١) فى مسألة الشرق والغرب من الأمس وحتى اليوم ومذهب العمومية والعلاقة بالماضى، راجع من بين مؤلفات أخرى مراجع "والرشتاين" "Wallerstein" فى التراجم وسعيد ١٩٨٠، ص٩، ٤٢٢.

(٢) بشأن مسألة الغرب والشرق والذات والآخر والصلات بينهما، راجع "بوستل فينيه" Postel Vinay ٢٠٠٥ ص٢١٩، وكورم Corm ٢٠٠٢ ص٢٠٩، أما عن الصلة بالماضى خاصة بين الإعلام والتاريخ فيرجى مراجعة فيرو وبلانشيه Ferro et Planchais ١٩٩٧، ص١٦٦.

(٣) أخبار الأدب "مراحل النهوض العربى ما منطقها" القاهرة العدد ٧٢٠ الصادر فى ٢٩/٤/٢٠٠٧ فى داخل العدد وبأحرف كبيرة نجد العنوان التالي: "شروط النهضة".

ازدهرت خلالها الصحف فى مصر وهى الممتدة من عام ١٨٧٠ إلى عـــام ١٩٠٦ التى عاش وكتب فيها إبراهيم المويلحي.

فى هذا السياق لنر تدريجيًا كيف جعل المفكرون العرب من أنفسهم مرشدين للأمة العربية الإسلامية وكيف كانوا ينادون بالأمة؟ وهو مصطلح غيـــر واضـــح المعالم الذى يحمل للوهلة الأولى معنى "الجماعة". كانت المشكلة هى معرفة أى أمة يقصدون وإذا كانت الأمة الإسلامية ففى هذه الحالة أى مكانة احتفظ بها العرب من غير المسلمين؟ المشكلة كانت أيضا فى معرفة كيفيـــة توحيـــد المـــسلمين وغيـــر المسلمين. وقد تعقدت المشكلة اعتبارا من اللحظة التى أخذ فيها مسلمو الهنـــد فـــى الحسبان باعتبارهم أعضاء فى الأمة واشترك بعض منهم بنـــشاط فـــى مناقـــشات النهضة ومعاركها.

(مثال ذلك صحيفة "الوكيل"[1]). الواقع أنه فى صحفهم يمكننا العثور علـــى مراسلات ومكاتبات بين نهضوى مصر والهند. هذه الصعوبة فى التعريف تفـــسر سبب اختيارنا لتسمية "أمة عربية وإسلامية أو عـــالم عربـــى وإســـلامي". وهـــذه الاصطلاحية على الرغم من النقص الذى يعتريها فإنها تسمح بتعيـــين المـــسلمين وغير المسلمين الذين شاركوا فى النهضة.

غير أن ذلك لا يحل فى شيء مشكلة معرفة إلى أى أمة يتوجه هـــذا الـــصحفى أو ذاك بالقول، وهو يستخدم هذا المصطلح. لن يوضح لنا الأمر، هذا إذا كـــان ذلـــك ممكنا، إلا قراءة مقالاتهم ودراستها. الحقيقة أن واحدة من مسائل النهضة الرئيسة هـــى اتحاد هذه الأمة غير محددة المعالم، وهى مسألة تلى معرفة كيفية التوفيق بـــين القـــديم والدينى والتقليدى وبين الجديد والدنيوى والحديث. والمسألتان وثيقتا الصلة ببعـــضهما البعض. وقد احتدم النقاش الخاص بهما نظرا لأسباب عدة؛ منهـــا تبـــاين الآراء فـــى شأنهما. حتى إن كنا سنرى لاحقا أن أغلبهم يرى فى هذه الأمة الكثيـــر مـــن النقـــاط المشتركة تصور لهم وجود وحدة سياسية واجتماعية وثقافية، الحقيقة أنه فـــى نهايـــة القرن التاسع عشر أصبح التباين والاختلاف أكثر حدة وتعقيدا. ويفـــسر ذلـــك بـــشكل

(١) راجع "مصباح الشرق" العدد ١٣٥ المقال ١ ص١- ٢.

خاص تصاعد تيار "الإصلاحية" الإسلامى الذى لم يتخذ شكلا واضحا فى مصر إلا فيما بين عامى ١٨٩٥ و ١٩٠٠ على يد محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥) ومجلة "المنار" وكان القائم عليها مريده السورى الذى كان قد استقر فى مصر: "رشيد رضا" (ديلانو ١٩٨٢، ٢٤). اجتمع بذلك مصرى وسورى فى تيار واحد وكان فى ذلك دليل متواضع بعض الشيء، على وجود إرادة اتحاد ووفاق.

إذا كان علينا ترتيب المفكرين الصحفيين الفاعلين والمثقفين فى مصر ترتيبا مسلسلا زمنيا فى القرن التاسع عشر فسنبدأ بالجبرتى (١٧٥٣/١٨٢٤-١٨٢٥). الحقيقة أنه بدراسة الجبرتى يمكننا الإلمام بحالة العلوم والأدب العربى والحياة بشكل عام فى القاهرة فى القرن الثامن عشر. وذلك لا يرجع إلى رغبة منا فى توسيع المدى الزمنى محل الدراسة، فهو بوضعه الحالى منطقى ومتسق؛ وإنما لأنه يتوجب معرفة ما قبل وما بعد أى فكر، وتحديدا هنا فكر النهضويين فى القرن الثامن عشر لفهم أسسه بشكل أفضل. كان الجبرتى كما ذكرنا من قبل كاتب حوليات لا يبارى، وبالتالى هو لا يمثل عموم الشعب المصرى آنذاك. قد يمثل العلماء وإن كان لا يرقى إليه إلا أفضلهم. ونذكر له هنا كتابين من جلائل أعماله: "عجائب الآثار"[١] و"مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس"[٢]. كانت الموضوعات التى أثارت اهتمامه بشكل خاص عديدة؛ ومنها: العلماء[٣] وواجباتهم والعلم وماهيته تحديدا.

وظائف العلماء وواجباتهم[٤] مفهوم واجب إسداء النصيحة، ووصف أولى الأمر أو مالكى السلطة (مثل الأمير الظالم: محمد علي) ومذهب الإمامة، ومسألة الخلافة، ومسألة الوهابية، والاقتصاد ورؤساء الدول، والعادات الملكية وأخيرا وصف الفرنسيين الذين صحبوا نابليون إلى مصر. يسمح لنا هذا الحصر بتبين أن الأمر لم يبدأ مع مجيء الحملة الفرنسية ولا بوصول محمد على إلى الحكم. من هنا كان خطأ بالغا أن نفكر فى كون مصر قبل عام ١٧٩٨ كانت تخلو من أى ثقافة

---

(١) راجع ديلانو Delanoue، 1982، (a) ص٦٨.
(٢) راجع ديلانو ١٩٨٢ (a) ص٦٩.
(٣) رجال دين ذوو سطوة.
(٤) علماء.

أو فكر كما يوحى البعض بالحديث عن فترة تدهور وانحطاط. من المؤكد أن عنصرى الفكر والثقافة لم يكونا فى أوج ازدهارهما بين أفراد الشعب المصرى ولم يكونا محل اهتمام أحد غير كبار العلماء والأعيان، غير أننا لا نستطيع إنكار وجود فكر مصرى قبل عام ١٧٩٨. من هنا فهذا التاريخ يمثل منحنى يربط بين ما كان قبل وما طرأ بعد ذلك من تغيير فى شكل وأهداف العلوم والتفكير وبالتالى لا يمثل بداية أو فصما. الحقيقة أنه يميز فترة ما قبل هذا التاريخ لغة عربية محددة ونوعية نابعة من التراث الكلاسيكى للكتابة العربية. أما المرحلة التالية لهذا التاريخ فقد ميزتها لغة جديدة على المستويات الأسلوبية والاصطلاحية والثيماتية. بفضل الجبرتى ومعاصريه[١] بقت هذه اللغة تحمل صبغة التراث القديم الذى لا يجب إهماله بزعم عدم حداثته[٢].

وعلى الرغم من الجانب العسكرى والعدوانى فى مقدم الفرنسيين فإنه له جانبه الإيجابى المتعلق خاصة بالنواحى العلمية، الذى ساهم فى يقظة المصريين حضريا. كان من المنتظر والأمر كذلك أن يتبنى الجبرتى نمطا جديدا من التفكير، ولكن ذلك لم يحدث. فعلى النقيض تماما: "ما يلفت النظر لدى مؤلفنا هو بقاء القناعات القديمة وثباتها وسط خضم التغيرات الهائلة" (ديلانو ١٩٨٢، ١٩٨٣). من هنا فلا يمكن أن يغزو كل شيء إلى عام ١٧٩٨ وإلى أعمال المستشرقين الذين أتوا مع بونابرت. وبالتالى فلا يجب أن يكون هذا التاريخ قطعيا، على أن ينظر إليه باعتباره بداية لعصر جديد يرتكز على ثقافة سابقة عليه وليس على فراغ. الواقع أنه لا يجب أن يغيب عن أنظارنا أنه:

"بسبب عدم تمييز وجود ثقافة مركبة وغنية بالمشاهد والأعراف فى مصر إبان القرن الثامن عشر، وبسبب حدة بين أوروبا التى كانت فى كامل حيوية انطلاقتها العلمية والتقنية وبين ولاية عثمانية مفلسة، تغط جزئيّا فى

---

(١) عبد الله الشرقاوى (١٧٣٧-١٨١٢) والجنرال يعقوب (١٧٤٥ -١٨٠١): راجع "ديلانو" ١٩٨٢ (a) ص٨٤-٩٠ وحسن العطار (١٧٦٦-١٨٣٥): المرجع ذاته ص٣٤٤-٣٥٧ وحسين المرصفى (١٨١٥-١٨٩٠): المرجع ذاته ص٣٥٧-٣٧٩.

(٢) هذا المصطلح يثير إشكالية هنا وتحديدا فى هذه المرحلة نعنى بكلمة "حديث" ما تم استيراده من أوروبا.

النوم هناك من ينحو إلى الاعتقاد أن بونابرت ورفاقه قد أعادوا الحركة والحياة إلى بلد فارغ وخاو ثقافيا. هذه الرؤية للأشياء خاطئة والقراءة اليقظة لأعمال الجبرتى تمدنا بالدليل على ذلك[١].

يجب إذن أن نبقى فى الأذهان أن مصر كانت تمتلك ثقافة، ربما ليس على مستوى ما يعده الأوروبيون ثقافة. وهذه الثقافة ربما كان يعبر عنها بأشكال مختلفة وربما كانت صورها وما يدل عليها فى غير متناول المستشرقين. غير أن هذا لا يمنع كونها موجودة ودليل ذلك كتابات الجبرتى وبعض من معاصريه. أما مسألة الجمع بين الدين والحداثة "الأوروبية" فأمر لم يفت هذا العالم. إلا انه فى الوقت ذاته لم يضله ولم يقلقه، فقد كان الجبرتى من أولئك الذين يمكن وصفهم "بفاقدى القابلية لتغلغل الأيديولوجيات الأجنبية فيهم". ونعنى بذلك أنه كانت لديه ثقة عميقة فيما أوحى الله به باعتباره مصدرا لكل حقيقة فى الوجود". الشيء الوحيد الذى اعتقد فى إمكانية اقتباسه من "هؤلاء الكفار هو بعض التقنيات الجزئية الذى يعد تبينها والأخذ بها غير ماس بالنظام القديم للأشياء". (ديلانو، ١٩٨٢، ٨٣). من هنا فإن

"أخذ مجمل الثقافة السابقة فى وجودها على هذا الحدث الذى تشكله الحملة الفرنسية–والتى من غير الوارد أن تكون جرى لها تغيير عنيف بتأثير هذا الحدث، على عكس ما يعتقده كثير من المؤلفين الذين يرتكز تكوينهم الفكرى على الفلسفة أكثر منه على التاريخ – فى الاعتبار يسمح بتفادى الوقوع فى الخطأ"[٢].

الواقع أنه فى هذه الحالة الذهنية تحديدا نريد أن نفهم هذه الدراسة وذلك دون أن تغيب عن أنظارنا أن التاريخ ليس مجهول المصدر ولا يمكن أن يظهر إلى الوجود فجأة. فعلى العكس من ذلك تماما كل حضارة، وكل جماعة، وكل شعب أيا ما كانت اللفظة المستخدمة؛ أى كل جماعة من البشر تعيش على بقعة محددة وتحكمها قوانين مشتركة وبعض الصور المقبولة جماعيا لا يمكن أن تكون بلا ثقافة أى بلا هوية.

---

(١) ديلانو ١٩٨٢(a) ص٨٣ وفقرة الحاشية رقم ١٨٣ التى يحدد فيها الكاتب أن هذه الرؤية تغشاها وسطية أوروبية مؤكدة.

(٢) ديلانو ١٩٨٢ (a) الحاشية ١٨٢ ص٨٣.

في هذا السياق وخلال مؤتمر يحمل عنوان: "مذهب العمومية الديمقراطية المشار إليه: نموذج جديد؟"[١]. لاحظنا تقدما كبيرا ملموسا فى الطريقة التى يرى الغرب من الآن فصاعدا بها اقتسام مواصفاته الممدينة. الواقع أنه على العكس مما تم قبوله فى الماضى فإنه من الآن فصاعدا الكلمة العليا للتجربة. كما أن استعادة الأفكار وفقا لباتريك كونتان ترجع بالكامل هى أيضا للتجربة الشخصية. هذا الأسلوب فى الاسترجاع أو الاستعادة يصبح بدوره نموذجا يؤخذ فى الحسبان.

ودراسة هذه النماذج هى التى تسمح بالإحاطة بشكل أفضل بالاختلافات بين البعض والبعض الآخر. من هنا فإن باتريك كونتان يرى أن علينا إعادة النظر فى نسختنا ونحن ندرس العمل السياسى والثقافى والاجتماعى من جانب الضالعين فى ذلك أنفسهم. وينبغى الالتفات هنا إلى العناصر الفعالة ليست دوما قاصرة على السياسيين، وأن الحركات من أسفل يجب أن تؤخذ فى الحسبان مثلها فى ذلك مثل الحركات التى تتم من أعلى. على هذا المسلك فى رأى باتريك كونتان أن يميز بين الأدب الأكاديمى الخاص بالمعانى المجردة وتنافر تفسيرات هذه الأخيرة. من هنا فهذه الرؤية العولمية التى ترك الغرب نفسه طويلا لتأثيرها قد تبين اليوم بطلانها، مما يتطلب منها ترك مكانها لمبدأ "المحيط". ويمكن القول: إن "النماذج المحيطية"[٢]. التى سحقتها بالأمس الرؤية العولمية والكونية تفرض نفسها اليوم وتبقى حاملة لتاريخها حتى إن كانت غير كافية وغير كاملة. ومسارها ليس مجهول المصدر، فلديها أصول وجذور كما أن لها بدايات. ونقول هنا أننا لم نسع لفهم وجود كل هذه الظواهر انطلاقا من هؤلاء الفاعلين. وهو ما يرنو إليه مسلكنا: أن نرى كيف استوعب هؤلاء الفاعلون الكتاب الصحفيون اضطرارهم أن يكونوا هم أنفسهم النماذج المثالية، التى عليهم الاحتذاء بها بجمع آثار فكرهم دون إرجاعها قسرا وبمنهجية إلى الوسطية الأوروبية[٣]. وهذا يعنى إجمالا محاولة استيعاب وفهم

---

(١) راجع كونتان Quantin، 2007.

(٢) بعيدا عن الغرب.

(٣) "الوسطية الأوروبية" هو لفظ مستحدث استخدم فى السياسة وفى العلوم الاجتماعية، ويشير إلى أيديولوجية نابعة من رؤية للعالم مرتكزة على أوروبا خاصة فى التاريخ. وهو أيضا المصطلح المستخدم للإشارة إلى تحليل كل المشاكل من وجهة نظر أوروبية مع إهمال باقى العالم.

أفعالهم تلك التى بعد ذلك كونت النهضة. من هذا المنطلق وطبقا لبابر چوهانسن Baber Johansen[١] يوصى بالارتكاز على كل تجارب كل تاريخ لفهم كيف يتشكل المجتمع: هذا هو المسلك الذى ينبغى بداهة اتباعه. لم يعد إذن التوقيت مناسبا لمذاهب العمومية فى القرن التاسع عشر؛ وإنما للتعددية التى محورها الالتصاق بمفهوم "التجربة الشخصية" فى كل تاريخ. بهذا البعد وصف الجبرتى الفرنسيين الآتين فى الحملة ولم يداخله شعور بالاضطرار إلى تغيير فكره وطريقته فى الكتابة ولا لغته.

الحقيقة أن العصر ما زال يسمح بذلك. فالإمبريالية الممدينة حاملة الحداثة[٢] لم تكن قد عملت بما يسمح لها بغض النظر عن ذلك، وهو ما لم يحدث اعتبارا من عام ١٨٨٢ وربما اعتبارا من هذه اللحظة حدث المنعطف الثانى بعد عام ١٧٩٨[٣].

من المفكرين النهضويين الأوائل يلى الجبرتى رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ – ١٨٧٣) الذى ذكرنا أدواره السياسية والإدارية المتباينة طويلا. كما رأينا قبلا أرسله محمد على باعتباره إماما لأول بعثة دراسية إلى فرنسا عام ١٨٢٦. لدى عودته إلى مصر عين مديرا لقلم الترجمة (١٨٣٥) ثم رئيسا لتحرير أول جريدة مصرية رسمية "الوقائع المصرية" عام ١٨٤٢ وأخيرا مديرا لمدرسة الألسن عام ١٨٣٦. ويعد طهطاوى أحد رواد النهضة ممن وضعوا لبناتها الأولى. كانت أهداف تعاليمه وأفكاره ودراساته كانت إرشاد الأمة إلى التقدم. من هنا فما كان يريده.

---

(١) راجع چوهانسن Johansen 2007.

(٢) مفهوم مركب. يلاحظ أن هذا المصطلح الذى يشكل تعريفه مشكلة، يفهم هنا على النحو الذى ارتآه الغرب فى ذلك العصر أى باعتباره ناتج التقدم العلمى والمخترعات وللوصول إلى كل من الحرية والمساواة. إلا أنه ينبغى الإشارة أنه بالنسبة إلينا لا تعد الحداثة مقننة كونية. بل إننا على العكس تماما نرى أنه لكل تاريخ حداثته وثقافته وتجاربه.

(٣) من اللطيف أن نرى أنه حتى يومنا هذا يكن المصريون خاصة المنتمين إلى الطبقة الفقيرة؛ مثل سائقى الأجرة، والباعة الجائلين، والباعة فى الحوانيت والمكتبات، وباعة الكتب القديمة مشاعر إيجابية لفرنسا لكونها قد سمحت لهم باكتشاف ماضيهم وتراثهم الفرعوني. فهذا الماضى يمثل لهم نوعا من الفصم. فهذا الاكتشاف طبقا لرأى البعض قد سمح لمصر وللمصريين بعدم الانتساب إلى الإمبراطورية العثمانية والتبعية لماضى أبعد من ذلك مستقل عن الإسلام (أى عما هو ديني).

"رفاعة كان دولة مسلمة مصرية وحديثة فى آن واحد [...] لم يبحث قط عن اقتراح مؤسسات وأنظمة أجنبية من أجل مصر. انطلق مما هو تحت ناظريه [...] من المحتمل – بعض اللهجات غير خادعة – أن رفاعة قد حلم – للمستقبل القريب بتطور ليبرالى ولم يكن ليعتبره بأى شكل من الأشكال معارضا للتصور الإسلامى للدولة. غير أنه على أية حال وفى الوقت الراهن لجأ إلى المذاهب الإسلامية لتقديم المستقبل الذى يتمناه لمصر"[١].

هذا الفكر التقليدى المليء بالآمال الحديثة والمستقبلية لمصر يضعها "على رأس عملية تجديد البلدان الشرقية ز تلميذة نجيبة لأوروبا" (ديلانو ١٩٨٢، ٤٨٧) وفقا لر ـه فإنه بفضل رفاعة الطهطاوى أيضا فإن المهندسين والأطباء والمعلمين المصريين العائدين من البعثات الدراسية استشعروا أنفسهم أقل عزبة وأعلى تفاهما مع باقى الشعب المصري.

قدم لهم رفاعة الطهطاوى توليفا بين الإخلاص الدينى والأخلاقى يربطهم بالأمة كلها (ديلانو، ١٩٨٢، ٤٨٧). وقد ساهمت مؤلفاته فى تعريف الأمة المصرية والوطن. وكانت هذه المفاهيم يكتنفها اللبس تماما مثل مسألة معرفة كيفية التوفيق بين الدين والحداثة التى بقت دون إجابة وذلك على الرغم من الوضوح الظاهر لفكر رفاعة الطهطاوي. الواقع

"أننا نجد بالتأكيد التباسا غريبا فى عبارات رفاعة نذكر هنا هذا الإصرار على الدفاع عن الدين الذى يغطى فى رأيه ما يعادل لدى الأوروبيين الوطنية والتفانى التام للجماعة الدينية. وهذا اللبس لم يكن إلى زوال قريب ما دمنا حتى يومنا هذا مثلما كان الأمر فى زمن عرابى باشا نرى له مظاهر عدة فى العالم العربى عموما فى فترة الأزمة. غير أنه مما لا يمكن إنكاره أن مفهوم الوطن والشعور الوطنى قد اكتسبا بفضل رفاعة لا قلوب المصريين؛ وإنما حق المواطنة فى الأدب الرسمي"[٢].

---

(١) ديلانو، ١٩٨٢ (a) ص٤٨٥ – ٤٨٦.
(٢) ديلانو، ١٩٨٢ (a) ص٤٨٦.

وفى هذا ما يشى بمدى الأهمية التى كانت تأخذها التصورات والمفاهيم فى هذه الفترة الفاصلة الواقعة بين عامى ١٨٠٠ و١٨٨٢، ومحاولات العلماء والمفكرين العرب آنذاك تبسيطها وتعريفها وجعلها مفهومة وفى متناول الجميع، مع السعى دوما للتوفيق بين المفاهيم الحديثة والتقليدية. وحتى إذا كان أوائل المفكرين كما رأينا توا لم يتأثروا بهذا البعد الملتبس للبين بين أى بين القديم والحديث. إلا أن ذلك لم يقلل من الالتباس والتناقض والازدواجية التى عبروا عنها.

كان على مبارك (١٨٤٢ – ١٨٩٣) إلى حد ما من هؤلاء، ومن هنا يمكننا اعتباره على حدود هذا البين بين، فلا هو يخضع تلقائيا أفكاره لأفكار أوروبا، ولا هو بالقادر على طرحها بعيدا وإبعادها عنها، فقد كان فى منتصف الطريق بين هذا وذاك، ومن ثم فقد شرع فى دراسة المفاهيم الأساسية[١] على ضوء العلوم الأوروبية التى لم يكن يعتبرها لا أساسية ولا ملزمة. تولى وظائف "مهندس" و"مدير" ثم "مصلح للتعليم" كما شكل تأسيس مدرسة المعلمين[٢] بالقاهرة عام ١٨٧٢ ركنا أساسيًا فى السياسة المدرسية التى رأسها "على مبارك" (ديلانو، ١٩٨٢، ٥١٢). ونلاحظ كلما تبدت لنا أعماله أن هناك خطا رئيسيا وحيدا وغير مرئى أو مفصح عنه يقود خطاه، تصدرت العلوم كل الأولويات وأصبح الشعار ترويج المعرفة.

تلخيصا لما سبق نقول: إن على مبارك كان يتصدر أكثر من جبهة. اهتم بالتقدم والعلم والحضارة كما اهتم بوضع المرأة وبالدين وبالأشغال العامة. وكان المجال الذى نبغ فيه هو التعليم. فكر فى مدرسة للنخبة فى خدمة دولة ممدينة، وأصبح ترتيبا على ذلك فى قلب نظام التعليم المصرى حتى إننا لا يمكننا اعتبار "كتابات على مبارك إلا ناقلا خالص لأيديولوجية مخصصة لتلاميذ الخديو" (ديلانو، ١٩٨٢، ٥٥٨).

---

(١) وطن، وأمة، وتقدم، ودين، وتقاليد، وتعليم، وتربية وحضارة... إلخ.
(٢) دار العلوم.

وكان على هؤلاء التلاميذ أن يكونوا مثاليين، غير قابلين للانتقاص، قادرين على الالتزام بالضبط والربط كالجنود، حتى إن الحرية لم تكن جائزة أو مقبولة على الأقل بالنسبة إلى على مبارك. وكان إلى جانب ذلك كله عضوا في وزارة رياض باشا فيما بين عامى ١٨٧٩ و١٨٨٢؛ فى الفترة ذاتها التى كان فيها إبراهيم المويلحى فى نابولى وفى باريس باعتباره سكرتيرا أولا وأمين سر الخديو إسماعيل الذى تم عزله عام ١٨٧٩. شغل على مبارك آنذاك وظيفة ناظر الأشغال العامة وهى ثيمة كما سنرى تناولتها الصحف بوفرة. هذان الرجلان مثلهما فى ذلك مثل المفكرين الآخرين التقيا فى فكرة أن العلوم أولوية قصوى فى تقدم مصر وكان الاختلاف بينهما فى موقفهما من ثورة عرابى (١٨٨١-١٨٨٢). وهو خلاف ليس بالهين باعتبار أن هذه الثورة كانت رمزا بل الرمز الأول الملموس لهذه القومية المصرية الوليدة. فبالنسبة إلى على مبارك كانت كل أفعال عرابى ومجموعته مخالفات للنظام العسكري: "فهؤلاء الضباط المهتمون بالسياسة قد جاوزوا حدود اختصاصهم" (ديلانو ١٩٨٢، ٥١٥). فى هذه النقطة تحديدا اجتمعت القناعات القومية للمجموعتين.

أما إبراهيم المويلحى فقد شارك بالطبع عن بعد، فى هذه الثورة المصرية التى انضم لها "كثير من المصريين ومنهم الأعيان" (ديلانو١٩٨٢، ٥١٥) وكانت مشاركته فى صورة كتابة منشورات فى صالح القضية العرابية أى المصرية والقومية. لفهم هذه الثورة بشكل أفضل لنتذكر أنه بعد عزل السلطان العثمانى للخديو إسماعيل، كانت مصر تعيش وضعا ماليا حرجا كان فى حد ذاته الحجة الأساسية للفرنسيين والإنجليز ضد الخديو إسماعيل، وهى الحجة التى استخدماها مع الباب العالى مما جعل أمر العزل يصدر عام ١٨٧٩. وكانت هناك على المستوى الاجتماعى "كراهية سائدة بلا هوادة بين المصريين والشراكسة".

(المويلحي[١]، ١٩٥٤، ١٦٩). في هذه الفترة كان محمد المويلحي[٢] ابن إبراهيم المويلحى يتلقى تعليمه على يد الشيخ اللقانى الذى سمح له بدخول الدوائر السياسية والأدبية.

"كان اللقانى يحاول فتح عينى طالبه الشاب على كل مشاكل الساعة. فكان يشركه فى مناقشات الساسة مدخلا إياه فى خلافاتهم ومشجعا إياه على التعبير عن رأيه بصوت عال. وكانت هذه بالنسبة إلى محمد المدرسة الحقيقية التى تشكل الرجال.

(...) لنتذكر أن محمد الذى كان قد انضم مع معلمه لقضية عرابى كان يبعث أولا بأول بالأخبار من القاهرة إلى أبيه فى إيطاليا.

غير أن إبراهيم كان يرغب فى معرفة كل تطور فى السياسة المصرية مفصلا حتى أدق جزئياته. ودليل ذلك هذا الخطاب بتاريخ ١٨٨١/٩/٩ الذى كان يقول فيه:

"لا ترسل إلى فقط بأهم أخبار البلاد؛ وإنما زودنى بكل الأخبار الأخرى حتى التى ترى أنها غير ذات معنى فكم من الأمور التافهة قد تبين بعد ذلك أهميتها وكان فى إهمالها خطأ لا يغتفر. ستجد طيه منشورا ثوريّا بمناسبة انتصار عرابى على توفيق وسقوط نضارة رياض باشا. قم بطباعته على الفور بسرية تامة ووزعه على القاهريين وقل لعرابى إننى أتابعه عن كثب باهتمام شديد وإن كان جسدى فى نابولى فقلبى وقلمى معه فى مصر"[٣].

---

(١) إبراهيم المويلحى الحفيد (توفي عام ١٩٩٧).

(٢) هو واحد من كبار مؤلفى زمانه. أعلنت مؤلفاته الأدبية عن بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الأدب العربى والإشارة هنا إلى عمله الخالد "فترة من الزمن" و"حديث عيسى بن هشام". راجع الفصل التاسع. قبل هذا عرف محمد المويلحى فترة اشترك فيها فى السياسة لا كعضو فى الحكومة؛ وإنما كناشط أثناء ثورة عرابي. بشأن هذا الكاتب وأعماله راجع روجر آلن روجيه ورندة صبري... إلخ.

(٣) المويلحى ١٩٥٤ (a) ص١٧١.

بقراءة مراسلات العصر خاصة ما كان منها ذا طابع سياسى يمكن تقدير الوضع بشكل أفضل. نلاحظ أن إبراهيم قد طلب أن يتم توزيع المنشور بأعداد كبيرة على القاهريين: على الشعب. كانت هناك إذن رغبة فى التحدث للمصريين، للأمة (هنا المصرية) مما يعنى أنه كان هناك جزء يقرأ. وينبغى لنا كذلك التذكر أنه كان شائعا فى هذا العصر القراءة العامة مما كان يسمح بوصول الأميين للمعلومات. وقياسا على هذه المبادلات يمكننا قياس تطوع آل المويلحى الأب والابن واشتراكهما فى سياسة بلدهما حتى عن بعد.

أما المنشور الذى يحمل عنوان: "الارتياح بعد العداء" فمضمونه كالآتي:

"أليس غريبا أن يكون الوزير التونسى المستبعد من السلطة اسمه مصطفى ووالده إسماعيل، وأن يكون الناظر المصرى المعفى من وظائفه اسمه هو أيضا مصطفى ووالده إسماعيل، وأكثر من ذلك فإنه هناك تشابها بين سنوات شبابهما كما أنهما عينا فى اليوم ذاته، وتم الاستغناء عن خدماتهما فى اليوم نفسه. وقد شهدت بلديهما خلال عامى بقائهما فى الحكومتين أسوأ المفاسد.

يا شعب مصر حان وقت زهوك بنجميك عرابى وعبد العال حلمى الذين يفوق ضياؤهما ضياء نجوم السماء. علماك معنى الحرية وحركا خوفك ورعبك القديم. أرياك أن الطغيان والاستعباد مؤقتان، وأن العدالة والحقيقة هما وحدهما الباقيتان أبد الدهر لتعلم يا شعب مصر أن بداية استقلالك الحقيقى قد لاحت مع هذه الحركة القومية المباركة (...)[١].

من هنا نرى كيف أن فترة الاضطرابات الواقعة بين عامى ١٨٨١ و١٨٨٢ تمثل مرحلة جديدة تلك التى فى رأى إبراهيم تعلن عن "استقلال حقيقي" يبدأ بفضل هذه الحركة القومية المباركة" (انظر ما سبق). من هنا فلا يمكن أن تنكر أن الضمير المصرى القومى كان فى مرحلة المخاض على وشك الميلاد، وعيش أيامه الأولى ربما كان هشا إلا أنه موجود. يبقى أن نعرف مما يتغذى وكيف كان

(١) المويلحى ١٩٥٤ (a) ص١٧١.

القاهريون ينظرون إليه. من هنا فإلى كل الأسئلة ذات الطابع البنيوى مثل تلك المتعلقة بالإدارة والتعليم والعلوم أضيفت أسئلة عن السياسة وتنظيمها وعن الحياة الاجتماعية هؤلاء الرجال وهؤلاء الرواد الكتاب الصحفيون – الفاعلون كانوا رجال سياسة ووعاظ بل أكثر من ذلك كانوا راغبين فى تطبيب مجتمعهم.

كانت الاعتراضات العرابية فى البداية ذات طابع عسكرى خالص، ثم أخذت منعطفا سياسيا اجتماعيا وقوميا. وما كان فى البداية مطالبات داخلية فى نظارة الحربية تحول إلى مطلب عام للحرية من أجل الشعب. و"الحرية" ثيمة أساسية سنعود إليها من خلال دراسة المادة العلمية ومن خلال تاريخ الصحافة العربية المكتوب أيضا. ونلاحظ هنا أنه على الرغم من بعد المسافة بين مصر وإيطاليا فإن مراسلات إبراهيم كانت لها آثار هائلة واستطاع المشاركة فى أحداث بلاده كما أن منشوره كان له أثر سياسى كبير، ودليل ذلك ما أحدثه من أثر. من هنا فقد نفذ ابنه محمد أمر توزيعه الذى كلف به.

فى السابعة من صباح الحادى عشر من يوليو وبينما كانت إحدى عشرة سفينة حربية إنجليزية تتأجج نيرانها على مقربة من قلاع الإسكندرية، كان محمد المويلحى يوزع منشوره الجديد الذى وصله من والده بعنوان: "الجنة فى ظلال السيوف" (المويلحى ١٩٥٤، ١٧٢). بينما كان يوزع المنشور الذى كان واضحا من عنوانه أنه دعوة لحمل السلاح والقتال حتى الموت. "كانت الشرطة السرية تتبع أثر المويلحى الشاب الذى قبض عليه أثناء توزيعه لنسخ هذه الدعوة الثورية" (المويلحي، ١٩٥٤، ١٧٢). اقتيد محمد إلى المحكمة العسكرية وحكم عليه بالإعدام. تدخل بطرس باشا غالى ناظر العدل آنذاك وصديق إبراهيم المويلحى الحميم لصالح محمد المويلحى، وطلب استبدال عقوبته بالنفى، وحجته فى ذلك أن الشاب لم يأت هذا السلوك إلا امتثالا لأمر أبيه، وأنه إذا لم يكن عمه عبد السلام المويلحى (الذى توفى عام ١٩١٠) غائبا لكان منعه من هذا التصرف. فى الخامس والعشرين من مايو ١٨٨٢ كتب إبراهيم لعرابي:

أبلغ سعادتكم بخطابى هذا أن كل الناس تتحدث هنا عنكم بالسوء، وتترقب بفارغ الصبر يوم فشلكم. مصر اليوم منقسمة إلى معسكرين؛ معسكر المصريين ومعسكر الأتراك. أسأل الله أن ينصرنا. أعلموا سعادتكم أن حياتنا السياسية متوقفة على نتيجة هذه الحركة التى قامت فى الوقت الصحيح. وستصبح هذه الحركة لنا إما بداية عصر سيادة أو بداية عصر عبودية. طالبوا بحقوقكم السياسية بقدر معقول، لا تخشوا التهديدات التركية والأوروبية بعد هذا النصر الذى حققتموه. حتى هذه اللحظة رجالكم مفخرة للمصريين لأنهم استطلعوا الإبقاء على الحكومة على الرغم من المؤامرات السرية الداخلية والخارجية. ستكتب أسماؤكم مع كبار وطنيى العالم(١).

بعد قراءة هذه المراسلات نلاحظ سياقا متأججا. فقبل يوليو ١٨٨٢ بعد أشهر كانت هناك فترة ملؤها الآمال. إلا أنها آمال لم تر النور وقد أعقبتها فترة استعباد. نلاحظ أيضا فى هذا الخطاب وجود قومية مصرية غير محددة المعالم؛ ولكن معبر عنها بشكل جيد خاصة عند ذكر إبراهيم المويلحى للمعسكرين معسكر المصريين ومعسكر الأتراك. من الواضح أيضا أن الأوروبيين لم يكن منظورا إليهم باعتبارهم "أصدقاء ممدينين"؛ وإنما "كأعداء مجتاحين". شكّل عام ١٨٨٢ أيضا منعطفا فى تاريخ مصر الحديثة، منعطف خاص ببداية عصر جديد، عصر مصر تحت نير الإنجليز.

ولكن أيضا تاريخ مصر الصحفية. ليس لأن الصحافة كانت غائبة قبل عام ١٨٨٢؛ ولكن كما رأينا بشكل موجز وسنرى لاحقا بالتفصيل كانت فى بدايتها أى فى مرحلة الإرهاصات الأولى.

---

(١) المويلحي، ١٩٥٤ (a) ص١٧٢.

٣- الحداثة السياسية: مفهوم الوطن والانتماء

خلال فترة إرساء ما يطلق عليها حداثة على الطريقة الأوروبية فى مصر كانت هناك خواطر وأفكار تستقر شيئا فشيئا فى الذهن المصري. كانت مسألة المجتمع والتقدم ومعرفة كيفية الوصول إليه مع الحفاظ على المعالم الشخصية فى صدر كل المناقشات. وهذا ما يثبته محتوى منشورات ١٨٨٢: شيء من الوطنية والقومية[١] ويلاحظ ديلانو أيضا أن رفاعة كان راغبا فى دولة مسلمة مصرية وحديثة فى آن واحد. بالنسبة إليه" لم يكن هناك أدنى شك أن هذا الإحساس العالى بالوطن المصرى كان نقطة البداية لأيديولوجية سياسية جديدة سوف تدعمها لاحقا ضرورة مقاومة الاحتلال الأجنبي، أى القومية المصرية" (ديلانو ١٩٨٢، ٤٨٦). غير أنه كما يؤكد عدد كبير من الباحثين ومنهم "ديلانو" لم تكن الدراسات التاريخية قد تقدمت بعد بشكل كبير؛ لكى تكون هناك فكرة واضحة عن هذه البدايات لظهور ضمير قومى خاص قبل القرن التاسع عشر" (١٩٨٢، ٤٥١). فى هذا السياق ولفهم أفضل لرهان هذه القومية وأهميتها والكيفية التى تتحرك بها فى تكوين خواطر النهضويين وأفكارهم ينبغى تحديد المقصود بمفهوم الأمة. كرس "إريك هوبسبوم Eric Hobsbawm" فى كتابه "أمم وقومية منذ عام ١٧٨٠، البرنامج والأسطورة والواقع"[٢]:

"Nations et nationalisme depuis 1780, programme, mythe et realite" جل جهده لمعرفة كنه هذا المصطلح ومتى وكيف تطور. لا يرجع هذا المصطلح فى رأيه إلى أبعد من القرن الثامن عشر فى أوروبا. ويدعم هذه القاعدة بعض الاستثناءات فقط. ورغم ما يدعيه المتخصصون يقول إريك: إنه لا يوجد معيار

---

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع خلف الله ١٩٥٩ ص٨٩-٩٢، حكمت ١٥٩٥ ص٩٣-٩٧، نعيمة ١٩٥٩ ص٩٩-١٠٧، أبو خاطر ١٩٨٨ ص١٣٧، أمين ١٩٧٦ ص١٥٦، كاريه ٢٠٠٤، ص٢٩٤، وجيرو ٢٠٠٤ ص٤٥١، ودراسات أخرى متخصصة وغير متخصصة عديدة حول هذه المسألة، خاصة ما تعلق منها بتاريخ العالم العربى فى القرن التاسع عشر أو الأدب العربى الحديث فى هذه الفترة وحتى نهاية القرن العشرين. وراجع أخيرا المجلد الثانى الملحق ٦: قاموس لغة الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر.

(٢) ١٩٩٠ مترجم عن اللغة الإنكليزية بقلم دومينيك بيترز - باريس جاليمار، مجموعة فوليو تاريخ ص٣٧١، رقم الإيداع Isbn: 2070416526.

مرضى يسمح بتجديد أى الجماعات البشرية العديدة يمكنه أن يستحق الوصف بكلمة "أمة" (هوبسبوم ١٩٩٠، ١٨). فكل المحاولات السابقة لتعريف مصطلحى "الأمة" و"القومية" فى رأيه باءت بالفشل. وهو يؤكد فى هذا الصدد أنه لم يكن ممكنا غير ذلك "فنحن نحاول إدخال كيانات جديدة تاريخيا، حديثة الظهور ومتغيرة، وأبعد ما يكون وفق تقييمنا الحالى عن العالمية فى إطار دائم وعام (هوبسبوم ١٩٩٠، ٢٠). وهذه هى المبادئ ذاتها التى أربكت القرن التاسع عشر: محاولة تطبيق العمومية بأى ثمن، وعدم أخذ الصفات والخواص المحيطة والتاريخية الخاصة بكل بلد على حدة فى الحسبان مع البحث (التسلطي) عن الثابت والدائم. وللمفارقة فالخوف من الاختلاف والتغيير موجود فى هذه المفاهيم الخاصة بالتقدم، والتى قادت فى نهاية الأمر إلى المجتمعات الحالية القائمة على الفردانية غير المسبوقة[١] لتعريف "أمة" تطلب الأمر العثور على معايير مناسبة غير أنه لم يسفر بحث واحد عن شيء. والصعوبة فى تعريف ماهية الأمة لم تكن مشكلة البلدان العربية فقط؛ وإنما مشكلة البلاد الأوروبية أيضا. فلم يتوصل معيار أرض الميلاد أى الموطن ولا اللغة ولا الدم ولا الجنسية لاحقا فى تقليص المجال والمدى التصورى للأمة. لا يوجد معيار واحد من كل هذه المعايير يجيب عن التساؤل الخاص بمعرفة ماهية "الأمة" وأسسها حتى معيار "الماضى التاريخى المميز الذى يرى هوبسبوم (١٩٨٢، ٢٢) أن استعمال العبارة ذاتها ينطوى على مغالطة تاريخية. ونحن بالطبع لن نجيب على هذا التساؤل إلا أننا سنضع بعض الأسس التى دونها لا تستقيم دراستنا للخواطر والأفكار النهضوية. ذلك أن الشعور بالانتماء لمصر كما رأينا كان موجودا قبل مجيء الأوروبيين، وكان يعد وعن حق من مبشرات القومية العربية الحديثة.

من هنا كان علينا تفادى هذا الأسلوب النمطى القائم على اعتبار أوروبا والنور والمفاهيم الممدينة فى القرن التاسع عشر مصدرا لكل شيء. هذه الأحداث التاريخية ساهمت بالقطع فى تطور العالم إجمالا، وأثرت فى الحضارات الأخرى التى اختلطت

(١) لفهم سيرورة هذه الظاهرة التى أوصلت مجتمعاتنا العربية إلى ما هى عليه فى يومنا هذا خاصة فيما يتعلق بالفردانية وعدم المساندة والفراغ الفلسفى والثقافى على المستوى الجماهيري، راجع موران Morin ٢٠٠٨ ص٧٨.

بها حضارة النور والحضارة الحديثة. غير أنه لا يمكن محو الخواص الذاتية للحضارات التى أقام الغرب معها فى زمن من أزمنة التاريخ أى نوع من العلاقات. من هنا وجب علينا ملاحظة العالم فى ذهابه وإيابه بين الحضارات مع تفادى سياسة الاتجاه الواحد من جانب كل الأطراف. الحقيقة أن المسألة كانت غالبا نوعا من السباق أكثر من وساطة.

هكذا دون أن نتريث أو نتكبد مشقة النظر إلى الجهة الأخرى، جهة الشرق لم تتح لنا رؤية الآخر وفهمه ذلك الجزء من أنفسنا. بعزل أنفسنا عما نعرف ونوقن أنه الحقيقة لنر ما يقوله لنا هذا الآخر. ولنلاحظ هنا أن هذا المسلك هو ذاته مسلك النهضويين الذين فى بحثهم عن ذواتهم حاولوا معرفة الآخر وفهمه (الغرب)؛ وذلك ليجدد نفسه بشكل أفضل.

فى هذا البحث عن الذات وخاصة عبر معرفة الغيرية بين الأنا والآخر يقول بنيدكت أندرسن Benedict Anderson فى مقدمة الطبعة الفرنسية لمؤلفه: "الخيال القوى تأمل فى أصل القومية وانطلاقتها"(١):

L`Imaginaire national. Reflexion sur l`Origine et l`essor du nationalisme.

ما يؤكد فرضيتنا التى بمقتضاها أن النظر إلى ماهية الأمة يتسم بوسطية أوروبية شديدة. يقول بنيدكت أندرسن ومنذ الصفحة الأولى:

"بدءا من الدراسات الرائدة أى منذ نحو ستين عاما طرح كل من هانزكون Hanskhon وكارلتون هايز Carlton Hayes خبيرى القومية على نفسيهما الأسئلة ذاتها هل القومية خير أم شر؟ أمر حديث أم قديم؟ هل يمكن بطريقة لائقة تمييز الأشكال الليبرالية والمدنية من النسخ الإثنية والسلطوية؟ مالت الفرضية إلى اعتبار "القومية" مثلها فى ذلك مثل كل

---

(١) ٢٠٠٢ (١٩٨٣) تمت ترجمته بواسطة بيير إيمانويل دوزا – باريس Pierre – Emmanuel Dauzat – Paris – La Decouverte دار النشر لاديكوفرت، المجموعة ١٢٨ "علوم إنسانية واجتماعية" ص٢١٣، رقم الإيداع ٩٧٨٢٧٠٧١٥٠٠٧٣: ١٣.

شيء مهمّ قد قدمت من أوروبا. لم يكن هناك تقريبا من قال بعكس ذلــك، ربما لأن أميز المؤلفين كانوا أغلبهم من الأوروبيين. كل هــذه المــسائل تبدو لى سطحية وهذه الفرضية تاريخيا لا أساس لها من الصحة. فهــى مسائل عاجزة عن تفسير انطلاقة نمط الخيال القــومى بالغــة الــسرعة، وتفسير ذلك الارتباط غير المسبوق للرجال بالأشياء (الجديدة والمبتكــرة غالبا) التى يثمرها خيالهم"(١).

يوضح أندرسون أن الهدف الرئيسى من كتابه "هو محاولة تغييــر تناولنــا للقومية باعتبارها، بمنطق أنثروبولوجى طريقة من طرق الوجود فى العالم نخضع لها جميعا أكثر منها أيديولوجية سياسية خاصة بآخرين" (أندرسون ٢٠٠٢، ٩) وهنا منعطف أيديولوجى مهمّ فى فهم ما نعنى "بالقومي" وبالتــالى كامتــداد مــا نعنــى "بالقومية" تعلق الأمر بالنسبة إليه بالعودة إلى مفهوم "الأرض – مــصدر الغــذاء" (أندرسون، ٢٠٠٢، ١٠). فقــد أدى فــى رأيــه التغييــر فــى الحيــاة اليوميــة وقدوم الطباعة إلى أوروبا فى القــرن الخــامس عــشر، والهجــرات الجماعيــة وبدايات رأسمالية السوق ومستجدات كثيرة أخرى إلى تغييرات تصورية "لــلأرض – مصدر الغذاء".

تلك الأرض التى يولد بها الإنسان ويرى أنه ســيدفن فيهــا. أرض المــيلاد والموت التى بها يتم تخيل الحاضر والمستقبل والماضى دون أن تطــرق الــذهن للحظة فكرة أن خارجها ستكون حياتنا. ولكن هذا ما حدث أدت بدايات التقدم إلــى النفى فى اتجاه المدن ثم إلى البلدان البعيدة المجهولة: من هنا.

"ظهرت القاطرة فى القرن التاسع عشر، والطائرة فى القــرن العــشرين وكان لهما ما كان للسفن الشراعية بعيدة المدى فى القرون ١٦، ١٧، ١٨: وسائل تقنية نفت بها الرأسمالية الصناعية التى كانت فى أوجها ملايــين الفلاحين من أراضيهم مــصدر الغــذاء (...) ويــسجل هنــا أيــضا أن

---

(١) أندرسون، ٢٠٠٢ ص٩.

الرأسمالية قد اقتلعت الناس من بعد آخر. وهو بعد الـزمن (...). فهـو العصر الذى شهد طبقا لقول "والربنجامين Waler Benjamin" "زمن خـاو ومتجانس" وهى النوعية الوحيدة من الزمن التى كان من الممكن أن تغمر تاريخ أى أمة"[١].

من هنا نرى بوضوح كيف كان للتقدم آثاره الإيجابية والسلبية على البشرية. وبدا مؤكدا "أنه لا يمكن بالفعل فهم القومية إلا فى سياق عالمى كامـل باعتبارهـا ثمرة قوية عميقة وقادرة لا ترتبط بأى أمة" (أندرسون، ٢٠٠٢، ١٤) الحقيقة أننـا رأينا أن المصطلحات ومفاهيمها مثل "أمة" و"وطن" و"وطنيـة" ولاحقـا "قوميـة" ظهرت من خلال هذا الاتصال بين الشرق والغرب الذى كانت أوروبا تمثله بشكل أساسي. ويعنى هذا أن "الصحفيين الكتاب الفاعلين" العرب والمفكرين النهضويين قد بدءوا فى التفكير فى مفاهيم "الوطن" و"الأمة" فى سياق عالمي. كان طبيعيّـا فـى مواجهة هذا الغرب المجتاح أن تتشكل بعض الأفكار ومنها "الوطن" كما قلنا سـابقا لن نصيغ تعريفات لمفهوم "الأمة"، غير أن الأمر سيقودنا للحديث بإفاضة عن هذه المفاهيم السياسية والأنثروبولوجية والاجتماعية، بمعنى أن مادتنا العلمية سـتتطرق لها عن قرب. ولكننا نحاول تعريفها؛ وإنما إدراك ما كانت تعنيـه بالنـسبة "إلـى المفكرين النهضويين الفاعلين" ولما ينقلونه منها (راجع الفصل الثامن الفقرة ٤) هذا غير أنه وفقا لرأى هوبسبوم "لا التعريفات الموضـوعية ولا التعريفـات الذاتيـة مرضية كلتا النوعيتين خادعتان" (أندرسون ١٩٩٠، ٢٥) وانطلاقا من هذا القـول لن "يطرح كتابه تعريفا قبليا لما يكوَن "أمة" (٢٠٠٢، ٢٥) وليواصل بحثـه القـائم على الفهم بشكل أفضل للتطور الذى تكونت وفقا له الأمم والقوميات اعتبارا مـن عام ١٧٨٠ وحتى القرن العشرين، استند "هوبسبوم" إلى فرضية نتبناها هنا. وفقـا لهذه الفرضية "كل جماعة مهمّة من الناحية العددية ويعتبر أعضاؤها أنفسهم جزءا من ذات الأمة ستعتبر كذلك".

(١) أندرسون، ٢٠٠٢ ص١٠-١١.

وبالتالى سيهمنا فهم الكيفية التى شارك بها هؤلاء الـصحفيون النهـضويون فى توصيل الأفكار بل الأيديولوجيات السياسية وحتى المفردات السياسية لمفهـوم "القومية" هذا، الذى شارك فى تكوين "الخيال القومى المصري"(١). أما بالنسبة إلـى الوطنية المصرية فمقبول من الجميع فكرة أن وجودها، المختلف قطعا عن التصور الأوروبى الحديث، يرجع إلى ما قبل نقل أوروبا "عدواها" للشرق.

انطلاقا من هذه الفكرة فقد كان لرفاعة الطهطاوى وطنيته "التى كانـت فـى أول الأمر ارتباطا عاطفيا بالأرض التى شهدت ميلاده وعاش فيها" والتى عبر عنها "عدة مرات بنبرة متقدة". وبغض النظر عن البعد الدينى الـذى لا يمكـن إنكـاره والإحاطة به فيما يتعلق بإدراك مفهوم الانتماء إلى الأرض، فيبدو أن هذه الأسباب تصبح هذه المرة ثانوية وأن الأمر عبارة عن تدفق من الأعماق يظهـر" (ديلانـو ١٩٨٢ (a) ٤٥٢) ويمكننا فى النهاية القول: إن "ديلانو" قد أكد ما صرح به كل من "أندرسون" و"هوبسبوم"؛ لأنه بالنسبة إليه:

---

(١) نستعير تعبير "الخيال القومي" من بنديكت أندرسون الذى أقر هو أيضا بمدى تعقيد تعريـف مفهوم الأمة وصعوبتها، والذى رغم ذلك يعطى تعريفا يعتبره "تعريفا وظيفيا" يسمح بالمضى فى التفكير (٢٠٠٢، ١٨). وهو يذكر لنا أنه: بمنطلق وفكر أنثروبولوجى يطرح التعريـف التالى "للأمة": "هى جماعة سياسية خيالية ومزخرفة بشكل جوهرى محدودة وذات سـلطة" (٢٠٠٢، ١٩). وهو يحدد بعد ذلك لم يعدها خيالية وبشكل أكثر تحديدا مـا يعنيـه بكلمـة "خيالية". "فالأمة" خيالية لأن أعضاء أصغر الأمم لن يعرفوا أبدا أغلـب مـن يـشاركونهم المواطنة. لم يلتقوا قط بهم كما لن يسمعوا أى حديث متعلق بهم رغم أنه فى ذهن كل واحد منهم صورة وحدتهم الشعورية وملكة الخيال هذه هى التى ذكرها بأثر رجعى إرنست رينان بطريقته الجذابة وهو يكتب: "أساس الأمة هو أن يكون لدى الجميع أشياء مـشتركة عديـدة وأن يكونوا جميعا أيضا قد نسوا الكثير من الأشياء" (٢٠٠٢، ١٩). راجع سيتون – واطسن Seton-Watson "الأمم والدول" "Nations & States" ص٥: "كل ما يمكننى قوله هـو أن الأمـة تظهر إلى الوجود عندما يعتبر عدد لا بأس به من أعضاء جماعة أنهـم يكونـون أمـة أو يتصرفون كما لو كانوا يكونون واحدة". ويمكننا ترجمة كلمة "يعتبروا" بكلمة "يتخيلوا" راجع إرنست رينان "ماهية الأمة" الأعمال الكاملة الجزء الأول ص٨٩٢.

"فى ظل غياب أبحاث محددة حول الشعور الذى يمكن أن يربط الرجال بأرضهم أو بإثنيتهم فى العصور السابقة يمكننا أن نناقش إلى ما لا نهاية فكرة معرفة إذا ما كانت هذه الوطنية المصرية التى يتغنى بها رفاعة جديدة تماما أم أنها ليست إلا تطور (يجب تحديد أى الطبقات الاجتماعية نقصد) لإدراك تكاتف مسبق. ما لا يمكن إنكاره منذ الآن وفى كل الأحوال أن التعبير عن هذا الإحساس من خلال صوت رفاعة أمر جديد وأنه جاش باحتكاكه بالفرنسيين. لا يتبادر إلينا الشك فى أن حب الوطن اكتسب بالنسبة إلى المصريين وبفضل رفاعة تناغمات وتوافقات جديدة ستغزو تدريجيًا كل المجتمع المصرى عل مدى القرن التاسع عشر. ويُعد رفاعة بهذا المعنى بالفعل مؤسس مصر الحديثة[١].

بهذا المعنى، سنرى من خلال قاموس ومفردات صحافة ذلك العصر (راجع الملحق السادس) والأفكار السياسية والوطنية ولاحقا القومية (راجع البابين الثانى والثالث) أن رواد النهضة قد وضعوا وأرسوا تدريجيًا أسس الفكر السياسى العربى الحديث وأسس مفهوم الأمة.

استنادا إلى الأبحاث الأجنبية (خارجية المصدر) والعربية (داخلية المصدر) حول هذه المسألة فقد اتضحت هذه التصورات وتشكلت تدريجيًا. وتوضح المعاجم وكتابات العصر كيف أن بعض المصطلحات وبعض المفاهيم قد بدأت شيئا فشيئا فى الظهور. ويمكننا فى النهاية القول: إن العوامل التى ساهمت فى تطورها التصورى والدلالى فى المجالين الصحفى والأدبى العربيين لعبت كما سيتأكد لنا على مدى هذه الدراسة، دورا كبيرا فى التطور المؤدى للقومية. لنتذكر مؤقتا أن تصور الوطن كان موجودا فى الثقافة والذهن المصرى والعربى ولنبق فى عقولنا أيضا أن معناه على الأقل الأولى يعبر عن هذا الانتماء إلى "الأرض مصدر الغذاء" الذى ستضطر معه الرأسمالية إلى الاختفاء.

---

(١) ديلانو ١٩٨٢ (a) ٤٥٢.

٤- اللغة العربية الحديثة: الأداة النهضوية.

في إطار استمرارية القواعد والأساسات التي وضعها وناقشها الرواد الأوائل -المرحلة الأولى من النهضة فيما بين عامي ١٨٠٠ و١٨٨٢- فرضت أسئلة ومسائل أخرى هي أيضا أساسية نفسها. فبعد مسألة صلة ما هو قديم وما هو ديني بالحداثة ومنها الحداثة الأوروبية ثارت مسألة صلة اللغة العربية بها. كيف سيتأتى لها على الوجه الأكمل إدارة والتعبير عن هذا الطموح الجديد الخاص بالتجديد؟ كيف سيمكنها ملء دورها كوسيط بين النخبة المحرضة والدافعة والجمهور المستهدف: الأمة؟ كيف سيمكنها القيام بهذا الدور وخدمة القضية المجتمعية التي اضطلع بها هؤلاء الصحفيون الكتاب الفاعلون دون أن تضر بنفسها؟ أسئلة عدة اضطر هؤلاء الرجال والنساء الإجابة عنها كلما تقدموا في عملهم النهضوي. هدفهم هو تطوير المجتمع المصري وتغييره وتحسينه (وبشكل أوسع العربي والإسلامي) كان لزاما عليهم أن تكون وسيلة تعبيرهم موصلة لهدفهم لدى العامة وفي مواجهة هذه الحداثة. كانت الصعوبة لاحقا في إيجاد مستوى اللغة الأكثر ملاءمة لإثبات أن اللغة العربية، طابع هوية العرب، مكتفية بذاتها وقادرة على التعبير عن الحضارة التي تمثلها(١).

انطلاقا من هذه الفكرة نجد أنه من المهم والضروري فهم دور اللغة العربية وعلاقتها التضمينية بالنهضة خاصة الصحفية. أما عن أقوال الصحفيين أنفسهم في هذا الموضوع فسنعرض لها لاحقا في إطار الثيمات المرشدة الخاصة بالنهضة(٢).

كان السؤال الخاص باللغة العربية وبالنهضة العربية إذن أحد أهم الأسئلة وأكثرها حساسية التي اضطر الصحفيون – الفاعلون (المثقفون والسياسيون) إلى الإجابة عليها. كانت ردودهم ترد مواكبة للتطورات التي تفرضها عليهم وتسمح لهم بها الأحداث الجارية. كثيرا ما كانوا يختلفون إلا أنهم كانوا في بعض الأحيان

---

(١) لمزيد من العناصر حول مسألة اللغة في هذه الفترة راجع أيوب، ٢٠٠٧، ٢٨٧-٣٣٠.
(٢) راجع الباب الثالث.

يتفقون. ويمكن القول إجمالا: إنهم كانت لديهم حساسية لغوية مشتركة هى الرغبة فى أن تبقى اللغة العربية لصيقة بتراثها الأدبى الكلاسيكى مع مواكبة التطور. فى مفهومهم كانت اللغة شيئا ثابتا ومتغيرا فى آن واحد. من هنا فقد ناقش النهضويون بدورهم ما كان "السيوطي" (١٤٤٥-١٥٠٥) قد تناوله فى القرن الخامس عشر فى كتابه: "المظهر فى علوم اللغة وأنواعها" وما تطرق إليه لاحقا فى أوروبا عالم اللسانيات فرديناند دو سوسير (١٨٥٧-١٩١٣) فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فى كتابه "محاضرات فى اللسانيات العامة"[١] "Cours de Linguistique generale".

ما كان يهم النهضويون أول الأمر هو إثبات أن اللغة العربية قادرة على مناقشة وتناول كافة الموضوعات العلمية والسياسية ومتباينة النوعية التى يفرضها العصر الحديث. فى مرحلة تالية كان هاجسهم هو أقلمة اللغة مع بعض الاحتياجات، وقد تطلب ذلك إيجاد مفردات جديدة قادرة على توصيف المخترعات التقنية؛ مثل "الترمواي" و"السكك الحديدية" و"السيارة" ناقش النهضويون طويلا هذه الاختراعات باعتبارها مستجدات وتناول نقاشهم أيضا وجهة النظر الاصطلاحية، وفى صحفهم ومقالاتهم ما يدل بوفرة على ذلك. فى دوريات ذلك العصر حل لاحقا محل النقاش.

حول الاختراعات العالمية ومسمياتها باللغة العربية نقاش آخر عند وضع اللغة العربية الحديثة.

من أولئك الذين أولوا طويلا هذا الأمر اهتماما نذكر أحمد أمين (١٨٧٨-١٩٥٤)[٢] وتوفيق الحكيم (١٨٩٨-١٩٨٧)[٣] أطلقت حينذاك على اللغة مسميات

(١) سوسير Saussure ١٩٧٢ (١٩٣٢)، ١٨، ص٥٥١.

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذا المؤلف راجع إيمانويل بيران Emmanuelle Perrin ٢٠٠٤، أربعة مجلدات، ص١٠٧١.

(٣) راجع من بين ما كتب مقال لوك ويلى ديهوفلز Luc-WillyDeheuvels ١٩٨٧-١٨٩٨ ص ٢٠٦-٢٣٣ ولورانس دينوز Laurence Denooz ٢٠٠٢، ص٤٥١.

عدة؛ منها: اللغة الوسيطة واللغة الثالثة، وكان المقصود هنا ما أسـمته "جـورجين أيوب" "الاستعمالات الاجتماعية للغة فى الجماعة"[1]. تضمنت هـذه الاسـتعمالات وضعين للغة العربية أحدهما معاش كنوعية متغيرة (العامية) وآخر باعتباره حقيقة ثابتة، وهو (الفصحى). اللغة الأولى غير مقدرة تقديرا عاليا أما الثانية ترقى مـن فرط المكانة العالية إلى التقديس لصلتها بلغة القرآن. هذه اللغة الفصحى كانت وما زالت مقدرة باعتبارها الأنقى والأوضح والأكثر تمثيلا لأدب العـرب وتـاريخهم. ومرجعية هذه اللغة ليست إلى القرآن وحده أى إلى الدين المقدس غير القابل للمس أو التزوير؛ وإنما أيضا إلى الثقافة العربية التى ترجع إلى فترة ما قبـل الإسـلام المسماة "بالجاهلية" وإلى التراث الأدبى الخاص بزمن الخلفاء.

من هنا فاللغة الفصحى بها من الرموز والأكواد والأحكام التاريخية والدينية والثقافية ما يجعل منها أحد أعمدة التراث العربي. وقد اكتسبت بوضـعها متعـدد الأبعاد وباعتبارها الركيزة المشتركة التى تسمح بالتواصل عبر العالم العربى كله، أهمية تطلب الأمر من النهضويين تعريف وضعها خاصة حيال العالم الجديد. هـذه المهمة بالغة الحساسية التى تقتضى تحديد اللغة العربيـة الحديثـة واسـتعمالاتها الجديدة، والتى لم يتم إنجازها إلا بعد بحث الماضى مجدّدا، شكلت أكثـر المهـام النهضوية حساسية. وما يتمثل هنا تناقضا أنها مقارنة بالمسائل الأخرى التى لم يتم حسمها حتى يومنا هذا مثل القومية العربية والإصلاح الإسلامى والجامعة الإسلامية وجامعة العروبة تعد من المهام التى عرفت لها نهاية، على أننا يجب أن نلاحظ أن الديلمة اللسانية بين اللغة المتحدث بها واللغة المكتوبة لم تكن بجديدة، فقد اهتم بهـا مفكرون قبل القرن التاسع عشر (وهم لتحرى الدقة علماء) بل خـاطروا بتنـاول مسألة وضع اللغة العربية بين ما يستعمل دوما. وبين ما يكتب به. نخلص من ذلك إلى أن المسألة لم تكن بشكل حصرى نتاج الصلة بين الشرق والغرب خلال القرن التاسع عشر. فلعبة القوة هذه بين النوعيتين (فاللغة المكتوبة تعد نوعية مثلها فـى ذلك مثل اللهجية) تمت لأعلى مستوى اقتسام وظائف الاتـصال[2] ونقـصد هنـا

---

(١) محاضرة اللسانيات لمرحلة الليسانس فى اللغة العربية بالـ INALCO بتاريخ ٢٠٠٣/٦/٧.

(٢) نسجل هنا أن مستويات اللغة المتدرجة بين اللغة العربية المكتوبة واللغة العربيـة اللهجيـة كانت لها دور غالب فى صلة الجمهور بالصحافة العربية المكتوبة. وهذه الأخيرة لعبت من جانبها دورا أساسيا فى تطور اللغة العربية، وبالتالى فى عمل مدرج اللغـة بـين القطبـين الأساسيين (الكتابى واللهجي). الواقع أنه من خلال الصحافة المكتوبة تحديدا حدثت بعض=

الصحيفة – وإنما على مستوى مختلف الطرق التى ينظر إليهما بها "فى الخيال الاجتماعي" (أيوب، ٢٠٠٣) ونلاحظ استنادا إلى كل ذلك الدرجة التى يلعب الخيال الألسنى طبقا "لجورجين أيوب" والقومى طبقا "لبنديكت أندرسن" أساسيًا فى تشكيل الفكر النهضوى الذى يحق لنا بشأنه التساؤل إذا كان يحوى هو أيضا نصيبه من الخيال.

قد يكون الملمح الخيالى لصلة العرب هذه، بكل أطيافهم ودياناتهم، بلغتهم يكمن فى فكرة وحدتهم التى تعد هى أيضا خيالية بعض الشيء. فى الإسلام يجتمع المسلمون كأمة أى يعيشون فى جماعة. ويفترض ذلك وحدة كاملة بغض النظر عن المكان الذى يعيشون فيه. سبب ذلك إنما المسلمين يعتبرون الأرض وطنهم، من هنا فتصور اللغة يدعم تصور الأمة على المستويين الزمنى والروحاني. نرى من كل ذلك كيف اللغة العربية وأبعادها السياسية – الدينية باعتبارها الصلة الأخيرة، كانت رهانا سياسيًا. بعد القرآن الذى تنبثق منه أى بعد الرابط الدينى بالإسلام أضحى رابط اللغة الموحدة – وبالتالى – الوحيدة فى عيون بعض النهضويين حجة وملاذا فى آن واحد لإثبات إلى أى مدى كان لدى العرب ما يسمح لهم معا باستعادة مكانهم بين الأمم التى يقال عنها متحضرة. كان رهان اللغة العربية أساسيًا ورئيسيا مثله فى ذلك مثل تعريف وتأسيس تعليم عام قوى ووضع أساس المطابع ونشر الكتب وترجمة الأدب والعلوم الأجنبية. كانت الكتابة على هذا النحو فى قلب هذه النهضة العربية. وقد تبعت هذه اللغة العربية التى أعيد تعريفها مجددًا كل مشروعات البرنامج المجتمعى النهضوي.

= الاقتباسات. بعيدا عن ذلك يمكن القول: إن اللغة تطورت فى داخلها ومن أجلها خاصة على مستوى الجمل بهدف تنمية عدد القراء وزيادتهم ازدادت الجمل بساطة وازداد الأسلوب عذوبة. من يرغب في فهم تأثير الخطب المرجعية والخطب الخيالية في الصحافة المكتوبة العربية آنذاك وحتى أيامنا هذه. ومن الضرورى فى بدء الأمر ملاحظة هذه الوقائع الألسنية التى كان لها بالطبع تأثيراتها على الخطاب وعلى أولئك الذين يتلقونه أى على الصحفيين والقراء. لمزيد من العناصر حول مسألة مستويات اللغة المختلفة بين المكتوب واللهجى راجع بدوى ١٩٧٣، ص٢٢٣ "مستويات العربية المعاصرة فى مصر: بحث فى علاقات اللغة بالحضارة" وديلانو ١٩٩٨ ص٤١-٦٠: "اللغة العربية فى مصر ١٨٠٠-١٩٤٠: تاريخ وأيديولوجية".

."L'arabe en Egypte 1800-1940: histoire et ideologie"

اللغات والسلطة من شمال أفريقيا إلى الشرق الأقصى.

.Langues et Pouvoir de L'Afrique du Nord a L'Extreme-Orient

الحقيقة أننا نتحدث عن مشكلة أساسية للنهضة أو أخرى بينما المسائل والمشاكل مترابطة، لكل دور وتأثير على المسائل الأخرى. من هنا فمع النقاشات وأثنائها ومن خلالها تكونت ممارسة جديدة للغة العربية. من خلال هذه المسائل أخذت مفاهيم الحداثة والوطن والأمة والقومية والجامعة الإسلامية وجامعة العروبة والإصلاح الإسلامى معان مختلفة بل متباعدة ومتناقضة أو ملتبسة فيما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وقد نوقش كل ذلك فى داخل الصحف والمجلات. بدا دور الصحيفة حينذاك باعتبارها حاوية للغة العربية الحديثة وكانت فى هذا العصر وسيلة التواصل والتعبير الوحيدة. كانت الدورية بهذا الشكل الركيزة التى من خلالها استطاع الكتاب الفاعلون نقل أفكارهم وبعبارة أخرى الفكر النهضوي. كانت الجريدة اعتبارا من هذه الآونة مرشدا للأمة. ومن هنا فاللغة المستعملة لقول أفكارهم ونقلها من خلال وسيلة التعبير والتواصل الوحيدة هذه، كانت ذات أهمية رئيسة. إذا أنها فهمت أتيح لهذا المشروع كل فرص التحقق أما إذا لم تفهم فلم يكن أمامه أى سبيل للخروج إلى النور. وبالتالى يمكن القول: إن النهضة ارتبط مصيرها باللغة المستخدمة لتقديمها.

بعيدا عن اللغة يمكن القول: إن رواد المرحلة الثانية من النهضة (١٨٨٢ – ١٩٠٠) قد اضطروا إلى الالتفات إلى ركيزة أقوالهم: الدورية. من هنا فقد أخذت اللغة وركيزتها فى الكتابة مكانة راجحة فى التبويب وفى صياغة النصوص وفى نقل ما شكل بعد ذلك أساس هذه الحركة: نصوصها الأيديولوجية حيث الخيال الأدبى للفكر النهضوى فى أوج تحوله. من المؤكد أن هذه النصوص قد كتبت وتم التفكير فيها فى عجالة سياقها وبشكل متفرق يمكن اعتباره مقطعا وزائلا بالنظر إلى صفتها الدورية. إلا أننا علينا أن نبقى فى أذهاننا أن الصحيفة كانت فى مصر وبشكل عام فى الشرق وحتى فى الغرب تعتبر كالكتاب ويتم جمع أعدادها فى مغلف فى نهاية كل عام للتجليد. والحقيقة أننا وجدنا فى الصحف وشهادات العصر وحتى فى المكتبة الخاصة بآل المويلحى ما يثبت أن دورية فى عدم وجود الكتاب كانت تحل محله. وقد اتفق الجميع على القول: إنهم كانوا يقومون كل عام بعد انصرامه بتجليد الدوريات التى يشتركون فيها. وكنوع من الأدلة، وجدنا لدى آل المويلحى مجلدة أعداد جريدة "الجوانب" الصادرة عام ١٨٧٦ والأعداد الصادرة من

أغسطس ١٩٠١ إلى أغسطس ١٩٠٢ من مجلة التهذيب بالإضافة إلى أعداد عام ١٩٠٣ من جريدة "للوستراسيون"[1] من المؤكد إذن أن الصلة بالجريدة آنذاك لا تمت بصلة لما نعرفه اليوم. وبالتالى كان الأمر طبيعيًا جدًا خاصة وأنه حتى فى أوروبا كان الكتاب فى حالة تراجع. دليل ذلك ملاحظة خليفة وڤايون Vaillant اللذين ذكرا أن "الكتاب" –الصحافة غير الدورية– بقى خارج اللعبة، وبالتالى فقد كانت الصحيفة موزع ورحم التجديد الأدبى إبان فترة ملكية يوليو (٢٠٠٤، ٢٠٦). كان الأمر على هذا النحو فى فرنسا، بينما كانت أوروبا ومنذ القرن الخامس عشر تملك مطبعة مزدهرة عمليات سحب النسخ فيها متسقة، ودليل ذلك أنه عام ١٤٥٣ كانت أعداد الكتب المنشورة سنويًا فى أوروبا تربو على المليون (أندرسون ٢٠٠٢، ١٠) بينما لم يعرف الشرق المطبعة إلا فى القرن السابع عشر فى لبنان[2]. وفى القرن التاسع عشر فى مصر: التأخير إذن نسبى للغاية.

لعبت إذن اللغة العربية دورا رائدا من خلال الدوريات وتحكمت فى الفكر النهضوي. أخذت الصحيفة دور مستشار المجتمع[3] وناصحة. وتذكرنا چورچين أيوب أن "قانون اللغة" هو الذى يحكم المجتمع[4].

والسؤال هنا لمعرفة لماذا لا توجد إلا لغة واحدة سليمة ومقبولة أى طريقة واحدة للقول والفهم؟ "(أيوب ٢٠٠٨). هذا السؤال ليس عديم الصلة بهذا البحث الدائم الذى تحول إلى هاجس عن هذه "الوحدة" ويجدر بنا هنا وضع أكثر من خط تحت هذه الكلمة: وحدة حول ديانة واحدة ولغة واحدة وجماعة واحدة وأرض واحدة. نرى من ذلك كله كيف أن الفضاء المكانى لعب دورا فى التصورات الدينية والسياسية والثقافية الخاصة بالعالم العربى التى تعد فى مجملها متعلقة بالهوية. وقد اكتسبت مسألتا الزمان والمكان مزيدا من المعنى وأصبحت أكثر أهمية وحيوية وإشكالية مع مقدم الاحتلال الإنجليزى لمصر عام ١٨٨٢. وهذه لحظة كما سنرى شكلت هى أيضا منعطفا أساسيًا فى تاريخ الصحافة المصرية. لاحقا ازدادت مسألة

(١) راجع الملحق ٧: "بعض قراءات إبراهيم ومحمد المويلحي".
(٢) عام ١٦١٠ كما يذكر مارون عبود ١٩٦٦ ص٣٥.
(٣) قول النهضويين أنفسهم: راجع الفصول: ٨، ٩، ١٠.
(٤) حلقة بحث خاصة بالدكتوراه: چورچين أيوب "اللغة والمقدس" معهد INALCO 21 مارس ٢٠٠٨.

اللغة العربية حدة مع تقدم الحماية والسياسة الاستعمارية الأوروبية في العالم العربي الإسلامي. طرحت تساؤلات أخرى نفسها ومحاولات جديدة مترتبة على طرق تناول أحيانا مرتجلة حاولت درء الخطر.

في هذا السياق تم وضع اليد على الحداثة ونسبها إلى الذات بابتكار لغة عربية حديثة استطاعت بخلط ما هو خارجي المصدر مع ما هو داخلي المصدر تأكيد قدرتها الخلقية والابتكارية الشخصية على تجديد مفرداتها وجملتها. كان الهدف هو مناقشة مصير الأمة، وهو ما يبرر العجلة في حيازة الأدوات الضرورية والمناسبة لمعالجة الأمر. ويجب علينا هنا أن نتذكر أن "فساد اللغة" (أيوب ٢٠٠٨) وانحرافها وما يطرأ عليها من خلل وفوضى كلها عوامل مخاطرة بعدم الفهم والتواصل، الأمر الذى لم يكن النهضويون ليخاطروا به. ذلك أنه في حالة حدوثه كان سيترتب عليه خلل في التواصل، كان سيؤدى بدوره إلى فوضى المجتمع وانحرافه، وهو ما يناقض ما كان المفكرون النهضويون يسعون إلى إرسائه.

الفصل الثالث

الحاضون على النهضة ومحركوها
المويلحى ومعاصروه

(فى هذا السياق إذن ازدهرت أسماء رواد النهضة الثقافية العربية): ناصف اليازجى (١٨٠٠-١٨٧١) المحيى الكبير للتراث (...) بطرس البستانى (١٨١٩-١٨٨٣) التربوى وصاحب المصنفات المتعددة الذى يربط بين رواج اللغة العربية وترقيها وبين قدرتها على التعبير عن التطور، فارس أحمد الشدياق (١٨٠٤/١٨٠٥-١٨٨٧)، أديب إسحاق (١٨٥٦-١٨٨٤) عالم الطبيعة الماسونى وأحد قيادات "مصر الفتاة" الذى سيقوم بحملة فى الصحيفة التى تحمل الاسم ذاته ضد الخديو "إسماعيل" و"المثاقفة" الأوروبية[(١)].

١- من الرواد إلى مؤسسى النهضة ومكمليها: رؤية شاملة.

بعد هذه المرحلة الأولى التى وقعت بين عامى ١٨٠٠ و١٨٨٢ والتى تم فيها إرساء دعائم النهضة التى طال انتظارها فى مواجهة الجور والطغيان العثمانى، الذى أمر السلطان عبد الحميد الثانى بممارسته فى لبنان وسورية، هاجر كثير من النهضويين إلى مصر وأميركا، بينما اتجه آخرون منهم مصريون للاستقرار فى أوروبا وتحديدا فى باريس ولندن. من هؤلاء نذكر إبراهيم المويلحى الذى سافر إلى نابولى عام ١٨٧٩ ثم إلى باريس التى بقى فيها من ١٨٨٠ إلى ١٨٨٤ ثم إلى لندن ١٨٨٥ واسطنبول ١٨٨٥-١٨٩٥ قبل أن يعود إلى مصر عام ١٨٩٥ ويبقى فيها حتى وفاته عام ١٩٠٦.

---

(١) روسيون Roussillon ٢٠٠٠، ص٢٩٢.

زامن بقاء جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨-١٨٩٧) بعض الوقت فى باريس ولندن فترة بقاء المويلحى بهما. وقد التقيا عام ١٨٨٤ فى باريس؛ حيث شارك إبراهيم فى تحرير وتمويل مجلة الأفغانى ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) الشهيرة: "العروة الوثقى"[١].

عاود الاثنان اللقاء عام ١٨٨٥ فى لندن التى كان إبراهيم قد لجأ إليها بعد أحداثه غير الموفقة مع الخديو إسماعيل؛ أى حين طردته السلطات الفرنسية فى السادس والعشرين من نوفمبر ١٨٨٤[٢] وكان ذلك بعد نشر العدد الرابع من صحيفته "الاتحاد" التى منعها السلطان عبد الحميد. تقارب الرجال الثلاثة، وهو ما يؤكده رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) فى كتابه "تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده"[٣] الذى يروى فيه طرائف العلاقات بين هؤلاء الرجال وهو معهم. هذه الطرائف ليست بالحكايات البسيطة فهى إشارات سياقية للعلاقات التى كان من الممكن أن تقوم بين النهضويين. ويشبه كتاب رشيد رضا فى رأينا المذكرات الشخصية لصحف النهضويين وحياتهم، وهو يحكى فيه ما لم نورده أى صحيفة أو رواية أخرى. وما يضيفه لنا هذا الكتاب هائل ومحل تقديرنا خاصة، وهو يعين على فهم أفضل للروابط الثقافية والفكرية العربية فى ذلك العصر.

ونلاحظ بالفعل أن أفكار النهضويين قد بدأت فى غالبيتها التشكل تدريجيًا فى الصحافة المكتوبة. وقد ساهم اختيار هذه الركيزة تحديدا والطرائف المروية فى صفحات الصحف بشكل فعال فى تكون التصورات الثقافية والاجتماعية والسياسية للنهضة. قبل التعامل مع مادتنا العلمية نشير إلى أنه ليس هناك أبسط ولا "أيسر من الاتفاق والتوافق على جيل النهضة" البطولى "وعلى التيارات المكونة له". من هنا فقد تعلق الأمر:

---

(١) نشرت هذه المجلة الأساسية للنهضة فى باريس فيما بين مارس وأكتوبر ١٨٨٤ وكان مقرها ٦ شارع مارتولا. راجع هادى خسر وشاهى ٢٠٠٢ ص١٩٧ شارك إبراهيم المويلحى فيها كما ذكر رشيد رضا ولاحقا هادى خسرو شاهي.

(٢) راجع عدد "الفيجارو" الصادر فى ١٨٨٤/١١/٢٦ الذى يروى هذا الحدث: راجع الملحق العاشر الفقرة (٢) حيث يوجد مقال بود مورسولى B. Mourceley.

(٣) رشيد رضا ١٩٣١، ٣ مجلدات، ص١١٣٤، و٦٥١، و٤٢٨.

"بعصر ليبرالى درسه وحلله حورانى أو بجيلين من المثقفين شرعا فى تحقيق نوع من "تغيير مكان" الثقافة العربية بهدف "إعادة وضعها" بين انتمائها إلى النطاق الإسلامى المتكون حول تركيا العثمانية والحداثة الغربية العدوانية "التى أصبحت فى آن واحد عدوّا ونموذجا"؟ وقد تكون النهضة توزيعا أيديولوجيا بسيطا خالصا "للحركة القومية" كما يحللها أ. عبد الملك يهدف إلى توليف ديالكتيكى لما جاءت به الحداثة الغربية مع عناصر أساسية من الشخصية المصرية أو العربية؟

فى الحالة الأولى كما فى الثانية لا ينفصل التعرف على أبطال حركة النهضة الثقافية. عن رهاناتها نفسها(١).

بدا تصنيف النهضة فى شكل أجيال من المفكرين دوما أمرا صعبا بل وحساسا للغاية. فوفقا للمعايير المختارة لتنظيمهم كانت تظهر ثغرات فى طرق التناول المختلفة. أثقل هذه الطرق وأعقدها كانت عدم القدرة على تنسيقهم وتنظيمهم وفقا لفكر أو مدرسة أو مذهب. وربما كانت هنا فكرة أوروبية لا تأخذ فى حسبانها خصائص الآخر الثقافية والتاريخية، هل يرجع ذلك إلى كون أفكارهم غير واضحة أو غير مكتملة بالقدر الكافي؟ أم لكوننا لم نعطها حقها من الدراسة؟ أم لكوننا ننظر إليها من خلال توقعاتنا النظرية؟ مما يعنى أنها ليست بعد مفهومة على حالها؛ وإنما وفقا للكيفية التى عودتنا رؤيتنا الغربية على قراءة الآخر بها؟ أيا ما كان الأمر هذه الخواطر المتباينة التى لن يمكننا بالطبع حصرها ولا حتى سردها كلها كان يجمعها شيء مشترك: المسائل الأساسية الخاصة بالنهضة ومنها كما رأينا المسألة الخاصة باللغة. الحقيقة أن المسألة اللغوية أو الألسنة كانت تستبعد الاختلافات الخاصة بالانتماءات الدينية وذلك على عكس مسألتى الوطن والأمة. هكذا بدت هذه المسألة المشتركة على الأقل فى البداية ضامة وجامعة. غير أنها فى واقع الأمر لم تكن أقل إشكالية خاصة بين مؤيدى اللغة التى يقال عنها الصحيحة النقية واللغة اللهجية.

---

(١) روسيون Roussillon 2000 ص٢٩٢.

كانت هذه هى رهانات النهضة التى تناولتها نقاشات النهضويين طويلا. كان المحور المشترك الرئيسى بين الأفكار النهضوية المتباينة هو محور اللغة ومستويات التعبير الخاصة بها وما ستئول إليه مستقبلا خاصة فى علاقاتها بالماضى التاريخى واللغوى والدينى فى مواجهة التحدى الفورى أى فى مواجهة الحداثة الأوروبية الوسطية.

وقد تصدى لمهمة التعريف بفكر النهضة ورجالها وحركاتها بعض الكتاب أمثال جورجى زيدان (١٨٦١-١٩١٤) فى كتابه "بناة النهضة العربية"[١].

وتعد أعمال زيدان وفقا لرأى المتخصصة آن لـو دوبـون Anne Laure Dupont المؤلفات التى من خلالها:

"أشعر زيدان بوجود أمة تجمع الناطقين بالضاد، وتخفى خلفها تاريخا طويلا من التجديدات الحضارية المتلاحقة. كانت الأمة على هذا النحو مقودة من تجديد إلى تجديد إلى التساؤل عن مستقبلها. لم يكن زيدان يراها بعد مهيأة لا للاستقلال ولا حتى للحكم الذاتى، غير أنه كان يستشرف دروب ذاتيتها الثقافية والاقتصادية. والحقيقة أننا نرى من خلال أعماله تطور وسيرورة ظهور القومية العربية، فالمراحل واضحة المعالم. قبل عام ١٩٠٨ كانت العروبة أساسا ثقافية"[٢].

سبقت ولحقت هذه الإصدارات خاصة ما تعلق منها بمسائل النهضة كموضوع دراسة أو بحث نقاشات عدة نذكر منها النقاش الذى طرحته صحيفة "الجامعة" لصاحبها فرح أنطون حول مسألة ما إذا كانت النهضة حقيقية أم غير حقيقية (راجع الفصل العاشر). وقد شارك بالرد فى هذا النقاش عدد كبير من الصحفيين والمثقفين العرب من العالم أجمع ومنهم صحفيو "مصباح الشرق" لصاحبها إبراهيم المويلحي.

---

(١) ترجمة دوبون Dupont، ٢٠٠٦ ص٧١٥.

(٢) دوبون Dupont ٢٠٠٦ ص٣٣.

كانت مسألة اللغة العربية أو بالأحرى الحركة التى انبثقت منها ونعنى العروبة أى فكرة التوحد كناطقين بالضاد، فكرة الوحدة المرتكزة على المشترك الألسنى متصدرة النقاش. وانطلاقا من فكرة الوحدة بين كل العرب بدأت القومية العربية فى أخذ وضعها. كانت المفردات السياسية أساسية واكتسبت المزيد من الأهمية والانتشار فى المناقشات السياسية والألسنية فى آن واحد، وقد تطورت هذه الاصطلاحية فى الصحافة المكتوبة على مدى العصر كله تقريبا. من هنا ففى صحف القرن التاسع عشر نجد لفظة "وطنية"[(١)] تتحرك من ناحية المدلول شيئا فشيئا تجاه معنى القومية... لاحقا فى القرن العشرين ظهر مصطلح جديد، وهو كلمة "قومية"[(٢)] المشتقة من "قوم"[(٣)] وهى كلمة تعنى قبيلة أو شعب أو جماعة أو أمة وأصبح هذا المصطلح يعنى Nationalisme أما كلمة "وطنية" فلم تعد تعنى سوى Patriotisme أى الارتباط بالوطن[(٤)]، تطلبت المسألة إذن فهم الاحتياجات الجديدة الناتجة عن هذه الأمور الواردة من الخارج، الحديثة والغربية وفى مرحلة لاحقة استشعار المتطلبات الألسنية اللازمة لها وصولا فى النهاية إلى مقترحات اصطلاحية وأيديولوجية ملائمة للهوية العربية.

كان على المفكرين النهضويين مواجهة هذا التطور تحديدا بمحاولتهم من بين طرق كثيرة تقريب وجهات نظرهم المتباينة.

هذا التباين النهضوى فى حاجة إلى دراسة، وكذلك إشكالياته وشبكاته[(٥)]، فالمناقشات التى طرحتها النهضة ما زالت لديها الكثير لتفصح لنا عنه خاصة ما تعلق منها بأسئلة الفاعلين النهضويين وإجاباتهم فى مقالاتهم الصحفية. هذه التساؤلات المختلفة وهذه التناولات ينبغى بالطبع وضعها نصب الأعين فى ضوء

---

(١) راجع الملحق ٦: قاموس لغة الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر.
(٢) المرجع السابق.
(٣) راجع ضمن مراجع أخرى E.I الجزء الرابع ص٨١٢ (أ. ج وينسنك Wensinck. A. J).
(٤) راجع الملحقين السادس والرابع: قاموس لغة الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر المصطلحات الغالبة فى "مصباح الشرق".
(٥) بمعنى أنساق فكرية تضم ظواهر.

النصوص المرجعية والروائية الخاصة بالعصر. كما يتوجب أخذ الأنواع الأدبية في الحسبان فمن خلالها هى كان يروج الفكر الناشئ. ويأسف ياغيا ناجاريان Yagya Najarayan (٢٠٠٥، ١٢) لعدم وجود مؤلف واحد يلم بالنهضة ورهاناتها بشكل كامل. غير أننا يمكننا القول وبكل موضوعية إنه يبدو لنا مستحيلا أن يرى مثل هذا المؤلف النور إلا إذا اتخذ ذلك شكل سلسلة من الكتب يقوم بها بشكل مشترك مجموعة من الباحثين من كل بلاد العالم[1]. المسألة تطرح إذن بشكل أساسى على مستوى النظرة الجديدة مقارنة بالرؤية القديمة الأوروبية الوسطية. وفقا لهذه النظرية كل شيء يجب أن يكون عالميّا وكونيا على شاكلة رؤيتنا ونظرياتنا. وكانت نتيجة المسيرة القديمة قد أفضت إلى نقيض ما كانت تطمح إليه وتأمل فيه، إلى الفردانية. يقودنا كل ذلك اليوم إلى إعادة النظر فى طريقتنا فى التفكير فى العالم منظورا إليه كمجموعة معولمة وذلك بالإضافة إلى التفكير فى اختلافاته.

هذه الفروقات التى تبين خبرات مكونات العالم الأخرى.

---

(١) أمثلة جميلة من هذا النوع من الأعمال المنتظرة ظهرت أخيرا. راجع بطرس حلاق وهيدى تويل B. Hallaq et H. Toelle ٢٠٠٨، ص٧٨٤. فى الإطار ذاته تبين أنه مما كان ينقصنا (مازال ينقص حتى الآن) هو الدراسات المتقدمة المفصلة والمتناظمة والجامعة لما يشكل ويساهم فى النهضة مثل الرواية والطباعة والصحافة... إلخ. بالنسبة إلى الرواية، راجع جهاد، ٢٠٠٦، ص٣٩٥ الذى يعرف لكتابه "الرواية العربية" بالإضافة إلى محتواه العلمى الذى لا يمكن إنكاره. فضل ومزية عرض دراسة كاملة للرواية العربية. أما بالنسبة إلى الطباعة فليس لدينا بعد دراسة تبحث "طباعة النهضة" غير أن لدينا مؤلفات كثيرة مثل جدورة Gdoura ١٩٨٣، ص٤٥٨، لويس شيخو Luwis Sayhu ١٩٩٥، ص٢٨٢، خليل صابات Halil Sabat ١٩٥٨، ص٣٥٨. غير أنه ليس لدينا إلا عمل واحد يهتم عن قرب (وليس بطريقة ثانوية أو تكميلية) بما جلبته الطباعة وبالصلات بينها وبين النهضة، راجع شنوفى Chenoufi ١٩٧٤ مجلدان، ص٩٢١. ويمكننا القول: إنه بالنسبة إلى الصحافة لدينا كثير من الدراسات العربية وعدد أقل من الدراسات بلغات غربية إلا أنها كلها تذكر النهضة وتعقد صلة بين الصحافة والنهضة؛ ولكن غالبا فى عجالة وبطريقة ثانوية ودون إحالة إلى المقالات الصحفية إلى متى انتظار أعمال عن تاريخ مكونات النهضة العربية؛ ولكن عن النهضة ذاتها وفقا لكل مجال منفصلا ثم عنها إجمالا؟ إلى متى على سبيل المثال ننتظر "تاريخ النهضة" أو "تاريخ الأدب النهضوي" أو "تاريخ الصحافة النهضوية"... إلخ؟ هذه المهام فى رأينا المتواضع لا يمكن الشروع فيها إلا فى إطار أعمال مشتركة وجماعية ويثبت ذلك المؤلف الهائل والضخم عن تاريخ الأدب العربى الحديث لبطرس حلاق وهيدى تويل (٢٠٠٨، ص٧٨٤)، هذه المشروعات كما نأمل ستعطى أخيرا للنهضة أبعادها وحجمها الصحفى الأدبى الذى تستحقه.

واجه مفكرو النهضة هذه الإشكاليات تحديدا. وقد وجد النهضويون أنفسهم مضطرين للتوافق مع وضع اثنين – بين لتركيزهم من ناحية على التراث الثقافي الماضي ومن ناحية أخرى مع الثقافة الجديدة الماضية فى طريقها منذ عهد محمد علي. من بين هؤلاء نذكر محمد عبده ومريده رشيد رضا "الذى يعد إصلاح العلوم الإسلامية بالنسبة إليه الموجه والناقل الوحيد الممكن لتكوين وبناء نابع من الداخل للحداثة" (روسيون Roussillon، ٢٠٠٠، ٢٩٣). كان هناك فى الوقت ذاته آخرون لديهم رؤية أكثر شمولية للأشياء مثل عبد الله النديم (١٨٤٣-١٨٩٦)، وعباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤). فى مواجهة هؤلاء يضع روسيون (٢٠٠٠، ٢٩٣) شبلى شميل (١٨٥٠-١٩١٧)، الذى قال بعدم ملاءمة اللغة العربية للإحاطة بالحداثة، وفرح أنطون (١٨٤٧-١٩٢٢) "المؤيد لنتشه وللمذهب الاشتراكى وسلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨) عالم الطبيعة المؤيد للفابية" (روسيون ٢٠٠٠، ٢٩٣). من هنا يمكن القول: إن "النهضة تثرى من تنوع الآراء المفتوحة على المثاقفة وهى فى الوقت ذاته تنقسم وتتعارض وفق خطوط فصل تضع بشكل واضح أكثر فأكثر الحداثة العلمانية فى مواجهة الأصولية الإسلامية"(١).

استقرت النهضة وفكرها بين الرؤية الأوروبية والرؤية الأكثر محافظة أو بالأحرى الأصولية. وينبغى علينا إدراك أن هؤلاء المحافظين لم يكونوا بالضرورة معادين جميعا للحداثة. ربما كان الأمر كذلك بالنسبة إلى البعض، أما بالنسبة إلى الآخرين فقد كان الأمر يتطلب إيجاد طريقة توافق بين التراث داخلى المنشأ والحداثة خارجية المصدر لا يتوجه الانغلاق على الذات؛ وإنما بهدف الحفاظ على الذات مع التطور مع الزمن. تعلق الأمر إذن كما يذكر آلان روسيون "بالتعريف بمستويات التعبير عن الحداثة الثقافية داخلية المصدر مع إضفاء طابع المعاصرة على المستويات الموروثة أو بتثبيت "المقتبسات" فى استمرارية للأصالة العربية". (٢٠٠٠، ٢٩٣) هذه الفئة تحديدا ستكون موضع بحث من جانبنا نظرا لكون إبراهيم المويلحى مثله فى ذلك مثل ابنه محمد المويلحى (١٨٥٨/٦٩-١٩٣٠) ينتميان إليها.

---

(١) روسيون Roussillon، ٢٠٠٠، ص٢٩٣.

في هذا السياق، عارض محمود سامي البارودي (١٨٣٩-١٩٠٤) وأحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢) ومصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤) وكثيرون غيرهم باعتبارهم مقتبسين مترجمين، شعراء وكتاب نثر لا من الداعين للكلاسيكية كما يذكر آلان روسيون (٢٠٠٠، ٢٩٣)؛ وإنما باعتبارهم "مجددين" للتراث الأدبي العربي الكلاسيكي في نسخته الحديثة من خلال واحتمال أيضا بفضل – الصحيفة. كان هؤلاء أيضا معارضون للشقيقين تيمور وهما محمد[١] (١٨٩١-١٩٢١) ومحمود (١٨٩٤-١٩٧٣) اللذين يعدان من أوائل الروائيين[٢] الحديثين ويذكر آلان (روسيون ٢٠٠٠، ٢٩٣) أن هذين الشقيقين فتحا الطريق لواقعية رومانتيكية وواعظة مراد بها أن تكون "مدرسة" هذا غير أن ما كتبه إبراهيم المويلحي من أعمال روائية خاصة بالمغامرين والمتشردين ونشر أول الأمر في هيئة حلقات مسلسلة في "مصباح الشرق" كان وما زال إلى يومنا هذا مدرسة مثلها مثل مؤلفات فرانسيس مراش، وسليم البستاني، ويعقوب صروف، وجورجي زيدان، ومحمود طاهر، ومحمد حسين هيكل وغيرهم.

من هنا يمكننا القول: إن النهضة لم تبدأ ولم تتوقف في تاريخ محدد؛ وإنما استمرت حتى الحرب العالمية الأولى التي عقبها لم يتعلق الأمر بنهضة؛ وإنما بخيبة أمل وربما بنهضة ثانية. ألا يمكننا اعتبار هذه المرحلة من التحقق والإخفاق ومعاودة التفكير جزءا لا يتجزأ من النهضة العربية أو من فترة "ما بعد النهضة"؟

---

(١) فيما يخص تاريخ ميلاد محمد، نبقي على ١٨٥٨/٦٩ وليس على ١٨٥٨/٦٨ كما اعتاد البعض... لم ١٨٦٩؟ ببساطة لأننا وجدنا جواز السفر الخاص بمحمد (راجع الملحق العاشر فقرة (أ): مفكرة وجواز سفر محمد المويلحي) في المكتبة الخاصة بآل المويلحي. ومذكور بالجواز تاريخ الميلاد عام ١٨٦٩ دون تاريخ اليوم أو الشهر. ويثور من جديد تساؤل عن سبب عدم ذكر ١٨٦٩ بدلا من ١٨٥٨/٦٩؛ لأنه كانت تواريخ الميلاد في ذلك العصر غير محددة وأن جوازات السفر كانت أحيانا مزورة. وبالتالي لن نتمكن من استقاء المعلومات مما هو مدون بها باعتبارها مائة بالمائة صحيحة كما أنه لن يمكننا اعتبارها غير صحيحة. وسنلاحظ أخيرا أن جميع الباحثين الذين تناولوا المويلحي قد حاولوا إيضاح هذه المسألة الخاصة بتاريخي ميلاد الأب والابن، كل مصحوبا بالمعطيات الجزئية التي يحوزها: مثال ذلك آلن Allen ٢٠٠٢ ص١٠١ العدد الثالث: عبد الله عبد المطلب، ١٩٨٥ ص٢٨-٢٩... إلخ.

(٢) بشأن أول رواية عربية حديثة يعرضا أكثر من فرضية. لا يبدو لنا أمرا أساسيا أن نعرف أول رواية عربية ولا من كان كاتبها. الأمر المهم بالفعل هو تجديد ما يميز كل عمل أدبي خلال فترة النهضة وأدى إلى ظهور الرواية العربية الحديثة راجع في هذا الصدد جهاد ٢٠٠٦، ص٣٩٥، وحلاق وتويل ٢٠٠٨، ص٧٨٤.

على هذا التساؤل سيجيب كذلك كل من الصحافة وأدبها الدوري. يثبت لنا جمال الغيطانى (من مواليد ١٩٤٥)، وهو صحفى وروائى مصرى أن النهضة لم يعد لها وجود على الأقل بالصورة التى كانت عليها فى القرنين الماضيين. غير أنه توجد نهضة جديدة حاضرة تستوحى مما كانت عليه النهضة المسماة بالأصلية فى القرن التاسع عشر. وأثرها بادى فى صحيفته "أخبار الأدب" خاصة فى المقال المشار إليه على الغلاف بعبارة: "شروط النهضة" الذى يحمل عنوان: "مراحل النهوض العربى ما منطقها"؟[١] أليس وجود هذه "النهضة الثانية"[٢] فى أذهان المثقفين العرب فى القرن الحادى والعشرين دليلا على معاصرة هذه النهضة الناشئة فى القرن التاسع عشر؟ ألا يكون ما بين أيدينا ظاهرة تستحق كل انتباهنا؟ ألا توجد فائدة فى فهم منشأ ومنتهى وأسباب هذه النهضة الجديدة والروابط التى توثقها بالنهضة التى تعد قاعدتها؟

سبق لنا رؤية كيف أن عبد الله العروي (١٩٧٤، ص٢٢٣ و١٩٨٦، ص٣٧٨) وآخرين. قد تناولوا طويلا هذه المسألة. ولكن ماذا استجد بعد هذه الدراسات؟ ما طرق التنازل الجديدة التى يمكنها إضفاء مزيد من الإيضاح أو المعارضة أو ما سبق قوله فى هذا الموضوع بالمزيد؟ وسؤالنا فى النهاية إلى أى خيال شخصانى ينتمى هذا المسمى المتكرر من جيل إلى جيل؟ وماذا عنه فى عام ٢٠٠٩؟

تعزى ما يطلق عليها النهضة العربية الأولى والأصلية إلى الإمبريالية الغربية وحداثتها الكونية. أما المسماة بالنهضة الثانية فى القرن الحادى والعشرين فهى نتاج الهيمنة الغربية باسم الديمقراطية التى تعد بداهة كونية. من هنا ففهم الحركة المستمرة للنهضة يتلخص فى إدراك التاريخ الاجتماعى للمجتمعات العربية فى علاقاتها بالغرب. ويسجل وجود هذه النهضة الثانية المحتملة "نهضة القرن الحادى والعشرين" نوعا من الاستمرارية يجاوز الفجوة المفترضة فى النهضة بين القرون التاسع عشر والعشرين والحادى والعشرين.

---

(١) أبو يرب المرزوقي، القاهرة العدد ٧٢٠ الصادر فى ٢٠٠٧/٤/٢٩ ص٣٠-٣١ مقال موضوعه: "من نهضة القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا".

(٢) سبق لنا الحديث عنه، راجع الفصل الثانى الفقرة.(١).

عندما نلاحظ أن هذه النهضة الجديدة تعلن انتسابها للنهضة القديمة مع استمرار تركيزها على حاضرها والتفاتها قليلا إلى مستقبلها يحق لنا التساؤل عما إذا لم يكن ذلك دليلا واهيا بعض الشيء، على نوع من انتهاء الفكر العربي إلى الانطلاق من الذات في اتجاه الآخر؟ هل يمكن إنكار هذه الوقائع؟ لا نعتقد ذلك. إلا أننا نرى أنه كانت هناك فترة أو مرحلة من الإحباط تبعتها انطلاقات؛ منها انطلاقة المثقفين العرب مثل طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣)، ونجيب محفوظ (١٩١٢-٢٠٠٦)، والطيب صالح (١٩٢٩-٢٠٠٩) ومعاصريهم. جيل تبعه اليوم جمال الغيطاني (١٩٤٥) وإبراهيم القوني (١٩٤٨) وآخرون بعض منهم من الصحفيين مثلما هناك بعض من الروائيين. نشر عدد من روايات هؤلاء أيضا في هيئة حلقات مسلسلة في الصحافة نذكر منها على سبيل المثال الرواية الشهيرة للطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال"[1] التي نشرت عام ١٩٦٧ أول الأمر في صورة حلقات في الصحيفة اللبنانية "حوار".

نخلص من ذلك إلى أنه توجد علاقة مستمرة بين الصحافة المكتوبة والأدب العربي الحديث، بين مهنة الصحفي والروائي تم إثبات مساهمتها في منح النهضويين وضعين أو مقامين، فقد كان أغلبهم كتابا (في الأدب) وصحفيين. والتاريخ الأدبي العربي الحديث للنهضة مستمر إلى ما بعد الحقبة محل اهتمامنا والتي تغيرت عما كانت عليه في بداياتها، فقد أصبحت أعلى وأسمى من "معارك القدامى والمحدثين"(...). هذا السبر لكل ما هو ممكن الذي بدأته النهضة والذي يتواصل اليوم مصحوبا بقدر من السعادة، قل أو كثر وفقا للأنواع والأماكن ومعبرا عن حقيقة أن النهضة الأدبية لم تصل بعد إلى منتهاها". وجودها لم يتوقف يوما ما دامت كما يقول حتى اليوم غير مكتملة. ويمكننا من هنا القول: إن الأدب العربي الحديث، الروائي أو غيره المتخذ النمط الغربي أو أي نمط آخر هو نتاج متراكم لتطور الفكر والأفكار النهضوية التي تم التعبير عنها في صحف النهضة. ومحصلة الأدب العربي الحديث هذه هي ذاتها محصلة الفكر النهضوي.

من هذا المنطلق اكتسبت مسألة معرفة كاتب أول رواية أو مقال في الصحافة المكتوبة أهمية أقل بكثير من معرفة من ساهم؟ ومتى؟ وأين؟ وكيف في اليقظة العربية؟

---

(١) ترجمها من العربية عبد الوهاب مدب وفادي نون ١٩٩٦ (١٩٨٣) باريس، بابل، ص١٧٢. رقم الإيداع ٢٧٤٢٧٦٦٣٩١.

٢- المساهمة المويلحية فى النهضة:

من هنا كان اهتمامنا بإبراهيم المويلحي[١]. كان واحدا من أوائل النهضويين الحائثين والحاضين، وعلى الرغم من ذلك بقى مجهولا منسيا. لم يتحدث التاريخ طويلا عنه، تحدث قليلا وبشكل متفرق وأحيانا أسطورى، وهو ما أضر به ولا يسمح بإدراك مدى مساهمته فى النهضة. على النقيض من ذلك نجد أن هناك إجماعا على وصف كتاباته بالمثيرة، والمحرضة، وذات تأثيرات سياسية قومية، ودولية متسقة. كما رأينا من قبل كان المويلحى فيما بين عامى ١٨٦٥ و١٨٨٤ قريبا من الخديو إسماعيل. لاحقا وفى العقد الممتد من ١٨٨٥ إلى ١٨٩٥ كان واحدا من كبار الموظفين العثمانيين المعينين من قبل السلطان عبد الحميد الثانى نفسه. ويمكن القول فى نهاية الأمر إنه كان ذا تأثير، يخشى جانبه، واحدا من رجال الحكومة المصرية والسلطة العثمانية المركزية وذلك لفصاحته ولغته الواخزة الناغزة.

تستحق مسيرته انتباها منا لعدة أسباب؛ أولها: بهدف تنقية تاريخ النهضة العربية من هذا الجزء الأسطورى المحيط به، وسد الفراغات، ونواحى النقص فيما يتعلق بإسهاماته فى النهضة. وأهمية هذه الوقفة فى مسيرة حياته هى المساعدة فى فهم أفضل لكتاباته التى سندرسها فيما بعد. سيسمح لنا كل ذلك فى نهاية الأمر بالإحاطة بكتاباته ومسيرته المهينة وإجمالى كل ذلك يمثل مساهمته فى النهضة. من هنا نرى أن المفكرين النهضويين لم يكونوا رجالا معزولين عن بعضهم البعض. يعمل كل واحد فيهم بمفرده من منطلق فلسفته أو أدبياته الخاصة. كانوا معا يكونون شبكة من الرجال يعرف بعضهم البعض ويعرفون لبعضهم البعض قدرهم، أو لا يعرفون، ويعملون معا شاءوا ذلك أم أبوا. هؤلاء المثقفون العرب كانوا يكتبون كل فى مجلته أو جريدته وبطريقته؛ ولكن تجمعهم المناقشات النهضوية المتناولة فى دورياتهم (راجع الفصل العاشر). كان الأمر يتعلق إذن بشبكة فكرية تتم فيها مناقشة الفكر الفردى بشكل جماعى بفضل الصحافة التى كانت الأداة الوحيدة فى التواصل والاتصال والأداة الرئيسة للنشر.

كان النهضويون يشكلون بهذه الطرقة جمعا من الرجال؛ منهم الكتاب، ومنهم الصحفيون المرتجلون، والعصاميون، الذين أصبحوا بمهارة اللغة فاعلين فى

---

(١) فى هذا الباب نتعرف على مسيرة إبراهيم المويلحى (١٨٤٣ / ٤٦ - ١٩٠٦) حتى يكون لدينا رؤية شاملة لما كانت عليه حياته وكتاباته ومشاركته فى الحياة السياسية والاجتماعية خلال القرن التاسع عشر... عصره.

عصرهم. من هنا فقد رأينا مفيدا بل وضروريا أن نعيد تحديد مكانة مسيرة ذلك الرجل الذى شكلت كتاباته مادتنا العلمية. وتشى هذه المجموعة من النصوص لمن يقرأها بالكثير عن هذه الحقبة (القرن التاسع عشر) وعن موضوعها (النهضة) وعن كاتبها شخصيًا(١). أليس كل عمل أدبى فى واقع الأمر قصة حياة كاتبه، وهى هنا راسخة فى الفلك الأدبى والسياسى والاجتماعى للنهضة. الواقع:

"إنه انطلاقا من هذا المفهوم تكون خبرات الحياة فى ناحية، وفى الناحية الأخرى، محلقة فى الأثير، هناك الأعمال الأدبية التى من المفترض أن تصيغ هذه الخبرات وتقدمها بأشكال إلى حد ما منظمة. ويكون حينئذ على التاريخ الأدبى نسج خيوط التوافق بين مراحل الإبداع وأحداث الحياة [...]. وكلمة سيرة مترجمة Bio / graphie بشقيها حياه / كتابة يمكن أن تقرأ فى الاتجاهين: من الحياة إلى الكتابة ومن الكتابة إلى الحياة [...] من هنا فحياة الكاتب تكون فى ظل الكتابة والكتابة شكل من أشكال الحياة"(٢).

حياة كاتبنا إذا جزء من حياة أعماله والعكس صحيح. وبالتالى فمن الضرورى الإلمام بمسيرة الكاتب، حتى يمكن بعد ذلك الإحاطة بأعماله على نحو أفضل. لنوضح بشكل فورى أنه لا مجال هنا للخلط بين مؤلف وسارد، بين الواقع وبين ما يعطى تأثيرا واقعيًا، ولا الافتراء على السيرة الذاتية والادعاء كذبا بوجود أثر لها. يتعلق الأمر هنا بعدم إغفال الصلة بين حياة الكاتب وكتاباته، وهو ما يمكننا أن نسميه "أثر السيرة الذاتية"(٣).

---

(١) سنرى على مدى هذه الدراسة مسألة تسمية صحفيينا الفاعلين بالمؤلفين، والكتاب، والأدباء، والنشطاء. كما سنرى دمجا لبعض المسميات مثل: صحفيون وكتاب نشطاء أو فاعلون، وكذلك فاعلون – صحفيون – مؤلفون، وهو أمر على درجة عالية من الأهمية – والمسمى لا يتعلق فقط بوضع الكاتب؛ وإنما ينسحب أيضا على ما يكتبه وذلك من ناحية الشكل [...] وطريقة تناول الأدب التى "تنشأ دون شك من احتكاك الكاتب بالمجتمع" (بارت Barthe 19 1997 (1953)) هذه الإشكالية ظهرت أيضا فى العالم العربى خلال القرن التاسع عشر. فقد تعددت الأوصاف والمصطلحات بالطريقة ذاتها؛ أديب، وكاتب، وعالم، وصحفى رأينا ذلك وسنتحقق منه بدراسة الكتابات المختارة لمادتنا العلمية. كان النهضويون فى آن واحد صحفيين وأدباء وكتابا. ونظرا لكون كتاباتهم تنشر فى الدوريات فقد كانت تتحول إلى "فعل تواصل" شكل من أشكال الاتصال من خلاله كانت النهضة تتشكل فى المجتمع العربي. من هنا فقد كان النهضويون "فاعلين وكتابا وصحفيين".

(٢) مانجونو Maingueneau 1993 ص٤٦، ٤٧.

(٣) أو "عامل تراجمي" أو "قيمة تراجمية" لوصف ما يرجع من الرواية (العالم غير الواقعى، الخيال أى نص) إلى تجربة شخصية خاصة بالمؤلف أى متعلقة بالعالم الواقعى أى ما هو=

نخلص من هذا إلى القول: إن حظ السير الفردى يسهم فى عملية تكون أعمال كل مؤلف. وبما أن دراستنا ترتكز على مادة علمية نطمح من خلالها إلى دراسة النهضة من وجهتى النظر الصحفية والأدبية لنر ما كانت عليه المسيرة الفردية لإبراهيم المويلحى باعتباره نموذجا نهضويا متناهى الصغر. من وجهة النظر الصحفية، ذكرت كلمة صحفية وهى واحدة من الصفات الأكثر ملاءمة لوصف مسيرة إبراهيم المويلحي. رغم أنه فى بداية حياته لم يكن هناك شيء يشى بأن الصحافة ستكون مجاله المهني.

ولد إبراهيم فيما بين ١٨٤٣ و١٨٤٦[(١)] لعائلة ميسورة[(٢)] من تجار الحرير. وكانوا يجلبونه من الجزيرة العربية وتحديدا من منطقة "المويلح"[(٣)]. اختاره والده

= خارج النص. من هنا فإن "أثر السيرة الذاتية" أو "العامل التراجمي" أو "القيمة التراجمية" تتبع الخيال تماما مثلما يتبع "التأثير الواقعي"، الواقع هى إذن الشق الخيالى من السيرة الذاتية المرجعية (أى المعترف بها باعتبارها رواية للواقع حتى لو كان هذا الواقع شخصيا بالكامل أى ما تسمى بالذاتية).

(١) بقى تاريخ ميلاد إبراهيم المويلحى مثله مثل أغلبية تواريخ الميلاد فى ذلك العصر غير محدد. إلا أنه وفقا لمقال كتبه ولده الثانى خليل المويلحى (المتوفى عام ١٩٥٣): "محمد المويلحى وجمال الدين الأفغانى للحقيقة والتاريخ أثر أدبى جديد للمويلحي". (كوكب الشرق العدد ١٦٨٢، ٦/٧/١٩٣٠ ص١ العمودان ٤-٥، راجع ملحق ١٠ الفقرة (h) ولد إبراهيم عام ١٨٤٣. للعلم فى هذا المقال هناك تحديث للمعلومات (تواريخ الميلاد) وللعلاقات بين شقيقه محمد وجمال الدين الأفغاني، خاصة فيما يتعلق بخطابه المنشور فى أهم مؤلفات محمد "فترة من " راجع الفصل التاسع.

(٢) هذه الأسرة التى ترجع أصولها إلى الحجاز جاءت إلى مصر فيما بين عامى ١٧٧١ و١٧٧٥، هذه الهجرة كانت ذات طابع تجارى بهدف مد أسواق بيع الحرير المويلحي. كان أحمد المويلحى (المتوفى عام ١٨١٣/١٤) أول من جاء إلى مصر من آل المويلحي. وقد انقسمت الأسرة اعتبارا من ذلك الوقت إلى فرعين استقر أحدهما فى القاهرة وبقى الآخر فى "المويلح" بالجزيرة العربية، وهى المنطقة التى عاشت وما زالت تعيش فيها الأسرة حتى الآن. على ساحل البحر الأحمر فى الحجاز. لمزيد من المعلومات راجع إبراهيم المويلحى ١٩٥٤ (h) ص٣١٤.

(٣) منطقة ذات أهمية تاريخية وسياسية تظهر جلية حين نرى أن الخديو عباس حلمى الثانى (الذى امتد حكمه من ١٨٨٢ إلى ١٩١٤) قد تناولها بالحديث فى مذكراته كواحدة من أهم المناطق التى ضمتها مصر إليها والتى أضاعتها الإمبراطورية العثمانية فى فترة ما من تاريخها. يقول عنها الخديو: "تم بعد ذلك ادعاء أن بارينج Baring قد حصل من السلطان عبد الحميد بصعوبة واضحة (دفتر المذكرات الموسوعي، لاروس ١٩٣٦ الجزء الأول ص٣٤٦) على فرمان تنصيبي، غير أنه لم يفسر أحد أسباب ذلك أنه كان يتوجب فى ذلك الحين الاعتراف أنه خلال هذه الفترة تحديدا كانت الحكومة التركية على نقيض أحكام لندن=

للاضطلاع بأعمال الأسرة التجارية. من هنا فلم يكن هناك ما يشير إلى أن إبراهيم سيصبح صحفيا أو الأديب الذى نعرفه ما دام والده حين اختار شقيقه الصغير عبد السلام (١٨٤٧-١٩١٠)[١] للعمل فى تجارة الأسرة لم يلحقه بالمدارس؛ وإنما بمصنع العائلة منذ نعومة أظفاره. لشغف إبراهيم بالقراءة، حاول جهده التعلم ووجد ضالته لدى معلم يسكن بالقرب من مصنع الأسرة؛ حيثما وضعه أبوه ليتعلم تجارة الحرير وصناعته. يقول إبراهيم فى هذا الصدد:

"كان أبى راغبا فى أن أكون مثله لكونى أكبر أبنائه؛ لذا لم يتركنى أرتاد أى كتاب ولم يلحقنى بأية مدرسة فى الوقت الذى ألحق أخى الأصغر عبد السلام بجامعة الأزهر – ليجعل منه عالما. غير أن الله أراد عكس ذلك. أصبحت من رجال الأدب وأصبح عبد السلام تاجرا[٢] كان حبى للآداب كبيرا، حتى إننى اتفقت مع حارس المصنع على الأشمونى على مراقبة الطريق ترقبا لوصول أبى لقاء بضعة قروش. كان معلمى يسكن قبالة المصنع[٣].

فى عام ١٨٦٥ وافت والد إبراهيم، عبد الخالق المويلحى منيته عن عمر يناهز الثالثة والستين[٤] (١٨٠٢-١٨٦٥/٦٦) وفقا لرواية حفيده الأصغر إبراهيم

= واللورد قد قررت بعد واقعة معينة أخذ ثلاث قرى من مصر تقع على حدود الساحل الأسيوى للبحر الأحمر هي: "مويلح" و"دسيبا" و"الوج" وضمها لحدودها على ساحل شبه الجزيرة الذى كانت إنجلترا تنوى عمل قواعد استراتيجية لها فيها (الأزهرى سنبل ١٩٩٦ ص٣٠) نلاحظ أن القرية الأولى المذكورة هى "المويلح" وفى هذا دلالة على أهميتها، ومن ثم أهمية العائلة التى تحمل اسمها. لمزيد من المعلومات عن هذه المنطقة راجع: موقع فرع الجزيرة العربية لأسرة المويلحى http://www.almowailch.com/glah.htm ويشارك حاليا فيه خليل المويلحى (من مواليد ١٩٤٤ أصغر أحفاد إبراهيم). راجع شجرة الأنساب الملحق العاشر الفقرة (a).

(١) راجع راميتش Ramits. 1980 ص١٠٤ (تاريخ الميلاد) وص١١٢ (تاريخ الوفاة) هذان الفرعان على اتصال دائم.

(٢) من اللافت والمثير للدهشة ملاحظة أن إبراهيم لا يذكر شقيقه بوصفه نائبا. وهذا يجعلنا نفترض أن هذه المذكرات قد تم تحريرها قبل توليه رسميا هذا المنصب عام ١٨٧٦. أتراه لما عرف عنه من إفراط فى تقدير ذاته لم ير فى أخيه إلا كونه تاجرا؟ إذا كان الحال كذلك فلا يمكننا معرفة الفترة التى كتبت فيها تحديدا هذه المذكرات.

(٣) المويلحي، ١٩٥٤ (h)، ص٣١٨ فقرة قيل: إنها مقتطفة من مذكرات إبراهيم كما أضيف إليها "أنها لم تنشر بعد".

(٤) يبدو أن والد إبراهيم (الذى توفى عام ١٩٠٦) قد عاش فيما بين عامى ١٨٠٢ و١٨٦٥.

المويلحى (١٩١٢-١٩٩٧)[١] آل إلى إبراهيم من ثروة الأسرة[٢] الأعمال التجارية وما يساوى ثمانين ألفا من الجنيهات الذهبية[٣] سرعان ما خسرها عام ١٨٧٢ فى بورصة السوق[٤]. التى كانت وصلت إلى مصر عام ١٨٦٣ واستقرت فى الإسكندرية. واحدة من الحكايات التى يرويها فى مذكراته[٥]:

---

(١) راجع المويلحى ١٩٥٤ (b) ص٣١٧. نلاحظ أن هذا المؤلف إبراهيم المويلحى (١٩١٢-١٩٩٧) حفيد كاتبنا إبراهيم المويلحى (توفى عام ١٩٠٦) لم يكن فقط الوريث الأساسى لوثائق وكتب وصحف إبراهيم ومحمد؛ وإنما كان بدوره وعلى شاكلة عمه محمد (توفى عام ١٩٣٠) وجده إبراهيم (توفى عام ١٩٠٦) صحفيا مصريا كبيرا. عثرنا على كثير من كتاباته ومقالاته ومذكراته وقراءاته ومراسلاته فى مكتبة الأسرة الخاصة. نشكر لخليل المويلحى (مواليد ١٩٤٤) تيسيره لنا الوصول للمكتبة والبقاء والعمل بها طويلا من بين مراسلات إبراهيم (١٩١٢-١٩٩٧). وجدنا خطابات متبادلة مع "جاك بيرك" و"أندريه ريمون". هذه الوثائق وهذه المقالات (التى سنقوم بحصرها فى منشوراتنا مستقبلا) تشير إلى أنه بالإضافة إلى الأبحاث العديدة التى من المطلوب القيام بها عن إبراهيم (المتوفى عام ١٩٠٦) وعن محمد (المتوفى عام ١٩٣٠) هناك دراسات يجب القيام بها عن ابراهيم (المتوفى عام ١٩٩٧) وعبد السلام (١٨٤٧-١٩١٠) الذى كان واحدا من أوائل النواب المصريين عام ١٨٧٦. الحقيقة أن هناك أعمالا جديدة يجب الشروع فيها عن محمد (المتوفى عام ١٩٣٠) استنادا إلى اليوميات التى كان يكتبها فى أسفاره ومسوداته والكتب التى كان يقرأها والتى وجدناها فى المكتبة الخاصة بآل المويلحى (راجع الملحق ٧: "بعض قراءات إبراهيم ومحمد المويلحي") الأمر إذن لا يتعلق برجل واحد؛ وإنما بأسرة كاملة لم تتمحور الأبحاث حتى يومنا هذا إلا حول فرد واحد منها هو محمد (المتوفى عام ١٩٣٠) وأهم أعماله (حديث عيسى بن هشام) إلا أنه تبين فى ضوء المراجع الجديدة التى فى حوزتنا أنه يجب مراجعة الكثير على ضوء النصوص الجديدة غير المنشورة التى عثرنا عليها فى "مصباح الشرق" (راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (i) والمادة العلمية ٣) نصوص غير منشورة قمنا بعمل دراسة أولى لها سوف نتبعها بدراسات وأبحاث أخرى بعد أطروحة الدكتوراه (راجع الفصل التاسع الفقرة ٣).

(٢) والد إبراهيم (الذى توفى عام ١٩٠٦) عاش إذن بين عامى ١٨٠٢ و١٨٦٥.

(٣) المويلحى ١٩٥٤ (ط) ص٣١٩.

(٤) انتقلت بورصة مصر بعد ذلك إلى القاهرة عام ١٨٩٦: راجع لوتى ١٩٩٨ ص٣١.

(٥) فى هذا دليل على أنه كانت فى حوزة إبراهيم (١٩١٢-١٩٩٧) مذكرات إبراهيم (الذى توفى عام ١٩٠٦). غير أننا لم نجدها فى المكتبة الخاصة بآل المويلحى، إما لوجودها فى الصناديق التى لم تكن الأسرة قد تسلمتها لدى مرورنا بالقاهرة فى إبريل ٢٠٠٩. بما أن الشقة التى وضعت بها المكتبة لم يكن متاحا التردد عليها إلا فى فبراير ٢٠٠٩ وإما مازالت فى الصناديق ولم يتم فرزها لضيق الوقت أثناء وجودنا بالقاهرة وإما، وهو أخشى ما نخشاه من الاحتمالات، أنها قد ضاعت مع الزمن وسوء الأحوال الجوية والانتقالات المتكررة التى تأكدنا من مصادر موثوق منها أنها قد تعرضت لها.

"كان الربح يشجعنى على المضى قدما فى اللعب كما كانت الخسارة تدفعنى للاستمرار بأمل استعادة الأموال التى خسرتها. وقد انتهى بى الأمر إلى خسارة ثمانين ألفا من الجنيهات عام ١٨٧٢ بل إلى الاستدانة[١].

فى هذه الآونة تحديدا تدخل ماضى آل المويلحى وأبدل مصير إبراهيم الذى أوشك من ثرى من الأعيان أن يصبح واحدا من الأثرياء الخاسرين من جراء المضاربة فى البورصة. وكانت هذه إذ ذاك ظاهرة منتشرة من بين عدة بلدان لا فى مصر وحدها؛ وإنما فى أوروبا أيضا[٢].

باسم العلاقات الطيبة القديمة بين أسرة الخديو إسماعيل وأسرة آل المويلحى ساعد الخديو الشقيقين المويلحى على الخروج من هذه الأزمة المالية التى تسبب فيها إبراهيم. فقد كان الجد الأكبر لإبراهيم ويدعى أحمد المويلحى (تُوفِّى عام ١٨١٣) قد ساعد محمد على باشا على مقاومة الوهابيين فى الجزيرة العربية بدءا من "بويلح"[٣] تحديدا. قدم الخديو لكل واحد من الأخوين "المويلحي" مبلغ ثلاثة آلاف من الجنيهات[٤] وعين إبراهيم عضوا فى مجلس الاستئناف[٥] لقاء مرتب شهرى قدره أربعون جنيها مصريا (المويلحى، ١٩٥٤، ٣٢١) نشأت علاقة سيكون لها تأثير كبير على مسيرة كاتبنا خاصة السياسية.

---

(١) المويلحى ١٩٥٤ (b) ص٣٢٠.

(٢) راجع ڤيركامر Vercamer، ١٩٠٤، ص١٥٩، و١٩٠٣، ص٣٧٨، علما بأننا سنعاود الحديث عن هذا الحدث الذى ترك أثرا بالغا على كاتبنا وأورده فى كتاباته المرجعية والروائية؛ راجع الفصل الثامن الفقرة ٧ والفصل التاسع الفقرة ١.

(٣) المويلحى، ١٩٥٤ (b) ص٣١٦- ٣١٧.

(٤) المويلحى، ١٩٥٤ (b) ص٣٢١.

(٥) نشير هنا -على سبيل الاستدلال- إلى أن ابن مسعود (١٩٧٢، ١٢٤-١٢٦) قد ذكر أن إبراهيم (الذى توفى عام ١٩٠٦) قد عين فى محكمة استئناف القاهرة لممارسة عمله بعد إنهائه دراساته القانونية أى وفقا للطريقتين القديمة والحديثة (ص١٢٤). إلا أننا لم نجد أثرا واحدا يؤكد هذه المعلومة. فلا يوجد كاتب واحد قام بعمل ترجمة طالت أو قصرت لإبراهيم قد ذكر أنه قد درس القانون، وللأسف لم يذكر ابن مسعود المرجع الذى استقى منه هذه المعلومة، ومن ثم وجب توخى الحذر فى التعامل معها.

في الوقت ذاته الذى آلت فيه لإبراهيم ثروة أسرته مع الكثير من المسئوليات التجارية والإدارية استمر انجذابه إلى الأدب. من هنا فقد أسس عام ١٨٦٨ بالاشتراك مع عارف باشا ناظر المالية فى ذاك الوقت "جمعية المعارف" التى كان هدفها نشر الأعمال الكلاسيكية[١] التى يرجع الباحثون لها مع ما استجد من ملفات. خاصة ترجمات المؤلفات الأجنبية. وقد انضم بعد ذلك إلى محمد عثمان جلال (١٨٢٨ – ١٨٩٨) وترجما معا عام ١٨٧٠ كتابا إيطاليا عن المسرح بعنوان: "ألعاب التياترات"[٢]، وقد ذكرت جريدة "وادى النيل"[٣] أن إبراهيم المويلحى كان الناشر العلمى لهذه الترجمة. ويؤكد ما ساقته الجريدة أن إبراهيم فى العام ذاته الذى شارك فيه عارف باشا قد أسس فى خط مواز للجمعية دار نشر خاصة به أسماها "مويلحي"[٤]، وقد تبع ذلك عام ١٨٧٠ وبمشاركة محمد عثمان جلال بنشر أو جريدة له بعنوان "نزهة الأفكار"[٥].

ونلاحظ هنا أن بعض التفاصيل بقت دون معلومة تؤكدها مثل المدة التى دامت مشاركته فيها لعارف باشا، وكذلك مدة عمل دار نشر "المويلحي". كما لم يظهر ما يفسر عدم العثور على عددى جريدة "نزهة الأفكار"، ومذكرات إبراهيم وكتابات أخرى له.

ما زال الغموض يكشف الفترة الواقعة بين عامى ١٨٧١ و١٨٧٩ فلم نعثر من الآثار الدالة على أنشطته الأدبية والصحفية خلال هذه الفترة إلا على الشيء النذر. والشيء الملفت فى الأمر أن نشاطه خلال هذه الأعوام كان مهنيا (موظف دولة وقريب من السلطة) أكثر منه أدبيا وصحفيا. هل أوقف بالفعل كل أنشطته كصحفى من رجالات الأدب لتسع سنوات متتالية؟ أم اضطر لأخذ شيء من الراحة

(١) منها "تاج العروس" و"لسان العرب" و"أسد الغابة" و"سلوك الممالك" و"رسائل بديع الزمان الهمذانى "... إلخ: راجع "الهلال" السنة الرابعة، العدد السابع الصادر فى ١/٤/١٩٠٦ ص٣٨٥ ومجلة القافلة عدد يونيو / يوليو ١٩٩٠ ص٣٧.
(٢) راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (٢).
(٣) راجع العدد ٥٨ الصادر فى ١١/١١/١٨٧٠ ص٢-٤ فى المجلد الثانى، المادة العلمية ٢ الفقرة (٢).
(٤) چورجى زيدان ١٩٢٢ ص١٤٠ و١٩٦٨ ص١٧٤.
(٥) راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (b) والمجلد الأول الفصل الرابع.

الاختيارية أو الإجبارية؟ هل كان هذا التوقف من الناحية الرسمية فى حين استمر فى الكتابة بشكل غير رسمي؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب هل نشر كتاباته باسم مستعار فى الفترة من ١٨٧١ إلى ١٨٧٩؟

وإذا كانت الإجابة بالنفى هل كتب واحتفظ بكتاباته لمستقبل قريب؟ هذه الفترة فى حاجة إلى إيضاح وقد يحدث ذلك قريبا، وقد لا يحدث. الحقيقة أننا لا نكترث كثيرا بهذا الأمر، فلدينا قدر كاف لفهم مسيرته حتى لو بقت هذه الفترة بين قوسين وبشكل حصرى سياسية. الحقيقة أننا نعرف أنه خلال الأعوام من ١٨٧١ إلى ١٨٧٩ كلف إبراهيم "بوضع الأسس التى سيرتكز عليها الدستور المصري"[١] (المويلحى ١٩٥٤، ٣٢١). وفى الوقت ذاته:

"طلب ناظر المالية من الخديو تكليف إبراهيم بك كرئيس للمكتب العربى للمالية. وسرعان ما تم تعيينه رئيسا لمكتب الشكاوى كما عهد إليه أيضا بالتفتيش على المكتب التركى للمالية. كما عين لاحقا عضوا بمجلس الدين السائر"[٢].

كان إبراهيم إذن منشغلا بدرجة كبيرة بالحياة السياسية خلال هذه الفترة الممتدة من ١٨٧١ إلى١٨٧٩، وخلال هذه الفترة ذاتها كان عبد السلام المويلحي[٣].

---

(١) حدث أشارت إليه كافة المراجع التى كتبت عن المؤلف، راجع الفصل الثالث الفقرة ٣.
(٢) المويلحي، ١٩٥٤ (b) ص٣٢١-٣٢٢.
(٣) عبد السلام المويلحى (١٨٤٧-١٩١٠) الأخ التالى لإبراهيم (الذى توفى عام ١٩٠٦) المعروف بكونه أول نائب مصرى فى القاهرة عام ١٨٧٦. عين عام ١٨٦٦ غير أنه لم يمارس عمله فعليا إلا عام ١٨٧٦ نظرا لكون مجلس النواب فى مصر لم يصبح فعالا إلا عام ١٨٧٦. لمزيد من المعلومات حول هذا الرجل راجع راميتش ١٩٨٠ ص١٠٤-١١٤ الذى يحيلنا إلى: (١) عايدة العزب موسى فى كتابها "٩٠ سنة على الثورة العرابية" ١٩٧١ الذى يضم مذكرات عبد السلام المويلحي (٢) مقالات محمود عزمى فى باب "رجال التاريخ المصري" فى جريدة "السياسة الأسبوعية" عدد الثالث من مارس ١٩٢٨ (٣) محمد خليل صبحى فى كتابه "تاريخ الحياة النيابية" الناشر دار الكتب ١٩٤٧ (٤) مجلة كل شيء والعلم العدد الثامن عشر من يونيو ١٩٣٢ التى نقل عنها خطاب جمال الدين الأفغانى لعبد السلام المويلحى (٥) جريدة الأهرام بتاريخ مايو ١٨٧٧ التى استقى منها المعلومات الخاصة بالنياشين والرتب التى حصل عليها عبد السلام المويلحى من الخديو إسماعيل ومن السلطان عبد الحميد الثاني. يحيلنا راميتش كذلك إلى مراجع أخرى كتابتها بها تكريم لعبد السلام المويلحى بعد وفاته فى العاشر من ديسمبر ١٩١٠. والمراجع الخاصة بهذه المقالات تم=

يبدأ عمله كأول نائب مصري[1]. واضح إذن للعيان أن إبراهيم قد تفرغ خلال هذه السنوات التسع لأنشطة سياسية ذات مسئوليات جسيمة مما يفسر عدم نشره أى شيء خلال هذه الفترة عدا مقال قصير نقلته صحيفة "الجوائب"[2] عن "الوقائع المصرية" به قصيدة لإبراهيم يمدح فيها مناقب الخديو إسماعيل. الواقع أننا عدا ذلك لم نجد شيئا ولم تذكر أى من الدراسات التى كان من الممكن أن تتناول هذه النقطة شيئا.

كان الخديو إسماعيل يكن إذن مودة عالية لإبراهيم، حتى إنه عهد إليه بمالية ودين البلاد. نفهم إذن من ذلك لم اختاره دون غيره ليصحبه أثناء فترة نفيه إلى أوروبا بعد عزل السلطة العثمانية المركزية له عام ١٨٧٩.

سافر إبراهيم إذن ككاتم أسرار الخديو وسكرتيره إلى إيطاليا وتحديدا إلى نابولى فى أول الأمر؛ حيث نشر عام ١٨٧٩ جريدة "الخلافة"[3] وهذا العنوان شديد الدلالة يوضح تأييد إبراهيم للقضية الخديوية. لاحقا أسس إبراهيم عام ١٨٨٠ جريدة

= سردها ص٤٣٢ وما بعدها: (١) "اللواء" (عدد ١٩١٠/١٢/١٤)، (٢) "مصر الفتاة" (عدد ١٩١٠/١٢/١٤)، (٣) "الجريدة" (عدد ١٩١٠/١٢/١٧)، (٤) "الصاعقة" (عدد ١٩١١/٢/٥)، (٥) "السياسة الأسبوعية" (عدد ١٩٢٨/٣/٣) والتاريخ هنا يبدو بعيدا غير أنه ذكر على هذا النحو ويذكر راميتس أيضا ص٤٢٧ المؤلفات والدوريات التى تم العثور فيها على بعض كتابات عبد السلام المويلحى (١) "خواطره" "التجارة" السنة الثانية: ١٨٧٩ (الأعداد ٤٨ – ٤٩ – ٥٠ – ٥١ – ٥٢ – ٥٣) (٢) "خطاب لعبد السلام المويلحي" "مصر" عدد ١٤ من أبريل ١٨٧٩، (٣) "الإصلاح" "المحروسة" السنة الثانية: ١٨٨١ عدد ١٦ مارس (٤) "جلسة تاريخية فى مجلس النواب" كل شيء والعلم" عدد ٩ من فبراير ١٩٣٨. لمزيد من المعلومات عن هذا الرجل الذى يعد أول نائب مصرى راجع أيضا الجندى ١٩٦٠ ص٧٤-٧٥.

(١) نائب قال عنه أحمد شفيق باشا فى مذكراته (راجع أحمد شفيق باشا ١٩٩٤ ص١٢٢) إنه كان بصحبة السيد حسن العقاد وعثمان باشا فوزى اللذين عملا دون كلل لمصلحة الخديو حليم بن محمد على باشا أثناء وجوده الجبرى بإسطنبول خلال فترة حكم ابن شقيقه الخديو محمد توفيق (١٨٧٩-١٨٩٢) نجل الخديو إسماعيل.

(٢) السنة الحادية عشر العدد ٥٢٢ أو ٥٣٣ ص٣ العمود ١ نظرا لرداءة الأوراق المصورة لم يمكننا تمييز الرقم ٢ من الرقم ٣ وقطعا للشك نورد الرقمين.

(٣) صحيفة ثنائية اللغة (لغة عربية – لغة تركية) لمزيد من المعلومات عن هذه الصحيفة راجع الفصل الثالث الفقرة الثالثة والفصل الرابع.

"الاتحاد"[١] في باريس التي بقى فيها مع الخديو حتى عام ١٨٨٤. صدر عن هذه الجريدة في البداية ثلاثة أعداد عام ١٨٨٠ أما العدد الرابع فقد ظهر عام ١٨٨٤، وتسبب في طرد إبراهيم من فرنسا. إلى بلجيكا، ثم لحق إبراهيم بالأفغاني ومحمد عبده في لندن. وكان على اتصال بالأخير منذ تعاونهما في تحرير ونشر مجلتهما الشهيرة "العروة الوثقى" (باريس ١٨٨٤)[٢] وصل إبراهيم إلى لندن عام ١٨٨٤ ولم يبق فيها سوى عام واحد. الحقيقة أنه في عام ١٨٨٥ وبعد الخطاب[٣] الذي كان قد أرسله إلى السلطان شارحا كيف كان في خدمة الخديو إسماعيل، دعاه السلطان للمجيء إلى اسطنبول، وهو ما فعله عام ١٨٨٥. مكث إبراهيم هناك عشر سنوات تقلد خلالها وظائف عليا بعد أن عينه السلطان شخصيًا عضوا في مجلس التعليم العثماني العام في إسطنبول وبشكل أكثر تحديدا "وكيل لوزارة المعارف العامة". (المويلحي، ١٩٥٤ (b) ٣٢٥).

خلال العشر سنوات المشار إليها راقب إبراهيم الحياة في قصر يلدز[٤] وفي اسطنبول بالإضافة إلى الحياة اليومية السياسية العثمانية. كما كتب بعض المقالات في الصحيفة التركية "الحقائق" وصف فيها الحياة في اسطنبول (المويلحى ١٩٣٨

(١) صحيفة ثنائية اللغة (عربية - تركية) لمزيد من المعلومات عن هذه الصحيفة راجع الفصل الثالث الفقرة الثالثة والفصلين الرابع والخامس، المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (d) والملحق العاشر الفقرتان (d) و(e).

(٢) ١٣ من مارس ١٨٨٤ إلى ١٧ من أكتوبر ١٨٨٤.

(٣) ويدمر Widmer 1954, 69.

(٤) "هي مجموعة واسعة من التلال الخضراء تشرف على البسفور (...). بدءا من ١٨٧٧-١٨٧٨ حول عبد الحميد مقرا صيفيا بسيطا إلى قصر أقام فيه إقامة دائمة. واعتبارا من هذا التاريخ تداخل تاريخ قصر يلدز مع تاريخ حكمه. أقام فيه بضعة أشهر بعد وصوله للحكم وبقى فيه حتى تاريخ عزله في أبريل ١٩٠٩ (...) ذهب إلى هناك واعتزل الناس وبقى سجين جدرانه (...). أصبح القصر قلب حكومة الإمبراطورية (...) وأكثر من مجرد قصر رمزا لحكم السلطان عبد الحميد والنظام الحميدى ومكانا يكتنفه الكثير من الغموض المقلق (جورجون ٢٠٠٣، ١٢٧) لمزيد من المعلومات عن هذا القصر مركز السياسة الحميدية، راجع جورجون ٢٠٠٣ الفصل السادس ص١٢٧-١٤٦. الذى يحمل عنوان؛ يلدز، قصر عبد الحميد وخريطة للقصر ص٤٨١.

العدد ٢٥٠، ٦٥٩). ندرك من ذلك أنه كان ثنائى اللغة ومتمكنا من اللغتين العربية والتركية (وتحديدا العثمانلية) بالإضافة إلى بعض الفرنسية والإيطالية[١]. عاد إبراهيم عام ١٨٩٥ إلى مصر وفى السنة التالية وبعد أن نشر فى جريدة "المقطم"[٢] طيلة سنة كاملة مقالات متصلة باسم مستعار: "لأديب فاضل من المصريين". وقد جمعت هذه المقالات ونشرت فى كتاب عام ١٨٩٦ بالاسم ذاته المستعار لدى دار النشر "المقطم"، يحمل هذا الكتاب عنوان "ما هنالك"[٣]، وهو يصف الحياة السياسية العثمانية منظورا إليها من الداخل. لم يرض السلطان عن نشر هذا الكتاب وأمر بسحب كل نسخة وحرقها. امتثل إبراهيم للأمر واستطاع إنقاذ بعض النسخ التى أخفاها لدى أصدقائه. بعد أن عادت الخلافات وأطل مرة أخرى سوء الفهم برأسه بينه وبين السلطان لم يكتب إبراهيم إلا الشيء النذر خلال عام ١٨٩٧ منها بعض المقالات فى جريدة "المقطم". نشرت كل هذه المقالات فى الصفحة الأولى موقعة بوضوح باسم إبراهيم المويلحى وعناوينها كالتالي:

- "الإعانة السودانية والرواتب الخديوية"[٤] (١٨٩٧/٧/٢٧).
- "امتياز مصر وفضله على المصريين"[٥] (١٨٩٧/٧/٣١).
- "عشنا وسمعنا" إيه يا دهر يا أبا العجب عشنا"[٦] (١٨٩٨/٩/١٤).

(١) حول هذه النقطة وبعيدا عن الروايات الخاصة بالسيرة الذاتية التى تفيد كلها بإجادته أو معرفته بهذه اللغات، لاحظنا فى المكتبة الخاصة بآل المويلحى وفرة المؤلفات المكتوبة باللغتين الإيطالية والفرنسية الصادرة من بداية القرن التاسع عشر وحتى نهايته. وقد سجلت ملاحظات بخط منمق وباللغة العربية فى هوامش صفحاتها. وهى ملاحظات لا تبعد كثيرا عن الثيمات التى كان يتناولها الأب والابن فى جريدتيهما "مصباح الشرق" إلا أن علينا التريث قليلا لمعرفة إلى أيهما نرجعها. الأمر الذى سينبنى عليه الكثير فيما بعد.

(٢) اسم الصحيفة يرجعنا إلى جبل المقطم بالقاهرة. وهى صحيفة مصرية كانت موالية للإنجليز. راجع كافة المؤلفات التى تتناول الصحافة المصرية وكتب تيسير أبو عرجة ١٩٩٧، ص٦١٨.

(٣) لذكر ما كان موجودا بقصر يلدز أو ما كان يدور فى المحيط السياسى للسلطان العثماني، راجع الفصل السادس والمجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (e).

(٤) راجع الفصل السابع (تحليل) والمجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (g) (النص).

(٥) راجع الفصل السابع (تحليل) والمجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (g) (النص).

(٦) راجع الفصل السابع (تحليل) والمجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (g) (النص).

كان عام ١٨٩٨ بالنسبة إلى إبراهيم عاما مميزا، فقد أسس فيه أدوم وأشهر صحفه "مصباح الشرق" (١٨٩٨-١٩٠٣) التى تشكل مادتنا العلمية الأساسية[1] بقى رئيسا لتحريرها ومديرا لها طيلة ثلاث سنوات من ١٨٩٨/٤/١٤ إلى ١٩٠١/٦/٧ وفى هذا التاريخ الأخير سلمها إلى ابنه الأكبر ورفيقه الدائم محمد (الذى توفى عام ١٩٣٠)، الذى أدارها ورأس تحريرها بدوره لمدة ثلاث سنوات أخرى تمتد من ١٩٠١/٦/١٤ إلى ١٩٠٣/٨/١٥. والحقيقة أننا لا نعلم سبب ترك إبراهيم لها. ما نعرفه أنه خلال هذه الفترة كان قد استأنف أنشطته السياسية "كمستشار سياسى للخديو"[2] (آلن ١٩٩٣، ٨١٥). وهذا فى رأى روجير آلن ما يفسر تركه الجريدة لابنه. خلال السنوات الأخيرة من عمره وتحديدا فيما بين الرابع عشر من يناير ١٩٠١ والتاسع والعشرين من يناير ١٩٠٦ كتب إبراهيم بعض المقالات (موقعة باسمه) لا فى جريدة "المقطم"[3] كما حدث عام ١٨٩٧؛ ولكن فى الجريدة المنافسة التى مثلت الغريم المباشر له "المؤيد"[4]، وكان معروفا آنذاك أن الجريدة الأولى موالية للبريطانيين وأن الثانية مؤيدة للمصريين، وقد كتب فى الأخيرة نحو خمسة مقالات فى الفترة الواقعة بين ١٩٠٤ و١٩٠٥

- "أشد أمراض النفس أغراضها"[5] (المؤيد، ١٩٠٤/٣/٦).
- "المقطم ودعوة المسلمين للنصرانية فى مصر"[6] (المؤيد ١٩٠٤/٤/٧).

---

(١) راجع المجلد الثانى حيث يوجد تقسيم وتصنيف ثيمات جريدة "مصباح الشرق" (المادة العلمية (١) والملاحق ٤، ٥، ٩). لنعرف إجمالى شامل للجريدة (مادتنا العلمية المرجعية) راجع المادة العلمية ١ الفقرة (g) أما محتواها بالتفصيل فراجع بشأنه الفصل الثامن.

(٢) وهو أمر قد أكده كل من الخديو عباس حلمى الثانى (١٩٩٦، ١٦٤) والناظر شفيق باشا (١٩٣٦، ٣٧٦) والكاتب الصحفى عباس محمود العقاد (١٩٦٣، ٩٩).

(٣) جريدة موالية للإنجليز، راجع كل المراجع الخاصة بالصحافة المصرية وتيسير أبو عرجة ١٩٩٧، ص٦١٨.

(٤) جريدة مؤيدة للمصريين، راجع كل المراجع الخاصة بالصحافة المصرية وسليمان صالح ١٩٩٠-١٩٩٧، مجلدان، ص٢١٥ وص٢١٩.

(٥) راجع الفصل السابع (تحليل) والمجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g) (النص).

(٦) راجع الفصل السابع (تحليل) والمجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g) (النص).

- "كلمة عن تقرير لورد كرومر"[١] (المؤيد ١٩٠٤/٤/٢٣)
- "رد على صاحب المنار"[٢] (المؤيد ١٩٠٥/١/٢١).
- "محمد على منقذ مصر"[٣] (المؤيد ١٩٠٥/٤/٢٢).

وفق أغلبية المصادر أسس إبراهيم فى السنة ذاتها ١٩٠٥ جريدة باسم "المشكاة". غير أنه وفقا لسجلات الدوريات الخاصة بدار الكتب[٤] تظهر هذه الصحيفة باسم ولده خليل (١٨٧٤-١٩٥٣) بالمشاركة مع صديق له يدعى يوسف حمدى يكن[٥]. بعد هذا التاريخ بفترة وجيزة توفى إبراهيم فى التاسع والعشرين من يناير ١٩٠٦ بعد شهرين من المرض[٦].

٣- آثار المسيرة المويلحية ودلائلها

كانت وفاة إبراهيم كما هو الحال بالنسبة إلى كبار النهضويين، توقيتا للتعبير التقليدى والمألوف فى مثل هذه الظروف، وتوقيتا أيضا للتعبير الغزير والجيد فيما يتعلق بالمواقف المتبناة تجاهه، حظى بانتباه الجميع.

من كان فى حياته إما محسودا أو متجاهلا عن خوف أو عجز خيال أسلوبه الحاد ونفوذه المؤكد لدى ساسة عصره. من هنا فقد تعددت المقالات التى كتبت فى هذه المناسبة الحزينة.

- "إبراهيم المويلحي"، "المقتطف" المجلد ٣١ الباب ٣ ص ٢٦٤-٢٦٥ عام ١٩٠٦.

---

(١) راجع الفصل السابع (تحليل) والمجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g) (النص).
(٢) راجع الفصل السابع (تحليل) والمجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g) (النص).
(٣) راجع الفصل السابع (تحليل) والمجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g) (النص).
(٤) مكتبة مصر القومية ودار محفوظاتها.
(٥) اسم نكتبه "يكن" وليس "يكين" كما يفضل البعض وذلك تمثلا بفيليب دى طرازى Philippe Di Tarrazi (1913, 276) الذى يعنى ينغم وتصوت حرف الـ (k). والحقيقة أننا سمعنا فى مصر الاسم ينطق على هذا النحو. وفيما يتعلق بهذا الكاتب نشرت جريدة "الصاعقة" قصيدة له فى مناقب إبراهيم عام ١٩٠٦، السنة الثالثة العدد ٥٢ الصادر فى ١٩٠٦/٢/١٨ ص٢ العمودان ١-٢.
(٦) هناك رواية تقول: إنه كان مريضا خلال السنة الأخيرة من حياته؛ أى عام ١٩٠٥ تحديدا بمرض السرطان الذى أسيئ تشخيصه (راميتش ١٩٨٠، ٨٨).

- "ترجمة حياة المغفور له إبراهيم المويلحي"[١] "المؤيد" عدد ١٩٠٦/٢/٣.
- "شيء لله"[٢] "الصاعقة" السنة الثالثة العــدد ٥٢، ١٩٠٦/٢/١٨ ص ١-٢ الأعمدة ١-٥ و ١-٢ و٥.
- "إبراهيم المويلحي" "الصحافة" السنة الثانية العدد ٥٣، ١٩٠٦/٢/١٨.
- "إبراهيم بك المويلحى الكاتب السياسى والمنشئ الصحافي"[٣] "الهلال السنة الرابعة، الباب السابع ص ٣٨٣-٣٨٧، ١٩٠٦/٤/١.
- "رحمة الله عليه"[٤] "الصاعقة" السنة الثالثة العــدد ٥٣، ١٩٠٦/٣/٥ ص ٢ العمودان ٣ و٥.
- "المويلحى وفؤاد"[٥] "العجائب" عدد ١٩٠٦/٧/١٦.

تخرج من كل هذه المقالات صورة لإبراهيم كواحد مــن الرجــال العظــام، مسيرته مسيرة نهضوى متفان فى حب مصر والعالمين العربى والإسلامي. أبــرز مساره ووصف طبعه وحددت معالم حياته الوظيفية كرجل سياسة، ولم يبدو هــذا الرجل المزدوج الملتبس الذى تحدث عنه جورجى زيــدان (١٨٦١-١٩١٤) بعــد وفاته بوقت طويل خاصة فى كتابته:

"تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر"[٦] ص١٤٠-١٤١، و"بناة النهضة العربية"[٧] ص ١٧٥.

قائلا: إنه أحد الرجال الأذكياء الذين حال طموحهم الزائد دون وصولهم إلى العظمة التى يستحقونها.

---

(١) سيرة إبراهيم المويلحي.
(٢) من كل المقالات المذكورة عاليه، لم يورد راميتش ذكر هذا المقال تحديدا.
(٣) مقال عن إبراهيم المويلحى الكاتب السياسى والمؤسس للصحف.
(٤) هذا المقال أيضا لم يذكره راميتش، وهو قصيدة مديح بتوقيع يوسف حمدى يكن.
(٥) مقال عن المويلحى والملك فؤاد.
(٦) تُرجم هذا الكاتب دوبون A-L Dupont (٢٠٠٦، ٧١٤).
(٧) ترجم هذا الكتاب دوبون Dupont (٢٠٠٦، ٧١٥).

"لو ثبت فى التجارة مثلا ولم يرغب عنها فى خدمة الحكومة لكانت تجارته من أوسع التجارات، أو لو ثبت فى الخدمة ولم يعدل عنها إلى الصحافة والطباعة لكان من أكبر المناصب، ولو ثبت فى الصحافة إلى الآن لكانت صحيفته من أكبر الصحف وأهمها، ولكنه لم يستقر على حال"[١].

بالفعل حاول إبراهيم ارتقاء كل الدرجات والمضى قدما فى أكثر من مجال وظيفي؛ ولكن ألم يكن ذلك ملمحا مألوفا لهذا العصر وشائعا فى القرن التاسع عشر؟ فهذه الفترة كانت فترة البحث عن الذات ومحاولة الإبقاء على الهوية رغم التغييرات العميقة. ألم يتطلب الأمر التواجد على كل الجبهات؟ هل يوجد كثير من النهضويين اقتصر الأمر بالنسبة إليهم على كونهم صحفيين، أو كتاب، أو موظفين، أو حتى من كبار الموظفين؟ ألم يكن كبار رواد النهضة مثل الطهطاوى وعلى مبارك كتابا ومترجمين ومسئولين عن الجريدة الرسمية للدولة ومن كبار موظفيها فى آن واحد؟

ألم يكن شقيقه عبد السلام أول نائب مصري؟ وألم يكن محمد المويلحى ابنه الأكبر كاتبا كبيرا وصحفيا وموظفا بالأوقاف؟ وألم يكن جورجى زيدان نفسه موجودا على أكثر من صعيد وجبهة؟ ألم تقل عنه تحديدا ندا توميش Nada Tomiche "إنه اشتهر فى مجالى الصحافة والرواية التاريخية وأنه كان أيضا فقيها لغويا وواحدا من كبار الرحالة". (٢٠٠٠، ٤٣٤).

المشكلة لم تكن إذن فى الوجود على كل الجبهات فى آن واحد؛ وإنما فى التواجد على جبهة العصر. من المهم والضرورى إذن وبحرص شديد تبنى نظرة ناقدة ومنفتحة فى آن واحد؛ لإدراك مسيرة كتاب وصحفيى هذه الفترة. ونرغب هنا فى التذكير بمفهوم البيو/جرافيا أو كتابة التراجم الذى يربط بين الحياة والمؤلفات، بين السياق والنص، بين المرجعى والخيالى والذى أشار إليه مانجونو Maingueneau (١٩٩٣، ص ٤٦-٤٧). ذلك أن المسألة التى يثيرها جورجى زيدان هنا تجعلنا

(١) جورجى زيدان ١٩٦٨، ص١٧٥ "تقلبه فى أعماله".

نتساءل لا عما كان إبراهيم قادرا على عمله إذا ما امتهن هذه المهنة أو تلك؛ وإنما عن الكتابات التى استقى منها جورجى زيدان. وغيره معلوماتهم لكتابة سيرة إبراهيم (الذى توفى عام ١٩٠٦).

لفهم مسيرته وتعرجاتها لنر ما يقوله هو نفسه عنها، وما ينقله لنا بشأنها محيطاه القريب والبعيد بالإضافة إلى ما تقوله عنها الأبحاث الجامعية. لنأخذ مثالا على ذلك مقال "شيء لله" لأحمد فؤاد[١] المنشور فى جريدة "الصاعقة" الذى يقول كاتبه: كم كان هذا الرجل معلما فذا من نوعه رغم عدم تلقيه أى نوع من الإعداد أو التكوين حتى التقليدي. وكيف أنه كان يمزج التفسير والفقه (قانون المسلمين) والأدب (بمعناه الواسع) والفلسفة ويجعل الطالب يغادره وفى ذهنه عشرون درسا لا درسا واحدا؟ (أحمد فؤاد ١٩٠٦/٢/١٨ ص ١، الأعمدة ١-٥/٢). بالإضافة إذن لتعدد كفاءاته كصحفى وكاتب سياسى كان إبراهيم أيضا معلما، ومن الواضح أنه كان معلما مستقلا، فلم تشر أى جهة أنه قد مارس التعليم بشكل رسمي. ولا يجب أن ينسينا ذلك أنه كان "وكيلا لوزارة المعارف العمومية العثمانية"[٢] لمدة عشر سنوات.

من هنا نرى كم يساعد البحث عن الآثار والدلائل الخاصة بالرجل وكتاباته على إيضاح مسيرة الكاتب والصحفى الذى نحن بصدده، وكذلك الظروف التى جرى فيها الشروع فى هذه المؤلفات ونشرها. الهدف المزدوج لنا إذن هنا هو من ناحية الوصول إلى رؤية شاملة منقاة من الناحية الأسطورية، مبعثرة وأحيانا متناقضة لمسيرة إبراهيم، ومن ناحية أخرى جمع كل العناصر المتعلقة به وبكتاباته؛ وذلك حتى يتاح لنا دراسة أعماله بعد الإحاطة بكل ما كان ممكنا أن يكون له تأثير عليها من وجهتى النظر الحياتية والتاريخية؛ بغية الوصول إلى فكرة

(١) فيما يتعلق بالعلاقات التى تربط هذا الكاتب بآل المويلحي، راجع نجيب شاهين ١٩٣٠ وعباس محمود العقاد، ١٩٦٣ ص٧٨ وص٩٧. لمزيد من المعلومات عن عباس محمود العقاد راجع توميش، ٢٠٠٠ ص٢٧-٢٩ التى تحيلنا إلى مراجع أساسية عن هذا الكاتب والروائى (كتب رواية واحدة "سارة" ١٩٣٨) والصحفى وكاتب التراجم والسكرتير لمحمد المويلحى الذى كان يشغل وظيفة مدير الأوقاف.

(٢) المويلحى ١٩٥٤ (h) ص٣٢٥.

لا لما هو عليه فى حد ذاته، معزولا عما عداه على الرغم من أن ذلك لا يخلو من فائدة؛ وإنما باعتباره عنصرا مؤسسا ومشكلا للنهضة العربية، وبالتالى للتاريخ الثقافى للصحافة والأدب العربيين فى القرن التاسع عشر.

فى الصدد ذاته نجد أن مقال "شيء لله" المنشور فى جريدة "الصاعقة" لأحمد فؤاد يذكر أنه دون إبراهيم كان من الممكن أن يبقى إسماعيل على استبداده وتسلطه ضد حرية الفكر، كما يشير إلى الدور الذى لعبه إبراهيم إلى جوار الخديو إسماعيل؛ أى فى الحياة السياسية لمصر فيما بين عامى ١٨٦٣ و١٨٧٩ بل وبعد ذلك بمرافقته إلى أوروبا.

وهو يمدنا أيضا بمعلومات عن علاقات إبراهيم بالأفغانى، الذى يرى أنه على الرغم من حكمه القاسى العام على معاصريه لم يكن ينكر إبراهيم ما حباه الله به وما حظى به، بل لم يتردد فى إشراكه فى تحرير "العروة الوثقى" (ص ١ العمود ٣) مؤكدا على الصداقة والشراكة التى تجمع بينهما. وهو يروى لنا فى النهاية واقعة سياسية ذات شأن؛ وهى وضع المالية المصرية تحت الوصاية الإنجليزية – الفرنسية، والتى حاول الخديو الصمود حيالها بمساعدة ومبادرة آل المويلحى (ص ١ العمود ٤)، واقعة سياسية تاريخية يقول عنها حفيد إبراهيم الأصغر (١٩١٢-١٩٩٧):

"عند طلب قنصلا فرنسا وإنجلترا من إسماعيل التخلى عن الحكم بعث الخديو فى طلب عبد السلام بك المويلحى بوصفه نائبا، وأمره بجمع زملائه من فوره ومقابلة القنصلين فى فندق شبرد لإقناعهما بتغيير سياستهما حيال الخديو.

محال يا سيدى، فلا شك أنكم تعلمون أننى سأستغرق وقتا فى جمعهم الآن، وقد عادوا إلى ديارهم كان إبراهيم بك حاضرا مع لطيف باشا سليم.

سيدى يمكنكم جمع مائة رجل من الأزهريين والتجار؛ وليكن أخى على رأسهم ليقدمهم للقنصلين باعتبارهم نواب الأمة المصرية.

أضاف إسماعيل:

وأنت ستذهب أيضا معهم، وكذلك سليم باشا فى بزته العسكرية.

وقد ذهبوا بالفعل وصرح إبراهيم بك للقنصلين أن عبارة واحدة من فضيلة الشيخ البكرى كفيلة بإشعال الفتنة وإثارة الهياج الشعبى فى البلاد.

سحب القنصلان مذكراتهما المشتركة الخاصة بالتخلى عن الحكم؛ ولكنهما نجحا فى إقناع السلطان بخلع إسماعيل"[١].

استفاض هذا المصدر فى حديثه عن المشاركة المباشرة لإبراهيم وشقيقه عبد السلام فى سياسة مصر. ونلاحظ هنا أن هذه المعلومات التى كتبها حفيد إبراهيم تتفق تماما وما ذكره أحمد فؤاد فى مقاله "شيء لله"[٢]. قبل وفاة إبراهيم كانت هناك بعض المقالات التى تشيد به، قد نشرت فى جريدة "الصاعقة" لصاحبها أحمد فؤاد؛ منها مقال بعنوان: "كتاب العربية: السيد إبراهيم المويلحي" ("الصاعقة" العدد ١٤ بتاريخ ١٩٠٥/٤/٤ ص ٣-٤ الأعمدة ٢-٥-١-٢/٥). ويثبت ذلك أن هذا الكتاب الصحفى ورجل السياسة قد لفت إليه أنظار مؤلفى وصحفيى عصره بعد وفاته وأثناء حياته أيضا. هذه الدلائل والآثار تظهر جلية فى الكتابات التى تم تناولها فيها بشكل مباشر (كرست حصريا لشخصه) أو غير مباشر (كأن يكون محورها ابنه محمد) عن الصحافة المصرية أو الأدب العربى فى القرن التاسع عشر. رصد هذه الكتابات كلها هو حصر لكم الدراسات التى دارت حوله ومن ثم فهى مرحلة تسمح بدورها بتجديد مدى مشاركة إبراهيم المويلحى فى النهضة والتحقق من فائدة أعماله الصحفية والأدبية.

لتبيان ذلك كله نعرض بشكل مسلسل زمنيا كافة المؤلفات التى كان إبراهيم محورها ومدى ما أضافه كل مؤلف منها.

أول هذه الكتابات مقال منشور بجريدة "الفيجارو" (راجع بود دو مورسولى ١٨٨٤/١١/٢٦) يروى قصة طرد إبراهيم (المتوفى عام ١٩٠٦) من فرنسا بعد

(١) المويلحي، ١٩٥٤ (h) ص٣٢٢.
(٢) "الصاعقة" السنة الثالثة العدد ٥٢ ١٩٠٦/٢/١٨ ص١-٢ الأعمدة ١-٥-١-٢/٥.

صدور العدد الرابع والأخير من صحيفته السياسية الموالية والمؤيدة للخديوية: "الاتحاد"(١). هذا المقال (راجع الملحق العاشر الفقرة (e)) يمثل أحد أدلة كون إبراهيم كاتب هذه الجريدة مجهولة الاسم التى صدرت فيما بين عامى ١٨٨٠ و١٨٨٤، وكونه ضحية عملية طرد واستبعاد، بناء على طلب السلطان عبد الحميد الثاني. والمرجع الثانى مقال آخر؛ ولكن هذه المرة فى جريدة مصرية منفية فى فرنسا وهى جريدة "أبو نظارة زرقاء"(٢). يروى المقال المنشور فى عدد ٦ من ديسمبر ١٨٨٤ كيف طرد إبراهيم بعد صدور العدد الرابع من صحيفة "الاتحاد"، وهو يؤكد للمرة الثانية تبعية الصحيفة لإبراهيم المويلحي. ويدعم المقال الواقعة بمعلومات إضافية موضحا موقف الخديو إسماعيل منها. وطبقا لما أوردته صحيفة "أبو نظارة زرقاء"(٣) فقد ترك الخديو إبراهيم لمصيره قائلا: إنه لا دخل له بهذه الصحيفة محل الخلاف بل إنه لا علم له بها. ويلخص كل من الرسم (راجع الملحق ١٠) والمقال ثنائى اللغة (باللغتين الفرنسية والعربية) هذا الموقف المؤسف الذى اضطر إبراهيم إلى مواجهته وحده. ونسوق هنا الأقوال المتبادلة فى الواقعة:

"وجه إبراهيم بك المويلحى حديثه إلى مفتش الشرطة السيد كليمان مشيرا إلى إسماعيل الخديو السابق: "لست أنا الذى يتوجب عليكم طرده؛ ولكن هو فجريدة "الاتحاد" جريدته. وأردف الفلاح موجها الحديث لإسماعيل: كفاك مؤامرات فى الظلام ضد السلطان وأوروبا ومصر، لقد كشف الله ألاعيبك وأفعالك السيئة". وقد قالت الصحافة الفرنسية لإسماعيل: "خذ بقشيشك إلى غير هذه البلاد فالصحافة هنا لا ترشى".

همهم إسماعيل قائلا: "الشؤم ما زال يلاحقني. لنذهب إلى إنجلترا"(٤).

(١) "الاتحاد"، راجع الفصل الخامس: المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (d) والملحق العاشر الفقرات (b) و(d) و(e).
(٢) كتب الاسم وفق طريقة النطق به. راجع الملحق ١٠ الفقرة (d).
(٣) راجع الملحق ١٠ الفقرة (d).
(٤) "أبو نظارة" السنة الثامنة العدد ١٠ الصادر فى ١٨٨٤/١٢/٦ ص١، وهو ما يعادل ص١٦٧ من المجلد الذى اطلعنا عليه فى بولاق BULAC تحت رقم PER 2548.

وفى هذه المعلومات إيضاحات. فالخديو إسماعيل يظهر فى هيئة عدو لإبراهيم أساسا؛ ولكنه فى الوقت ذاته عدو للإمبراطورية العثمانية التى يرمز السلطان لها ولأوروبا ومصر بالترتيب الذى اختاره "أبو نظارة زرقاء". أما الصحافة الفرنسية فقد وصفت بعدم القابلية للفساد والرشوة. بهذا الإيضاح أبطن يعقوب صنوع مالك ورئيس تحرير "أبو نظارة زرقاء" أن الصحافة حرة فى فرنسا لا فى مصر؛ حيث تمنع الصحف وتصادر.

فى عام ١٩٠٥ ظهر مقال جريدة "الصاعقة"(١) وفيه وصف أحمد فؤاد طباع إبراهيم وصداقاته، كما ذكر أيضا أنه عام ١٩٠٥ لم يكن ببعيد عن عامه الثمانين(٢) ما هو والحال كذلك تاريخ ميلاده؟ لا عام ١٨٤٣ ولا عام بين ١٨٤٤ و١٨٤٦؛ وإنما عام ١٨٢٥. الشخص الوحيد الذى أكد هذه الرواية هو محمد لطفى جمعه فى جريدة "البلاغ"(٣) الذى نشر بها مقاله "إبراهيم المويلحى وولده"(٤). هذا المقال يذكر كاتبه أيضا أن إبراهيم قد وافته منيته عن عمر يناهز الثمانين دون أسباب مقنعة(٥). أما "بود مورسولى B. Maurcele" مؤلف أول مرجع يتناول إبراهيم المويلحى، فقد ذكر أنه فى عام ١٨٨٤ كان فى الثامنة والثلاثين من العمر مما يعود بنا إلى ١٨٤٦ كسنة ميلاد. إلا أن كثيرا من المقالات والمؤلفات خاصة تلك التى كتبها خلفاؤه أنفسهم كولده خليل (الذى توفى عام ١٩٥٣ وحفيده إبراهيم الذى توفى عام ١٩٩٧) تذكر أنه قد ولد عام ١٨٤٣.

ولا تنعدم الفائدة من التساؤل هنا فأحمد فؤاد كما نذكر كان تلميذا لإبراهيم (الذى توفى عام ١٩٠٦) وصديقا لمحمد (الذى توفى عام ١٩٣٠).

---

(١) "كتاب العربية – السيد إبراهيم المويلحي" "الصاعقة" العدد ١٤ الصادر فى ١٩٠٥/٤/٤ ص٣-٤ الأعمدة ٢-٥ و١-٢/٥.

(٢) "وإبراهيم بك المويلحى على رأس الثمانين أبيض الشعر" ص٣ العمود ٣ المقرة ٣ السطران ١-٢.

(٣) العدد الصادر فى ١٩٣٠/٦/٢١.

(٤) إبراهيم المويلحى وولده.

(٥) "توفى المرحوم إبراهيم بك بعد أن عمر ثمانين عاما على الأقل... فمات إبراهيم بك فى هدوء وسكون" ص٣، العمود ٢ الفقرة ٣ السطر ١ والفقرة ٩ السطر٣.

من ناحية أخرى يؤكد هذا المقال استئناف إبراهيم لأنشطته السياسية باعتباره مستشارا للخديو عند تركه لصحيفة "مصباح الشرق"، الأمر الذى كان يــذكر دون إحالة إلى أى مصدر يسمح بالتأكد منه. ويذكر أحمد فؤاد أن إبراهيم اعتبارا مــن هذه الآونة قد كرس جل وقته لصاحب السمو عباس خديو مصر لقاء مرتب قــدره ثلاثون جنيها"[١]. من هنا فقد أكد إجادة إبراهيم للفرنسية والفارسية ومعرفته باللغة الإنجليزية بالإضافة إلى العربية والتركية اللتين كان يتحدث بهما بطلاقة[٢]. وهــو أمر محتمل قياسا على ما وجدناه فى مكتبة الأسرة (راجع الملحق السابع) فقد كان هناك عدد كبير من الكتب بلغات أجنبية ترجع إلى نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر مسجل عليها ملاحظات بكتابة قديمة تذكرنا بما كان يتم تناولــه مــن موضوعات فى "مصباح الشرق"

وقد أضاف محمد لطفى جمعة أن إبراهيم كان يحرر جريدته "جهينة"[٣] وأنه باختفائها خبا قلم إبراهيم حزنا[٤]. إلا أننا لم نلق فى غير هذا المقال من يتناول هذه المرحلة من حياة إبراهيم المويلحي. شيء آخر إضافة أن إبراهيم قد أسس بالفعــل جريدة "سوق العصر" بالاشتراك مع "أحمد عباس". وقد عدد هذا المقــال الــصادر بتاريخ ١٩٠٥/٤/٤ كتابات إبراهيم وقائمتها كالتالي: "الفرج بعــد الــشدة" (بــشأن رياض باشا)، و"ما هنالك" (بشأن السياسة العثمانية)، و"ما هنا"[٥]، جريدة "الأنبــاء" (فى نابولي)، جريدة "ضياء الخافقين" فى لندن. وقد ذكر "مصباح الــشرق"؛ التــى يرى أن إبراهيم لم يكتب بها سوى "رسائل موسى بن عصام"[٦]. وهنا نــرى أنــه

---

(١) "وقد أوقف حياته الآن على سمو العباس خديو مصر نظير ٣٠ ليــرة راتبــا شــهريا ص٣ العمود ٤ الفقرة ٣ السطور ١-٣.

(٢) "وهو يدين بالإسلام وملم بالفرنساوية والتركية ويفهم الفارسية ويعرف القليل من الإنكليزية" ص٣، العمودان ٤-٥ الفقرة الأخيرة السطران ١-٤.

(٣) "كان يحرر جريدة جهينة والعبد صاحبها" ص٣ العمود ٣ الفقرة ١، الــسطران ٧-٨ كلمــة "العبد" هنا تعنى الموقع على ما فيه أى كاتب المقال المشار إليه أى محمد لطفى جمعة.

(٤) "وكان آخر عهد الناس بجيده ما يكتب فى جريدة "جهينة" فلما ماتت أضعف قلمــه وفكــرة الحزن عليها" ص٣ العمود ٤، الفقرة ١، السطور ٢-٤.

(٥) "ما هنا" تعني ما هو موجود بمصر، وهو مؤلف لم يستطع أحد العثور عليه.

(٦) نلاحظ هنا أن مسمى "رسائل" يترك انطباعا أن هناك تصنيفا نوعيا لا فى "المقامة؛ وإنما فى نوع "الرسالة"، وهو أمر سنتطرق إليه لاحقا، راجع الفصل التاسع.

يحق لنا التشكك من الأمر كما ينتابنا بالضبط الشك فى أن إبراهيم قد عاش فيما بين عامى ١٨٢٥ و١٩٠٦، لأنه إذا كان الأمر على غير هذا النحو ما الذى فعله فى الفترة الممتدة من ١٨٥٥ إلى ١٨٦٨؟

كيف كان من الممكن لرجل مثله أن يعيش فى زمن محمد على الكبير والمثقف والصحفى والمترجم وسياسى عصره الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣) دون أن يلتقى بهما أو العمل معهما من أجل مصر؟ كيف يتأتى ألا يذكر عنه شيء طيلة هذا النيف وأربعين عاما من حياته؟ تذهب أخيرا أغلبية المصادر إلى القول: إن إبراهيم كان فى نحو التاسعة عشرة أو العشرين من عمره لدى وفاة والده عام ١٨٦٥ / ١٨٦٦ مما يرجع تاريخ ميلاده إلى عام ١٨٤٥ أو ١٨٤٦. أما ابنه خليل (الذى تُوفِّى عام ١٩٥٣) فيحدد سنة ميلاده بعام ١٨٤٣. ونلفت النظر هنا إلى أن جريدة "ضياء الخافقين" معروفة بكونها تابعة للأفغانى، الذى دعا إبراهيم إلى مشاركته فيها كما سبق له دعوته عام ١٨٨٤ فى باريس على المساهمة معه فى "العروة الوثقى". وجدير بالذكر أنه من بين كتاباته فيما عدا "ما هنالك" و"مقامات موسى بن عصام" لا يرد ذكر إلا ما عجزنا عن العثور على أى أثر له، أليس ذلك بغريب؟

وقد أضاف محمد لطفى جمعة أن إبراهيم قد قرض نحو ألف بيت من الشعر إلا أننا لم نجد هذا الديوان المشار إليه. الأثر الوحيد لشعره هو تلك الأبيات المتناثرة فى مختلف مقالات "مصباح الشرق" (راجع المادة العلمية ٢ الفقرة (a))، والتى لم نستطيع أن نعزوها لواحد بعينه من آل المويلحي. غير أنه من جانب آخر يثير دهشتنا أن نعلم أنه قد أملى "مقامات موسى بن عصام"[١] على غيره لكتابتها، خاصة، وقد نفا إلى علمنا أن نقاشا دار حول هوية مؤلف سلسلتى الحلقات السردية المنشورة فى "مصباح الشرق" وهى مقامات موسى (الخاصة بالأب) ومقامات عيسى (الخاصة بالابن) (راجع الفصل التاسع).

---

(١) وليس له فى "مصباح الشرق" إلا رسائل موسى بن عصام كان يكتبها وحافظ إبراهيم خلفه ومحمود طاهر أمامه هذا يملى وهذا يكتب" ص٣ العمود ٥/٤ السطور ٦-٩.

هل كان فى ذلك إشارة إلى طريقة كتابة (صبها فى شكل نصوص) نصوص إبراهيم؟ أيا ما كان الأمر من المهم أن نلحظ أن معاصرا لإبراهيم قد وصف هذه المقامات[١] بالرسائل[٢] (راجع الفصل).

ويمكننا القول فى نهاية الأمر وكما سنرى على مدى هذه الدراسة إنه لا يمكن إنكار أن جريدة "مصباح الشرق" هى العمل التاسع لإبراهيم المويلحى ومن هذا المنطلق من الصعب التفكير فى كونه لم يكتب سوى "مقاماته" ودراسة المصادر الأساسية والثانوية يبقى السبيل الوحيد الذى يسمح بإظهار وإيضاح جزء من تاريخ الأدب والصحافة العربيين الحديثين.

لحقت هذه الكتابات الأولى التى تناولت إبراهيم المويلحى كافة المقالات التى حررت تقديرا[٣]. أطول هذه المقالات هو مقال چورچى زيدان[٤] الذى خصص له خمس صفحات، ومحتواه يجعل له أهمية رئيسة مقارنة بكل الأبحاث الخاصة بإبراهيم. والباب الذى اختار چورچى زيدان أن يدرج فيه مقاله لتكريم إبراهيم، وحده ذو دلالة أساسية وكذلك العنوان. فقد اختار باب "أشهر الحوادث وأعظم الرجال"[٥] ووضع للمقال "إبراهيم بك المويلحى الكاتب السياسى والمنشئ الصحافي"[٦] عنوانا. لا يخامرنا شك فى أنه استنادا إلى هذا المقال قام چورچى زيدان لاحقا بكتابة السيرة الخاصة بإبراهيم المويلحى في: "تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر"[٧] (ص١٤٠-١٤١) وفى "بناة النهضة العربية"[٨] (ص١٧٥). وقد ركن الكثير من الباحثين إلى هذه الترجمة الأولى واعتمدوا عليها. البعض منهم نقل عنه الكلمات بعينها مع الإشارة إليه كمصدر والبعض لم يكلف

---

(١) تعنى هذه الكلمة مؤقتا "مقامة" وهى ذات صلة "بالرواية البيكارية" أو رواية "حياة المشردين" وتحيلنا إلى الحكاية السردية المسجوعة الحافلة بالحوارات.
(٢) تعنى مؤقتا "المراسلات".
(٣) راجع ما سبق.
(٤) "الهلال" السنة الرابعة، الجزء السابع، ص٣٨٣ – ٣٨٧ بتاريخ ١٩٠٦/٤/١.
(٥) "أشهر الحوادث وأعظم الرجال".
(٦) "إبراهيم بك المويلحى الكاتب السياسى والمنشئ الصحافي".
(٧) "تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر" ترجمة أ. ل. دوبون (٢٠٠٦، ٧١٥).
(٨) "بناة النهضة العربية" ترجمة أ. ل. دوبون (٢٠٠٦، ٧١٥).

نفسه مشقة الإشارة. أول من ارتكز على ترجمة زيدان هو فيليب دى طـرازي[١] عام ١٩١٣، وقد أضاف إليها بوضعها فى سياقيها الصحفى والتاريخي.

فى عام ١٩١٢ نشر مصطفى لطفى المنفلـوطى (١٨٧٦ - ١٩٢٤) كتابـة "المختارات" الذى يعد واحدا من آخر المصادر المعاصرة ويزودنا بنـصين غيـر منشورين لإبراهيم "الإنشاء والعصر"[٢] و"جوهر الشعر"[٣] بالإضـافة إلـى نـص لمحمد بعنوان: "أيها المحزون"[٤] والمشكلة القائمة بخصوص هذه النـصوص هـو مصدرها. أين وجد مصطفى المنفلوطى هذه النصوص؟ أمر لم يفصح عنه. شيء واحد يمكن هنا تأكيده هو أن نص محمد المويلحى قد نشر "بمصباح الشرق". هذا لا يمنع أننا آسفون لعدم إفصاح مصطفى لطفى المنفلوطى لنا عن المعايير التى استند إليها فى نسب هذه المقالات التى جمعها فى نص إلى محمد (الـذى تـوُفِّى عـام ١٩٣٠) بدلا من إبراهيم المويلحى أو العكس. وأسفنا أكبر بالنسبة إلى النـصوص المنسوبة إلى إبراهيم والتى تدور حول ثيمة الشعر، الثيمة ذاتهـا التـى تعالجهـا مقالات أخرى فى "مصباح الشرق"[٥] وفقا لرأى روجـر آلـن (٢٠٠٢، الجـزء الثاني: ١٣٩، العدد الأول) فإن هذا النص هو ذاته المقال المنشور تحت عنـوان: "جملة بعد كلمة فى الشعر".

لاحقا وتحديدا اعتبارا من ١٩١٣ توقف المؤلفون والصحفيون عن الكتابـة عن إبراهيم المويلحي. وبالتالى كانت الدراسات العامة التى تتناول الصحافة والأدب العربيين الحديثين هى التى تمد بالمعلومات خاصة ما تعلق منها بمـشاركته فـى تطور الأدب. نذكر منها على سبيل المثال چـورچـى زيدان فيمـا بـين عـامى

---

(١) طريقة كتابة الاسم هى المتبعة فى دفاتر بيان (كتالوج) "الكندي" الخاصة بـ IDEO.

(٢) "الإنشاء والعصر" راجع المجلد الثانى، المادة العلمية ٢ الفقرة (F).

(٣) "جوهر الشعر"، راجع المجلد الثانى، المادة العلمية ٢ الفقرة (F).

(٤) مصطفى لطفى المنفلوطى ١٩١٢ ص٢٦٠ - ٢٨٣. أصل هذا الـنص موجـود بـالركيزة الإلكترونية فى مادتنا العالمية: راجع الصفحة الثالثة فى الإعـداد ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ و١٥٧ الصادرة عام ١٩٠١ من جريدة "مصباح الشرق".

(٥) راجع "مصباح الشرق" (عام ١٩٠٠) العدد ١٠٣ ص٣ والعدد ١٣٢ ص١ وعـام (١٩٠١) العدد ١٣٦ ص٢ والعدد ١٣٨ ص٣ والعدد ١٤١ ص٣ راجع المجلد الثانى، المادة العلمية ١ الفترة (٢) والملحق ٩.

١٩١١ و١٩١٤[١] وأحمد حسن الزيات[٢] (١٩٢٠) ولويس شيخو (١٩٢٥)[٣] ويوسف إليان سركيس (١٩٢٨)[٤] وطه حسين (١٩٢٩)[٥] وهـ. جيب (١٩٣١)[٦]. ولم تستأنف الكتابة عنه إلا عام ١٩٣٠ حين توُفى ابنه الكبير ورفيقه الدائم. الواقع أن عالم الأدب العربى كان يبكى كاتبه الشهير. قام النهضويون بتحيته والإشادة به فى كافة الصحف، وتذكروا إذ ذاك إبراهيم والد هذا الوجه الفذ فى عالم الرواية العربية الوسيطة بين الروايتين الكلاسيكية والحديثة (راجع الفصل التاسع). تصدرت الأعمال المويلحية اثنى وعشرين مقالا نشرت فى تسع صحف مختلفة فى الفترة الواقعة بين ١٩٣٠/٣/٢ و١٩٣٠/٦/١٠ من هذه الصحف نشرت "كوكب الشرق" أحد عشر مقالا والأهرام ثلاثة أما "الحديثة المصورة" فقد نشرت مقالتين أحدهما عن إبراهيم فقط.

هذا بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الصحف نذكر منها: "المقطم" و"اليوم" و"الثغر" و"الكشكول" و"الرسالة" و"البلاغ"[٧]. فى كل هذه المقالات كان التركيز على محمد وعلى أهم أعماله "حديث عيسى بن هشام" إلى جانب إشادة بأبيه الذى وصف بكونه "أكبر الكتاب العرب فى عصره"[٨] و"رائد الحداثة"[٩] قياسا على لغته وعلى الأنواع الأدبية التى استخدمها ووصف كذلك بكونه "صحفيا ومؤسسا للصحف الأسبوعية فى مصر" التى من أشهرها "مصباح الشرق" الذى يبزها كلها "باعتبارها أكبر الصحف الأسبوعية بل أولها"[١٠].

---

(١) راجع المجلد الرابع ص٢٧٨.
(٢) راجع الزيات ١٩٢٨ (١٩٢٠) ص٣٨٤.
(٣) راجع ص٣٧٧ – ٣٧٩.
(٤) راجع العمودين ١٨١٩ – ١٨٢٠.
(٥) راجع ص٢٤٩ – ٢٥٠.
(٦) راجع ص٥.
(٧) راجع قائمة المراجع.
(٨) "فإن إبراهيم المويلحى يعد فى نظرنا أعظم كاتب عربى فى عصره" البلاغ ١٩٣٠/٦/٢١ ص٣ العمود ١ الفقرة ٥ السطران ٥– ٦.
(٩) يصح أن يعتبر أول المجددين لأن كتاب "ما هنالك" لم يسبح أحد فيه من الكتاب قبله فى مصر ولا بعده". "البلاغ" ١٩٣٠/٦/٢١ ص٣ العمود ١ الفقرة ٥ السطور ١١–١٣.
(١٠) كذلك كان الرجل صحفيا. فقد أنشأ فى أواخر أيامه جريدة "مصباح الشرق" وهى أعظم الصحف الأسبوعية وأولاها ويعد صاحبها مؤسسا للصحف الأسبوعية فى مصر" "البلاغ" ١٩٣٠/٦/٢١ ص٣ العمود ١ الفقرة ٥ السطور ١٤ – ١٧.

الواقع أن الدراسة والبحث في هذا الموضوع يسمعان بالتمييز والفصل بين ما يمت للحقيقة وما ينتمى إلى الخيال في سيرة إبراهيم المويلحى بشكل عام، وهما يسمعان مع التوضيح بفتح مجالات بحث جديدة خاصة فيما يتعلق بمشاركته في "النهضة". الحقيقة أنه حتى الآن كل المصادر معاصرة بمعنى أنها كتبت بواسطة مؤلفين معاصرين لإبراهيم (الذى توفى عام ١٩٠٦) و/ أو محمد (المتوفى عام ١٩٣٠)، وقد استمر الحال على هذا النحو حتى عام ١٩٣٥. ونذكر من آخر ما كتبه معاصره مؤلف رشيد رضا "تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده" عام ١٩٣١ الذى يعد مصدرا رئيسيا ويتناول بإفاضة العلاقات بين النهضويين. ونشير هنا إلى أننا لم يصلنا كم من المعلومات بالغزارة التى وجداها في هذا الكتاب عن المناقشات والعلاقات التى ربطت بين رجالات النهضة العربية في القرن التاسع عشر. فبفضله عرفنا أن إبراهيم وعبد السلام المويلحى كانا عام ١٨٧٨ من دائرة أصدقاء ومريدى الأفغانى التى كان اسمها "جمعية الماسون"[١].

ويعلمنا هذا الكتاب الذى يعد واحدا من آخر المصادر المعاصرة بالعلاقات بين إبراهيم المويلحى ومحمد عبده[٢] وتلك التى ربطت بين الرجلين ومؤلفه نفسه

---

(١) "وفي خلال عام ١٨٧٨ زاد مركزه خطرا في البلاد، وسما مقامة؛ لأنه تداخل في السياسات، ونولى رئاسة جمعية (الماسون) العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية من مثل محمود باشا البارودي.. وعبد السلام بك المويلحي النائب المصرى في دار الندوة وأخيه إبراهيم كاتب الضابطة، وكثر سواء الذين يخدمون أفكاره ويعلنون بين الناس مناره من أرباب الأقلام مثل الشيخ محمد عبده، وإبراهيم اللقانى، وعلى بك مظهر، وأديب إسحاق، وعبد الله النديم... فتغيرت لهجته في أحاديثه وأخذ يقول:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالرشيد فلاح.

هبوا من غفلتكم، أصحوا من سكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول، عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء، أو موتوا مأجورين شهداء ص٤٦-٤٧.

اتضح بالفعل أن الأخوة المويلحى كانوا ينتمون إلى هذه الدائرة النهضوية التى تسمت باسم الماسون لعدم وجود اسم خاص بها. وفي رأينا أن ذلك لم يكن تشبها بالماسونية كما تعرف وتفهم في أوروبا؛ وإنما نوعا من المرجعية لمبدأ انضمام جماعة من الأشخاص لبعضهم البعض؛ بغية تحقيق هدف مشترك غالبا ما يكون متعلقا بالمجتمع، ونلاحظ أيضا أنه عام ١٨٧٨ كان من سيصبحون فيما بعد كبار صحفييها ملتفين حول مشروع واحد هو "اليقظة" للعيش مثل الأمم الأخرى أحرارا وسعداء" (راجع الاستشهاد السابق).

(٢) راجع رشيد رضا، ١٩٣١ ص٦٩٤ وبها: وقال مرة في نقد للمويلحي: "لو قال هذا لما نقصت حلاوته في مذاقى أو ما هذا معناه" ويشير هذا القول إلى استحسان محمد عبده لحديث إبراهيم وأسلوبه رغم كلماته التى تكون أحيانا جارحة.

رشيد رضا[١]. ويصف الكاتب فيه أيضا الروابط التى كانت تجمع بعض النهضويين برجال السياسة خاصة الموالين منهم للإنجليز. من هؤلاء نذكر محمد بك بيرم الذى كان ينقل دوما معلومات عن الحكومة والإنجليز. فى سياق آخر يروى لنا رشيد رضا مناقشة دارت حول المسألة المصرية والاحتلال. فى مكتب جريدة "المؤيد". وكان من الحاضرين آنذاك رشيد رضا نفسه وعلى يوسف وبيرم ومحمد عبده وإبراهيم المويلحى الذى اتفق معه الجميع فى ذلك اليوم[٢]. والحقيقة أنه بفضل رشيد رضا نشعر وكأننا فى داخل الحدث. هذا السرد للقاءات النهضويين يمثل مصدرا من أكثر المصادر قيمة؛ وذلك بالطبع على الرغم من درجة الذاتية العالية به والناتجة عن التحالفات ومشاعر العداء التى قد تكون بين مجموعات النهضويين وبعضها البعض. هذا السرد يبقى شاهدا مباشرا يقول طويلا كما نرى عن الطريقة التى كانت تعاش بها الأحداث السياسية والتاريخية وترى بها من جانب رجال النهضة العربية.

هذه الروايات تفيض بالحديث عن الفترة التى كان فيها الفكر النهضوى فى مرحلة التكوين وبالتالى عن مسيرة رجالها.

أمكننا من آخر مصادر كتبها معاصرو المويلحى العثور على بعض المعطيات المتناثرة. من هذه المصادر نذكر مذكرات شفيق باشا[٣] المنشورة عام

---

(١) راجع رشيد رضا ١٩٣١ ص٧٥٨ وص٧٥٩ وص٨٦٠.

(٢) راجع رشيد رضا ١٩٣١ ص ٩٢٣ وبها: "زار محمد بك بيرم وأنا عنده. وهو من حزب الإنكليز. وكان يأتيه دائما بأخبار الحكومة والإنكليز على حقيقتها.. قال الأستاذ: إن المعترضين فى المؤيد وغيره يتكلمون فى المسألة من جهة شرف الحكومة والبلاد بإبقاء الراية المصرية وأقول وقد حضرت مثل هذا المجلس فى مكتب الشيخ على يوسف بإدارة "المؤيد" وكان عنده إبراهيم بك المويلحى وكان يقول هذا الكلام فى المسألة المصرية وأن ما يسمى الاحتلال هو عين الفتح والامتلاك. وقال بعض الحاضرين وقد انتهى أمره بمعركة التل الكبير فقال المويلحي: بل بضرب الإسكندرية واحتلالها أو قبل ذلك. ولم يعترض الشيخ على ولا غيره على ذلك بل وافقهم عليه". هذا الكتاب مصدر وحيد من نوعه وما به من دراسة يعطى دفعة للأبحاث عن النهضة ومن قاموا بها؛ لذا نصبو من الآن فصاعدا إلى البدء فى دراسة نقدية لهذا الكتاب ونرى مسبقا أن من نتائجها إعادة رسم مسارات النهضويين وعلاقاتهم.

(٣) أحمد شفيق باشا، ١٩٣٦، "مذكراتى فى نصف قرن"، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الثانى ص٣٧٦.

١٨٣٦ وكتاب شارلز آدمس "الإسلام والتجديد فى مصر"[١] الذى صدر عام ١٩٣٥. فى هذا الكتاب الأخير سيرة وجيزة لحياة إبراهيم، من مستجداتها الرئيسة إحالتنا إلى جريدة "المنار" لرشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) وما نشرته عن العلاقات التى كانت تربط بين إبراهيم والأفغانى (١٨٣٨-١٨٩٧)، فقد كان إبراهيم أكثر طلابه ومريديه فصاحة ونقدا[٢].

فى العام ذاته ١٩٣٥ نشر عبد العزيز البشرى (الذى توفى عام ١٩٤٢)، وهو أحد أصدقاء محمد كتابه "المختار" الذى كتب تقديمه خليل مطران (١٨٧٢-١٩٤٩)، وقد ورد به ذكر محمد و"مصباح الشرق"[٣] وليس إبراهيم. ويُعد هذا الكتاب كما سنرى مصدرا عالى الفائدة باعتباره شهادة مباشرة من قارئ "لمصباح الشرق" كاتب معاصر آخر لآل المويلحى هو عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤)، وهو الصديق القديم والسكرتير الخاص لمحمد المويلحى طيلة الفترة التى شغل فيها منصب مدير الأوقاف. كتب العقاد مقالا عن محمد ورد به بالطبع ذكر إبراهيم بعنوان "محمد المويلحي" وقد نشر هذا المقال أول الأمر فى جريدة "الهلال" وتحديدا فى باب "رجال عرفتهم". فى عام ١٩٦٣ تم جمع جميع المقالات التى نشرت فى هذا الباب وإعادة نشرها فى سلسلة "كتب الهلال" (ص ٧٥-١١٤).

فى هذا المقال حديث مطول عن العلاقات بين أحمد فؤاد وإبراهيم ومحمد المويلحى (ص ٧٨ وص ٩٦) بالإضافة إلى تناول "حديث عيسى بن هشام" (ص ٨٧) و"عام الكفء" و"عام الكفء"[٤] و"عام الكفر" وهى صفات ألحقت بعام ١٩٠٢ الذى يرمز إلى الخلاف بين محمد المويلحى وعلى يوسف ومصطفى كامل

(١) كتاب "الإسلام والحداثة فى مصر" وتحمل نسخته الأصلية عنوان: Islam and Modernism in Egypt، لندن، ١٩٣٣ ص٢٢ و ٢١١.

(٢) يقول رشيد رضا: "إن إبراهيم المويلحى انفرد من بين تلاميذ جمال ببلاغة الترسل ونكت النقد" ص٢٠٣ مقتبسة من "المنار" الجزء ٢٨ ص٧١٠" مصدر أول راجعناه ويرجع تاريخه إلى ١٩٢٧/٨/٢٧ العدد السادس من الجزء ٢٨ مقال بعنوان: "سعد زغلول".

(٣) راجع البشري، ١٩٣٧ ص٢٧٩-٣٠٨.

(٤) راجع فى هذا الشأن الدراسة التى خصصها له آلن ١٩٧٥ والجندى ص١٦٣-١٦٤ (لم نستدل على تاريخ صدوره).

وأحمد فؤاد وأحمد شوقي[١] (ص ٩٦-٩٨). ويعلمنا هنا المقال أيضا أن إبراهيم قد تقدم للحصول على لقب "شاعر الخديو"، وأنه فى رأيه ممن كانوا الأكثر استحقاقا له؛ غير أن سوابقه السياسية كانت عائقا له (ص ٩٨). أما "مصباح الشرق" فقد كانت تسابق غيرها لتكون "اللسان السياسي" للقصر وهى كمؤسسها متميزة، بيد أن ماضيها السياسى جعلها بدلا من اللقب المرتقب تحصل على لقب آخر هو: "لسان الحركة الأدبية" الجميع فى صالونات القصر الأدبية كما فى صالونات معارضيه كان ينتظر هذه الجريدة ومواقفها[٢]، الأمر الذى يثبت أولا أن هذه الصالونات لم تكن وهما؛ وإنما كانت موجودة رغم قلة المراجع التى تناولتها. ثم أن عباس محمود العقاد قد أكد بدوره عودة إبراهيم للسياسة باعتباره قريبا من الخديو عباس الثانى (ص ٩٩) وأنهى مقاله بإطلاله على (مؤامرات الأدباء) التى تعد بالنسبة إليه عناصر مهمَّة فى تاريخ المدارس الأدبية المصرية.

دون هذه العناصر، يرى عباس محمود العقاد أنه من المستحيل فهم أساس هذه المدارس الأدبية. فالنصوص والتراجم الخالية من هذه التفاصيل تعد وفقا لرأيه غير كافية[٣]. من هنا نرى أن إضافة هذه المصادر المعاصرة مؤكدة، فهى تمدنا بالمعلومات عن مسيرة الكاتب الصحفى والسياسى الذى يشغلنا وعن ولده، بل أكثر من ذلك تعلمنا الكثير عن علاقات الأب والابن مع معاصريهم وزملائهم فى المهنة. وهى أخيرا توضح لنا كيف كان الإطار والسياق الأدبى آنذاك.

---

(١) فيما يخص هذه المسألة ويخص محمد المويلحى راجع "جميع الأعمال" لروجر آلن.

(٢) "على أن صحيفة المويلحيين لم تصبح لسانا سياسيا للقصر؛ ولكنها أصبحت لسانا للحركة الأدبية مسموع القول فى نقد الكتابة والشعر وفى موازنة بين الكتاب والشعراء وكان قولها فى ذلك منتظرا مرموقا فى أندية الأدب والثقافة ومنها أندية القصر نفسه وأندية المعارضين لسياسته ومؤامراته. العقاد ١٩٦٤ ص٩٦-٩٧.

(٣) وللناقد الأدبى -إذن- أن يجعل شعاره "فتش عن القصر" أو "فتش عن قضية الخلافة" ليفهم حقيقة لا غنى عنها فى تقدير مدارسنا الأدبية فى الجيل الماضى وتقدير أسباب التجمع والتفرق بين حملة الأقلام فى كل مدرسة منها. وبغير هذا "الشعار" يتعذر عليه كل التعذر أن يدرك الأسباب الكامنة وراء تكوين تلك المدارس من مجرد العلم بآثارها المكتوبة وتراجمها المعروفة، العقاد ١٩٦٤، ص١٠٩.

ولنتم حديثنا عن المقال نذكر أنه يعلمنا عن مفهوم الجيل الجديد للنهضة ذلك الجيل الذى تلا مباشرة جيل آل المويلحى (الأعوام من ١٨٤٠ إلى ١٩٣٠) والذى كان ينتمى إليه عباس محمود العقاد (الأعوام من ١٨٨٠ إلى ١٩٧٠) خاصة ما يتعلق بالحقل الأدبى الذى كان هذا الجيل يراه منظما فيشكل مدارس أدبية.

من هنا فإن العودة واللجوء التلقائى للمصادر المعاصرة يبدو السبيل الوحيد لجمع المعلومات عن هذا الموضوع. وقد اتضح أن الصحف من هذا المنطلق تعد من أفضل المصادر المعاصرة، هذا بالإضافة إلى المصادر غير المباشرة ونعنى بها الكتب والمؤلفات التى كتبت عن النهضويين وأعمالهم وعن القرن التاسع عشر وتاريخ هذه الصحافة فهى تزود بكثير من المعلومات.

بين المصادر الأساسية والثانوية هناك المصادر الوسيلة وهى الخاصة بسلالة وخلف أسرة المويلحى نفسها ونذكر منها مقالات إبراهيم المويلحى (الذى توفى عام ١٩٩٧)، وهو حفيد إبراهيم (الذى توفى عام ١٩٠٦) المنشورة فى مجلة "الرسالة" لصاحبها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥-١٩٦٨)[١] بعنوان: "إبراهيم بك المويلحي"[٢] وبها إيضاح لمسيرة إبراهيم. إضافة إلى ذلك هناك نسخة منها باللغة الفرنسية مختلفة بعض الشيء للكاتب ذاته إبراهيم المويلحى (المتوفى عام ١٩٩٧) وبها عناصر إضافية وتكميلية نشرت عام ١٩٥٤ فى Cahiers d`Histoire Egyptienne "كراسات التاريخ المصري"[٣]. وهذه النسخة مدعمة بمراجع جديدة ومزودة باستشهادات حديثة ومذكرات غير منشورة لإبراهيم (المتوفى عام ١٩٠٦).

أما المصادر غير المباشرة فقليل منها يتناول بشكل حصرى إبراهيم المويلحى (المتوفى عام ١٩٠٦) وأعماله، غير أننا إذا أخذنا فى الحسبان الأعمال الأخرى التى تدور حول تاريخ الأدب العربى الحديث أو تاريخ الصحافة العربية

---

(١) لمزيد من المعلومات عن هذا الصحفى راجع جولد شميث ١٩٩٩ ص٢٣٨-٢٣٩ Arthur Goldschmidt.

(٢) العددان ٢٤٩ بتاريخ ١٩٣٨/٤/١١ ص٦١٧-٦٢٠ و٢٥٠ بتاريخ ١٩٣٨/٤/١٧ ص٦٥٨-٦٦٢.

(٣) راجع المويلحى ١٩٥٤ (b) ص٣١٣-٣٢٨.

المكتوبة فسنجدها كثيرة وإن كان ما تضيفه نسبيًا ومتناثرا. من هذه المصادر نذكر أعمال إبراهيم عبده المنشورة خلال الأعوام ١٩٤٥، ١٩٤٧، ١٩٥١. توضح لنا هذه الأعمال عبر تاريخ الصحافة المصرية المكانة والدور الذى اضطلعت به صحف إبراهيم المويلحى (الذى توفى عام ١٩٠٦) ومن هنا كانت أهميتها. من أمثلة هذه الأعمال كتاب أحمد أمين (١٨٧٨-١٩٥٤) و"زعماء الإصلاح فى العصر الحديث" عام ١٩٤٩ الذى يضم تراجم بعض النهضويين ومنها تلك الخاصة بإبراهيم المويلحى والتى من المفيد مقارنتها بالسير الأخرى.

وهناك عبد اللطيف حمزة الذى كتب فيما بين عامى ١٩٥٠ و١٩٦٣ سلسلة من تسعة أجزاء عن تاريخ الصحافة العربية بعنوان: "أدب المقالة الصحفية" وخص الجزء الثالث منها لإبراهيم وصحيفته "مصباح الشرق". فى هذا الكتاب نجد فيما يقدمه المعطيات التى صاغها كل من جورجى زيدان وإبراهيم المويلحي (١٩٩٧). الواقع أن عبد اللطيف حمزة كان على اتصال بهذا الأخير كما ذكر فى كتابه[1] الأمر الذى أكده خليل المويلحى (١٩٤٤). من بين المؤلفات التى نقلت عن غيرها، نجد أن هذا الكتاب هو أول الكتب التى اهتمت بشكل حصرى بإبراهيم وصحيفته الرئيسة "مصباح الشرق" وكتابه "ما هنالك"[2]. وهو يعطى عن "مصباح الشرق" نبذة مصحوبة بتعليق وبمقتطفات من المقالات الصحفية الخالصة والمقالات ذات الطابع المائل للفلسفة والاجتماع وأخيرا المقالات السياسية – الدينية.

(١) "ولا أستطيع أن أترك هذه المقدمة دون أن أقدم الشكر خالصا إلى الشاب المهذب إبراهيم أفندى المويلحى حفيد المترجم وسميه، فقد أمدنا حضرته ببعض الوثائق والمواد التى أفادتنا فى هذه الترجمة". ص٨.
من الواضح أنه كان فى حوزة هذا المؤلف وثائق أصلية. التقينا ابنته جيلان حمزة "الصحفية والمثقفة" التى نشكر لها حسن الاستقبال والتعاون الذى لا مثيل له؛ نظرا لكونها قد سمحت لنا بالعمل فى مكتب أبيها واستعمال مكتبته الشخصية. كما أهدت إلينا نسخة من كل كتاب ألفه والدها عن الصحافة فى مصر. إلا أننا لم نجد الوثائق الأصلية التى استند إليها، وبالتالى فنحن نفترض أنه قد تمكن فقط من الاطلاع عليها حتى دون إمكانية الحصول على نسخ منها. ومما نعلمه أنه قد اطلع على "مصباح الشرق" فى دار الكتب. راجع حمزة ١٩٥١-١٩٦٣ ص٧٢ الحاشية (١) وص٧٣ الحاشية (١).
(٢) راجع الفصل السادس.

كما يسوق مقتطفات من السرد الروائى المنشور فى "مصباح الشرق" أى فى هذه الحالة من "فترة من الزمان"[١] و"مرآة العالم"[٢] واصفا هذين العملين بالمقامات. من هنا فقد عد أول من اهتم بشكل مباشر بإبراهيم وكتاباته. إلا أنه يؤخذ على هذا العمل نقص الإحالات إلى المصادر التى ارتكزت عليها هذه الدراسة، الأمر الذى يعوق البحث العلمى ويشكك فى مصداقية المعلومات المذكورة. إلا أنه يحتفظ بسبق كونه أول عمل يجمع مقتطفات من كتابات إبراهيم التى نعرف مدى صعوبة العثور عليها.. الأمر الذى يشير إليه عبد اللطيف حمزة مضيفا أنه يتوجب جمع كتابات إبراهيم المويلحى باعتبارها جزءا من التراث الأدبى المصري[٣].

بدءا من عام ١٩٦٠ أصبح إبراهيم المويلحى ونجله محمد أكثر منه موضوعا لأبحاث عربية وغربية. وكانت الأبحاث الغربية قد اهتمت بشكل غير مباشر بدءا من القرن التاسع عشر لآل المويلحى عن طريق دراسات عن الصحافة العربية بشكل عام. من هذه الأبحاث نذكر واشنطن - سرويس عام ١٨٩٧ ومارتن هارتمان عام ١٨٩٩، ويعد هذان المصدران المعاصران والحديثان ترجمية وتاريخية فى آن واحد. فى هذين المصدرين تم تناول سياقات الصحافة العربية المكتوبة والفكر النهضوى من الزاويتين الفردية والجماعية.

(١) العنوان الأول لمقامات محمد المويلحي. الواقع أن "فترة من الزمن" كان العنوان الأول والأوحد للعمل طيلة فترة نشره مسلسلا فى صحيفة "مصباح الشرق" فيما بين عامى ١٨٩٨-١٩٠٢ فى خمس وخمسين حلقة. لمزيد من المعلومات عن هذا العمل راجع مؤلفات روجر آلن، رندة صبري، بولس حلاق، لوك - دوفلز... إلخ والفصل التاسع.

(٢) أول عنوان لمقامات إبراهيم المويلحي. كان: "ما رواه لنا موسى بن هشام عنوانا ظهر لاحقا لم يضعه المؤلف؛ وإنما باحثون قاموا بالتقريب بين هذا النص والعمل الذى قام ابنه بتأليفه مرتكزا على العنوان الثانى لمقامات الابن وعلى طراز عناوين المقامات التقليدية. تم نشر "مرآة العالم" فى تسع حلقات فى "مصباح الشرق" بين ١٨٩٩ و١٩٠٠. لمزيد من المعلومات عن هذا العمل راجع الفصل التاسع (آلن ٢٠٠٧ (a) ص٢٤٠)، و(جاب الله بولحبال ٢٠٠٥ ص١٥٤).

(٣) "فهذا تراث أدبى مصرى قريب كان على وشك الزوال؛ ولكن الله جلت قدرته قد وفقنا إلى إنقاذه من الضياع"، وهو تراث يرى أنه قد أنقذ جزءا منه.

في بداية القرن العشرين اهتم كارل بروكلمان (١٩٠٩ و١٩٤٢)[١] بتاريخ الأدب العربي وتناول النهضويين من وجهة النظر الأدبية. وقد تبعتها دراسات أخرى محورها إبراهيم المويلحي وكتاباته؛ منها دراسة جوتفريد ويدمر عام ١٩٥٤ التي انصبت على مقامة "مرآة العالم" التي ترجمها إلى الألمانية[٢] ووضع ترجمة لحياة إبراهيم في مقدمتها[٣] وهذه الترجمة إلى الألمانية، إن لم نخطئ هي الوحيدة للنص حتى اليوم. في إطار مختلف ظهر عام ١٩٥٤ كتاب يوسف أسعد داغر الذي يقدم نفسه باعتباره موسوعة جامعة لدوريات الصحفيين والمثقفين مع تقديم لتراجمهم[٤]. في عام ١٩٥٨ نشر روبير لافون وفالنتينو بومبياني Robert laffont et Valentino Bompiani قاموسهما عن المؤلفين في كل الأزمان وكل البلدان الذي اطلعنا على أولى طبعاته عام ١٩٥٨ وعلى طبعة ١٩٩٥. في هاتين الطبعتين تم تخصيص عشرين سطرا لمحمد المويلحي بينما لا يوجد مدخل واحد لإبراهيم المويلحي. في السطور القليلة المخصصة للابن هناك سطران تمت فيهما الإشارة إلى الأب[٥].

في عام ١٩٦١ نشر أنور الجندي كتابه "المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام ١٨٤٠ – ١٩٤٠" الذي تمت فيه دراسة نهضويي القرن التاسع عشر قبل وبعد الحرب (١٩١٩). يقدم الكتاب هؤلاء الرجال تباعا مبرزا ما تميز به كل منهم وعلاقتهم بتاريخ النهضة.

يختم الكتاب صفحاته بدراسة عامة للتيارات المحافظة والحداثية للنهضويين التي تحاول عمل محصلة لها ونوع من الموازنة. لآل المويلحي الأب والابن مدخل، للأب المدخل ١٠ (ص ٨٩ – ٩٢): "ما هنالك": إبراهيم المويلحي ١٨٩٦ وللابن المدخل ٢٢ (ص ١٦٤ – ١٦٨): عيسى بن هشام: محمد المويلحي ١٩٠٧.

---

(١) المجلد الثالث ص١٩٤. ترجم هذا العمل إلى العربية عام ١٩٧٧. راجع نجار ١٩٧٧، ٦ مجلدات.

(٢) راجع بشأن الترجمة "ويدمر" ١٩٥٤ ص٧٨ – ١٢٦. يطرح الكتاب عناوين فرعية لكل مقامة من المقامات التسع وهي المقامات التي لم يكن لها عناوين فرعية.

(٣) راجع ويدمر ١٩٥٤ ص٦٠–٧٨ (Widmer).

(٤) راجع دغار ١٩٥٦ ص٧٣٤– ٧٣٥، راجع أيضا الطبعة الجديدة بعد زيادتها ومراجعتها ٢٠٠٠ ص١١٢٢ (Dâgar).

(٥) راجع لافون ١٩٩٥ (١٩٥٨) Laffont ص٢٢٧٨ – ٢٢٧٩.

هذا الكتاب لا يفيدنا بجديد فيما يتعلق بمسيرة إبراهيم. غير أنه بتصنيفه للنهضويين طبقا للتيارات وفترات النهضة يوضح الكثير. فإبراهيم المويلحى مصنف فيه وعن حق بين من ساهموا فى العبور من الأسلوب التقليدى (المحافظ) للأسلوب الحديث وبين من شاركوا فى جعل الصحافة أداة سياسية فى خدمة الدولة.

لاحقا وتحديدا عام ١٩٦٥ ظهرت أول دراسة جامعية غربية عن إبراهيم المويلحي وابنه محمد. بعد أول بحث جامعى عربى أعده عبد اللطيف حمزة عام ١٩٥٥[١]. قدم الألمانى ورنر إند Werner Ende أطروحة بعنوان: "صورة أوروبا والوعى الثقافى لدى المسلمين فى نهاية القرن التاسع عشر من خلال كتابات المؤلفين المصريين: إبراهيم ومحمد المويلحي"[٢]. قدمت هذه الأطروحة ترجمة إبراهيم كتاباته ونقد "مصباح الشرق" تجاه أوروبا ومصر بالإضافة إلى مواقفه من الإسلام وعلاقاته بالحياة فى المجتمع. وهذه الدراسة مثيرة للاهتمام باعتبارها أولا الأولى من نوعها فى أوروبا عن هذين المؤلفين، وثانيا لكونها مدعمة بالكتابات المويلحية. "ما هنالك"، و"مصباح الشرق"، "حديث موسى بن هشام وعيسى بن هشام" انطلاقا من هذه المادة العلمية التى للأسف لم تضم كملاحق لمس "ورنراند" موضوعات الأوروبية المصرية (الغربية – الشرقية)، القومية العربية ومسألة تركيا – الفتاة ومشكلة الإصلاحية العربية الإسلامية. تقع هذه الدراسة فى مائة وثمان وخمسين صفحة وهى تعد خطوة أولى فى اتجاه دراسة الكتابات المويلحية، تخرجنا من كافة الأعمال المنصبة على الناحية الحياتية أو التجميعية.

هناك فى مجال الدراسات الجامعية أطروحة دكتوراه تتمحور لا حول الأب والابن كما هى العادة؛ ولكن حول الابن وحده ومؤلفه الرئيسى "عيسى بن هشام" نوقشت بعد دراسة ورنراند بثلاث سنوات أى عام ١٩٦٨ فى أكسفورد. ومقدم الأطروحة هو روجر آلن Roger Allen الذى سنتحدث عنه لاحقا (راجع ما يلي)[٣].

---

(١) ما دام الجزء الثالث من سلسلته عن تاريخ الصحافة (المنشورة فى تسعة أجزاء فيما بين ١٩٥٠ و١٩٦٣) قد نشر عام ١٩٥٥.

(٢) "Europabild und Kulturelles Selbstbewusstein bei den Musilmen am Ende des 19. Jahrhunderts dargestellt an den Schriften der beiden ägyptischen Schriftsteller und Muhammad al Muwailihi"

(٣) اخترنا أن نؤجل أعمال هذا المؤلف روجر آلن إلى نهاية هذا البحث. والفكرة هنا هى دراسة كل أعماله عن الموضوع فى الوقت ذاته. الواقع أن كثيرا مما كتب نشر فى السبعينيات وأعيد نشره فيما بين العامين ٢٠٠٢ و٢٠٠٧.

في فرنسا هذه المرة، هناك أطروحة أخرى نشرت عام ١٩٧٢، غير منصبة على آل المويلحي؛ ولكن على رجال السياسة والمصلحين الشرقيين والمغاربة في باريس (١٨٨٤ – ١٩١٤). خصص الباحث ابن مسعود بلقاسم لإبراهيم المويلحي بها ثلاث صفحات (ص ١٢٤ – ١٢٦). هناك بضعة أخطاء وردت بها خاصة بالصحف التي قام إبراهيم بتأسيسها، وإن كان ذلك لم يمنع الباحث من الوصول لمحصلة مبرهنة تصنف إبراهيم المويلحي باعتباره من النهضويين الذين تركوا ذكرى عطرة. "فهو رجل بشوش، ذكي، يتدفق نشاطا لصالح التحرر السياسي والثقافي للعالم الإسلامي (ص ١٢٥). خلاصة القول: إن ابن مسعود صنف إبراهيم المويلحي في "أول مصاف الزعماء الشرقيين والمغاربة في نهاية القرن التاسع عشر بعد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده الذي كان صديقه وشريكه المخلص" (ص ١٢٦).

ولم يفت الباحث في نهاية الأمر القول: "على هذا النحو كان والد الروائي العربي الكبير الحداثي محمد المويلحي (ص ١٢٦) الذي يقوم بدراسته بعد ذلك مباشرة.

في عام ١٩٧٥ ناقش يوسف راميتش أطروحته حول هذا الموضوع في الأزهر، وقد نشرت بعد ذلك في القاهرة عام ١٩٨٠. للوهلة الأولى يفوق هذا العمل كل ما عداه في عصره، ويظهر من عنوانه شموله لكل الأسرة المويلحية: "أسرة المويلحي وأطروحة في الأدب العربي الحديث"[1].

بعد تناوله لسياق القرن التاسع عشر العام يدلف راميتش إلى حياة الأسرة المويلحية برجالها الثلاثة العظام: إبراهيم (الذي تُوفِّي عام ١٩٠٦) عبد السلام (الذي تُوفِّي عام ١٩١٠) ومحمد (الذي تُوفِّي عام ١٩٣٠).

ويعد راميتش بعد عبد اللطيف حمزة الباحث الثاني الذي استطاع الوصول إلى مكتبة الأسرة المويلحية. ورغم النقص الذي لم تتمكن كل الأبحاث من تفاديه فقد استطاع أن يحصر تقريبا كل مقالات رجالات العائلة الثلاثة وما كتب عنهم.

(١) الأسرة المويلحية وأثرها على الأدب العربي الحديث.

جدير بالذكر أيضا أننا قد وجدنا بعضا من هذه الكتابات التى لم يوردها. هذه الأطروحة رغم كل المآخذ، بها إضافة هائلة للبحث حول إبراهيم المويلحى وإن كنا نأسف أن يتبنى الباحث أحيانا وبقوة مواقف بعض السابقين مثل مواقف چورچى زيدان وعبد اللطيف حمزة.

ويتميز هذا البحث أيضا بإيراده بعضا من مراسلات الأب والابن مع الأجزاء التى تم حذفها من "فترة من الزمن" والمسودات التى عثر عليها فى المكتبة العائلية، بالإضافة إلى الطبعات الأولى من "فترة من الزمن". هذا كله لا يمنعنا من القول: إن طريقة تقديم العمل تحول دون إعطائه حق قدره، فالنصوص المنقولة ذائبة فى متن نص الأطروحة دون أن تميزها أى علامات تنصيص. هذا إلى جانب أن أجزاء من نص واحد يفصلها عن بعضها البعض تحليلات من المؤكد أنها ضرورية، غير أنها مربكة ومعوقة للقراءة وللتجميع. ويبدو لنا أن عزل النصوص غير المنشورة قبلا فى صورة ملحقات كان يمكنه إبرازها وإعطاؤها قيمة أكبر.

أطروحة رابعة تتناول هذه المرة محمد المويلحى، "المويلحى الصغير: حياته وأدبه" تم نشرها عام ١٩٨٥. خصص مقدمها عبد الله عبد المطلب جزءا لإبراهيم المويلحى فى إطار ترجمة محمد المويلحى وسيرته: والده (٢٨-٣٦). إضافات هذه الأطروحة فيما يخص حياة وأعمال الابن مؤكدة بالنسبة إلى مجمل الأبحاث المتعلقة به. أما بالنسبة إلى إبراهيم المويلحى فليس هناك ما يزيد ويضيف إلى ما نعرفه عنه باستثناء اسم زوجته الأولى: "صديقة النادي" وهى معلومة يصرح لنا الباحث أنه قد حصل عليها بفضل أفراد العائلة المويلحية اللذين تداخل معهم(١) وتعرف بهم ومنهم:

• الأخ غير الشقيق (من زيجة ثانية) لمحمد المويلحى (المتوفى عام ١٩٣٠): أحمد المويلحي.

• ابن شقيق محمد المويلحى (المتوفى عام ١٩٣٠): إبراهيم خليل المويلحي (المتوفى عام ١٩٩٧).

---

(١) كما فعل فى السابق حمزة فيما بين ١٩٥٠ – ١٩٦٣ ورامِيتش بين عامى ١٩٧٠ و١٩٧٥ وفعلنا نحن اعتبارا من ٢٠٠٦. هذه العائلة كانت دوما مرحبة بالتعاون مع الباحثين.

عن إبراهيم (الذى توُفِّى عام ١٩٠٦) يقول "عبد الله عبد المطلب": إن "محمد عبده" وصفه: "بجاحظ عصره وكاتبه الأوحد" (ص ٣٥) أى بالكاتب الذى لا يقارن والأشبه بالجاحظ فى عصره. ويؤكد عبد الله، وكذلك العقاد لاحقا عام ١٩٦٣ فى كتابه "رجال عرفتهم" (راجع ما سبق) أن إبراهيم المويلحى قد شارك فى مسابقة لنيل لقب "شاعر القصر" (ص ٣٥) غير أن ضلوعه فى المؤامرات السياسية حال دون حصوله على اللقب رغم مواهبه الأدبية التى لا تنكر. وينهى عبد الله حديثه مصنفا إبراهيم المويلحى فى السلالة النهضوية مع جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الله النديم[١] مع اقتناعه أن كتابه يختلف كل الاختلاف عن كتاباتهم (ص ٣٦)[٢]. فى ختام موضوعه يعرف عبد الله ما يرى أنهما عامود وركيزة فكر إبراهيم المويلحي. الركيزة الأولى هى ولاؤه للمصريين، فقد كان يدافع عن شاغلى عرش مصر ضد الاستعمار أما الثانية فهى محاباته لكل ما هو شرقى وذلك بدفاعه عن الإسلام. وجعل منه ذلك واحدا من أكبر الدعاة للجامعة الإسلامية المنضوين تحت اللواء العثمانى (ص ٣٦)[٣].

ما زال الاهتمام بإبراهيم المويلحى مستمرا لا سيما وأن هناك ولعا وشغفا بدراسات تاريخ الصحافة العربية المكتوبة. يذكر أحمد حسين الصاوى فى كتابه: "فجر الصحافة فى مصر" صحيفة إبراهيم المويلحى "نزهة الأفكار"[٤] (١٨٧٠) التى

---

(١) (١٨٤٣ – ١٨٩٦) مؤسس صحيفة "الأستاذ" ورئيس تحريرها. راجع الملحق ١: معلومات الصحف ومواصفاتها التى تمثل مادتنا العلمية.

(٢) "إبراهيم المويلحى مصلحا اجتماعيا انضم إلى موكب الإصلاح فى عصره، والذى كان يضم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الله النديم ومن بمبادئهم وإن كان قد نسج على منوال غير منوالهم". ص٣٦.

(٣) "كان يصدر فى كتابته فى الكثير الأغلب عن فكرة خاصة وفكرة عامة. أما الفكرة الخاصة فمدارها مصر وغايتها الدفاع عنها وعن ولاتها من رجال البيت العلوى ضد الاحتلال الأجنبى. وأما الفكرة العامة فمدارها الشرقى وغايتها الدفاع عن الإسلام، ومن ثم فقد كان إبراهيم داعية عظيما لما نسميه بالجامعة الإسلامية تحت الراية العثمانية" ص٣٦.

(٤) راجع فيما يخص هذه الصحيفة الفصل الرابع والمجلد الثانى، المادة العلمية ٢ الفقرة (b).

يعتبرها[١] هو أيضا مثل الآخرين أول صحيفة مصرية شعبية تأسست بمبادرة خاصة[٢] فى إطار الدراسات المتناولة للصحافة العربية المكتوبة يرد ذكر إبراهيم المويلحى فى مقال "لزولوندك":

"صابونجى فى إنجلترا ١٨٧٦ – ١٨٩١: دوره فى الصحافة العربية"[٣] الذى صدر فى يناير ١٩٧٨. لم يرد ذكر إبراهيم فى هذا المقال إلا إشارة لصحيفته "الخلافة" عام ١٨٧٩ التى استكملت مهامها فى رأى زولوندك صحيفته "الاتحاد" (١٨٧٠)[٤]. عنوانان لصحيفتين أعطاهما الصابونجى (١٨٣٨ – ١٩٣١) المعاصر لإبراهيم لاثنتين من صحفه التى أسسها فى أوروبا[٥]. لم نجد لصحيفة إبراهيم "الخلافة" عام ١٨٧٩ أثرا. من هنا فليس لدينا مصدر مباشر يزودنا بمعلومات عنها. ورغم ذلك فقد ورد ذكرها لدى كل من اهتم من بعيد أو من قريب بإبراهيم المويلحي. يقول لنا أبو زيد فاروق فى كتابه "الصحافة العربية المهاجرة"[٦] الصادر بتاريخ ١٩٨٥ أن صحيفة "الخلافة" (١٨٧٩)[٧] كانت ذات أهمية رئيسة باعتبارها الصحيفة الثانية التى صدرت فى المنفى بعد "أبو نضارة زرقاء"[٨] ليعقوب صنوع (١٨٣٩ – ١٩١٢). ويضيف أبو زيد فاروق أن صحيفة "الخلافة" عام ١٨٧٩ كانت ثنائية اللغة تصدر باللغتين العربية والتركية، ويقول ملخصا أهدافها التى استخلصها من قراءته للعددين الصادرين منها بتاريخ ١٨٧٩/١٢/١ و١٨٧٩/١٢/١٨: كان هناك هدفان لإبراهيم (الذى تُوفى عام ١٩٠٦) أحدهما:

---

(١) راجع الصاوى ١٩٧٥ ص٣٨.

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذه النقطة راجع الفصل الرابع.

(٣) "Sabunji in England (1876 – 1891): his role in Arabic Journalism".

(٤) راجع الفصل الخامس والمجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (d) وجاب الله بولهبل ٢٠٠٤، ص٢٢٠.

(٥) فيما عدا هذا المقال راجع بخصوص الصحافة العربية فى أوروبا أبو زيد ١٩٨٥ وشلبى ١٩٨٧.

(٦) "الصحافة العربية المنفية".

(٧) نحدد زمان ومكان هذه الصحيفة وكل الصحف كذلك لأن كثيرا من صحف القرن التاسع عشر كانت تحمل الاسم ذاته مما يمكننا من تفادى الخلط بينها مثال ذلك صحيفة إبراهيم "الخلافة" فى نابولى ١٨٧٩ وصحيفة الصابونجى "الخلافة" فى لندن عام ١٨٨١.

(٨) لمزيد من المعلومات عن هذه الصحيفة وهذا الصحفى راجع "عبده ١٩٤٨" (١٩٤٤) ص٥٠–٦٧ والجندى ١٩٥٣ ص٢٢٢.

الدفاع عن الخديو إسماعيل والمطالبة بعودته إلى السلطة، وثانيهما: نقد السلطان والإمبراطورية العثمانية لكونهما أُلعوبة تحركها أيدى الإنجليز والفرنسيين. وينهى أبو زيد فاروق قوله محددا أن الهدف الأعلى الذى يجعل من هذه الصحيفة واحدة من أكثرها أهمية هو دعوته إلى جعل الخلافة من أصول عربية لا تركية على أن يكون مقرها بعد ذلك وإلى الأبد فى مصر (أبو زيد ١٩٨٥ ٧٩-٨٠) لدينا إذن الدليل على صدور هذه الصحيفة رغم عدم عثورنا عليها. غير أننا أملا فى الحصول على نسخة منها سعينا للقاء فاروق أبو زيد أستاذ تاريخ الصحافة العربية فى جامعة عين شمس بالقاهرة.

رحب فاروق أبو زيد بالرد على أسئلتنا هاتفيا[١]، وقد أكد لنا اطلاعه فى السبعينيات فى دار الكتب[٢] على العددين الوحيدين اللذين صدرا من صحيفة إبراهيم المويلحى "الخلافة" وأبدى لنا أسفه على عدم استطاعته آنذاك عمل نسخ منهما فقد كان ذلك ممنوعا. لدى عودتنا إلى دار الكتب لم نجد أثرا لهذه الصحيفة، اختفت تماما على الأقل من هذا المكان. ونشير هنا إلى أن صحيفتى "الخلافة" و"الاتحاد" قد ورد ذكرهما أيضا فى مقال "بوزبينار توفان" عام ١٩٩٦:

"Opposition to the Ottoman Caliphate in the Early years of Abdulhamid II 1877-1882"[3]

حتى ندنو قدر الإمكان من الكمال والشمول[٤] نلفت هنا النظر إلى أنه قد ورد ذكر إبراهيم المويلحى فى بعض قواميس ومعاجم القرن العشرين؛ مثل قاموس

---

(١) نتقدم بشكر خاص للأستاذة الدكتورة أمينة رشيد التى قدمتنا إلى الأستاذ الدكتور فاروق أبو زيد.

(٢) وهى المكتبة القومية المصرية وقاعاتها مشتركة مع دار المحفوظات القومية. وتضم الاثنتان دوريات ومخطوطات والأعمال العربية من أقدمها إلى أحدثها. وقد ألفنا ارتياد المكانين منذ أطروحة الماجستير ٢٠٠٣-٢٠٠٤ إلا أننا لم تصلنا قط معلومة تقول: إن هذه الصحيفة كان لها وجود هناك أثناء بحثنا عنها.

(٣) راجع ص٧٣ – ٧٧.

(٤) نفضل هنا الحذر من القول: إن عملنا تام وشامل. نأمل بالطبع فى ذلك؛ ولكننا لا نستطيع الجزم به. كم من مرة كدنا نمر مرور الكرام بجوار مرجع لا يتصل قطعا بعملنا إلا بشكل غير مباشر؛ ولكنه يشكل جزءا لا يتجزأ مما يطلق عليه قائمة المراجع الكاملة.

"الأعلام"، وقاموس خير الدين الزركلى "تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين" الذى صدر عام ١٩٧٩[١]، وقاموس چاك ديموچان: "القاموس التاريخى الثيماتى والتقنى للآداب الفرنسية والأجنبية القديمة والحديثة" الذى ظهرت أول طبعة منه عام ١٩٨٦. فى عام ١٩٩٤ ظهرت نبذة حياتية عن محمد المويلحى كتبتها ندا توميش بها فقرة مخصصة لإبراهيم المويلحى، نشرت فى القاموس الكونى للآداب لمؤلفته بياتريس ديدييه. تمت أيضا الإشارة إلى إبراهيم المويلحى فى مدخل خاص بمحمد المويلحى ورد فى "القاموس العالمى للآداب"[٢] لمؤلفيه باسكال موچان وكارين حداد – فوتنج.

عدا هذا النوع من التجميع الذى لا ننكر ضرورته للبحث، هناك دراسة منشورة بتاريخ ١٩٨٥ عن "ما هنالك". هذا المؤلف للكاتب أحمد حسين الطماوى نشر بالقاهرة تحت عنوان: "ما هنالك: من أسرار بلاط السلطان عبد الحميد"[٣]. هذه الدراسة لا تمدنا بجديد عن إبراهيم؛ ولكن يعرف لها حجم ما أعادت نشره من النص. غير أننا بفضلها وضعنا يدنا على قبر إبراهيم المويلحى ومنها توصلنا إلى أبناء إبراهيم وأحفاده والمكتبة الخاصة بآل المويلحي. نشر هذا المؤلف لاحقا مقالا فى مجلة "القافلة" (مايو / يونيو ١٩٩٠) بعنوان: "إبراهيم المويلحى أديب من جزيرة العرب عاش فى مصر"[٤]. لم تكن هناك معطيات جديدة فى المقال غير أنه يعرف له فضل إعادة الموضوع على الساحة[٥].

ظهرت بعد ذلك بعامين عام ١٩٨٧ دراسة أخرى فى أوروبا تتناول كتاب "ما هنالك" قدمها "جاكوب لاندو":

"An Insider's View of Istanbul: Ibrahîm al- Muwaylihî's Mâ Hunâlik"

---

(١) تم الاطلاع عليها: ص٤٥ المجلد الأول من الطبعة الثانية وص٣٨ المجلد الأول من الطبعة الثامنة.

(٢) راجع ص٦١٣.

(٣) "ما هنالك: أسرار قصر السلطان عبد الحميد".

(٤) "Ibrâhîm al- Muwaylihi, adib min jazîrat al-arab âša fi Misr".

(٥) راجع الملحق ١٠ الفقرة (h): الصفحات الأولى ومقتطفات أصلية من صحف مادتنا العلمية وصحف أخرى.

في هذه الدراسة مثل غيرها يتماثل الإلمام بالجزء الحياتي إلا أن هناك اختلافا كبيرا كائنا في تزويدها إيانا بقائمة مراجع مهمَّة شاملة للأعمال التي تناولت إبراهيم المويلحي. هذا ليس لأن الدراسات الأخرى لم تقم بحصر هذه المراجع إلا أنه بينما قام البعض بهذا العمل بإتقان كامل قامت أخرى بعمله بشكل مختصر أو لم تقم به على الإطلاق. قدم چاك لوندو ولأول مرة بلغة أوروبية قائمة مراجع يمكن وصفها قياسا على هذا العصر بالكاملة. كان راميتش قد سبقه في الواقع في هذا الأمر؛ ولكن باللغة العربية. ويمكن أخيرا القول: إن هذه القوائم تضاف إلى القوائم المتميزة والمتتابعة التي قدمها روچر آلن اعتبارا من عام ١٩٦٤ سنة بدئه لأبحاثه حول محمد المويلحي والتي سنتناولها لاحقا. بالإضافة إلى قائمة المراجع قام چاكوب لاندو بدراسة "ما هنالك"[(١)]، وهو فيها يشير إلى "ورنراند" و"راميتش" و"الطمان".

في عام ١٩٨٧ ظهرت إلى الوجود أطروحة جامعية أخرى لمحمد شلبي بعنوان: "الصحف العربية في باريس ١٨٥٩-١٩١٩ دراسة تاريخية واجتماعية". لم تدر هذه الدراسة حول آل المويلحي أو أحدهما؛ وإنما حول الصحافة العربية في فرنسا في القرن التاسع عشر، وهو يشير فيها إلى إبراهيم وصحيفته "الاتحاد" (١٨٨٠ – ١٨٨٤) التي وجدنا منها عددين بفضل دراسة "دومينيك آخون – شوارب"[(٢)] (٢٠٠٣، ٨٢) من هنا يمكن القول: إن البحث حول إبراهيم على شاكلة مسيرته، في ترحال دائم من بلد إلى آخر ومن نوع أدبي إلى آخر. في التاسع والعشرين من يناير عام ١٩٩٢ ظهر مقال آخر في ذكرى إبراهيم المويلحي، هذه المرة في الصحيفة السعودية "الشرق الأوسط" العدد ٤٨١٠ ص ٨ تحت عنوان: "إبراهيم المويلحي"[(٣)]. في هذا المقال لم نجد إلا المكانة التي ينبغي للفرع السعودي من الأسرة المويلحية الاحتفاظ بها في ذاكرته. عقب هذا المقال الذي استهدف إحياء

---

(١) حول هذا المؤلف، راجع آلن ٢٠٠٧ (b) والفصل السادس.

(٢) اطلعنا على هذا العمل في الـ (CERNOM) و الـ (INALCO) وهما على التوالي: "مركز أبحاث الشرق الأوسط. وحوض البحر المتوسط" و"المعهد القومي للغات والحضارات الشرقية".

(٣) راجع فتحي صفوت ١٩٩٢.

الذكرى ورد اسما إبراهيم[(١)] ومحمد[(٢)] المويلحى عام ١٩٩٢ فى كتاب لمحمد عبد المنعم خفاجي (الأستاذ والعميد السابق بجامعة الأزهر) بعنوان: "قصة الأدب فى مصر". وهذا المؤلف يقع فى خمسة مجلدات تم جمعهما فى جزئين.

شهد العام ذاته إعادة نشر لأطروحة روجر آلن التى تمت مناقشتها عام ١٩٦٨ فى جامعة أوكسفورد، والتى كانت قد طبعت فى المرة الأولى عام ١٩٧٤ برعاية سانى برس Suny Presse بمدينة نيويورك. تحت عنوان A Périod of Time تناول الكتاب حياة محمد ووالده إبراهيم ودرس تفصيليا، كما لم يحدث من قبل مؤلف محمد المويلحى الأساسي: "حديث عيسى بن هشام"[(٣)]. فى السنة التالية أى عام ١٩٩٣ نشر روجر آلن نبذة من المويلحى فى موسوعة الإسلام. انقسمت النبذة إلى جزئين: إبراهيم ومحمد؛ وبذا كانت هناك إعادة طرح معاصرة أخيرا للموضوع، اعتبارا من هذا التاريخ دأب روجر ألن على وهب المزيد من وقته لهذا البحث بمنظور أكثر اتساع، وهو منظور الأدب العربي.

من هنا فقد شارك عام ٢٠٠٢ فى طباعة الأعمال الكاملة لمحمد المويلحى، وتم هذا النشر فى إطار سلسلة جديدة أكملت تلك كان الناشر صبرى حافظ قد بدأها بعنوان: "رواد القصة العربية" وظهرت فى مجلدين بالعنوانين التاليين:

١) محمد إبراهيم المويلحي: "حديث عيسى بن هشام"[(٤)].

٢) محمد إبراهيم المويلحي: "علاج النفس" ومقالات لم تنشر فى كتاب[(٥)].

وعلى الرغم من أن ما أضافته عملية النشر الجديدة هذه لا يمكن إنكاره فإن العنوان المختار لها به الكثير من الغرابة. يستوقفنا هنا الجمع بين اسمى الأب

---

(١) راجع الجزء الثانى المجلد الخامس ص١٦- ٢٠.
(٢) راجع الجزء الثانى المجلد الخامس ص ٢١ - ٣٢.
(٣) والذى كان عنوانه: "فترة من الزمان". لمزيد من المعلومات حول هذا العمل راجع الفصل الخامس وبصفة خاصة أعمال روجر آلن ورندة صبرى ولوك ويلى ديهوفلز... إلخ.
(٤) "محمد إبراهيم المويلحي: ما رواه لنا عيسى بن هشام".
(٥) "محمد إبراهيم المويلحي": "علاج النفس ومقالات أخرى غير منشورة".

والابن. وقد حرص روجر آلن على إمدادنا بإيضاح فى هذا الصدد. الواقع أنه اسم ثان للابن وإن كان لا يظهر فى جواز سفر محمد. (راجع الملحق ١٠ الفقرة (i)). أيا ما كان الأمر فما يضيفه هذا الكتاب إلى الأبحاث التى تناولت إبـــراهيم مثيـــرا للاهتمام. فهو يقدم مراجع ببليوجرافية جديدة وإيضاحات سياقية. فعلى سبيل المثال نعرف أن إبراهيم كان صديقا "لويلفريد سكاون بلونت" (آلن، ٢٠٠٢، ١٦)[١]. فـــى عام ٢٠٠٧ نشر الأعمال الكاملة لإبراهيم (الذى تُوفِّى عام ١٩٠٦) فيمـــا يتعلـــق بعملية النشر هذه، نسجل أنها تمت فى مصر فى إطار مجموعة يطلق عليها كمـــا يحدث بشكل عام فى العالم العربى، بشيء كبير من التسرع "الأعمال الكاملة". نحن نعلم، وقد أشار روجر آلن نفسه إلى أن إبراهيم قد كتب:

- صحيفة أولى عام ١٨٧٠: نزهة الأفكار.
- صحيفة أخرى عامى ١٨٨٠ و١٨٨٤: "الاتحاد".
- كتابه "ما هنالك".
- صحيفته "مصباح الشرق".
- عمله الأدبى "مرآة العالم".
- مقالات فى صحيفتى "المؤيد" و"المقطم".
- إلى آخره.

إلا أنه فيما أعيد نشره نجد:

- مقدمة تعلن قرب ظهور "ما هنالك".
- "مرآة العالم"[٢].

---

(١) "ويخبرنا بلنت..... "صديقي" القديمان عارف بك ومحمد المويلحى ابن شقيق (هكذا وردت) صديقى القديم إبراهيم المويلحى وكلاهما الآن مقرب من مختار باشـــا الغـــازى المنـــدوب السامى العثمانى فى القاهرة" راجع سكاون بلونت ويلفريد ١٩١٩ الجزء الأول ص١٤.

(٢) راجع الفصل التاسع والمجلد الثانى، المادة العلمية ٢ الفقرة (h).

• بعض المقالات: الإنشاد والعصر(١) وست مقالات أخرى(٢).

فى عام ٢٠٠٧ نشر روچر آلن ترجمة لكتاب "ما هنالك" وهى الأولى لهذا النص حمل كتابه عنوان: جواسيس وفضائح وسلاطين: اسطنبول فى ظلال الإمبراطورية العثمانية(٣)، وهو مكون من تحليل وترجمة. أصبح هذا النص غير المنشور أخيرا فى المتناول بلغة غربية مما يعد تقدما هائلا للبحث العلمى خاصة وأن لغته الأصلية كانت بالغة الصعوبة وغير يسيرة الفهم(٤). فى العام ذاته ٢٠٠٧ ظهر كتاب جماعى بعنوان: "تاريخ الأدب العربى الحديث"، وقد أشرف على هذا العمل المشترك كل من "بطرس حلاق" و"هايدى توال" وورد به ذكر "مصباح الشرق" أربع مرات وكل من "إبراهيم" و"ومرآة العالم" مرة واحدة، أما محمد فقد ذكر ثمان وثلاثين مرة.

من هنا يمكن القول: إن إبراهيم المويلحى لم يكن إلا جزءا ثانويا فى الدراسات، فلم ينكب على دراسته بعمق إلا قليلين وأقل منهم من اهتم بكتاباته. على النقيض من ذلك نجد أن محمد قد احتكر اهتمام الباحثين منذ وفاته عام ١٩٣٠ وحتى يومنا هذا فى الشرق كما فى الغرب. هذا لا ينسينا أن نصوص "مصباح الشرق" ومنها "مرآة العالم" كانت فى البداية بمبادرة من إبراهيم المويلحى مؤسس ورئيس تحرير هذه الجريدة.

---

(١) "الإنشاء والعصر" الذى نقلنا نصه، راجع المجلد الثانى، المادة العلمية ٢ الفقرة (f) الذى ينسبه المنفلوطى (راجع ١٩١٢ ص١٩٠ – ١٩٧) إلى إبراهيم المويلحى دون أن يذكر مصادره تماما كما فعل بشأن المقال الذى يحمل عنوان: "جوار الشعر" (راجع ١٩١٢ ص٢٠٥ – ٢٠٩) الذى نسبه أيضا إلى إبراهيم المويلحى وليس إلى محمد المويلحى، الأمر الذى ذكره أيضا روچر آلن (راجع ٢٠٠٢ الجزء ١ ص١٣٩ العدد الأول).

(٢) بعضها نشر عام ١٩٩٧ فى كتاب أحمد إبراهيم الهوارى الذى صدر بعنوان: نقد المجتمع فى حديث عيسى بن هشام راجع ص١٢٦ – ٢٨٧) ومنها نص "مرآة العالم" الذى أعيدت كتابته (راجع جاب الله بولهيل، ٢٠٠٥ ص٣٧ – ٨٢). ودراسته (راجع جاب الله بولهيل ٢٠٠٥ ص٨٣ – ١٤٥) واللذين تم إدراجهما من جديد فى هذا العمل بتفصيل أكبر: (راجع) الفصل التاسع.

(٣) "Istanbul in the Twilight of the Ottoman Empire".

(٤) بشأن النص الأصلى راجع المجلد الثانى، المادة العلمية الثانية الفقرة (e) أما عن دراسة هذا النص فترجى مراجعة الفصل السادس.

من هنا فإن كتابات إبراهيم المويلحى ما زالت فى حاجة إلى دراسة. ما لم يتم ذلك لكان الأمر بمثابة تجاهل لمائتين وستة وستين عددا من الجريدة الأسبوعية، التى ساهمت فى القرن التاسع عشر فى النهضة العربية. وهذا يعنى عدم الاهتمام بالصحيفة التى وصفها "كرد علي": "بأميز الصحف الأسبوعية"[١] والتى أشاد سلامة موسى "بإكسابها إياه الذوق الفني"[٢].

هل بعد كل ذلك يرى أحد ممكنا تجاهل هذا لجزء من تاريخ الصحافة العربية المكتوبة والأدب العربى الحديث؟ هل من اليسير إنكار أن إبراهيم المويلحى كان أحد رجالات عصره؟ للوهلة الأولى الإجابة بالنفي. هذا غير أنه وولده كانا عضوين فى صالون الأميرة نازلى هانم فاضل[٣] الشهير، وكانت هذه الأخيرة على صلة وطيدة به[٤]. كان محمد وإبراهيم المويلحى إذن من النهضويين متعددى التكافؤ الذين كرسوا حياتهم للكتابة، حافظين لمواقعهم بين الحداثة والمحافظة، مناهضين للطغيان والاستعمار، ساعين للحقيقة والحياة الهادئة. بدا إبراهيم المويلحى وقد بذل جهدا حثيثا لتغيير المجتمع العربى وتطويره. مال إلى الخديو باعتباره مصريًا وإلى العثمانيين باعتباره مسلما؛ ولكنه لم يؤيد لا الحكومة ولا الإمبراطورية. بين مصر والإمبراطورية العثمانية، بين الشرق والغرب، بين القديم والحديث، اختار إبراهيم المويلحى أن يكرس كل كتاباته للقضية النهضوية التى كان بلا شك أحد روادها.

---

(١) آلن ٢٠٠٢ ص١٨ "مصباح الشرق" كانت أفضل جريدة أسبوعية .

(٢) آلن ٢٠٠٢ ص١٨ "يذكر سلامة موسى فى سيرته أنه "اكتسب ذوق الجمال الفنى من قراءاته لمقالتها".

(٣) لمزيد من المعلومات عن هذه السيدة العظيمة فى مصر خلال القرن التاسع عشر راجع آلن ١٩٧١ ص٧٩ - ٨٤.

(٤) راجع عبد الله عبد المطلب ١٩٨٥ ص٣٧. "وصلة محمد المويلحى بالأميرة نازلى أوثق من علاقة أديب يتردد على صالونها الأدبى، بل كانت تمتد السهرات الخاصة بهما على انفراد يسمعان معا إلى أنغام العود من جاريتها وعواداتها المشهورة مدام وسيلة، ولقد كانت الأميرة نازلى ترسل إلى محمد المويلحى وصيفتها إذا تأخر ليلة تستفسر عن سبب تأخره، وقد أهدت إليه صورتها ممهورة بتوقيعها لتكون رمزا لصداقة متينة... وما زالت الصورة طرف ابن أخيه إبراهيم (الحفيد)" الواقع أننا قد لاحظنا بالفعل وجود هذه الصورة الشخصية (راجع الملحق العاشر الفقرة (ع)) فى أحد صالونات منزل خليل المويلحى (المولود فى ١٩٤٤). أفادنا أحد أفراد العائلة وقد رغب فى إغفال اسمه أنه كانت توجد بين محمد المويلحى ونازلى صلة حميمية.

الفصل الرابع

الصحافة المكتوبة فى مصر فى القرن التاسع عشر:

الرواد، والحرية، والصحف

تتدرج مسيرة إبراهيم المويلحى وكتاباته، وكذلك مسيرات معاصريه وكتاباتهم بشكل طبيعى فى سياق تاريخى سياسى واجتماعى وثقافى استعرضناه لتونا. الواقع أنه لإدراك كنه الرسائل التى بثبتها نصوص هؤلاء الكتاب الصحفيين الفاعلين، من الضرورى قبل أى شيء الإلمام بالمسيرة الفردية لكل منهم ومسيرتهم الجماعية. كذلك من الضرورى وضع هذين المقياسين الفردى والجماعى فى سياقهما الشامل؛ أى فى سياق عصرهما. ونعنى بالسياق الشامل هنا هذا الاتصال العنيف والمفاجئ بين الشرق والغرب فى نهاية القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر. خلال هذا الاتصال كما رأينا فى الصفحات السابقة وجدت مصر نفسها فجأة أمام مرآة سمحت لها برؤية مدى تأخرها مقارنة بالغرب. زاد من عنف هذا الانعكاس وصول البريطانيين[١] عام ١٨٨٢ الذى أعقب بأكثر من ثمانين عاما وصول الفرنسيين إليها.

تدهورت العلاقات أكثر فأكثر بتحول الوصاية البريطانية التى كانت تزداد وطأتها من تعاون إجبارى إلى احتلال، ثم إلى حماية[٢]. جعل هذا الوضع مصر تدرك كنه هذا الآخر الذى كان يمثله الغرب فى القرن التاسع عشر. كانت سوريا

---

(١) مع العلم أن هؤلاء قد حاولوا أكثر من مرة خلال القرن التاسع عشر دخول مصر بالقوة (العسكرية) أحيانا وأحيانا أخرى بالحيلة والخداع (المالى، والدبلوماسى والاقتصادي).

(٢) قدمتها بريطانيا العظمى إلى مصر عام ١٨٨٢ بعد عدة محاولات دبلوماسية ومالية، وفى عام ١٩١٤ فرضت الحماية رسميا وأعلن الاستقلال الأسمى لمصر عام ١٩٢٢؛ على أنه يجب الانتظار حتى عام ١٩٥٥ لكى يسحب البريطانيون بشكل نهائى قواتهم.

ولبنان؛ وهى بلدان تتعدد فيها الأديان قد أقامت صلات بهذا الغرب فى وقت سابق كان وجود المسيحيين القادمين من أوروبا والمسيحيين الشرقيين(١) قد سمح بوجود علاقة مبكرة ومختلفة بين هذا الجزء من الشرق الأدنى(٢) والغرب.

وقد ساهم أيضا الموارنة السوريون(٣) والمبشرون الأميركيون(٤) والكاثوليك، الذين يشملون الفرنسيين والچيزويت والعازريين(٥) فى هذه الصلة بين الشرق العربى والغرب الأوروبي. وقد جعل ذلك مصر لاحقا تحت حكم محمد علي(٦) أرض الحرية، فقد سمح بحريتي "التقصى والبحث والتعبير(٧)؛ وهى حريات لم توجد من قبل على الأرض العثمانية" (ويت Wiet ١٩٦٦، ٢٧٢). وقد شكل هذا التخلق الفكرى تدريجيّا حركة عربية إسلامية هدفها الأمة العربية والإسلامية فى مجملها. نفهم من ذلك أن مستقبل النهضة قد صيغ فى مصر التى أصبحت هدف(٨) الشرق العربي. فى هذا السياق تكونت النخبة وعملت من أجل تغيير المجتمع العربي. وقد اختارت عمل ذلك بالكلم، واتخذت من الصحافة المكتوبة ركيزة للنشر والتواصل. حاول النهضويون من خلال كل أنواع الدوريات إرشاد الأمة. وفى خط مواز لهذا الجهد حاولوا فى الوقت ذاته وعلى مدى القرن التاسع عشر البحث أيضا عن ذواتهم من خلال معاركهم الصحفية.

---

(١) أى سكان الشام (سوريا، ولبنان) الذين لا يعودون لا عرب ولا أتراك.

(٢) نعنى بالشرق الأدنى: تركيا وسوريا ولبنان وإسرائيل ومصر. الجزء الذى نتحدث عنه هنا هو لبنان وسوريا وهما من أوائل البلدان التى كانت لها صلات مباشرة مع أوروبا، على نقيض ما كان من مصر، التى لم تقم صلة مباشرة مع أوروبا (الواقع الفعلى على الأرض) إلا مع مقدم بونابرت فى نهاية القرن الثامن عشر.

(٣) نعنى هنا المارونيين الذين ذكر ويت جاستون Wiet Gaston صلتهم شبه الدائمة بروما منذ القرن السادس عشر. وقد قاده ذلك إلى استخلاص أنه لا يثير الدهشة أبدا أن "ترى فى منتصف القرن التاسع عشر هذا العدد الكبير من المسيحيين السوريين يسعون إلى استعادة الحيوية؛ أى إلى النهضة.

(٤) الذين وصلوا إلى بيروت فى بداية القرن التاسع عشر.

(٥) الذين يصلون من خلال الاحتلال الفرنسي وعلى مدى القرن التاسع عشر.

(٦) لا يجب أن ينسينا ذلك بالمرة أن محمد على كان محبا للسيطرة بل مستبدا. وأن نابليون الذى اصطحب معه علماء، وكان لديه مشروع غزو علمى لم يبتعد عن الفكر العسكرى وفكرة الغزو. ومن هذا المنطلق كان ظالما وعنيفا.

(٧) كانت هذه الحريات نسبية ولكن هائلة قياسا على ما مضى وعلى حال الحريات فى الإقليم.

(٨) مسمى نستعيره من جاستون ويت Gaston Wiet (١٩٦٦، ٢٧١).

كانت الصحافة المكتوبة إذن عنصرا أساسيًا فى سيرورة النهضة. واقع الأمر أنها كانت بالنسبة إليها الناقل والمحرك. من هنا توجب علينا بعد الإلمام بالسياق التاريخي الجماعى للقرن التاسع عشر، والسياق الحياتى الفردى لإبراهيم المويلحى، فهم السياق الصحفي. بعد ذلك كله يمكننا الشروع فى دراسة مادتنا العلمية؛ نظرا لكوننا سنعيد وضعها فى هذه السياقات المختلفة فهى فى نهاية الأمر من بين أمور كثيرة أخرى، رواية وحكى لها.

سيكون علينا إذن فى هذا الفصل استعراض تاريخ الصحافة المصرية بصفة خاصة، والصحافة العربية بشكل عام، حتى نتمكن البدء فى دراسة النصوص التى يعد من أهدافها الأساسية ايضاح الطابع الصحفى للنهضة وإظهاره.

١- الوصول "المتأخر" للصحافة فى مصر وفى العالم العربي:

كانت الصحافة فى أوروبا وأميركا تخطو بخطوات واسعة منذ القرن الخامس عشر، فماذا كان حالها فى العالم العربي؟ يعنى الرد على هذا السؤال استعراض الصحافة العربية، وتحديد مراحلها فى سياقاتها السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والأدبية. هذه المجالات على الأقل بالنسبة إلى مادتنا العلمية غير قابلة للفصم والتفريق.

سنبدأ كخطوة استهلالية بنظرة شاملة مؤهلة للتناول ومقدمة لكى نحصل على معالم تعيننا على فهم تاريخ الصحافة بكل تركيباتها. الهدف من ذلك هو تيسير القراءة والقيام مستقبلا بتحليل دقيق لتاريخ الصحافة المصرية، التى تعد محولا رئيسيا فى التاريخ العربى خلال القرن التاسع عشر. واقع الأمر أن الصحف المصرية قامت بنفسها خلال هذه الفترة بوصف حال الصحافة المصرية التى كانت تساهم فى تكوينها؛ بل إن الصحافة نفسها تعلمنا ما كان عليه دورها وتحدد تعاريفه الناقدة. تفضى لنا الصحافة بما تظنه من مهامها على المستوى السياسى، والاقتصادى، والاجتماعى، والثقافي؛ وهى تقوم بذلك تأكيدا عن طريق خطابها، وعن طريق حكاياتها الأدبية أيضا. باعتبارها ناقدة للغير ولذاتها، سنرى كيف ظهرت الصحافة المصرية إلى الوجود وكيف تطورت فى الوقت الذى كانت فيه الصحافة الأوروبية فى عصرها الذهبي؟

ظهرت الصحافة فى مصر فى بداية القرن التاسع عشر مع مجيء بونابرت ومطبعته عام ١٧٩٨. يحدد هذا التاريخ ميلاد الصحافة العربية قياسا على أوروبا وبتحديد أكبر على الصحافة الفرنسية. دخلت الطباعة إذن إلى مصر غير أنها كانت طباعة فرنسية لا مصرية ولا عربية. غير أننا لا يجب أن ننسى أن الطباعة كانت موجودة فى الشرق الأدنى منذ عام ١٦١٠ فى لبنان ومنذ عام ١٦٩٨ فى سوريا (مارون عبود ١٩٦٦، ٣٥). أما عن الطباعة المصرية فلم تر النور إلا فى عامى ١٨٢٢/١٨٢١ بمبادرة من محمد علي. فى خط مواز، أثرى عدد كبير من الفرنسيين الذين كانوا قد استقروا لتوهم فى مصر ممارسة نشاط الطباعة فى مصر بتزويده بانتظام بأدوات جديدة وتقنيات حديثة.

شيئا فشيئا ظهرت الصحف المصرية الأولى فى بداية الأمر بلغة أوروبية، وبعد ذلك باللغة العربية. أول صحيفة مصرية صدرت كانت باللغة الأوروبية وذلك عام ١٧٩٩ "لا ديكاد إجيبسيان" La Décade Egyptienne. أما أول جريدة باللغة العربية فظهرت أول مرة فى الثالث من ديسمبر عام ١٨٢٨ بناء على أمر محمد على باشا: "الوقائع المصرية" ومعها بدأت الصحافة المصرية الرسمية فى مصر.

أما الصحافة الشعبية المعروفة بالصحافة الحرة فلم تصل إلى مصر إلا بدءا من عام ١٨٧٠ وبشكل أوضح خلال السنوات ١٨٩٠ - ١٩٠٠. وهذه الصحافة "يقال عنها حرة"؛ لأن حرية الصحافة فى مصر وفى العالم العربى (كما فى أوروبا) اضطرت آنذاك المرور بعدة مراحل قبل إن تعتبر "نسبيا أو حقيقة" حرة.

عرفت هذه الحرية المتدرجة أكثر من تقدم وتراجع وبالتالى يصعب بالنسبة إليها الحديث عن شيء مكتسب أو نهائي. من هنا يتوجب النظر إلى حرية الصحافة بحرص ووفقا لتاريخها الخاص وليس كإحدى المسلمات، إلى جانب وجوب إدراك على نحو جيد ما نعنيه بكلمة "حرية" فى التوقيت الذى نحن بصدده. ترتيبا على ذلك فإن صدور أول جريدة على غير أمر أو مرسوم من الباشا يجعل منها صحيفة حرة تنتمى لا إلى الصحافة الرسمية؛ وإنما إلى الصحافة الشعبية؛ استنادا إلى ذلك لا يمكننا بشكل كامل اعتبار جريدة "وادى النيل" عام ١٨٦٦ لصاحبها أبو السعود (١٨٢٠-١٨٧٨) جريدة حرة.

ففى بداياتها كانت الجريدة تماما تحت إشراف الحكومة المصرية وفى خدمتها. إلا أنه يجب أن نلحظ أن هذه الجريدة تعد من قبل أغلبية المتخصصين أول صحيفة سياسية مسماه حرة. والحرية هنا بمعنى أن الصحيفة نشرت مقالات تتناول بصفة خاصة الصحافة المكتوبة العربية الشعبية والحرة وأنها شيئا فشيئا حاولت اقتناص المزيد من حريات النشر. الحقيقة أنه فى هذه الجريدة تحديدا نقع على آثار لأول جريدة حرة شعبية "نزهة الأفكار" عام ١٨٧٠؛ وهى التى صنفها كل من عبد الرحمن الرافعى (١٩٨٧، ٢٥٠) وعبد اللطيف حمزة (١٩٥١ – ١٩٥٣، الجزء الأول، ٢٦) بين أوائل الصحف المصرية السياسية الحرة والشعبية. ترى أغلبية المصادر العربية والغربية أن هذه الصحيفة نشرت عام ١٨٦٩ إلا أننا وجدنا أثرا لها عام ١٨٧٠ لا عام ١٨٦٩ وتحديدا فى جريدة "وادى النيل". قدمت الجريدة فى باب "الحوادث الداخلية" نبذة عن صحيفة "نزهة الأفكار" بمناسبة صدور العدد الأول منها بتاريخ ٢١ من أغسطس ١٨٧٠[١] ورد فى جريدة "وادى النيل" أنه قد تمت قراءة العدد الأول من "نزهة الأفكار" المنشور بتاريخ الخميس ١٤ من جمادى الأولى الموافق ١٤ من أغسطس ١٨٧٠ ("وادى النيل" السنة الرابعة، العدد ٣٤ ص٣). فى الحادى والثلاثين من شهر أغسطس ١٨٧٠، أشارت جريدة أخرى تدعى "الجوائب"[٢] (١٨٦٠، إسطنبول) لصاحبها فارس الشدياق (١٨٠٤ – ١٨٨٧) فى صفحتها الأولى إلى صدور صحيفة جديدة.

نقل عنه[٣] هو أيضا جزء نذر. نخلص من كل ذلك إلى أن "نزهة الأفكار" قد تأسست عام ١٨٧٠ لا عام ١٨٦٩ واستمرت لفترة وجيزة فلم يصدر منها سوى عددين نظرا لمنع الخديو إسماعيل إياها من الصدور رغم ما عرف عنه بعد جده محمد على من تشجيع للصحافة المكتوبة فى مصر. منع الخديو صدورها بناءً على نصائح شاهين باشا وزير الحربية آنذاك الذى حذر الخديو من خطاب "نزهة

---

(١) راجع المجلد الثانى، المادة العلمية ٢ الفقرة (b) (النسخة المنقولة) والملحق ١٠ الفقرة (b) (النسخة الأصلية).

(٢) ترجمة إلياس (١٩٩٣، ٢٥).

(٣) راجع المجلد الثانى، المادة العلمية ٢ الفقرة (b) (النسخة المنقولة) والملحق ١٠ الفقرة (b) (النسخة الأصلية).

الأفكار" الصريح وقدرته على شحن الحشود وإثارتها[١]. تعلق الأمر إذن بجريدة حرة الأولى من نوعها فى مصر.

فى هذا السياق الخاص بتصنيف الصحف، لنذكر أنه فى ذلك العصر وعلى مدى القرن التاسع عشر كله كان من الصعب تصنيف الصحف المصرية بشكل قطعى (والعربية بصفة عامة) كصحف شعبية؛ أى حرة وصحف رسمية تخدم الدولة.

بعض من الصحف الحرة نتيجة ميولها السياسية وضعت نفسها فى خدمة الحكومة، فى حين أنها لم تكن من الصحف الصادرة بناء على أمر الحكومة، وهذا ما جعلها صحفا شبه رسمية دون أن تكون كذلك بالضبط. فى الوقت ذاته صحف رسمية أخرى أصبحت حرة بتبنيها سياسة نشر شخصية أكثر فأكثر، محاولة بذلك التحرر والتطور فى اتجاه صحافة جديدة. والنتيجة أن هذه الصحف سرعان ما تم إيقافها بل منعها.

كانت صحيفة "وادى النيل" عام ١٨٦٦ من هذه الصحف. أسسها مالكها أبو السعود لتكون بعد فترة وجيزة فى خدمة الدولة. بعد بضعة أعوام استباحت لنفسها بعض الحريات التى عجلت بمنعها عام ١٨٧٢. ربما لهذا السبب صنفت هذه الصحيفة ضمن أول صحف مصرية حرة؛ لذا من المهم أن نفرق بين الصحف التى نشأت رسمية والتى تطورت بعد ذلك محاولة أن تكون صحفا شعبية حرة، والصحف الحرة والشعبية منذ نشأتها التى يشار إليها باعتبارها "مبادرات خاصة".

لم يكن عدد الصحف العربية الأولى التى قيل عنها حرة وشعبية بالقليل. رأت أغلب هذه الصحف النور إبان حكم إسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩). قبل القيام بجرد هذه الصحف وحصرها بشكل استرشادى وسياقى لنر معا بعض المعطيات. وفقا لما يسوقه إلياس (١٩٩٣، ١٨) فإن أول جريدة تأسست بناء على مبادرة خاصة هى "السلطانة" لمالكها إسكندر شلهوب فى اسطنبول.

بعد صدورها بعام واحد؛ أى عام ١٨٥٧ انتقلت الجريدة إلى القاهرة ولم يستمر صدورها بعد الانتقال إلا لمدة عام واحد.

---

(١) تتفق كل المراجع الببلوجرافية التى تتناول الصحافة فى مصر حول هذه النقطة.

في عام ١٨٥٨ ظهرت أول جريدة بمبادرة خاصة فى لبنان باسم "حديقة الأخبار" لمالكها خليل الخورى (١٨٣٦ – ١٩٠٧). أما فى سوريا فلم تر أول صحيفة حرة النور إلا بعد ذلك بكثير، وتحديدا عام ١٨٧٧ فى حلب تحت عنوان: "الشعب" لصاحبها عبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٩ – ١٩٠٢). أسس الكواكبى نفسه بعد ذلك بعام واحد؛ أى عام ١٨٧٨ جريدة "دمشق". وكانت آنذاك دوريته "الشعب" قد رؤى تجاوزها فى نقد السلطة المركزية السعودية ومنعت بعد عامين من صدورها. وقد استبدلها الكواكبى بجريدة "الاعتدال" عام ١٨٧٩ التى لم تصدر إلا عشرة أعداد. تطلب الأمر انتظار نهاية الحكم العثمانى حتى تظهر صحف جديدة فى حلب. جدير بالملاحظة أن جريدة "دمشق" عام ١٨٧٨ كان لديها من ضمن أهدافها "مهمة الدفاع عن مصالح كل العثمانيين" (إلياس، ١٩٩٣ ص٣١) وقد استمرت فى الصدور حتى عام ١٨٨٧. فيما بين عامى ١٨٨٧ و١٨٩٦ لم يكن لدى دمشق سوى جريدة واحدة هى جريدة "الشام" وقد تطلب الأمر الانتظار حتى عام ١٩٠٨، عام ثورة تركيا- الفتاة لكى تصدر فى دمشق صحف جديدة. يفسر ذلك ولو جزئيا أنه لم تعد الصحافة المصرية فيما يتعلق بالقرن التاسع عشر ممثلة للصحافة العربية؛ ذلك لأن العرب كان قد لجئوا إلى مصر وعبروا عن أنفسهم طوال تلك الفترة.

نرى من ذلك أن ترتيب وتصنيف تواريخ صدور الصحف العربية أمر غاية فى التعقيد. كثيرون فضلوا ترتيبها ترتيبا زمنيا تبسيطا للأمر. غير أن ذلك لم يعالج كل مشاكل حصر الصحف العربية فى القرن التاسع عشر. الواقع أنه بغض النظر عن التواريخ هناك شبه استحالة أن يتم إغفال الطابع الرسمى أو الخاص للصحف. بدا فى نهاية الأمر أن جمع مكان النشر مع التسلسل الزمنى يمكن أن يبدو حلا مقبولا.

ولكن ما العمل فى أمر الصحف التى تصدر فى بلد وتنتقل إلى بلد آخر بل بلد ثالث؟

وما لسبيل مع الصحف التى ردا على الرقابة الحكومية تغير عناوينها فقط؟

أيا ما كان الأمر ربما تكون هذه الصعوبة فى حصر وفى تصنيف الصحف العربية هى الكامنة وراء التكرار، وعدم تماسك وتجانس الكتب التى تتناول تاريخ الصحافة العربية، التى سرعان ما تترك لنا إحساسا بالضياع.

ربما يكمن الحل فى عمل إحصاء مختلط؛ أى انطلاقا من مصادر أولية (الصحف ذاتها) ومصادر ثانوية (دراسة الصحافة). ويمكن مقارنة هذه النتائج بالتعداد والحصر السابقين التى قام بها الباحثون، والسجلات الإدارية، والأرشيف المحلى الذى قد نجد فيه جزءا.

لسنا هنا بصدد عمل حصر ولكننا فقط نمهد له. بعد هذه المرحلة الأولى التى تمثلها أطروحة الدكتوراه، سنشرع فى هذه المهمة وفى كل ما يتفرع عنها[1].

نكتفى فى الوقت الحالى بالاستشهاد على سبيل الإرشاد ببعض الصحف والمجلات التى تركت بصمة فى القرن التاسع عشر. ووصفها على هذا النحو يرجع إلى حقيقة أنه ما من متخصص فى الصحافة المكتوبة العربية لم يورد ذكرها، كما يرجع وبالأساس إلى الأدوار التى قامت بها أثناء عصر النهضة. من هذه الصحف والمجلات عدد ما زالت حتى الآن مطالعته ممكنة، حتى إن كان الوصول إلى هذا التراث الصحفى على قدر من الصعوبة والصدفوية خاصة فى دار الكتب بالقاهرة[2].

ويمكننا القول: إن التأخر فى مجال الصحافة نسبى جدا وسرعان ما يمكن تداركه بوصول سريع ومكثف للصحافة المكتوبة، حتى كأن المرء يضيع فى هذا

---

(١) لمزيد من المعلومات حول الصحف العربية التى ما زال ممكنا الرجوع إليها حتى يومنا هذا راجع أخون شوارب Akhoun- Schwarb ‏٢٠٠٣، ١٠٤ وديانا جريموود جونز Diana Grimwood- Jones وديريك هوبوود Derek Hopwood وجيمس دوجلاس بيرسون James Douglas Pearson ‏١٩٧٧، ص١٧، ٢٩٢. فى هذا المرجع الأخير انظر الصفحات من ١٠١: ١٢٢ وبتحديد أكبر ص١٠٣ – ١٠٥ "Lists of newspapers and journals" وهو مرجع يضم كل دفاتر البيان (الكتالوجات) والدراسات الأحادية وقوائم فهارس الصحافة العربية من نشأتها حتى ١٩٧٧. بعد هذا التاريخ راجع قائمة مراجعنا حول كافة الإصدارات عن الصحافة.

(٢) راجع عبد الله محمود إسماعيل ١٩٩٢ (١٩٦١-١٩٦٣) فهرست الدوريات العربية التى تقتنيها الدار. القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية ص٤٢٨.

العدد الهائل وغير المعقول من الإصدارات اليومية والأسبوعية والشهرية والنصف شهرية والنصف فصلية والفصلية[١]. هذا التزايد السريع للدوريات العربية صاحبته ظاهرة نوعية مهمَّة. كانت إصدارات الصحافة تتوزع ما بين "المجلة"[٢] أو "الجريدة"[٣]. غير أن التمييز بينهما كان واه، فالحدود بين هذين النوعين[٤] لم تكن قد تحددت بعد. لم تكن هناك معايير ثابتة، فقد كان كل شيء فى طور الخروج إلى الحياة، أو التكوين، أو التطور، ويتزايد بسرعة فائقة.

فى هذا السياق من الفورية والعجلة ونكاد نقول من أجواء السباق لتأسيس صحف: يجب أن نبقى فى الذهن بعض التواريخ الأساسية التى لم تنظم فقط عالم الصحافة؛ وإنما اضطلعت بدور فيه. من هنا ففى مصر كانت أول صحيفة غير الجريدة الرسمية "الوقائع المصرية" عام ١٨٢٨ هى جريدة "وادى النيل" عام ١٨٦٦، وقد تأسست بمبادرة من الدولة؛ أى مبادرة سياسية. ويمكن القول: إن الانعطاف الشديد الذى شهدته الصحافة كان أيضا ذا طبيعة سياسية؛ أى قادم من أعلى بما أن الصحافة المكتوبة المصرية لم تستعد الاهتمام بها إلا إبان حكم الخديو إسماعيل فقد كانت بين عصرى محمد على وإسماعيل قد كفت عن التقدم؛ وذلك على الأقل طبقا لإحصائيات المتخصصين؛ مثل: إبراهيم عبده، وعبد اللطيف حمزة، وخليل صابات، وأنور الجندى، وسامى عزيز، ويونان لبيب رزق، وآشيل

---

(١) راجع الملحق ٣: قائمة الصحف التى تم تأسيسها فى مصر فيما بين عامى ١٧٩٨ و١٩٠٣.

(٢) لمزيد من المعلومات عن المجلات راجع شلش ١٩٨٨، ص٣٣٤.

(٣) المسألة أكثر تعقيدا من ذلك وما نسوقه هنا ليس إلا تعريفا عاما على سبيل التقديم. فالمجلة إصدار دورى غالبا ما يكون شهريا أو فصليا ومضبرا يضم مجموعة الموضوعات التى تم تناولها فى الفترة المنصرمة. أما الجريدة فهى إصدار يومى ينشر إما بإشراف الحكومة أو لا يشمل نصوصا قانونية ولائحية ومعلومات منوعة ذات طابع رسمى أو على صلة مباشرة بالرسميات؛ مثل السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية... إلخ. باعتبار أنه فى ذلك الوقت كانت هذه المجالات تتداخل من نوع لآخر. الواقع إن إيقاع الصدور والحجم بقيا معيارى التمييز بين الصحيفة والمجلة.

أما المحتوى الخاص بكل منهما فى القرن التاسع عشر فى مصر لم يكن مختلفا بالقدر ذاته، وإن كان من حين لآخر هناك خطوط تؤخذ فى الاعتبار يمكن أن تثقل إحدى الكفتين.

(٤) من المهم التمييز بين أنواع الركائز الصحفية المختلفة (مجلة، صحيفة...) وبين الأبواب (المقال الافتتاحى، المقال السياسى، والاقتصادى، والأدبى، والقومى، والدولي) وبين أنواع الخطاب (المرجعى والخيالى والسردي) وهو أمر سنعود إليه لاحقا.

سيكالى، ولوى ماسينيون، وأندريه رقرى، وأديب مروى، وجابر عصفور وآخرين. جريدة واحدة شعبية حرة رأت النور فى مصر فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٤٨ و١٨٦٣؛ وهى جريدة إسكندر شلهوب التى تأسست فى البداية فى اسطنبول عام ١٨٥٧، ثم انتقلت إلى القاهرة عام ١٨٥٨. هل يمكننا اعتبارها أول جريدة حرة مصرية؟ أم أنها أول جريدة عربية تركية حرة؟ وهل كانت حقا حرة؟ فى رأينا هذه الجريدة بظهورها فى اسطنبول بمبادرة شخصية هى أول جريدة تركية لا أول جريدة مصرية. كما أن إسكندر شلهوب لم ينقل جريدته إلى القاهرة انطلاقا من منطقه الخاص؛ وإنما بناء على أمر السلطان الذى كان يطمح من خلالها مواجهة السياسة المصرية. من هنا فلا يمكننا اعتبارها حرة. على نقيض ذلك يراها إبراهيم عبده ضمن أوائل الصحف الحرة والشعبية فى مصر (وليست المصرية). ويبرر ذلك بكونها على الرغم من قيامها بناء على أمر السلطان فإنها كانت أول صحيفة تعارض الحكومة المصرية[١].

من هذا المنظور نكون أميل إلى القول: إن هذه الجريدة كانت أول جريدة إسلامية للمعارضة السياسية لا أول جريدة حرة شعبية فى مصر. أما أول صحيفة مصرية نصف حرة فهى صحيفة "وادى النيل" (١٨٦٦ ومالكها أبو السعود).

ما يمكننا أخيرا قوله ونحن فى هذه المرحلة من البحث: إن "نزهة الأفكار" وحدها (١٨٧٠) لصاحبيها إبراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال هى أول صحيفة مصرية حرة. وبالتالى فبين عامى ١٨٤٨ و١٨٧٠ لم تظهر إلى الوجود إلا هذه الصحف الحرة أو نصف الحرة. خلال هذه الفترة التى تمتد إلى اثنتى وعشرين عاما لم تزد على الصحف المشار إليها سوى صحيفة ("الجريدة العسكرية[٢]، ١٨٣٣، القاهرة") ومجلة ("الجريدة التجارية الزراعية[٣]، ١٨٤٨، القاهرة").

---

(١) عبده ١٩٤٥، ص٦١.
(٢) الجريدة العسكرية.
(٣) الجريدة التجارية الزراعية.

التواريخ الرئيسة فى بدايات الصحافة استنادا إلى كل ما سبق؛ هي:

• عام ١٨٢٨ الذى شهد ميلاد الجريدة المصرية الرسمية: "الوقائع المصرية".

• عام ١٨٦٥ الذى شهد عودة الصحافة المكتوبة الرسمية من خلال مجلات محمد علي: "البقلة"[١]، والكاتب إبراهيم الدسوقي: "اليعسوب"[٢] أو "يعسوب الطيب"[٣].

• عام ١٨٦٦ الذى شهد أول منعطف مع ظهور أول جريدة نصف حرة "وادى النيل" لمالكها أبو السعود.

• عام ١٨٧٠ الذى تحددت معه بدايات الصحافة الحرة بظهور "نزهة الأفكار" لإبراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال و"روضنة المدارس المصرية" لعلى مبارك[٤].

من هنا فتاريخ الدوريات فى مصر خاص جدا، فهو يبدأ بصحافة بلغة أجنبية وتحديدا الفرنسية، وبخطوات بطيئة يتجه إلى الصحافة الرسمية ثنائية اللغة (التركية والعربية). تطلب الأمر عشرين عاما بعدها لكى تفصح الصحافة عن نفسها بشكل واضح صارخ، ويتوالى ظهور الصحف المصرية الحرة والشعبية باللغة العربية بدءا من عام ١٨٧٠[٥]. وسط هذا التزايد والإقبال عليها كانت هناك أحداث ذات طابع سياسى غذت أحيانا انطلاقة الدوريات المصرية وتاريخها ونالت منها أحيانا أخرى. من هنا فإن عام ١٨٨٢، عام الثورة العرابية يشكل وقفة كاشفة وأساسية فى تاريخ الصحافة المصرية. بعد هذه الثورة التى كانت أسبابها ترجع إلى غضب شعبى عارم بالإضافة إلى استياء وعدم رضا من جانب الجيش تغير الموقف السياسى فى مصر بصورة جذرية.

---

(١) راجع الملحقين ٢ و٣ تباعا: عدد الدوريات العربية والأجنبية فى مصر فى الفترة من عام ١٧٩٨ حتى عام ١٩٠٣ وقائمة الصحف التى تأسست فى مصر بين عامى ١٧٩٨ و١٩٠٣.

(٢) الرافعي، ١٩٨٧ ص٢٤٨.

(٣) طرازى قسطاكى وعبده ١٩٥١.

(٤) راجع الباب الأول.

(٥) راجع الملحقين ٢ و٣ تباعا: عدد الدوريات العربية والأجنبية فى مصر فى الفترة من عام ١٧٩٨ حتى عام ١٩٠٣ وقائمة الصحف التى تأسست فى مصر بين ١٧٩٨ و١٩٠٣.

بعد أحداث هذه الثورة تذرعت المملكة المتحدة بحماية رعاياها الأوروبيين وتدخلت فى الثالث عشر من سبتمبر ١٨٨٢ وبقت بريطانيا العظمى سيدة الموقف فى المنطقة.

ومن ثم فقد أصبح اللورد كرومر القنصل البريطانى من ١٨٨٣ وحتى ١٩٠٧ مالك زمام البلاد الحقيقى رغم محاولة الاستقلال التى قام بها عباس حلمى الثانى (١٨٩٢ - ١٩١٤).

بقت إنجلترا على هذا النحو فى مصر حتى عام ١٩٥٥. وقد أدى قدوم اللورد كرومر الذى كثيرا ما تناولته الصحافة بالحديث كما سنرى، إلى تغيير جذر فى المشهد الصحفي. الحقيقة أن اللورد كرومر بمنظور استراتيجى منح الصحافة شيئا من الحرية. أضيف إلى ما كانت قد بدأت تحظى به منذ عام ١٨٨١ سنة صدور قانون حرية الصحافة(١).

واقع الأمر أنها كانت رقابة منظمة أكثر منها حرية حقيقية. بقراءة الصحف المصرية الصادرة فى نهاية القرن التاسع عشر نلحظ أن هذه الحرية كانت منظورا إليها كحرية محكومة ومحدودة ومنظمة. كانت هذه الحرية أشبه بمهرب أو منفذ وهمى، نوعا من الرقابة من خلال حرية مراقبة من أعلى، ولكنها كانت رقابة واحدة سارية على مصر كلها فى ذلك العصر.

من هنا رغم هذه الحرية المشطورة وربما بفضلها تزايدت الصحف. تطلب الأمر أن تتكيف سياسات النشر والمحتويات الصحفية مع القواعد الجديدة خاصة ما كان منها ينظم الوصول إلى مصادر المعلومات. كان هذا تاريخ نشأة الصحافة

---

(١) راجع كل المراجع الببلوجرافية التى تتناول الصحافة، أو حرية الصحافة خاصة رمضان عبد المجيد صادق ١٩٣٥ "تطور تشريعات الصحافة فى مصر" القاهرة، دار نشر د. فوتيادس وشركاه ص٢٩٦ وفؤاد محمود ١٩١٢ "نظام الصحافة فى مصر" باريس دار لاروزايه تينان ص١٢٣. وهما كتابان مخصصان بالكامل لدراسة حرية الصحافة وتشريعاتها وقانون ١٨٨١. وأخيرا كتاب شلبى محمد فهرى ١٩٨٧ عن الصحف العربية فى باريس: وهى دراسة تاريخية اجتماعية Les journaux Arabes de Paris 1859 - 1919 - Lille تقع فى ص٤٧٨. راجع فى هذا الكتاب النقاط الخاصة بالنظام القانونى للمنشورات الأجنبية فى فرنسا ص١١٥ - ١٢٢.

العربية المكتوبة فى مصر وإرهاصاتها. ولكن ماذا عن مسارها السياسى والاجتماعى والثقافي؟ وعن مكوناتها وعن الأحداث المهمّة فى مسارها والأدوار التى اضطلعت بها فى مصر فى القرن التاسع عشر، قرن "حضارة الجريدة"(١).

٢- مراحل تطور الصحافة المكتوبة فى مصر

"تصبح الصحف ضرورية أكثر كلما أصبح الرجال أكثر مساواة وأصبحت الفردية يخشى جانبها، وبالتالى فالاعتقاد أنها لا تستخدم إلا لضمان الحرية يقلل من أهميتها: فهى حافظة للحضارة"(٢).

من هنا يمكننا القول: إن تاريخ الصحافة المكتوبة ينبثق عن تاريخ الحضارة؛ وهى إذن حضارة صغيرة فى رحم الحضارة الشاملة(٣). بعد هذا التناول السياقى الشامل للصحافة.

المطلوب هنا تحديدا موقع إبراهيم المويلحى ومعاصريه على مدى تاريخ الصحافة المكتوبة. لما كانت أغلب كتابات إبراهيم صحفية من الضرورى معرفة موقعها عبر تاريخ الصحافة المصرية، وتحديد العلاقات والروابط التى كانت تجمعها بكتابات معاصريه أو تفصلها عنها. ومعرفة ذلك يتم بصفة خاصة بهدف إثبات الكيفية التى شكلت بها الصحافة العربية المكتوبة شبكة فكرية وساهمت فى تكوين تصورات ثقافية بالتأكيد، ولكن تصورات اجتماعية واقتصادية وأدبية أيضا؛ أى إجمالا فى تكوين الفكر العربى الحديث.

حتى تتحقق فكرة بيان الكيفية التى شاركت بها الصحافة المكتوبة فى إرساء العقلانية العربية بين ما هو داخلى المنشأ وما هو خارجى المنشأ، وبالتالى فالتأثيرات المتباينة المتبادلة بين الصحافة المكتوبة والأدب العربى الحديث ستكون لهذا الغرض روابط إشارية.

---

(١) خليفة وفايون Kalifa et Vaillant ٢٠٠٤ ص٢١٢.
(٢) توكفيل Tocqueville ١٨٩٧.
(٣) يتعلق الأمر هنا لا بالحضارة باعتبارها حجة سياسية، أو مفهوما أوروبيا للعصر، ولكن بالحضارة التى يعبر الفلاسفة عنها بقولهم: "الإنسان سياسى بطبيعته؛ أى إن المجتمع أو طبقا لمصطلحاتهم المدنية أمر ضرورى بالنسبة إليه. هذا هو معنى الحضارة". (ابن خلدون ٢٠٠٢ ص٢٦١).

لنر إذن السياق الصحفى لإبراهيم المويلحى ومعاصريه؛ أى الأشكال اتخذت الصحافة؟ فى أى إطار تطورت وشاركت فى النهضة.

سبق أن رأينا أنه على الرغم من وصول الصحافة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ فإنه لم تظهر الصحافة العربية إلى الوجود باللغتين العربية والتركية (العثمانلى) إلا عام ١٨٢٨ بصدور "الوقائع المصرية". اعتبارا من عام ١٨٧٠ عرفت الصحافة فى مصر انطلاقة مع صدور "وادى النيل" أول صحيفة مصرية نصف حرة و"نزهة الأفكار" أول صحيفة مصرية حرة.

وصلت الصحافة المصرية المكتوبة إلى قمة ازدهارها خلال السنوات من ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠؛ وهى الفترة التى ظهرت فيها ولمعت الصحيفة الوحيدة المطولة "مصباح الشرق" لصاحبها إبراهيم المويلحي. وهذا يجعلنا نقول: إن إبراهيم المويلحى كان فى قلب تاريخ الصحافة المصرية المكتوبة خلال القرن التاسع عشر.

نخلص من ذلك إلى أن تاريخ الصحافة المكتوبة فى مصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كان بشكل خاص رسميا، وبعبارة أخرى تابعا للدولة. ولكن بشيء من إمعان النظر نجد أنه لم يكن هناك إلى هذا الحد صحف رسمية. ففيما عدا الجريدة الشهيرة "الوقائع المصرية" لم يكن هناك وفقا لرأى إبراهيم عبده وكل المتخصصين فى الصحافة العربية إلا جريدة واحدة أخرى رسمية فى مصر عام ١٨٦٥ أسست بمبادرة من الخديو إسماعيل وهي: "الجريدة العسكرية المصرية"[١]، بالإضافة إلى جريدة أخرى هي: "جريدة أركان الجيش المصري"[٢] (١٨٧٣) التى لم تكن توزع إلا على الجنود والعسكريين المصريين[٣]. هذه الجريدة الرسمية ذات الجمهور المحدود "لم تكن فقط جريدة علمية رسمية؛ وإنما كان يوجد بها فصول مكرسة للمفاهيم القومية"[٤]. جاء بعد ذلك تأسيس "ديوان المدارس"

---

(١) الجريدة العسكرية المصرية. راجع عبده ١٩٤٥ ص٤٨.
(٢) جريدة أركان الحرب المصرية.
(٣) راجع عبده ١٩٤٥ ص٥٠.
(٤) "جريدة أركان حرب ليست صحيفة علمية عسكرية فقط، بل فيها من المعانى الوطنية فصول" عبده ١٩٤٥ ص٥٠.

بمبادرة خديوية[١] واضطر إسماعيل على غير رغبة منه بتقديم تقرير عن أنشطة المدارس التى كانت تظهر بشكل منتظم خلال هذه الفترة إلى جانب الترويج للغة العربية بفرضها كلغة للديوان. لكن على الرغم من كل هذه النوايا الحسنة، فإنه لم ينجح الديوان فى الوصول إلى الأهداف التى كان ينشدها الخديو إسماعيل. عندئذ أوكل المهمة إلى على مبارك الذى أخذ عنه الشعلة وأسس من أجلها جريدته التى اعتبرت واحدة من أوائل الصحف المصرية الحرة. كان الهدف من "روضة المدارس المصرية" هو نشر اللغة العربية وتقديم ما يثبت ويشهد على وجود تقدم فى مجال التعليم الحديث والعلم فى مصر. هذه الحلقة الأولى فى الصحافة المصرية المكتوبة، حلقة مرحلة الدولة أو المرحلة الرسمية استمرت من عام ١٨٢٨ حتى عام ١٨٧٠ فيما يتعلق بالصحافة المكتوبة باللغة العربية وفى خط مواز لها استمرت من ١٧٩٩ وحتى ١٨٧٠ فيما يتعلق بالصحافة الأجنبية المستقرة فى مصر.

نخطئ تماما فى رأى إبراهيم عبده إذا ما اعتبرنا أن هذه الصحافة الرسمية كان لها تأثير مباشر على الرأى العام، ولكنها فى عرفه قد ساعدت بشكل غير مباشر فى شحن الأفكار، وعلى تثقيف الأذهان، وعلى تنوير الفكر وتأجيج الانتباه[٢].

من هنا فإن المتخصصين العرب فى الصحافة المكتوبة يعتبرون أن الصحافة الرسمية قد ساهمت بشكل غير مباشر فى توسيع دائرة القراء؛ لتصبح أكبر من نطاق العلماء. ويمكن القول فى نهاية الأمر: إن هناك إجماعا على أنه على الرغم من الإطار المتعلق بالدولة فإن الصحافة الرسمية لم يقل إسهامها فى تكوين الصحفيين المصريين الشبان وعلى رأسهم الطهطاوى وعلى مبارك. أما الرأى العام فقد كان أقل تأثرا بالصحافة الرسمية منه بالصحافة الناشئة عن مبادرات خاصة.

(١) مكتب أو ديوان المدارس.
(٢) "لا يستطيع مؤرخ الصحافة المصرية أن يزعم للصحافة الرسمية أثرا مباشرا فى توجيه الرأى العام أو خلقه، بيد أنه يستطيع أن يجزم أن هذه الصحافة عاونت على تهيئة الأفكار، وتثقيف العقول، وتنوير الأذهان، ولفت النظر". عبده ١٩٥٥ ص٥٦.

كما ساهم التاريخ الاستعماري آنذاك وقدوم الفرنسيين (١٧٩٨)، ثم الإنجليز (١٨٨٢) في تكوينه. هناك، وفقا لعبد اللطيف حمزة عوامل أخرى أثرت فيه منها سلطوية الحكومة المصرية، والعلاقات التصادمية بين الخديو والسلطة المركزية العثمانية(١). ويدعم رأيه هذا مرتكزا على هذا الاستشهاد المأخوذ من صحيفة "لوبروجريه إجيبسيان"(٢):

"إن المصريين بدءوا يهتمون بالسياسة، فإنهم بدءوا يترقبون الأخبار الواردة من الآستانة ويعلقون عليها وإن الرأى العام بدأ يتكون في مصر"(٣).

يعد من بين العوامل التى أدَت دورا في تكوين الرأى العام في مصر، تأسيس مجلس النواب الذى ظهرت فكرة تكوينه عام ١٨٦٣ ولم تدخل إلى حيز التنفيذ إلا عام ١٨٧٦. وقد شجعت النخبة على أخذ الكلمة والتعبير عن آرائها. ويمكننا أخيرا إضافة الاحتكاك بأوروبا الذى شجع على التساؤل، وبالتالى على إبداء الرأى في هذا الغرب الذى كان العرب يتوقون لمعرفته وفهمه بشكل أفضل. وقد أوصلهم ذلك إلى معاودة التفكير في أنفسهم والتساؤل عن أحوالهم. الواقع أن مرآة الآخر تعكس صورة الذات. من هنا فإن السؤال عن الهوية يحتل بؤرة الاهتمام. من هنا يمكن القول: إن تاريخ الصحافة الرسمية كان إجمالا "مدرسة للتعليم والتثقيف"(٤) وأنه كان النهج الأول الذى سمح بتنمية صحافة المبادرات الخاصة. لم يستمر الأمر إلا بضعة أعوام مع ثلاث صحف في الفترة من ١٨٢٨ وحتى ١٨٧٠ غير أنها شكلت

---

(١) حمزة، ١٩٥٠ – ١٩٦٣ الجزء الأول ص١٢.

(٢) التى تأسست في مصر ولا يجب الخلط بينها وبين الصحف الأخرى التى تحمل الاسم ذاته، وتأسست في تاريخ لاحق. يؤرخ الكاتب من ناحيته نشأة هذه الجريدة في عام ١٨٦٩. أما نحن فنتمسك بتاريخ ١٨٦٨ الذى اتفق عليه إبراهيم عبده، جول مونييه J. Munier واشنطن – سرويز W. Serruys، وهارتمان Hartman ولوتى Luthi. نلفت النظر أخيرا إلى أن الأمر يتعلق بمقطع من العدد الصادر في ٥/١٢/١٨٦٩؛ أى شهر ديسمبر ١٨٦٩ أما اليوم فمحل خلاف وبالتالى رقم العدد والمقال والصفحة والعمود أيضا لكونها غير مذكورة (وهو ما يمثل مشكلة أبحاث ذلك العصر التى كانت تنقصها التفاصيل الببلوجرافية). راجع حمزة ١٩٥٠ – ١٩٦٣ الجزء الأول ص١٣ رقم ٢.

(٣) حمزة، ١٩٥٠ – ١٩٦٣ الجزء الأول ص١٣.

(٤) "كانت الصحافة في عمومها مدرسة للتعليم والتثقيف" عبده، ١٩٤٥ ص٥٥.

أحد جوانب القضية. أما عام ١٨٧٠ فقد سجل مقدم الصحافة الحرة الشعبية إلى مصر. قدمت هذه الصحافة مع أول صحيفة "نزهة الأفكار" التى أصدرها كل من إبراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال؛ وهى دورية من خلال عددين سجلت بداية تاريخ الصحافة المصرية الحرة.

ذكر إبراهيم عبده أنها كانت مقدمة وتمهيدا للشروط الملائمة لمقدم صحافة شعبية حرة[١]. وأضاف أن: "الصحافة الحرة فى مصر لم تبدأ شعبية ولا رسمية مع صحيفة "وادى النيل"، ثم تخلصت من صبغتها الرسمية وأبقت على طابعها الشعبى والحر مع صحيفة "نزهة الأفكار"[٢] وهو ما يؤكده عبد اللطيف حمزة أيضا (راجع ١٩٥٠ - ١٩٦٣ الجزء الأول ص٦٢). أضيفت إلى هذه الصحيفة صحيفة أخرى مالكها على مبارك؛ وهى "روضنة المدارس المصرية" عام ١٨٧٠ التى لم تكن حرة وشعبية بدرجة كبيرة كما بدت فى البداية، ربما جاز لنا القول إنها كانت نصف حرة؛ مثل: "وادى النيل".

من هذا النوع النصف حر من الصحافة يمكننا أن نذكر مجلة "السلطانة" لإسكندر شلهوب.

نلاحظ إذن أنه بعد المرحلة الرسمية تماما للصحافة جاءت مرحلة نصف حرة؛ أى وسط بين الحرة والرسمية اتسمت بصحف كانت فى بداية الأمر ناشئة، بناء على مبادرات خاصة، ولكن سياساتها لم تلبث أن أصبحت أشبه بسياسة الحكومة، مما يجعلها لسان حال مصالحها ومضطلعة بالدعاية لها. فى الواقع أنه لم ينتم إلى الصحافة الشعبية الحرة إلا تلك التى نشأت بمبادرات بالفعل خاصة ولم تكن بأى شكل من الأشكال منشأة للتعبير عن اتجاه رسمى أيا ما كان. من هذه الصحف نذكر:

---

(١) "كانت نزهة الأفكار تمهيدا وتهيئة للظروف الملائمة لصدور صحافة شعبية حرة". عبده، ١٩٤٥ ص٦٧.

(٢) "بدأت الصحافة الحرة فى مصر، لا هى شعبية ولا هى رسمية فى جريدة وادى النيل ثم تخلصت من رسميتها وظلت على سجيتها شعبية حرة فى نزهة الأفكار". عبده ١٩٥٥ ص٦٦.

• "النحلة" (١٨٧٠/ ١٨٧١ – لويس صابونجي)؛ وهى مجلة علمية سياسية جدلية.

• "كوكب الشرق" (١٨٧٣، سليم حمودي) صحيفة سياسية يومية.

• "روضة الأخبار" (١٨٧٥، محمد أنسى) للمعلومات السياسية.

• "الأهرام" (١٨٧٥، سليم وبشارة تقلا) صحيفة أسبوعية للمعلومات السياسية والتجارية ذات ميول فرنسية فى البداية، ثم مصرية.

• "شعاع الكوكب" (١٨٧٦، سليم حمودي).

فى حين أمكننا رصد ثلاث وعشرين صحيفة عام ١٨٧٠ وجدنا أنه فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٢٨ و١٨٦٩ لم تتأسس سوى سبع صحف. لن نقوم بالطبع هنا بعمل قائمة بكل الصحف التى عرفتها مصر على مدى القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين.

وتحديدا عام ١٩٠٣[١]. سوف نذكر بعضا منها خاصة أكثرها تمثيلا لكل مرحلة من تاريخ الصحافة العربية المكتوبة. أما عن تقسيم هذه الفترة التاريخية إلى فترات صغيرة لدراسة تطورها، فقد أوقفناه عند عام ١٩٠٣ وليس عام ١٩٠٠ ذلك أنه فى هذه السنة ترك إبراهيم المويلحى جريدته "مصباح الشرق" وبدأ فى الإقلال من الكتابة (راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة "g"). من هنا فإلى الصحف التى سبق لنا ذكرها يمكننا إضافة:

• "أبو نضارة زرقاء" (١٨٧٧، يعقوب صنوع) أسبوعية، فكاهية، سياسية (أول دورية مصرية من هذا الطراز الصحفي).

• "مصر" (١٨٧٧، سليم نقاش وأديب إسحاق) أسبوعية، سياسية.

• "القاهرة الحرة" (١٨٧٨، سليم فارس الشدياق) نصف أسبوعية سياسية.

---

(١) راجع الملحقين الثانى والثالث على التوالي: عدد الدوريات العربية والأجنبية فى مصر بين عامى ١٧٩٨ و١٩٠٣، وقائمة الصحف التى تأسست فى مصر فى الفترة الواقعة بين عامى ١٧٩٨ و١٩٠٣.

• "مرآة الشرق" (١٨٧٩، سليم أنحورى) نصف أسبوعية سياسية علمية وأدبية.

• "المحروسة" (١٨٨٠، سليم نقاش) دورية سياسية وتجارية يومية (خمسة أيام أسبوعيا).

• "العصر الجديد" (١٨٨٠، سليم عباس الشلفون) أسبوعية سياسية

فى عام ١٨٨٠ أوقفنا ما أسميناه أولى الفترات الكبرى فى الصحافة الحرة. وقد عرفت هذه الصحافة فترتين أخرتين أولاهما تقع عام ١٨٨٠ وثانيتهما فى العقد الواقع بين عامى ١٨٩٠ و١٩٠٠. فى داخل هذه الفترات الكبرى الأربع[١] يقدم تاريخ الصحافة العربية فى مصر نفسه فى أبحاثنا فى سبع مراحل:

- المرحلة الأولى (١٧٩٨ – ١٨٢٧):

ظهور أول جريدة أجنبية فى مصر؛ وهى أول واحدة فى الصحافة المصرية الأجنبية.

• ١٧٩٨ "لوكوربيه دولچيبت".

- المرحلة الثانية (١٨٢٨ – ١٨٦٥):

ظهور أول جريدة مصرية؛ وهى أول واحدة فى الصحافة الرسمية المصرية .

• ١٨٢٨ "الوقائع المصرية".

- المرحلة الثالثة (١٨٦٦ – ١٨٦٩):

ظهور الصحافة المصرية نصف الرسمية / نصف الحرة.

• ١٨٦٦ "وادى النيل".

---

(١) هذه الفترات سيتم استعراضها لاحقا (راجع ص١٧٢). لنبق فى الذهن الآن أنها مقسمة على النحو التالي:
الفترة الأولى (١٨٢٨ – ١٨٦٥): التأسيس والتكوين.
الفترة الثانية (١٨٦٥ – ١٨٩٠): الانتعاش واللهاث.
الفترة الثالثة (١٨٩٠ – ١٩٠٠): استعادة القوة والازدهار.
الفترة الرابعة (الصحافة الجديدة).

- المرحلة الرابعة (١٨٧٠ – ١٨٧٧):

ظهور الصحافة المصرية الشعبية الحرة القائمة على مبادرات خاصة.

(أول مراحل الحرية[١]: النشرة المحكومة لبدايات الصحافة).

- ١٨٧٠ "نزهة الأفكار".

- المرحلة الخامسة (١٨٧٧ – ١٨٧٩):

ظهور صحافة المعارضة وأول أزمة فى الصحافة المصرية الحرة.

(ثانى مراحل حرية الصحافة: تملص الصحافة من الرقابة).

- ١٨٧٧ "نشأة صحافة المعارضة".
- ١٨٧٩ "أول أزمة فى الصحافة الشعبية الحرة.

- المرحلة السادسة (١٨٨٠ – ١٨٨٨):

ظهور قانون الصحافة فى مصر.

(ثالث مراحل حرية الصحافة: صحافة تحت التحكم).

- (١٨٨١)، أول قانون للصحافة ونشأة الصحافة الشعبية الحرة الرافضة (المعارضة للتدخل الأجنبي).

- المرحلة السابعة (١٨٨٩ – ١٩٠٣):

ظهور الصحافة المصرية الكبرى فى القرن التاسع عشر

(رابع مراحل الحرية: العصر الذهبي).

- ١٨٨٩ استعادة الصحافة المصرية الشعبية الحرة لقواها.
- (١٨٩١) نهضة الصحافة الشعبية الحرة وانتعاشها.
- (١٨٩٨) ازدهار تاريخ الصحافة المصرية فى القرن التاسع عشر.

---

(١) فى خط مواز لمراحل الفترات الكبرى، عرفت الصحافة العربية المكتوبة مراحل ثانوية نذكر منها هنا مرحلة تاريخ حريتها.

٣- تحول الصحافة المكتوبة فى مصر وتطورها:

تعد حرية الصحافة كما رأينا واحدا من المحاور الرئيسة فى تاريخ الدوريات فى مصر فى القرن التاسع عشر. فعلى مدى القرن التاسع عشر مرت الصحافة بعدة أطوار: فمن الصحافة الرسمية إلى نصف الرسمية ونصف الحرة فالصحافة الحرة وأخيرا المستقلة.

من العوامل التى ساهمت فى ظهور وتطور الصحافة المصرية المكتوبة الشعبية والحرة نذكر:

- وصول الطباعة إلى مصر عام ١٧٩٨.
- مبادرة محمد على لصالح الطباعة والصحافة والترجمة (١٨٢٨ – ١٨٤٨).
- سياسة الخديو إسماعيل تجاه الصحافة (١٨٦٣ – ١٨٧٠).
- وصول الأفغانى إلى مصر ١٨٧١.
- الحرب الروسية – التركية ١٨٧٧ – ١٨٧٨.
- الحكم الثنائى الفرنسى – الإنجليزى فى مصر ١٨٧٧.
- ثورة عرابى (١٨٨١ – ١٨٨٢).
- الاحتلال الإنجليزى (١٨٨٢).

تكون خلال هذه السنوات تدريجيا وعى بالذات وبالعالم ومعه وعى بالذات نسبة إلى العالم. بفضل سليم حمودى، ومحمد أنسى، وسليم وبشارة تقلا، ويعقوب صنوع، وسليم نقاش، وأديب إسحاق، وفارس الشدياق، وسليم أنحورى، وسليم عباس الشلفون، وإبراهيم المويلحى، ومحمد عثمان جلال، والعديد من الصحفيين الذين عملوا فى الفترة من ١٨٧٠ وحتى ١٨٨٠ سمحت الصحافة الشعبية المصرية. بالوصول إلى الأخبار والمعلومات القومية والدولية إلى هذا الجزء من الشعب الذى يستطيع القراءة. هذا ليس كل شيء، ففى ذلك الوقت كانت القراءة العامة[1] شائعة

(١) "أما الكهول والشيوخ والشبان الذين لم يدخلوا المدارس فهؤلاء إنما سيقوا إلى المطالعة بحكم الميل إلى استطلاع ما تكتبه الجرائد من المناظرات العنيفة. وقد ظهر ذلك جليا أثناء الحرب =

فى المقاهى والمحال وحتى فى الصالونات الخاصة والعائلية. استطاع المصريون من الشيوخ إلى الفلاحين الوصول اعتبارا من ١٨٧٠ إلى المعلومات والأخبار التى تناقلتها الصحف؛ ومن ثَمّ فقد وعوا وأدركوا بعض المجازفات؛ مثل: الحرب الروسية – التركية. تماهوا مع العالم باعتبارهم فى ولاية من الإمبراطورية العثمانية تهاجمها كل من أوروبا وروسيا كانت هذه الحرب الروسية – التركية (١٨٧٧ – ١٨٧٨) أول حدث خارجى من هذا النوع وهذا المدى احتك به المصريون. كان بالنسبة باعتباره أول موضوع عثماني.

أول حدث دولى يلمسهم بشكل مباشر ولم تتوان الصحافة عن إبراز طابعه القومي. من بين صحف هذه الحقبة ثلاث اهتممن عن قرب بهذه الحرب: "الوطن" لميخائيل عبد السيد، و"مصر" لأديب إسحاق وسليم النقاش، و"الأهرام" للأخوين تقلا، تصدرت الحرب أخبار هذه الفترة حتى إن "الأهرام" طبع ملحقا بعنوان: "حقيقة الأخبار"[(١)] جمع فيه وترجم البرقيات التى كان قادرا وحده على الوصول إليها.

"لم يكن للحرب الروسية التركية من فضل فى تطور هذه الصحف ونقلها إلى جو من الحرية فحسب، بل كان لها فضل آخر؛ وهو أن هذه الصحافة أخذت على عاتقها وظيفة الدفاع عن الشئون المصرية الدولية؛ وبذلك شاركت الصحافة المصرية"[(٢)].

= اليونانية الأخيرة؛ إذ كانت الجرائد تتسابق فى نشر أخبارها والناس ينتظرون ما تقوله على اختلاف أحزابها، ونظرا لشدة لهجتها فى أقوالها كانت العامة أكثر ميلا إلى مطالعتها من الخاصة، فكنت ترى ساقة العربات، وخدمة المنازل، وسائر الباعة يبذلون الدرهم فى ابتياع تلك الصحف ومن لا يحسن القراءة منهم ابتاع صحيفة وكلف أحد المارة قراءة أهم تلغرافات ذلك اليوم، وما تقوله الجرائد بعواقب تلك الحرب، فكثير ما كنا نشاهد الخدمة، أو ساقة الحمير وغيرهم ممن لا يقرءون مجتمعين حول واحد يقرأ وهم يسمعون، وكانت شوارع القاهرة وغيرها من مدن القطر غاصة بمثل ذلك فربما بيع من بعض الجرائد اليومية ألفان أو أكثر فى اليوم بمصر القاهرة وحدها (ما عدا الاشتراك) أما القراء فربما بلغ عددهم مائتى ألف؛ لأن النسخة الواحدة من الجريدة تتناقلها الأيدى فيقرأها عشرة أو عشرات من الناس". راجع فى هذا الصدد، على سبيل المثال، الهلال (المجلد السادس السنة السادسة، العدد الرابع ١٨٩٧/٧/١٥ ص١٣٠-١٣١).

(١) "لاڤيريتيه ديزيڤنمان" حقيقة الأخبار "La Vérité des Evènements".

(٢) راجع عبده ١٩٥٥ ص٧٧.

فى الوقت ذاته، شاركت الحكومة المصرية ذاتها فى انطلاقة الصحافة "بغض الطرف عما أخذت تنشره الصحف من آراء فى الحرية والاستقلال، وشهدت البلاد فترة من فترات التمتع بالحرية الصحفية"(١).

فى هذا الإطار الخاص ببدايات المعارضة المصرية الرافضة بصفة خاصة للتدخل الإنجليزي- الفرنسى كان خطاب زعيم المعارضة عبد السلام المويلحي:

"اجتمع فى العاشرة من صباح الخميس الموافق الثانى من يناير عام ١٨٧٩ مجلس النواب فى قصر القلعة، وقد أطلقت المدافع احتفاء به. وهذا التاريخ مهمّ فى تاريخ الحركة الدستورية لهذا المشهد الجامع للبرلمان مع المعارضة.

للرد على ما جاء بخطاب العرش توجه عشرة أعضاء إلى قصر عابدين، ووسط حشد من الأمراء والباشوات والكبار قام زعيم المعارضة القادم عبد السلام المويلحى بقراءة الرد التالي:

"نشكر نحن ممثلو الأمة المصرية، المدافعون عن حقوقها ومصالحها، التى تعد فى الوقت ذاته مصالح الحكومة صاحب السمو الخديو لموافقته على جمع مجلس النواب أساس كل تقدم وحارس كل مشروعية.

نشكر لسموه أيضا تشكيله لوزارة مسئولة تدعم المجلس، فقد أوكل للمجلس المالية والأشغال العامة ومسائل أخرى، من أجل الحفاظ على حقوق الأمة ومصالح الحكومة.

"أحيا خطاب سموه فينا روح الأزمان الجديدة، وأنعش آمال هذه الأمة التى تطمح إلى استعادة قدرتها وقوتها، واسترداد مجدها التليد"(٢).

---

(١) راجع سامى ١٩٦٨ ص١٨.
(٢) صبرى، ١٩٣٣، ص٣٤١.

وضع الأفغانى على كل ذلك بصمته بالمشاركة فى إعداد نخبة من مريدى فكره ومبادئه، كما أنه أكثر من ذلك قد شجع البعض على تأسيس صحف منها: "أبو نضارة" عام ١٨٧٧ ليعقوب صنوع، و"مصر" عام ١٨٧٧ لأديب إسحاق، و"مرآة الشرق"[١] ١٨٧٩ لسليم أنحوري[٢]. وبالتالى فقد تبلورت أعمال الأفغانى خلال السنوات من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩ وحاولت مبادرة المعارضة السياسية المويلحية التعبير عن ذاتها. أما الصحف فقد لعبت دور الناقل. من هنا فعام ١٨٧٩ عُد:

"بداية تحرك وبشكل ما عمل الماسونية التى لعبت دورا فى الحركة خلال العامين الأخيرين. لخشيته تسلط إسماعيل وطغيانه على الدعاية السياسية التى كان يرغب فى الشروع فيها، اتصل جمال الدين بالماسونية الإيطالية واتفق معها لتأسيس "الشرق الكبير" التى قبل فيها عام ١٨٧٨ صحفيين سوريين ومصريين؛ مثل: إبراهيم اللقانى، وأديب إسحاق، وسليم نقاش، وعبد السلام المويلحى ورئيس مجلس النواب والضابطين اللذين روجا للفتنة وأثارا الهياج الشعبى لطيف سليم وسعيد نصر وآخرين"[٣].

نلاحظ إذن أن مجمل الأعمال المويلحية كانت أساسية ومكونة لتاريخ النهضة المصرية والعربية. من هنا نرى أن الانطلاقة مكونة من مبادرات فردية صنع مجملها أساس النهضة التى كانت الصحافة الناقل عنها على مدى القرن التاسع عشر حتى حين بدأت حريتها تصبح هدفا للسلطات. عبرت صحيفة التايمز المصرية عن رأيها ونقلت إلينا أن:

"أدت الأحداث قريبة العهد إلى نتائج غريبة فى مصر. لم يؤد الدعم الأجنبى الممنوح لإعادة البلاد إلى الحياة إلا إلى نشأة الحزب الوطنى المعارض بوضوح لكل حكومة من الخارج والعامل صراحة لمصر

---

(١) لمزيد من المعلومات حول هذه الصحيفة راجع عبده ١٩٥٥ ص٧٩ العدد ١.
(٢) لمزيد من المعلومات حول مساهمة الأفغانى وتأثيره فى انطلاقة الصحافة الشعبية الحرة فى مصر، راجع عبده ١٩٥٥ ص٧٨ – ٧٩، سامى ١٩٦٨ ص٢٠-٢٣ وحمزة ١٩٥٠ – ١٩٦٣ الجزء الأول ص٢٩-٣٢.
(٣) صبرى ١٩٣٣ ص٣٤٩.

والمصريين. تزعم الخديو الحزب وسانده مجلس الأعيان وأيده العلماء. حقق هذا الحزب درجة من النجاح بين أفراد الشعب، جعلته يجمع أهم وأغلب المواطنين حول الخديو فى مواجهة التدبير الإنجليزى – الفرنسي.

وسرعان ما تغير الموقف. اختار الخديو إسماعيل أن يستخدم الصحف ضد القوى الأوروبية، التى كان لديه معها خلافات ومشاكل مادية بالدرجة الأولى ويمنح الصحافة متسعا من الحرية، كان هدفه أن يخدم الأجانب وأن يقوموا فى المقابل بعمل المثل، غير أنه لم يكن يعرف أن الأمر سينقلب ضده. استشعر الخديو إسماعيل نفسه بين الضغوط الأوروبية الفرنسية والإنجليزية من ناحية وضغوط الإمبراطورية العثمانية من ناحية أخرى معزولا، وقد قام السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٨٧٩ بعزله. خلفه فى الحكم ابنه توفيق باشا (١٨٥٢ – ١٨٩٢) الذى استمر حكمه من ١٨٧٩ حتى ١٨٨٢. غير أن السلطان تأخر قليلا فى تكليفه رسميا مما جعل الصحافة المصرية تطالب بالاحتفال بتوليه الحكم فى أقرب فرصة. نالت هذه المطالبة استحسان توفيق باشا وتقديره مما جعل منه صديقا مقربا للصحافة. غير أن الباب العالى لم يتفهم الأمر على هذا النحو ورأى فى الأمر فرصة سانحة لاستعادة بعض المزايا التى سبق له منحها لمصر واستغل مع الفرصة طموحات فرنسا وإنجلترا اللتين كانتا تبحثا فرض رقابة مزدوجة فرنسية – إنجليزية على مصر. أما الشعب فكان يأمل الكثير من الخديو الجديد خاصة وأنه كان من المدافعين والمشجعين على وجود دستور ومن المؤيدين لحركة الإصلاح. هذا غير أنه كان عضوا فى المحفل الماسوني. (حلقة الماسونية التى كونها الأفغانى عام ١٨٧٧)[١]. كانت خيبة الأمل كبيرة، فتحت تأثير الرقابة المزدوجة الفرنسية – الإنجليزية والضغط العثمانى اضطر توفيق باشا إلى طرد الأفغانى من مصر فى الرابع والعشرين من أغسطس ١٨٧٩ ووجدت الصحافة نفسها مجبرة على نشر خبر الاستبعاد. امتثلت كل الصحف لهذا الأمر ما عدا صحيفة "مرآة الشرق" (١٨٧٧، أنحوري)[٢]؛ وهى التى آنذاك كانت لسان حال الحزب الوطني[٣] أمر توفيق باشا بإيقاف صدور الصحيفة لمدة خمسة أشهر. لاح عصر جديد فى الأفق. كانت

---

(١) راجع رشيد رضا ١٩٣١ ص٤٠-٤١.
(٢) سامى، ١٩٦٨ ص٣٥.
(٣) عبده، ١٩٥٥ ص٧٩ رقم ١.

الصحافة قد بدأت في التعبير عن الموقف الاجتماعي وتقديم شهادتها بشأنه. ووضع في جدول الأعمال ظلم الخديو حيال الفلاحين الذين تم تجريدهم من أراضيهم. كانت رؤى إنجلترا بشأن مصر موضوعا ينذر بالانفجار. وقد أعطى ذلك كله للنواب المصريين دورا إرشاديا مما جعلهم أشبه "بالمصابيح في ظلمات الأحوال"[١] استغلت الصحف فرصة هذا التغيير في الحكومة لفضح مساوئ الحكومة الساقطة خاصة ما تعلق منها بالضرائب العقارية. "هذه التطورات في حياة مصر الداخلية امتحانا لصحافتها وشاهدا لنضجها"[٢].

هذه اللعبة التي وضعت الحكومة المصرية الجديدة قواعدها التي تدفع فيها الصحافة لقول السوء عن الحكومة السابقة لم تلبث أن انقلبت لغير صالحها. أضحت هذه الحكومة الجديدة هدفا للصحافة التي انطلقت في تبيان أنها أسوأ من سابقتها. كان من بين من عبروا عن أنفسهم في هذا الاتجاه العسكريون الذين كانت أغلبية منهم محالة إلى المعاش تستشعر هذا الظلم مضاعفا؛ لوجود نكران لكل ما أسدوه من خدمات للأمة. أعلنت النتيجة بشكل علني عن طريق صحيفتي "التجارة" (عدد من الثمانية أعداد الصادرة بتاريخ ١٨٧٩/٣/١٣) و"التايمز" (العدد ١٦ بتاريخ ١٨٧٩/٤/٢٨). تركز خطاب كل منهما على وحدة الحكومة والشعب في برلمان يمثل الأمة كل التمثيل[٣]. كان الهدف "أن تكون مصر للمصريين وحدهم"[٤] في هذا السياق البركاني، لم تنس الصحف المصرية الدفاع عن قضيتها، ومن ثم فضحت وكشفت الفروق بين حقوق الصحف الوطنية وحقوق الصحف الإفرنجية أو الأجنبية. وبالتالي نشب خلاف بين الصحافة القومية والحكومة المصرية وتحديدا صحيفة "الأهرام"، كما احتدم الصدام بين الصحافة الأجنبية ونخص هنا صحيفة "لاريفورم" (الإصلاح)[٥] والحكومة نفسها.

---

(١) "التجارة" العدد الصادر في ١٨٧٩/٢/٥. راجع عبده ١٩٥٥ ص٨٨.
(٢) راجع عبده ١٩٤٥ ص٨١.
(٣) راجع عبده ١٩٤٥ ص٨٨.
(٤) راجع عبده ١٩٤٥ ص٨٨.
(٥) صحيفة لم يذكرها إبراهيم عبده نفسه في القائمة التي حصر فيها صحف هذه الفترة. إن لم يكن هناك خطأ من جانبنا فهي غير مذكورة في أي مكان آخر.

أما صحيفة "مرآة الشرق" فقد كرست صفحاتها بعد شهور التوقف الخمسة عام ١٨٧٩ للقضايا الاجتماعية وشئون السياسة الخارجية دون أى تدخل من جانبها فى هذه القضية.

مع أحداث ١٨٧٩ كان زمن حرية التعبير قد ولى وأتى بدلا منه زمن الصحافة الواقعة تحت الرقابة[1]. لم تكن الموضوعات المتناولة حينئذ إلا تلك المتعلقة بالحياة السياسية والاجتماعية فى أوروبا، وكانت مصادرها الصحافة الأجنبية وبعض الترجمات. أما عن الداخل فلم تكن سوى موضوعات الاقتصاد المحلى والتعليم الأهلى هى المسموح بتناولها.

وجدت الصحافة المكتوبة نفسها بهذه الطريقة مراقبة ومحل نقد من قبل الحكومة بعد أن كانت الرقيب الناقد للدولة. ومن هنا فقد أضحى الأدب وتاريخه والترجمة والتاريخ والمنطق على طريقة أرسطو محور الموضوعات اليومية التى اهتمت بها الصحافة.

على هذا النحو كانت الصحافة المكتوبة المصرية فى مرحلتها الأولى التى وصفت فيها بالشعبية والحرة فيما بين عامى ١٨٧٠ و١٨٨١. وقد شكلت هذه السنة الأخيرة ١٨٨١ منعطفا حادا وكبيرا فى تاريخ الصحافة المصرية. الواقع أنه فى هذا العام تحديدا ١٨٨١ ظهرت الصحافة الرافضة ليس فقط لابتزاز وجباية الحكومة المصرية، ولكن أيضا لاغتصاب الإنجليز للبلاد والتدخل الأوروبي.

لاحت المرحلة الثانية من تاريخ الصحافة المصرية الشعبية الحرة (١٨٧٧ – ١٨٧٩) مع أولى فترات صحافة المعارضة ومع زوال حريتها. هاتان المرحلتان أعلنتا بدوريهما المرحلة الثالثة من تاريخ حريتها (١٨٨٠ – ١٨٨٨) بعبارة أخرى من تاريخ تشريعاتها. وهذه الفترة تتزامن مع المرحلة السادسة من تطورها العام (راجع ما سبق: فترات الصحافة المكتوبة الكبرى ومراحلها). قبل هذا التاريخ لم يكن هناك قانون قد تم التفكير فيه بشكل خاص وبقدر كاف وكامل لتنظيم الصحافة المكتوبة فى مصر وتقنينها.

---

(١) لمزيد من المعلومات حول هذه الفترة وأحداثها راجع الرافعى ١٩٨٧ الجزء الأول ص١٨٩ – ٢٢٠.

لفهم هذه الأحداث يجب أن نبقى فى الذهن أن مصر كانت تتبع الإمبراطورية العثمانية وبالتالى تنطبق عليها القوانين العثمانية. ظهر أول قانون عثمانى ينظم الصحافة عام ١٨٥٧ قبل وصول الصحافة الشعبية الحرة إلى الإمبراطورية مباشرة. نذكر هنا من بين صحف هذه الفترة التى مثلت بحق الإمبراطورية العثمانية صحيفة "الجوائب"[١] (١٨٦٠، اسطنبول، فارس الشدياق). أدركت الإمبراطورية العثمانية أن الصحافة المكتوبة تحتل مكانة تتسع وتزداد أهميتها، وخشت أن ترى تجاوزات من جانب الشعوب. من هنا فقد قررت وضع قانون المطبوعات عام ١٨٥٧. وضعت ما يتيح لها التحكم فى أى إبداع مطبوع (ورقة، جريدة، مجلة، كتاب... إلخ) ومحتواه. بدءا من هذا التاريخ كان يتوجب طلب تصريح والحصول عليه لأى عملية نشر. كل نقد موجه ضد السلطان والحكومة وأى موظف كان ممنوعا منعا باتا ومحل مخالفة وإيقاف بل ومنع. لاحظ السلطان عبد العزيز (الذى حكم من ١٨٦١ حتى ١٨٦٧) عام ١٨٦٥ أن الصحافة العثمانية بل العربية والأجنبية تسرع الخطى وتكتسب تدريجيا مزيدا من الحرية فى الحياة السياسية والاجتماعية فى الإمبراطورية، فأصدر قانونا جديدا عام ١٨٦٥ وفصل كل مواده. مثال ذلك:

"كل فرد من رعية الدولة العثمانية يبلغ من العمر ثلاثين عاما على الأقل ولم تصدر ضده أحكام له الحق فى طلب تصريح بإصدار جريدة. وعليه فى الطلب أن يحدد اسم الجريدة وتاريخ ومكان صدورها. لم يضع القانون شرطا واحدا خاصا بالكفاءات المهنية أو طريقة التمويل. بل ألزم على النقيض كل الصحف بنشر مراسلات الدولة الرسمية مجانا. كل صحيفة لا تلتزم بأوامر هذا القانون تعرض نفسها للإيقاف بل الإلغاء. المقالات الطويلة ممنوعة، وكذلك المجزأة والمنشورة على مدى أكثر من عدد، كما أنه يمتنع وضع النقاط الثلاث، أو ترك فراغ بدلا من الأجزاء المحذوفة رقابيا.

---

(١) "Les Nouvelles Courantes" ترجمة إلياس ١٩٩٣ ص٢٥ وهى جريدة وجدنا أعدادها الصادرة عام ١٨٧٦ مجلدة لدى المويلحى، راجع الملحق ٧: بعض قراءات إبراهيم ومحمد المويلحي. عرفت هذه الصحيفة نجاحا كبيرا حتى إنها عدت المتحدث باسم السلطان. كانت "الجوائب" تباع فى كل أنحاء الإمبراطورية، فى اسطنبول ودمشق وبيروت والقاهرة وبغداد والحجاز... إلخ.

يلصق على كل عدد طابع التفتيش الرقابى وإلا منعت الصحيفة من الطرح فى الأسواق. هناك بالإضافة إلى كل ذلك مجموعة من الكلمات المحظورة منها أرمستان (أرمينيا) وجمهورية وحرية... إلخ.

ويمنع بتاتا الحديث عن كل هذه المحظورات(١).

تحت حكم السلطان عبد العزيز (١٨٦١ – ١٨٧٦) وعلى الرغم من أن "دستور الإمبراطورية العثمانية الصادر فى الحادى عشر من ديسمبر ١٨٧٠ قد أقر مبدئيا حرية الصحافة فإنه لم ينسخ قانون الأول من يناير ١٨٦٥ والقرار الوزارى الصادر فى الثانى عشر من مارس ١٨٦٧" (رمضان ١٩٣٥، ١٦). ولنقل إنه إبان حكم السلطان عبد الحميد الثانى ازداد التشريع الخاص بالصحافة صرامة. "كان للرقيب سلطة مطلقة تتضمن تأديب الصحفى المتمرد وتطبيق عقوبة "الفلقة"(٢) عليه". (إلياس ١٩٩٣، ٢٨)؛ وبذا قرن الصحفى المشاكس المتمرد بالكافر. من هنا فقد شهد عصر السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ – ١٩٠٩) أعلى عدد فى حالات الإيقاف(٣).

وتاريخ التشريعات الخاصة بالصحافة المصرية هو الآخر مختلف. بدأ مع بونابرت الذى بعد أن أسس المطبعة وأصدر أول صحيفة أمر بتنظيم هذا القانون، وجعله مكونا من ست مواد تتعلق مادتيه الخامسة والسادسة بشكل مباشر بحرية الصحافة المكتوبة وبالمطبوعات. كانت هاتان المادتان تنصان على عدم جواز الطبع أو النشر دون تصريح مسبق، وأنه على كل مسئول عن أى مطبوع أن يقدم تقريرا يوميا عما ينشره من مطبوعات عربية (المادة الخامسة) أو فرنسية (المادة السادسة). ويمكننا بذلك القول: إن الصحافة فى مصر ومنذ البداية تحت سيطرة الدولة.

---

(١) إلياس إلياس حنا، ١٩٩٣ ص٢٧.
(٢) الفلقة: هى عقوبة ضرب بالسوط على الأقدام.
(٣) صابات، سامى ويونان، ١٩٧٣ ص١٥-١٦.

بعد رحيل بونابرت ومقتل الجنرال كليبر، تولى الجنرال "مينو" الأمـــر وأراد التعريف بدور الصحافة العربية ووضع حدود لها. فكتب للمصريين إعلانا وأمـــر بقراءته على الملأ معلنا ما رأت أغلبية الباحثين أنه لم يظهر قط إلى الوجود، وهو إصدار أول جريدة مصرية باللغة العربية "التنبيه"[١] كان يأمل بواسطتها:

"أن يعرف شعب مصر وحتى شعوب الشرق كل إجراءاته الإدارية، وأن يعطيهم فكرة صائبة عن حكومة عاقلة حكيمة، وأن يسمو بأذهانهم لعظائم الأمور. كان يصبو أيضا إلى طبع القواعد والمفردات باللغتين الفرنـــسية والعربية؛ لتيسير التواصل، وضمان سرعته واستمراريته بين الفرنـــسيين والمصريين، ففى ذلك ضمان مكاسب فـــى كـــل المجـــالات: التجـــارة، الصناعة... الكونكورد..."[٢].

حتى يتمكن من تقنين وتنظيم هذه الأداة الجديدة التى فى حوزة الدولة؛ وهى الجريدة الرسمية فى مصر، أسس محمد على "ديـــوان الجورنـــال" أي[٣] مكتـــب الصحافة. لم يكن فى ذلك الوقت صحف أخرى غير "الوقائع المصرية". فى عـــام ١٨٤٢ أصدر الباشا أمرا بإعادة تنظيم الوقائع المصرية، وهو مـــا عُـــد فرصـــة لإيضاح أهداف هذه الجريدة وأهداف الصحافة بشكل عام. شرحت الدولة أن الهدف كان أن يستفيد الناس من المعلومات. لتحقيق ذلك رأى أن الأمور المهمّة ينبغى أن تمر أولا "بديوان الجورنال" قبل إن تنشره باعتبار أن المعلومات الآتية من مصادر أجنبية قد تحوى عناصر كثيرة لا يمكن أو لا يجب أن تنشر. وقد كلـــف الـــديوان بعملية فرز المعلومات[٤]، وقد تم بعد ذلك سن القانون العثمانى فى عـــام ١٨٥٧[٥]

(١) الذى يقول عنه إلياس إلياس حنا: "تعرف أن مرسوما موقعا عام ١٨٠٠ من قبل الجنرال مينو خليفة الجنرال كليبر ومنشورا فى "لوكوربيه دو ليجييت" قد أعلن تأسيس جريدة باللغة العربية "التنبيه" ولكن أحدا لم يجد لها أثرا" (١٩٩٣، ١٤). وقد أعلن أمين سامى واصف: علينا أخيرا فى التمهيد الذى يسبق مقدمته أن "مينو كان يزمع إنشاء صحيفة عربية باسم "التنبيه" فهل تحققت رغبته هذه؟ هل ظهرت هذه الجريدة؟ اختلفت الآراء فى هذا الشأن غير أنه في رأينا لم تر هذه الجريدة النور ما دامت لم تحفظ بالمكتبة القومية بباريس ولا فى أى مكتبة أخرى فى العالم". (١٩٧٥، ١٣).

(٢) Galland ١٨٠٤، ص١١٧.

(٣) صابات، سامى ويونان ١٩٧٣ ص١٧.

(٤) لمزيد من المعلومات حول هذه النقطة راجع صابات وسامى ويونان ١٩٧٣ ص١٨.

(٥) فيما يتعلق بمحتواه (المادة التاسعة) راجع صابات وسامى ويونان ١٩٧٣ ص٢٠.

(راجع ما سبق). لاحقا أنشأ سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٣) الذى خلف عباس الأول (١٨٤٩-١٨٥٣) عام ١٨٥٨ مكتب الصحافة، الذى لم يكن فى واقع الأمر إلا بديلا "لديوان الجورنال" الذى أنشأه محمد علي.

لم يتعلق الأمر هذه المرة بديوان على الطراز العربى التقليدى ولا بالسلطة العثمانية؛ وإنما بمكتب. كما لم يتضمن الاسم كلمة "جورنال" المقتبسة ولكن كلمة "صحافة" وتعنى صيغة الجمع لكل ما ينشر. كان فى هذا تطور على المستوى الألسنى والسياسى (القومي) لما تعنيه الصحافة المكتوبة المصرية للدولة.

فى هذا الخضم وضع سعيد باشا تشريعا جديدا للمطبوعات[١] اهتم بشكل حصرى بالصحافة المصرية على عكس القوانين العثمانية التى كانت موجهة إلى كل الصحافة الصادرة فى كافة أرجاء الإمبراطورية. فى عام ١٨٦٣ إبان حكم إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) أضاف الوزير شريف إلى هذا القانون جزءا ينظم الصحافة الأجنبية فى مصر.

وفى عام ١٨٦٥ ورغم القانون الجديد بشأن المطبوعات الذى زيدت مواده من تسع إلى خمس وثلاثين مادة (راجع ما سبق) حاول إسماعيل وضع تشريع خاص بالصحافة المصرية بتأسيس "قلم الصحافة" الملحق بوزارة الخارجية.

كان الجديد هو إلحاقه بوزارة وفى رغبة الخديو إسماعيل فى جعل التشريع الخاص بالصحافة المصرية مستقلا بذاته عن السلطة العثمانية المركزية لتحقيق ذلك نظم المهام بحيث تختلف مهام المكتب "المصري" للصحافة؛ أى (قلم الصحافة) عن مهام (إدارة المطبوعات) التى كانت تتبع السلطة العثمانية المركزية.

أصبحت مصر – الملجأ والملاذ للصحفيين اللبنانيين والسوريين بصفة خاصة كما يطلق عليها إلياس (١٩٩٣، ٣٣) مصر– المركز للصحافة العربية والشرقية فى ذلك العصر. الواقع أنه فى مصر تمت مناقشة تشريعات الصحافة، وبالتالى

---

(١) يمكن الاطلاع على المواد الخمس هذا التشريع المصرى الأول فى الأرشيف القومى المصرى (دار الوثائق)، سجل مجموعات "إدارة وإجراءات" ص٢٠٨، مأموريات مأمورى الضبطية قرار المجلس الخصوصى فى ٢٨ من جمادى الأولى ١٢٧٥ هجريا (١٨٥٧). صابات سامى ويونان يشيرون إلى المرجع ذاته، راجع ١٩٧٣ ص٢٣ رقم ١ وص ٢٢-٢٣ التى تم فيها نقل جزء منه.

حرية الصحافة لأول مرة فى مواجهة للإمبراطورية العثمانية التى كانت تحتكر الأمر كله. ودليل ذلك الملزمة الصغيرة التى يمكن الاطلاع عليها فى المكتبة الوطنية الفرنسية(١) BNF التى تحمل عنوان: "حرية الصحافة – اتحاد الشباب المصري" والمنشورة بتاريخ ديسمبر ١٨٧٩ فى ست عشرة صفحة باللغتين الفرنسية والعربية. والمؤلف للأسف لم يذكر اسمه إلا إذا اعتبرنا التوقيع الماثل على صدر الملزمة J.P. Duclos للشخص الموكل إليه الأمر من قبل ذلك الاتحاد. ما يمكن فقط تأكيده هو أن هذا الكتيب خاص باتحاد الشباب المصرى ولكن أى اتحاد؟ هل كان مصريا خالصا أم أجنبيا أم الاثنين معا؟

لا يمكننا الجزم بشيء غير أن هذا الاتحاد يبدو مكونا من رجال فكر، وصحفيين أجانب يعيشون فى مصر ومصريين؛ وذلك استنادا إلى هذا الاستشهاد: "من واجب كل مواطن أمين دراسة المسائل التى قد تتعلق بها سعادة المجتمع الذى يعيش فيه، والاهتمام بكل ما يمكن أن يسهم فى ازدهار البلد الذى شهد مولده أو استضافه". (اتحاد الشباب المصرى ١٨٧٩، ٣). من المهم إذن الالتفات إلى أن عام ١٨٧٩ تكون اتحاد يمثل الشباب المصرى المهتم بحرية الصحافة. واقع الأمر أن العام المشار إليه شهد أول أزمات الصحافة الشعبية الحرة فى مصر؛ حيث كانت حرية الصحافة رغم كل شيء قد أثبتت وجودها رغم كل المبادرات التشريعية. يؤكد ذلك أن القاهرة كانت قد أصبحت "المركز الفكرى للشرق كله" (صبرى مصطفى ١٩٣٣، ٣٢٧). كان منطقيا إذن أن يتكون اتحاد للشباب المصرى للدفاع عن حقه فى الكلمة الذى كان قد بدا فى فقده عام ١٨٧٩ أمام:

"الأزمة السياسية التى سبقت مقدم الخديو توفيق ولحقت به. ارتمت الصحف بضراوة فى هذا الخضم وبلغت نبرتها درجة من العنف جعلت الحكومة فى نوفمبر ١٨٨١ تضطر لكبح هذه الفوضى وهذا الانفلات إلى سن قانون للصحافة"(٢).

---

(١) مكتبة فرنسا القومية: Cote 8-03B-511 (en rez-de jardin).
(٢) Sekaly، ١٩٢٦، ص٥.

لدى إحساسها بالتهديد اضطر هذا الاتحاد إلى تقنين صحافته المكتوبة بنفسه: "أيا ما كانت الزاوية التى تتناول منها المسألة، وسواء تبنينا وجهة نظر السلطة أو الرعية فهناك ضرورة ملحة لوضع قانون للصحافة واضح وعادل لا يترك شيئا للصدفة، لكل أمة ترغب فى وضع العدل كأساس". (اتحاد الشباب المصرى ١٨٧٩، ١١). كان هذا الاتحاد يعى إذن أنه ينتمى إلى أمة كانت تضع العدالة هدفا اجتماعيا وسياسيًا ذا أولوية. اهتم هذا الاتحاد أكثر من ذلك بحقوق الفكر؛ وهى ثيمة نهضوية بامتياز. من هنا فطبقا لما يسوقه: "يجب أن يتيح هذا القانون أيضا حرية كبيرة فى التعبير عن الفكر. للوصول إلى درجة معينة من التحضر يحتاج أى شعب أن يطور نفسه فكريًا. إذا ما ضيق الخناق على ذكائه ضمر ولم يتطور" (اتحاد الشباب المصرى ١٨٧٩، ١١-١٢).

"درجة من التحضر" و"تطور فكري" ألا تمثل العباراتان هدفين من أهداف النهضة؟ على هذا النحو بدأت الصحافة النهضوية تتشكل تدريجيًا بطريقة خارجية – داخلية جامعة بذلك هوية مصرية، وسورية، ولبنانية وأوروبية ومستفيدة من التجارب القانونية العثمانية والمصرية والأوروبية وواقعة تحت القهر المصري والعثمانى ثم الإنجليزي. ونلحظ هنا أن مساهمة اتحاد الشباب المصرى التاريخية فى تاريخ الصحافة فى مصر لم تبق فى حيز الوريقات: فقد تم إدراجها فى مشروع للإصلاحات تم تقديمه إلى حضرة دولتلو توفيق الأول خديو مصر (ص ٨٤-٨٥، ٨٦) "الفقرة السادسة – حرية الصحافة وعقد الاجتماعات". (اتحاد الشباب المصري، ١٨٧٩، ١٢). نخلص هنا إلى القول: إن الضمير الوطنى المصرى النهضوى الخارجى والداخلى المنشأ كان حقيقة واقعة خاصة فيما يتعلق بالمكانة والدور الذى كان على الصحافة الاضطلاع به فى تقدم الأمة وتطويرها.

قدم اتحاد الشباب المصرى مقترحاته تفصيلا وبين مواقفه ومفاهيمه عن الصحافة الحرة قائلا:

"إن الإصلاحات التى يتطلبها وضع البلاد لن تكون مجدية دون حرية الصحافة. واحد من المبادئ الأساسية التى يجب أن يكرسه القانون الأساسى هو الحرية الفردية. نستسيغ فكرة أن ولاة أمورنا لن يرفضوا الاعتراف لنا بهذا المبدأ الذى أنكر وتم تجاهله على غير ما يوافق طبيعة الإنسان الذى ولد حرا.

وحرية الإنسان لا تقتصر فقط على القدرة على الحركة الجسمانية. باعتباره كائنا ذكيا؛ فالإنسان يفكر، ويدرك، ويكوّن لنفسه أفكارا ولكن لكونه كائنا ناقصا فهو لا يكتفى بنفسه، فهو بحاجة إلى تلقى الأفكار والأحاسيس وإيصالها للغير، دون هذه المبادلات يبقى ذهنه جامدا خامدا إلا إذا كان عبقريا وهو أمر لا تتسم به إلا القلة. هذا التواصل لا يتأتى بشكل جاد إلا بحرية التعبير وحرية الصحافة.

فى خطوة لاحقة تنشأ ضرورة مطلقة إذا لم نكن راغبين فى قتل الفكر فى الموافقة على منح حرية عقد الاجتماعات وحرية الصحافة. فإخضاع الصحافة للرقابة، أو للحرج، أو لسلطة استبدادية لا يمكن أن يؤدى إلا إلى أمور سلبية حتى بالنسبة إلى الحكومة.

فللصحافة الحرة مزية بالنسبة إلى الحكومة فهى تعطى المدافعين عنها سلطة أكبر؛ لأنهم سيكونون أكثر اقتناعا بها ومجردين من أى مصلحة. فخدماتها للحكومة بقدر خدماتها للأمة. فهى تدرس الإصلاحات وتناقشها، وتكشف التجاوزات، وتبسط الآداب والعلوم، وتنمى المعارف السياسية، واجتذاب الجميع إلى الأمور السياسية"(١).

بادرت إذن هذه المجموعة الشابة وأقدمت غير أن إقدامها لم يستطع منع التجاوزات التى فرضتها الأحداث السياسية والاجتماعية على الصحافة ولا تأثيرات الصحافة على السياسة. لم تكن الصحافة فى خدمة الدولة؛ نظرا لتمتعها بالحرية اعتبارا من ١٨٧٠؛ غير أن هذه الحرية لم تصبح بالفعل ذات فعالية إلا خلال

(١) اتحاد الشباب المصرى ١٨٧٩ ص١٢-١٥.

السنوات ١٨٧٥/١٨٧٧. فى عام ١٨٧٩ أصبحت المحادث المباشر للحكومة المصرية ولاحقا للرقابة المزدوجة الفرنسية – الإنجليزية، تحولت من أداة للدولة إلى المحادث الأساسى للدولة وناقل المعلومة للشعب. قنن الشباب المصرى الصحافة وصرحوا: "إن الصحافة نمط وأسلوب كتابة، والكتابة هى الكلمات، والكلمات هى الفكر، والفكر هو الإنسان نفسه" (اتحاد الشباب المصرى ١٨٧٩، ٥). كان للصحافة إذن أهمية رئيسة، تلك التى تسمح أساسا بالوجود. وقد أضاف الاتحاد أن الحرية هى "هذا الحق الذى يملكه كل مواطن بالدعاية لفكره بواسطة فن الطباعة" (اتحاد الشباب المصري، ١٨٧٩، ٦-٧) ولكن:

"لا يجب الخلط بين الحرية والرخصة أو التصرع. وإذا كان من الصعب القول بشكل مطلق أين توضع الحدود التى تفصل؟ يمكننا بالاستناد والارتكاز إلى حالة الحضارة فى البلد كقاعدة، إعطائها قوانين تضع بشكل تقريبى إذا لم يكن بشكل محدد، حقوق الكاتب وحقوق السلطة"(١).

استمر الاتحاد مسائلا نفسه: "هل للفكر حدود؟ لم يتوجب أن يكون للتعبير عنه حدود؟" (اتحاد الشباب المصرى ١٨٧٩، ٨-٩) وانتهى به الأمر إلى القول: "إن حرية الصحافة هى محك الحكومات كلما اتسع مداها قويت هذه الحكومات فهى أكثر الوسائل ضمانا للتقدم؛ بواسطتها ينمو الذكاء البشرى ويتطور ويتكامل: بؤس وعار على من لا يحترمونها." (اتحاد الشباب المصري، ١٨٧٩، ١٦).

هل كان هذا اتحاد ممثلى مجلس نواب مصر أم ماسونيون مصريون من دائرة الأفغاني؟ أيا ما كان الأمر، يثبت هذا المستند أن مصر والمصريين كانوا يتلقون المعلومات، وكانوا على دراية بالدور الحضارى للصحافة، ويعملون على استغلاله والاستمتاع به.

كانت الصحافة المصرية وحريتها تمران إذن عام ١٨٧٩ بأول أزماتهما. بلغ الوضع حجما دفع إلى سن قانون عام ١٨٨١ وأوجد "نظاما وقائيا" (فؤاد محمود

---

(١) "اتحاد الشباب المصري"، ١٨٧٩ ص١٢-١٥.

١٩١٢، ١٤) وقد ظهر هذا القانون فى العشرين من يوليو ١٨٨١؛ أى بعد صدور قانون تنظيم حرية الصحافة فى فرنسا. فى السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٨٨١ صدر قانون الصحافة الذى يطلق عليه "قانون ١٨٨١" فى مصر. على النقيض من القانون الأول فإن قانون مصر منقول عن التشريع الفرنسى القديم وتحديدا عن قانون ٢١ من أكتوبر ١٨١٤ "(فؤاد محمود ١٩١٢، ٢١). يمكننا الذهاب إلى أبعد من ذلك والقول؛ مثل: فؤاد محمود أن هذا القانون الخاص بالصحافة المصرية خليط من القوانين الفرنسية الخاصة بالصحافة الصادرة تباعا خلال الأعوام ١٨١٤، و١٨١٩، و١٨٢٨، و١٨٦٨"[١].

أكد رمضان على هذا الأمر قائلا: "إن الأحكام المنظمة للطباعة نقلت عن التشريعات الفرنسية القديمة" (١٩٣٥، ٢٣) ومن هنا:

"لا توجد صحيفة أو منشور دورى يتناول موضوعات سياسية إدارية أو دينية تصدر بانتظام، ثم فى يوم محدد، أو بشكل غير منتظم يمكن أن تؤسس، أو تنشر دون تصريح مسبق من الحكومة. هذا التصريح المسبق شخصى ويتوجب طلبه عند إجراء أى تغيير فى شخوص القائمين عليها من مالكين ومديرين ورؤساء تحرير... فإذا ما تغير رئيس تحرير الصحيفة استلزم الأمر تغيير التصريح. لإيقاف صدور أى جريدة أو دورية تسلك الحكومة أحد سبيلين:

١- يمكنها دون إنذار مسبق استدعاء مجلس الوزراء، وطلب انعقاده؛ لاتخاذ قرار بالإيقاف أو الإلغاء.

٢- إذا ما كانت هناك رغبة فى إلغاء الصحيفة أو إيقاف صدورها دون اللجوء إلى مجلس الوزراء يجب أن يوجه وزير الداخلية إنذارين للصحيفة المخالفة[٢].

---

(١) فؤاد محمود ١٩١٢، ص٢٦-٣٠.
(٢) فؤاد محمود ١٩١٢، ص٢٦-٣٠.

نلاحظ أن هذا القانون خليط من التشريعات الفرنسية والمصرية؛ أى خارجى أكثر منه داخلى المنشأ. وقد تم سنه لتقليص حرية الصحافة وإخضاعها للكفالة التى كانت أوروبا فى ذلك العصر تحاول التخلص منها. من هنا فإن حرية الصحافة فى مصر تظهر تارة كوسيلة تحاول بها الدولة الارتقاء إلى مصاف الحضارات، كما حدث إبان حكم محمد على باشا، وتارة أخرى كوسيلة تستقطب بها الشعب إلى قضيتها، كما كان الحال أثناء حكم الخديو إسماعيل. تعلق الأمر أيضا بالسيطرة على الشعب الذى كان مجيء الصحافة الحرة بالنسبة إليه: "حدثا رئيسيا ساهم فى انبعاث الروح العامة فى مصر" (صبرى ١٩٣٣، ٣٣٣). ذكر أديب إسحاق فى هذا السياق، عام ١٨٧٩ فى صحيفته "مصر" عام ١٨٧٧ أن هدفه كان "كشف أفعال الظالمين الذين يطلق عليهم ولاة الأمر، وإحياء ما تبقى من الكرامة الشرقية، وفتح أعين السذج؛ لكى يطالبوا جميعا بحقوقهم المنهوبة وأموالهم التى استنزفها الأجانب" (صبري، ١٩٣٣، ٣٣٥). "كشف "إحياء" "فتح أعين" أليست هذه الركائز الثلاث للنهضة التى أعلنت الصحافة مبادئها وعملت ناقلا لها؟ كانت النهضة العربية الثقافية والسياسية إذن مروجا لها بواسطة الصحافة.

استثمر النهضويون بهذه الطريقة هذه الأداة الاتصالية وأدى وصول القوات البريطانية عام ١٨٨٢ واحتلال مصر إلى اكتساب الصحافة مزيدا من الأهمية والمكانة بشكل خاص فى النقاش السياسى القومى والدولي. يتعلق الأمر هنا بمرحلة الصحافة الرافضة المناهضة للتدخل الأجنبي. كانت ذكريات المظالم والهزائم ما زالت بعد عزل الخديو إسماعيل حية. كما كانت توابع الدين المتعددة التى كلفت أحد خلفاء المصلح والمنقذ محمد على عرشه قد أصبحت ملموسة بدرجة كبيرة. مما جعل الصدمة قاسية وعنيفة والسنوات ١٨٧٧-١٨٧٩ غير مستقرة.

بعد استبعاد حكومة "نوبار" حلت حكومة "شريف" محلها إبان حكم توفيق (١٨٧٩-١٨٩٢) وجعل ذلك الشعب المصرى يستعيد الأمل. الواقع أنه خلال هذه الفترة التى لم تكن فيها السلطة العثمانية تساند فى أى شيء السلطة الخديوية المحلية، لم يكن لدى المصريين أحد يلجئون إليه. فى الخيال الاجتماعى المصرى كانت فكرة أن "مصر للمصريين" قد بدأت تتشكل. مرجع ذلك أن صمت السلطة

المركزية العثمانية إزاء الأزمة المصرية خلال الأعوام ١٨٧٧-١٨٧٩ قد شكل الفرصة المأمولة بالنسبة إلى أوروبا التى انتهزتها وسعت أن يكون تأويلها للأمر مسموعا من العالم كله ومرئيا باعتباره الإشارة والدلالة الواضحة على ضعف مؤكد للسلطة الخديوية. وقد تم التصريح حينئذ بعدم مقدرتها على إدارة شئونها.

أدت الاستهانة بمصر على هذه الصورة إلى جعلها فريسة سهلة للقوى الأوروبية التى جعلت السنوات من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩ تتخبطها الآمال والإحباطات. خلال هذه الفترة الانتقالية استعادت صحيفتى "الأهرام" عام ١٨٧٥ و"الموت" عام ١٨٧٧ نشاطهما النقدى تجاه الحكومة، التى سرعان ما أمرت بإيقافهما لمدة غير محدودة. تدخل قنصلا فرنسا وإنجلترا لصالح هاتين الصحيفتين مما أدى إلى استئنافهما لعملهما. وتعجبت الصحف القومية آنذاك من قدرة الأجانب على الدفع إلى إصدار القوانين أو الحيلولة دون تنفيذها. اعتبارا من هذا التاريخ لم تعد "الأهرام" تخشى الحكومة المصرية وانطلقت معلنة حرب كلمات لم تنشر من قبل (راجع. "التجارة" بتاريخ ١٨٧٩/٨/٩). كما اتخذت الصحف الموالية للخديوية إزاء هذا الوضع موقفا موحدا هو الدفاع الوطنى ووقفت إلى جانب الخديو وحكومته على الرغم مما كان من الممكن أن تأخذه هذه الصحف عليه. فإن هذا الوفاق الودى بين الوطنيين والحكومة الخديوية لم يدم، خاصة عند اضطرار الخديو نتيجة الضغوط الممارسة عليه من الرقيبين الفرنسى والإنجليزى إلى اتخاذ إجراءات لصالح الأجانب وصحفهم. لم يرق هذا الأمر للصحافة الوطنية المصرية مما جعلها تحجم عن الدفاع الخديو وحكومته. هذه السياسة التعسفية تجاه الصحافة المصرية شكلت منعطفا رئيسيا فى تاريخ مصر وانتهت باحتلال البريطانيين لمصر عام ١٨٨٢. لم يستطع المصريون اعتبارا من هذه اللحظة التعبير عن استيائهم أو عن أى من مشاعرهم السلبية.

كانت صحفهم قد منعت ولم يبق أمامهم إلا ترك البلاد. اعتبارا من هذا التوقيت بدأ تاريخ الصحافة المصرية والعربية فى أوروبا.

من منظور شلبى chelbi (١٩٦٩، ٧٤-٧٥) عرفت الصحافة أربع مراحل:

- ١٨٥٩ – ١٨٦٦: التخبط.
- ١٨٦٧ – ١٨٨١: التحفظ.
- ١٨٨١ – ١٨٩٠: التدخل أو التطوع.
- ١٨٩١ – ١٩١٤: الحذر.

يحصر شلبي[١] ست صحف هاجرت من مصر إلى باريس فى الفترة من ١٨٧٨ إلى ١٨٨٨؛ بينما يرى دى طرازي[٢] أن عددها يصل إلى ثمانى عشرة صحيفة منها ست فى لندن نذكرها:

- "أبو نضارة" (غير المنتظمة ١٨٧٩، يعقوب صنوع).
- "مصر القاهرة" (نصف شهرية ١٨٧٩، أديب إسحاق).
- "أبو الهول" (؟ ١٨٨٠؟).
- "الاتحاد" (أسبوعية ١٨٨٠، ثم ١٨٨٤، إبراهيم المويلحي).
- "العروة الوثقى" (أسبوعية ١٨٨٤، الأفغانى وعبده).
- "التودد" (شهرية ١٨٨٨، يعقوب صنوع).

لاحظ شلبى أن "كل المسلمين الذين أسسوا صحفا فى باريس كانوا مصريين "بشكل حصري"، وأن هؤلاء المؤسسين كانوا فعالين بشكل خاص من ١٨٨٠ إلى ١٨٨٤" ويرجع هذا وفقا لرأيه إلى "سياق النهضة" (١٩٨٧، ١٠٢). ونلاحظ هنا أن

(١) راجع شلبي، ١٩٨٧ ص٩٣ فيما يتعلق بالصحف المصرية فى باريس؛ ص٩٥ فيما يتعلق بالصحف السورية – اللبنانية فى باريس؛ ص٩٧ فيما يخص الصحف العربية التى أسسها الفرنسيون؛ وص٩٩ للصحف التى أسسها إيطاليون، وص ١٠٢ فيما يتعلق بالصحف العربية التى وضع أساسها المصريون والسوريون – اللبنانيون والفرنسيون والإيطاليون، وص ١٠٣ بشأن الصحف التى أسسها مسلمون أو مسيحيون.

(٢) راجع طرازى Tarrazi 1913، الجزء الثاني، ص٣٧٢-٣٧٩ فيما يخص الصحف العربية التى تأسست فى فرنسا وص ٣٨٠ – ٣٨٣ فيما يتعلق بتلك المؤسسة فى لندن.

إبراهيم المويلحى حاضر بين مؤسسى هذه الصحف، من هنا فإنه إلى جانب كونه مؤسس أول صحيفة شعبية حرة ١٨٧٠ فى تاريخ الصحافة المصرية، فقد كان من أوائل المصريين المؤسسين للصحف فى المنفى فى باريس عامى ١٨٨٠ و ١٨٨٤. من هنا يمكن القول: إن المشاركة المويلحية وما ترتب عليها من آثار هى جزء لا يتجزأ ومكون أساسى فى تاريخ الصحافة المصرية فى القرن التاسع عشر وتاريخها السياسي.

وذلك بصفة خاصة نتيجة التأثير الذى تميزت به الصحف المويلحية (وإن كان قصير المدى). ومشاركة آل المويلحى فى سياسة البلاد ليست بالقليلة والدليل الداحض على ذلك أن عبد السلام كان عضوا فى مجلس النواب وإبراهيم من شاغلى الوظائف العليا فى مصر وأن محمد قد شارك فى ثورة عرابي.

بعد الاعتراضات العامة للصحفيين الذين أضحوا دون صحفهم وفى المنفى، واعتراضات العسكريين المحالين إلى المعاش على ضآلة معاشاتهم وعدم العرفان لما قدموه. جاءت حالة الرفض والاعتراض من الجماهير الذين جأروا بالشكوى من الضرائب المرتفعة والقهر العسكرى الجاثمة على أنفاسهم. عندئذ ثار العسكريون واعترضوا على حكومة رياض باشا وطالبوا بحكومة دستورية[١]. وكما رأينا من قبل شارك كل من المويلحى الأب والابن بهمة عالية فى هذه الثورة. أرسل إبراهيم المويلحى منشورات قام ولده بتوزيعها مخاطرا بحياته. صدر آنذاك على محمد المويلحى حكم بالإعدام سرعان ما تمت إعادة النظر فيه لوساطة عمه "زعيم النواب المصريين عبد السلام المويلحى وتحول إلى حكم بالنفي". كان مدى الرقابة يزداد اتساعا والصحافة تقوم بدورها رغم كل شيء. من هنا فقد نشر إبراهيم عبده فى صحيفة "العصر الجديد" (١٨٨٠، سليم عباس الشلفون) أسباب هذه الثورة التى كان

---

(١) راجع الملحق ٦ معجم لغة الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر. جذر الكلمة "حكم" يعنى فى اللغة العربية من يتميز بالحكمة والرشد. أما معناه الواسع فهو "أن يقوم "بتصريف أمور دولة". بدءا من القرن الثامن عشر اكتسبت الكلمة معنى أشمل هو السيطرة" (لويس، ٢٠٠٠، ٦٢). اعتبارا من القرن التاسع عشر كان من الممكن طبقا للسياق أن تعنى الكلمة الهيمنة والسيطرة السياسية والسطوة؛ أى "نظام". وقد انتهى الأمر بالكلمة إلى معناها العام الحالى وهو "حكومة الدولة"؛ أى مجموعة من الرجال مكلفة بممارسة سلطة الدولة.

الهدف منها كما يرى "إسقاط حكومة رياض باشا وإقامة حكومة دستورية"(١) وقد انتهت هذه المشكلة بعودة شريف باشا إلى الحكومة الذى سارع بالإعلان عن طريق الجريدة الرسمية "الوقائع المصرية" بأن "تشكيل مجلس النواب هو السبيل الوحيد للوصول إلى ما نرجو فى مجال الإصلاح"(٢).

طبقا للورد كرومر تتلخص هذه المشكلة لا فى رغبة اجتماعية فى العدالة والديمقراطية؛ وإنما مسألة سوقية مبتذلة من التعصب الديني. دافع المصريون عن أنفسهم بهمة عالية وقاموا بذلك عن طريق صحفهم؛ وقد تحولوا بذلك من مجرد ناقلين إلى عناصر سياسية فاعلة. تنقل لنا صحيفة "المفيد" (١٨٨١ مصطفى ثاقب وحسن شمس) فى عددها الصادر فى ١٨٨١/١٠/٢٤ أن المصريين فى هذه الحقبة كانوا يعتبرون أن التعصب الإثنى والعقائدى شيء مخجل. أصبحت مفاهيم "مواطن" و"جنسية" و"وطنية"(٣) فى صلب نقاش على أساس وطنى قومي(٤). كان هناك إذن وعى بالغيرية التى طبقا لهذه الشهادة لم تشكل مشكلة. نتبين أيضا وعيا وطنيا ووضعا لمفهوم الجنسية فى الحسبان(٥) أما التعصب الجمعى والدينى الذى أشار إليه اللورد كرومر فلم يكن فى جدول أعمال الفكر المصرى النهضوى آنذاك. شغلت هذه الثيمة كما سنرى (راجع الفصل الثامن، الفقرة الثانية والفصل العاشر) لفترة طويلة النهضويين الذين نفوه عن أنفسهم طيلة القرن التاسع عشر.

---

(١) "فثار الضباط لتنزيل وزارة رياض باشا وجعل الحكومة دستورية" (١٨٨١/٩/١٣ العصر الجديد): راجع عبده ١٩٤٥.

(٢) "إن تشكيل مجلس النواب هو الوسيلة الوحيدة لما نقصده من الإصلاح" (١٧ و١٨٨١/٩/١٩ الوقائع المصرية): راجع عبده، ١٩٤٥ ص١١١.

(٣) "ولكننا أبناء هذا الجيل يعار علينا أن نسلك ذلك المنهج ونجعل الاختلاف فى المشرب والتباين فى العقيدة علة لعداوة مواطنينا الذين ليسوا على شاكلتنا فى الدين مع كونهم مشاركين لنا فى الجنسية والوطنية". ("المفيد" ١٨٨١/١٠/٢٤): راجع عبده، ١٩٤٥ ص١١٢.

(٤) فيما يتعلق بهذه المصطلحات راجع الملاحق الستة: معجم لغة الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر الذى توجد به من ضمن أشياء أخرى بعض التفسيرات عن أصول هذه المصطلحات والمعانى التى غطتها باختلاف السياقات فى القرن التاسع عشر.

(٥) هذه المفاهيم ستتم رؤيتها تفصيلا أثناء تحليل المادة البحثية المرجعية راجع الفصل الثامن.

نلاحظ من كل ما سبق أنه؛ بينما كانت الحكومة الجديدة الشعبية المصرية، كما يسميها إبراهيم عبده (١٩٤٥، ١١٣) تعمل لكي يعود الهدوء ويبقى، خاصة بالنسبة إلى الصحف المتطرفة استمرت الصحافة الأجنبية المستمرة في مصر في دعايتها. اتخذ الوزير شريف حيال الجميع الإجراءات ذاتها، فمنع وأوقف من الصحافتين القومية والأجنبية تلك التي اعتبرت متطرفة. هاجمت الصحف القومية التي سمح لها بالاستمرار الحكومة رغم كل شيء، خاصة في موضوعي الضرائب بالغة الارتفاع والوصاية الأوروبية التي كانت ترفضها بشدة.

تذرعا بالإبقاء على الهدوء منعت الحكومة صحفا قومية أخرى رأت فيها شيئا من الخطورة؛ وبذا بدأ وضع العراقيل أمام حرية الصحافة واكتسب شرعية (عبده، ١٩٤٥، ١١٣).

زاد على المطالبات الاجتماعية والسياسية (الضرائب والتدخل الأوروبي) مطلب حياة الشورى[١]، ومطلب إتاحة التعليم للجميع بالإضافة إلى الحق في حرية الصحافة. لتلبية الحد الأدنى من هذه التوقعات السياسية والاجتماعية تم تعيين أديب إسحاق ناظرا لقلم الإنشاء والترجمة في وزارة (ديوان المعارف) (عبده ١٩٤٥، ١١٧). بدا الأمر كما لو كان الوضع قد تمت السيطرة عليه. غير أن النواب لم يتقبلوا موقف الحكومة تجاه التدخل الأجنبي وقد أدى ذلك إلى تقديم أديب إسحاق لاستقالته. الواقع أن النواب المصريين بعد أن قبلوا الدين والنتائج الإيجابية والسلبية المترتبة عليه رفضوا أن يحظر عليهم مناقشة الأمر في المجلس معللين ذلك أن

---

(١) "مبدأ الشورى مفهوم رئيسي في الإسلام وهو ذو طبيعة سياسية دينية ويعني "الاسترشاد برأي الآخرين"، وهذا المفهوم ترتكز دلالته على الحكم والأمر من ناحية والشورى من ناحية أخرى وهما المبدءان الوحيدان اللذان لا يمكن المساس بهما" (Gardet, 1961; 186). وقد تحدث محمد عبده عن الشورى في الوقائع المصرية، ونشر ثلاث مقالات عن النظام الدستوري والشورى، كما ذكر أنها ضرورة، والطرق المؤدية إليها هي الأكثر ضمانا لتحقيق النجاح (...) ولكن في حالة الاضطرار فهي تصبح إلزاما (الشريعة) (عبد الملك، ١٩٦٩، ٣٩١). حاول النهضويون فرضها بتقريبها من النموذج الأوروبي الماثل في مجلس النواب، غير أن السلطات التي كان منوطا بها الحكم لم تسمح أن يتم تفعيله. أول المحاولات المجهضة في مصر كانت عام ١٨٦٣ وفي اسطنبول ١٨٧٦. بدءا من هذه التواريخ لم يتوقف المصريون (الناشطون – الكتاب – الصحفيون) في مصر ولا العثمانيون (شباب الأتراك عن السعي لإرساء قواعد مجلس الشورى في السلطة ولكن ذهبت جهودهم سدى.
لمزيد من المعلومات راجع E.I الجزء التاسع ص٥٢٤-٥٢٦ الذي يتناول فيه A. Ayalan مفهوم الشورى في تاريخ ما قبل الإسلام مرورا بالأندلس وحتى العالم العربي الحديث، راجع أيضا الفصل السادس.

واحدة من أهم وظائفهم قد استهزئ بها. فطبقا لآرائهم كان يتوجب مناقشة ميزانية الدولة فى مجلس النواب. إلا أن الإنجليز والفرنسيين لم يتقبلوا أن يسير الأمر على هذا النحو. وتعللوا بأن النواب المصريين ليسوا بعد قادرين على ممارسة وظائفهم باقتدار (راجع الفصل التاسع، الفقرة الثالثة) عندئذ اندلعت حرب صحيفة (إعلامية) ضروس كانت فيها صحيفة الإجيبشيان جازيت "The Egyptian Gazeltte" عام ١٨٨٠ أكثرهم همة وحدة. لم تتقاعس الصحف القومية عن الرد بعنف. مما جعل الصحف الأجنبية ترد الهجوم بضراوة واصفة الصحف القومية بالمتعصبين فى الدين. ولم تتوان وكالات الأنباء "رويتر" و"هافاس" فى نقل الأخبار التى سرعان ما غشت أوروبا. احتل تعصب قلب كل النقاشات الصحفية والسياسية مما اضطر حكومة شريف المصرية إلى الاستقالة. استولى الحزب العسكرى عندئذ على السلطة، ثم جاءت حكومة البارودي[١] بصبغتها الوطنية.

اتخذت الصحافة شكلا جماعيا ووطنيا وانقسمت اعتبارا من هذه الأونة إلى قسمين: صحافة قومية ثورية من ناحية وأخرى تمثل الشوام (السوريين واللبنانيين المقيمين فى مصر) كانت الدعاية الأجنبية قد حققت أهدافها. أصبحت جريدة "الطائف" (١٨٨١/١٨٨٢ عبد الله النديم) الجريدة الهادية للثورة واعتبرت الجريدة الرسمية لهذه الفترة. كان عرابى آنذاك قائدا للجيوش وقد أخذ مبادرة المطالبة بالإصلاحات إلا أن نداءه لم يلق مجيبا مما فجر غضبا عاما. ضاق الشعب والوطنيون ذرعا بكل هذه السنوات من الكفاح والتدخل الأوروبى مما جعلهم يتفجرون ويعبرون عن رفضهم وغضبهم من ابتزاز الحكومة والطموحات السياسية والاقتصادية الغربية.

---

(١) محمود سامى البارودى (١٨٣٩-١٩٠٤) ينتمى لعائلة ثرية وقد تلقى تعليما متميزا. عرف عنه إجادته لعدة لغات، فقد كان يتحدث العربية والفارسية واللغة "العثمانلية". كان أديبا ورجل سياسة، شغل فى الحكومة العثمانية إحدى وظائف الإدارة العليا فى وزارة الخارجية فى القسطنطينية وفى حكومتى الخديو إسماعيل والخديو توفيق. تبنى عام ١٨٨١ القضية المصرية وساند الحركة العرابية وكان قبل ذلك بعامين؛ أى عام ١٨٧٨ قد انضم إلى حلقة الأفغانى وعبده. بعد انتهاء الثورة العرابية تم الحكم بالإعدام على قادتها، وقد تم تخفيف الحكم بعد ذلك للنفى إلى جزيرة سيلان. بقى البارودى هناك سبعة عشر عاما فقد فيها زوجته وبصره وكتب فيها عدة قصائد طويلة. واقع الأمر أنه قد بدأ كتابة القصائد منذ عام ١٨٦٣ مشيدا بالقضية المصرية ومحرضا على الثورة. كان إبراهيم المويلحى صديقا مقربا من البارودي، ارتادا معا الصالونات الأدبية ذاتها، ومنها صالونا الأفغانى ونازلى هانم فاضل. من منفاه تحدث إبراهيم فى صحيفته "مصباح الشرق" وأعلن فيها عن عودته للبلاد عام ١٨٩٩. فتح البارودى من جديد صالونه الأدبى واستمر فى كتابة قصائد بلغ عدد أبياتها ستة آلاف بيت. توفى البارودى عام ١٩٠٤ قبل أن تنشر أى من قصائده. جزء كبير من هذه القصائد نشر فى منتصف القرن العشرين.

أعاد الإنجليز شراء أسهم قناة السويس عام ١٨٧٥ وتم التفتيش المشترك على المالية المصرية التى كانت عام ١٨٧٦ تعانى عجزا شديدا، وقد رفضت فرنسا التدخل فى الأمر والوقوف ضد عرابى إلا أن إنجلترا استغلت الفرصة وتولت الأمر بنفسها واحتلت مصر عام ١٨٨٢. خلال فترة الاضطرابات هذه انقسمت الصحافة المصرية إلى قسمين وفريقين: فريق فى القاهرة حاولت صحفه الثورية استعادة استقلالها وفريق فى الإسكندرية حاول الحفاظ على موقف وسيط. وبالتالى فقد كانت:

"صحف الثورة أثناء الحرب تتبع اتجاه الحكومة، فكان مدير المطبوعات وهو إذ ذاك أحمد رفعت بك – يمد محررى الصحف بنبذ مما جاء فى الصحف الأوروبية لإبرازها إن كانت فى جانب مصر وللرد عليها ومناقشتها إن كانت تخالف أغراض الثورة"(١).

بعد أن وقعت القاهرة فى أيدى الإنجليز توقفت صحف الثورة فورا عن الصدور بشكل عام، وحتى نتمكن من حصر تأثير هذه الفترة المضطربة (١٨٧٧ – ١٨٧٩)، وفترة الثورة التى تلتها (١٨٨٠-١٨٨٢) والسنوات الأولى للاحتلال البريطانى (١٨٨٢-١٨٨٨) رأينا عدد الصحف التى تم تأسيسها خلال هذه السنوات، وقد توصلنا إلى النتائج التالية(٢):

١٨٨٧	١٨٧٨	١٨٧٩	١٨٨٠	١٨٨١	١٨٨٢	١٨٨٣	١٨٨٤	١٨٨٥	١٨٨٦	١٨٨٧	١٨٨٨
٦	٣	٤	٣	١٢	٩	صفر	٢	٤	٦	٧	٩

نلاحظ إذن أنه أثناء فترات الكفاح تزايد عدد الصحف، أما بعد الهزيمة فقد اختفت لمدة عام، واستعادت بعد ذلك نشاطها ببطء شديد بدءا من عام ١٨٨٤. سجل عام ١٨٨٨ وصولا للقمة تبعه بعد ثلاث سنوات استعادة "لافتة" للقوة. تميزت هذه الفترة بدخول البرقيات فى الصحافة العربية المكتوبة. يمكن إذن القول: إن الصحافة

---

(١) نبذة مقتبسة من نقاش ١٩٩٧-٢٠٠١ "مصر للمصريين" الجزء السابع ص٢٦٥. ورد ذلك أيضا فى كتاب عبده ١٩٤٥ ص١٣٠.

(٢) هذه النتائج ثمرة تقاطع مصادر تحصر صحف القرن التاسع عشر. لمزيد من المعلومات راجع الملحق الثاني: عدد الدوريات العربية والأجنبية فى مصر فى الفترة الواقعة بين عامى ١٧٩٨ و١٩٠٣ والملحق الثالث: قائمة الصحف المؤسسة فى مصر بين ١٧٩٨ و١٩٠٣ وقائمة المراجع.

لعبت دورا أساسيًا في الأحداث السياسية القومية خلال هذه الفترة وشاركت في الكفاح السياسي ضد التدخل الدولي المتمثل في التحالف الفرنسي – الإنجليزي، ثم في الإنجليز وحدهم. انطلقت الدوريات انطلاقتها بدءا من أداة تواصل بسيطة إلى ناقل وشاهد وفاعل في الحياة السياسية في مصر. أما عن حرية الصحافة فقد كان ينظر إليها تبعا للظروف إما كمذيب اجتماعي وإما كأعلى مظاهر حرية الفكر" (فؤاد، ١٩١٢، ٢٧٩).

أيا ما كان الأمر فقد كانت الفترة الممتدة من ١٨٧٧ إلى ١٨٨٢ مرحلة أساسية للصحافة، فقد مرت فيها من صحافة شعبية تعارض على استحياء إلى صحافة رافضة وثورية. كانت الصحافة المصرية مجرد ناقل وأصبحت فاعلا ذا تأثير على سياسة البلاد. دخلت تاريخ مصر ولعبت دورا محوريا في مستقبل الأمة. بلغت الصحافة مكانة واكتسبت سلطة لدرجة دفعت الإنجليز إلى منع توزيع بعض الصحف المصرية المهاجرة إلى أوروبا؛ ومنها على سبيل المثال: "العروة الوثقى" عام ١٨٨٤؛ بحجة الحفاظ على النظام العام كما جاء في جريدة "الوقائع الرسمية" الصادرة بتاريخ ١٥/٥/١٨٨٤ (عبده ١٩٤٥، ١٤٣)؛ نتيجة ذلك تم سن قوانين العقوبات وقانون الصحافة في الثالث عشر من نوفمبر ١٨٨٣[١]، بالإضافة إلى قانون منع النشر بعد ذلك بعام واحد؛ أي عام ١٨٨٤[٢].

في هذا الخضم، كانت الصحافة الفرنسية هي الأخرى هدفا ومرمى للإنجليز، الذين كانوا يرفضون وجود منافس. غير أن إنجلترا سرعان ما اضطرت إلى التراجع وإعادة النظر في موقفها؛ خشية ضياع أسواق ونقض اتفاقات الشراكة مع فرنسا. من هنا فخلال السنوات الأربع الأولى من الاحتلال الإنجليزي كانت الصحافة في مصر، العربية والأجنبية بين إيقاعي المنع والإيقاف.

٤- ذروة الصحافة المكتوبة في مصر في القرن التاسع عشر

كانت الصحيفة قد اكتسبت مكانة وشهرة وأصبحت سلاحا سياسيًا. من بين الصحف العربية اختار البريطانيون لهم صحيفة موالية هي صحيفة "المقطم" التي تم تأسيسها في التاسع والعشرين من أبريل ١٨٨٨ في القاهرة. أسس هذه الجريدة

---

(١) راجع صابات، سامي ويونان ١٩٧٣ ص١٠١-١٠٢.

(٢) راجع صابات، سامي ويونان ١٩٧٣ ص١٠٢-١٠٤.

السياسية اليومية "صروف" و"تمر" وأضحت جريدة الاحتلال. لمواجهتها وإدارة هذه الحرب الإعلامية التى أغفل لورد كرومر ذكرها فى تقريره عن الصحافة فى مصر (١٩٠٣) توجب إيجاد قوى أخرى غير المتاحة التى لم تكن قادرة خلال هذه الفترة على مواجهة الدعاية الإنجليزية؛ مثل: صحيفتى "الأهرام" و"الوطن".

تشاورت النخبة ووصلت إلى فكرة أن هناك ضرورة عاجلة لتأسيس جريدة جديدة ذات توجه قومي. عرض هذا المقترح على رياض باشا بواسطة رجال ذوى نفوذ وتأثير قريبين منه وحائزين على ثقته الكاملة. وقد وافق رياض باشا عليه. فى الأول من ديسمبر ١٨٨٩ اضطلع على يوسف وكان واحدا من كبار صحفيي العصر ومالكا لمجلة أدبية بعنوان "الأدب" تأسست فى بداية ١٨٨٩، بمسئولية هذه الجريدة الجديدة المسماة "المؤيد" ويمكننا هنا القول: إن المرحلة الأخيرة من تاريخ الصحافة المصرية فى القرن التاسع عشر؛ وهى المرحلة السابعة قد بدأت فى ١٨٨٨/١٨٨٩ مع صحيفتى "المقطم" و"المؤيد" اللتين تصدرتا المشهد الصحفى والسياسي. وقد استمرت هذه المرحلة الجديدة من تاريخ الصحافة المكتوبة فى مصر حتى ١٩٠٣ نظرا لكون عام ١٩٠٤ عام الوفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا هو نقطة انطلاق مرحلة جديدة للصحافة المصرية.

شهد عام ١٨٨٨ ظهور تسع صحف وبدا الأمر وكأن هناك استعادة للقوى غير أن العامين التاليين لم تر فيهما النور إلا أربع فقط، حتى إنه لا يمكن الحديث عن معاودة انطلاق حقيقية إلا اعتبارا من عام ١٨٩١. بلغ متوسط الصحف التى تم تأسيسها خلال الأعوام من ١٨٩١حتى ١٨٩٩ نحو تسع وعشرين صحيفة فى العام فكما يشير الجدول التالى تراوح العدد بين اثنتى عشرة صحيفة كحد أدنى وثلاث وخمسين صحيفة كحد أقصى تبعا للأعوام:

١٨٨٩	١٨٩٠	١٨٩١	١٨٩٢	١٨٩٣	١٨٩٤	١٨٩٥	١٨٩٦	١٨٩٧	١٨٩٨	١٨٩٩
٣	١	١٢	١٢	٢١	٢٤	٢٩	٣٦	٣٩	٥٣	٣٩

فى السنوات الأولى من القرن العشرين؛ أى فيما بين ١٩٠٠ و١٩٠٣ كان المتوسط السنوى للصحف المؤسسة سنويًا ٣٨ صحيفة؛ وهو ما يعنى أن الحد الأدنى هو ٢٧ صحيفة أما الحد الأعلى فهو ٥٠ صحيفة سنويًا.

١٩٠٣	١٩٠٢	١٩٠١	١٩٠٠
٥٠	٣٣	٢٧	٤٢

فى الوقت الذى بلغ متوسط المرحلة الأولى للصحافة المصرية باللغة العربية فيما بين الأعوام ١٨٢٨ و١٨٦٥ نحو ٠,١٨ صحيفة سنويًا.

	المرحلة الأولى	المرحلة الثانية	المرحلة الثالثة	المرحلة الرابعة	المرحلة الخامسة	المرحلة السادسة	المرحلة السابعة
	١٧٩٨ ١٨٢٧	١٨٢٨ ١٨٦٥	١٨٦٦ ١٨٦٩	١٨٧٠ ١٨٧٧	١٨٧٧ ١٨٧٩	١٨٨٠ ١٨٨٨	١٨٨٩ ١٩٠٣
عدد الصحف	صفر	٧	١	عشرة	١٣	٥٢	٤٢١
المتوسط تبعا للمرحلة	صفر	٠,١٨	٠,٢٥	١,٢٥	٤,٣٣	٥,٧٧	٢٨,٠٦
عدد الصحف سنويًا(١)	صفر	١٨٢٨١	١٨٦٦:١	١٨٧٠ ٢	١٨٧٧ ٦	١٨٨٠ ٣	١٨٨٩ ٣
		١٨٣٣١		١٨٧٣ ٢	١٨٧٨ ٣	١٨٨١ ١٢	١٨٩٠١
		١٨٤٨١		١٨٧٥ ٣	١٨٧٩ ٤	١٨٨٢ ٩	١٨٩١١٢
		١٨٥٨١		١٨٧٦ ٣		١٨٨٣ صفر	١٨٩٢١٢
		١٨٦٥١				١٨٨٤ ٢	١٨٩٣٢١
						١٨٨٥ ٤	١٨٩٤٢٤
						١٨٨٦ ٦	١٨٩٥٢٩
						١٨٨٧ ٧	١٨٩٦٣٦
						١٨٨٨ ٩	١٨٩٧٣٩
							١٨٩٨٥٣
							١٨٩٩٣٩
							١٩٠٠٤٢
							١٩٠١٢٧
							١٩٠٢٣٣
							١٩٠٣٥٠

(١) راجع الملحقين ٢ و٣ تباعا: عدد الدوريات العربية والأجنبية فى مصر بين ١٧٩٨ و١٩٠٣.
قائمة الصحف التى تم تأسيسها فى الفترة من ١٧٩٨ و١٩٠٣.

بلغت الصحف المصرية فى القرن التاسع عشر على مدى مائة وخمسة أعوام نحو خمسمائة وأربع صحيفة وهو ما يصل بالمتوسط السنوى إلى ٤,٨؛ بينما يبلغ عدد الصحف الأجنبية المنشأة والمستقرة فى مصر فيما بين عامى ١٧٩٨ و١٩٠٣ مائة واثنتى صحيفة بمتوسط قدره ٠,٩٧ سنويًا. ونلخص ذلك كله على النحو التالي.

- الفترة الأولى (١٨٢٨-١٨٦٥) النشأة والتكوين: ٠,١٨ صحيفة سنويًا.
- الفترة الثانية (١٨٦٥-١٨٩٠) الانتعاش واللهاث: صحيفتان سنويًا.
- الفترة الثالثة (١٨٩٠-١٩٠٠) استعادة القوة والازدهار: ٢٩ صفحة في المتوسط سنويًا.

(بين حد أقصى قدره ٥٣ وحد أدنى يبلغ ١٢ صحيفة سنويًا).

- الفترة الرابعة (١٩٠٠-١٩٠٣): الصحافة الجديدة: ٣٨ صحيفة في المتوسط سنويًا.

(بين ٥٠ صحيفة بحد أقصى و٢٧ بحد أدنى سنويًا).

ويوصلنا ذلك إجمالا إلى:

- (٥٠٤) صحيفة عربية فى مائة وخمسين عاما بمتوسط قدره ٤,٨ صحيفة سنويًا.
- (١٠٢) صحيفة أجنبية فى مائة وخمسين عاما بمتوسط يبلغ ٠,٩٧ (أى ١) صحيفة / سنويًا.

من هنا نرى أنه بينما كان عدد الصحف يتنامى كانت حرية الصحافة تتأرجح بين الخطر والعقوبات. من هذا المنطلق نرى أن صحيفة "الأستاذ"(١) الشهيرة ١٨٩٢ التى أسسها عبد الله النديم (١٨٤٣-١٨٩٦) سرعان ما وصفت بالمتعصبة فى الدين.

---

(١) لمزيد من المعلومات عن هذه الصحيفة وعن مجموعة الصحف التى استندنا إليها فى المادة العلمية الثانوية. راجع الملحق ١: معلومات صحف المادة العلمية ومواصفاتها.

وقد أدى ذلك إلى أمر اللورد كرومر بمنعها وإرغام عبد الله النديم على مغادرة البلاد. بعد أزمة الوصايا المزدوجة الفرنسية – الإنجليزية والتدخل السياسى الأوروبى والاحتلال الإنجليزى ركزت الصحف العربية جهودها على مسألة أخرى هى مسألة "فاشودة". فى عام ١٨٩٨ وهو الأكثر غزارة فى تأسيس الصحف فى القرن التاسع عشر (تأسست فيه ثلاث وخمسون صحيفة) انفجر أمر كان على وشك أن يكون سببا فى اندلاع حرب مائة عام ثانية بين الإخوة الأعداء فرنسا وإنجلترا. وقع ذلك فى فاشودة فى السودان، فى قلب إفريقيا. لقيت كتيبة صغيرة من الجيش الفرنسى هناك قوات إنجليزية – مصرية بقيادة الجنرال كتشنر التى كانت لتوها قد هزمت جيش المهدي. تسببت هذه المواجهة فى درجة عالية من الهياج والاضطراب فى لندن كما فى باريس، حتى إن صحف العالم بأسره جعلت منها الخبر الأساسى خلال العام كله، ذلك أنها كانت أول أزمة دولية تشكل جزءا من أزمات عديدة تالية أدت إلى الحرب العالمية الأولى.

خصت هذه المسألة مصر لتورطها فيها بشكل مباشر، فهجوم المارشال وقع على الجيش الإنجليزى – المصري. هذا غير أن هذه المسألة كانت قد أصبحت مسألة قومية فى مصر، وأضحى اللواء المصرى والهوية القومية من محاورها. عقب هذه الأحداث قامت الصحف القومية بإعادة رواية التاريخ الاستعمارى لإنجلترا وفرنسا مبرزة سياستهما المغرضة التى تكشفت واتضح كونها غير حامية ولا معينة على التحضر.

أبرزت صحف أخرى فى الوقت ذاته أن السودان تابع لمصر منذ عهد محمد على، وبالتالى فقد وقع عدوان على الجيش المصرى بالقدر ذاته الذى وقع به على الإنجليز، ومن هنا فالأزمة أيضا مصرية. أكدت الصحف كذلك على أن العلم المصرى يتوجب رفعه فى فاشودة أسوة بالعلم الإنجليزى إن لم يسبقه فى ذلك. وأضافت أن على فرنسا مغادرة الأراضى المصرية السودانية. انتهت هذه المسألة بفشل ذريع للفرنسيين الذين اضطروا لسحب قواتهم ورفع للعلمين الإنجليزى والمصرى هناك لمدة يوم كامل.

أدركت الصحافة المصرية بعد هذه الأحداث أنها لا يمكنها الاعتماد إلا على نفسها للدفاع عن استقلال مصر ما دامت فرنسا قد أصبحت من هذه الأونة فصاعدا وإلى الأبد فى المعسكر المعادي. شهد العام ذاته ١٨٩٨ ميلاد صحف كبرى محورية فى تاريخ الصحافة المصرية والعربية نذكر منها:

- "المنار" عام ١٨٩٨ التى أسسها "رشيد رضا".
- "حلوان" عام ١٨٩٨ – "أحمد يوسف يكن ومحمود طاهر".
- "مصباح الشرق" عام ١٨٩٨ – "إبراهيم المويلحي".
- "الضياء" عام ١٨٩٨ – "إبراهيم اليازجي".

ويمكن القول فى النهاية: إنه فى العامين ١٨٩٩ و١٩٠٠ أن صحفا ومجلات كبرى قد تم تأسيسها.

- "الجامعة" – "فرح أنطون" (١٨٩٩).
- "سوق العصر" – "محمد فرج وحمدى يكن" (١٨٩٩)
- "البورصة المصرية" – "هنرى بوتينيه" (١٨٩٩).
- "سلسلة الروايات" – "محمد خضر وباشى الحلبي" (١٨٩٩)
- "الكوكب المصري" – "مصطفى كامل" (١٨٩٩).
- "اللواء" – "مصطفى كامل" (١٩٠٠).
- "العصر الجديد" – "إسكندر شلهيب" (١٩٠٠).

لعبت صحافة نهاية القرن التى ظهرت إلى الوجود فيما بين ١٨٩٠ و١٩٠٣ دور المربى والواعظ والمصلح والمجدد. أحد العناصر التى تشهد بذلك هى العناوين التى حملتها، فقد كانت أسماء الصحف وحدها دالة رمزيا على الرسالة الأساسية التى ترغب هذه الصحف فى بثها والمهمة الرئيسة التى حددتها لنفسها. لاحظنا استعمال كلمات الفنار أو النبراس، المصباح والشعلة... إلخ. فى هذه الأسماء أو العناوين نرى هذه القناعة أن هناك واجبا يحتم عليهم تبصير جموع

القراء وإرشادهم؛ أى الأمة. هناك بالإضافة إلى ذلك وجـود لكلمـات: الـشرق، العثمانى أو المصرى تسمح برؤية ما يعتبرونه من جانبهم رهانا وهـو مواجهـة الشرق للغرب. يجعلنا هذا نقول فى النهاية أنه اعتبارا مـن ١٩٠٤ أن الـصحافة المصرية والعربية قد أخذت منحى جديدا خاصة بعد الوفاق الـودى بـين فرنـسا وإنجلترا. بدأ عصر جديد، مع القرن العشرين الذى لن نتناوله هنا.

كان إبراهيم المويلحى إذن أحد رواد النهضة الـصحفية العربيـة باعتبـاره المؤسس الأول لأولى الصحف الشعبية الحرة عام ١٨٧٠ "نزهة الأفكار" التى تعد أول صحيفة حرة فى تاريخ "الحضارة الصحفية" المصرية. قبل هذا التاريخ بعامين؛ أى عام ١٨٦٨ كان إبراهيم المويلحى قد أسس أول دار نـشر مـصرية بمبـادرة خاصة. كما شارك فى العام ذاته ١٨٧٠ فى واحدة من أولى المبادرات الخاصة فى الترجمة، وهو واحد من أوائل المصريين المهاجرين الذين أسـسوا جريـدة فـى أوروبا: فى روما ١٨٧٩ وباريس فى عامى ١٨٨٠ و١٨٨٤. أدى قرب إبـراهيم من الزعيم الأفغانى إلى انتمائه إلى الماسونية المصرية ومـشاركته فـى تأسـيس وتحرير أول مجلة شرقية فى الإصلاح النهضوى "العروة الوثقى" (باريس ١٨٨٤).

كان إبراهيم باعتباره رجلا سياسيا واحدا من أوائل المصريين الذين اهتمـوا بكتابة الدستور المصرى فى الفترة من ١٨٧١ إلى ١٨٧٩ وشارك، وإن كان عـن بعد مع فعالى الثورة العرابية.

فى العقد الواقع بين عامى ١٨٨٥ و١٨٩٥ لعب دورا أساسيًا فى تنظيم التعليم العثمانى بوصفه عضوا معينا من قبل السلطان عبد الحميد الثانى شخصيًا.

نشر إبراهيم عام ١٨٩٦ عن السلطان كتابه الشهير "ما هنالك" وهو المؤلف الذى أمر السلطان بجمع كل النسخ المطبوعة منه وحرقها. (راجع الفصل السادس)

أما فى عام ١٨٩٨ وهو أحد الأعوام المفصلية فى تاريخ الصحافة المصرية المكتوبة فى القرن التاسع عشر قد أسس إبراهيم أطول صحفه أمدا وهو "مـصباح الشرق" الذى سنرى فى الفصل الثامن كيف أن خطبه وحكاياته قد شـكلت إيقـاع الحياة اليومية للمصريين، وساهمت فى تكوين ما يعـرف بالعـصر النهـضوي، وبعبارة أخرى فى وعظ الأمة وتعليمها وتربيتها.

في نهاية حياته، كتب إبراهيم مقالات في الصحيفة الموالية للمصريين "المؤيد" معارضة "للمقطم" التي كانت تتبنى وجهة النظر البريطانية وتدافع عنها التي رغم ذلك كان قد نشر بها بعض المقالات عام ١٨٩٧ (راجع الفصل السابع).

يبدو من محصلة ذلك أن المسيرة المويلحية لم تكن نموذجا متناهي الصغر للنهضوي النمطي؛ وإنما نموذجا للنهضوي غير النمطي الذي أدى حيده عن المسار المألوف إلى جعله أحد الرواد الذين تصعب الإحاطة بكل جوانبهم، وواحدا من الذين رفض أو عجز التاريخ عن تناولهم. من المؤكد أن إبراهيم رغب في أن يتواجد على كل الجبهات، ولكن ألم يفرض العصر ذلك على كل من كانوا يطمحون إلى جعل مصر أمة بين أمم العالم؟ ألا يوضح لنا هذا التناول للمسيرة المويلحية؛ أي لمسيرة كل من الأب والأخ والابن أنها تكوين مصغر في داخل مجتمع هو ذاته في مرحلة تحول وكلاهما في عالم يحاول إعادة بناء ذاته؟ ألم يكن بالتالي طبيعيّا أن يتمحور كل شيء حول البحث عن الذات وعن سبل إعادة بنائها؟

من الواضح أنه فيما يتعلق بالاتجاهات وبالأساليب الواجب تبنيها كانت النهضة تتلمس طريقها وكثيرة التردد، كذلك حال الصحفيين الممثلين لها. لا يمكن بالتالي هنا الحديث عن ازدواجية؛ وإنما عن محاولة تفادي الضغوط الآنية. سياسية كانت أم اجتماعية أم ثقافية. لم يكن إبراهيم المويلحي مواليا لمصر ليصبح بعد ذلك مواليا للعثمانيين، ويعود ثالثا للدفاع عن مصر. كان في كل الأحوال مصريا يوجه حديثه إلى الأمة المصرية باعتباره مواليا لمصر الولاية المستقلة والمرتبطة في الوقت ذاته بالإمبراطورية العثمانية باعتبارها سلطة مركزية (على المستوى العالمي). هذا يعني أنه كان مرتبطا بممثل الخلافة الوحيد؛ أي ممثل الأمة. من هنا كان إبراهيم مواليا للخلافة وليس للعثمانيين. ما لم يكنه إبراهيم قط هو مواطن موال للسلطان. تماشى مع الأمر دون أن يكن أحد مريدي سياسته. لم يكن إذن ازدواجيا؛ وإنما نهضويا وباحثا دوما عن وسيلة إلمام بعصره؛ ليتمكن من تحسين الحياة مجتمعيا. وقد اختار تحقيقا لهذا الهدف مثله في ذلك مثل معاصريه الكتابة والتواصل. من هنا كانت للصحافة المكتوبة كوسيلة لذلك مكانة متصاعدة الأهمية والتأثير في مجال السياسة في مصر.

بعيدا عن كل ذلك شاركت هذه الصحافة فى تكوين وصياغة أيديولوجيات وتصورات سياسية واجتماعية وثقافية وأدبية؛ وبذا أضحت الصحافة المكتوبة في مصر نسقا متناهى الصغر فى نسق سياسى متناهى الكبر.

من هنا فإنه انطلاقا من النموذج الأوروبى الحضرى والإدارى والتعليمى والصحفي؛ أى النموذجى أجنبى أو خارجى المنشأ انتهى الأمر بالنهضويين بعد تقليد ومواءمة إلى الوصول إلى نسقهم الخاص الداخلي. تكون هذا الأخير من إجمالى الاقتباسات عن أوروبا والتقاليد المتوارثة الخاصة بهم والتجديدات الجارية؛ أى من مجموعة عناصر خارجية وداخلية المنشأ وصلت فى النهاية إلى تكوين جديد.. تماما تابع لهذه الحضارة وحدها، حضارة النهضة. من هنا يمكن القول: إن تاريخ الصحافة المصرية وصحفييها الفاعلين جزء لا يتجزأ من تاريخ النهضة العربية السياسية والاجتماعية والثقافية، فقد كانت الصحافة لها داعما وناقلا.

خاتمة:

رأينا لتونا أنه في هذا السياق النهضوى الذى تم على مرحلتين في القرن التاسع عشر اندرج فكر عربى جديد ومتجدد. فى هذا الإطار من الأطروحات الجديدة لمستقبل مصر والعالمين العربى والإسلامى من القمة والقاعدة استقرت النهضة، أو لنقل بتعبير أدق بدأ التقويم والتطهير المجتمعي. بدأت اليقظة العربية رحلتها الطويلة إلى التقدم بتبنى التقنيات والبنيات التحتية الحضرية واستحداث وسائل للمواصلات مرورا بالتأسيس للطباعة وللتعليم الأهلى مع اهتمام خاص بالترجمة والدوريات.

حظيت هذه الأخيرة باهتمام الجميع؛ كبار الباشوات، والقائمون على الحكم الخديوى فى مصر، والمثقفون من الصحفيين الذين كانوا يشكلون نخبة رجال الفكر ويمثلون أساس الفكر النهضوي. غشى هذا الفكر جميع الجبهات التقنية والحضرية والسياسية والثقافية والدينية وأولا وأخيرا الألسنية. لم يهمل مجال، كلها حظيت بتناول دقيق مطول، وأضحت الصحيفة مكانا لكل هذا النقاش النهضوي. هذه الوسيلة فى التواصل كانت فى بداية الأمر متبناة من قبل الدولة وموجهة إلى الشعب، ثم أصبحت بعد ذلك وسيلة النخبة النهضوية فى التواصل مع الشعب.

احتلت الدوريات مركز الأدب وتاريخ النهضة فى مصر والعالم العربى، وأصبحت الرابط الوحيد والأميز الذى عبر من خلاله المفكرون النهضويون عما فى أذهانهم طوال القرن التاسع عشر. من خلالها تكون الفكر النهضوى بكل ما يحمله من توافقات وتناقضات وبين دفتيها كتب تاريخ الأدب واللغة العربية الحديثين. هذان المجالان هما تحديدا اللذان يمثلان اليوم الشاهدين المباشرين على النهضة، بفضل ما تبقى لنا من صحف كانت تصدر آنذاك.

من هنا كان لزاما على ما يرغب فى تتبع تطور الفكر النهضوى أن يهتم بالركائز والأنواع الأدبية التى عبرت فيها النهضة عن نفسها، وأن يرى عن قرب ما كان هذا الفكر يبغى قوله والتوقيت الذى قيل فيه مع إيضاح الكيفية والأسباب.

ليتحقق ذلك من المهم إلقاء نظرة جديدة على هذه الحركة خاصة الجانب الصحفى منها. من هنا رأينا أن نحاول من خلال الكتابات الدورية إيجاد عناصر تصلح كإجابات، أو مفاتيح تسمح بفتح أبواب مجالات النهضة، التى لم يكتشفها أحد بعد. ونسجل هنا أن عددا نذيرا من الدراسات قامت بذلك انطلاقا من الكتابات الصحفية الأصلية الخاصة بالنهضة.

بعض منهم حاول ذلك؛ مثل: نوربر تابييرو Norbert Tapiero فى أطروحته التى تحمل عنوان: "أفكار الكواكبى الإصلاحية ١٢٦٥-١٣٢٠ = ١٨٤٩-١٩٠٢ مساهمة فى دراسة الإسلام الحديث"[١]، التى لا يؤخذ عليها سوى عدم ضمها كملاحق للنصوص الأصلية التى ترجم مقدمها جزءا كبيرا منها. هناك ممن حاولوا أيضا جورج هارون الذى ألف عام ١٩٨٥ كتابه "شبلى شميل، فكر تطورى عربى فى عصر النهضة"[٢]، وآن-لور ديبون التى قدمت دراسة عن جورجى زيدان وآلان روسيون الذى قام ببحث عن عبد الله النديم.

الواقع أن معظمهم قدم لنا معلومات عن العصر وعن كل الإسهامات فى النهضة دون أن يمدونا بإيضاحات ودلائل نصية صحفية. ويمكن القول: إن ما كتب عن النهضة فى أدب الصحافة يتصف إجمالا بالتجريد. أما عن كونها قد تناولت مجالات عدة فهو وإن كان يشكل صعوبة إلا أنه فى نهاية الأمر مبعث ثرائها. وتاريخ الصحافة العربية المكتوبة ليس تاريخ النهضة؛ وإنما تاريخ ركيزة أو وسيلة اتصالية من خلالها تم التعبير عنها وفهمها. من هنا لزم الاهتمام بدراستها تفصيليا وفى مرحلة لاحقة رؤية تفاعلها مع التاريخ الأدبى للنهضة. هذا التاريخ على النقيض من تاريخ الصحافة العربية، مدعم بالوثائق والمراجع ومدروس بشكل جيد.. ونورد على سبيل المثال مؤلفين:

- "تاريخ الأدب العربى الحديث"[٣].

---

(١) باريس "الطبعات العربية" ص١١٢.

(٢) لبنان بيروت، نشرة الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية توزيع المكتبة الشرقية ص٤٩٨.

(٣) الجزء الأول: ١٨٠٠-١٩٤٥ Hallaq et Toelle 2007 ص٧٨٤.

- "الرواية العربية" (١٨٣٤-٢٠٠٤)[1] (راجع قائمة المراجع).

إلى هذين العملين يمكن إضافة دراسات أقل حداثة حول الفكر العربى فى مواجهة الغرب التى كانت إسهاماتها بالغة؛ مثل: كتاب البير حورانى "الفكر العربى والغرب"[2] التى ما زالت حتى الآن قراءته تثرى بالمزيد والذى لم ترد فيه كلمة "نهضة الأمرة واحدة فى الصفحة رقم ٢٧٩".

لن نتمكن بالطبع هنا من ذكر كل المراجع – فقد خصصت قائمة المراجع لهذا الغرض – ولا مداواة النقص الذى رغبنا ألا تعانى منه دراستنا – الحقيقة أننا نلاحظ أنه فى الدراسات الغربية كما فى الشرقية لا تعار النصوص الأصلية الاهتمام الواجب. إلى هذه الصعوبة يمكننا إضافة صعوبة الصلات والعلاقات بين العرب خلال هذه الفترة. وهذا ما لاحظته أيضا آن لور ديبون التى تقول: "كان للنهضة فى النفوس والضمائر العربية ثقل كبير (...) وأن التحليل التصورى للنهضة قد تم عمله بصعوبة" (٢٠٠٦، ٣٢).

وقد أردفت قائلة: إنها من هذا المنطلق قد شرعت فى دراسة جورجى زيدان الذى سمحت أعماله بقياس أثر الإحساس بالعيش فى ظل نهضة على القومية العربية" (٢٠٠٦، ٣٣). على النحو ذاته تتدرج دراستنا للنهضة من خلال كتابات إبراهيم المويلحى التى تأمل قياس مساهمتها الصحفية فى النهضة. هذا الناقد القاطع اللاذع اللامع على الطريقة التقليدية والسياسى المتآمر الذى لا يكل ولا يمل" (آلن Allen ١٩٩٣، ٨١٥) والذى كان "كُرد على" يصفه أنه "أكبر كتاب عصره وبأنه الرجل الذى كان يمكنه الكتابة بجزالة عن أكثر الموضوعات سأما ومللا" (آلن ١٩٩٣، ٨١٥). وهذا يجعلنا نتساءل بالفعل: ماذا عن كتابته؟ أى آثار تركتها على تاريخ النهضة العربية بين الصحافة المكتوبة والأدب الحديث؟؛ أى إجمالا ما المساهمات الصحفية المويلحية بين الإحياء والاقتباس؟ بين ما هو خارجى وما هو داخلى النشأة؟ بين الشرق والغرب؟

---

(١) جهاد، ٢٠٠٦ ص٣٩٥.
(٢) راجع حورانى ١٩٩١ ص٤٠١.

الباب الثانى

الخطاب الصحفى ذو المغزى السياسى والدولي: "الاتحاد"، "ما هنالك" ومقالات إبراهيم المويلحى فى "المقطم" و "المؤيد"

"الحاجز المانع للاستبداد والطغيان هو حرية الصحافة".

"ديمولان Desmoulins"

مقدمة

انطلاقا من هذا المبدأ ومن سياق الصحافة المكتوبة النهضوية عـام ١٨٨٠ نتساءل هل كان الأمر بالنسبة إلى الصحفيين والصحافة العربية فى أوروبا يتعلـق بالحرية أم بالطاعة السياسية؟ هل كانت حرية منتزعة أم دعاية مؤيدة أو معارضة للعثمانيين والإمبريالية أم كانت محاولات بسيطة للوقوف ضد السلطة من قبل ساسة سابقين سقطوا؛ مثل: الخديو السابق إسماعيل على سبيل المثال؟

هل كانت هذه الصحافة المنفية حرة؟ وإلى أى أنواع الأيديولوجيات المنطـق والمشروعات كانت تخضع؟ الواقع أن هذه الصحافة المصرية المكتوبة كانت فـى مرحلتها السادسة[١]. تلك التى يميزها ظهور قانون الصحافة عام ١٨٨١ ومـيلاد فرعها الشعبى المعارض والرافض للتدخل البريطانى فى مصر.

تلت هذه المرحلة فترة الاضطرابات والقلاقل ١٨٧٩ التى انتهت عام ١٨٨٢ بالحماية الإنجليزية على مصر – هذه المرحلة هى التى شهدت أيضا بداية تـاريخ الصحافة العربية المكتوبة فى المنفى وتحديدا فى أوروبا وفى أميركا.

باعتبار الصحافة المكتوبة أداة النهضة وأساسها [٢] والمجال الذى كانت تعبر فيه هذه النهضة عن نفسها، ومحاولة منا فهم الأسـاس الأيـديولوجي؛ أى أسـاس

---

(١) راجع الفصل الرابع الفقرة الثانية.

(٢) أى الأداة الأساسية حتى لا تقل الوحيدة التى سمحت بإقامة هذه النهضة وجعلتها فعالة بين النخبة والأمة من ناحية، ومن ناحية أخرى بين الساسة المصريين والإنكليز دون تمييز. لنتخيل لحظة هذا العصر وهذه النهضة بدون الصحافة ماذا كان يتبقى لنا منها اليوم؟ وما الذى كانت الأمة ستعرفه إذا لم تكن النخبة قد استخدمت الدوريات للحديث عنها؟ بهذا المعنى تحديدا نرى أن الصحافة المكتوبة قد شكلت ركيزة وأساسا للنهضة العربية فى القرن التاسع عشر ما دامت السبيل الوحيد الذى كان آنذاك متاحا للاتصال والتواصل.

النهضة من خلال صحف هذه الفترة ومنها الصحف الخاصة بـــإبراهيم المــويلحى تحديدا، لنر ما كانت كتابات إبراهيم الصحفية الأولى نقوله عن كل ذلك. ما الـــذى كانت تحويه هذه الكتابات وإلام كانت تهدف؟ أى الأساليب الصحفية وسبل المحاجاة والبرهنة تبنت؟ وأى نتائج وتوابع ترتبت عليها فى الإطار العـــام للنهــضة وفـــى الإطار الأقل اتساعا الخاص بإبراهيم باعتباره ناشطا نهضويا فاعلا فى عصره.

الفصل الخامس

"الاتحاد" (١٨٨٠/١٨٨٤) أعماله السياسية:

إبراهيم والخديو إسماعيل

لم يكن قط طرفا الشق أكثر وضوحا ولا المتعة المقدمة للقارئ أعلى درجة – ليت لديه على الأقل هذا الحس.

الزيف والتدمير غير المباشر[١].

١- الصحافة المصرية فى المنفى: المثال المويلحي

بدأ إبراهيم المويلحى عمله الصحفى عام ١٨٧٠ بأول مؤسسة جماعية له على الإطلاق بالاشتراك مع محمد عثمان جلال. كان من نتائج هذه البداية ترجمة لكتاب إيطالى عن فن الأوبرا: "ألعاب التياترات"[٢]، وتأسيس لأول جريدة مصرية شعبية حرة بمبادرة خاصة "نزهة الأفكار"[٣] (١٨٧٠). أما صحيفة "الاتحاد"[٤]؛ فقد كانت ثالث صحفه وكان محررها الوحيد وأن لم يكن مؤسسها الوحيد، على الأقل من الناحية غير الرسمية. لنفهم بشكل أفضل تاريخ هذه الصحيفة النهضوية وتاريخ إبراهيم يجب العودة أكثر إلى الوراء فى تاريخ إبراهيم الشخصي. كان إبراهيم يتمتع بالحماية الشخصية من الخديو إسماعيل وقد أصبح فيما بعد شديد القرب منه وكاتما لأسراره. هاجر إبراهيم إلى أوروبا واستقر عام ١٨٧٩ فى نابولى، ثم

---

(١) "بارت" ١٩٩٣ (١٩٧٣) ص١٧.

(٢) للاطلاع على النصوص راجع المجلد الثانى الفقرة (٢) ولمزيد من المعلومات حول هذا المؤلف، انظر الفصلين الثالث والرابع.

(٣) للاطلاع على النص انظر المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (h) ولمزيد من المعلومات حول هذه الجريدة راجع الفصلين الثالث والرابع.

(٤) للاطلاع على النص انظر المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (d) (نسخة منقولة) والملحق العاشر الفقرة (h) (نسخة أصلية) ولمعرفة المحتوى انظر الفصل السادس.

غادرها إلى باريس عام ١٨٨٠؛ حيث بقى أربع سنوات. فى نهاية عام ١٨٨٤ لحق بصديقه "الأفغاني" الذى كان برفقة "عبده" فى لندن. بعد عام كامل؛ أى فى ١٨٨٥ سافر إلى اسطنبول وبقى فيها حتى عام ١٨٩٥ تاريخ عودته إلى مصر. يتوافق تاريخ سفره إلى أوروبا مع تاريخ خلع السلطان عبد الحميد الثانى للخديو إسماعيل. الواقع أن إبراهيم سافر بصحبة الخديو باعتباره كاتما لأسراره وسكرتيرا أولا له.

قبل صحيفة "الاتحاد" أسس إبراهيم جريدته الثانية "الخلافة" التى لم يصدر منها إلا عددان يحملان تاريخى الأول والثامن عشر من ديسمبر ١٨٧٩ فى نابولي. من هذه الجريدة لم نتمكن من العثور على أى أثر، كان الهدف التحريرى منها كما أفادنا به أبو زيد فاروق (١٩٨٥، ٧٩-٨٠) هو الدعوة للخلافة العربية على أن يكون مقرها فى مصر. من هنا يمكن القول :إنه على مدى عشر سنوات لم يؤسس إبراهيم إلا صحيفتين لم تصدر كل منهما إلا أعدادا محدودة، ورغم ذلك فقد تركتا أثرا فى تاريخ الصحافة المصرية المكتوبة فى القرن التاسع عشر وفى تاريخ النهضة العربية السياسية والصحفية. الحقيقة أن "نزهة الأفكار" عام ١٨٧٠ أول صحيفة أصدرها إبراهيم سجلت ظهور الصحافة المصرية الحرة والشعبية[١].

أما صحيفته الثانية "الخلافة"[٢] (١٨٧٩) فقد كانت أول دورية تدعو صراحة للخلافة العربية. وطبقا لما ذكره طرازى فقد كانت أيضا الجريدة المصرية والعربية

---

(١) بشكل موثق كما بينا من قبل، راجع الفصل الرابع.

(٢) حتى يكون ما نسوقه كاملا نسجل هنا أن دى طرازى مستندا إلى ما كتبه جورجى زيدان فى هذا الصدد قد أعلمنا أن السلطان عبد الحميد الثانى خشية أن تتسبب صحيفة "الخلافة لإبراهيم المويلحى فى اتقاد النفوس العربية والإسلامية، أمر بإيقافها. وهذا يفسر سبب عدم صدور أكثر من عددين منها، فقد منعت قبل أن تعرف الولايات العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية شيئا عنها. طلب السلطان من القنصل العثمانى فى باريس أن تختفى الصحيفة من الوجود فى أسرع وقت وهذا اختصر تاريخ هذه الصحيفة. هناك رواية أخرى تذكر أن لويس صابونجى (الذى أسس فى لندن صحيفة تحمل الاسم ذاته "الخلافة" وأخرى بعنوان "الاتحاد") قد نصح القنصل العثمانى فى باريس أن يرشى إبراهيم لقاء صمته، الشيء الذى يقال: إن إبراهيم قد قبله. كيف ولماذا أوقف إبراهيم إصدار هذه الصحيفة، الواقع أننا لا نستطيع الجزم بشيء. ما يهمنا أن هذه الصحيفة قد ظهرت إلى الوجود ونعرف لها طابعا متميزا. أما عن قبول إبراهيم للمال مقابل صمته فهذا موضع شك. أما إذا كان قد حدث العكس فيكون إبراهيم على درجة من المكر إذ إنه بعد عام واحد من هذا التاريخ كان يكتب فى صحيفة "الاتحاد" فى باريس وهى صحيفة يقول تاريخها إن هذه الفرضية غير محتملة الحدوث.

الوحيدة (١٩١٣/١٩١٤ الجزء الأول، ٢٦٤ والجزء الثانى ٣٧٠) التى تم تأسيسها فى نابولى والأولى على الإطلاق فى إيطاليا من أربع صحف صدرت فيما بين عامى ١٨٧٩ و١٩٠٨.

ومبادرة إبراهيم الثالثة تتمثل فى جريدة "الاتحاد" فى باريس عامى ١٨٨٠ و١٨٨٤؛ وهى لا تقل عن السابقتين أهمية بل لنقل: إنها على العكس تماما كانت واحدة من أوائل الصحف المصرية التى أسست فى باريس وهي: "أبو نضارة زرقاء" ١٨٧٩ ليعقوب صنوع، و"مصر القاهرة" عام ١٨٧٩ لأديب إسحاق وهما كما يذكر طرازي[١] وشلبي[٢] صحيفتان ساهما بشكل كبير فى أحداثه ١٨٧٩-١٨٨٢. فى مصر (راجع الفصل الرابع).

علينا أن ندرك قبل كل شيء أن الصلة بين الصحافة والسياسة -وهو ما يحدث حتى يومنا هذا فى القرن الحادى والعشرين مهما قيل- كانت وطيدة إلى حد يصعب معه تفريقهما. وقد تم التثبت من اعتقاد كل من هاتين السلطتين على الأخرى. من هنا يمكننا القول: إن كل ما يتعلق بالسياسة ذو مكانة رئيسة فى تاريخ الصحافة العربية خاصة فى المنفي. يدفعنا هذا إلى القول: إن:

"الصلات المتقابلة غالبا والمسايرة أحيانا والحقيقية فى كل الأحوال بين الصحافة والسياسة ليست مما يتوجب إثباته. إذا كانت هذه الملاحظة قائمة بالنسبة إلى الصحافة بشكل عام فإنها بالنسبة إلى الصحف العربية فى باريس لكونها قد نشأت وتطورت واختفت فى خضم مسألة الشرق، فإن صحفنا على مدى ستين عاما (١٨٥٩-١٩١٩) قد عانت من مفاسد وقلاقل هذا المحيط السياسى الذى كانت تتطور فيه الصلات بين أوروبا وتركيا، هذه الصحف التى كانت أحيانا تؤثر فى السياسات وأحيانا أخرى تسحق من وطأتها شديدة الالتصاق بالسياسة كالنبات المتجذر فى أرضه[٣].

---

(١) راجع دى طرازى ١٩١٣/١٩١٤ الجزء الثانى ص٢٧٣-٢٧٤.
(٢) راجع شلبى ١٩٨٧ (١٩٦٩) ص٩٣ الذى خصص أطروحته للصحافة العربية فى باريس.
(٣) شلبى، ١٩٨٧ ص٥.

ويمكن التثبت والتحقق فورا من ذلك بمجرد قراءة ما تبقى لنا من هذه الصحف العربية الصادرة في باريس كما يسميها شلبي ومن خلال ما يقوله التاريخ الماثل في دور المحافظات الفرنسية والتركية. اهتمت الصحافة المكتوبة العربية في المنفى بالسياسة بشكل أساسي، وبالمسألة الشرقية بصفة خاصة. وقد أضاف الصحفيون المصريون إليها المسألة المصرية. هذه المسائل تركت أثرا لا يمحى على الصحافة العربية منذ نشأتها خاصة ما كان منها بالخارج (...) "الواقع أن الصحف العربية التي صدرت في باريس لم تكن لتنشأ دون المسألة الشرقية وما تفرع عنها" (شلبي ١٩٨٧ ٥-٦). من هذه الصحف العربية في باريس التي وصل عددها طبقا لشلبي إلى إحدى وعشرين صحيفة[١] تظهر واحدة من صحف إبراهيم كما لو كانت قد لعبت دورا أساسيًا في تاريخ الصحافة المصرية والعربية المكتوبة في المنفى وفي التاريخ السياسي المصري حتى العثماني في آن واحد. من هنا يمكن القول: إن هذا الرجل، هذا الصحفي النهضوي المثقف والسياسي قد سجل وجوده في كبريات مراحل تاريخ الصحافة السياسية المصرية.

مسيرته الصحفية أشبه بنموذج متناهي الصغر لتاريخ الصحافة المصرية المكتوبة التي تعد بالنسبة إليه نموذجا متناهي الكبر؛ وهي تعكس المراحل الأساسية في الصحافة؛ مثل: مقدم الصحافة الشعبية الحرة عام ١٨٧٩ وأول صحيفة مصرية موالية للخلافة العربية وأخيرا عام ١٨٨٠ أول صحيفة مصرية ذات تأثير دولي.

---

(١) بينما يحصي طرازي (١٩١٤ الجزء الثاني ص٣٧٣-٣٧٤) عددها ويرى أنها ٣١ صحيفة وعلينا أن نأخذ في الاعتبار أن طرازي قد قام بعد الصحف التي صدرت بالفعل، وتلك التي تم التقدم بطلبات لإصدارها ولم يستجب لها والصحف التي بعد الحصول على التصريح بالصدور لم تظهر إلى الوجود، بالإضافة إلى تلك التي ورد في التاريخ أنها كانت موجودة على الساحة ولا تملك ما يؤكد ذلك. نذكر على سبيل المثال صحيفة "الرجاء" (١٨٨٠) التي أسسها إبراهيم في باريس، التي في حقيقة الأمر لم تكن إلا استمرارا لصحيفة "الاتحاد".
إلا أننا بملاحظة تواريخ العددين اللذين عثرنا عليهما نتساءل عما إذا كانت جريدة "الرجاء" قد صدرت بالفعل؟
هذه هي الأسباب التي تحول دون وصولنا إلى الأعداد ذاتها، التي يسوقونها عن الصحف العربية المنشورة خلال مدة محددة في القرن التاسع عشر.
راجع الملحق ٢: عدد الدوريات العربية والأجنبية في مصر في الفترة من ١٧٩٨ إلى ١٩٠٣ والملحق ٣ قائمة الصحف التي تم تأسيسها في مصر بين عامي ١٧٩٨ و١٩٠٣.

منعت صحيفة إبراهيم "الاتحاد" بعد صدور ثلاثة أعداد منها؛ أى رد فعل أكثر تلقائية وطبيعية بعد قراءة أربع صفحات من القطع الكبيرة A3 (٢٩٧ × ٤٢٠ مـم) على ثلاثة أعمدة. الصفحتان الأوليان باللغة العربية والأخيرتان باللغة العثمانية. هذه الصفحات الأربع التى تساوى فى المساحة ثمانى صفحات من القطع A4 لم تحـو ألا شجب وفضح وتقليل شأن للسياسة العثمانيـة التـى تـصفها الـسطور بالاسـتبداد والشمولية.

من الثلاثة أعداد أمكننا العثور على العددين الثانى والثالـث مـن الجريـدة الصادرين تباعا فى الرابع والعشرين من سبتمبر والسابع من أكتوبر ١٨٨٠. أمـا العدد الأول فلم يتمكن أحد من العثور علية حتى يومنا هذا. ونذكر فى هذا الـصدد أن المكتبة الوطنية الفرنسية[١] -لا تعرف متى ولا كيف أمكنهـا اقتناءهمـا، وقـد تحرت بناء على طلبنا الأمر ولكن لم توفق. من خلال البيانات peritexte الخاصـة "بالاتحاد" نستدل على المعلومات التالية:

- عنوان الصحيفة (باللغتين العربية والفرنسية).
- سنة الصدور ١٨٨٠.
- آية قرآنية فى العدد الثانى واستشهاد فى العدد الثالث (موضوعان أسفل العنوان).
- رقم العدد.
- المدينة التى تم النشر بها (باريس).
- نوع الصحيفة: حرة.
- دورية أو إيقاع النشر: أسبوعية.
- سعر النسخة مذكور كما لو كان معمولا به أو سيتم تحديده آجلا.
- تاريخ الصدور.

---

(١) فى البطاقات المصغرة بالمكتبة الوطنية بباريس تندرج الصحيفة تحت Cote: FOL - LC 2 - 4391.

• عنوان القائم على الطباعة: بالنسبة إلى العدد الثانى M.Raad السيد رعد بالحروف المطبوعة 10 rue Monthalon Paris مع إضافة بخط اليد مطبعة لوفافر ممر القاهرة – باريس ٨٧.

Jmp.Lefebvre pass. Du Caire 87 Paris.

• أما بالنسبة إلى العدد الثالث فلا توجد سوى الحروف المطبوعة. وفى حين أن اسم القائم على الطباعة ثابت نجد أن عنوانه قد تغير “ M.Raad. 33, "Chausseed`Artin Paris

• توقيع فى ذيل الصفحات الأربع: "المدير رعد" ملحق بها توقيع باليد. أما اسم إبراهيم المويلحى فلا أثر له.

ولوفافر Lefebvre طباع ممن حصرهم شلبى Chelbi ضمن المشاركين بهمة وفعالية فى طباعة الصحف العربية فى باريس وتوزيعها. عدد هؤلاء طبقا لحصره يصل إلى ثلاثة عشر لطباعة إحدى وعشرين صحيفة (شلبى ١٩٨٧) (١٩٦٩) ١٠٨-١٠٩ نذكر منهم[١]:

• بلوت Blot (بوجيس باريس)[٢] و(الشمس)[٣].

• ديدلو Didelot (باريس[٤] ونهضة العرب[٥]).

• جوبى وموران Goupy et Maurin (الرجاء)[٦].

---

(١) المقصودون هنا الطابعون الذين قام شلبى بحصرهم وتلى أسماؤهم أسماء الصحف التى قام كل منهم بطباعتها.

(٢) ١٨٥٩ صحيفة نصف شهرية للمدن طبقا لما جاء به شلبى (١٩٨٧) (١٩٦٩) ١١٣ أو الكونت ر. الدحداح وفقا لما ذكره طرازى (١٩١٤ الجزء الثانى ٣٧٢).

(٣) ١٨٨٥ "الشمس" جريدة أسبوعية لسليم قويطة والياهو ساسون (طرازى ١٩١٤) الجزء الثانى ص٣٧٤.

(٤) ١٩٠٨ باريس، أسبوعية لجورج ماسارا.

(٥) ١٩٠٩ "نهضة العرب" صحيفة أسبوعية لرشيد مطران.

(٦) ١٨٩٥ "الرجاء" صحيفة أسبوعية لا لكسيس كاتب.

• هويون Houillon (قش النقاب)[١] و (تركيا الفتاة)[٢].

• هوجونيس Hugonis (الصدى)[٣] و (البصير)[٤] (لاستر دوريون)[٥] و ("المستقبل")[٦].

• جوسيه Jousset (برجيس، باريس)[٧].

• لوفافر Lefebvre (أبو نضارة)[٨] و (المنصف)[٩]. و (التودد)[١٠] و (الشرق)[١١] و (الاتحاد)[١٢] و (أبو الهول)[١٣] و (برجيس باريس)[١٤].

• موابيه ومونتوبيرى Moye et Montobery (المرصد)[١٥].

• بييه Pillet (بوجيس باريس)[١٦].

• بينار Pinard (برجيس باريس)[١٧] (أوتارد) Outared[١٨].

• ساداج Sadag (التصور).

• رمكت Remquet (بوجيس باريس)[١٩].

---

(١) ١٨٩٣ صحيفة أسبوعية لأمين أرسلان.
(٢) ١٨٩٥ صحيفة أسبوعية لـ ك. غانم (شلبى ١٩٨٧ (١٩٦٩) ٩٧).
(٣) ١٨٧٦ "الصدي" صحيفة نصف شهرية (شلبى ١٩٨٧ (١٩٦٩) ٩٧).
(٤) ١٨٨١ جريدة أسبوعية لخليل غانم.
(٥) ١٨٨٢ جريدة أسبوعية لبريوين Brillouin.
(٦) ١٩١٦ جريدة رسمية أسبوعية تأسست أثناء الحرب العالمية الأولى (راجع طرازى ١٩١٤ الجزء الثانى ٣٧٦).
(٧) راجع ما سبق.
(٨) ١٨٧٨ جريدة غير منتظمة الصدور ليعقوب صنوع وكنيته أبو نضارة، الذى أسس إحدى عشرة صحيفة ومجلة أهدى مجموعاتها كاملة لطرازى (راجع ١٩١٤ الجزء الثانى ص٣٧٦ العدد الثاني) الذى أهداها بدوره إلى دار الكتب الأهلية فى بيروت عام ١٩٢١.
(٩) ١٨٩٩ "المنصف" جريدة شهرية ليعقوب صنوع.
(١٠) ١٨٨٨ جريدة شهرية ليعقوب صنوع.
(١١) جريدة "الشرق" نصف شهرية لأديب إسحاق.
(١٢) ١٨٨٠ و١٨٨٤ "الاتحاد" صحيفة أسبوعية لإبراهيم المويلحي.
(١٣) صحيفة غير منتظمة الصدور ليعقوب صنوع.
(١٤) راجع ما سبق.
(١٥) ١٨٩٣ صحيفة أسبوعية ليوسف الحاج.
(١٦) راجع ما سبق.
(١٧) راجع ما سبق.
(١٨) ١٨٥٩ Outared (شلبى ١٩٨٧ (١٩٦٩) ٩٩ وغيرها) صحيفة أسبوعية لكارليتى Carletti.
(١٩) راجع ما سبق.

مما لا شك فيه أن هذا الحصر لا يضم كل صحف باريس نظرا لأن البعض لم يلجأ إلى هؤلاء الطابعين؛ مثل: مجلة "العروة الوثقى" الشهيرة التى أسسها كـل من الأفغانى ومحمد عبده فى باريس عام ١٨٨٤؛ التى شارك فيها عدد كبير مـن النهضويين ومنهم إبراهيم المويلحي. من هنا يمكن القول: إن حلقة رجال النهـضة العربية تكونت فى باريس مثلما تكونت محليًا فى مصر. سمحت شبكة الاتصالات التلغرافية والبريدية للنهضويين فى المنفى بالإبقاء على الصلة مع زملائهم البـاقين فى مصر. ونسوق هنا على سبيل المثال ما حدث لأديب إسحاق إبان فترة القلاقـل ١٨٧٩-١٨٨٢ فقد منعت الحكومة صحيفتيه: "مصر" (١٨٧٧) و"التجـارة" عـام ١٨٧٩. عندئذ استقر الرأى على اختياره وتسفيره إلى فرنسا بهدف تأسيس جريدة مصرية حرة هناك؛ وبذا وضع أساس جريدة "مصر القاهرة"(١) (١٨٨٠) التى كانت فى البداية شهرية، ثم أصبحت أسبوعية فى باريس بواسطة أديب إسحاق.

قبل هذه المبادرة التى يمكن وصفها بالجماعية كان أول مصرى يصل إلـى فرنسا هو يعقوب صنوع مؤسس الصحيفة الشهيرة "أبو نضارة" التى تأسست فـى مصر عام ١٨٧٧ والذى اضطر إلى اختيار أوروبا كمنفى له عـام ١٨٧٩. هـذه الصحيفة غيرت اسمها أكثر من اثنتى عشرة مرة. وتم إدراجها فى الحصر بواسطة الكثير من الباحثين كغيرها من صحف يعقوب صنوع.

هناك بعض من الباحثين ومنهم إبراهيم عبده الذى خـصص واحـدا مـن أعماله(٢) لهذا النهضوى وجريدته، لم يدرجوها. سمحت حيلة تغيير الاسم بخـداع الرقابة لفترة وبالتالى مكنت يعقوب صنوع من تسويق صـحيفته وتوزيعهـا فـى مصر. من خصائص هذه الصحيفة التى تعد أول دورية مصرية منفية إلى باريس استخدام الأسلوب التهكمى الساخر واللغة اللهجية بشكل أساسـي. تميـز يعقـوب صنوع أيضا بدعوته للسفر الذى يمثل بالنسبة إليه السبيل الوحيد لمعرفـة الحيـاة. الحقيقة أنه بالنسبة إليه "يقارن الفلاسفة الحياة بالكتاب ويقولون: إن الإنسان الـذى لا يغادر وطنه أشبه بمن لم يقرأ من هذا الكتاب إلا الصفحة الأولى(٣).

---

(١) راجع طرازى بشأن هذه الصحيفة (١٩١٤ الجزء الثاني، ص٣٧٢ و٣٧٣ العدد الرابع، عبده ١٩٤٥ ص٢٤٠ و٢٤١ العدد الأول، وعبده ١٩٤٨ (١٩٤٤) ص١١٩.

(٢) عبده، ١٩٥٣، ص٢٢٢.

(٣) "لأن الدنيا شبهوها الفلاسفة بكتاب وقالوا: إللى ما خرجش من وطنه كأنه ما قرأش إلا أول صفحة فقط" عبده، ١٩٤٥ ص٢٣٨.

يختتم إبراهيم عبده استعراضه للصحافة المصرية المنفية بذكر بعض الصحف بعد "أبو نضارة" و"مصر القاهرة" منها "الخلافة" لإبراهيم المويلحى وما يفترض من الصحف أنها تأسست على يديه "كالرجاء" (١٨٨٠) و"الأنباء" عام ١٨٨٠ مع استبعاد "الاتحاد" (١٨٨٠/٨٤). هذه الصحف مثلها فى ذلك مثل أغلب دوريات ذلك العصر منعت من التداول والتوزيع إما من قبل الحكومة وإما من قبل الإنجليز وأحيانا من الاثنين معا. ولم تكن الإمبراطورية العثمانية ببعيدة عن ذلك بل يمكننا حتى القول: إنها كانت مصدرا أساسيًا للمنع. من هذه الصحف العربية فى باريس كانت هناك صحف أسسها مسيحيون عرب أو فرنسيون وأخرى قامت على أيدى مسلمين عرب أو من أصول أخرى(١) وبالتالى يمكننا القول: إنه كان هناك مصريون وسوريون – لبنانيون وفرنسيون وإيطاليون ومسيحيون ومسلمون ويهود وردت أسماؤهم باعتبارهم مؤسسى صحيفة أو عدة صحف أو مجلات فى باريس فى القرن التاسع عشر. ويشير تعدد واختلاف الجنسيات والأديان إلى وجود درجة من الثراء المهم الناشئ عن التعددية الثقافية والعقائدية. لعبت هذه التعددية دورا أساسيًا واستغلت من قبل البعض.

كانت المسألة الشرقية آنذاك فى صدارة المصالح الإمبريالية لأوروبا. وعد هذا الثراء قوة لمؤيدى الاتحاد ووحدة الشرق وللمدافعين عنه. أما الغربيون فقد جعلوا منه سبيلا لعدم الاستقرار وعيبا رئيسيا وصموا به أولا المسلمين، ثم العرب وأخيرا الشرقيين إجمالا.

أطلقت عندئذ على الشرقيين صفة المتعصبين فى الدين.

انسع استخدام هذه الثيمة بمضى سنوات القرن التاسع عشر. الحقيقة أن أغلب الدوريات العربية فى باريس وأوروبا وأميركا كانت قد اختارت المنفى لتمارس حقها فى التعبير فى عقر دار الغرب الذى كان يدعى نفسه مهدا للحرية. أما السياسة فلم تر الأمر على هذه الشاكلة ونقصد هنا تلك السياسة التى تمحور حولها تاريخ الصحافة المكتوبة. كما لم تستوعب كل من السياسة الغربية الإمبريالية

---

(١) راجع شلبى ١٩٨٧ (١٩٦٩) ص٩٢-١٠٦ القسم الفرعى (١) أى جنسية!

والسياسة العثمانية الشمولية الأمر بهذه الطريقة. لنقل: إن ما حدث كان على النقيض تماما، فالقوى الاستعمارية والقوى العثمانية المتصارعة نظريا اتفقتا على وجوب وجود قواعد قانونية صارمة تنظم الصحف العربية فى أوروبا.

كانت فرنسا فى ثمانينيات القرن التاسع عشر على علاقة طيبة بالإمبريالية العثمانية وراغبة فى دوام ذلك، ومن هنا فقد كانت بالنسبة إليها حليفا وفيا. أما إنجلترا فلم يستقر لها حال؛ تتأرجح بين الحسم والتسيب وفقا لمصالحها. ظهر فى هذه الآونة نوعان من الصحافة العربية فى المنفي؛ الصحافة المسموح بها وغير المرضى عنها كان الرضا مصدرهما، أما الإمبراطورية العثمانية أو فرنسا أو بريطانيا العظمى أو الثلاث معا. لفترة من الزمن، كانت مجلة "العروة الوثقى" لصاحبيها الأفغانى وعبده مرضيا عنها، أما بعد ذلك فكانت من المجلات الممنوعة منعا باتا. كل شيء كان إذن نسبيّا وراجعا إلى الرهانات والأحوال السياسية فى البلد المضيف والبلد المنشأ وإلى الصحفى المعني.

تعد صحيفة "الاتحاد" التى أصدرها إبراهيم الوردانى من الصحف المغضوب عليها لكونها إسلامية حتى النخاع ومناهضة بشراسة للنظام العثماني. وصفت هذه الصحيفة السلطان كشخص معارض للخلافة والإمبراطورية كنظام مخالف ومقابل للخلافة باعتبارها صحيفة مكملة وتابعة لصحيفة "الخلافة".

كلف السلطان بنفسه سفير فرنسا فى القسطنطينية، مسيو تيسو M.Tissot بالعمل على إخفاء هذه الصحيفة من الوجود شارحا له "المخاطر التى قد تنجم فى الولايات العربية التابعة للإمبراطورية عن الدعاية التى تقوم بها صحيفة "الاتحاد" ضد الهيمنة والسطوة الروحية للسلطان(٢)"[١] (شلبى ١٩٨٧، ١٧٧). اختفت الصحيفة آنذاك ولكنها عاودت الظهور بعد أربع سنوات وتحديدا فى السنة التى كتب فيها إبراهيم مقالاته فى "العروة الوثقى"[٢]؛ أى عام ١٨٨٤.

(١) استشهاد يشير شلبى Chelb إليه (الحاشية ٢ ص١٧٧) إلى الاستعانة به ٤٤٢ من C.P. Turquie.
(٢) حدث موثق نقله كل المتخصصين فى تاريخ الصحافة فى مصر؛ ومنهم: سيد هادى خسرو شاهى (٢٠٠٢، ٦٨-٦٩) الذى أفاد بتوصله إلى وثائق للأفغانى كان هذا قد ائتمن عليها صديقه الحاج محمد حسن أمين العرب أثناء رحلة لهما إلى طهران. من هذه الوثائق التى=

كانت توابع هذا العدد الرابع والأخير من جريدة "الاتحاد" ذات طابع دولي. فجريدة "الفيجارو" على سبيل المثال راجعت وضع فرنسا التى كانت تمثل فى ذلك العصر بلد الحرية لكونها قد وافقت –حتى لا نقول خضعت– لطلب مخالف لحقوق الإنسان. فبعد ظهور العدد الرابع من جريدة "الاتحاد" صدر أمر بطرد إبراهيم المويلحى دون إنذار صباح الأحد الموافق ٢٥ من نوفمبر ١٨٨٤ ويؤكد ذلك مقال العدد الثالث والثلاثين من جريدة "الفيجارو" الصادر بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٨٨٤:

"أفادت صحف الأمس أن إبراهيم بك الذى قبض عليه صباح الاثنين فى فندق جار كنيسة "المادلين" قد تم ترحيله دون أى محاكمة. ليكن مسموح لنا بالدهشة من هذا التصرف الاستبدادى من قبل الحكومة التى تزهو بكون فرنسا بلد الحرية وبوجود محاكم بها يحق فيها للمظلوم ولمن أعلن باتهام الدفاع عن نفسه. إبراهيم بك شاب أسمر اللون وجهه به ملاحة يزين سمرته شارب رفيع أسود، وهو فى الثامنة والثلاثين من العمر ولا يهتم بأى صورة من الصور بسياسة فرنسا.

على هذا النحو، انتقدت جريدة "الفيجارو" سياسة فرنسا مبررة أن إبراهيم لا يعيرها أدنى اهتمام. ومن هنا فإن طرده وترحيله غير مبررين وغير عادلين. لدى قراءة السطور الأولى فى هذا المقال نلاحظ أن مصدر الصحفى كاتبه هى صحف اليوم السابق. نستنتج من ذلك أن عددا كبيرا[١] من الصحف قد اهتم بهذا الحدث

= نشرتها حديثا جامعة طهران كان هناك مقال لإبراهيم المويلحي يرجع تاريخه إلى عام ١٨٨٦ وفيه روى ما كان من خلافه مع رياض باشا ونفيه إلى أوروبا وحكي عن علاقته بالأفغانى وهو الصديق الذى كتب إليه وفق ما جاء بهذه الوثائق عارضا عليه تأسيس "العروة الوثقى" بعد أن سمعت أن الأفغانى قد جاء إلى باريس من الهند كتبت إليه أن ننشر جريدة "العروة الوثقى" (سيد هادى خسرو شاهى ٢٠٠٢، ٦٩) والمشاركة قصيرة المدى لمختلف النهضويين فى تحرير هذه المجلة الشهيرة ومنهم سعد زغلول ١٨٥٧-١٩٢٧) محققة أما مشاركة إبراهيم المويلحى بفضل نشر هذه الوثائق الشخصية للأفغانى مثبتة وموثقة.

(١) لم نتمكن نظرا لضيق الوقت من البحث عن الصحف الأخرى الصادرة فى فرنسا التى أشارت إلى هذه الواقعة. للقيام بهذه المهمة علينا الاطلاع على كل الصحف الصادرة يوم الأحد الموافق ٢٥ نوفمبر ١٨٨٦ وهو ما يتطلب وقتا طويلا. الأمر الذى ما أمكننا أن نحظى به لإتمام هذه المرحلة فى أطروحتنا سيكون البحث فى هذا الموضوع. محور أبحاث لاحقة وذلك من خلال الصحف الفرنسية والصحف العربية الصادرة فى باريس يوم الأحد الموافق ١٨٨٤/١١/٢٥.

الدبلوماسي. ويفضح المقال كون إبراهيم قد اعتبر مذنبا ولم يكن قد صدر ضده حكم بذلك قبل ترحيله فقد طرد دون المثول فى أى قضية أمام المحاكم (راجع ما سبق). ويتضح من سطور كاتب المقال بود دو مورسولى Baude de Maurceley أنها لم تكن واقعة فريدة فقد أردف مبديا دهشته: "ليكن مسموح لنا مرة أخرى بالاندهاش من هذا التصرف الاستبدادى من قبل حكومة تحرص على صورة فرنسا كبلد حر يحظى فيه كل من هو محل اتهام بحق الدفاع عن نفسه" (راجع ما سبق) ويقطع كاتب المقال سطوره بفقرة وصفية يستعرض فيها ملامح إبراهيم تعلمنا وقفته هذه بعمر إبراهيم؛ وهى نقطة كما سبق لنا القول لم تكن على درجة عالية من الوضوح (راجع الفصل الثالث).

كان عمر إبراهيم فى رأى بود دو مورسولى Baude de Maurcelay عام ١٨٨٤ يناهز الثامنة والثلاثين مما يفترض معه أنه قد جاء إلى الحياة عام ١٨٤٦ يبقى السؤال عن الكيفية التى حصل بها هذا الصحفى على هذه المعلومة؟ أيا ما كان الأمر، يؤكد ذلك المعلومات التى جاءت بها وثائق الأفغانى التى نشرتها جامعة طهران (سيد حامى حسرو شاهى ٢٠٠٢، ٦٩) - إلا أننا، ولكل الأسباب التى سبق لنا الإشارة إليها سالف (راجع الفصل الثالث) لا يمكننا بشكل رسمى اعتبار عام ١٨٤٦ تاريخ ميلاده؛ لذا نبقى التاريخ غير محدد بين عامى ١٨٤٣ و١٨٤٦.

يسمح لنا هذا المقال أيضا بوضع اسم على الجريدة. ذكرنا من قبل أن صحيفة "الاتحاد" لم تكن ممهورة بتوقيع إبراهيم؛ وإنما تحمل توقيع "المدير رعد". لا شيء إذن يجعلنا نفترض بشكل مباشر تبعية هذه الجريدة لإبراهيم. هذا المقال يؤكد ذلك وهو ليس بالمقال الوحيد. فجريدة يعقوب صنوع "أبو نضارة زرقاء" تشير إلى الأمر وتحكى كيف تمت عملية الطرد[١] نشر هذا المقال بتاريخ السادس من ديسمبر ١٨٨٤؛ أى بعد عشرة أيام من الواقعة المشار إليها. عرضها يعقوب صنوع فى الصفحة الأولى مصحوبة بسيناريو مصور وبتعليق لاحق فى الصفحتين الثانية والثالثة[٢]. تمت كتابة كل ذلك باللغتين العربية والفرنسية وأبرزت الكلمات

(١) راجع المقال الأصلى من العدد العاشر، السنة الثامنة، ١٨٨٤/١٢/٦: الملحق ١٠ الفقرة (d).
(٢) أبو نضارة ١٨٨٤/١٢/٦ السنة الثامنة العدد العاشر ص١: الصفحة المقابلة للصفحة ١٦٧ من المجلد الذى تم الاطلاع عليه فى بولاق تحت رقم: PER 2548 والصفحتان ٢-٣ المقابلتان للصفحتين ١٦٨-١٦٩ العمودان ٢-١ راجع الملحق ١٠ الفقرة (d).

والصور مدى الظلم والخديعة اللذين وقع إبراهيم ضحية لهما، كما تم عرض مواقف كل من الشرطة والصحافة الفرنسية والخديو السابق إسماعيل والتعليق عليها على النحو التالي:

"(إبراهيم بك المويلحى يقول إلى موسيو كليمان معاون ضابط باريس): مش أنا إللى أستحق النفى بل إسماعيل باشا فهو صاحب جريدة "الاتحاد". (الفلاح يقول إلى إسماعيل: يكفيك دس الدسائس وتقيم قيامات من تحت لتحت ضد مولانا السلطان.وأوروبا ومصر. أهو ربنا كشف سترك. (المطبعة الفرنساوية) تقول إلى إسماعيل: "أعط نخشيشك لغيرنا جرانيل باريس ما تتبرطل". (إسماعيل يقول فى نفسه): النحس تابعنى نجمى ساقط يا الله بنا على بلاد الإنجكيز[1].

أتت الشرطة إلى الفندق الذى كان يقيم فيه وهو الكائن طبقا لما تشير إليه الرسومات التوضيحية فى شارع بالقرب من كنيسة "المادلين". دفع إبراهيم عن نفسه اتهام كونه المسئول الأوحد مشيرا إلى إسماعيل باعتباره مالك صحيفة "الاتحاد" والمحرض، تاركا انطباع أنه ما كان إلا محررا منفذا لأوامر الخديو السابق. انتهز يعقوب صنوع الفرصة وأضاف إلى شخصيات الواقعة فلاحا يمثل الشعب المصري؛ استطاع من خلاله إبراز سوء سلوك الخديو السابق تجاه السلطان العثمانى وإمبراطوريته وفى الوقت ذاته تجاه أوروبا ومصر - والأمر على هذا النحو يشى بالتآمر! أعطى يعقوب صنوع بعد ذلك الكلمة للصحافة الفرنسية التى رفضت طبقا لما رواه أن تحيد عن الحق.

أما "بود دو مورسولي" فيؤكد لنا بعض المعلومات الخاصة بحياة إبراهيم الشخصية ويستعرض ما كان عليه إبراهيم فى الماضى وما كانت عليه علاقاته بالخديو السابق إسماعيل مع إيضاح أسباب طرده التى يصفها بالتعسفية.

---

(١) "أبو نضارة" ١٨٨٤/١٢/٦ السنة الثامنة العدد العاشر ص١ وهى الصفحة المقابلة للصفحة ١٦٧ من المجلد الذى يمكن الاطلاع فى بولاق عليه تحت رقم PER 2548، راجع الملحق ١٠ الفقرة (d).

" عندما كان الخديو إسماعيل باشا يحكم مصر كان إبراهيم بك بالإضافة إلى تذوقه للآداب مديرا كبيرا يشغل وظيفة السكرتير الأول في وزارة المالية لدى ترك إسماعيل لاحقا للحكم لحق به إبراهيم وصاحبه في فترة تقاعده مما جعل الخديو يقربه منه ويعينه سكرتيرا وكاتما لأسراره السياسية.

في عام ١٨٧٩ اشترك إبراهيم مع الخديو السابق في تأسيس صحيفة صغيرة "L'Hétérad" (الاتحاد) تصدر باللغة العربية وترسل إلى مصر وتركيا وإنجلترا.

كانت هذه الجريدة تعرض وجهات نظر سياسية وبعضا من الموضوعات التي كانت تثير غضب الناس وهو ما من شأنه إلا يرضي سلطان اسطنبول. دليل ذلك أن السفارة العثمانية سرعان ما أرسلت من سكرتيريتها واحدا للقاء الخديو السابق ورجائه وضع نهاية لما ينشر. وقد أخفقت جريدة L'Hétérad بعد صدور ثلاثة أعداد فقط منها.

نستنتج من ذلك أن شهرة إبراهيم الأدبية كانت، حتى في فرنسا، واسعة. ويعد كونه إداريا مرموقا وسكرتيرا بوزارة المالية وسكرتيرا وكاتما للأسرار السياسية للخديو إسماعيل دعائم تؤكد تماما ما نعرفه عن إبراهيم المويلحي. ويتفق كل ما تلا ذلك مع ما نعرفه عن جريد "الاتحاد" فيما عدا تفصيله واحدة هي أن سنة صدور الإعداد الثلاثة الأولى لم تكن عام ١٨٧٩؛ وإنما عام ١٨٨٠. أما عام ١٨٧٩ فهو ذلك الذي تبع فيه إبراهيم إسماعيل في رحلته إلى أوروبا. ويمكننا في النهاية القول: إن هذا المقال يؤكد المعلومة القائلة إن هذه الصحيفة كانت توزع في فرنسا بالإضافة إلى مصر وتركيا وإنجلترا.

على شاكلة "شلبي" و"طرازي" ومن سبقوهما ولحقوا بهما في الاهتمام بقصه "إبراهيم"، يروي "دومورسولي" التدخل الدبلوماسي بشأن جريدة الاتحاد الذي حدث عام ١٨٨٠ وأدَّى إلى اختفائها بعد صدور الثلاثة أعداد الأولى منها. إلا أنه "منذ نحو خمسة عشر يوما وبعد إقطاع طال لأربع سنوات طرح سكرتير إسماعيل بأعداد وفيرة من النسخ العدد الرابع من صحيفة "L'Hétérad".

أعلن سعادة سفير تركيا فى باريس أسد باشا بكلمات رسمية مقتضبة لإسماعيل عن رغبة السلطان فى اختفاء الصحيفة التى تصدر تحت رعايته من الوجود؛ وذلك بعد تلقيه مذكرة عاجلة بهذا الشأن من الباب العالي.

رفض الجنرال حسين، الذى كان هذه المرة ضالعا فى الأمر إعطاء أى تفسير للسفارة وفرَّ إلى "ليفورن"؛ حيث يملك قصرا شتويا منيفا. اشتط الخديو السابق غضبا من سكرتيره إبراهيم بك وأوقف راتبه بعد أن عنفه على سلوكه وأدان بشدة الأفكار التى ينشرها فى جريدة "L'Hétérad ".

ظهر هذا العدد الرابع إذن فى نوفمبر ١٨٨٤ بعد أربع سنوات بالضبط من إيقاف الجريدة فقد كان تاريخ العدد الثالث أكتوبر عام ١٨٨٠. بعد مضى خمسة عشر يوما من ظهوره طرد إبراهيم من باريس. لنقل أننا إذا صدقنا رواية "الفيجارو" فإن سكرتير إسماعيل قد طرح [...] العدد الرابع من "L'Hétérad" وحده. (راجع ما سبق). وعلى الرغم من أنه لا يسميه باسمه "إبراهيم بك" فإنه يشير إليه بوظيفته "سكرتير إسماعيل". هل كانت هذه طريقة ملتوية للإفهام أنه بوصفه سكرتيرا شخصيّا للخديو السابق قد شرع فى عملية النشر هذه؟ أم أنها صياغة عفوية تماثل غيرها من الصيغ؟ أيا ما كان الأمر يلاحظ أن هذه الدورية كانت "تحت رعاية" إسماعيل وهو ما يعنى ضمنيا مسئولية ما أو مسئولية كاملة للخديو السابق عن هذا الأمر. سارعت السلطات العثمانية بإصدار الأمر بالمنع "النهائى البات" لصحيفة "الاتحاد" (راجع ما سبق). أما الخديو إسماعيل فقد ألقى بالمسئولية كاملة على إبراهيم وحده. وبالتالي:

" نظرا لعدم وجود أى سند لإبراهيم فى باريس فقد طلب السفير العثمانى والخديو السابق نفسه من وزير الداخلية طرده وبقية القصة معروفة لنا[١].

ندرك إذن من كل ذلك أن إسماعيل قد شارك فى طلب طرد إبراهيم صديقه وكاتم أسراره السياسية.

---

(١) "لو فيجارو" العدد ٣٣، ١٨٨٤/١١/٢٦، راجع الملحق ١٠ الفقرة (d).

وتؤكد رسومات أبو نضارة هذه المعلومة[1]. على نقيض ما يسوقه يعوق صنوع على عجل من إشارة للشرطة دون أى تفصيلات خاصة بظروف القبض على إبراهيم يتساءل بود دو مورسولي:

"أسأل السيد والدك روسو W. Rousseau بصراحة شديدة إلى أى مدى كان من الممكن أن يكون وجود إبراهيم بك فى باريس مؤذيا لفرنسا؟ بلد على النظام الجمهورى هل فقد كل حق له فى أن يكون ملجئا وأن يضمن ملاذا للمغضوب عليهم سياسيًا؟ أى أمن إذن يمكن أن يجده لدينا الغريب الذى لا يحظى بقبول من حكومته؟ ومن ناحية أخرى هل يعتقد السيد وزير الداخلية بسذاجة أنه لو طلب صحفى فرنسى غاضب من سياسة الحكومة الحالية إنشاء صحيفة معارضة غدا فى القسطنطينية (الآستانة) أو فى لندن سيمكن للسفارة الفرنسية أن يلبى بسهولة طلبها بطرد المواطن التابع لها دون صدور أى حكم ضده؟

إن عملية القبض على إبراهيم بك ليست فقط عملية استبدادية كما كنت أقول من هنيهة ولكنها تصرف أخرق يمكن أن يكون محل مساءلة.

من هذا القول لا نفهم الكثير فقط عن مغامرة إبراهيم وصحيفته المصرية فى باريس ولكن أيضا عن الصحافة الفرنسية والصحافة المصرية فى المنفى. الواقع أن هذه الصحافة العربية كان يخشى جانبها لدرجة أن كل السبل القانونية وغير القانونية كانت مسخرة لإسكاتها بل لمحوها من الوجود إذا تطلب الأمر ذلك. ومسلك "الفيجارو" خير مثال على ذلك، خاصة والحديث هنا عن عام ١٨٨٤؛ أى ثلاثة أعوام فقط بعد سن قانون الصحافة الذى يطلق عليه قانون ١٨٨١[2] فى ذلك العصر الذى كانت فيه "الصحيفة تكتشف وتكشف أعداء الحرية" (لابروس وريتا Labrosse et Rétat ١٩٨٩، ١٩٤) وأصبحت وكأنها "محكمة عامة ينقل إليها الاتهام والدفاع" (لابروس وريتا ١٩٥). ويمكن التحقق من ذلك من خلال مقال الفيجارو

---

(١) راجع المجلد الثانى، الملحق ١٠ الفقرة (d).

(٢) راجع الفصل الرابع: (Petit. 7882, 7258P) بتى، ١٨٨٢، ص١٢٨.

(Ameline de la Briselainne، 1881،In - 8°) أملين دولا بريزولين ١٨٨١.

(Le Senne,1882 XXVII – 753p) لوسان، ١٨٨٢، ٢٧، ص٧٥٣.

الخاص بإبراهيم وصحيفته "الاتحاد" التى كلف صدور عددها الرابع إبراهيم حريته فى شهر نوفمبر ١٨٨٤. هذا العدد لم نجد له للأسف أى أثر وهذا يعنى أن السلطات قد حرصت على ألا يبقى منه نسخة واحدة. كان مفيدا لنا أن نقرأ هذه الصفحات التى لم تتردد فرنسا من أجلها فى النكوص عن مبادئها فى الحرية والعدالة والمخاطرة بفضيحة إعلامية تعيد إلى الساحة مشكلة حرية الصحافة. حصلنا على الأقل على العددين الثانى والثالث من صحيفة الاتحاد اللذين استشاط السلطان عبد الحميد غضبا لصدورهما حتى إنه أمر بمنع صدورهما. نظرا لافتقادنا العدد الرابع لنر ما كان من العددين السابقين عليه وما تمثله النصوص فيهما من خطورة على الإمبراطورية العثمانية وما كان بهما من مواقف سياسية مزعجة إلى هذه الدرجة.

أى رسائل خشى منها السلطان الحميدى إلى هذه الدرجة وباستثناء ثيمة الخلافة فى أى شيء اعتبرت هذه الصحيفة تكملة لصحيفة "الخلافة" عام ١٨٧٩؟

٢- الأوقات المهمَّة ورسائل الاتحاد

عنوان الجريدة هو أول عنصر تقع عليه عين القارئ وأول صلة تربطه بها وهو مكون رئيسى فى البنية العليا للجريدة. فهو يترجم رسائل الدورية ويعلنها. العناوين تمثل إذن نصوصا أو إيضاحات قصيرة نسميها "عنوان نص". والعناوين تشكل الرابط بين العضو أو الكيان الذى تمثله؛ وهى الصحف وبين العالم الذى تتحدث عنه هذه الصحف وتعطى عنه تصورا معينا. الأمر أذن يتعلق بالعنوان – الرابط؛ أى نوع من الوسائط بين المقال كنص (تأثير الواقع) والسياق (الواقع).

والعنوان فى الحالة التى نحن بصددها هو "الاتحاد" وهو يعلن الأمل فى وحدة وتليه آية قرآنية: **{وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أى مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}** [الشعراء: ٢٢٧][(١)]. من هنا فبدءا من العناصر الخارجية المحيطة بالنص تحددت النبرة واستقر على الأسلوب بما نعده عنوانا ثانويا أو فرعيا.

---

(١) {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أى مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} راجع "الاتحاد"، ١٨٨٠/٩/٢٤ العدد الثانى السطر الأول: ترجمة ماسون Masson 1967، الجزء الثانى ص٤٦٣) السورة السادسة والعشرين "الشعراء" الآية ٢٢٧. تيسيرا للتعامل مع النص (راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (d) قمنا بترقيم النص من ١ إلى ١٣٠. الرقم ٢ موضعه من السطر الأول إلى السطر ٦٦ والرقم ٣ موضعه من السطر ٦٧ إلى السطر ١٣٠.

والاستشهاد القرآني باعتباره مكملا للعنوان يعلن أن الظالمين يعوقون طريق الوحدة وأنهم سيعاقبون لما اقترفوا من أخطاء. الحيلولة دون الوحدة مطروح كخطأ يستوجب عقوبات آلهية. التناص إذن ومنذ البداية أسلوب بياني برهاني لخطاب "الاتحاد"، هذا الأسلوب التقليدى كان فى القرن التاسع عشر قد أصبح أداة برهنة وأداة دعاية لإقناع القارئ واجتذابه. الواقع أن القول الكريم المذكور أو المقتبس أعطى الخطاب نوعا من القيمة غير القابلة للنقاش باعتباره إلهيا. وقد أصبح هذا الأسلوب نوعا من الثوابت المطلقة[1]. شابه اللجوء إلى التناص القرآني وهو ما يعد من الثوابت الدينية، الثوابت فى التواصل والاتصال؛ وهى إحدى ركائز التحاجى الرئيسة فى كونه إحدى آليات البرهنة الأساسية فى البلاغة النهضوية.

يضاف إلى ذلك الطابع الألسنى لهذا الأسلوب الذى لجأ إلى اللغة المقدسة النقية التى يفترض فيها أعلى درجات النقاء، هذا مع عدم إغفال الطابع الأيديولوجى المحافظ.

بعد الإعلان عن الهدف الأسمى وتنبيه الظالمين للمصير الذى ينتظرهم يبدأ النص بنقد صحيفة تركية مواقفها السياسية وسياساتها فى النشر تعد طبقا لرأى إبراهيم مؤسفة. كان الخلاف قد احتدم ووقع بين بعض الصحف ومنها صحيفة "الاتحاد" وجريدة تركية لم يذكر اسمها وإن كان وصف مذكور لها يسمح باستنتاج سياستها فى النشر:

"يبدو أن صحيفة عثمانية شهيرة وذات تأثير قد نشرت وما زالت تنشر كمتحدثة باسم الأسرة المقدسة، أمورا تافهة ومنها مقالات مصادرها غريبة واتجاهاتها غير مناسبة أشبه بحقيبة ساحر فى محتواها". ولكننا نلتمس لها العذر فهى تحت سطوة الحكم المطلق المستبد"[2].

---

(١) وهى وجهة النظر الغالبة (أى العامة) هذه الثوابت يمكن أن تكون مجموعة متجانسة إلى حد ما من الآراء والأحكام المستبقة والتوقعات والتقاليد الشعبية أو الجماعية .. إلخ. كان يطلق عليها فى البلاغة والبيان قديما - "Topoi et lieu" - موضع ومكان أما اليوم فى البلاغة والبيان الجديدين فيطلق عليها "موضع البراجماتية؛ أي: الأفكار المكتسبة، والفكرة المقلوبة والفكرة المروشمة (الكليشيهات).

(٢) "الاتحاد، ١٨٨٠/٩/٢٤ العدد الثانى السطران ٧-٨.

بغض النظر عن الفئة أو النوعية التى تنتمى إليها الصحيفة التركية فإن "الاتحاد" تعطى مؤشرات تسمح للقارئ بتمييز الجريدة المشار إليها خاصة عند إشارتها أنها ستكون "المتحدث الرسمى للأسرة المقدسة" وإنها "تحت سطوة الحكم المطلق المستبد". لامت "الاتحاد" على هذه الجريدة بعضا من مواقفها خاصة ذلك المتعلق "بنشر خطاب يدعو[1] فيه المسلمين فى العالم أجمع إلى شهر أسلحتهم لإقصاء العدو الذى يتربص بالحكومة من كل جانب (العدد الثانى ص١ السطران ٩-١٠) الحقيقة أن جريدة "الاتحاد" كانت تتساءل إلى أى مدى كان لهذا الحاكم مصداقية ومدة إمكانية دعوته رعاياه للدفاع عنه. هذا غير أنها كانت تتساءل عن مصدر الخطر هل كان من داخل السلطة العثمانية أم من خارجها أم من كليهما؟

حول هذه الإشكالية ارتكزت كل محاجاة "الاتحاد" كان الأمر يتطلب تحديد المعايير الحقيقية التى كان الخليفة وفقا لها يمكن أن يقال عنه "طيبا" وشرعيا. من هنا فقد قامت هذه الصحافة المصرية المقيمة فى المنفى بتقييم السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى، نصبت "الاتحاد" بشكل ما محاكمة للسلطان العثمانى فندت أفعاله، ثم حكمت حكما يقيم شرعية الخلافة القائمة بالحكم. وقد أدى هذا فى نهاية الأمر، طبقا للنتيجة، إلى جعل ندائه لمسلمى العالم للدفاع عن الإمبراطورية العثمانية. بلا ولاغ. وكانت الإمبراطورية آنذاك تواجه القوى الأوروبية وشعوب ولاياتها.

مثل شعب لبنان الذى عرف قلاقل عام ١٨٨٠ وثار ضد الأتراك. دعت صحيفة "الاتحاد" قراءها إلى مراقبة الخطر الداهم المحدق بالأمة:

> "لنر إذا معا؛ أى خطر أعظم من استبداد فرد انتزع نزعا من بين النساء ووضع على العرش ليحكم كما يحلو له وفقا لرغباته الخاصة الثلاثين مليون عابد لله الذين جعل منهم عبيدا حتى قلص بإدارته الفاسدة عددهم إلى حد أن الانتماء إلى هذه الدولة أصبح عارا"[2].

---

(١) أى "ملك التركية" وهو ضمنا "عبد الحميد الثاني".

(٢) جريدة الاتحاد، ١٨٨٠/٩/٢٤ العدد الثانى السطران ١٠-١١.

هذا النداء هو دعوة للملاحظة الجماعية فقد استعملت الجريدة كلمة "معا" وأعلنت صراحة أن هناك استبدادا. كانت السلطة التركية قد وصفت قبلا فى السطر الثامن بالمستبدة. وفى السطر العاشر يتضح أن هذا الشخص هو المستهدف. لا تذكر له الصحيفة اسما وتترك لنا استنتاج أن المعنى هو السلطان العثمانى عام ١٨٨٠ مكتفية بالإشارة إليه باسم "ملك التركية" (العدد الثانى السطر الثامن). وصفه كما ورد رجل ذو علاقات نسائية متعددة، لا يحسن إدارة الملك، يستعبد رعاياه حتى إنه أضحى عارا إعلان الانتماء إلى الإمبراطورية العثمانية. من هنا يمكن القول: إنه منذ السطور الأولى قد تم إرساء القواعد كان الأمر يتعلق إذن بالسلطان العثمانى المستبد والحاكم الفاسد.

وطبقا لما جاء بالصحيفة فإن هذه الخطابات المنسوبة إلى السلطة التركية فاقدة لأى قيمة ما دام محررها هو هذا المستبد غير الكفؤ. وعلى الرغم من أن الحجة والحكم قد تم تقديمهما فإن الخطاب يعد فى بداياته.

لم تبدأ الجريدة تدعيم رأيها بالحجج إلا بعد إعلانها المسألة الرئيسة أو الموضوع الرئيسى للعدد فى صورة مقدمة مصطنعة. والواقع أنها كانت مقدمة للعدد وليس لواحد من مقالاتها إذ إن "الاتحاد" لم يكن مكونا من مقالات؛ وإنما من مقال واحد مطول[1]. تواصل الجريدة الحديث قائلة: "إن الصحف الأوروبية كانت قد نشرت محتوى هذه المواد القانونية التى تكذبها الصحيفة التركية من ناحية وتساندها بقوة من ناحية أخرى" (العدد الثانى السطران ١١-١٢) مبرزة أن الصحف الأوروبية قد استولت على الموضوع. كانت الصحيفة التركية محل هذا النشر، فى رأى جريدة الاتحاد، متناقضة مع نفسها. فهى تعترف وتقر أنها المصدر وفى الوقت ذاته تكذب ضلوعها فى هذه المسألة. أخذت جريدة الاتحاد الوقت اللازم لها للتعريف بكاتبى هذه الرسائل والمسئولين عنها.

صدرت هذه الخطابات عن علماء كبار وشباب يقظ أظهر من خلالها ما يتوجب من طاعة وقبول تجاه الخليفة من قبل كل المسلمين (العدد ٢) هنا ذكرت كلمة "خليفة". كان السلطان إذن معترفا به من قبل العلماء كخليفة؛ بينما تعلنه "الاتحاد" حاكما مستبدا.

---

(١) راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (d) حيث توجد النسخة المنقولة وراجع الملحق العاشر الفقرة (b) حيث توجد النسخة الأصلية.

تستبد الدهشة بجريدة "الاتحاد" من كون العلماء، الذين يفترض فيهم أن يكونوا "حراسا للخلوقية وللقانون الإسلامى واللغة والثقافة العربيتين" (حوراني، ١٩٩١، ١٢)، متبنيين لهذا الرأي. كان هؤلاء العلماء قضاة ومعلمين وإداريين بالإضافة إلى كون الناس "يستشيرونهم ويلجئون إليهم للتفاوض مع الغرب". كانوا يشاركون فى الحياة السياسية وفى ثورات القصر". (حورانى ١٩٩١، ١٢).

أعلنت جريدة "الاتحاد" معارضتها لمصدر هذه الخطابات مصدر هذا الخلاف. وقد أضافت الجريدة أن هؤلاء العلماء يعتبرون السلطان ليس فقط خليفة؛ وإنما فى "مرتبة ثالثة بعد الله ورسوله" (العدد الثانى السطر الرابع عشر). وألحقت ذلك بالآية التالية: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} [الكهف: ٥][(١)]. اتخذت جريدة "الاتحاد" موقفا مفاده أن كل ما يصدر من جهة العلماء والصحف الرسمية التركية يعد مخيفا، وفظيعا، وخادعا، وتساءلت عما إذا كان الوقت قد حان: "لأن يتم ردع هؤلاء بقاعدة دينية (...) لكى يكفوا عن السخرية من مقام الخلافة[(٢)]. كانوا[(٣)] يطلقون عليه ألقابا إضافية: شاهنشاه، خاقان[(٤)]، خان وسلطان"[(٥)]؛ وهى ألقاب ملكية ترى جريدة "الاتحاد" أنها خارج السياق (العدد الثانى السطر ٢١).

---

(١) {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} "الاتحاد" العدد الثانى ص١ السطر ١٥.

(٢) "مقام الخلافة" "الاتحاد" ١٨٨٠/٩/٢٤ العدد الثانى السطر ١٩.

(٣) "الاتحاد" ١٨٨٠/٩/٢٤ العدد الثانى السطر ١٩.

(٤) هذه الألقاب ذات الأصل الوثنى ترجع إلى الممالك الفارسية وقد ظهرت على السطح مع عودة الثقافة الإيرانية تحت حكم العثمانيين، واكتسبت مرة أخرى أهمية وأصبحت "امتيازا قاصرا على سلالة جنكيزخان" (...) بمرور الزمن فقد لقب "خان" قيمته أيضا". (B.Lewis. 90) كانت هذه الألقاب فيما مضى رمزا للعظمة وأضحت مرادفا عاديا لكلمة "السيد".
راجع L.E.12 الجزء التاسع ص٨٨٤-٨٨٩ (J.H. Kramers) والجزء التاسع ص١٩٦-١٩٧ (F.C. DE Blois) والجزء الرابع ص١٠٤٢-١٠٤٣ (J.A Boyle) والجزء الرابع ص٩٤٨ (J.A. Boyle).

(٥) لفظ يعنى فى القرآن "السلطة"، و"الدليل" وأساسا "السلطة الفعلية".
فى القرن الثامن كان يعنى "السيادة" و"الحكومة". فيما بعد أخذ اللفظ تحت حكم السلاجقة معنى "الإمبراطورية الكونية" وحل بذلك محل لقب "الخليفة فى القرن الثالث عشر بعد سقوط بغداد فى يد المغول. عندئذ تحول من الخلافة إلى السلطنة. تحت حكم العثمانيين فى القرن السادس عشر، فرض هذا اللفظ نفسه على بقايا ما أطلق عليه الخلافة الشبح" (Lewis. 79) وقد عاد اللفظ إلى هذا المعنى القديم أخيرا فى القرن الثامن عشر وأصبح مدلوله "ملك" وانتهى به الأمر فى القرن التاسع عشر فى مصر إبان حكم محمد على (١٨٠٥-١٨٤٩) وحتى حكم فاروق ١٩٣٦-١٩٥٢ إلى لقبى "باشا" ثم "خديو".
من هنا يمكن القول: إن التمييز بين "خليفة" و"سلطان" ليس تفرقة بين سلطة روحية وسلطة دنيوية ولكن سلطة حاكم، سلطة قوى "شيخ أو عمدة قصر". والمفترض أن يضع الخليفة سلطاته وميزانه الخاصة بين يدى السلطان (Gardet 1981.33).

وقد أضافوا "اسما آخر هو المناب من قبل الرسول" (العدد الثانى السطر ٢٢) الأمر الذى جعل صحيفة "الاتحاد" تعلق مستعيرة الأسلوب القرآني:

{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [يوسف: ٤٠][1] (العدد الثاني، السطران ٢٢-٢٣).

طرحت جريدة "الاتحاد" بعد ذلك سؤالا لصيقا وأساسيا فى الجدل والنقاش الذى فتحته وهو: إلى أى حد يمكن اعتبار هذا الحاكم شرعيا خليفة؟ متى وكيف استحق لقب الثالث بعد الله ورسوله؟ الواقع أن الجريدة تطرح السؤال مدركة أنها لا تعرف كيف ومن أين جاءت هذه الإنابة دون موكل؛ بينما لم ينب الرسول ﷺ ولم يمنح أحدا هذه المكانة؟ (العدد الثاني، السطر ٢٣) وفى هذا إفصاح عن عدم الشرعية. انطلقت جريدة "الاتحاد" بعد ذلك فى تبيان عدم الشرعية مستخدمة الاستفهام والمنطق العبثى بشكل تهكمى ملوه السخرية... هذه الإنابة من قبل الرسول ﷺ أتراها تمت أثناء إسرائه إلى القدس تلك المدينة المقدمة التى قد يكون التفويض تم انطلاقا من أرجائها؟ (العدد الثانى السطر ٢٤).

تابعت الصحيفة تناولها لا فى سياق ديني؛ وإنما فى سياق السياسة وتساءلت عما إذا كان السلطان قد استباح أخذ اللقب طارحا جانبا الواجبات التى يرتبها هذا اللقب عليه، وتردف الصحيفة تساؤلا عما إذا لم يكن قد اغتصبه مانحا فى المقابل قبرص للدولة الإنجليزية، أو يكون قد وصل إليه لتفتيته المملكة الإسلامية أو لطرده نواب الأمة الإسلامية المستبد بها من مجلس الشورى (العدد الثانى السطور ٢٥-٢٧).

ويمكننا بالتالى القول: إن صحيفة "الاتحاد" تلوم صراحة على السلطة العثمانية سوء إدارتها لولاياتها وتنازلها عن جزء من هذه الولايات لقوى أجنبية إلى جانب مساهمتها فى انهيارها برفضها وجود مجلس شورى لممثلى الأمة مشيرة هنا إلى دستور تركيا الأول عام ١٨٧٦. وكان السلطان قد نعت نواب الشعب "باللصوص الأشرار" (العدد الثاني. السطر ٢٧) وتعقب جريدة "الاتحاد" على ذلك بقولها "إنهم لصوص استبداده" (العدد الثاني، السطر ٢٧) وليس شيئا آخر. وتشرح

---

(١) ماسون Masson, 1967 الجزء الأول ص٢٨٨، سورة "يوسف" الآية ٤٠.

أن هذه السياسة تجاه نواب الأمة قد تم اللجوء إليها"؛ "خوفا من أن تظهر الحقيقة للعيان وتدفع بالأمة الإسلامية لطلب حقوقها وحريتها المسروقة". (العدد الثانى السطر ٢٧) وهذا مسلك تراه الجريدة غير موات ما دام الله القادر قد أمر رسوله بتطبيق الشورى التى تراها الصحيفة "البداية لتحقيق العدالة" (العدد ٢ السطر ٢٨)

بعد أن ساقت جريدة "الاتحاد" بعض الأمثلة التاريخية بشأن ضرورة تطبيق الشورى أعادت الكرة وتساءلت من جديد عما إذا كانت هذه الإنابة من قبل الرسول لم تعط له "فى الوقت ذاته الذى كان غير المسلمين يجبرونه على تحسين أحوال رعاياه الذين كان بالنسبة إليهم العدو رعوف شفوق" (العدد الثانى السطر ٣١).

سعت الجريدة للبحث عن أصل هذه السلطة التى يدعيها السلطان لنفسه وقررت الجريدة التوجه بحديثها مباشرة إلى محدثها: "أنت الظالم، هل تحصلت على هذا التفويض أثناء الحرب التى كانت فاتحة الدمار حين لم يكن يشغلك إلا الحفاظ على سطوتك على رعاياك وتوطيد استبدادك" (العدد الثاني، السطران ٣٢-٣٣). أشارت الجريدة بعبارتها هذه إلى الحرب الروسية – التركية التى قامت عام ١٨٧٧؛ التى كان السلطان خلالها "بين الخمور والأقداح والطبول؛ بينما المسلمون بين المقصلة والموت والنصر" (العدد الثانى السطر ٣٣)؛ وهى الواقعة التى انتهت بكارثة؛ نظرا للعنة التى أصابت الأمة من جراء أفعال حاكمها (العدد الثاني، السطر ٣٤).

أشير إلى الحاكم حتى الآن بثلاث صفات: استبدادي، وغير كفء، وظالم. أما الصحف التركية الرسمية والعلماء المفوضون من قبل السلطة العثمانية فقد وصفوا بالفظاعة والبشاعة، مما يجعل كل الصفات النابعة من الدين والخلافة التى أطلقتها عليه الخطابات ونعتته بها بلا سند. كانت الأمة مستبد بها ولم يكن لديها نوابا ولا دستورا للمطالبة بالحقيقة وبحقوقها. أما الولايات التابعة للإمبراطورية فقد كانت معاناتها عالية نظرا لسوء إدارة الحكومة المركزية. كانت القوى الإمبريالية الغربية، ويا للتناقض، هى مصدر الأمان للأمة والمدافعة عنها. موقف مثير للسخرية قامت جريدة "الاتحاد" باستخلاص محصلته لكى تعى الأمة من ناحية حقيقة وضعها، ومن ناحية أخرى لكى تتحكم فى مصيرها وتمسك بزمام أمرها. لهذا الهدف عاودت الجريدة تناول أمر هذه الخطابات ومسألة نشرها التى لم يكن من

أهداف لها سوى "حفظ الإسلام وحمايته"؛ لأن الدين الإسلامى كان فى خطر، وكانت عملية النشر هذه تساهم فى الإبقاء والحفاظ عليه. (العدد الثانى السطران ٣٩-٤٠). شرعت صحيفة "الاتحاد" فى عرض أملت بواسطته إفهام الأمة أن الطاعة ليست واجبة الاتجاه أولئك الذين تنطبق عليهم الشروط الإلهية. وتقر "الجريدة أن الطاعة للخليفة شرط واجب لكل مسلم حق" (العدد الثانى السطران ٤١-٤٢).

وتتساءل عما تكون عليه حينئذ شروط الخلافة؛ وهى الشروط التى يحق للمسلمين طلبها فى المقابل (العدد الثانى السطران ٤٢-٤٣)؛ وبهذا كانت الصحيفة تتحدى الموالين للسلطان وتعرض على القارئ أن يختبر ويرى إذا جرؤ أحد منهم أن يرد.

"يشهد الواقع، دون شك، ضده من خلال أفعاله المستبدة السيئة التى تتسبب فى سقوط الدولة وإفناء الملة؛ وهما حقيقتان تم التثبت منهما. تشى أفعاله بما فى نفسه فى الشرق كما فى الغرب، كاشفة فى عيون المسلمين والأجانب ابتزازه وظلمه تجاه رعاياه، وواقعة بيعه الأراضى الإسلامية للأجانب وتقاعسه أمام الإصلاحات، ومعارضته للعدل، وميله لنفى المستشارين والناصحين، وقتل الإصلاحيين، وحرصه على أن يكون دوما على النقيض من الكتاب والسنة، أو على تبديد أموال المسلمين لصالحه الشخصى ومنفعته الخاصة وإشباع ملذاته الشهوانية"[1].

والجريدة كما نرى لا تتردد ولا تجمل عباراتها بل تصرح دون مواربة بما تعتقد أنه الحقيقة بل تستشهد به، وتختم تصريحها بقولها: "غير المميز وفاقد البصر فقط، بل لنقل فاقد حواسه الخمس هو فقط الذى سيطلب برهانا ودليلا على كل ذلك (العدد الثانى السطران ٤٧-٤٨) مضيفة عبارة "يتبع".

---

(١) جريدة "الاتحاد"، ١٨٨٠/٩/٢٤ العدد الثالث، السطور ٤٣-٤٧.

الواقع أن العدد الثانى لم ينته عند هذا الحد غير أن الصحفى اختار أن يوقف هذا النقاش مع فتح آخر. لم يكن هذا الموضوع الجديد مبتور الصلة الأول بل على العكس من ذلك تماما. كان ببساطة مثالا تاريخيا يثبت ما سبق تقديمه ولنقل برهانا مدعما بمثال مستقى من الواقع التاريخى وهو ما تظنه الجريدة شديد التـــأثير فـــى الأمة. ويعد هذا المثال نوعا أو وسيلة تسمح للأمة بالانتباه للأخطار التى تحيق بها من الداخل (السلطة العثمانية) ومن الخارج (الغرب).

وعلى شاكلة ما سبق لها عمله فى بداية المقـــال قامـــت جريـــدة "الاتحـــاد" بالإعلان إجمالا عن الموضوع الذى ستتناوله، والأسباب التى تدعوها إلى ذلك مع فارق طفيف، وهو الإفصاح عن المصدر الذى استقت منه هذه المعلومات.

"نما إلى علمنا من خلال مقال منشور فى جريدة "العصر الجديد"[١] بعنوان "معاهدة السلام بين روسيا ومسلمى باطوم"[٢]. أعدنا كتابته فى جريـــدتنا

---

(١) (العصر الجديد) جريدة سليم نقاش حلت محل جريدته السابقة "المحروسة" وكانت تنتفع من المساندة الفعلية لأكثر رجال العصر التزاما مثل: عبد الله النديم، ومحمد عبده، وإبراهيم اللقاني، وأديب إسحاق، وأمين بستاني... إلخ هذه الجريدة سرعان ما اختفت كما كان يحدث غالبا فى ذلك العصر وتوافق ذلك مع مقدم الثورة العرابية (ترازى Tarrazi الجزء الثالث ص٥٦-٥٩).

(٢) لمزيد من المعلومات عن "باطوم" راجع E.I الجزء الأول ص١١٤١-١١٤٢ (C. quelquejay) طبقا لأقوال ترنون Ternon يبدو هذا الإقليم "مكانا للقاءات المهمَّة والمفاوضات" (٣٢٠-٣٢١) وكان له ميناء فى الشمال يطلق عليه اسم "باطوم". يقع فى منطقة ما وراء القوقاز السوفيتية على البحر الأسود بنيت "باطوم" فى موقع كانت به قلعة رومانية قديمة ولعبت دورا مهما على مر التاريخ. فى القرن الخامس عشر كان هناك نزاع على هذا الميناء بين الأتراك العثمانيين والجيوش الجورجية. بدءا من عام ١٦٢٧ تم ضم الإقليم إلى الإمبراطورية العثمانية حتى عام ١٨٧٨. تبع ذلك عملية الأسلمة التى تصاحب دوما الغزوات العربية. أما الميناء فقد كان من أنشط موانئ القارة لدرجة أنه أصبح المركز التجارى الأساسى لتجارة عبيد ما وراء القوقاز، ثم التنازل عن هذا الإقليم لروسيا عام ١٨٧٨ وبقى تحت سيطرتها حتى عام ١٨٨٦ ثم تم ضمه إلى حكومة Kutai عام ١٩٠٣. تعرض الإقليم اعتبارا من هذا التاريخ لعدة اضطرابات وقلاقل وإن كان ذلك لم يعزله نظرا لموقعه الجيوبولتيكي. وقد عرف انطلاقة تتجه مد خطوط سكك حديدية من باطوم إلى باكو مرورا بتفليس. وقد تم الانتهاء من هذا المشروع عام ١٩٠٠ بعد أنابيب بترول من باكو إلى باطوم مما جعل الإقليم الميناء البترولى الروسى الأساسى على البحر الأسود. أما سكانه المسيحيون فى الأصل فقد بقوا أغلبهم على ديانتهم مما جعل السكان المسلمين الجدد أقلية. حاليا هذا الميناء بقى واحدا من الموانئ البترولية والمراكز الصناعية (تكرير) الأكثر أهمية فى العالم.

بحيث يتمكن المسلمون من التفكير فى التصالح أو عدم التصالح مع ما اقترفه سلطاننا؛ مثل: إفشال الإجراءات التى شرع فى عملها رجل يسعى لمساعدة مسلمى روسيا لكى يهاجر إلى بلاد الإسلام(١) وادعائه أنه يمارس خلافة شرعية(٢).

انتهت قصة هذا الحدث بترك مسلمى "باطوم" لمصيرهم؛ نظرا لعدم مساعدة السلطات العثمانية لهم وعدم منحهم حق اللجوء. وقد حظى هؤلاء على النقيض، بمساعدة حكم "باطوم" الذى قبل ثلاثة عشر شرطا من أربعة عشر قدموها له. تمت هذه المفاوضات بالعبارات التالية؛ وهى كلمات تبين كم كان السلطان الذى أشير له باسمه عبد الحميد بعيدا عن الوفاء بالتزاماته تجاه رعاياه أينما كانوا فى العالم:

"لن أخفى عنكم ما كانت عليه مقاصدي. كنت عاقدا النية على خدمة سلطانى السابق (عبد الحميد) حتى الموت، وعلى تحريض أشقائى المسلمين على مغادرة الأراضى الروسية إلى الأراضى العثمانية. إلا أننى حاليا أعترف لكم علنيا أننى قد تراجعت عن ذلك؛ لأننى إذا ما شجعت أشقائى المسلمين على ترك وطنهم للجوء إلى البلاد التركية سأكون مسئولا عن هلاكهم. الحقيقة أن كل الوعود التى أعطتها الدولة العثمانية قد اتضح عدم وجود سند لها، وأن الآمال المعقودة على هؤلاء الولاة العثمانيين قد تبددت.

الواقع أنهم أناس يكثرون من الوعود لخدمة مشاريعهم وأهدافهم الآنية ولا يفون بأى شيء منها. لا شك أنه لم يغب عن ذهنك فى ذاك العصر الذى كنا فيه تحت السلطة العثمانية، أيها السلطان أننا كنا رعايا مخلصين للدولة العثمانية التى حاربنا من أجلها كما يحارب الأبطال وأكثر من كل رعاياها.

---

(١) مرادف لدار الإسلام / الأراضى أو البلاد الإسلامية.
(٢) جريدة "الاتحاد" ١٨٨٠/٩/٢٤ العدد الثانى ص٤٩-٥١.

إلا أننا حاليا قد عقدنا العزم أن نكون للقيصر[١] رعايا مخلصين وأن نضحى بأبداننا وأرواحنا لبلده، مكان إقامتنا وأن ندافع عنه ضد أعدائه وأعدائنا.

عندما انتهى الملا لومان من قراءة خطابه، عرض على والى "باطوم" برنامج يتضمن ثلاث عشرة نقطة وقال له: "إذا ما وقعت هذا الاتفاق سنقوم بتنفيذ ما تعهدنا به ولكنك إذا رفضت فسنرفض الأمر بدورنا" رغم قسوة بعض من شروطهم وافق الحاكم على الشروط وأكرم الشيخ وأحسن استقباله[٢].

كان القيصر إذن مضيافا أكثر من السلطان. لبى القيصر نداء الاستغاثة الصادر عن مجموعة من المسلمين؛ بينما أحجم السلطان عن ذلك. وافق القيصر حتى على التفاوض فوق أرضه لصالح المسلمين؛ بينما لم يجشم السلطان نفسه مشقة سماع مطلبهم. من هنا واستنادا لهذا المثال سألت جريدة "الاتحاد" الأمة إذا كان هذا السلطان بمكنه الطموح للخلافة وتركها تحكم بنفسها إذا كانت أم لا مدينة بالطاعة لمن تركها لمصيرها فى مواجهة القوى الأوروبية.

عادت صحيفة "الاتحاد" إلى تساؤلاتها فى عددها الثالث الذى حددت فيه أنها بصدد استكمال ما سبق تناوله فى العدد الثانى (العدد الثالث السطر ٧٣) وطرحت تساؤلا عن المعايير التى بموجبها يبرر هؤلاء المؤلفون وجوب طاعة المسلمين للسلطان؛ وهى تجيب على تساؤلها قائلة لنفسها إنهم غالبا سيجيبونها بقولهم: "لأن السلطان هو الخليفة". وسؤالها التالى لهم كان عن شروط الخلافة غير أنها تراجعت عن طرحه لأنها كما قالت: "هل سيتمكنون من إيجاد رابط بين هذه الشروط وأفعال

(١) راجع مقال: "القيصر" فى E.I الجزء الرابع ص٨٧١-٨٧٣ ٩(عرفان شاهد) يطلق هذا المصطلح عادة على إمبراطور روما وبيزنطة وقد دخل إلى اللغة العربية عن طريق اللغة الآرامية وثبت قدمه نظرا لاكتشاف وجوده فى اللغة السريانية "qesar"، "هذا اللفظ غير موجود فى القرآن إلا أنه يظهر عدة مرات فى ترجمة الرسول محمد (ﷺ) وفى المؤلفات التى تتناول التاريخ القديم. دخل هذا اللفظ فى تاريخ الإسلام ويعد محقر نظرا لتمثيله العدو الذى على الإسلام مقاومته. بعبارة أخرى يمثل هذا اللفظ "دار الحرب" مقابل "دار الإسلام".

(٢) جريدة "الاتحاد" ١٨٨٠/١٠/٧ العدد الثانى السطور من ٥١ إلى ٦٦.

الحاكم؟ إلا إذا كان مذهبهم يتقبل الجمع بين نقيضين فى داخل الفكر ذاته". (العدد الثالث ص٧٥-٧٦). هناك نوعان من السيناريوهات فى إطار الممكن: "إما أن مؤلفى هذه الخطابات رغبوا فى إخضاع المسلمين لاختبار وخداعهم (...) وإما أنهم تمنوا سقوط هذا الحاكم وخدعوه بقلب الشر خيرا (العدد الثالث السطور ٧٦-٧٧). وترى صحيفة "الاتحاد" فى هذا السياق أنه إما أن المسلمين يستمرون فى تصديق هذه الأكاذيب ويعرضون أنفسهم "لغضب الله ويضيعون أنفسهم بأيديهم" (العدد الثالث السطر ٨٠) وإما أن يعوا أن ادعاءات هذا الحاكم والمحيطين به افترائية ويروا الحقيقة؛ حيث "إن الدين يعطيهم الحق فى التخلص من المهانة" (العدد الثالث السطر ٨٢).

تتساءل صحيفة "الاتحاد" بعد ذلك عن مصير السلطان ويثير فضولها ما يفعله لكى يصدق هذا الزيف والرياء، وتتعجب من عدم إحساسه بالخجل من الطموح للخلافة؛ بينما وفقا لها "الأجانب لا الدين؛ هم الذين يجبرونه على تطبيق العدالة على من يضعهم حظهم العاثر تحت نير استبداده" (العدد الثالث السطران ٨٣-٨٤) استرسل إبراهيم فى الحديث ساخرا: "لعلمنا أن العدالة واحد من شروط الخلافة التى يطمح إليها أليس مضحكا أن تراه يدخل البهجة على الأجانب ويجعل المسلمين يذرفون الدمع؟" (العدد الثالث السطران ٨٤-٨٥). رأى حينذاك أن يشرح من هو الخليفة - الإمام الحقيقي[١] فعل ذلك للأمة التى كانت فى عرفه "فى النزع الأخير" (العدد الثالث السطر ٨٦) فالإمام فى رأى إبراهيم لو كان له وجود لكان هدفه إيقاف الدماء التى تهدر بين المسلمين وحماية الدين" (العدد الثالث السطر ٨٦).

"كان هذا الإمام سيعرف ويتأكد أن إصراره وتشبثه بهذه الترهات المخالفة لمبادئ الخلافة ليست إلا فتنة، مبعثها أحقاد قديمة تعود إلى الحروب الصليبية، التى نشبت فى عصر لم يكن فيه للأجانب أية سطوة على مملكة إسلامية واحدة. أما الآن ومعظم الممالك تحت سيطرتهم ليس هناك أدنى شك فى أن ذلك سيكون سببا فى زوالها كلها.

---

(١) واحد من ألقاب الخليفة وترجمته "الملازم - خليفة الرسول" (جارديه Gardet) ينشأ هذا اللفظ من جذر معناه "إمام" مما يكسبه معنى من يتقدم فى الصلاة، ويؤم المصلين يتوسع هذا المعنى بعد ذلك ليصبح الرئيس السياسى الدينى للجماعة الإسلامية (Lewis, 1988,55).

ويمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك والقول إنه من الناحية السياسية كان يتوجب على هذا الإمام تضميد جراح الدولة وبالعدل والشورى إنقاذ ما يمكن إنقاذه حتى تستعيد الأمة توازنها من هذه السقطة التى توشك أن تغيبها عن الوجود"(١).

لإدراكه المخاطر التى تهدد الأمة كان إبراهيم يدعو إلى التعلم:

"لنتعلم إذن معا من أخطاء الماضى التى يلفت التاريخ إليها أنظارنا على مر الأزمان، ولنأخذ فى حسباننا ما يمكن أن يكون لنا مرجعا حتى يصبح الفهم مسلما به (العدد واحد السطران ٩٠-٩١).

"لنبق فى الذهن أن شعوب الممالك المسيحية لم تقبل أن تجتمع السلطات الدينية والسياسية معا فى يد البابا" (الصفحة الثالثة، السطر ٩٢). يتساءل إبراهيم والحال كذلك كيف يمكن للأمة أن تقبل أن هؤلاء الأجانب ينحونها جانبا عن الطريق القويم ويقسمونها خاصة؛ وهى ترى أن هؤلاء هم من يملكون السلطة العامة فى الأراضى الإسلامية. ويرى أنه "لعلاج الموقف، يتوجب على الممالك الإسلامية أن تعيد النظر فى الأحداث بانتباه شديد وألا تخدع أو تقتنع بالتكذيب المنشور هذا الصباح فى صحيفة تركية هى ذاتها مترددة بين نفى الأحداث وتأكيدها" (العدد الثالث ص٥، السطور ٩٥-٩٨).

يشرح إبراهيم بعد ذلك وعلى غير توقع أن السلطان قد ترك نفسه لمن حوله يخدعونه. فقد أدخلوا فى اعتقاده أن سلطته تماثل سلطة من سبقوه. مضى السلطان مضللا بهذا الوهم فى الإتيان بأفعال لم يقم قط السابقون عليه من السلاطين العثمانيين. حاول إبراهيم بعد ذلك إقناع هذا الحاكم: "فلنرو له ما سمعناه حتى يتضح له التاريخان الحاضر والسابق" (العدد الثالث ص٥ السطران ٩٩-١٠٠). من هنا فقد اختار إبراهيم على شاكلة ما فعله بالنسبة إلى الأمة فى العدد الثانى الارتكاز على التاريخ كمثل وطريقة شرح. عن طريقه أمل إبراهيم علاج الموقف.

---

(١) جريدة "الاتحاد" ١٨٨٠/١٠/٧ العدد الثالث السطور ٨٧-٩٠.

ساق هذه المرة تاريخ قبيلة "أرناءوط" (وتكتب أحيانا أرناءود)[1]. التى على النقيض من الأمة الإسلامية فى القرن التاسع عشر التى نحن بصددها قد وعت وضعها وتفاعلت على هذا الأساس. للتحاجى باستخدام الأمثلة لجأ إبراهيم إلى السخرية والتهكم كأساليب بيانية. أعلن أول الأمر أنه قد وصلت إلى مسامعه هذه القصة من أرناءوطى قال له قبل أن يرويها أن فى بلاده كان من فترة بعيدة قد لبى دعوة "احتفالية ورد فيها على لسان أحد المدعوين الحاضرين اسم السلطان. قلنا له حينئذ: "هل أنت فى حالة طهارة لتسمح لنفسك بذكر اسم السلطان؟ هكذا كان احترام أسلافنا للسلطان". (العدد الثالث السطران ١٠١-١٠٢) أورد الأرناءوطى هذه التفصيلة قبل أن يقول: إنه كان على وشك "الطعن فى شرف من يسمونه "عبد الحميد" (العدد الثالث الصفحتان ١٠٢-١٠٣) الذى ذكر اسمه بكل وضوح وللمرة الثانية فى جريدة "الاتحاد" يذكر لنا تاريخ الأرناءوط أن الموقف وصل إلى حد من الخطورة، حتى إنهم قد مزقوا العلم العثمانى ودهسوه بالأقدام، وألقوا بالأوسمة والملابس الرسمية العثمانية فى القمامة (العدد الثالث السطران ١٠٤-١٠٥). تابع إبراهيم حكى القصة ساخرا ومبررا أفعال الأرناءوط وأردف قائلا: "كلهم معذورون لأنهم سمعوا ورأوا ما طبقته هذه الممالك عن عدالة وإصلاح" (العدد الثالث السطر ١٠٥).

---

(١) راجع مقال: "Arnawutluq" فى E.I الجزء الأول الصفحات ٦٧٠-٦٧٨ (هينالسك) يعلمنا هذا المقال عن نشأة قوم "أرناءوط":"يبدو أنه حتى نهاية القرن السادس عشر سبغت السيطرة العثمانية على ألبانيا عصرا من السلام والرفاهية (...) حتى عام ٨٧٠/١٤٦٦ كانت ألبانيا العثمانية تكون سنجق تحت اسم "أرفانيد" (أو أرفانود)، فى بداية القرن التاسع عشر أدت سياسة "التنظيمات" المركزية إلى قلاقل وخلافات مع القبائل المستقلة فى ألبانيا الشمالية. تم تأسيس "الرابطة الألبانية للدفاع عن حقوق الأمة الألبانية" فى بريزرن فى الثالث عشر من يونيو ١٨٧٨ (...). شجعتها الحكومة العثمانية فى البداية. غير أنها عندما نحت إلى تفضيل ألبانيا المستقلة أرسل الباب العالى جيشا لحلها. (١٨٨١). شجعت القوى الكبرى هذه الحركة الاستقلالية مع رغبة منها بنشر تأثيرهم على ألبانيا فى حين أيدت روسيا أطماع مونتونجرو فى البلد. من ناحية أخرى فإن عبد الحميد الثانى قام بتجنيد الألبان. فى حرسه الشخصى وتقديم امتيازات خاصة لهم، حاول كسب تأييد الألبان. غير أن المفكرين الألبان بالتعاون مع شباب الأتراك فى باريس كانوا يستشرفون ألبانيا المستقلة (...). فى عام ١٩٠٨ ساعد الموقف الذى تبناه الألبان ضد عبد الحميد الثانى فى اجتماع فريزوفيلك على قيام الثورة وانتصارها" ص٦٧٨.

أبدى إبراهيم فى الوقت ذاته أسفه ولاحظ:

"تنعم مثلهم تماما بالطبيعة البشرية ذاتها ونعرف العبودية والاستعباد. الفارق الوحيد بيننا يكمن فى كونهم قد طلبوا حقوقهم وأجيبوا إلى طلبهم؛ بينما تقاعسنا نحن عن فعل ذلك وهذا ما يفسر انقضاض العديد من المآسى علينا وزاد على ذلك طمع الحاكم فى الخلافة"(١).

كان التوقيت حرجا وطبقا لما رآه إبراهيم:

"ضاغطا وعاجلا حتى لا يجد الطاغية ملاذا يلجأ إليه. نعلن الشروط الحقيقية للخلافة طبقا للشريعة الإسلامية لصالح الدين وحماية لحقوق الخلافة ذاتها، حتى لا يأخذ منافق الشريعة سبيلا للنفع ويضع يده على الدراهم والدنانير. نعلنها حتى لا يقود هذا الحث المدفوع بالزهو والخيلاء إلى ضياع المسلمين، وتفهم أوروبا إلام ترمى هذه الحكومة بطمع فى الخلافة؛ أى لا ترمى إلا إثارة النزاعات بهدف القضاء على كل معارضة محتملة من جانبنا. "أنت يا من ينعم بالبصيرة"(٢) خد حذرك(٣).

تبنت إذن جريدة "الاتحاد" حجج أعدائها وأوضحت عدم تماسكها وعدم تناسبها مع الدين الذى يأخذه محدثوها حجة وذريعة.

من هنا فإنه لصالح الدين وحماية الخلافة يقول إبراهيم إنه أمر ملح أن يعلنوا "الشروط الحقيقية للخلافة طبقا للشريعة الإسلامية" (راجع ما سبق). باستخدامه ضمير الجمع "نحن" (راجع الاستشهاد عاليه) يضم إبراهيم نفسه إلى مستمعيه، وهو الجمهور الذى يأمل إبراهيم رؤيته يتحكم فى مصيره. وهذا ليس كل شيء فهو يشير إلى أن هناك أهدافا أخرى له تشكل مع هدفه الأول كلا متكاملا؛ منها ألا يصبح الدين سبيلا للإثراء ولكى لا تقود هذه المجموعة المسلمين إلى هلاكهم. وختم إبراهيم بقوله: إنه يهدف أيضا إلى توضيح النوايا الحقيقية للحكومة العثمانية لأوروبا.

---

(١) جريدة "الاتحاد" ٧/١٠/١٨٨٠ العدد الثالث ص١٠٥-١٠٧.
(٢) ترجمة ماسون Masson 1967 الجزء الثانى ص٥٤٥ السورة ٥٩ الآية ٢.
(٣) جريدة "الاتحاد" ٧/١٠/١٨٨٠ العدد الثالث السطور ١٠٧-١١٠.

وفقا لرؤيته فإن هذا التصريح الذى يلحقه بالخلافة ليس إلا طريقة تفرقة للتمكن من السيادة بما أن النية هى تحدي أى معارضة محتملة من جانبنا. (راجع ما سبق) تعلق الأمر إذن بالسياسة؛ سياسة المعارضين للسلطة العثمانية المركزية الذين لم يكن لديهم حق الكلمة، والذين طرد ممثليهم كاللصوص (راجع ما سبق). وقد أعلن إبراهيم بوضوح انتماءه إلى هؤلاء بقوله عبارة: "من جانبنا" (راجع ما سبق) وأنهى خطابه بعملية تناص قرآنى معطيا بذلك لمسة إلهية لقوله وشرعية دينية للثوابت التى تعرفت فيها الأمة على نفسها ورأت هويتها. أعقبت الفقرة بضع نقاط وقوف وفرق خط الأعمدة الأربعة الأولى عن الأعمدة الأربعة والنصف الأخرى المنشورة فى العدد الثالث تماما كما كان الأمر فى العدد الثاني.

يحدثنا إبراهيم عن حدث وثيق الصلة بذلك وهو حرية التعبير فى الصحافة المكتوبة. وهو أمر نما إلى علمه عن طريق جريدة أخرى إنجليزية "لواستنادرد"[١] التى بدورها عرفت به عن طريق برقية وصلت من القسطنطينية تعلن: "أن الحكومة التركية كانت قد أعطت أمرا بمنع رؤساء التحرير من تناول السياسة الحالية"[٢] والنتيجة أنه "أثناء الاجتماعات السياسية التى انعقدت فى باريس كانت هذه المعلومة مثار سخرية عامة"[٣]. وفى هذا دليل أن إبراهيم كان يحضر الاجتماعات السياسية الباريسية. واصلت صحيفة "الاتحاد" عرضه المبرهن مبرزا أنه من بين الحضور فى هذه الاجتماعات كان البعض يقول: إن رؤساء تحرير الصحف كان عليهم بدءا من هذه اللحظة ملء صفحات صحفهم بحكايات من "ألف ليلة وليلة أو أى كتابات مشابهة"[٤]. كان كل ما يخشى جانبه فى الواقع فى رأى "الاتحاد" أن يكون فيما ينقلونه ويكتبونه حكاية إسقاط متعصب أو معاقبة طاغية"[٥]. انطلق إبراهيم ساخرا فى قول مجازى قارن فيه مؤيدى السلطان بالموالين للشيطان. قال أحدهم لمعارضيه كنوع من العقوبة لما قاموا بكتابته: "بما أنكم تحبون هذه

(١) راجع بشأن هذه الصحيفة مانتران Mantran 1977 ص٣٣٤.
(٢) "صحيفة الاتحاد" ١٨٨٠/١٠/٧ العدد الثالث السطران ١١١-١١٢.
(٣) "صحيفة الاتحاد" ١٨٨٠/١٠/٧ العدد الثالث السطران ١١٢-١١٣.
(٤) صحيفة "الاتحاد" ١٨٨٠/١٠/٧ العدد الثالث السطران ١١٧-١١٨.
(٥) صحيفة "الاتحاد" ١٨٨٠/١٠/٧ العدد الثالث السطران ١١٨-١١٩.

الحرية التى يكرهها سلطاننا المقدس، وربما أنكم تجهرون بالحقائق التى لا يتحملها سلطاننا ويهرب منها. منعكم من الحديث عنها جهرا فعقبتم عليها بالإيحاءات والمسكوت عنه"(١) أعلنت جريدة "الاتحاد" بذلك نفسها من المعارضين للحكومة العثمانية الشمولية وأبرزت أن الموالين الأوفياء للسلطان العثمانى يستندون بالطبع إلى الآيات وأقوال الرسول كدليل، خاصة ما كان منها يدعو إلى الطاعة الواجبة للخليفة. وهو ما يرد عليه إبراهيم هجوما بهجوم مستخدما ما يستخدمونه مع حجج من القرآن والسنة قائلا: إنه من المؤكد أن واحدا من أعوان الشيطان وهو ضمنيا السلطان العثمانى عبد الحميد الثاني.

"سيستخدم كأسلوب محاجاة الآية الخاصة بالطاعة ويضعه بفضل هذه الآية فى المرتبة الثالثة بعد الله ورسوله. فى حين أن الرسول قال: سيتعاقب عليكم بعدى حكام بعضهم صالحون والآخرون فاسدون. اسمعوا لهم وأطيعوهم فى كل ما يوافق الشريعة. إذا أحسنوا فسيثيبكم الله فى الحياة الآخرة أما إذا أساءوا فستثابوا ويعاقبهم الله"(٢).

يضيف إبراهيم منهيا محاجاته بعبارة مصاغة معروفة تنص على أنه "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق" (العدد الثالث السطران ١٢٣-١٢٤) من هنا فإنه يأثم من يطيع السلطان ما دام وفقا لرأى إبراهيم طاغية مستبد وظالم تجاه الأمة الإسلامية. ويخلص كاتبنا مطلقا نداء موجها إلى العلماء بأمل رد الحرية للأمة وإعادتها إلى مكانتها بين الأمم.

كان الجنود ممن وجه إليهم إبراهيم نداءه الذى أنهاه بدعوته لله أن ينقذ الأمة:

"أيها العلماء إذا كانت المنافسة والفرقة وهى من شيمكم تمنعكم من الاتحاد والتفاهم إذن اتحدوا وتفاهموا على الأقل لفترة إنقاذ دينكم ووطنكم، ثم (إذا رغبتم فى ذلك) عودوا إلى منافساتكم وخلافاتكم بشراسة وكثافة أكبر. الواقع أن حاكمكم

(١) صحيفة "الاتحاد" ١٨٨٠/١٠/٧ العدد الثالث السطران ١٢٠-١٢١.
(٢) صحيفة "الاتحاد" ١٨٨٠/١٠/٧ العدد الثالث السطران ١٢١-١٢٢.

قد أوصل الدولة إلى حتفها. أصاب جسم الأمة جذام الإفلاس وتناثرت أطرافه وأعدله سفراؤه كفنه من أوراق خطاباتهم.

أيها الضباط والجنود يا من تشهد ساحات القتال بشجاعتكم وقوة نفوسكم، اعلموا أن الهلال الذى يزين أعلامكم يشهد خسوفا كاملا فى سماء السياسة تتجه رغبة هذا المخرب خداع المسلمين مدعيا تمثيل الخلافة؛ بينما تجتهدون للحفاظ عليه(١). ادعو الله حتى لا أجشمكم عناء القول: يدمرون بيوتهم بأيديهم. فمن يمكنه القول: إن القلب يمكنه تجاهل؛ مثل: هذه العبارات المهينة التى يتفوه بها حكام هذه الأمة المسكينة أنفسهم. أوشكت هذه الأمة على فقدان إحساسها بكل شيء. لا تتوقفوا إذن طويلا أمام ألم الظلم ولكن تفاعلوا.. تصرفوا"(٢).

الاتحاد هو إذن الشعار لإنقاذ الإسلام والوطن. ألم يكن هذا سؤال من الأسئلة الأساسية التى طرحتها النهضة؟ إلا أن إبراهيم لم يكن ساذجا. كان واعيا أن الوحدة طويلة المدى أمر خيالي. وهو فى هذا الصدد يؤكد أن التنافس والخلافات جزء أصيل فى الطبيعة الإنسانية؛ لذا فهو يدعو إلى المنطق والحكمة المفترض وجودهما لدى العلماء؛ لكى يتحدوا ولو بشكل مؤقت لفترة تسمح بوضع الدولة بمنأى عن الاستبداد الحميدى والإمبريالية الأوروبية. وهو يحذر جنود الجيش العثمانى من المصير الذى قد ينتظرهم إذا لم يحسنوا تقدير الوضع السياسى السائد والظلم الواقع على الأمة التى يساء التعامل معها حتى إنها أصبحت محصنة لا تشعر ولا تعى شيئا.

انتهى نداء صحيفة "الاتحاد" على هذا النحو تحت سماء سياسية مهددة محكومة بدولة طاغية مستبدة يحيطها سيئو النوايا، الذين يعملون على ضياعها وعلى إفناء الأمة.

٣- لغة صحيفة "الاتحاد" وخصوصيتها:

اتسم النداء الاستخلاصى والنهائى لهذين العددين من صحيفة "الاتحاد" باستخدام عال للاستعارة والسخرية والتناص. واحدة من خواص كتابة إبراهيم

(١) نعنى هنا السلطان.
(٢) صحيفة "الاتحاد" ١٨٨٠/١٠/٧ العدد الثالث السطور ١٢٤-١٣٠.

المويلحى تكمن فى استخدامه الخاص للسخرية والتناص القرآني. أما الخاصية الأخرى؛ وهى الخطاب المسجوع؛ أى الخطاب المقفى التناغمى فهى نقطة أسلوبية لا يمكن احتسابها باعتبارها مميزة لإبراهيم وحده فقد ميزت كل مؤلفى العصر المحافظين.

رأينا فيما سبق أن اقتباس مصطلحات وتراكيب جمل من القرآن كان أمرا معتادا ومألوفا يلجأ إليه العرب بشكل طبيعى دون وجود أى نية للانتحال والسرقة الأدبية. وهو يعد انعكاسا تلقائيا؛ نظرا لكون هذه اللغة جزءا من اللغة اليومية لكون القرآن يحفظ عن ظهر قلب منذ نعومة الأظفار. بغض النظر عن هذا الثابت الذى لا يمكن إنكاره والذى يجعل من هذه الظاهرة التناصية عادة فإن هذا الأسلوب البيانى البرهانى ذو علاقة مباشرة بالرأى الجمعى وهو يعد واحدا من أساسيات التواصل بالتحاجى الذى يطلق عليه "بينص "intertexte" و"بيخاطب "interdiscours" و"خطاب اجتماعي" هذا الأسلوب المستخدم بين النصوص يلعب دورا أساسيّا فى تكوين الخطاب وهو غالبا ما يدعمه، على الأقل فيما يتعلق بالتناص القرآنى ذى التكوين البرهاني. فالأمر لا يتعلق فقط بعادة صدفوية؛ وإنما باختيار بيان يدرج فى توقيتات محددة فى الخطاب؛ أى فى عملية التحاجي. من هنا يمكننا القول: إن التناص يمكن أن يمارس بعد تفكير مسبق أو تلقائيا. من هذه الزاوية، يرى برجز Bergez أنه من الصعب القطع أو حتى معرفة إذا كانت الاقتباسات إرادية أو اقتباسات إلى حد ما واعية (ونعنى هنا الإيحاءات) أو أن الأمر من قبيل المصادفة. إلا أن ذلك لا يمنع أن النص يثرى بشكل لا جدال فيه بآفاق جديدة. من هنا يظهر أن أساس التناص هو إدراك وجود أشكال من التفاعل الصريحة والمسكوت عنها بين نصين أو أكثر. وتصر جوليا كريستيفا من جانبها على كون التناص (اقتباسات أو استشهاد) ليس تقليدا أو نسخا؛ وإنما تغييرا وتبديلا. وهو ما يجعل من هذا الأسلوب مفهوما لصيقا بمفهوم النص وما يسهم فى الإنتاجية الشاملة التى تفترضها عملية الكتابة (Piegay - Gros 1996) من هنا كان قول جينيو: "إن التفكير فى التناص يسهم فى التفكير فى عملية إنتاج النصوص الأدبية وإصدارها. (Gignoux 2005.9) ويمكن القول إجمالا فى كل أنواع النصوص الذى يستخدم التناص فيها.

نعلم كلنا أنه وفق ما قاله باختين (١٩٨٤، ٢٧٧) أن كل مؤلف أو كتاب في علاقته بالعالم وبشكله يدرج كتدخل من جانب الكاتب في حواريين النص والعالم عن طريق حوارات داخلية في النص؛ أي في تعددية أصوات أو dialogisme يظهر التناص كمعتقد مؤسس لكل نص من ناحية في علاقاته الخارجية بكافة النصوص الأخرى ومن ناحية أخرى في علاقاته الداخلية بين كافة مستوياته البيانية. هذه الأماكن هي مساحات خطابية لا تتوقف فيها المحاجاة ولنقل: إنها على العكس تماما غالبا ما تكون منبّرة لأن "البينص" intertexte يخدمها كمرحّل ومقو لتعددية الأصوات.

يأخذ التناص عندئذ على عاتقه الخطاب الذي عادة ما يسهل به إدراج التابوهات والمحظورات وقولها بفضل عدة أشياء منها الحوار. من هنا فإن التناص يمثل المساحة الخطابية التي تتلاحق فيها الآراء الغالبة والتصورات الأيديولوجية إما الجماعية التي يتم التذكير بها أو تلك التي يرغب المتكلم في جعلها جماعية. التناص إذن نوع من قوة التحاجي تتكون خلال "البينخطاب interdiscours" ويعتبر تصورها الأدبي. من هنا فأهمية وجوده مزدوجة من حيث اشتراكه في تطور النصوص الأدبي والبرهاني.

الواقع أنه من المهم لفهم أفضل لأي نص مكون من "بينخطاب interdiscours" أن نقوم بعمل جرد وحصر ومحصلة للتناص الذي يكونه ويصيغه. فيما يتعلق بنا لن يتمثل الأمر في عمل قائمة بكل الأماكن التي بها تناص في صحيفة "الاتحاد"(١)؛ ولكن في اقتراح وعرض محصلة مصحوبة بتعليق.

في البداية، وكما لاحظنا من قبل، يبدأ الخطاب "البينصي" "intertextuel" من كل العناصر التي تحيط بالصحيفة بعد عنوان "الاتحاد" مباشرة، وباعتبار أن العنوان "عامل شخصنة أساسي" و"العارض الرئيسي" لكل جريدة (Ringoot et Robert-Demontrond) (رنجوت وروبير – ديمونتروند ٢٠٠٤، ١٠١). لم يكن إذا أمرا غير ذي بال أن يلحق به عنوان فرعي مثلما كان يفعل إبراهيم، فقد كان يلحق عناوينه بآية قرآنية تشير بادئ ذي بدء إلى أن الظالمين سيعاقبون. باعتباره بيانا

---

(١) لمعرفة مواضع التناص الموجودة في جريدة الاتحاد راجع جاب الله بولهبل. Djaballah Boulahbel. 2004 ص٢٢٠.

أو عرضا جماعيا يساهم العنوان ويشارك فى المقال الافتتاحى مكونا بذلك شعارا رمزيا. هذا الشعار فى حالة صحيفة "الاتحاد" هو الوحدة التى كان تحقيقها متطلب فيه العجلة والإلزام لسلامة الأمة؛ التى كانت الهدف الوحيد من الخطاب. من هنا يمكن القول: إن العنوانين الرئيسى والفرعى يحددان الهوية (الإسلامية بالتناص القرآني) والبرنامج (الوحدة وعقاب الظالمين) والجماعة (الأمة الإسلامية) محل الحديث.

هذان العنوانان هما المساحة والموضع الصحفيان اللذان يضع الخطاب فيهما الأساسات والركائز الجماعية (القرآن) والرمزية (الوحدة)؛ وهى التى يرمى إلى مناقشة تطورها. يبرز العنوان نموذجا أيديولوجيا سياسيّا وهو الوحدة؛ بينما يوضح العنوان الفرعى نموذجا أيديولوجيا دينيا، هو العدالة الإلهية.

من هنا يطرح الأمران السياسى والدينى وهما اللصيقان فى الإسلام باعتبارهما يكونان الثيمة الغالبة فى الصحفية وهو ما يحدد المقال الافتتاحي. والنموذجى الجماعى فى العنوان واضح بشدة من خلال مبدأ الوحدة. يمثل التناص منذ البداية حتى قبل النص بدءا من العناصر المحيطة به "بينخطاب" مؤسس للنوع الأدبى الذى وضح ميله السياسى الدينى وإن كانت كتابته أدبية لكونها تدعو إلى استخدام لغة صحيحة هى تعريفيا لغة القرآن. ويمكن القول فى نهاية الأمر أن هذا التدخل الأول للتناص يمثل اللجوء إلى استعمال الاستشهاد بكلمات الله وهو قول لا نقاش فيه يعرفه ويقره جميع المسلمين باعتباره حقيقيا ومطلقا. هذا القول الربانى يمنح العنوان والنص مصداقية بمعنى أنه يفترض فى النص جرعة إيمانية ما دام معتمدا على كلام الله. وقد استمر الأمر على مدى العددين من الصحيفة اللذين دعم التناص القرآنى فيهما عملية التحاجي. استخدم التناص باعتباره دليلا مطلقا على صدق ما يقال فهو أشبه بشاهد فوق الجميع على الأحداث المروية والأحكام المطلقة والحلول المقترحة ويتم تحديد هذا التناص القرآنى وغير القرآنى بشكل واضح وصريح؛ وذلك بوضعه بين أقواس أو باستعمال المصوتات (السطر ١٥) أو باللجوء إلى عبارة: "قال الله" (السطران ٢٧-٢٨) أو "قال الرسول" (السطر ١٢٣). فى أحيان أخرى يضم التناص إلى النص دون أدنى إشارة (السطر ١٥). وقد رصدنا من التناص القرآنى الصريح والمسكوت عنه نحو ١٨ موضعا يقوم فيها مقام المثال، والمحذر، والدليل، والحجة.

لتلخيص ما سبق يمكننا القول: إن هذا التناص القرآنـي الأول يـسمح منـذ البداية بتحذير الظالمين وإعلانهم أنه: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أى مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُـونَ}[١]. وتبرز صحيفة "الاتحاد" بعد ذلك لأعدائها أن أقوالهم ضرب من العبـث الـذى لا أساس له: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبا}[٢].

على مدى الخطاب الذى يقيمه هؤلاء الأعداء وزعيمهم الـسلطان العثمـانى الذى وهم يطلقون عليه العديد من الألقاب؛ منها قائمة مستمدة كلهـا مـن التقاليـد الوثنية[٣] مثل: الخان (خان، وملك). فوضع جريدة "الاتحاد" موجهة حديثها مباشرة إلى محدثيها: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}[٤] مقلصة بذلك إلى أدنى حد كل الحجج المضادة ما دامت تعلن أن الله لم يمنح أى سلطة لكلماتهم.

أكدت الصحيفة بعد ذلك، وهذه المرة بشكل صريح عـن طريـق اسـتعمال صيغة "قال الله" أن مبدأ الشورى ركن أساسى فى العدالة التى أمر الله بتطبيقها[٥]. وقد أعطت كمثال قصة امرأة، ملكة سبأ التى قالت بشأن الشورى: "يأيهـا الملـؤا أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون"[٦].

---

(١) ماسون Masson ١٩٦٧ الجزء الثانى ص٤٦٣ السورة ٢٦ "الشعراء" الآية ٢٢٧.
(٢) ماسون Masson ١٩٦٧ الجزء الأول ص٣٥٥ السورة ١٨ "الكهف" الآية ٥.
(٣) "شاهنشاه، وخانقاه، وخان، وخاقان وسلطان". راجع جريدة "الاتحاد" ١٨٨٠/٩/٢٤ العدد الثانى السطر ٢١. هذه الألقاب القديمة للممالك الفارسية طفت على السطح مع عودة الثقافة الإيرانية خاصة تحت حكم العثمانيين. هذه الألقاب استعادت أهميتها وأصبحت "امتيازا حصريا لسلالة جنكيز خان (....) بمرور الوقت فقد لقب "خان" قيمته أيضا (لويس ١٩٨٨ ص٩٠). كانت هذه الألقاب رمزا للعظمة وقد تناقصت أهميتها حتى أصبحت مجرد مرادفات لكلمة "السيد" (لويس ١٩٨٨ ص٩٠). لمزيد من المعلومات حول هذه الألقاب راجع E.I الجزء التاسع ص٨٨٤-٨٨٩ (جـ. هـ. كرامرز)؛ الجزء التاسع ص١٩٦-١٩٧ (ف. س. دوبلوا)؛ الجزء الرابع ص١٠٤٢-١٠٤٣ (جـ. أ. بوال) والجزء الرابع ص٩٤٨ (جـ. أ. بوال).
(٤) ماسون Masson ١٩٦٧ الجزء الأول ص٢٨٨ السورة ١٢ "يوسف" الآية ٤٠.
(٥) صحيفة "الاتحاد" ١٨٨٠/٩/٢٤ العدد الثانى السطران ٢٧-٢٨.
(٦) ماسون ١٩٦٧ الجزء الثانى ص٤٦٦ السورة ٢٧ "النمل" الآية ٣٢.

وقد استخدم إبراهيم للتعريف بظلم أعدائه الاصطلاحية القرآنية فى إشارة إلى الآية: {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ}[1]، ثم أشار إلى نفاقهم وميلهم إلى خداع المسلمين. وقد سارع بعد ذلك إلى التصريح باستخدام الاستشهاد أن دعايتهم ليست مقنعة وأنهم فى الواقع: {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}[2]. ذلك غير أنهم {وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ}[3] وهم المسئولون الوحيدون بما أنهم عرضوا أنفسهم بأيديهم للضياع[4] وقد انتهى الأمر بجريدة "الاتحاد" إلى دعوة ذوى البصيرة إلى الحذر وقالت لهم: "أفيقوا يا أصحاب العقول" مذكرة بالآية: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ}[5]. وقد تابعت ساخرة ومقارنة الموالين للسلطان بحلفاء الشيطان الذين انبرى منهم واحد وجه حديثه إلى الصحفيين وألقى عليهم خطابا أعلن فيه العقاب الذى ينتظرهم {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}[6] (العدد الثالث السطران ١١٩-١٢٠) ختمت صحيفة "الاتحاد" خطابها كما بدأته بتناص قرآنى وحيد تحذر به هذه المرة جنود الأمة الذين يتوجه إليهم بالحديث قائلا: "احذروا أن يقال عنكم أنكم تدمرون بيوتكم بأيديكم"[7] (العدد الثالث السطران ١٢٨-١٢٩).

إلى جانب هذه الحجة المطلقة التى تمثلها ممارسة التناص القرآنى لجأت صحيفة "الاتحاد" إلى استعمال التناص مع السنة النبوية (السطران ٢٤ و١٢١). التناص الأول يحيلنا إلى غزوة بدر بفضل استعمال عبارة "بخ بخ" الموضوعة بين علامات تنصيص؛ أى المستخدمة كاستشهاد؛ وهى الغزوة التى دعا فيها الرسول إلى حمل السلاح موضحا أن من سيلاقى حتفه فيها سيدخل الجنة. فى اللحظة ذاتها كان أحد الصحابة يأكل تمرة فألقى بها قائلا: لا وجه للمقارنة بين التمرة والجنة "بخ

(١) ماسون ١٩٦٧ الجزء الأول ص١٠٠ السورة ٤ "النساء" الآية ٤٠.
(٢) ماسون ١٩٦٧ الجزء الأول ص٤ السورة ٢ "البقرة" الآية ٩.
(٣) ماسون ١٩٦٧ الجزء الأول ص٢١٤ السورة ٨ "الأنفال" الآية ١٦.
(٤) وفى هذا عودة للآية: {وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة: ١٩٥] ماسون ١٩٦٧ الجزء الأول الآية ٢. راجع جردية "الاتحاد" العدد الثالث ١٨٨٠/١٠/٧ ص٤ السطر ٨٢.
(٥) القرآن، دار البراق، ٢٠٠٣ ص٥٤٥ السورة ٥٩ "الحشر" الآية ٢.
(٦) ماسون ١٩٦٧ الجزء الأول ص١٠٣ السورة ٤ "النساء" الآية ٦٢.
(٧) يرجع هنا إلى الآية يخربون بيوتهم بأيديهم "القرآن"، دار البراق، ٢٠٠٣ ص٥٤٥ السورة ٥٩ "الحشر" الآية ٢ وهى آية تم الاستناد إليها قبل ذلك ببضعة سطور.

بخ" وبذا كانت هناك إحالة بلمسة ساخرة إلى السنة النبوية. أما فى السطران ١٢١-١٢٢ فقد تم الاستشهاد بشكل أكثر مباشرة بالسنة النبوية مع وضعها بين علامات تنصيص. وقد استخدمت هنا لغلق باب المناقشة حول من يتوجب على المسلمين فى جميع أنحاء العالم أن يدينوا له بالطاعة. استخدم هنا الحديث النبوى كسند وحجة للوصول إلى محصلة القول إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق مما أضفى شرعية على المعركة الأيديولوجية التى تبنتها صحيفة "الاتحاد"؛ وهى وجوب الاتحاد ضد الحكام العثمانيين حتى تسترد الإمبراطورية الإسلامية مكانتها فى معزوفة الأمم وتستعيد هويتها وحريتها[١].

وندرك مما سبق أن التناص أكثر من مجرد أسلوب بيان أو وسيلة بلاغية أو مجرد اعتياد أو لازمة لغوية[٢] فهو يساهم فى تنظيم الخطاب وينسق التحاجى فيه. وهو يظهر كحجة مطلقة تدعم ما يقال وتمنحه بذلك طابعا لا يمكن دحضه. باعتباره مصدرا لا يمكن الطعن فيه باعتراف الجميع يستخدم التناص الثوابت ويلجأ إلى التصورات الجماعية لنقل معطيات جديدة بل أيديولوجيات جديدة.

التناص القرآنى إذن أكثر من مجرد عادة أو ارتكاس لغوى هو حجة وبرهان مرتكزان على الرأى المشترك الذى بفضله تحاول الخطب إرساء علامات أيديولوجية جديدة. هذا الأسلوب التناصى مثله مثل الثوابت المطلقة هو واحد من طرق وأدوات التحاجى الأساسية الخاصة بالبيان النهضوي. يضم إبراهيم إلى التناص أساليب تحاجى أخرى منها بعض أوجه البلاغة وصورها؛ مثل: الاستفهام والتشبيه والاستعارة والسخرية والتلميح والتقفية. هذه الحجج الأخرى هى السببية والحجة القسرية بالإضافة إلى سوء النية. من هذا المنطلق، لاحظنا أن صحيفة "الاتحاد" قارنت مصادر الأعداء بجعبة الحاوى وهنا تعريف موجه للحدث يبغى من ورائه العارض توجيه الرأي. فى السطرين التاسع والعاشر، تشرح الجريدة أن أعداءها يبررون نشرهم للحدث بأن الجماعة الإسلامية يحدق بها الخطر؛ وهى تستخدم عبارة "بسبب ما". نحن هنا إذن بصدد محاجاة أساسها السببية الناشئة عن

---

(١) تعابير تمت الاستعانة بها بعد ذلك فى "مصباح الشرق"، راجع المجلد الثانى المادة العلمية ١ الفقرة h. فهرست جزئى خاص "بمصباح الشرق" (١٨٩٨-١٩٠١).

(٢) مصطلح نستعيره من جينيت Genette، راجع جينيو Gignoux ٢٠٠٥، ٦٧.

استراتيجية برهانية. هذه الأقوال تشكل استعمالا جدليا (ديالكتيكيا) للتعريف الذى يعد فى آن واحد وصفيا تفسيريا وموجها، والذى يبغى من ورائه الإقناع والتفسير معا. يتخلل ويشكل أكيد كل الحجج نوع من الذاتية؛ وهى تحديدا التى نراها فى كل خطاب برهاني. استخدم إبراهيم إذن الاستفهام البلاغى وهو أسلوب كثير التكرار فى صحيفة "الاتحاد" ونراه فى السطور ١٩، و٢٤، و٢٥، و٢٦، و٣٠، و٣٢، و٤٢، و٥٠، و٧٤، و٧٥، و٨٢، و٨٥، و٩٣. الواقع أن جزءا كبيرا من المحاجاة يرتكز على "الاستفهام بالخلف". يربض الاستفهام عن الكيفية التى حصل بها الحاكم على لقب الثالث بعد الله ورسوله، فى قلب النص ويمتد من العدد الثانى إلى العدد الثالث. حقيقة الأمر أنه لا استفهام هناك؛ وإنما هو نوع من استدعاء الإجابات العبثية عن طريق طرح سؤال حتى يمكن السخرية والاستهزاء بأقوال الأعداء. لإثارة أكبر لفضول الجمهور ولإنضاج الاستفهام أو بتحديد أكبر لإنضاج عبثية هذا الاستفهام دعت الصحيفة إلى الحيد قليلا عن الخط الرئيسي، إلى الاستطراد والأمثلة، ثم إدراج هذين الأخيرين بواسطة الخطاب المنقول أو الحكايات (السطور ٩٠-٩٥) المثال الأول هو ذلك الذى تم نقله عن جريدة "العصر الجديد"؛ أى المأخوذ عن التاريخ وهو مثال قوم "باطوم" (السطور ٤٩-٦٦). أما المثال الثانى فهو الذى يستدعى التجربة التاريخية الخاصة ببدايات العلمانية عند المسيحية (السطور من ٩٠ إلى ٩٥) أما المثال الثالث فيروى طرفة منقولة عن قوم "أرناءوط" وإدراكهم للظلم العثمانى، والملاحظ هنا أن السخرية والعبث قد تم استخدامهما بشكل دائم لإفقاد الأعداء مصداقيتهم وذلك بالإضافة إلى محاولة إيقاظ المخاطب سريعا ليدرك جسامة الموقف والعجلة التى تشم الأحداث المعاصرة.

من هنا يمكننا القول: إن نبرة جريدة "الاتحاد" كانت تعكس حالة الطوارئ والإلزام وأن خطابها كان مسئولا ومباشرا. ويتضح ذلك من استخدامها لضمير الجمع "نحن" الذى يضم عارض الأمر إلى جمهوره وبالتالى إلى الأمة وتحديدا إلى هذا الجزء المعارض للسلطة المركزية العثمانية (السطور من ١٠٧ إلى ١١٠). والواضح أن هناك استعمالا متكررا للروابط والوصلات المنطقية وهو ما يشى بالتزام العارض واضطلاعه بمسئولية الخطاب الصادر عنه (إنا، قد، ف). كما أن هناك لجوء إلى استعمال للحكم والأمثال والرمز، فالحكاية الرمزية بما تتضمنه من

تعاليم دينية أو أخلاقية تبدو كنوع من الاستطراد يحاول بها العارض الإقناع (راجع الأقواس وما تضمنته – السطران ١٨-١٩) كما لا يتردد فى التدخل مستخدما الأقواس وبذا أعلن عما يراه شخصيًا.

يمكننا بذا القول: إن نص صحيفة "الاتحاد" هو حاصل جمع كل أساليب التحاجى ومنها التناص الذى ينظم البرهنة، والسخرية التى تمسك بإيقاعها. والسخرية وهو الأسلوب القائم على قول عكس ما يراد بالفعل قوله أو التصريح به ولكن بطريقة ملتوية هو نوع من بلاغة الفكر ذى صلة وثيقة مع تعددية الأصوات (وهو ما يعرفه "باختين" "بالديالوجسم" وينبثق عنه "تناص كريستيفا") هذا الأسلوب المبرهن أيضا يسمح للنص بالتحقق. بالإضافة إلى التناص تبدو السخرية أكثر الأساليب التى يستعملها إبراهيم وهو يستعملها تدعيما للاستفهام بالخُلف والتهكم. والسخرية تعطى إيقاعا للنص كله وبتحديد أكبر للفرضيات المطروحة عن طريق أداة الاستفهام الصغيرة (أ.. أم) فبواسطتها تتم مناقشة الموضوع الرئيسى وهو كيفية تلقى السلطان للقب الثالث بعد الله ورسوله.

يرى (روبريو Robrieux ٢٠٠٠، ١١٥) أن هذا الأسلوب منشأه التلاعب والمناورة فالحقيقة أن الاستفهام غير حقيقى ولا تتوقع له إجابة بمعنى آخر هى إجابة متنكرة فى هيئة سؤال. ومصدر ذلك كما يرى "روبريو" هو بلاغة النقمة والسخط التى يمكن فيها للأسلوب السماح بالضغط على رأى المستمعين وتقديمه على ما نعتبره حقيقة لا جدال فيها (٢٠٠٠، ٢٠٦) وهو ما فعلته صحيفة "الاتحاد".

ونضيف فى نهاية الأمر هنا أن المبالغة موجودة فى كل موضع باستعمال المرادفات فى القافية.

يتيح هذا الأسلوب البلاغى استخدام ألفاظ قوية منها بصفة خاصة ألقاب الحاكم المعنى وصفاته. ورد ذكر عبد الحميد الثانى صراحة مرتين فى النص ولكن دوما فى خطاب مروى أو منقول على شاكلة ذلك الذى تناول "باطوم" والذى دار حول الأرناءوط (السطور ٥٨-٥٩ و١٠٣). هذا يعنى أن الناطق الرئيسى باسم "الاتحاد" أو العارض لرأى الصحيفة لم ينطق قط باسمه بشكل مباشر.

تمت الإشارة إلى عبد الحميد الثانى بعدة ألقاب أخرى؛ منها: مولى (مرة واحدة) وملك (مرة واحدة) وسلطان (ثلاث مرات) وحاكم (إحدى عشر مرة). كما أنه قد وصف بالمستبد (مرة واحدة) والظالم (ثلاث مرات) والمخرب (مرة واحدة) والطامح إلى لقب الثالث بعد الله ورسوله (ثلاث مرات) والخليفة (سبع مرات).

بفضل هذه المجموعة من المصطلحات أمكن الإحاطة بإشكالية ما يطمح إليه هذا الحاكم من ألقاب، والمشاكل الناجمة عن ذلك والحل المقترح لها هو وحدة الأمة ضد هذا المستبد علما أن المحيطين به ليسوا بأقل استبدادا منه. تستخدم كل أساليب البرهنة بالإضافة إلى السخرية والتناص والسجع هذه المجموعة من المصطلحات وكل الأيديولوجيات الناشئة عنها.

الثيمة الغالبة؛ وهى الصلة بالسلطة بين السلطنة والخلافة مصاغة هنا فى لغة حقيقية مسجوعة. من هنا فإن المقال الافتتاحى سياسى دينى، والهدف المرجو منه هو إلغاء الإمبراطورية العثمانية. الاختيار الآخر المقترح هو الخلافة فى إطار هذا المعنى، فإن جريدة "الاتحاد" لمالكها إبراهيم المويلحى تأتى عقب جريدة "الخلافة" عام ١٨٧٩. والحقيقة أننا لا نعرف إذا كان العدد الرابع من صحيفة "الاتحاد" قد نادى بدوره إلى هذه الخلافة العربية. إلا أن الأصداء السياسية الدولية والدبلوماسية تجعلنا نفترض أن الأمر على هذا النحو وربما أكثر وإلا فما تفسير أن يكون لظهوره كل هذه التوابع السياسية؟

الفصل السادس

"ما هنالك" عام ١٨٩٦، الإنشاء التاريخي والسياسي: إبراهيم المويلحى والسلطان عبد الحميد الثاني

"الملاحظة والدهشة هما أولى خطوات الذهن فى اتجاه البحث عن الأسباب".

ديدرو

١- سياق، وإشكالية وأهداف "ما هنالك":

كتب إبراهيم المويلحى مؤلفه "ما هنالك"[(١)] (١٨٩٦) مواصلاً نقده للسلطان والأمبراطورية العثمانية. الواقع أن إبراهيم بعد اثنتى عشرة سنة من تأسيس جريدة "الاتحاد" (١٨٨٠/١٨٨٤) أمضى منها عشرا ممارسا فى اسطنبول لوظيفة بالحكومة العثمانية، لم يتردد فى معاودة نقد النظام العثماني؛ الأمر الذى كتب الكثيرون عنه ودفعهم مرة أخرى إلى نعته بالازدواجية. هل كان يعانى الازدواجية بالفعل؟ ألم يكن نقده على النقيض من ثوابته؟ هل كان من المفترض أن يحول عمله فى الحكومة العثمانية دون توجيه أى نقد لها؟ هل كانت المشاركة فيها تعنى بالضرورة التوافق معها؟ أليس ممكنا على نقيض ظنوننا أن يكون فى العمل بها رغبة فى إصلاحها من الداخل وإن تبين بعد ذلك لإبراهيم أن هذا الطموح وهم من المحال جعله أمرا ملموسا؟ أليس من الممكن أن يكون مصدره مسلكة هذا حبه للاكتشاف ورغبته فى أن يدرك بنفسه حقيقة الإمبراطورية العثمانية؟ الحقيقة أن كل ذلك لا يمنع ألبتة كونه على هذا النحو فى وضع حرج

---

(١) لمزيد من المعلومات عن هذا الكتاب راجع آلن Allen، ٢٠٠٧ (b) الذى قدم تحليلا وترجمة له. أما النص، (راجع المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (e)) المستنسخ فى المجلد الثانى فهو يرجع إلى السيد/ خليل المويلحى (١٩٤٤) ومساعدته مادلين إسحق اللذين يعدان معا شيئا للنشر قريبا. نتقدم لهما بوافر الشكر لتزويدنا بهذه النسخة قبل نشرها. لمزيد من المراجع بشأن هذا النص راجع الفصل الثالث الفقرتين ٢، ٣ وقائمة مراجعنا. أما الإحالات إلى النص على مدى هذه الدراسة فهى من النسخة الأصلية التى قام الرهبان الدومينيكان بتزويدنا بنسخة منها مشكورين لهذا العون الكريم.

ومتناقض بين الخديوية والسلطنة طوال الفترة من ١٨٧٩ إلى ١٨٩٦. ولكن ألا يمكن أن نستشعر هنا رغبة لدى إبراهيم فى الحكم بنفسه على الأمر لتناوله بشكل أفضل بعد ذلك؟

من التبسيط الشديد والتعجل أن نسرع باستخلاص أن مسلكه دافعة الانتهازية والازدواجية دون أى سند حقيقى خاصة وأننا بصدد رجل ساهم فى نشأة الصحافة المصرية الحرة والشعبية وفى إرساء أول قواعد دستورية مصرية ونقد الإمبراطورية العثمانية الذى بواسطته قارن التجارب التاريخية والسياسية بين الأمم الشرقية والغربية، ولا ننسى مساهمته الفعالة فى ثورة عرابى وتحرير مجلة العروة الوثقى (١٨٨٤) مع الأفغاني ومحمد عبده.

ونلاحظ فى هذا الصدد أن الأفغانى نفسه والطهطاوى والنديم وآخرين عرفوا النوع ذاته من التحول فى علاقاتهم بالسلطة المركزية العثمانية والسلطة المصرية. ورغم ذلك لم يوصموا بالازدواجية دون يقين سياسى وقومى حقيقي. مما لا شك فيه أن إبراهيم ليس الأفغانى، ولكنه كان ممن انتمى إليهم النديم، ورغم ذلك، فقد كان الحكم الصادر فى حقه مسبقا، دون استئناف.

ألا يمكننا الآن، ونحن بعيدون مسافيا وزمانيا عن هذا العصر وصخبه، إعادة النظر فى هذه الواقعة لإقرار أو نفى الفرضية القائلة: إن إبراهيم لم يدفعه إلى هذا المسلك إلا المصالح المادية وتلك المتعلقة بحياته الوظيفية أو على الأقل جعلها قابلة للتأويل.

الحقيقة أن القراءة البعيدة مسافيا وزمانيا لكتاب إبراهيم "ما هنالك" هى فى حد ذاتها إجابة واضحة لهذه الإشكالية على الأقل لمن يرغب بالاحتفاظ ببعُد معين، ولا يريد جعل بؤرة اهتمامه ما يعاد كتابته منذ أكثر من قرن. يجب بدءا ألا نخلط بين هذا العمل وبين البحث العلمي، فهو ليس بمؤلف تاريخى على طريقة ابن خلدون الذى كان بوسع إبراهيم الاقتداء به. "ما هنالك" تعليق مبرهن، وناقد، وواصف للحياة السياسية والدبلوماسية العثمانية يرتكز على المشاهدات والتجارب

السياسية والدبلوماسية التى خاضها إبراهيم وعاشها مباشرة أثناء فترة إقامته فى اسطنبول بين عامى ١٨٨٥ و١٨٩٥. سمح له مركزه كأحد موظفى الإدارة العليا وباعتباره عضوا فى "ديوان المدارس" بالمراقبة عن قرب وبالشهادة. هناك مؤكدا جزء لا ينكر من الذاتية فى هذا النص غير أن هذا لا ينتقص من قدر الكتاب باعتباره شاهد عيان على الحياة السياسية العثمانية خلال الأعوام من ١٨٨٠ إلى ١٨٩٠.

سنرى أخيرا كيف أن إبراهيم لم يغير قط من موقفه وكيف أنه على العكس من ذلك تماما قد تأكد موقفه عاما بعد عام من إقامته فى اسطنبول. أما من ناحية الكتابة فسنرى مرة أخرى الأساليب البيانية المألوفة لديه؛ بل وأيضا طرق البرهنة التى ألفها بقناعاته التى بقت على ثباتها فيما يتعلق بالسلطة المركزية العثمانية.

تعلق الأمر بدولة شمولية لا يستند وضع الخلافة فيها إلى أساس. والأمة كما وصفت فى العمل ترزح تحت نير الذل والطغيان، يراها إبراهيم ضحية وفى الوقت ذاته متسببة فيما تلقاه من مصير؛ ومن ثم يدعوها من جديد إلى القيام عن بكرة أبيها. ما كان للوهلة الأولى يرى كنقد لاذع للسلطان كان من الممكن – وربما كان يتوجب أن ينظر إليه باعتباره رغبة فى إفاقة السلطان نفسه ليعى حقيقة المحيطين به. هذا السلطان الذى عمل دون شك كل ما فى وسعه حتى يفشل إبراهيم ويخبو إلى الأبد. ربما كانت هذه الحاشية من الجواسيس التى تناولها بالنقد اللاذع فى "ما هنالك" هى التى روجت حول إبراهيم سمعة الازدواجية؟ أيا ما كان الأمر فقد أعلن إبراهيم فى بداية مؤلفه ونهايته أهدافه ودوافع محاولته. هذه الأهداف والدوافع لحالها هى عناصر الإجابة على السؤال المستفسر عن دوافع إبراهيم السياسية وميوله، وعما إذا كان رجلا يعانى الازدواجية دون أن تكون له قناعات سياسية وقومية حقيقية أو عكس ذلك تماما.

لنلاحظ بداية أن إبراهيم لم يخرق قاعدة أول نشر صحفى فى صورة حلقات. الواقع أن "ما هنالك" نشر أول الأمر فى صحيفة "المقطم"[١]؛ وهى جريدة موالية لبريطانيي العصر. بعد ذلك بعام واحد؛ أى عام ١٨٩٦، جمعت المقالات ونشرت فى كتاب لم يقدر له البقاء طويلا فى الأسواق وسرعان ما وصل الخبر للسلطان عن طريق تنظيم التجسس الخاص به، الذى رغم عدم وجود الاسم تمكن من كشف هوية الكاتب. أصدر السلطان من فوره أمرا بجمع كل النسخ من الأسواق وإرسالها إلى اسطنبول ليتم حرقها. ساهم إبراهيم بنفسه فى عملية جمع النسخ مما سمح له بإنقاذ بعضها وحفظها لدى عدد من أصدقائه. على هذا النحو انتهت تجربته هذه أيضا مع السلطان بسوء تفاهم وفشل ذريع. كان إبراهيم يرى أن نظام التجسس بل النظام العثمانى كله خاطئ وظالم وعلى غير كفاءة، من هنا نفهم خشية حاشية السلطان من نشر مؤلفات كهذه، ومن ناحية أخرى خشية إبراهيم ألا يجد مخرجا إيجابيا للمسألة الشرقية ومنها الإمبراطورية العثمانية التى تمثل السلطة المركزية، التى لم يكن إبراهيم قد وصف حاضرها فقط وإنما تنبأ أيضا بحتمية انهيارها إذا لم يطرأ أى تغيير.

لم يكن إبراهيم باعتباره مؤيدا للتغير والإصلاح يعانى ازدواجية؛ وإنما كان شجاعا عنيدا ومثابرا.

أراد إبراهيم بقدرمن المكر إعلام الأمة والسلطان بما كان يجب عليهم فى رأيه معرفته واعتقد نفسه قادرا على ذلك. ظن أن إخفاء الاسم شيء ممكن غير أن الأمر لم يكن على هذا النحو. لم يصمد هدفه فى قول الحقيقة للعالم الإسلامى طويلا، ففى الفترة الواقعة بين عامي ١٨٧٠ و١٨٩٦ لم تحظ كتاباته قط بالوقت اللازم لكى تصل للقراء، وربما كان هذا ما يفسر تغييره بعد عامين الاستراتيجية السياسية والصحفية فى جريدته "مصباح الشرق" (راجع الفصل الثامن).

---

(١) راجع الفصل الرابع لمزيد من المعلومات حول هذه الجريدة.

لم يكن تحولا إذن ولا تغييرا اعتباطيا للوجهة السياسية؛ بل كان تخطيطا ونهجا يسمح له بالكتابة بأمان. ولم يكن الولاء الذى أبداه فى "مصباح الشرق" للسلطان إلا غطاء حتى لو افترضنا أن إبراهيم كان يُكن دوما للسلطان شيئا من الاحترام. فالواقع أن المشكلة لم تكن فى الرجل ذاته قدر ما كانت فى محيطه السياسى والعسكرى والبيروقراطي. بدأ إبراهيم اعتبارا من هذا التاريخ فى البحث عن طريقة تمكنه من التعبير عن مكنون ذاته دون أن يحظر ذلك عليه أحد، ويتيح له خداع الرقابة بما يسمح له بكشف الحقيقة. لتحقيق ذلك تبنى إبراهيم أسلوبا مختلفا وتوخى الحرص موجها نضاله الأيديولوجى على نحو مغاير. غير أن هذا لم يمس رسالته. بقى ملتزما بقناعاته التى طبقا لها كان يتوجب إفاقة الأمة لكلى تمسك بزمام أمورها وتمنع بصفة خاصة التدخل الأوروبى فى شئونها؛ ومن ثم تراجع أمر الإمبراطورية العثمانية إلى المرتبة الثانية ولم يصبح هدفه الأساسى باعتبارها الحائل الوحيد أمام الوجود الاستعمارى الضاغط. ولم يكن الأمر إذن متعلقا بعدم ثبات إبراهيم أيديولوجيا؛ وإنما باستراتيجية سياسية وبأولوية سياقية فى مواجهة العدو الأشد خطرا والأبعد صلة آنذاك. كان الأوروبيون بهذا المعنى أبعد صلة بالنسبة إلى العرب من الأتراك وكان هذا يشكل كل ما هنالك من فوارق. لم يكن إبراهيم مزدوج الهوى ولا انتهازيا ولا وصوليا. كان ذكيا وثابتا فى بحث دءوب عن المزيد من العناصر والأدوات التى تساعده على الفهم والإفهام. فى إطار ذلك كله وفى ضوء اتصال قناعاته ودوامها أعلن إبراهيم الأسباب التى دعته إلى كتابة "ما هنالك"؛ أى إجمالا أهدافه، ومن هنا فقد حدد مصدر الخطاب الذى اختاره لتوصيلها:

"هذا ما اعتقدنا أن علينا قوله لتفادى الضرر وعمل الصواب. على كل حال، لم نجد أفضل للمقدمة من هذين المقالين الذين يرجع أحدهما إلى واحد من أكبر أئمة الإسلام والآخر إلى الكاتب الصحفى المرموق الذى يوقع مقالاته فى جريدة "المقطم" بحرف الياء الواقع أنه لا يوجد من يفضلهما فى تقديم الهدف الذى نصبو إليه فى هذا الكتاب وفى شرح الأسباب النبيلة التى دعتنا لنشره للناس"(١).

(١) "هذا ما رأيناه واجبا علينا من ذكر المضار لتجتنب والمنافع لتجتلب ولسنا نجد مقدمة تليق بهذا الكتاب فى بيان غرضنا الذى نقصده منه ونحاوله فيه ونكشف للناس الأسباب الشريفة التى دعتنا إلى وضعه ونشره سوى مقالتين إحداهما لأحد أئمة الإسلام العظام وثانيتهما لفاضل كان يمضى مقالاته بحرف الياء فى جريدة "المقطم". =

من كان هذا الإمام؟ محمد عبده؟ ربما ولكننا لا نستطيع القطع بذلك. أما هذا الكاتب الصحفى الذى كان يوقع مقالاته بحرف "الباء" فى جريدة "المقطم" فهل كان إبراهيم المويلحى نفسه أم كاتب آخر؟ من المحتمل جدًا أن يكون إبراهيم، لنقل على الأقل إن هذا رأى كل من تناولوا هذا الموضوع[1]. وينبغى فى نهاية الأمر أن نبقى فى الذهن أن إبراهيم لم يكن ليلمح إلى صحفى "كبير" موالى للبريطانيين وهو ما لا ينطبق على إبراهيم. إذا كان الأمر على هذا النحو فمن اليسير فهم تعاونه مع هذه الجريدة الموالية للبريطانيين. فالواقع أن "المقطم" كان الصحيفة الوحيدة التى تفيد وتنعم بحرية تعبير كبيرة خاصة فى كل ما هو ضد الإمبراطورية العثمانية. لم يكن الأمر بالنسبة إلى إبراهيم اتفاقا من جانبه مع آرائها؛ وإنما استراتيجية سياسية وصحفية قائمة على إحباط الأنظمة الموضوعة لخداع الرقابة والتعبير بحرية. من المهم هنا ملاحظة أن إبراهيم يفصح عن رغبة من جانبه "المحاولة". (راجع ما سبق).

كان مدركا إذن أنه ليس بصدد شيء غير المحاولات حتى لو كانت محصلتها حدا أدنى من المرغوب فيه. وقد قام بتقييم إمكانية تحقيق هذا الأمل فى نهاية كتابه "ما هنالك". أوضح بداية أنه يأمل أن هذين المقالين المقتبسين من إمام كبير فى الإسلام (مرجع تقليدى وديني) وكاتب صحفى (مرجع حديث نهضوي) ستسمح بالعمل على أن يفهم الأسباب والدوافع الحقيقية لهذا الكتاب.

كان إبراهيم مدركا إذن الخلط والانحراف الفكرى الممكنين والخطرين المترتبين على تلقى القراء لكتابه، كما أنه واعيا لما كان هذا العمل المنشور سيضيفه إليه فلم يكن قد نسى أى شيء من تفصيلات الخامس والعشرين من نوفمبر ١٨٨٤ الذى طرد فيه من باريس نزولا على أمر السلطان (راجع الفصل الثالث فقرة ٢ والفصل الخامس) من هنا، فلكى نفهم بشكل أفضل أهداف إبراهيم فى "ما هنالك" لنر مقال الإمام الكبير الذى لم يذكر اسمه. تحت عنوان: "الدين النصيحة" تم تناول "الدولة ووضعها" اللذين يكونان الجزء الأول من مقدمة كتاب "ما هنالك التى تقع فى جزأين.

= "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٢ ترجع الإحالات المشار إليها إلى النسخة الأصلية لا إلى النسخة المنقولة الموجودة بالملحق: النصوص متطابقة.

(١) راجع الفصل الثالث الفقرة الثانية والفصل الثالث.

لفهم رهانات هذا المؤلف سوف نذكر تباعا الملخصات والاستشهادات[١] حتى لا نتقل نصنا. يبدأ هذا الإمام مقاله بالتأكيد على فكرة أن كثيرين يدعون أن إعلام الدولة وتحذيرها من وضعها المتردى هو فى واقع الأمر نوع من الردة والضلال. الأمر الأسوأ فى رأيه أن المؤيدين السياسيين للسلطة لا يكتفون بمثل هذه الأقـوال؛ وإنما يذهبون إلى حد تجميل هذا الوقع المذهل؛ ونتيجة ذلك أن الدولة تتردى أكثر فأكثر. ويضيف هذا الإمام أن الأسوأ ليس بالقطع الحرب بالأسـلحة؛ وإنمـا تلـك القائمة على خداع النفس وغرس الدول فى الأكاذيب والأوهام ("ما هنالك"، ٣ الفقرة الأولى) ويردف قائلا فى الفقرة الثانية "لا أقبل أن إنسانا يعمل على توريط دولتـه إلى هذا الحد"[٢]. من هنا فإنه منذ البداية والنقاط الأساسية معلنة بشكل مباشر. لـم يكن المهم هنا مناقشة إذا ما كان مواقف وأفعال البعض مقبولة من عدمـه؛ وإنمـا فضحهم والعمل ضدهم. يلى هذا العرض تفصيلات مطولة عما يمكـن أن يفـسر موقف الذين يصرون على الكذب على السلطان. كان الهدف هو تبيان أن حججهـم ومسلكهم على غير صواب أو أساس ("ما هنالك"، ٤-٥). يرد فى الكتـاب ذكـر وضع كل من الصحافة والرقابة والكيفية التى يتعامل بها القراء ورجال الدولة مـع كلتيهما لإبراز عبثية الموقف ("ما هنالك"، ٦، الفقرة ٢) كما يرد وصف المحيطين بالسلطان الذين يؤكد الإمام على غبائهم وعندهم ("ما هنالك" ٦، الفقـرة الثالثـة). ويمضى النص بعد ذلك مشيرا إلى مؤيدى الدولة ومعارضيها مـع منظـور كـل مجموعة على حدة للموقف. فالمجموعة الأولى ترى الدولة بريئة أما الثانية فتـرى على العكس تماما "إن الدولة هرمت وخارت قواها وانحلت عزائمها"[٣] هذا يعنـى أن الدولة العثمانية المشار إليها كانت أضعف سلطات العالم آنذاك[٤].

---

(١) للوصول إلى النصوص الأصلية التى تتناسب والملخصات المشار إليها، راجع المجلد الثانى المادة العلمية الثانية الفقرة (٢) التى نسخت بها صفحات "ما هنالك" الـ ٢٥٦ أما الاستشهادات فستكون كما عهدنا مصحوبة بنصوصها الأصلية فى الحاشية أسفل الصفحة. لإيضاح الموقف وقوة العبارات المستخدمة بشكل أفضل نرفق أحيانا ملخصاتنا بنصوصها الأصلية أسفل الصفحة وهذا لا يحدث دوما نظرا لإمكانية الوصول للنص فى الملاحق فى كل الأحوال المشار إليها يتم وضع إحالات بها الصفحات والفقرات حتى يتسنى للقارئ الرجوع إلى الأصول عند الحاجة.

(٢) "لا أقبل أن إنسانا يعمل على توريط دولته إلى هذا الحد "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٣ الفقرة ٢.

(٣) "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٧ الفقرة ٣.

(٤) "فإن دولتنا فى ميزان الدول العظام أخفهن على الإطلاق كفة". "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٨ الفقرة ١.

لهذا كله فإن من يلفتون نظر الدولة إلى مواطن ضعفها ويرغبون فى أن تعى ذلك بهدف علاجها وتحسين مآلها، لا يمكن وصفهم بالخيانة.

هم على النقيض تماما ناصحون ومرشدون أمناء(١). ختم الإمام مقاله قائلا أنه يتوجب على كل أولئك الذين يتمنون أن يجعلوا من أنفسهم ناصحين أمناء للدولة، البحث عن أسباب ضعفها ومصادر فقدان التوازن الذى تعانى منه(٢).

ذكر على هذا النحو أهم ما فى الأمر فى هذه المقدمة عن طريق الاستشهاد بمقال أحد أهم أئمة هذا العصر. من هنا يمكن القول: إن هذا المرجع الدينى مضافا إليه الأسس الأيديولوجية والسياسية للخطاب هى العناصر الرئيسة التى يعلن الكاتب اعتزامه تناولها. فى قلب النقاش الذى فتحه كتّاب "ما هنالك" كانت هناك الأكاذيب والإيماءات وتلميحات الحاشية المفسدة والمؤدية التى تحيط بالسلطة المركزية العثمانية وما آلت إليه هذه السلطة من هرم وتخلف. وبالتالى فإن الناصحين الصادقين، والأمناء، وأصحاب المصداقية، والبعيدين عن كل مصادر الشك، وأصحاب الضمير الحي، والجديرين بكل ثقة، والمستقيمين والمدققين هم من يعتمد الإمام عليهم ويؤكد أنه يمكن الركون إليهم. مهمتهم الرئيسة هى وضع اليد على مصدر العلة التى تعانى منها الدولة لمعالجتها مع انتشال السلطة من هذا الضعف السياسى ودفعها إلى استعادة زمام أمورها فى يدها (عليهم أن "يستنهضوها") بذكر هذا اللفظ بمشروع النهضة (راجع ما سبق فى العدد ٦٠٨). ولم يكن قد شاع بعد استعماله.

بهذه المقدمة غير المباشرة أعلن المؤلف المجهول (أديب فاضل من المصريين)(٣) الذى نعرف أنه إبراهيم المويلحي، بطريقة مقتضبة ودقيقة أن الأمر يتعلق بكتاب الهدف منه إرشاد الدولة كناصح أمين وليس كعدو. أريد لهذا الكتاب أن يكون دليلا دبلوماسيا به كشف دقيق للأحداث الرسمية وغير الرسمية شامل للذى يرجع منها إلى الإشاعة والطرفة؛ بحيث يمكن التعلم منها دون تكرارها. أما باقى الكتاب ويقع فى أقل من ٢٥٠ صفحة فنجد فيه بعد المقدمة الثانية والفقرات

---

(١) وحينئذ فليس بغاش من يستلفت الدولة إلى ضعفها ويستنهضها إلى تدارك شأنها، بل هو الناصح الأمين "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٨ الفقرة الأولى.

(٢) فعلى من يريد أن يضع نفسه من الدولة موضع الناصح الصادق أن يبحث عن علة ضعفها وأصل خللها "ما هنالك"، ١٨٩٦ ص٨ الفقرة الأولى.

(٣) راجع صفحة غلاف "ما هنالك": المجلد الثاني، الملحق ١٠ الفقرة (أ).

التى تذكر صراحة الأهداف التى يطمح إليها "ما هنالك" تقريرا سياسيًا ودبلوماسيا عن مشاهدات مباشرة للحياة السياسية فى اسطنبول فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٨٥-١٨٩٥. من السهل بالطبع تبين أن الذاتية والرؤية الشخصية وأثر تجارب إبراهيم تغشى السطور. ولكن أليس الأمر دوما على هذا النحو فى السياسة؟

ألا تشكل النكات والطرفات جزءا لصيقا بالأحداث السياسية، حتى لو كان ذلك فى عرف البعض مؤسفا؟ أليس لها أثر وانعكاسات مؤكدة عليها؟

الهدف هنا ليس الحكم على المصداقية السياسية للنص أو حتى المصداقية الشخصية لمؤلفه؛ وإنما الإلمام بمحتواه ومعرفة بأى شيء ساهم فى النهضة العربية فى القرن التاسع عشر والكيفية التى تم له بها ذلك. والهدف الثانى هو تسجيل مرحلة فى إنتاج إبراهيم الأدبي. من هنا فإن الجزء الثانى من التقديم والذى يحمل عنوان: "الأمة العثمانية" يصف الوضع المأساوى للأمة الذى يعد كارثيا ومنذرا. أسوأ ما فى هذا الوضع أن الجاهلين كانوا يخدعون بالمظاهر ويظنون أن الأمة كانت سعيدة وتعيش فى سلام. كان جهلهم قد بلغ بهم درجة يعتقدون معها أن القائلين: إن الأمة فى خطرهم الذين يجب قتالهم ومقاومتهم (ما هنالك، ٩، الفقرتان ١ و٢)

فى الصفحة العاشرة يستخدم إبراهيم التاريخ لاستقاء بعض الأمثلة، ويختم بقوله إنه والحال كذلك: "يجوز لفرد واحد أن يوقظ أمة كما جاز لفرد واحد أن يرقدها"[١]، وبالتالى يعترف إبراهيم أن الأمة نائمة وأن المسئول عن ذلك رجل واحد حتى إن أقر بعد ذلك أن هذا الرجل ذكى وأن المحيطين به منافقون وأنانيون وكاذبون، فإن تاريخ هذه الدولة وحكم هذا الرجل كان من الممكن أن يكونا شيئا مختلفا تماما. فى الفقرة الثانية التالية لهذه الجملة مباشرة يقول إبراهيم:

"وحالنا فى ما نكتبه عن البلاد العثمانية هو أننا نريد تنبيه الأمة إلى دائها؛ لتنقذ نفسها من سوء المظالم ومن التمزق والتشتت، الذى لا بد أن يلحقها إن هى بقيت على حالتها الحاضرة الموجبة لتداخل الأجانب"[٢].

(١) "ما هنالك"، ١٨٩٦ ص١٠ الفقرة الأولى.
(٢) "ما هنالك" ١٨٩٦ ص١٠ الفقرة الثانية.

أعلن إبراهيم إذن عن كونه ذلك الشخص الذى لديه هدف أوحد هو إيقاظ الأمة والدولة العثمانية. تحقيقا لهذا الهدف قدم للاثنتين هذا الكتاب كدليل يتبع للخروج من هذه الأزمة التى وقعتا فيها.

لإدراكه الخطر الذى يحيق بها داخليًا (الخلل الوظيفى فى الدولة العثمانية) وخارجيًا (التهديد بالتدخل الأجنبي)، أوضح إبراهيم أنه:

"ينحصر غرضه فى ذلك وراء غايتين إعلان ما يخفيه منها الظلمة من سوء أحوالها وإرشادها إلى المطالبة بحقوقها.. ومن حقوقها أنها تطالب الحكومة بالإصلاح، وتنفيذ القانون الأساسى، وإعادة مجلس المبعوثان، وتشكيل وزارة متصرفة مسئولة أمام الأمة، والتفسيح لحرية الأفكار كما هو موجود فى أدنى دولة من دول أوروبا"(١).

كان الغرض إذن هو توعية الأمة بالحقيقة ودفعها إلى طلب حقوقها التى رصدها إبراهيم وحصرها. كان هذا الكتاب يقوم مقام برنامج إصلاح باعتباره من الطليعة حذر إبراهيم من كون تفكك ونهاية الإمبراطورية العثمانية وشيكين خاصة إذا لم يتم عمل شيء لتحسين الدولة وإصلاحها. كانت الحقوق والحرية إذن أساسا فى الإصلاح الذى ينادى به إبراهيم. كان هذان المفهومان ضمن ركائز الدول القوية فى ذلك العصر التى كان يعتبرها مثالا يحتذى. يثبت هذا الفهم المنفتح على العالم تأييد إبراهيم للأخذ بالأفكار الواردة من أوروبا؛ التى تمثل رغم ذلك فى عرفه تهديدا بالتدخل الأجنبى والإمبريالية. كان على هذا النحو منفتحا ومستعدا لاقتباس الأفكار والنماذج السياسية (الاجتماعية والاقتصادية) من أوروبا. وهو يسوق تدعيما لذلك مثال الحرب بين الصين واليابان إلى جانب النمسا باعتبارها بلدا تتعدد فيه العقائد والإثنيات (ما هنالك ١٨٩٦، ١١ الفقرة الثانية). يوجه إبراهيم بعد ذلك حديثه إلى الحكومة العثمانية ويسألها فى ضوء ذلك كله عما يمنعها من سرعة الأخذ بنظام الشورى الذى يأمر الدين باتباعه عن طريق الخلافة ويدعو إليه حسن التبصر من ناحية السلطنة(٢). كان الحائل الوحيد فى رأى إبراهيم هو أن تشاطر الأمة بالرأى وتطلب حقوقها.

(١) "ما هنالك" ١٨٩٦ ص١٠-١١ الفقرتان ١-٢.
(٢) "ما هنالك" ١٨٩٦ ص١١ الفقرة ٢.

ولم تكن عنده الدولة بأقل مسئولية فقد كانت تبذل قصارى جهدها لإبقاء الأمة فى حالة من الخمول والجهل.

كانت الخلافة والسلطنة إذن مثلها فى ذلك مثل: الحق والحرية تحتلا قلب النقاش فى "ما هنالك".

كانت الفكرة القائدة لإبراهيم على ثباتها منذ كتابته فى صحيفتى "الخلافة" عام ١٨٧٩ و"الاتحاد" (١٨٨٠/١٨٨٤). كان إبراهيم منفتحا على النماذج الأوروبية وبالتالى مرحبا بالنماذج خارجية المنشأ. وقد حاول إيجاد حل وسط من طراز جديد أمين للنموذج الإسلامى (الخلافة) والنموذج التقليدى المعمول به (السلطنة)؛ أى داخلى المنشأ وفى الوقت ذاته منفتحا على المبادئ الغربية الجديدة؛ مثل: الحرية وبعض الحقوق. تعلق الأمر إذن بنهج مبتكر ومجدد عام ١٨٩٦؛ أى فى نهايات القرن، يحاول الجمع بين النماذج الخارجية والداخلية، وطنية المنشأ وأجنبية المصدر وصولا إلى نموذج جديد خارجى – داخلي.

غير أن كل مقترحات إبراهيم قد استبعدت برمتها، لم تقرأ حتى؛ وإنما أحرقت.

من هنا يمكننا القول: إن هذا الكتاب هو نوع من الأنثروبولوجيا السياسية، بدائية دون أدنى شك ولكن واقعية. صرح إبراهيم فى صفحاته أنه لم يكن هناك ضرر فى أن يرفع المفكرون الأحرار الستار كاشفين هؤلاء الحكام ومن يعلوهم فى عيون العالم بأسره وذلك حتى يغيروا آراءهم. ذلك أنه إذا لم يتغير شيء ولم ينجز شيء لتحسين مصير الأمة والإمبراطورية سيكون من واجب هؤلاء المفكرين الأحرار تحذير الأمة لتطالب بحقوقها(١)، ثم خلص إبراهيم إلى القول:

"هذا غرضنا الذى نرمى إليه ونسعى له إما أن يأمر الحكام بالعدل وإما أن يمتثلوا أمر الأمة فى إجرائه. ولا نبغى بالأمة العثمانية إلا إحدى الحسنيين"(٢).

---

(١) وعلى ذلك فلا مناص للأحرار من كشف الستار عن هؤلاء الحكام، والتشنيع عليهم، وتشهيرهم فى أنحاء العالم حتى يعدلوا عن ذلك الرأي. فإن لم يرغبوا فى هذا الخير، ولم يعدلوا عن طريقهم كان الواجب على الأحرار تنبيه الأمة لتطالب هى بحقوقها. "ما هنالك" ١٨٩٦ ص١٢ الفقرة الأولى.

(٢) "ما هنالك" ١٨٩٦ ص١٢ الفقرة الثانية.

كان إبراهيم يقدر أنه ينتمى إلى المفكرين الأحرار الذين عليهم مهمة وواجب إماطة اللثام عما يخفيه الحكام العثمانيون عن الأمة. كان يرى نفسه مرشدا تدعمه ركيزتان أساسيتان هما الحرية والعدالة. لم يرق إلى اهتمامه احتقار ونبذ الظالمين له أو قولهم أن الدافع وراء كتابه كراهيته للإمبراطورية العثمانية. كان الأهم بالنسبة إليه أن تتخلص الأمة من رعبها. نخلص من ذلك إلى القول: إن الكلمات الكاشفة فى كتاب إبراهيم المويلحى "ما هنالك" هي: حق، وحرية الفكر، والمفكرون الأحرار، والحكام الفاسدون، والإمبراطورية المتداعية، والظلم، والتدخل الأجنبي، والخلافة، والسلطنة، ويرشد، ويوقظ... وهى الكلمات التى كانت تعبر عما يحدث فى قصر يلدز مقر الحكم المركزى العثمانى فى نهاية القرن التاسع عشر.

من هنا يمكن القول: إن هذا الكتاب وصف للنسق العثمانى فى الربع الأخير من القرن قبل سقوطه المتوقع من جانب الكثيرين ومنهم إبراهيم المويلحي. حاول إبراهيم جهده تفادى هذا السقوط بنشر كتابه الذى كتبه خصيصا للسلطان، وتمنى أن يخلص نفسه من الحاشية المحيطة به ويعيد النظر فى سياسته. أهدى إبراهيم باعتباره مفكرا حرا كتابه إلى الأمة وإلى "الخلافة – السلطنة" وأمل أن يخرج من غياهب وظلمات الجهل والظلم إلى نور الحق والحرية.

٢- محتوى "ما هنالك" ما له وما عليه وخاتمته:

قدم إبراهيم لعمل ذلك ملاحظات مدعمة بالإيضاحات والاقتراحات ومستخلصات فى ثلاثة وثلاثين فصلا[١] تحكى هذه الفصول ما كان من خلل فى وظائف النظام السياسى العثمانى والمؤسسات والإدارات والجيش العثمانى بالإضافة إلى الاستبدادية الحميدية وعفوض الحياة فى قصر يلدز. عرض إبراهيم أسماء وعمليات ابتزاز ومناورات ومؤامرات سياسية بالإضافة إلى تقديمه لوصف طقوس السلطة لدى السلاطين والخلفاء. من هنا فموضوع الحكاية النثرية المقفاة والمسجوعة "ما هنالك" هو خليط من المعطيات والمعلومات والأحداث. استخدم إبراهيم لفضح وكشف كل ما رأى ضرورة أن تعرفه الأمة عن الدولة وحكامها

(١) راجع فهرست "ما هنالك": الملحق ١٠ الفقرة (أ).

والسلطان عبد الحميد الثانى كل الصور البيانية المتاحة من مبالغة وتضاد وجناس وسخرية وتهكم وأسئلة الخلف. والملاحظ أن اسم عبد الحميد الثانى قد ورد كثيرا فى النص بل إن الفصل قبل الأخير قد خصص له بالكامل.

والتناص مع القرآن أداة تحاجى أيديولوجية يستخدمها دوما إبراهيم، كذلك الأمر بالنسبة إلى المصطلحات السياسية التى لجأ إليها سابقا فى جريدته "الاتحاد" من هنا فإن الأمتين المصرية والعثمانية يحتلا دون تمييز أو مفاضلة قلب الموضوع وتمثلا الجمهور الرئيسى الذى يوجه له إبراهيم خطابه ونصائحه. على مدى النص كله يبقى "السلطان – الخليفة" المتحدث إليه الذى يحظى بالأفضلية. يتضح مما كتبه إبراهيم أن الحقيقة المبطنة بالعدل والحق والحرية تبقى الركائز الواجب تبنيها وإقامتها، من هنا فإن الظالمين المنافقين والكاذبين يبقون الأعداء الذين تتوجب مقاومتهم. ويمكن القول فى نهاية الأمر: إن المفكرين ذوى الفكر الحر هم المنقذون الجدد الذين يعلن إبراهيم تبعيته لهم وانتمائه إليهم.. تغير الأمر وأصبح من لم يكن أحد يجرؤ على تسميتهم، معروفين هؤلاء المفكرون الأحرار، مرشدو الجماعة وهادو الأمة لم يكونوا ببعيدين عن تذكيرنا بشباب الأتراك، هذا إذا لم نكن نعلم مسبقا ما كان فى ذهن إبراهيم بشأنهم فى الأعوام بين ١٨٩٨ و ١٩٠٠ وبقولنا ذلك نرجح أنه ربما كان فكره مختلفا عام ١٨٩٦، ثم جدت فى الأمور أمور. بدت التسمية وبدا الانضمام إلى صفوف المفكرين الأحرار الذين كانوا فى ذلك الوقت منظمين فى حركة سرية لإبراهيم، أمرا متوافقا مع مثالياته ونماذجه السياسية. ويبدو أنه بعد ذلك تعامل مع الأمر كما لو كان لا يوافقه أو لم يعد يوافقه حتى لا يتم وقف جريدته "مصباح الشرق" ويقال: إنه لخداع الرقابة قد تبنى موقفا مزيفا وغير حقيقى تجاه الشباب – الأتراك. ولكن أيا ما كان الأمر سواء كان الشباب الأتراك فى الأفق أم لا، فإن إبراهيم قد اعتبر نفسه من أصحاب الفكر الحر فى تلك الفترة وبالتالى مفكرى النهضة الأحرار، ومن هنا فقد شرع فى الكتابة كمرشد يقوم بما يعتبره واجبه ومهمته، وهو إيقاظ الأمة والدولة وتنبيه كلتاهما إلى الأضواء السياسية والاجتماعية (الحرية والحق والعدالة) والاقتصادية (خاصة على النسق الأوروبى المزدهر)؛ أى إجمالا تلبية لهدف النهضة العربية الأسمى والأعلى وهو اللحاق بأنفسهم بمصاف الأمم المتحضرة.

الأمة، ذلك الجمهور الذى يتم دوما ذكره أو التوجه إليه بالنداء هى الثيمة الأولى التى تم تناولها فى المقدمة الثانية (راجع ما سبق). يحمل الفصل الأول من الكتاب عنوان: "أحوال السلطنة العثمانية" وقد تمت الإشارة إليه باعتباره المقال الأول (١٤-٢٤).

والموضوع المتناول فيه هو العودة التاريخية إلى بدايات الإمبراطورية العثمانية حتى عام ١٨٩٦. أما الفصل الثانى فعنوانه: "الما بين" ويقصد بهذا اللفظ القصر الحميدى وبسطوره وصف للمكان الذى تقطن به السلطة ويعيش فيه السلطان. يلى هذان الفصلان أربعة فصول (المقالات ٣، و٤، و٥، و٦)[١] الهدف منها هو وصف الإدارات العثمانية الكبرى. ويتبعها الفصل السابع (٧٧-١٠١) الذى تحدث عن الجواسيس؛ وهى ثيمة رئيسة تحرزت منها الأخبار فى ذلك العصر. الأرجح أن هذا الفصل تحديدا كان أكثر إزعاجا وإقلاقا وهو الذى تسبب فى منع كتاب "ما هنالك" الذى فضح فيه المؤلف نظام التجسس. تبع هذا الفصل المقال الثامن (١٠١-١١٨) وهو يعالج احتفاليات عيد الجلوس على العرش العثماني. أما المقال التاسع (١١٨-١٢٧) فيحمل مثل المقال السابع عنوان: "الجواسيس".

من هنا نرى أن "ما هنالك" يبدو كتجميع لمقالات ربما بذات ترتيبها الأول فى الظهور كحلقات مسلسلة فى جريدة "المقطم" أكثر منه كتاب ذو فصول مرتبة تبعا لنظام مرسوم وفق خط موصل من البداية إلى النهاية. هذا لا يمنع أن قراءته طبقا لترتيبه الخاص سلسلة لا يعوقها عائق؛ بل إن ما يبدو للوهلة الأولى كفصم فى الثيمات سرعان ما يتبدى كاستراتيجية فى الكتابة والمحاجاة أكثر منه تجميع خال من أى منطق وعقل. تشكل وقفة المقال الرئيسى الذى يتناول نظام التجسس الحميدى نوعا من التقاط الأنفاس الذى يسمح بأخذ فترة راحة وإنضاج التفكير فى الموضوع قبل العودة للقراءة، وفى الوقت ذاته يسمح بشرح بعض النقاط العملية التى التفت السلطان إلى وجوب الأخذ بها. كان السلطان لخوفه على نفسه قد انغلق على نفسه شيئا فشيئا فى جو صارم منعزل، يحرسه الجواسيس حتى إنه بمرور الوقت بات أسير قصره لا يغادره البتة[٢].

---

(١) وهى على التوالى ص(٣١-٣٨) - وص(٣٨-٤٤) - وص(٤٤-٦١) - وص (٦١-٧٧).
(٢) انظر جورجون Georgeon، ٢٠٠٣، ص٥٢٨.

ويمكننا اعتبار الوقفة التى يمثلها إدراج المقال الواصف لاحتفاليات اعتلاء العرش العثمانى من ناحية استراحة من القراءة ومن ناحية أخرى نوعا من الاستطراد التفسيرى لذلك المقال المكتوب على مرحلتين حول الجواسيس الحميديين.

أما المقال العاشر (١٣٧-١٤٨) الذى يحمل عنوان: "جلال الخلافة وجمال السلطنة" فيعود لتناول صفات ركيزتى السلطة: الركيزة الدينية بالنسبة إلى الخلافة والركيزة الدنيوية الخاصة بالسلطنة. يتبع المقال العاشر ثمانى مقالات (من الثانى عشر إلى التاسع عشر ١٣٨-١٥٨) تدور كلها حول الطقوس الدينية والتقليدية التى يوليها السلاطين العثمانيين دوما أهمية؛ مثل: رمضان والعيد والمولد النبوى ورأس السنة الهجرية وذكرى ميلاد السلطان. تسمح هذه المقالات بوصف الحياة من جانب آخر غير الجانب السياسى، غير أنها فى واقع الأمر تعد وسيلة لتقديم وصف أفضل وأدق للمدى الذى وصل إليه الجواسيس ولقدر الخلل الوظيفى السياسى العثمانى القائم. فى المقال العشرين (١٥٨-١٧٢) "تقليد المناصب العثمانية"، هاجم إبراهيم نظام شغل الوظائف العثمانية مستنكرا غياب أى نسق وانغلاق السياسة المتبعة على نفسها، فقد كان الأمر يقتصر من ناحية التكليف على اختيار الأشخاص ذواتهم؛ وذلك بسبب هذه المخاوف الشخصية التى استبدت بالسلطان.

أما المقال التالى ويحمل رقم ٢١ (١٧٢-١٧٥) فيصف السفراء ويستدعى فيه إبراهيم تجاربه الشخصية خاصة فى إيطاليا عام ١٨٧٩ وفى فرنسا خلال العامين ١٨٨٠ و١٨٨٤ (١٧٢-١٧٣).

ويشى عنوان المقال الثانى والعشرين "دعاوى فى الآستانة" (١٧٦-١٨٢) بموضوعه. وهو يحكى عن ممارسات السفراء والأعيان والولاة الذين كانوا يسارعون بطرد بعض الإداريين والساسة أو الصحفيين ويحكمون عليهم بالنفى أو السجن مدى الحياة دون التحقق من مدى صدق الشائعات الرائجة عنهم.

من المقال الثالث والعشرين وحتى المقال الثلاثين (١٨٢-٢٢٢) أولى إبراهيم اهتماما بالشيوخ ناصحى السلطان الذين كان يركن إليهم فى اتخاذ كل قراراته، أبرز إبراهيم طبيعة هذه النصائح وطابعها العبثى الفوطبيعى والنتائج المدمرة التى

كانت تترتب عليها. يحمل المقال الحادى والثلاثين الذى يعد خاتمة عنوان: الغرض من "ما هنالك" أما المقالان الثانى والثلاثون "السلطان" (٢٣٤ – ٢٤٣) والثالث والثلاثون "خلع السلاطين" فيبدوان كنوع من الديباجة تسمح بإغراق الخاتمة وبالتوازى كمحاولة أخيرة للتفاهم بين إبراهيم والسلطان. بهذه المحاولة كان إبراهيم يأمل أن يلمح السلطان رغم كل المظاهر ما يكنه له من ود ونية طيبة.

استخدم إبراهيم لتحقيق هذه الأغراض أساليبا متباينة ومصطلحات لصياغة خطابه فى "ما هنالك" فى هذا الخطاب ورد لعدة مرات ذكر الصحافة واعتبرت كمصدر للمعلومات. وتعد الصحف التركية أكثرها ورودا فى الكتاب يليها الصحف الأوروبية فالعربية وقد جاء ذكر اسمى دوريتين هما "الاعتدال" (١٦٣) و"الميزان" (١٧١)[١] وقد تضمن مقال "حرية المطبوعات" حرية الصحافة وحرية المطبوعات (١٢٤) كما تمت الإشارة إلى "جرائد الأحرار" (١٢٦) و"التلغراف"[٢] باعتبارها وسائل اتصال تلعب دورا سياسيًا. كثيرا ما يوجه إبراهيم حديثه إلى قارئه[٣] بهدف دفعه إلى التساؤل وهو يقيم شبه حوار يترك للقارئ انطباعا أنه يشارك. فهو على سبيل المثال يسأل قارئه إذا كان راغبا فى معرفة الكيفية التى أضاعت بها الدولة العثمانية[٤] تونس وعما إذا كان بوسعه أن يقول له إذا كان هناك كتاب يتجنبون القدح والقذف ونقل الأخبار[٥]؛ وهى ظاهرة كانت آنذاك يومية فى اسطنبول.

فى كتاب إبراهيم استخدم التاريخ كمعيار ومصدر للأمثلة، ومن هنا جاء ذكر لويس الرابع عشر (٦٠) محمد على (٧٨، ١٢٩) والخديو إسماعيل (١١٣).

أحداث جسام؛ مثل: الحرب الروسية التركية (١٠٥) والمسألة الأرمينية (١٠٥) والمسألة المصرية (١١٦) وثورة عرابى (٧٠، ١١٦) ومسألة بلغاريا

---

(١) راجع على سبيل المثال: ص١٧، و٤٦، و٨٥، و٩٣، و١١٦، و١٢٤، و١٢٦، و١٦٣، و١٧١ و١٧٣.

(٢) راجع على سبيل المثال: ص٢٣ و١٠٧.

(٣) راجع على سبيل المثال: ص٥١، و٩٤-٩٥، و٢٣٦.

(٤) "أتريد أيها القارئ أن تعلم كيف ذهبت تونس من الدولة؟ "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٥١ الفقرة الثانية.

(٥) "قل أيها القارئ أى حامل فى هذا البلد الأمين لا تتعب الكرام الكاتبين دعاء". "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٩٤ الفقرة الثالثة.

(١٠٥) وقصة الأرناءوط (٧٠) اتخذ منها إبراهيم علامات وحجيج. يتوجه كتاب "ما هنالك" بالحديث إلى الأمة العثمانية (٩) والعربية (١٨٣) إذن إلى "العثماني" (٤٤) والمصرى (٤٤) الذين يفترض كونهما أشقاء منهم يتكون الجمهور (٨٦) وهو لفظ كان فى ذلك الوقت "تابوه" وغير شائع الاستعمال.

الواقع أن مفهوم "الجمهور" المكون من جموع المواطنين فى مقابل الجمهور المكون من جموع الرعايا والذى كانت الإمبراطورية العثمانية راغبة فى الاحتفاظ به، كان محل عناية فائقة وكمكمل له كانت هناك مجموعة مصطلحية تشمل: "حب الدولة" (١٠٨) و"روح الدولة" (١٧٣) و"حقوق الدولة" (٨٥). وتمثل "الحرية" قمة هذه المجموعة(١).

كانت لفظة الحرية هى التى يؤكد إبراهيم على وجوب استعمال كل مصرى لها. فى مقابل هذه الركائز المحرمة كانت هناك أنواع عدة من الخلل حاول إبراهيم تناولها بالحديث. كان هدفه أن تكون هذه المبادئ (حرية، وحق، وقانون) تدريجيًا مسموحا بها. من بين الآفات والويلات الكبرى كانت هناك الجاسوسية التى رأى إبراهيم وجوب مكافحتها بشكل عاجل وفوري. فهى فى رأيه تسيئ إلى صورة السلطان الذى كان دونها بوسعه أن يقوم على أكمل وجه بمهمته كسلطان وخليفة طبقا لما ورد فى "ما هنالك" كان مرجع كل ما تعانى منه الخلافة الإسلامية يقع على عاتق الجواسيس وهو أمر يعد نقطة سوداء فى التاريخ العثماني. فقد كان الأمن العام فى قاعدة السلطنة ذاتها قد أصابه الضر؛ بسبب هؤلاء الجواسيس الذين كانوا يتربصون بكل الرعايا النائمين الغافلين فى بلاد الإسلام(٢).

---

(١) فيما يتعلق بالمعانى المختلفة لهذا المصطلح راجع الملحق السادس: "معجم لغة الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر". جذر هذه الكلمة هو "د، و، ل" ومعناها الأول يوضح مفهوم التداول وقد اكتسبت معنى السلطة السياسية أثناء الحدث التاريخى الخاص بتجريد الأمويين وإحلال العباسيين محلهم. من هنا فكلمة دولة تحيلنا إلى شخص يحظى بالنجاح والسلطة (لويس Lewis ٢٠٠٠، ٦٠) منذ بداية القرن الثامن عشر أخذ هذا المصطلح معنى الدولة والنظام السياسي. لمزيد من العناصر راجع: E.I المجلد الثانى ص١٨٣-١٨٤ (F.Rosenthal).

(٢) "ومن مخزيات الزمان ومسودات وجه العصر ما أصاب الأمن فى قاعدة السلطنة وعاصمة الدولة ومقر الإمامة من إطلاق ذئاب الجواسيس الطلس على حملان الرعية النائمة فى حظيرة الخلافة الإسلامية".

يثور هنا سؤال عن كيفية إنقاذ ما تبقى من هذه الدولة والخلاص من هؤلاء الجواسيس[١] يتساءل إبراهيم فى هذا الصدد عما ينبغى له قوله وعما سيقوله غيره، عما يتوجب عليه كتابته وعما سيكتبه الكتاب عن شعب تم تجريده من كل معارضة وتنافسية ومن كل نقاش ومقاومة[٢]. كانت اسطنبول قد أضحت صينية من الفضة تغشاها الحيات[٣]. وكان إبراهيم يرى أن السلطان وحده هو القادر على نجدة وإنقاذ الأمة ودولته، فبين يديه نجاته وعقوبته[٤]. أعداؤه ونعنى بالمسكوت عنه الجواسيس، الذين يقارنهم إبراهيم بالحيات كانوا من الخطر والشيطنة إلى الحد الذى يمكن عشرة فقط منهم إذا ما سنحت لهم الفرصة، أن يزيلوا أعتى دول العالم من الوجود[٥].

من هنا فقد دعا العثمانى إلى النظر إلى الزعماء الأوروبيين ومراقبة سياساتهم خاصة فيما يتعلق بالحرية والعلاقات العامة بإدارييها وسياساتهم ورعاياهم. وقد أوضح إبراهيم أنه بفضل هذا المسلك ستكون الأمة قادرة على إدراك إلى أى مدى معنى السلطة مختلف وأنه فيما يتعلق بالعثمانيين الأمر ليس إلا نظاما ملكيا مهمته الأساسية تحويل حياة السلطان إلى جنة وإحالة حياة رعاياه إلى جحيم[٦].

---

(١) "كيف النجاة بما بقى من الدولة والخلاص به من الجواسيس" "ما هنالك" ١٨٩٦ ص١٢٣ الفقرة الأولى.

(٢) "ماذا أقول ويقول القائلون وماذا أكتب ويكتب الكاتبون فى قوم عزل من كل مقاومة ومنازلة ومكافحة ومساجلة". "ما هنالك" ١٨٩٦ ص١٢٣ الفقرة ٣.

(٣) "إن الآستانة طبق من الفضة مملوء من العقارب والأفاعي". "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٨٩ السطران الأخيران.

(٤) "اللهم ليس فى قدرة الرعية إلا أن تمد أيديها للاستغاثة برحمتك أن تبعد عن جلالة السلطان الذى بيده خيرها وشرها". "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٩٧ الفقرة ٢.

(٥) "هؤلاء الأشرار الذين لو اجتمع منهم عشرة على أنظم سلطنة فى العالم لخربوها فى بضعة أيام". "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٩٧ الفقرة ٢.

(٦) "ولو نظر العثمانى إلى ملوك أوروبا وما يعاملون به ولاة عهودهم من الإطلاق، والحرية، وممارسة الأمور، والسياحة فى البلاد، ومخالطة أرباب السياسة لبكى على حاله ولعلم أن للسلطنة فى بلاده معنى غير الذى يعمله الناس فى البلاد الأخرى وهو أن السلطنة إرث ورثة السلطان ليقضى به حياته فى لذة ونعيم وتقضى الأمة مدتها معه فى شقاء وجحيم". "ما هنالك" ١٨٩٦ ص١٠٠-١٠١ الفقرتان ١ و٣ .

وجه إبراهيم إلى السلطان الكثير من اللوم خاصة لكونه محافظا أكثر من اللازم، ولكونه يقف حائلا أمام المستجدات الحديثة كالكهرباء والهاتف[١]. كما عاتبه على التفاته إلى ذاته بقدر أعلى من التفاته لرعاياه وعلى إنابته لغيره لتمثيله وعدم مباشرته بنفسه لأمور الدولة رغم قدرته التامة على ذلك.

استخدم إبراهيم للتعبير عما يريد أساليب بيانية وطرق تحاجى متباينة. وقد لجأ بالإضافة إلى ذلك للحكايات (١٣٤) والنوادر (٥١) والتراجم (١٥٨، ١٦١، ١٧٢) مستدعيا بشكل غير مباشر تجربته الشخصية ومستخدما فيها ضمير المتكلم المفرد "أنا" بدلا من ضمير الجماعة "نحن" المستخدم فى باقى أجزاء الكتاب.

تشبه قصة الرجل الذى استبعد ظلما وذلك الذى يمنع من إنقاذ الدولة العثمانية تجارب إبراهيم الشخصية.

مال جانب من كتابات إبراهيم إلى "ذاته" وهو ما يشمل تجاربه كنهضوي. والأمر هنا لا يتعلق بالطبع بالسيرة الذاتية ولكن بتلك الصلة بين الأنا، التى تنبض بالحياة والعمل المكتوب، مضافا إليها الوصف الذى غالبا ما يأتى مفصلا. أمل إبراهيم رغم كل شيء أن يكون خطابه ذا فائدة وإضافة للأمة خاصة فى عملية إدراك أن العصور تتشابه رغم القرون التى تفصل بينها. وما يضمره هنا هو أن التاريخ للأسف يكرر نفسه وأن لا شيء يتكرر[٢].

رغم ذلك شرع إبراهيم فى تأليف كتابه الذى بواسطته كما يقول فى المقدمة، يتمنى إيقاظ الأمة؛ رغبة منه فى رؤيتها تطلب بحقوقها وحريتها، التاريخ إذن تكرار دائم لا يكل غير أن إبراهيم قد رد بهذا الكتاب، باعتباره مؤيدا ومشايعا للنقاش والحركة وانطلق كاتبنا فى هذه المغامرة، مغامرة إيداع شهادته من مكان بعيد جغرافيا وقريب أو مشابه استبداديا، وللقيام بها على مدى صفحات الكتاب

---

(١) "وهو من المحافظين على بقاء القديم على قدمه فلا يسمح بما يسميه أهل العصر بالمحسنات العصرية كالكهربائية والتلفون وما أشبه ذلك". "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٢٤٣-٢٤٤ السطر الأخير والسطران الأول والثاني.

(٢) "ومع هذا استفدنا من ذلك التطويل فائدة واحدة وهو علمنا أن الزمان متشابه الحوادث وإن فصلت بينها القرون العديدة". "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٢٣٣ الفقرة الثانية.

بخطابه المليء بالحكايات النثرية المسجوعة يطرح علينا إبراهيم ما يحدث في كواليس الإمبراطورية العثمانية وما يجرى فى خلفية مسرح أحداثها؛ وهى تهوي.

لإيصال رسالته يذكر الكاتب دوما قارئه بأهدافه(١). يقول إبراهيم بوضوح: إن ما يكتبه عن الدولة ليس الإنتاج نفس حرة تبغى كشف كل خلل حتى تتمكن من تحسين الأمور. هدفها الأوحد إذن هو الإصلاح(٢) كان إبراهيم يستشعر دوما الحاجة إلى التذكير بأسباب خطابه الذى ما كان يبغى به سوى كشف الحقيقة بعيدا عن أى مغالاة أو مبالغة أو نفاق تجاه السلطان. وكان بذلك يأمل أن يدرك هذا الأخير أنه بسبب كثرة الخديعة فقد نصف سلطنته وجل مكانته فى نظر الأوروبيين(٣). ويحصر إبراهيم فى مقال له بعنوان "الغرض من ما هنالك" الأسباب التى دعته إلى كتابة هذا المؤلف:

"كان لنا فى نشر "ما هنالك" مقصدان أحدهما أن يتنبه أولو الأمر فيتداركوا الدولة العثمانية أن يقع على نصفها الثانى ما وقع على نصفها الأول.. أما المقصد الثانى فهو أن يعلم المصريون والعثمانيون حقائق الأمور فى الآستانة وما وصلت إليه الدولة.. فيسعى المصريون مع العثمانيين الأحرار.. إلى استرحام جلالة السلطان فى إنقاذ إرادته السنية بنشر القانون الأساسى واستدعاء مجلس المبغوثان"(٤).

تسببت أقواله هذه فى بعض الهجوم عليه وهو ما جعله يتناولها شارحا أنه لا أساس لها من الصحة وأن التاريخ السياسى يشهد بذلك:

---

(١) راجع الصفحات ٣-١٠-١٢-٢٤-١٠٢-١٠٣-٢٢٢-٢٣٠.

(٢) "إن ما نكتبه عن الدولة صادر عن نفس حرة تريد بيان الفساد ليستبدل بالصلاح"، "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله". "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٢٤ السطور الثلاثة الأولى.

(٣) "أما نحن فقد عزمنا أن نذكر الحقائق الخالصة من شوائب المبالغة والغلو عن السلطة العثمانية.. ليعلم الراعى أنه فقد نصف سلطنته ومعظم شأنها أمام أعين الأوروبيين بخيانة الخائنين وغش الغاشين". "ما هنالك" السطران الأول والثانى والسطران الأخيران.

(٤) "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٢٢٢-٢٢٥.

"فأخذ بعض من لا وقوف له على شيء من أحوال الدولة يرمينا بالتعصب تارة والمبالغة أخرى حتى قامت الحوادث تشهد على صدق قولنا.. ونحن لم نذكر إلا قليلا من كثير والله يعلم أن الأمر مرفوق ما كتبنا"[1].

فيما بين المقصدين أوضح إبراهيم أنه قد عزف وانصرف عن المقصد الأول لبعد المسافة الفاصلة بين الأمة وعظمة الخليفة "المفوض من النبي"، مستعينا هنا بعبارات "الاتحاد" (١٨٨٠/١٨٨٤). غير أن نبرته هنا كانت أقل عنفا ومن منظور الراصد للأمر لا ناقده، على الأقل في هذه المرحلة. كان الأمر يتعلق إذن بالمصريين والعثمانيين الأحرار (٢٢٥) هؤلاء الذين كانوا خلال هذه الفترة يتحركون لإصلاح الدولة والحيلولة دون التدخل الأجنبي في شئونها، وبالتالي للدفاع عن الإسلام ذلك الجانب الديني للسلطة السياسية الذى كان مطلوبا إثبات قدرته وقابليته للتمدن والإصلاح[2].

يندرج كتاب "ما هنالك" تحت مجموعة الأعمال السياسية النهضوية الحاوية إجمالي الانشغالات النهضوية، تساؤلاتها وطموحاتها وإحباطاتها. الإضافة المتميزة لهذا الكتاب تذهب أبعد من التقرير البسيط للأحداث والتراجم والملاحظات المباشرة وغير المباشرة. "ما هنالك" هو أول نقد شامل للتاريخ السياسي العثماني ممتد المدة الذى يغطي كل فترة الحكم العثماني الحميدي.

ناظرا إلى العمل من هذه الزاوية، يرى آلن Allen (٢٠٠٧، ١٧) نقطة سلبية تتمثل في كثرة لجوء إبراهيم إلى النوادر والطرف والشائعات؛ وهي على ما يبدو وفق رؤية آلن نمط التواصل السائد في ذلك العصر[3]. ولكن هل يمكننا اليوم الادعاء أن السياسة تجرى بمعزل عن الشائعات التي تتحول لاحقا إلى نوادر وطرف؟ كلا قد يكون ذلك مما يؤسف له إلا أنه يبدو أنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة السياسية لأمور البشر. ولكن هل كانت مصادر أخرى غير الشائعة التي سرعان ما تسرى وتتحول إلى طرفة في قلب الإمبراطورية العثمانية؛ التي اجتهد إبراهيم في إيضاح النسق المنغلق والمراقب لسريانها؟

---

(١) "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٢٢٥-٢٢٦.

(٢) "إقامة الحجة على الأوروبيين في هذه الأيام بأن دين الإسلام ليس كما يزعمون بعيدا عن التمدن والإصلاح". "ما هنالك" ١٨٩٦ ص٨١ الفقرة الثالثة.

(٣) راجع آلن Allen ٢٠٠٧ ص١٧.

أيا ما كان الأمر فإن إبراهيم من خلال مؤلفه "ما هنالك" يبدو مدافعا شرسا عن الإصلاحات الواجب القيام بها فى قمة الدولة العثمانية سواء تعلق ذلك بإدارتها المدنية أوالعسكرية أو بكبار موظفيها. من هنا فقد رأى فيه لوندو landau صدى للمطالب التى عبرت عنها الأوساط الليبرالية فى الإمبراطورية العثمانية[١]. من خلال مجموعة التعليقات الحاذقة على الإدارة المركزية بالآستانة[٢].

من هنا فإن "ما هنالك" فى رأى لوندو هو عرض لسياسة الحكومة المركزية العثمانية[٣]، وهو تقرير صريح وانتقائى من جانب رجل كان يعتبر نفسه من ناحية وطنيا مصريا ومن ناحية أخرى واحدا من الرعايا العثمانيين الشرفاء والأوفياء.

"ما هنالك" يمثل إذن وفقا لرأى لوندوالذى نؤيده تماما، شاهدا على شجاعة إبراهيم المويلحى وعلى تفكيره السياسى الإصلاحي. وقد صرح لوندو أن أكثر التوصيات أهمية الواردة بالكتاب قد تم تطبيقها بعد نحو اثنتى عشرة سنة من نشره؛ أى بعد عامين من تاريخ وفاة إبراهيم[٤]؛ وبتحديد أكبر عام ١٩٠٨ عام ثورة تركيا - الفتاة[٥] فهل هذه مجرد مصادفة أم نتيجة متأخرة؟

---

(١) راجع لوندو Landau ١٩٨٧ ص٨١.
(٢) راجع لوندو Landau ١٩٨٧ ص٨٠.
(٣) راجع لوندو Landau ١٩٨٧ ص٨٠.
(٤) راجع لوندو Landau ١٩٨٧ ص٨١.
(٥) حول هذه الثورة يمكن مراجعة أعمال عدة من بينها أعمال فرنسوا جورجون Francois Gourgon، وينبغى ألا يغيب عن الأذهان أن هذه الثورة تتمثل فى إعادة دستور عام ١٨٧٦؛ وذلك فى الرابع والعشرين من يوليو عام ١٩٠٨. وقد أثير الأمر عدة مرات بعد ذلك. وجدير بالذكر أن هذا الدستور يذكر بمطالب إبراهيم المويلحى فيما يخص المجلس التشريعي.

الفصل السابع

الازدواجية أو استراتيجية الاتصال

من "المقطم" إلى "المؤيد" (١٨٩٧ – ١٩٠٥)

هل يمكننا فى هذه الحالة الخاصة بالخطاب الحديث عن ازدواجية لدى إبراهيم المويلحي؟ فهو يبدو محدود الحكمة والاتزان ومتعجلا فى تلخيص كتاباته السياسية فى حبكات بسيطة ذات طابع شخصي. يتضح ذلك بصفة خاصة عندما يصل إلى علمنا ما كان يدور من أحاديث وندرك أهميتها على مستوى الأمة الإسلامية فى مجملها. كما أن الأمر يجانب الطابع العلمى إذا ما عزونا كل أحداثه المزعجة مع السلطان والخديو إلى مجرد كونه انتهازيا ونهما فيما يتعلق بالمال.

لاحظنا من ناحية أخرى أن فى كتاباته وبالتالى فى خطابه وفكره هناك استمرارية أيديولوجية مؤكدة يتركز كنهها فى أهدافه. ويمكننا القول: إن مصطلحات مثل: الحق والحرية والدستور والسلطان القوى والخلافة الشرعية والإمامة الحقيقية هى مداخل ومصطلحات جوهرية فى فكرة السياسى وقد أمل بها تغيير الوضع السياسى للدولة العثمانية والحالة الاجتماعية للأمة الإسلامية. من هنا نتبين أن برنامجه كان يتسم بالثبات ومبنيا على شاكلة انشغالات وهموم عصره؛ أى على هيئة كل مشكلات النهضة. لم يحد إبراهيم بالتالى قط عن مركزه الوسيط بين المحافظة والحداثة المعتدلة.

حبذ إبراهيم بين التقاليد (الدينية والسياسية) والحداثة (السياسية والاجتماعية) عمل إطلالة على العالم خاصة الأوروبى واستقاء النماذج منه حين يكون جديرا أن يحتذى به. وقد عرض بوصفه مفكرا سياسيا حقيقيا نموذجا جديدا بين الأفكار النابعة من الداخل والواردة من الخارج، هو نتاج مزج الماضى والحاضر ومحصلة

ما جلب من الداخل والخارج وفى كلمتين نتاج خلط الشرق والغرب. ويمكن القول: إنه بعد منع كتابه "ما هنالك" الذى يعد نداؤه الأخير ومحاولته النهضوية لإيقاظ الأمة والدولة بكتاب سياسى وحيد التزم إبراهيم الصمت لعامين لم يكتب خلالهما، على ما أعلمه، إلا بضع مقالات فى جريدة "المقطم" التى كانت هى ذاتها قد نشرت "ما هنالك" فى صورة مقالات خلال عامى ١٨٩٥ و١٨٩٦، ثم فى هيئة كتاب عام ١٨٩٦.

جاءت بعد ذلك صحيفته الشهيرة "مصباح الشرق" التى استمرت من ١٨٩٨ وحتى ١٩٠٣. أما كتاباته الأخيرة فكانت مقالات فى جريدة "المؤيد" نشرت بين عامى ١٩٠٤ و١٩٠٥.

قادته موهبته السياسية الصحفية طوال حياته وجعلت منه رائدا للصحافة العربية المكتوبة وللفكر السياسى بشكل عام. من هنا فإن مقالات إبراهيم الأخيرة قادرة على إعطائنا نبذة عن تطور فكرة وتطور الفكر النهضوى بشكل عام؛ وهى من وجهة النظر هذه تعد دلائل تسمح إما بالتثبت أو بعدم التثبت، إنه لم يكن سوى رجل مدفوعا بمصالحه الخاصة دون قناعات سياسية، واجتماعية وأسوأ من ذلك نهضوية.

١- أفكار إبراهيم المويلحى وتصوراته فى "المقطم"

بعد عام من نشر ومنع كتابه النقدى للسياسة العثمانية "ما هنالك" استأنف إبراهيم المويلحى الكتابة الصحفية ونشر ثلاث مقالات فى جريدة "المقطم" المؤيدة للبريطانيين. احتوى مقاله الأول وعنوانه: "الإعانة السودانية والرواتب الخديوية"(١) رد فعل إبراهيم تجاه أقوال حسن العقاد. يسجل إبراهيم فى مقاله تفهمه أن حسن العقاد لا يأتى أقوالا ولا أفعالا إلا بهدف خدمة وطنه(٢).

---

(١) مقال: "الإعانة السودانية والرواتب الخديوية" جريدة المقطم ١٨٩٧/٧/٢٧. ص١-٢٣ المجلد الثانى المادة العلمية، الفقرة (g).

(٢) "قد اطلعت على ما كتبه مرارا حضرة الوجيه الفاضل السيد حسن العقاد فى سبيل الخدمة الوطنية" جريدة المقطم ١٨٩٧/٧/٢٧ ص١-٢ راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

احتلت إذن خدمة الوطن قلب النقاش النهضوى فى نهاية ذلك القرن للرد على محدثه استخدم إبراهيم ضمير المتكلم المفرد "أنا" وليس الجمع "نحن" كما اعتاد دوما. هل كان ذلك لأنه يحدث زميل مهنة أم لكونه قد عقد نية توقيع مقالاته؟ أم لكونه قد غير الموضوع المتناول فى كتاباته؟

الأرجح أن ذلك حدث لكل هذه الأسباب مجتمعة ويمكن القول: إن واحدا من التغييرات الملموسة فى كتابة إبراهيم المويلحى عام ١٨٩٧ هو توقيعه لمقالاته باسمه الكامل؛ بينما لم يكن قد كتب من قبل كما رأينا إلا غفلا من الاسم. ومسألة التوقيع هذه أساسية من ناحيتين؛ أولاهما: فيما يتعلق بالمسار الشخصى لإبراهيم وتطور ممارسته للصحافة والكتابة الصحفية، وثانيتهما: من ناحية تاريخ الصحافة المصرية والعربية بشكل عام. انطلاقا من مبدأ أن "الكتابة باسم مغاير للاسم الحقيقى تشكل بلا أدنى شك أكثر أنواع الخداع المطلوب تفسيرها، تعقيدا وتركيبا" (تيرنتى Therenty ٢٠٠٣، ١٥١) وأن "المشاركة فى الصحافة تتضمن بطبيعة الأمر اللجوء إلى استخدام القناع" (تيرنتى Therenty ٢٠٠٣، ١٥٢، العدد ١٣٧)، يظهر الإفصاح عن الاسم كمرحلة أساسية لسيرورة الكتابة الصحفية والأدبية فى ذلك العصر.

من هنا فإن تغيير سياسة الكاتب – الصحفى فيما يتعلق بإعلان الهوية من عدمه يعد إرهاصة لعصر جديد فى "الكتابة" بالنسبة إلى إبراهيم ومرحلة جديدة رغب فيها أن تكون أفعاله مباشرة ومسئولة ما دامت ممهورة بالتوقيع. يكشف الكاتب الصحفى عن هويته ويضطلع بمسئولية كلماته المكتوبة. ما يمكن تأكيده هو أن قرار توقيع المقالات لم يكن نهائيًا ويلاحظ معه أنه فى نهاية القرن التاسع كان الكتاب الصحفيون المصريون والعرب بصفة عامة غالبا ما يلجئون إلى التوقيع بأسمائهم كاملة تارة والأحرف الأولى تارة أخرى أو إغفال الاسم. ويوصف الغفل من الاسم بالظرفي(١)، وجدير بالذكر أن بعضا منهم قد لجأ إلى استعمال اسم مستعار؛ مثل: إبراهيم فى كتابه "ما هنالك". والغريب أنه فى الصحيفة ذاتها الموالية

(١) نستعير هذا المصطلح من تيرنتى Therenty ٢٠٠٣ ص١٥٣ "الاسم المستعار والاسم المغفل الظرفي".

للبريطانيين نشر ثلاث مقالات عام ١٨٩٧ وقعها باسمه ولقبه كاملين وهو ما يدل على أن هذه الصحيفة كانت تأخذ بتوقيع المقالات، وأن الصحفيين كانوا أحرارا فى توقيع مقالاتهم أو الإحجام عن ذلك. ويثور هنا سؤال عما إذا كانت مسألة التوقيع بالنسبة إلى إبراهيم فى هذا التوقيت تحديدا كانت شيئا عاديا يرجع إلى الاختيار الشخصى ومرده إلى الحرية المكتسبة من الجريدة؟ أم أنها استراتيجية اتصالية عائدة إلى اتفاق بين الكتاب الصحفيين النهضويين أنفسهم لعدة مقاصد؛ منها: جعل مقالاتهم أكثر جاذبية وأكثر إقناعا خاصة إذا كانت عائلاتهم تحظى بشهرة ما، أو يحظون هم أنفسهم بها. يمكننا القول إجمالا: إن هذه الظاهرة الجديدة قد تكون عائدة إلى ما أطلق عليه تيرنتى Therenty "البرمجة المنظمة من قبل الرفقة" الصحفية الأدبية (٢٠٠٣، ١٥٣) أو كما نراها نحن "البرمجة المنظمة النهضوية؟ أو ثلاثتهم معا؟ الواقع أن التوقيع سواء سبقه تصميم أم لا هو عمل مفاجئ طرأ مباشرة بعد عام من منع كتابه "ما هنالك" مما يستحيل معه اعتباره مجرد اختيار لا سببا أساسيا وراءه وقد تكون كل الأسباب المذكورة عاليه معا وقد يكون بعضا منها فقط.

أيا ما كان الأمر فقد كان توقيع إبراهيم الصحفى أمرا واقعا. ويشى استعماله له بشكل متقطع بإدراكه التام لهذه الأداة الاتصالية وخواصها الأيديولوجية والبرهانية خاصة أن الاستعمال غير المنتظم لها كان وسيلة استطاع الصحفيون استخدامها لتنويع مواقفهم، وهو ما قام به إبراهيم فى الفترة من ١٨٩٧ و١٩٠٥ حتى وفاته (يناير ١٩٠٦) من خلال "المقطم" و"مصباح الشرق" و"المؤيد".

فى أول مقال له بعد مجموعة "ما هنالك" فى جريدة "المقطم" أولى إبراهيم اهتماما ببعض من أحاديث حسن العقاد عن رواتب أفراد العائلة الخديوية. ويؤكد إبراهيم أنه قد صبر لعدة أيام وأحجم عن الرد؛ أملا فى أن تتولى صحيفته القيام بذلك. برر إبراهيم بذلك رده؛ أى ما كتبه فى مقاله ورأى أنه اضطلع بتلك المسئولية التى أحجمت الجريدة التى لم يشر إلى اسمها عن حملها؛ التى كان عليها فى رأيه الإقدام على ذلك. ويمكننا هنا استنتاج أن الحرية كانت أمرا نسبيًا فهو لم يفصح عن اسم الجريدة؛ خوفا من الجدل وعواقب الأمور. والسؤال هنا هل كان الأمر يتعلق بالرقابة العامة على الصحافة المصرية أم رقابة جريدة المقطم أما بضوابط إبراهيم ذاته وبالتالى بالقوانين المسبقة للرفقة النهضوية؟ أيا ما كان الأمر

فإن قارئ هذه الفترة كان قادرا على تحديد الصحيفة المشار إليها ما دام موضوع مقالته كان موصوفا بها، كما أن اتجاهات هذه الصحيفة التى يقال عنها مجهولة كان إبراهيم قد كشفها مما سمح باكتشاف أنها جريدة "المؤيد" الموالية للخديوية. هذه الجريدة هى إذن التى قامت بنشر مقال حسن العقاد الذى ينتقد فيه تجاوزات سلطة ورثة العرش الخديوى خاصة فيما يتعلق بالرواتب. وتبدو هذه الكتابات المنشورة متناقضة: فمقال إبراهيم يدافع عن العائلة الخديوية فى "المقطم" ومقال حسن العقاد ينتقدهم فى "المؤيد" الموالية للخديوية. هذه الجريدة هى إذن التى قامت بنشر مقال حسن العقاد الذى ينتقد فيه تجاوزات سلطة ورثة العرش الخديوى خاصة فيما يتعلق بالرواتب. وتبدو هذه الكتابات المنشورة متناقضة فمقال إبراهيم يدافع عن العائلة الخديوية فى "المقطم" ومقال حسن العقاد ينتقدهم فى "المؤيد". أما على مستوى النشر فالمقال المؤيد للخديو منشور فى جريدة مؤيدة للبريطانيين فى حين أن المقال المناهض للخديوية منشور فى صحيفة موالية للخديوية. هل كان هناك تحول حاد فى حرية الصحافة إلى هذه الدرجة أم أنه إخراج نهضوى يبغى تناول بعض الموضوعات ولفت أنظار الأمة؟

الواقع أن هذا المقال قد أتاح فرصة إبراز فكرة أن مصر على الرغم من ابتزاز العائلة الخديوية الذى تم اكتشافه (وهو ابتزاز يرجع كما يرى إبراهيم إلى الطبيعة البشرية والسياسية) تحظى بامتيازات دونها سيكون مصير مصر والمصريين مثله؛ مثل: ما يلقاه سكان الولايات والأمصار العثمانية الأخرى[١]. ويمكنها حتى إن تصبح ولاية عثمانية وهو ما يرى إبراهيم أنه أمر كارثي[٢]؛ من هنا كانت دعوة إبراهيم للصحف لكى تشرح هذه الحقيقة للقراء. فوقوع أمر كهذا لم تكن مصر لتحظى معه بحكومة برلمانية (الحكومة الدستورية السطر ١٥) ولا بهذه الحرية (السطر ١٥)[٣]، ويشير إبراهيم بعد ذلك إلى الحماية (الدولة المحتلة السطر ١٦)

---

(١) "المقطم" ١٨٩٧/٧/٢٧ السطور ٨-١٠ راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

(٢) "لعادت مصر والعياذ بالله ولاية عثمانية". "المقطم" ١٨٩٧/٧/٢٧، السطران ١٠-١١ راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

(٣) "فلتعترف مصر لهذا الرجل العظيم بما منحها من هذه الامتيازات التى تتمتع من فوائدها الآن بالحكومة الدستورية وهذه الحرية" "المقطم" ١٨٩٧/٧/٢٧ السطران ١٤-١٥ راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

والخديو القائم بالحكم عباس الثانى (السطر ١٧) وينهى مقاله قائلا: إنه يكتب كل ذلك فى الصحف التى لا ترفض نشر الحقيقة. يتركنا إبراهيم إذن نفترض أنه يكتب بالتأكيد "للمقطم" ولكن لصحف أخرى أيضا. ولكن ما هي؟ ومن هنا فهو يثبت لنا أن الأمر لم يكن تأييدا للحماية أو نوعا من الازدواجية؛ وإنما الكتابة حيثما تتاح له كتابة ما يرغب فى قوله. ربما كانت الصحف التى اضطر أو استطاع الكتابة فيها تتسم بالازدواجية، ولكن هذه الصفة لا تنطبق لا على فكره ولا على أيديولوجياته. والدليل على ذلك هو مقاله الأول بعد إدانات وعقوبات السلطان العثمانى له. الحقيقة أن أفكاره الرئيسة فى المقال المشار إليه متماثلة ومدافع عنها بشراسة وحمية؛ خدمة الوطن، وتشكيل حكومة دستورية وحرية. لم تهتز قناعاته ولم تتغير كذلك إحباطاته. كانت الملاحظة المباشرة فى رأيه هى الوحيدة القادرة على جعل المصريين يدركون الحقيقة المأسوية للباب العالى (السطر ١٩). فبالنسبة إليه محال إقناعهم إلا بالتجربة الشخصية وهذا يعنى السفر إلى اسطنبول، ثم العودة إلى مصر ليدركوا بأنفسهم كيف أن محمد على وأسرته كانوا مقارنة بالآخرين من العادلين[١].

كان إبراهيم يظن دوما أن الإمبراطورية العثمانية فى حالة تدهور وانهيار ويدعو بعض المصريين الذين لم يقتنعوا بعد بذلك إلى ملاحظة ما يدور فى المكان نفسه. وبدلا من أن يقدم لهم تقريره "ما هنالك" عرض عليهم اتباع الطريق ذاته الذى قاده إلى كتابته؛ أى طريق المشاهدة (السطر ٢٠)، وفى عبارة أخرى دعاهم إلى السفر واكتشاف ما هنالك؛ أى تجربة ما أسماه بونولى لورنزو Bonoli Lorenzo "المشاهدة المشاركة"؛ وهى التى فى رأيه إذا ما ضمت إلى الخبرة على الأرض "تتجسد فى كتابة نص يظهر فى شكل وصف للثقافة الأخرى، نص من المفترض أن يعطى "لوحة كاملة وحقيقية للثقافة[٢] المشاهدة (٢٠٠٨، ٢٩). يعد هذا المقال

---

(١) "اكتب هذا فى الجرائد التى لا تحجم عن نشر الصواب فى الجواب، وأنا أعلم أن فى مصر قوما يتمنون لها أن تكون ولاية عثمانية لاعتقادهم أن وزراء الدولة العشرة فى الباب العالى هم العشرة المبشرون بالجنة إنصافا، وعدلا، وأمانة، وفضلا. ومن المحال إقناعهم حتى يذهبوا إلى بلاد الدولة، ويعودوا إلى مصر، فيحكموا على الأمور بالمشاهدة لا بالمعاندة، ويعملوا فضل محمد على وعائلته من ظلم غيره". "المقطم" ١٨٩٧/٧/٢٧ السطور ١٨-٢٠، راجع المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

(٢) ملاحظة لمالينوفسكى فى مقدمة كتابه الشهير ١٩٦٣: Les Argonautes du Pacifique Occidental. ذكرها بونولى Bonoli ٢٠٠٨ ص٢٩.

لإبراهيم المويلحى تتمة أو إلحاق لكتابه "ما هنالك" الذى استند فيه إلى "المشاهدة المشاركة".

نشر المقال التالى فى الحادى والثلاثين من يوليو ١٨٩٧؛ أى بعد أربعة أيام من السابق وحمل عنوان: "امتياز مصر وفضله على المصريين"(١) الموضوع المعالج فيه هو ذاته الذى يشير إليه العنوان والمخاطب فيه كما فى السابق حسن العقاد والمقال فى مجمله رد على ما كان العقاد قد كتبه فى اليوم السابق (السطر ٣١) استخدم إبراهيم كعادته ضمير المتكلم المفرد "أنا" ووقع مقاله ولاحظ أن حسن العقاد قد غير هذه المرة الكثير من موضوعاته، ولم يبد اهتماما إلا بالأمور العامة الماضية، ولم يصبح شغله الشاغل المسائل الخاصة والجارية للأسرة الخديوية. إلا أن هذا لم يمنع إبراهيم من لوم حسن العقاد لنقده الخديو السابق إسماعيل (السطر ٣٥) من هنا نفهم أنه بدلا من أن ينتقد حسن العقاد ورثة العرش ويعرض مصر الحالية للويلات انتقد العقاد الحكام السابقين لتأييده الشديد للخلافة ولقربه من الخديو الجديد. دافع إبراهيم عن الخديو الراحل إسماعيل باشا رغم ما كان بينهما من مواقف فى باريس عام ١٨٨٤ (راجع الفصل الثالث الفقرة الثانية والفصل الخامس. أوضح إبراهيم أن السلطة المفرطة والزيادة المبالغ فيها من كل نوع فى المال والرياش والرغد هى شر لا يمكن للسلطة منذ الأزل تفاديه. ويسوء الأمر أكثر حين يكون الملك مطلقا (السطران ٣٥ و٣٨) كما كان الحال إبان حكم إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩). غير أن إبراهيم يرى أن الحسنات يذهبن السيئات.

إنه من الضرورى الإقرار أنه من حسنات إسماعيل هناك ما بغيرها لم يكن لهذا السجال وجود وما كان إبراهيم والعقاد ليقولا ما قالا(٢). ويمكن القول إجمالا:

(١) "امتياز مصر وفضله على المصريين" مقال نشر فى "المقطم" ١٨٩٧/٧/٣١ السطور ٢٦-٥٦. راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ الفقرة (ع).

(٢) "أما حسنات إسماعيل باشا بإجمالها أن جمع ما نتمتع به من نعمة فى هذا العصر من تلك الحسنات سواء كان مباشرة أو بواسطة أو بوسائط متعددة. أما القول السيد إن فائدة امتياز مصر لم تعد على مصر بل على ذلك الوالى وعائلته.. فهذا القول نفسه من فضل الامتياز على حضرة الجليل؛ لأن الامتيازات هى التى خولتنا أن نكتب ما نكتبه وأن نقول ما نقول". جريدة "المقطم" ١٨٩٧/٧/٣١ السطور من ٣٩-٤٢، راجع المجلد الثاني، المادة العلمية٢ الفقرة (ع).

إن الصحافة المصرية الحرة مهما كانت نسبية هذه الحرية، لم تكن ليكون لها وجود ولم تكن لتسمح بهذا النوع من النقاش بغير مبادرات الخديو إسماعيل لصالحها. ويسوق إبراهيم كمثال أنهما لو كانا كتبا فى ولاية أخرى من الولايات التى يشيد بها العقاد كلمة مما يكتباه فى مصر لقضيا نحبهما[١]، ويبدى إبراهيم دهشته من أن العقاد لا يورد ذكر أحد غير إسماعيل، فى حين أنهم كثر أولئك الذين جردوا الدولة المصرية من ممتلكاتها وبددوها بغير أن يقدموا مثل إسماعيل عملا صالحا واحدا للبلاد. أما إسماعيل فقد كثرت حسناته ومنها ما خص الصحافة وهو أساسى (السطور من ٣٩ إلى ٤٢). أبرز إبراهيم أن المزايا الخديوية يمكنها فى الواقع تبعا لما تستعمل فيه أن تكون مزايا أو مضارا، خيرا أو شرا. كل شيء يرجع إلى القائمين على أمور الدولة[٢].

من هنا فقد طلب من العقاد أن يجنبه كل نقاش يتناول بشكل مباشر أمور الدولة محددا أن الأحداث المعاصرة بليغة فى ذاتها؛ ومن ثم لا فائدة من قول المزيد[٣].

أما بشأن رواتب أفراد العائلة الخديوية فقد أنهى إبراهيم الحديث بقوله أنه لا جدوى من التطرق إليها ما دام أمرها قد حسم وتم تحديدها بقرار[٤]، وقد أضاف بشأن ديون مصر (مائة مليون، السطر ٥٣) أن المتمعن فيها يكتشف فائدتها التى تفوق ضررها. (السطور ٥٣-٥٥).

---

(١) "لو كتبنا حرفا منه فى ولاية أخرى من الولايات التى يفاخرنا بها لبتنا فى الموت". جريدة "المقطم" ١٨٩٧/٧/٣١ السطر ٤٣، راجع المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g). رمز (-) يعنى أن هناك جزءا من النص ناقص لصعوبة قراءة النص الأصلي.

(٢) "ومعلوم لحضرة السيد أن هذه الامتيازات تكون شرا وخيرا حسب استعداد من يتصرف فيها من ولاة الأمور". جريدة المقطم ١٨٩٧/٧/٣١ السطر ٥٠، راجع المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

(٣) "أما الكلام عن الدولة فأرجو من السيد أن يعفينى منه، فقد قامت الحوادث اليومية مقام أخطب خطيب فى بيان الحقائق منها". جريدة "المقطم" ١٨٩٧/٧/٣١ السطور ٥٠-٥١ راجع المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

(٤) "أما المناقشة فى مرتب العائلة الخديوية فلا فائدة تعود على الأمة منها بعد أن صدر قرار الدولة فى لجنة التصفية على تحديد هذا المرتب". جريدة "المقطم" ١٨٩٧/٧/٣١ السطران ٥٢-٥٣، راجع المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

يختتم مقال إبراهيم الثالث وعنوانه: "عشنا وسمعنا"(١) إيه يا دهر يا أبا العجب عشنا" مقالاته فى جريدة "المقطم". يتناول هذا المقال الصادر فى ١٨٩٧/٩/١٤ ظلم وعدم كفاءة بعض شيوخ الأزهر الذين يرفضون مساعدة الطلاب الأكفاء وتعليمهم، وهو يفضح عبث أولئك الذين يفترض فيهم تنوير الأمة وإرشادها.

بهذا المقال ينهى إبراهيم كتاباته للجريدة الموالية للبريطانيين "المقطم"، وهذا على الأقل ما فى حوزتنا من معلومات مؤكدة. فقد ذهب "راميتش" (٤٢٣، ١٩٨٠) إلى أن إبراهيم قد كتب مقالا آخر فى الجريدة ذاتها بتاريخ ١٨٩٨/١/٣١ تحمل عنوان: "ما هنا" نشر بعد ذلك فى كتاب. تصف سطور المقال الحياة لا فى اسطنبول؛ وإنما فى مصر. والحق أننا لم نتمكن من مطالعة هذا العدد من جريدة "المقطم" لأنه كما هو الحال دوما فى "دار الكتب" إما أن الفيلم غير متاح أو أن عطلا ألمَّ بجهاز عرضه، أو أنه من العسير العثور عليه(٢).

من هنا يمكن القول: إنه بالإضافة إلى التوقيع، هناك تغيير آخر فى كتابة إبراهيم ظهر خلال هذه الفترة وهو عدم الرغبة فى مناقشة الأمور السياسية. صحب هذا التغيير نوعا من الثوابت وهو الدعوة إلى "المشاهدة المشاركة" (انظر سبق). بقت إذن نظريته على حالها ولم تتغير المبادئ الراسخة فى فكره، مما يجعلنا نقول: إنه لا ازدواجية ألبتة فى كتابات إبراهيم المويلحي. بقى فكرة بين التقليدية والحداثة، داعيا بالقدر ذاته إلى ما يجلب من الخارج خاصة من أوروبا مع تأييده لفكرة حكومة دستورية نابعة من بين أشياء عدة ومصادر متباينة من مبدأ الشورى الديني؛ أى متشبعة ومتوائمة مع الثوابت الداخلية.

---

(١) مقال: "عشنا وسمعنا" إيه يا دهر يا أبا العجب عشنا" جريدة المقطم ١٨٩٧/٩/١٤ السطور ٥٧-٧٦، راجع المجلد الثاني، المادة العلمية ٢الفقرة (g).

(٢) لاحظنا من سنة إلى أخرى أن المرجع الواحد يمكن أن يسهل أو يصعب العثور عليه، يصبح فى متناول اليد أو يختفي. من هنا فنحن لا نفقد الأمل فى إمكانية الاطلاع يوما على هذا المقال. سيمنحنا ذلك أخيرا دليلا (أو لا يمنحنا إياه) على وجود مؤلف ثان لإبراهيم لدينا جزء نذير منه. أما الآن فقد رأينا طبقا لنتائج البحث الميدانى ألا ندرج هذا المقال وهذا العمل بين كتابات إبراهيم مكتفين بما تم التثبت منه.

استمر إذن إبراهيم على مبدأ تدعيم الذات بأفضل ما لدى الآخر. من هنا يمكن القول: إن المزج بين الخارج والداخل كان منهج فكر إبراهيم لبناء المجتمع العربى الإسلامى وتغييره.

وبذا استمر على ما وضعه لنفسه كهدف وهو تحسين مصير الأمة وتنفيذ المشروع النهضوي.

٢- أفكار إبراهيم المويلحى وتصوراته فى "المؤيد"

كتب إبراهيم بعد ذلك بخمس سنوات وتحديدا عام ١٩٠٤، ثم عام ١٩٠٥ خمس مقالات فى جريدة "المؤيد". كانت هذه الصحيفة المؤيدة للخديوية معارضة للحماية الإنجليزية التى تروج لها جريدة "المقطم"؛ التى كان إبراهيم قد استطاع كما رأينا توا التعبير عن أفكاره مع البقاء وفيا لقناعاته أى شيء أكثر طبيعية من رؤية أمين سر إسماعيل باشا وسكرتيره الأول سابقا والمستشار السياسى للخديو عباس الثانى القائم بسدة الحكم، الكتابة فى هذه الجريدة الموالية لمصر والمصريين. من هنا يمكن القول: إنه بعد ثلاثة أعوام دون مؤلفات منشورة على الأقل طبقا لما هو معلن ومثبت من ١٩٠١ إلى ١٩٠٤ (ما دام قد ترك جريدته "مصباح الشرق" فى أبريل ١٩٠١، راجع الفصل الثالث الفقرة الثانية والفصل التاسع) عاود إبراهيم الكتابة أى تطور شهدته كتابته؟ وأى ثوابت وأى تغييرات أيديولوجية وأسلوبية كانت هذه الكتابة تحوى قياسا على ما نعرفه عنها من خلال "الاتحاد (١٨٨٠/١٨٨٤) و"ما هنالك" عام ١٨٩٦ ومقالاته فى "المقطم" عام ١٨٩٧.

ظهر المقال الأول المحدد لعودة إبراهيم المويلحى لصدارة المشهد الصحفى فى ١٩٠٤/٣/٦ بعنوان: "أشد أمراض النفس أغراضها"[١]، وهذا المقال من أهم المقالات بالنسبة إلى إبراهيم الذى يعتبر المشكلة المتناولة من أكثر مشاكل مصر والمصريين أهمية وحيوية. تعلق الأمر فيه بالطلب المقدم من على يوسف (١٨٦٣-١٩١٣) مؤسس تحرير المؤيد ومديرها ورئيسها (١٨٨٩) ومؤسس حزب

(١) مقال: "أشد أمراض النفس أغراضها" جريدة "المؤيد" ١٩٠٤/٣/٦، راجع المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (ع).

الإصلاح على المبادئ الدستورية ١٩٠٧ تم تأسيس هذا الحزب بداية كجمعية سرية في عام ١٨٩٠ تحت اسم (حزب الإصلاح). انضم لهذا الحزب حزبان آخران؛ هما حزب الأمة وتم تأسيسه عام ١٩٠٧ وتدعمه صحيفة الجريدة (١٩٠٧) التى يرأس تحريرها لطفى السيد (١٨٧٢-١٩٦٣) وحزب الوطن.

كان هذا الحزب منقسما إلى فرعين أحدهما معتدل يقوده على يوسف، أما الثانى فجامح مطلق العنان على رأسه مصطفى كامل (١٨٨١-١٩٣٨)(١)، كانت جريدة "المؤيد" لعلى يوسف ويليها "اللواء" لمصطفى كامل متحدثتين باسم الحزب حتى ١٩٠٧ فاعتبارا من هذا التاريخ كان المتحدث الوحيد باسم "حزب الإصلاح" هو جريدة "المؤيد" وذلك طبقا للمبادئ الدستورية التى كان هو الأصل فى وجودها.

الأمر بالطبع هنا ليس معنيا بسرد التاريخ السياسى للأحزاب المصرية خاصة وأن هذا التاريخ يبدأ بالفعل بعد الفترة التى نقوم بدراستها؛ أى اعتبارا من بداية القرن العشرين. الغرض من استعراض هذه الفترة هو فهم السياق السياسى العام الذى كتبت فيه مقالات إبراهيم بهدف وضع اليد على أساسيات فكره ودخوله وانتسابه للمجموعة الصحفية والأدبية والسياسية فى عصره. حتى يتسنى عمل ذلك يتوجب ألا يغيب عن أنظارنا أن هذه الأحزاب كانت من ناحية معارضة لبعضها البعض ومن ناحية أخرى متحدة تبعا للموضوعات المطروحة. كان حزب "الأمة" مدافعا باستماتة عن التعليم الإجبارى للجميع وعن حقوق الفلاحين وعن حق المشاركة فى الشئون الإدارية. أما الحزب "الوطني" فقد كانت له مطالبات سياسية أكثر منها تعليمية أو عامة. يعد استقلال مصر مطلبه الأساسى يضاف إليه بالضرورة عملية وضع دستور برلماني. كانت مالية البلاد والتعليم فيها وهما الركيزتان الأساسيتان تحتلان المرتبة الثانية فيما يشغل الحزب "الوطني" وتتبعهما الحقوق المدنية والزراعة والصحة والعلاقات الدولية.

---

(١) لمزيد من المعلومات عن هذه الأحزاب راجع حمزة ١٩٩٥، المجلد الثانى ص١٥٣-١٦٧ وسعيد ١٩٥٩ ص١٥٨-١٥٩ وصالح ١٩٩٠ ص١٠٨-١١٤ وميخائيل ١٩٩٦ ص٧٣-٨٢.

أما شعار حزب "الإصلاح" برئاسة على يوسف فقد كان المساندة غير المشروطة للخديوى وصولا إلى استقلال مصر مع مطالبة إنجلترا بالوفاء بكل وعودها وعدم التنازل عن تشكيل مجلس نيابى مصري. تجيء بعد هذه الأمور الجسام مطالبات من المرتبة الثانية؛ مثل: التعليم، والصحة، والتوزيع العادل للوظائف، وتطبيق العدالة على الجميع مصريين وأجانب. واحدة من الضرورات الملحة هى أن تصبح اللغة العربية اللغة الوطنية أولا للتعليم، ثم للإدارة. بدأت المناقشات فى هذه الأمور فى وقت مبكر جدًا حين لم تكن هذه الأحزاب إلا جمعيات سرية بسيطة تجتمع فى غرف استقبال بعض الأعيان والمثقفين كما كان الحال بالنسبة إلى الحزب الوطنى الذى كان أفراده يجتمعون عند نازلى مالك وقت أن كان اسمه "حزب المثقفين".

من الموضوعات التى دارت حولها مناقشات هذه الأحزاب هناك الوحدة العثمانية والجامعة الإسلامية، وفى القرن العشرين الوحدة العربية والسياسة الداخلية المصرية والأحداث الدولية والتعليم واللغة العربية. كان على رأس هذه الموضوعات على الأقل بالنسبة إلى مؤيدى حزب "الإصلاح" برئاسة على يوسف "موضوع الاستقلال وتشكيل مجلس نيابى مصري؛ وهى فكرة دعا إليها إبراهيم طيلة عشرين عاما. لم يكن إبراهيم إذن بمستطيع عدم الالتحاق بجريدة "المؤيد" لتأييد القضية التى يعدها خاصته والدفاع عنها على الرغم من كل خلافات "عام الكف" و"عام الكفء"(١).

انتقل إبراهيم على هذا النحو من جريدة "المقطم" إلى جريدة "المؤيد" المعارضة تماما لها، ولم يكن ذلك عن ازدواجية أو تناقض أيديولوجي؛ وإنما وفق استراتيجية اتصالية. الواقع أنه لم يكن الرجال بالضرورة هم الذين يغيرون وجهاتهم وقناعاتهم واستراتيجيات الاتصال والتواصل الخاصة بهم؛ وإنما كانت الأحوال السياسية والقومية والدولية هى التى تدفعهم إلى تغيير الركيزة الإعلامية ووسيلة الاتصال. كانوا يواصلون إذن التعبير عن ذواتهم ولكن حيث يمكنهم ذلك فى دوريات مختلفة بل أحيانا متعارضة وفقا للتحالفات والانفصامات. لم يكن

(١) راجع آلن Allen. 1971، ص٧٩-٨٤، ٢٠٠٢ (أ) ص٥٤٨ و٢٠٠٢ (ب) ص١٥١.

إبراهيم إذن يذهب مدفوعا بمصالحه الشخصية، ولكن مقودا إلـى حيـث ترغمـه متطلبات وضغوط الحال على الذهاب إلى حيث يتسنى له التعبير عن أفكاره. أعانته لحسن الحظ كتابته، خاصة فيما يتعلق بخطط الهرب من الرقابة وتفاديها، وتطورت حتى إنه كان يستطيع قول المزيد ولمساحات زمنية أكبر. ورغم كـل ذلـك بقـت الأساسيات لديه ثابتة.

من هنا كرر إبراهيم في مقاله: "أشد أمراض النفس أغراضها"[١] الصادر فى ١٩٠٤/٣/٦ أمنياته فى أن يتشكل مجلس نيابى فى مصر. من هذا المنطلق كتـب مقالا تأييدا ودعما لعلى يوسف الذى كان قد طلب من الحكومة الخديوية أثناء انعقاد الجمعية العمومية[٢] تشكيل مجلس نيابى مصري[٣]. وصف إبراهيم هذا المطلـب باعتباره فرحة عارمة يستقبلها كل مصرى وكل أجنبى يـساند المـصريين علـى الرحب والسعة شاكرين لمن قام به واضطلع بمسئوليته[٤].

كان فى ذلك طبقا لما رآه إبراهيم دليل أن الأمة المصرية واحدة من الأمـم المتمدنة الحرة القادرة على المشاركة فى السلطة[٥] أوضح إبراهيم أن ما أتاه على يوسف من فعل؛ أى تقديمه لطلب رسمى هو واحد من المواقف المشرفة التى تـم اتخاذها أمام العالم أجمع، فهو يثبت أن الأمة قد وصلت إلى سن النضج. كان هـذا الطلب بعبارة أخرى يعنى أن يقظة الأمة ماضية فى طريقها وبالتالى فإن النهـضة كانت فاعلة.

---

(١) مقال: "أشد أمراض النفس أغراضها" صحيفة "المؤيد" ١٩٠٤/٣/٦ راجع المجلد الثانى المادة العلمية ٢ فقرة (g).

(٢) صنعت هذه الجمعية ستة وزراء بالإضافة إلى أعضاء مجلس شورى القوانين وعددهم ٣٠ مع ٤٦ أعضاء آخرين ليصبح المجموع ٨٢. لمزيد من المعلومات راجع الرافعى ١٩٨٣ ص٥١ و٥٩.

(٣) "طلب سعادة الشيخ على يوسف فى جلسة الجمعية العمومية تأليف مجلس نيابى لمصر" جريدة "المؤيد" ١٩٠٤/٣/٦. راجع المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

(٤) "وهو طلب يتلقاه كل مصرى وكل من يتشيع للمصريين من الأجانب بالفرح والسرور والشكر لطالبه والثناء عليه".

(٥) "لظهور الأمة المصرية به مظهر الأمم المتمدنة الحرة فى التماس مشاركة السلطة العليا فيما يعود بالمنافع العامة عليها". "المؤيد" ١٩٠٤/٣/٦ راجع المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

ويبدو أن إبراهيم تعجل بعض الشيء فى الإحساس بالفرح واعتقد أن ثمار النهضة دانية. لم يحدث أى شيء من هذا على الأقل بشكل حاسم وملموس ولكن كانت هناك إرهاصات واضحة. لم يكن إبراهيم مخطئا تمام الخطأ كانت الأمة قد وصلت إلى حال من اليقظة، ذلك الحال الذى يسمح لها بالمطالبة بحقوقها ولكن ليس بالحصول عليها. كانت واعية بما آل إليه حالها وتنوى أخذ مقاليد أمورها فى يدها. كان هناك اكتساب فعلى لجزء من المسار النهضوى على الأقل لبعض من الأمة. يبرز إبراهيم فى مقاله استنادا إلى ذلك أن من واجب الصحف الإسهاب فى الحديث عن هذا الحدث والدفاع عنه... هذه الصحف يرى إبراهيم أن "المقطم" يجب أن تتصدرها كلها لأنها من زمن بعيد وباعتبارها موالية ومؤيدة للبريطانيين تزعم أن هدف الإنجليز هو جعل مصر (ويعنى هنا شعبها) قادرة على حكم نفسها. فإنجلترا التى طالما دعت إلى استعادة "مجلس المبعوثان" كان عليها فى رأى إبراهيم أن تنتشى لهذا الحدث وتشجعه، وفى هذا دليل على أن إبراهيم لم يؤيد قط الحماية حتى فى الأعوام من ١٨٩٥ وحتى ١٨٩٧ عندما كتب فى هذه الصحيفة الموالية للبريطانيين "المقطم" وأن الأمر لا يتعدى نوعا من الاختياريين استراتيجيات الاتصال. لم تمس كل هذه الأمور الرسائل ذاتها فقد كانت كلها متماثلة وثابتة فى ذاتها ومتسقة مع فكر إبراهيم المويلحي.

هذا الفكر مثلما رأينا لم يتذبذب. فى السابع من شهر أبريل ١٩٠٤؛ أى بعد شهر واحد نشر إبراهيم مقالا ثالثا فى صحيفة "المؤيد"[(١)] هاجم فيه موقف "المقطم" الناقد للإسلام وتمسكه الشديد بالترويج للمسيحية مع تشويه الإسلام بشكل أساسى ووصم المسلمين بالتعصب وعدم التسامح. دعا إبراهيم الصحيفة فى هذا الصدد إلى عدم الرد موضحا أن ذلك ليس إلا عبثا صبيانيا لا يستحق الالتفات.

---

(١) مقال: "المقطم ودعوة المسلمين للنصرانية فى مصر" جريدة "المؤيد" ١٩٠٤/٤/٧ راجع المجلد الثاني، المادة العلمية٢ الفقرة (ع).

فى الثالث والعشرين من أبريل ١٩٠٤ واصل إبراهيم كفاحه ضد الحماية ولكن عبر موضوع آخر: "كلمة عن تقرير اللورد كرومر"[١]، وهو تقرير ناله بانتقادات عدة. ذكر إبراهيم اللورد كرومر بموقفه الذى ادعى فيه ترقى تعليم الأمة بهدف تحسين حالها وقيادتها إلى احترام القوانين النظامية وممارسة النقد البناء.

كان الأمر بالنسبة إلى إبراهيم ينصب على التضارب بين الأقوال والأفعال[٢]، ومن هنا فهو يرى أنه على اللورد كرومر قبول النقد الصادر من هذه الأمة بترحاب. وقد شكره إبراهيم وطلب من الأمة شكره لكل ما أسداه من خدمات باسم الحرية[٣].

واقع الأمر أن إبراهيم لم يقل الكثير عن تقرير لورد كرومر؛ وإنما اتخذه ذريعة لفضح بعض المظالم الاجتماعية ذكر منها واقعتان فى التقرير. لم يسمح لنا الفيلم الذى نقلنا عنه النص ولا النسخة المصورة للنص بالوصول إلى النص فى صورته الكاملة. من هنا فلا يمكننا الخوض فى تفاصيل الحدثين محل اللوم. ما يمكننا ملاحظته هو أن إبراهيم قد استخدم كعادته الإحالة إلى أمثلة تاريخية لإبراز أهمية الأحداث المثارة وزيف الخلاصة التى توصل التقرير الرسمى إليها بشأنها. وصولا إلى هدفه استخدم إبراهيم السخرية والاستمالة واستخلص أن وجود هذا النوع من الأحداث فى حد ذاته هو دليل قوى على ما حققته المؤسسات التى أقامها لورد كرومر.

---

(١) مقال: "كلمة عن تقرير اللورد كرومر" جريدة "المؤيد" ١٩٠٤/٤/٧ راجع المجلد الثاني، المادة العلمية٢ الفقرة (g).

(٢) "ينبغى على من وقف موقف جناب اللورد كرومر لتعليم أمة وتحسين حالها.. وإرشادها لاحترام الحق واحتقار الباطل وتقديس القوانين أن يقبل الانتقاد عليه من صغيرها وكبيرها قبولا حسنا ليطابق قوله فعله" جريدة "المؤيد" ١٩٠٤/٤/٢٣ راجع المجلد الثانى المادة العلمية٢ فقرة (g).

(٣) "وعلى كل حال فإنى أشكر جناب اللورد وأطلب من كل مصرى أن يشكره على ما بذله من عظيم الاهتمام وجليل العناية برفع الأيدى أن تزعزع دعائم الحرية التى وضع يده القوية فوقها لتثبيتها "المؤيد" ١٩٠٤/٤/٢٣ راجع المجلد الثاني، المادة العلمية٢ الفقرة (g).

منذ عشرين عاما[1] حاول إبراهيم بكل مهاراته كرجل سياسة قريب من الحاشية الخديوية وبشيء من التزلف تارة والكياسة تارة أخرى أن يوضح بعض الأمور المتعلقة بالعدالة الاجتماعية في مصر. ويمكننا القول: إنه أيا ما كانت الموضوعات التي كانت تتناولها مقالاته فإنه كان يدافع بحمية عن مصر والمصريين. كان نهضويا فعالا، وحركته استراتيجية ومتسقة لمن فى مقدوره قراءتها.

من المعارك الأخرى التي خاضها إبراهيم وخاضها مثله كافة الصحفيين المصريين والعرب في ذلك العصر هناك الخلافات الداخلية التي نشبت بين المؤلفين الصحفيين النهضويين من ناحية، والمحافظين والمحدثين من ناحية أخرى، وتلك التي قامت بين أنصاف المحافظين وأنصاف المحدثين والتقليديين ذوى الهمة العالية، هذا بالإضافة إلى خلافات المنتمين إلى جبهة واحدة والذين لا يبقوا بالضرورة على رأى واحد دوما. كانت الصحف والمجلات كما رأينا الركيزة التي روجت نقاشهم المشترك أو المختلف وحتى خلافاتهم وبدا الأمر أحيانا كما لو كانت حربا أيديولوجية. ويعد المقال المنشور لإبراهيم المويلحي في صحيفة "المؤيد" في ١٩٠٥/١/٢١ بعنوان: "رد على صاحب المنار"[2] من هذه النوعية كانت المسألة المتناولة فيه سياسية وذات طابع دولي؛ وبذا كان إبراهيم فاتحا لكل الجبهات. لام إبراهيم في مقاله على مجلة المنار (١٨٩٨) وتحديدا على مالكها رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) الذى يطلق عليه اسم "صاحب المنار" كلما وجه له الحديث، نقله لبروتوكول سياسى ضروري. كان البروتوكول يقضى بالوقوف تحت العلم الإنجليزى في عيد الجلوس على عرش التاج البريطاني؛ وهى احتفالية كما ذكر إبراهيم يحضرها دوما الملوك ورؤساء الجمهوريات والأباطرة. طبقا لما جاء به

(١) "أما الحادثة.. فما أجدرها وأولاها أن تكون من أقوى الأدلة والبراهين على حسن النتيجة التى أنتجتها أعمال اللورد بعد عشرين سنة". جريدة "المؤيد" ١٩٠٤/٤/٢٣ راجع المجلد الثاني، المادة العلمية٢ الفقرة (g).

(٢) مقال: "رد على صاحب المنار" جريدة "المؤيد" ١٩٠٥/١/٢١ راجع المجلد الثاني، المادة العلمية٢ الفقرة (g).

إبراهيم فإن رشيد رضا قد رأى فى هذه المناسبة دلالة خطيرة خاصة وأن مراسمها قد وقعت فى يوم من أيام شهر رمضان. وقد أردف إبراهيم معلقا أن هذا الربط بين الأمرين عبثيّا فلا علاقة بينهما ونصح نظيره الصحفى النهضوى بالاقتصار على تناول الشئون الدينية وترك السياسة للساسة.

فى الثانى والعشرين من شهر أبريل ١٩٠٥ ظهر آخر مقال على قدر علمنا نشر لإبراهيم فى "المؤيد" وهو بعنوان" محمد على منقذ مصر..

عشرون عاما"[١] ويعد هذا الموضوع آخر ما تناوله إبراهيم؛ أى إنه انتهى به الأمر بالعودة إلى المنابع الداخلية، بالنكوص تاريخيا تجاه القاعدة وبدايات القرن؛ أى بدايات النهضة عصر "مؤسس مصر الحديثة، "والاستبداد المستنير" كان المقال يعج بالمديح وبالتذكير بما كان، قورن فيه الباشا بنابليون الأول ووصف الاثنان ككوكبين متكاملين تركا بصماتهما على القرن التاسع عشر[٢]. عاد إبراهيم لتناول إنجازاتهما وحصرها، ودعا ترتيبا على ذلك إلى الاحتفال بالعيد المئينى لمجيء محمد على إلى مصر بطريقة تظهر أعلى درجات العرفان له. على هذا النحو كان ينبغى فى رأى إبراهيم المويلحى احتفاء الوطنى والمستوطن بالأب الكبير والمليك الأفضل محمد علي. بدا عصر "الأمة" يلوح فى الأفق وظهرت إلى الوجود كلمة "وطن" بمعنى "أمة" وكلمة "مواطن" بمعنى "وطني" خاصة فى الصحف والجماعات السرية ذات الطابع السياسى التى كانت تنتشر وتنشط أكثر فأكثر فى الصالونات الأدبية. كانت هناك مرحلة نهضوية جديدة فى طور الإعداد لم يشارك فيها إبراهيم وإن كان قد أعلن عن مقدمها خاصة بالطلب المصرى الجماعى لتأسيس برلمان.

---

(١) "محمد على منقذ مصر" جريدة "المؤيد" ١٩٠٥/٤/٢٢ راجع المجلد الثانى، المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

(٢) "لو وقعت الموازنة بين نابليون الأول ومحمد على وهما الكوكبان المشرقان فى القرن التاسع عشر إشراق الشمس والقمر فى اليوم والليلة". جريدة "المؤيد" ١٩٠٥/٤/٢٢، راجع المجلد الثاني، المادة العلمية ٢ الفقرة (g).

خاتمة:

كان إبراهيم المويلحى حتى نهاية حياته متسقا مع نفسه وأسلوبه ومبادئه وأفكاره، مخلصا لقلمه وقد ترك لنا كإرث رؤية شاملة لفكره وعصره وقناعاته وقناعات النهضة العربية الثقافية والاجتماعية والسياسية. وتطرح مسيرة حججه واستدلالاته المسائل والأمور الجسام فى القرن الذى عاش فيه. ماثلت كلماته أفعاله، وقد اصطبغ كليهما بالطابع الصحفى ذى السمة السياسية الغالبة. كان مركز اهتمامه هو محاولة إيجاد نقطة وسط بين الشرق والغرب بين الأنا والأخر. كيَّف إبراهيم تاريخه بين الوهم والإحباط وكتب كذلك تاريخ جيل النهضة. تابع "الاتحاد" (١٨٨٠-١٨٨٤، باريس) الخط الرئيسى الذى انتهجته صحيفته "الخلافة" (١٨٧٩، نابولي)؛ التى كان موضوعها الرئيسى الخلافة عن طريق السلطنة. تصدر هذا الموضوع تقريره الناقد للسياسة العثمانية "ما هنالك" (١٨٩٦، القاهرة).

استمرت مقالات إبراهيم فى "المقطم" من ١٨٩٧ إلى ١٨٩٨ ولاحقا فى "المؤيد" فى عامى ١٩٠٤، ١٩٠٥ على شاكلة مطالباته الرئيسة؛ وهى الوضع الفعلى لدستور مستند إلى مبدأ الشورى الضام للأمة فى القرارات السياسية.

الفارق الوحيد بين ما قبل "ما هنالك" وما بعدها هو أن إبراهيم قد انتهى به الأمر إلى التركيز على تحقيق هذا المشروع البرلمانى على المستوى المصرى وليس العثماني. كنتاج للتجربة أو للإحباط أحجم إبراهيم عن مهاجمة الإمبراطورية العثمانية وهاجم إنجلترا ونظام حمايتها والحكومة المصرية. لم يتعلق الأمر إذن بتغيير فى الموقف ولكن فى استراتيجية التواصل التى تجمع العجلة والسياق الحاضر. لم يكن التوقيت مناسبا لمقاومة الاستبداد الحميدى وكان من الأنسب الكفاح ضد الإمبريالية البريطانية وبصورة أكثر اتساعا الإمبريالية الأوروبية والغربية. لم تكن الأولوية لإصلاح الدولة العثمانية؛ وإنما لإصلاح الدولة المصرية، ولم يكن الحل، على الأقل بالنسبة إلى إبراهيم منظورا إليه من ناحية الكل؛ وإنما عبر الأجزاء؛ أى على مستوى الولايات المستقلة (أو غير المستقلة) بمعنى أجزاء هذا الكل الذى تمثله الإمبراطورية العثمانية. ظهرت كتب أخرى على شاكلة "ما هنالك" فى هذه الفترة؛ ومنها:

"ذكرى وعبرة": الدولة العثمانية "قبل الدستور وبعده"[١]. الذى نشر لاحقا عام ١٩٠٨ (سنة قيام ثورة شباب الأتراك) وهو يحكى تاريخ الإمبراطورية العثمانية.

ويشير إلى الدروس الواجب استخلاصها منه. والثيمة الغالبة فى هذا الكتاب هى الدستور. فى السنوات التالية لعام ١٨٩٠ ظهر كتاب آخر يصف الشمولية الحميدية: وهو "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"[٢] لعبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٩-١٩٠٢) عام ١٩٠١. نشر الكتاب أولا فى صورة مسلسلة فى جريدة "المؤيد" المملوكة لعلى يوسف؛ وذلك فى الفترة من ١٨٩٩ إلى ١٩٠١. يقطع الكتاب من أوله إلى آخر خط واصل هو الاستبداد وهو مكون من تسع مقالات تشكل تسع مراحل تبدأ بتعريف الاستبداد، ثم تدرس علاقته بالدين، والعلوم، والمجد، والمال، والعادات، والتربية، والتطور لتنتهى بكيفية التخلص منه. للكاتب النهضوى ذاته "الكواكبي" ظهر كتاب آخر، ولكن بعد وفاته بعنوان: "أم القرى"[٣] نشر هو الآخر مسلسلا عام ١٩٠٢ فى مجلة "المنار" التابعة لرشيد رضا تحت عنوان أول هو: "جمعية أم القرى"[٤].

والثيمة الرئيسة فى هذا الكتاب هى الخلافة العربية. كان هذا الكتاب أكثر اتساقا وطولا وتوافقا مع المدة، ومذكرا بهذه المعركة الخاطفة والمدوية التى خاضها إبراهيم من خلال صحفه، التى وإن اعتبرت من ناحية الزمن زائلة فإنها أيديولوجيا وسياسيّا أكثر من دائمة ونخص بالذكر هنا "الخلافة والاتحاد" اللتين كان محورهما الخلافة العربية.

(١) عودة تاريخية ودروس: الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، لمزيد من العناصر والتفاصيل حول هذا المؤلف راجع محمد حسين، ١٩٦٢ ص٢٦٤-٢٦٦.
(٢) عنوان قام تابييرو Tapiero (١٩٦٢، ٤) بترجمته على هذا النحو:- Les Caracteres du despotisme. لمزيد من المعلومات عن هذا الكتاب راجع: تابييرو ١٩٥٦ - ص١١٢، محمد حسين ١٩٦٢، ص٢٤٦-٢٥٦، طحان ٢٠٠٣، ص٢٢٤.
(٣) "المدينة - الأم" ترجمة تابييرو (١٩٦٢، ٤) لمزيد من العناصر عن هذا المؤلف راجع تابييرو ١٩٥٦ - ص١١٢، محمد حسين ١٩٦٢، ص٢٦٠-٢٦٤.
(٤) "مؤتمر المدينة الأم" ترجمة تابييرو Tapiero (١٩٦٢، ٩).

من هنا يمكننا القول: إن الأمر لم يكن متعلقا مطلقا بأمور شخصية كما شرح إبراهيم فى خاتمة كتابه "ما هنالك"، ولم يكن كذلك ذا صلة بأية ازدواجية سياسية من جانبه؛ وإنما باستراتيجيات سياقية للاتصال تتبع ثوابت فكرية؛ هي: الخلافة العربية والانفتاح على العالم، وأخذ النماذج الأوروبية الإيجابية فى الاعتبار، والدستور، والقانون، والحرية، والمعرفة، والعدالة للأمة. توجه إذن فى مرحلة أولية إلى الأمة العثمانية منتسبا إلى المشروع المسمى بالجمعية العثمانية. وفى مرحلة لاحقة ركز إبراهيم على الأمة المصرية ضاما نفسه للمسألة المصرية. سلك إبراهيم بالنسبة إلى زمانه مسلك المستطلع واستدعى تجربته الشخصية باستخدام نسقى منظم للمشاهدة المشاركة[1] جاعلا من مقالاته تقارير دبلوماسية وسياسية بها نقد بناء بهدف إصلاحى ومجتمعى تأرجحت إرهاصات "ما هنالك" (١٨٩٦، القاهرة) بين الذاتية والموضوعية، بين الخلافة والسلطنة، و"الخلافة" (١٨٧٩ نابولي) و"الاتحاد" (١٨٨٠/١٨٨٤ باريس). بقى فكر إبراهيم المويلحى إذن متسقا ومتماسكا وبقى هو الكاتب الذى وهب قلمه فى نهاية عمره ونهاية القرن التاسع عشر لقضية حصرية قضية مصر والمصريين. تشهد على ذلك مقالاته الأخيرة التى كتبها فيما بين عامى ١٩٠٤و ١٩٥٠ تتدرج هذه المقالات تحت نوعية الكتابة الذائعة فى ذلك العصر عن المجتمع المصرى وكيفية إصلاحه. ويعد كتاب محمد عمر "حاضر المصريين وسر تأخرهم"[2] واحدا من الأمثلة الواضحة لها وقد أفردت "مصباح الشرق" له صفحة فى عددها رقم ١٥٦ عام ١٩٠١.

مثل التماسك الفردى مع التجانس الجمعى خلفية للشبكة النهضوية المثيرة للنقاش عبر الدوريات والكتب التى أصدرها هؤلاء المؤلفون الصحفيون.

---

(١) راجع ما سبق وراجع بونولى Bonoli، ٢٠٠٨ ص٢٩.

(٢) كتب العنوان باللغتين العربية والإنكليزية:

The present state: of the Egyptians, the cause of their retrogression

وقد أعلن إبراهيم عن صدور هذا الكتاب فى العدد رقم ١٥٦ الصادر فى الحادى والثلاثين من شهر مايو ١٩٠١، أعلننا "طوبيا" راجع عمر ٢٠٠٢ (١٩٠٢) أن الطبعة الأولى ترجع إلى ١٩٠٢ وقد صدرت عن دار النشر "المقتطف".

ظهرت على الساحة نوعية من الكتابة تجمع بين الارتجال والعجلة تحكمها الضوابط والضغوط والانفراجات المؤقتة للأحوال المتتابعة. والحق أنه فقط بفضل هذه الانفراجات المكانية-الزمانية "الزمكانية" فى السياق السياسى الدبلوماسى ظهرت إلى الوجود "الخلافة" و"الاتحاد" و"ما هنالك" خطا الخطاب الصحفى والأنثروبولوجيا والنقد ذو الطابع السياسى خطواتهم الأولى فى فكر القرن التاسع عشر العربى الحديث وبرز إبراهيم بين أوائل من قاموا فى هذه المجالات بمبادراتهم.

الباب الثالث

الثيمات المرشدة ومفهوم "النهضة" فى "مصباح الشرق" والكتابات الأخرى لإبراهيم المويلحى ومعاصريه

"آه فلتكسر الصحيفة وتقلب، فلتدفعنا كل يوم من تغيير إلـــى تغييـــر، لـــتكن محرض المجتمعات الحديثة ومحركها، فلتثر العواصف والمعارك، فلترعب الملوك على عروشهم والبورجوازيين فى ديارهم (...)، فلتهاجم بضراوة بوخزات الدبابيس أو بطعنات خناجر المجد المكتسب، الخدمات المسداة والعبقريات التى تظهر واللباقة والشعر وكل من لا يشك فى علو شأنه فى العالم.. الأمر حقيقى ولكـــن إذا كنـــتم عادلين ستقرون بأن هذا الهجوم يرسخ اعتقادا أن أساس كل هذا الغـــضب هنـــاك شهرة يحظى بها من يستحقها وأن وراء هذه الإهانات وهذا السباب هنـــاك عدالـــة واحترام. وإذا ما أحصيتم الموتى فى معترك الأحداث والآراء ستجدون أن الجرحى الحقيقيين أو الموتى لم يكن أمامهم أربع وعشرون ساعة يحيونها وأن الصحافة قد أضافت إليهم عظيم الشرف بمنعهم من قضاء نحبهم فى أسرتهم"(١).

(١) جانين Janin ١٨٤٠ استشهاد ذكر استنادا إلى فيليبار Philippart ١٨٦١ ص٣٩١ وورد فى مؤلف تيرنتى وفايون ٢٠٠١ ص٣٧ Therenty&Vaillant.

مقدمة

ماذا عن كتابات إبراهيم المويلحى فى الفترة من ١٨٩٨ إلـى ١٩٠٤؟ هل كانت هى أيضا فى هذا الاتجاه؟ ماذا تضيف مما لم يذكره لنا إبراهيم آنفا فى "الاتحاد"، و"ما هنالك" ومقالاته المختلفة فى "المقطم" و"المؤيد"؟ كيف تتدرج فى هذه الحركة التى تمثل جزءا من خطابها المرجعى والروائى الخيالي؟ ماذا لديها من جديد تعلمنا به عن النهضة؛ وهى التى تشكل جزءا من حاصلها التواصلى والتعريفي؟ كيف استخدمت "جريدة – الحضارة" ركيزتها؟ ماذا تقدم لنا عن الحضارة النهضوية؟ هل تجيئنا بعناصر عن الإشكاليات الأساسية لهذه النهضة؟ ماذا تقول لنا هذه الكتابات عن طابعها الخارجي – الداخلى المنشأ؟ ما ثيماتها الغالبة وخطوط قوتها؟ أى لغات ومصطلحات استخدمت للتعبير عن مكنونها؟ وإلى أى طرق التحاجي والأسلوبية لجأت؟ وسؤالنا فى النهاية: إلى أى مدى ساهمت هذه الكتابات فى ترسيخ هذا المشروع المجتمعى الذى كانت تهدف إليه هذه الحركة التقويمية المجددة؟ وما التصورات السياسية الثقافية والاجتماعية التى استخدمتها للتأثير على الجموع؟ وإجمالا؛ أى الثوابت الجماعية استدعت؟ وما الطرق التى استخدمتها لتوظيفها؟ أى نهضة صحفية مقوّمة ومؤسسة لهذا التجديد فى الفكر العربى خلال القرن التاسع عشر؟ ماذا كانت نتائجها بصفة خاصة على تاريخ الصحافة المكتوبة العربية والأدب العربى الحديث؟ كيف تطور أدب النهضة من خلال الصحافة، هذا الوسيط النهضوى وإلى أى الأنواع الأدبية اتجه؟

كيف سمح الخطاب الصحفى فى إطار هذه الصحافة الأدبية بتطور الأدب العربي؟ كيف أمكن لاستمرارية خطاب وحكايات أن تجد لها مكانا فى قلب كيان دورى لا يتطور بطبيعته واستنادا إلى تعريفه إلا من يوم لآخر؟ وإجمالا أى شكل اتخذه هذا الأدب الدورى الخاص بهذه الفترة الزمنية؟ أى خطوط غالبة وسائدة غذى هذا الأدب؟ كيف تآلف مع الطابع الوقتى الزائل والفسيفسائى للجريدة؟ كيف

انتهى الأمر بالمقالات ذات الطابع المتشظى بتكوين كيان أدبى كامل؟ أى تعريفات صاغ للصحافة المكتوبة وأى أدوار وقيم أضفى على نفسه؟ كيف قيم هذا الأدب عمل الصحفي في ضوء هذه اليقظة؟ وكيف تسنى له تناول الأمر بالمناقشة؟ ماذا قال عنه وإلى أى النتائج توصل؟

على كل هذه الأسئلة يحاول هذا الباب الأخير الرد. هذا لا يعنى أنه سيقدم إجابات جاهزة أو مستندة إلى أبحاث، بل ستكون محاولاته عن طريق قراءة هذه الصحافة أو بتحديد أدق ما تبقى منها كمادة علمية لنا. بطرح هذه الثيمات الغالبة وإلقاء الضوء عليها وتناول كافة أنواع الخطاب التى عالجتها نكون قد قرأنا واحدة من الروايات الصحفية لتاريخ النهضة منظورا إليه من جانب مؤلفيها الصحفيين الفاعلين. سنرى كيف أن إبراهيم المويلحى تحديدا سيستأثر باهتمامنا. سنولى بالتأكيد أيضا اهتماما لفرح أنطون ورشيد رضا وعبد الله النديم وجورجى زيدان[١].

سنقوم بداية بقراءة "مصباح الشرق" واستخراج الخطوط العريضة لفكر إبراهيم منها والتثبت من الثوابت وتحديد المستحدثات وما قد نجده من تغييرات أيديولوجية، أسلوبية[٢] مبرهنة محتملة. فى مرحلة تالية سنولى أعمال إبراهيم الأدبية اهتماما خاصة "مرآة العالم" التى نشرت مسلسلة فى صحيفته "مصباح الشرق". سنقوم بعد ذلك بتلخيصها وعمل تحليل سردى لها وفى خطوة لاحقة سنقوم بفحص العلاقات التى تربط هذا النص الأدبى بركيزة نشره (صحيفة مصباح الشرق) وبكافة المقالات المحيطة به فى الجريدة[٣].

سيتم بعد ذلك إيجاد نوع من التفاعل بين هذا العمل الأدبى وعمل آخر من النوعية ذاتها نشر هو الآخر فى صورة حلقات مسلسلة فى الجريدة ذاتها تحت

---

(١) فيما يتعلق بصحفهم وهى مادتنا العلمية الثانوية، راجع الملحق ١: "معلومات الصحف المكونة للمادة العلمية وصفاتها" والملحق ١٠ الذى يضم بعض المقتطفات منها.

(٢) نعنى بالأيديولوجية المعنى المحايد للكلمة؛ أى "تيار فكري" الأمر إذن يتعلق بأفكار ومعتقدات ومذاهب خاصة بعصر، أو بشخص أو بمجموعة أشخاص يندرجون أو لا ينتمون إلى تيار أيديولوجي. وبتحديد أكبر الأمر يتعلق هنا بالأيديولوجية باعتبارها نسقا فكريا يساهم فى الدفاع عن مجموعة اجتماعية". (بادي، Badie، ٢٠٠٥ ص١٤٨).

(٣) أى كل ما يحيط بالمقالات فى حالتها الأولية.

عنوان: "فترة من" الزمن وهو نص لمحمد المويلحى ابن إبراهيم المويلحي. سنتمكن بفضل دراسة هذه الحالة من رؤية كيفية عمل الصحافة والأدب معا فى داخل جريدة معروفة بطابعها المؤقت، والذى تتم هنا معاودة طرحه. سنرى كيف تمت عملية طرحه مرة أخرى للدراسة والنقاش، وأى نتائج ترتبت على ذلك بالنسبة إلى الصحافة المكتوبة العربية وبالنسبة إلى الأدب العربى الحديث.

وختاما؛ لذلك كله سنرى إلى أى شيء نخلص فيما يتعلق باستمرارية خطاب الصحافة المكتوبة من عدمها. وسيعقب ذلك فى نهاية الأمر وضع مجمل الخطاب المويلحى الصحفى والأدبى فى تفاعل مع كتابات معاصريه مما يسمح بمعرفة ما كان يتم مناقشته فى المجموعات التى كانت تكونها الصفوة آنذاك[١] والإمساك بروابط وصلات هذه الشبكة النهضوية وبعبارة أخرى بهذا الحقل الصحفى والأدبى الخاص بالنهضة.

من خلال كل ذلك، سيمكننا أيضا معرفة كيف اهتمت الصحافة المكتوبة بتاريخها الخاص، وأى اعتبار أولته لنفسها، وأى تعريف وضعته لذاتها يتيح لنا ذلك فى النهاية معرفة أى مفهوم كونته عن حركة النهضة التى شكلت هى ذاتها بالنسبة إليها الوسيط والناقل وواحدة من النتائج.

---

(١) أى مجموعة من الأشخاص تعتبر من حيث تكوينها ومهنتها وأعمالها للمجتمع عينة ممثلة. وهى إجمالا مجموعة أشخاص ذات تأثير، حاكمة للأمور تحتل نظرا لتطوعها الاجتماعى الصف الأول للمجتمع.

الفصل الثامن

"مصباح الشرق" (١٨٩٨ - ١٩٠١)

أعمال إبراهيم المويلحى الصحفية: عرض لفكره ومحصلته

إذا ما أطلتم البحث ودققتموه ستجدون أن الرجال الذين يرجع إليهم الفضل -بعد الله- فى تحريك العالم اليوم هم أبناء الصحافة الدورية[١].

يتم تعريف جريدة "مصباح الشرق" باعتبارها "جريدة سياسية إخبارية علمية وأدبية"؛ أى باعتبارها صحيفة سياسية تحوى أخبارا ومعلومات علمية وأدبية. ومقال هذه الجريدة الافتتاحى كما تحققنا (راجع المجلد الثانى الوثيقة الأولى الفقرة "g") (سياسى - أدبي) كان فى بداية الأمر فى الصفحة الثالثة، ثم أضحى فى الأولى، كما أنه يغلب على الجريدة بصفة عامة الطابع السياسي. أما الطابع الأدبى فيجيء فى المرتبة الثانية ويبدو من خلال اللغة التى تشكل الخلفية والقاطرة الناقلة لحججه بين الخطاب والحكى. ومستوى اللغة المستخدمة حرفى أكثر منه أدبي[٢]، بعيد عن اللهجة وفى سبيله إلى التحديث[٣] وتمثل الناقل الذى بواسطته يفرض إبراهيم صورته وأفكاره؛ أى فى المجمل تصوراته السياسية والثقافية والاجتماعية والأدبية للعالم فى عصره. تظهر لغة الصحافة كانعكاس ومحرك للإبداع الألسنى واللغوي، من هنا فإن الصحافة تنقل بلا شك المعلومة ولكنها أساسا (....) تبنى المعانى والدلالات؛ وذلك فى تنسيق وإخراج، حتى إنها ذاتها تسهم فى بناء المعنى.

---

(١) 1840، Janin، هذا المرجع أورده Philippart, 1861, P.386-387 وذكره كل من Vaillant و Therenty عام ٢٠٠١ ص٤٨.

(٢) أى أميل إلى المعاصرة منها إلى التقليدية.

(٣) راجع فى هذا العدد (Delanoue (1998, 41-60.

(شارودو، ١٩٩٨،٦) بهذا المعنى فإن لغة إبراهيم وتصوراته اللغوية[١] ساهمت فى وضع تصوراته الأيديولوجية وبنائها، وذلك بصفة خاصة عن طريق استعمال التناص القرآنى والتاريخى واللجوء إلى السخرية والأسئلة الإنكارية الموجهة على غرار الـ "Doxas" هذه التصورات ذات طبيعة سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية وبالتأكيد دينية. ويلاحظ أن الطابع الدينى حاضر ومتخلل بكافة المجالات المتناولة فى "مصباح الشرق" كما أن الموضوعات التى تعالجها الجريدة تتنوع وتتناقش من عدد إلى آخر.

لم يكن الأمر بالنسبة إلى "مصباح الشرق" يعنى تناول الموضوعات بشكل آنى، ولكن متابعتها لمدة محددة هديا إما بالأحداث الجارية وإما بهدف الجريدة وهيئة تحريرها، هذه الأنواع المتباينة من الخطاب كانت محل تعهد وتعاقد - بث وتوصيل من خلاله رغب الموصل ببعض الطرق والأساليب نقل رؤيته للأشياء. فى إطار هذا التعاقد استخدمت الصحيفة كوسيلة إعلامية وسيطا لجعل الحدث حدثا جاريا[٢] والحدث تاريخا أو الحدث حدثا جاريا وتاريخيا[٣]. لإنجاز ذلك كان أمام الصحفى الموصل هدف مزدوج: إعلام وإقناع؛ أى أنه كان عليه الإرشاد والتأثير فى جمهوره وهو هنا الأمة بالإضافة إلى الساسة المصريين والإنجليز.

من هنا يمكننا القول: إنه قد أبرمت عقود بين موجه الخطاب والمتلقى حول أحداث نشأت جزئيًا من خلال الاتصال الصحفى (الإعلامى بلغة العصر). لم يكن الأمر يتعلق إذن بالحقيقة الواقعة؛ ولكن بصورة الحقيقة فى خطاب مرجعي؛ أى يرجع إلى العالم الواقعي. تطلب الأمر إذن الحديث عن "الواقع - الحدث" عن طريق الخطاب

---

(١) يؤكد Delanoue (١٩٩٨، ٤١) أن هذه التصورات ما زالت نشطة؛ لأنها تعبر عن مفهوم للعالم وتتجه إلى الظهور فى شكل أفعال سياسية.

(٢) نستعيد هذا المصطلح من شارودو Charaudeau (١٩٩٨، ٥١).

(٣) نعنى بهذين المصطلحين تحديد نوع الحدث السياسي الطاغى فى "مصباح الشرق": راجع فى هذا الصدد (المجلد الثاني، النص محل الدراسة الأول، الفقرتين "d" و"g") وهاتان الأخيرتان يتم تناولهما فى معظم الحالات عن طريق حدث جارى مفجر يعالجه إبراهيم بعودة تاريخية مناسبة وهنا نكون بصدد حدث أو واقعة وحدث جارى وتاريخ. فى غير هذه الحالة تكون ركيزة الخطاب إما الأحداث الجارية مما يجعلنا فى إطار "الحدث والحدث الجاري" وإما التاريخ ولا شيء غيره وهنا نكون بصدد "الحدث - التاريخ".

"الصحفى – الحدث"[١] من هذه الأنماط المشار إليها سنرى عن قرب أنواع الخطاب المستخدمة فى أساليب التحرير المختلفة كالمقال الافتتاحي[٢] والتعليق[٣] والتحليل[٤]؛ وذلك من خلال أبوابها خاصة تلك التى تتناول المسائل السياسية والإدارية عبر أنواع الكتابات الصحفية كالخطبة والنقاش والتحقيق والمقال الوصفي.

للقيام بذلك، ينبغى ملاحظة الفارق بين الخبر واللفظ الموضوعى (على الأقل يراد لها ذلك) والتعليق أو التحليل؛ أى اللفظ الذاتي[٥]. من هنا فنحن نعتبر أن الخطاب الصحفى ترجمة صحفية للأحداث التى اختارها الصحفى وفقا لأهدافه من عملية التحرير، مسترشدا بملابسات الأحداث الجارية ونوازعه السياسية الشخصية وانتمائه الاجتماعى الثقافي. لإظهار كل ذلك لجأ إبراهيم إلى أنواع الإدلاء بالرأى المشابهة؛ وهى طبقا لما جاءت به دورير Durrer المقال الافتتاحى والمقال العمودي[٦] والتعليق والمنبر الحر[٧]. فى هذه الأنواع ترى الكاتبة أن "الذاتية تفصح

---

(١) نستعير هذين المصطلحين من شارودو Charaudeau (١٩٩٨، ٩٣).

(٢) لا نقصد هنا بالافتتاحية المقالات الموجزة كما هو الحال دوما فى أيامنا هذه؛ وإنما المقالات القصيرة أو الطويلة حسبما يقتضى الحال، وعادة ما تكون هذه الافتتاحية فى الصفحة الأولى، غير أن هذا الأمر لا يتسم بالثبات كما رأينا فى "مصباح الشرق" وهو ما يعد سمة مميزة للصحافة المكتوبة فى القرن التاسع عشر.

والافتتاحية نوع من المقالات غالبا ما تحوى موقفا محددا من حدث جار وتميزه عبارات متلفظة تشى بالتزام واضح. ونبرة الافتتاحية تتسم بالحيوية، وتعكس تصميما وخطابا ثابتا حاسما تستخدم فيه المحاجاة القوية، وغالبا ما يتم إنهاء الافتتاحية بعبرة مستخلصة أو موعظة واقتراح لحل مختلف للمشكلة المطروحة.

(٣) التعليق: نوع من المقالات قريب الشبه من المقال الافتتاحى، وغالبا ما يكون فى خدمته على الأقل فى القرن التاسع عشر على نحو ما رأينا فى الصحف المصرية آنذاك. وهو يعالج معلومة أو خبر سبق تناوله فى الافتتاحية بصفة خاصة، مما يجعله يكون معربا بنية متصلة الوشائج. والتعليق فى الغالب أقل طولا من الافتتاحية التى يكملها. ويشى بدوره بتدخل سافر للصحفى (أو للجريدة) بأسلوب رصين يترك فيه الصحفى العنان لمزاجه الشخصى وهذا على نقيض ما نرى فى الافتتاحية.

(٤) لا يختلف التحليل فى كثير عن التعليق. الفارق الواضح بينهما أن المحلل لا يحظى بهذه الحرية المطلقة التى يتمتع بها المعلق.

(٥) نستعير هذين المصطلحين من مواروِن Moirand الذى يذكره آدم (Adam 2001,14).

(٦) لا نقصد هنا المقال الصحفى العمودى على النحو الذى نراه فى القرن الحادى والعشرين؛ وإنما المقال العمودى باعتباره حكيا خياليا مقدم باعتباره واقعيًا ومتناولا فى تتابع فى هيئة حلقات.

(٧) يقصد بالمنبر الحر: مقالات الصحفيين الذين لا ينتمون للجريدة، وفيها نلحظ وضوح المواقف والفكر والالتزام اللفظى، وهى نظريا على مسئوليتهم الشخصية إذا ما غضضنا النظر عن=

عن نفسها بشكل أوضح" (Adam. 2001.14). ونحن في المقالات المويلحية بصدد إما أحداث مروية: مقالات الأخبار (اللفظ الموضوعي أو الواقعة – الحدث الجاري) وإما أحداث مفتعلة: مقالات التعليق أو التحليل (اللفظ الذاتي أو الحدث – التاريخ) وإما أحداث أخبار مفتعلة (حدث – حدث جارى – تاريخ).

وهذه الباقة كانت فى خدمة سياسة أو هيئة التحرير التى كانت تسعى للبيان والشرح مع الاحتفاظ بالجاذبية والقدرة على المحاجاة؛ أى فى خدمة التصورات الأيديولوجية لمحررها وهو هنا إبراهيم المويلحي.

من هنا فإن الخطاب والحكى الخاصين بالصحافة الذين سنتعرف عليهما ناشئان عن مجمل الخطاب الصحفى لإبراهيم المويلحي. ويمكن اعتبارهما ناقلى ومترجمى الفكر المويلحى النهضوى المأخوذ هنا كنموذج متناهى الصغر للفكر النهضوى بشكل عام، ذلك الذى نحاول وصفه صحفيا.

يتلاقى الفكر المويلحى مع فكر معاصريه ويعتبروا معا شهود هذه النهضة التى حكوا عنها. من هذا المنطلق يكون مفيدا ومجديا عمل حصر لكبريات الموضوعات المتناولة من قبل هؤلاء الصحفيين أنفسهم الذين كانت أوضاعهم كأدباء متعلمين وخطباء كاتبين وصحفيين مجتمعة تعد معايير جودة بواسطتها تصبح الدوريات قادرة أو غير قادرة على اجتذاب جموع القراء والاحتفاظ بهم.

تمتع قراء "مصباح الشرق" طبقا لما جاء به عبد العزيز البشرى (١٩٣٥، الجزء الأول الصفحة ٢٩٤) بشهرة مؤكدة حتى إن الصحيفة أضحت الشغل الشاغل لبعض من "الخاصة" الذين كانوا ينتظرون بنفاذ صبر واضح الصدور الأسبوعى لمصباح الشرق[1]. تكونت هذه الصفوة من الأدباء الكتاب الصحفيين (المثقفين – الكتاب – الصحفيين) الذين نطلق عليهم الفاعلين – الصحفيين أو الفاعلين –

= فكرة أن قبول الجريدة نشرها يعنى مسئوليتها عنها ويفترض موافقتها على المضمون. هذا النوع من المقالات ليس بكثير فى "مصباح الشرق" فى الفترة من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٠ ويلاحظ تزايده اعتبارا من عام ١٩٠١.

(١) "لم تكد تطالع الناس هذه الصحيفة: حتى أصبحت من بعض شغل الخاصة فى هذه البلاد! كذلك كان يترقب الخاصة مشرق "المصباح" وسرعان ما تخطفه اليد الراجفة". البشرى، ١٩٣٥، الجزء الأول، ص٢٩٤.

المؤلفين – الصحفيين الذين قاموا إلى جانب صحفهم بنشر أعمال ومؤلفات خاصة بهم. أورد جورجى زيدان (١٩٠٦، ٣٨٣) أن إبراهيم يعد من أولئك الذين حملوا لقبى "الكاتب السياسي" و"منشئ الصحف"؛ أى الذين يجمعون إجمالا بين وظيفتى الناقد السياسى والصحفي. وقد ذكر هذا الأمر أيضا باحثون؛ مثل: سركيس يوسف آليان (١٩٢٨ص ١٨٢٠). منح إبراهيم ألقاب أخرى؛ مثل: "علم الصحافة والأدب" (داغر، ٢٠٠٠(١٩٥٦) ١٥٩٦). وقد وصفه الطماوى (١٩٩٠، ٣٦) بالأديب أما آلن Allen فقد نعته بالصحفى والكاتب (١٩٩٣، ٨١٥). ولما نعرفه نحن عنه رأينا أنه كان كاتبا صحفيا وناقدا وفاعلا سياسيًا.

بغية وضع يدنا على الطابع السياسى فى كتابات إبراهيم والتحقق إلى أى مدى كانت السياسة محور تفكيره رأينا أن تكون أهم اهتماماتنا هنا حصر أبرز مقالات جريدته "مصباح الشرق". يعقب ذلك تبيان أهم الموضوعات المتناولة بها.

من الأمور التى بدت لنا مهمّة والتى سنعرضها فى موضع وتوقيت مناسبين، تلك الخطب الصحفية المويلحية المتبادلة مع معاصريه الذين ألحقنا صحفهم بالمحتوى المرجعى الأساسى لنا وهو مقالات جريدة "مصباح الشرق". من هذه الصحف نذكر:

الجامعة (١٨٩٩، فرح أنطون)، والمنار (١٨٩٨، رشيد رضا)، والهلال (١٨٩٢، جورجى زيدان) والأستاذ (١٩٨٢، عبد الله النديم).

١- الإمبراطورية العثمانية أو علاقة إبراهيم بالسلطان

كانت أول موضوع سياسى تناولته الصحيفة لدى أول صدور لها هو تاريخ الإمبراطورية العثمانية وسلامة الملة[1]. والعنوان فى حد ذاته يفصح عن الكثير

---

(١) راجع الملحق السادس: "معجم لغة الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر" رأينا فيما سبق لفظة "أمة"، وقد وجد إلى جوارها لفظة "ملة باللغة التركية. وهى طبقا لرأى لويس (٢٠٠٠، ٦٤) عربية – قرآنية ذات أصل آرامي. ومعناها فى الأصل "كلمة" وقد امتد إلى مجموعة البشر التى تقبل كلمة بعينها أو كتاب منزل". فى زمن الإمبراطورية العثمانية أصبحت هذه اللفظة أكثر تقنية وأصبحت تعى كافة الأقوام المكونة للإمبراطورية. من بين كل الملل بقيت واحدة متفردة تمثل كل المسلمين مهما اختلفت أصولهم: الأتراك والألبانيون والعرب والأكراد... إلخ.

ويعلن عن مضمون المقال والهدف منه معا، فواقع الأمر أنهما شيء واحد: "سلامة الملة الإسلامية" أما العنوان الفرعى فقد صيغ ليعلن عن الجزء الثانى من الموضوع، وهو ما ترتكز وتعتمد عليه سلامة هذه الملة "فى وجود الدولة العثمانية". وننوه هنا أنه قد لوحظ تحول جذرى فى موقف إبراهيم المويلحى تجاه السلطان عبد الحميد الثانى، فقد وصفه بالخليفة وباتت مواقفه السياسية تقدر وتدار وفقا للحال، القوة واللين كلٌ فى موضعه[1]. هل كان تغيرا مفاجئا حقيقيًا فى الرأي؟ إذا كان الرد بالإيجاب فهل هو غير قابل للتفسير؟ أم أنه دليل على ما قيل إن إبراهيم قد اتصف به من تناقض وجداني؟ أم كان الأمر ببساطة إفاقة وأخذ للتجارب السابقة فى الحسبان؛ أى فى جملة الأمر حكمة العمر؟ أم كان ذلك غطاء وقناعا لخداع الرقابة العثمانية الموضوعة على حرية التعبير التى كان يعرفها جيدا؟ ربما كان الأمر موقفا سياسيًا جديدا فرضته ظروف الحماية الإنجليزية؟ أو كانت كل هذه الأسباب مجتمعة أو بعضا منها؟

أيا ما كان الأمر فإن إبراهيم كان قد تعلم شيئا من مغامراته السابقة، وتبنى استراتيجية جديدة للتواصل مع السلطان أمكنه بفضلها الأمل فى الكتابة أخيرا لمدة طويلة وليس لفترة محدودة كما كان أمره بين عامى ١٨٧٠، ١٨٩٨.

ثمانية وعشرون عاما وإبراهيم يحاول جاهدا مرة بعد أخرى فى مصر وأوروبا وإسطنبول تأسيس صحيفته أو نشر كتابه بلا جدوى. من كان يظن أن موقفه الجديد تجاه السلطان سيكون فى ضوء كل هذه العناصر مجرد تحول فى الموقف لا يهدف إلا لخدمة مصالحه الشخصية؟ إن مسيرة هذا الرائد النهضوى تشهد بمثابرته وباتساق فى كل ما يأتى به. وكما رأينا فإن كتاباته شاهدة على ذلك فى السنوات من ١٨٧٠ إلى ١٨٩٧ ومن ١٩٠٤ إلى ١٩٠٥؛ أى قبل وفاته بعام واحد. لماذا وكيف يمكن له فى غضون سنوات ست بين ١٨٩٨ و١٩٠٣ أن يصبح

---

(١) "ومن أمعن النظر فى أحوال الدولة الحاضرة وما تلاقيه من المشاكل والمعضلات التى لا بد منها لدولة إسلامية تكون فى مركزها ونظر إليها كيف تحل عقدة كل مشكلة باستعمالها اللين فى موضعه والعنف فى موضعه علم أن صاحب الرأى الأعلى فيها هو خليفتنا أمير المؤمنين السلطان الغازى خان أدامه الله".
"مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد الأول، الصفحة الأولى.

فجأة مختلفا؟ سنرى بفضل قراءة "مصباح الشرق" أن الأمر لم يكن إلا استراتيجية تواصل ومقاومة ضد الرقابة العثمانية والمصرية والإنجليزية على الصحافة المكتوبة والمطبوعات بصفة عامة، وجدير بنا أخيرا أن نضع فى الحسبان أنه على الرغم من النبرة الحادة والقاسية المستخدمة تجاه السلطان فإن إبراهيم لم يكن قد كتب "ما هنالك" ضد السلطان أو بأهداف تدميرية تجاه الإمبراطورية العثمانية؛ ولكن بهدف أن يصل إلى علم عبد الحميد الثانى ما يقوم به محيطه السياسى ويعالجه لأمان وسلامة الأمة والدولة العثمانية. يتوجب أيضا ملاحظة أن هذا المقال الأول فى "مصباح الشرق" قد استعرض شأن الإمبراطورية الإسلامية من عصر الأمويين وحتى العهد الحميدى مبرزا أمجاد العرب الماضية وكذلك إخفاقاتهم. تبع نشر هذا المقال الافتتاحى لجريدة "مصباح الشرق" وتحديدا فى صفحتها الأولى نوع من الحساب لسلطة الخلافة الإسلامية.

عقب ذلك تم تناول المسألة العثمانية بدءا من العلاقات العربية التركية والتركية العربية[1]، ومثل المقال الذى أشار إلى هذه الأخيرة فرصة لإبراهيم للعودة للتأكيد على آماله فى الوحدة بصفة خاصة بين العرب والأتراك. وقد أكد أن التاريخ يعيد نفسه، حتى إنه قد يخالجنا إحساس أننا لسنا فى القرن الرابع عشر؛ وإنما فى القرن الثانى الهجري[2]، كما لو أن الجاحظ كان حاضرا تحرير جريدة "مصباح الشرق"[3]. كانت العلاقات المصرية العثمانية هى أيضا موضوع لمقالات قصيرة على شاكلة تلك التى حملت عنوان: "الباب العالى والحكومة المصرية"[4]. وروى فيها إبراهيم الأحداث دون تعليق أو تحليل.

---

(١) مقال: "الترك والعرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد السادس الصفحة الأولى المجموعتان ١-٤.
(٢) أى من التقويم الهجرى وهو ما يقابل القرنين التاسع عشر والتاسع.
(٣) "كيف أن ما كان يكتب ويقال فى القرن الثانى أصبح ينطبق على حال القرن الرابع عشر فى اعتراض المعترضين وانتقاد المنتقدين وفى الرد عليهم وفى بيان "الرابطة التى تربط العربى بالتركى والتركى بالعربى حتى كأن الجاحظ وهو يملى أقواله فى المسجد يكتب معنا اليوم فى الجريدة بعد مرور القرون وكرور العصور.
"مصباح الشرق" مقال: "الترك والعرب" ١٨٩٨ العدد السادس الصفحة الأولى، العشر سطور الأخيرة من المجموعة الثالثة.
(٤) مقال: "الباب العالى والحكومة المصرية"، مصباح الشرق، ١٨٩٩ العدد ٧٢ الصفحة ٣ المجموعة ٣.

يقول لنا إبراهيم فى هذا المقال: إن السلطة المركزية قد حذرت الحكومة المصرية من تجاوزات الصحافة فى حقها ودعتها إلى وضع حد لتحركات من يثيرون الفتن من اليونانيين المقيمين فى مصر، وهم طبقا لتقرير السلطة من النشطاء الذين يدبرون قيام ثورة. طالبت الدولة العثمانية آنذاك الحكومة المصرية بالعمل على إيقاف ذلك مذكرين إياها أن مصر كانت دوما ولاية من ولايات الإمبراطورية، وبوصفها هذا، لا ينبغى لها إيواء مثل هذه الحركات. ردت الحكومة المصرية أنها لم تكن على علم بمثل هذه الوقائع وأنها بعد البحث والتحرى لم تجد شيئا من هذا القبيل[1]. كان الأمر يتطلب من الإمبراطورية العثمانية الحيلولة دون اندلاع ثورة محتملة أو أى نوع من الهياج داخل الإمبراطورية والتذكير بحدود حرية الصحافة فى مصر. وفى نطاق آخر كانت مصلحة الإمبراطورية العثمانية ومصر وكافة المسلمين مقدمة وكأنها واجهة واحدة لصد التهديدات الخارجية، وبصفة خاصة ما كان منها ناشئا عن السطوة الإنجليزية وناجما عن خلافات القوة الأوروبية الكبرى. أوضح إبراهيم أنه:

"على أى حال تحول إليه السياسة الأوروبية فالذى يهم المسلمين عموما والعثمانيين خصوصا هو حفظ مركز الدولة العلية والخلافة الإسلامية فى وسط الدول الأوروبية وعلو شأنها بينها، والشرط الأول لذلك هو حفظ التوازن الأوروبى وقد غلط من يظن أن قيام حرب أوروبية على كل الأحوال يعود بالمنفعة على الدولة العلية؛ لأن اختلال التوازن إذ ذاك يخل من قيود الدول الطامعة فيها فتنتهز الفرصة لأغراضها وحينئذ يجب على الدولة أن تحتاط لنفسها اتقاء ما يحدث من وراء الاختلال فى ذلك التوازن"[2].

(١) "تعددت فى هذه الأيام مخابرات الباب العالى مع الحكومة المصرية؛ فمنها تلغراف ينبهها فيه إلى ما وصلت إليه حالة الجرائد في مصر: من الطعن والخروج عن الحد فى بلاد تابعة للدولة العلية معدودة من أملاكها، وأنه لا يليق منها السكوت على مثل ذلك. ومنها تلغراف يقول فيه الباب العالي: إنه بلغ حكومة الدولة العلية أن جماعة من اليونانيين المقيمين فى القطر المصرى افتتحوا اكتتابا بينهم لجمع مبالغ يرسلون بها إلى جمعيات الثورة لأحداث الهياج فى بلاد الدولة العلية فأجابته الحكومة أنها لم تكن تعلم شيئا عن ذلك من قبل وقد بحثت فلم نجد للخبر من أثر".
مقال: "الباب العالى والحكومة المصرية"، جريدة "مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٧٢ الصفحة ٣ العمود ٣ الفقرة ١.

(٢) مقال: "مصلحة الدولة"، جريدة "مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٩١ الصفحة الثالثة العمود ٣ الفقرة ٢.

ويضطلع إبراهيم المويلحى باعتباره محللا سياسيًا على المستوى الدولى بمسئوليتين؛ فمن ناحية يشرح الأمر، ومن ناحية أخرى يحسمه فيما يتعلق بالسلوك السياسى والدبلوماسى الذى يحسن بالإمبراطورية العثمانية تبنيه فى مواجهة أوروبا وتحالفاتها وما يمكن أن ينشأ من معارضة بها.

كان تأييد إبراهيم إذن للإمبراطورية والخلافة الإسلامية جائزا ومقبولا. أما عن موقفه الحمائى مسبقا تجاه الدولة العثمانية فيفسره مجمل الأوضاع السياسية الإقليمية (مصر) والأحوال الدولية من استعمار وإمبريالية، وذلك إلى جانب وضعه كمسلم عليه الدفاع عن دينه، وعلينا فى نهاية الأمر ألا ننسى أنه بعيدا عن هذه المواقف التلقائية بالنسبة إلى إبراهيم لم يكن شغله الشاغل إلا إلهاء المعنيين بالأمر حتى يتمكن من الاستمرار فى الكتابة. وصولا إلى هذا الهدف كانت هناك عشرات المقالات التى نشرت فى الفترة من عامى ١٨٩٨ و ١٩٠٠ تشيد بالسلطان بمناسبة عيد جلوس عبد الحميد الثانى على العرش أو الاحتفالات والأعياد الدينية(١). كانت هناك على هذا النحو مقالات من باب اللياقة تخضع لسياسة العصر؛ وهى سياسة التطبيق اللامحدود للرقابة التى أثبت الزمان قيام الإمبراطورية العثمانية بها. ويمكننا القول: إنه فى الأعداد الأخيرة من "مصباح الشرق"، وقت اضطلاع إبراهيم برئاسة تحريرها كان ذكر الإمبراطورية العثمانية يتم بشكل إجمالى عام. ففى المقال الافتتاحى الذى حمل فى الصفحة الأولى عنوان "النجاة فى الثبات"(٢) احتلت السياسة المتبعة والسائدة(٣) وأرمينيا(٤) وبلغاريا(٥) والبلقان(٦) بالإضافة إلى روسيا(٧) والبلدان الأوروبية(٨) وسباق التسلح(٩) مع السعى للاستيلاء على مزيد من البلدان:

(١) راجع المجلد الثاني، المادة البحثية ١ الفقرة ٢.
(٢) مقال: "النجاة فى الثبات" "مصباح الشرق" ١٩٠١ العدد ١٥٤ الصفحتان ١-٢.
(٣) السياسة الحاضرة.
(٤) المسألة الأرمينية.
(٥) البلغاريون من أهل الثورة.
(٦) حدود ممالك البلقان.
(٧) الحرب الروسية.
(٨) الدول الغربية.
(٩) القوة الحربية.

قلب المناقشة المتناولة به. دعا إبراهيم قارئ المقال إلى مساندة إجـراءات الدولـة المركزية خاصة ما تعلق منها بالمطالبة بحقوقها لدى القوى الأوروبية، وطلب منه عدم الاندهاش من هذا المسلك بل والقلق إذا لم تجده لإن اختفاءه سيكون دليلا على عدم قيام الدولة العثمانية بواجبها، وإضاعتها لفرص كبيرة، وتراجعها إلـى حالـة الركود والخمود السابقين اللذين كانت تصحبهما المخاوف والاستكانة والتقاعس عن اتخاذ موقف.

أما إذا وقع المحظور فقد رأى إبراهيم أنه ستكون هناك مدعاة للدهشة والقلـق(١).
بخلاف المقالات المشار إليها آنفا، ورد ذكر الإمبراطورية العثمانية عدة مرات خاصة فى تلك التى تتناول السياسة المصرية. كانت النبرة السائدة فى هذه المقالات يكتنفها الاحترام، وإن تخللتها سخرية تلاحظ بمشقة ولا يتبينها فى الواقع إلا المتمرسين على قراءة الكتابات المويلحية. فما كان يظهر فيها فى هيئة انتماء وامتثال كان فى حقيقة الأمر ضمن خطـة إبراهيم لمراوغة الرقابة. كان مسلك إبراهيم إيهام القائمين على رقابة الصحافة والسلطان بأنه مناصر للعثمانيين والحقيقة أنه قبل أن يشيد بالسلطة كان يشرع فى حكى وقائع التاريخ بأمجاده وإخفاقاته. كان يورد التاريخ وفى ذلك كل الحيادية. هكذا كان حال إبراهيم تماشيا مع المقولة القائلة: إن الوصول إلى المبتغى يتطلب إقناع المحاور بأنه صـاحب الفكـرة. واصل مشواره المضنى الهادف إلى إيصال الدولة العلية إلى تنقية وتصحيح سياستها؛ من أجل سلامة الأمة والملة التى كان كثيرا ما يورد ذكرها.

كان إبراهيم على سبيل المثال يقول: إن الدولة عليها أن تثابر وتصر علـى المطالبة بحقوقها الدولية، وأنه يتوجب على الأمة تعضيدها لا لأن الدولة بذلك تقوم بما ينبغى لها القيام به؛ وإنما لأنه كان يأمل بالتعلق أن نجد سبيلا إلى ذلك.

لم يكن إبراهيم إذن يعانى من الازدواجية؛ وإنما كان يرسم لنفسه استراتيجية فى كتاباته ومحاجاته. والحق أنه يمكن القول: إن أهدافه الرئيسة والثانويـة تجـاه الإمبراطورية العثمانية لم تتغير على مدى حياته العملية.

---

(١) "فلا تعجب أيها القارئ من موقف الدولة العلية للمطالبة بحقوقها واطلب منها دوام الثبات فى العمل؛ لذلك واعجب لها إذا فرطت فى الأمر وأضاعت هذه الفرص الثمينة وأقامت على ما كانت فيه من الخوف والحذر والخمول والسكون".
مقال: "النجاة فى الثبات" "مصباح الشرق" ١٩٠١، العدد ١٥٤ الصفحة ١ العمود ٥ الفقرة ١.

٢- هل يرتبط الشرق بالغرب بعلاقة قوة أم بعلاقة مبادلة؟

احتلت مسألة العلاقات بين الشرق والغرب مركز الصدارة في محاورات جريدة "مصباح الشرق" وكافة دوريات القرن التاسع عشر خاصة فى العالم العربى والإسلامي. ما يهم هنا هو رصد ما يميز كل مطبوعة تجاه هذه المسألة الرئيسة خلال هذا العصر. أما الصلات بين المصريين والمختلين فهى إحدى النقاط الثانوية فى هذا الموضوع. واقع الأمر أن هذه الإشكالية الخاصة بالشرق والغرب كانت فى قلب تاريخ النهضة العربية.

هل كان من الممكن أن نرى هذه الحركة النور دون بونابرت ومن دون الإمبريالية الغربية؟ دون هذه العلاقة مع الآخر ما الذى كان يمكن أن تكون عليه أدواتها ومواقفها؟ هل كانت إشكالياتها وردودها ونتائجها ستبقى على ما هى عليه إذا لم تكن هناك هذه العلاقة مع الغرب؟ لا شك أننا لا يمكننا الدفع أن النهضة ما كانت لتحقق دون حملة بونابرت على مصر والسيطرة الإنجليزية، كما أننا لم يمكننا الذهاب إلى أنها كانت ممكنة الحدوث أصلا، ونعجز كذلك عن تحديد الأشكال التى كان يمكنها أن تكون عليها وعن التكهن بنوعية وأنماط تفكيرها ونتائج ذلك. نزيد على ذلك أن النهضة العربية على ما هى عليه غير يسيرة التحديد إجمالا نظرا لكونها داخليًا مركبة. من هنا نتساءل كيف يمكننا تخيل شكلها فى ظروف وملابسات أخرى. الفكرة ليست فى الحديث بشكل هلامى غير واضح الحدود والمعالم ولكن أن نعى من خلال هذا المثال المناقض أن النهضة العربية كان لها خصائص مميزة ترجع لركيزتها التاريخية التى أساسها الوشائج والعلاقات بين الشرق والغرب.

الغرب ليس هنا المنبع الرئيسى كما أنه ليس المحرض أو المفجر، غير أنه من المحتمل أن تكون نقطة البدء لذلك الإحساس بالتأخر الذى يعترينا. الغرب إذن يمثل الجانب أو الطرف الخارجى للنهضة العربية فى حين يمثل الشرق الطرف الداخلي. تباينت العلاقات بينهما بين العداء وسوء الفهم وتركت آثارا سلبية وإيجابية وهذه الأخيرة على شاكلة العلاقة بين الشرق والغرب خارجية وداخلية فى آن واحد.

إن إبراهيم المويلحى، على الرغم من تحفظه الواضح، لم يكن أقـل انفتاحـا على الغرب؛ حيث أقام لمدة ستة أعوام فيما بين عامى ١٨٧٩ و ١٨٨٤. كان مـن أولئك الذين يدعون إلى تقليد ذكى ومعقول، وينـادون بإجمـاع سياسـى وبحـل اقتصادى توافقي. من هذا المنظور دعا إبراهيم الشرقيين إلى التفكير مليّا فيما يتعلق بهذا الغرب وبهؤلاء الغربيين الذين يعتبرهم الشرق مثلا يحتذى. كما أشـار إلـى أولئك الشرقيين الذين يضنون على أنفسهم وعلى ذويهم بما هو ضـرورى حتـى يتسنى لهم السفر كل عام إلى أوروبا خلال الصيف، حتى إن البعض منهم كان يلجأ إلى الاستدانة من أجل تحقيق هذا الغرض. عدد إبراهيم فى هذا الصدد بعض مزايا الأوروبيين وعيوبهم موضحا أنه:

" والحقيقة أن لكل بلد محاسن ومعائب وفضائل ورذائل وكمـالا؛ وإنمـا تخفى معائب الغربيين علينا، لعدم البحث والتنقيب والإمعان والتـدقيق... وملء عين حبيبها كما أنه تخفى على سياح الغربيين كثير مـن محاسـن العوائد الشرقية؛ لعدم البحث والتنقيب والإمعان والتدقيق"(١).

اعتبارا من العدد العاشر من صحيفة "مصباح الشرق" نلاحظ أنه قد تم تناول العلاقة بين الشرق والغرب. الواقع أن إبراهيم أخذ على عاتقه مهمة لفت انتباه أبناء الشرق إلى كونهم لا يسعون لمعرفة الغربيين على حقيقتهم. فهـم يرسـمون لهـم صورة تفتقر إلى الواقعية، ويجعلونهم بذلك مثلا يحتذى مما يقودهم لا محالة إلـى الإحساس بالدونية. وفى الوقت ذاته حاول إبراهيم التأكيد على أن أبنـاء الغـرب بدورهم لا يسعون إلى معرفة الجوانب الحسنة لدى أبناء الشرق مما يجعل الصورة التى يحملونها لهم ممعنة فى السلبية. واقع الأمر أن إبـراهيم لام علـى الطـرفين افتقارهما إلى الإرادة الحقيقية فى معرفة الآخر، وأثبت أن الشرقيين مسئولون مثلهم فى ذلك مثل الغربيين عن انعدام التفاهم، وهذا الاختلال السائد فى التوازن. لتحقيق مبتغاه استدعى إبراهيم ما عاشه من تجارب سابقة ورآه فى أوروبا أثناء ارتحالـه.

---

(١) مقال: "الشرق والغرب ". "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد العاشـر، الـصفحة ١ العمـود ٣، الفقرة الثانية.

بدأ خطابه قائلا: "ولما كان المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى فى لوندره معنا"[١]. ثم عدد بعد ذلك الأمثلة فتحدث عن فقراء لندن والخرافات وألعاب القمار مثل: "بنك اللوتو" فى ايطاليا، وتلوث الهواء، ومياه باريس ولندن كان الموقف فى نهاية الأمر متوقفا وغير قابل للتقدم. استمر الشرقيون فى ظنهم أن الغرب هو الفردوس الأعلى[٢]، وأن كل مدينة من مدنه هى تلك المدينة الفاضلة التى تخيلها أفلاطون فى كتابه وأن أهله كلهم فى الحكمة يماثلون أرسطو وابن رشد[٣].

ليس هذا فقط كما يقول إبراهيم فقد جعلوا "من زيادة الغرب أحد أسس ودعائم النعيم؛ مثل: الحج"[٤]. ونلاحظ أن إبراهيم استعان بمكتبته؛ أى ارتكز على ثقافته، وقد سمح ذلك بالتعرف على بعض قراءاته التى كان كل من أفلاطون وأرسطو من ركائزها[٥].

تشهد هذه المراجع بسعة أفق إبراهيم المويلحي.

تابع إبراهيم فى العدد الثانى عشر من "مصباح الشرق" تحليله الاجتماعى المقارن بين الشرقيين والغربيين. قام إبراهيم كهاو، لا شك فى ذلك، بنوع من الدراسة الاجتماعية متبعا تسلسل فكرة تحت العنوان ذاته: الشرق والغرب[٦]؛ وبذا أكد استمرارية خطابه من عدد لآخر. عدد إبراهيم آنذاك ما هو الشرق: فهو بالنسبة إليه أصل التعاليم الدينية المنطقية والنظرية ومنبعها، ومهبط الأنبياء لكل الديانات وجامع لكل الأماكن المقدسة[٧]. يقضى إبراهيم بعد ذلك شارحا كل هذه النقاط واحدة بعد الأخرى، وطارحا للغة والشعر والنثر العربيين مقارنا إياهم باللغة الفرنسية.

---

(١) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٠ الصفحة الأولى، المجموعة الرابعة السطران ٤-٥.
(٢) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٠ الصفحة الأولى، المجموعة الأولى، السطر الأول.
(٣) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٠ الصفحة الأولى المجموعة الأولى السطور من ٣ إلى ٦.
(٤) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٠ الصفحة الأولى المجموعة الأولى السطران ١٥-١٦.
(٥) راجع المجلد الثانى، الملحق السابع: "بعض قراءات إبراهيم ومحمد المويلحي".
(٦) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٢ الصفحتان ١-٢.
(٧) "الشرق مصدر التعاليم الإلهية ومطلع ثورة النبوة ومجمع الأماكن المقدسة... ومنبع العلوم العقلية والنقلية".
مقال: "الشرق والغرب" مصباح الشرق ١٩٨٩ العدد ٢٢ الصفحة الأولى، العمود الأول السطور من ١ إلى ٤.

ويحدد إبراهيم فى هذا الصدد أن شعر الغربيين أقل جمالا من شعر الشرقيين[١]، ويتابع بتفصيل الأمر ذاكرا العلوم بصفة عامة، ومنها ما استقاه الغربيون من الشرقيين؛ مثل: الطب والرياضيات وقاموا بتطويره مما جعلهم يتطورون ويتقدمون.

أقر إبراهيم بذلك بتقدم الغرب ووضحه كحضارة حديثة، وفى الوقت ذاته دعا الشرقيين إلى التمثل بهم والتفكير مليّا فيما ينتج عن هذه الحداثة:

"خرجنا من هذا كله إلى أن الغربيين لم يمتازوا عن أهل الشرق اليوم إلا بالصناعة وآلاتها الميكانيكية وهم فما عدا ذلك أضعف من الشرقيين فى العلوم العقلية والنظرية. ولا تظنن أن آلات اليوم واختراعاته فى البخار والكهرباء وغيرهما برزت فى الوجود دفعة واحدة من رأس الغربيين، كما أخرجت مينيرفا ملكة الحكمة من رأس جوبيتر؛ وإنما هى نتيجة الصدفة، والاتفاق، والتدرج، والامتحان، والاستقراء، والمتابعة، والترقى، والمواظبة"[٢].

لم يكن إذن المقصد هنا نكران الطفرات التقنية التى حققتها أوروبا؛ وإنما توصيل حقيقة إلى الأذهان؛ وهى أن هذه الطفرات ليست وليدة السحر والخوارق من الأمور وليست نتاج ذهن رجل واحد أو حضارة واحدة، الأمر بالنسبة إلى إبراهيم يتعلق بنتائج مشتركة استقرت على مر الزمن وبتفاعل الحضارات. دعا إبراهيم الشرقيين إلى إدراك ذلك واستيعاب الكيفية التى تتقدم بها الحضارة مع التأكيد على المثابرة والمواظبة. ولم يمنع ذلك إبراهيم من التساؤل والقول: إنه

---

(١) واعلم أن شعر الغربيين فى القافية هو أحط فى الصناعة من شعر الشرقيين مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٢ الصفحة الأولى العمود ٣ السطور ٢٢-٢٤.
(٢) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٢ الصفحة ١ العمود ٥ السطور من ٩ – ١٣.

"بقى علينا أن نبحث فى فوائد هذه الاختراعات والفنون الحديثة هل هى من موجبات الهناء فى معيشة الإنسان أم هى من موجبات العناء وتزاحم الهموم؟"(١).

سبق إبراهيم معاصريه وطرح التساؤل الذى قد يداخل من يعيشون فى القرن الحادى والعشرين عن قدر الحداثة الضرورى والمفيد للإنسان؟

فى هذه المقالات الافتتاحية لم يكن الهدف هو الحديث عن الشرق والغرب من منظور مناهض للإمبريالية؛ وإنما المناقشة والمناظرة بهدف إيضاح الأمر للشرقيين؛ مثل: الغربيين والتساؤل عن العلاقات بين الشرق والغرب وعن الحداثة. كينونتها وكيفية اكتسابها والحدود التى يتوجب التوقف عندها فيها.

تابع إبراهيم تحليله فى العدد التالي؛ أى العدد الثالث عشر؛ وظهرت فيه رغبة قوية فى متابعة التواصل، وهو ما يمثل دليلا على أنه فى "مصباح الشرق" لا توجد مقالات متفرقة وفقا للأحداث الجارية؛ وإنما خطاب فى سلسلة متتابعة منشورة. بعضها من الممكن قراءته منفردا أو منفصلا غير أن فهمها على محملها مخطط له مسبقا أن يكون فى استمراريتها، ودليل ذلك الجملة التى كان يتم بها إنهاء كل مقال على شاكلة: "سنأتى على بيان ذلك فيما بعد"(٢). واصل إبراهيم تفكيره وتطور ذلك التفكير حول العلاقات الرابطة بين الشرق والغرب تحت العنوان ذاته: "الشرق والغرب". ومن هنا فقد بدأ مقاله الثالث حول الموضوع موضحا أن: "احتياجات الإنسان تنقسم إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى طبيعية وضرورية، المجموعة الثانية طبيعية واختيارية أما الثالثة فهى لا طبيعية ولا ضرورية(٣). شرح إبراهيم عقب ذلك المجموعات الثلاث موضحا أنه:

---

(١) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ٢٢ الصفحة الثانية المجموعة الأولى "الفقرة الأخيرة".

(٢) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٢ الصفحة الثانية المجموعة الأولى السطر الأخير.

(٣) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٣ الصفحة الأولى، المجموعة الأولى الفقرة الأولى.

" كلما ارتقى الإنسان فى المدينة ارتقى فى ذلك القسم، فالفضول مصاحب للمدنية بالتنعم، والترفه يزيد الحاجة، وإذا زادت الحاجة ازدادت الهموم، واشتدت الأزمات، وفسدت الأخلاق، وكان سعى الإنسان وراء قضائها سعيا يملكه ويغشى بصره فلا يميز معه بين النافع والضار"[١].

كان الأمر إذن بالنسبة إلى إبراهيم يتعلق بالاستمتاع بهذه المدنية بشيء من التعقل والوسطية والأخذ منها بالقدر الضروري. وهو يرى "أن من أعظم مضار المدنية أن آلات الصناعة عطلت أيدى الناس من العمل"[٢]. كان إبراهيم إذن من هذه الطليعة التى تسبق دوما عصرها، والحق أن التقنية كانت سببا ومصدرا للبطالة منذ القرن التاسع عشر وعلى مدى السنوات والقرون التالية. أدرك إبراهيم بحسه هذه المشكلة التى تفاقمت بعد ذلك، على الرغم من أنها فى القرن التاسع عشر كانت هامشية ومحدودة، وأن مقدماتها كانت توفر العمل بإيجادها لمهن جديدة.

كشف إبراهيم بعد ذلك المساوئ التى يخشى جانبها للرأسمالية التى تسعى دوما لتحقيق المزيد من الأرباح دون أخذ الشعوب فى الاعتبار ومراعاة مصالحها. وهو فى هذا الشأن يقول:

"فيموت الناس من الغربيين جوعا وبجانبهم أولئك الذين يتمتعون بتلك الفضول حتى تولد من هذا وأمثاله ذلك الداء الدفين داء الفوضوية والاشتراكية فى جسم الجمعية الغربية وسيأتى على تلك المدنية يوم عصيب وهو يوم تغلب الاشتراكيين والفوضويين الذين جمعتهم جامعة الحاجة[٣] لالتزامه بوضعه كصحفى سياسى وكمراقب ناقد أوضح إبراهيم إلى أى مدى يمكن لمساوئ الإفراط فى التقنية التى تصاحبها سياسة متجردة من إنسانيتها أن تقود العالم الغربي. من هنا، فإن هذا العالم الذى يراه الشرقيون جنة (راجع ما سبق) هو فى حقيقة الأمر جحيم، ولكن لفئة محددة من البشر؛ بينما تحظى قلة قليلة بكل المنافع. لنقل أكثر من ذلك:

(١) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٣ الصفحة الأولى، المجموعتان الأولى والثانية السطور الستة الأخيرة والأربعة سطور الأولى.

(٢) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٣ الصفحة الأولى، المجموعة الرابعة السطران ٥-٦.

(٣) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق".١٨٩٨ العدد ١٣ الصفحة الأولى، المجموعة الرابعة السطور من ١٢ إلى ١٨.

فالغرب بالنسبة إلى إبراهيم فى حالة صراع وقتال. مسوقا بمثاليته ووطنيته يتنبأ إبراهيم أن هذه الصراعات ستنتهى حتما بانتصار المطحونين (الاشتراكيين والفوضويين)؛ بذا يعد إبراهيم طليعيا وسابقا لعصره. بعض من تنبؤاته تحقق بالفعل والبعض الآخر لم يتحقق. شارك فى تحليلات وفى تأملات عميقة لا تشبه فى شيء تلك التحليلات الصحفية البسيطة المنتشرة فى القرنين العشرين والحادى والعشرين. كانت مقالاته الافتتاحية أقرب فى الشبه من المقالات متناهية الصغر المنشورة فى سلسلة. وبالتالى فإن جمعها فى شكل متتابع يكون عدة دراسات تعد فى مجملها دراسة أحادية نقدية تحليلية ومبرهنة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات بين الشرق والغرب فى القرن الحادى والعشرين.

فى العدد الرابع عشر تابع إبراهيم مقاله: "الشرق والغرب" بادئا بإعادة بث الحياة فى أهدافه وموضحها:

"لا يذهب الوهم ببعض القراء، أننا نقصد فيما نكتبه عن الشرق والغرب إلى إظهار الغربيين فى مظهر النقيصة الفاضحة والشرقيين فى مظهر الفضيلة الواضحة، وأن نخفض من المدنية الغربية، وننقص قدرها، وننكر نفعها، ونغرى الشرقيين بالسكون على حالهم الحاضرة والرضا بنصيبهم فى التأخر، ونميت نشاطهم، ونثبط هممهم فى مجارات الغربيين ومباراتهم فى ميدان تمدنهم وتقدمهم، فإن غرضنا فيما فصلناه وأجملناه أن نقنع الشرقيين بأن لكل قوم معائب ونقائص، وأن الغربيين لا يعرون من نقيصة، كما أن الشرقيين لا يخلون من فضيلة وأن نحذرهم قبول المدنية الغربية على علاتها وما اندمج فيها من النقائص والرذائل وكان جل اهتمامنا فيما قدمناه أن لا يتوهم الشرقيون أن القوم من الكمال بحيث يجب اتباعهم وتقليدهم فى كل خلق من الأخلاق، وعادة من العادات، وسيرة من السير، وأن لا يتصوروا أن النقص فينا بقدر توهم الكمال فيهم فإن رسوخ الاعتقاد فينا بأن كل ما يصدر عن الغربى من الأفعال والأقوال هو نتيجة الفضيلة والحكمة موجب للتسليم له، ولليأس، والقنوط من النجاح فى أمرنا، وداع إلى استعظام شأنه، وتمكين هيبته فى نفوسنا.. نحن نرجو بما

نكتبه عن فضائل الشرق أن يتمسك بها أهله ولا يأخذ من الغربى إلا ما كان نافعا، وأن لا تلعب بهم فضول المدنية وزخارفها فتوقعهم فى الحاجة بعد الحاجة حتى ينتهى أمرهم بالخراب على ما قرره المحققون"[١].

بهذه الطريقة وضع إبراهيم معالما لخطابه حول هذا الموضوع الخاص بالعلاقة بين الشرق والغرب؛ وبذا وضع أيضا معالما للفكر النهضوى ولمواقفه الأساسية فى مواجهة إمبريالية تلك الفترة. توجه بحديثه إلى القارئ وأوضح له أهدافه. لم ينكر إبراهيم التقدم الواضح للغرب ولم يخطئ فى تشخيص تأخر الشرق مبرزا افتقاده لحيوية الحركة وامتثاله التام.

استخدم إبراهيم التهكم والسخرية فى وصفه لقلة نشاط الشرقيين مبرزا أن عليهم أن يغيروا ما بأنفسهم ومنافسة الغرب فيما يملكه من ميزات. كان بخطابه هذا يبغى إفهام القارئ أن لكلٍ ميزاته وعيوبه وأن المطلوب التدبر فى التمثل بالآخرين؛ بحيث لا يؤخذ إلا ما هو مفيد. حذر إبراهيم الأمة من المعتقدات الراسخة الدائرة حول تميز الغربيين ومثاليتهم. كان هناك وفقا لقوله خطر جسيم. فالاعتقاد والإيمان بذلك يعنى تضاؤل كل أمل فى رؤية نجاحات للشرقيين فى صعودهم السياسى والاجتماعى وبقاء الشرقيين خاضعين إلى الأبد للغرب.

ارتكز إبراهيم فى خطابه هذا على نتائج الخبراء الذين لم يفصح عن هويتهم. هل كانوا من المستشرقين أم من النهضويين أم من الاثنين معا؟ يبقى السؤال يبحث عن إجابة. حذر إبراهيم بذلك الشرقيين من مساوئ التجاوزات والمبالغة فى الاحتياجات التى غرستها هذه المدنية لدى الغربيين واستطاع باستعمال عبارات مثل: "هدفنا"، و"جل اهتمامنا"، و"تأمل أن" أن يرسم مداخل ومخارج هذا المقال الاجتماعى متناهى الصغر. بعد هذه المقدمة يتناول إبراهيم الفردية والأنانية[٢] الأوروبية ويختتم دراسته مؤكدا أن:

---

(١) مقال: "الشرق والغرب" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ١٤ الصفحة الأولى المجموعة الأولى الفقرة الأولى (دون السطور الخمسة الأخيرة) والمجموعة الثانية الفقرة الأولى (أول ستة أسطر فيها).

(٢) "حب الذات": الحديث عن حب الذات لتناول الفردية، مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ١٤ الصفحة الأولى العمود الثالث.

"أن كل هذا تراه فى تاريخ الفريقين وتشاهده اليوم بعينك فى المعاملات بين الغربيين والشرقيين فى بلادنا من طبقة الفلاحين إلى طبقة الأمراء فالغربى يعاملهم والأثرة فى صدره تأمر فيهم وتنهى وهم يعاملونه وملء صدورهم الكرم.. واسترسالنا فى هذه الأخلاق واسترسالهم فى تلك الأثرة انتهى بنا ونحن فى أموالنا وبلادنا إلى أن صرنا الفقراء وهم الأغنياء ونحن فى انحطاط وهم فى اعتلاء. ولو كان عند الشرقيين قليل من تلك الأثرة يقاومون به أثرة الغربيين ويصادمونها به لتم التوازن"[1].

كان التوازن بين الشرق والغرب إذن هنا أمرا، هذا هو لب الموضوع؛ التناسق والتواؤم والمساواة والاحترام بشكل فيه اعتدال ووسطية. من هنا، وعلى الرغم من الرغبة فى الاتجاه إلى الآخر بعد استضافته فى عقر الدار كما يقول إبراهيم اكتشف الشرقيون أن هؤلاء ما هم بمدعوين وأنهم ينظرون إليهم بتعال واضح. عندئذ نشأت بين الطرفين علاقة قوة عبر عنها إبراهيم جيدا فى خطابه فقد دعا إلى مقاومة أنانية الغربيين. عندما استشعر إبراهيم أنه موزع الوجدان بين هذه الإسهامات المفيدة من قبل الغرب وعيوبه التى يتصدرها انعدام الإنسانية كتب واصفا هذا التناقض السائد فى القرن التاسع عشر. تناقض هذا الغرب الذى كان يزعم أنه مطور ومهيأ للحضارة فإذا به طاغية ظالم وتناقض الإمبريالية والسيطرة الأوروبية التى سادت دون منازع. والنتيجة التى توصلت إليها دراسة إبراهيم أن الأمر يتطلب بعد هذا التقسيم والاقتباس المعقول والسطوة والإهانة مقاومة هذا الاحتقار وهذه الهيمنة الغربية.

وتبدو رسالة إبراهيم ملبية لواحد من أهداف النهضة العربية وهو رؤية الأمة ممسكة بمقاليد مصيرها. هذا ما كان من الخطاب المويلحى فيما يتعلق بالعلاقات والصلات بين الشرق والغرب. تجدد نداء النهضويين ودعواتهم للإمعان فى التفكير وتبنى أفضل ما لدى الغربيين فى مقالات مختلفة تتناول من قريب أو من بعيد الصلة بين الشرق والغرب. فى هذا الإطار أوضح إبراهيم عام ١٨٩٩ فى مقال له بعنوان: "مثال لبرهان"[2] أن طريق العيان[3] والمشاهدة نور الحق وظلمة الباطل (...).

---

(١) مقال: "الشرق والغرب" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد الرابع عشر الصفحة الأولى العمودان ٤-٥ نهاية الفقرة الثالثة والثمانية أسطر الأولى من العمود الخامس.

(٢) مقال: "مثال لبرهان" "مصباح الشرق"، ١٨٩٩ العدد ٧٦ الصفحة الأولى.

(٣) العيان: أن النظرة أو الملاحظة المباشرة للأحداث؛ أى التجربة طبقا لرأى Kilito هى مصدر ومعين الحقيقة الرئيسى لأنه مشفوع بالتجربة (٢٣-١٩٨٣).

وإنا لنقيم لك الآن شاهد عيانا ومثالا محسوسا على صدق ما قلناه فى هذا الباب فنقول: "فيا له من عدل، ويا له من إنصاف، ويا له من كرم، ويا لها من مدنية يزعم الزاعمون أنها صاعدة بأصحابها إلى أعلى مراقى الكمال فى خدمة الإنسانية، وحراسة الضعيف، وكف يد القوى، ونصرة العدل وخذلان الظلم..؛ لذلك فإنا لا نفتأ نكرر القول ونعيده ونقيم البرهان ونضرب الأمثال حتى يعتقد أهل المشرق أن الخير كل الخير فى أن لا يغتروا بتمويه المدنية الغربية، وأن لا يندفعوا إلا إلى أخذ ما يكسبهم قوة منها ونبذ ما استطاعوا نبذه من آفاتها"(١).

ثابر إبراهيم وأخذ على نفسه عهدا بعدم الكف عن إثارة قضيته حتى يعى الشرق ما ينبغى له أخذه من الغرب وما ينبغى له تركه. أعلن نفسه شاهدا وضامنا فى خدمة الأمة واستمر يكرر مرة بعد أخرى دون تعب أو كلل ما يتوجب عمله، حتى تمكن من جعل رسالته بالمثل والشهادة والملاحظة جزءا لا يتجزأ من فكر الأمة. أصبحت عبارات: "تربية الأمة"، وتعليم الأمة، وإرشاد الأمة كلمات السر فى المشروع المويلحى الذى لم يكن إلا مشروعا نهضويا.

هذه الدراسة متناهية الصغر حول الصلات بين الشرق والغرب تشكل بالإضافة إلى أنواع الخطاب الأخرى التى قدمها إبراهيم عن ذات الموضوع، مؤلفا صغيرا عن الفكر المويلحى بين الشرق والغرب اللذين يبدوان صديقين تارة وعدوين تارة أخرى وفقا للظروف نوع من الاقتباس المتبادل منذ قرون الذى يعد ضروريا ومفيدا فى آن واحد. هما إذن مكملان لبعضهما البعض شريطة توفر توازن بين الشرقيين والغربيين. اعتبارا من لحظة التوازن هذه ينصح بإيجاد نوع من التبادل غير الشامل بل المعقول والمتدبر. كان إبراهيم منفتحا إذا على هذا الآخر الغربي؛ أى بمعنى آخر على هذا الآخر المتأتى من داخله ومن ذاته. إلا أن هذا الانفتاح كان يتحدد شيئا فشيئا تناسبا مع البون الذى يتسع بين الشرقيين

---

(١) مقال: "مثال لبرهان": مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٧٦ الصفحة الأولى المجموعات ١-٣-٤ والصفحة الثانية من المجموعة الثانية.

والغربيين. لم يكن الأمر عندئذ نوعا من التبادل؛ وإنما الصدام والظلم والمهانة. كان الشرق ينفتح ولكن بصعوبة ومعاناة مما جعله يسارع بالانغلاق والانزواء فى الكفاح. أضحى التوازن والتزام الوسطية هدفا متواريا تحت الهدف الأعلى والأسمى وهو مساواة الحضارة الغربية واستعادة المكانة على مسرح الحضارات.

٣- الصلات بين المصريين والمحتلين: الحماية الإنجليزية

إلحاقا لهذه الإشكالية الرئيسة بين الشرق والغرب هناك عدة مسائل أخرى؛ منها التوازن بين ضفتى العالم حيث ترتع الإمبريالية دون منازع. كانت الحماية الإنجليزية على مصر فى قلب هذا الصراع الذى لم يتوان إبراهيم عن تسجيل وإبراز أهميته. استعرض ما تميز واتصف به الوضع المصري. تقدم إبراهيم كعادته ببعض الاقتراحات على سبيل الحل. ففى أحد مقالاته الافتتاحية على سبيل المثال وكان بعنوان: "المصريون والمحتلون" دعا إبراهيم المسلمين إلى التوحد حوله الخلافة - السلطنة وإلى دعوتها لحماية مصر. أصدر هذا النداء موضحا أنه يعى تماما أن ذلك لن يدفع السلطان لحماية مصر التى يعدها من أجمل ولايات الإمبراطورية[١]. وبالتالى فهو يرى أن على المصريين أن يتولوا أمرهم بأنفسهم، وحتى يتمكنوا من إتمام هذه المهام شرح إبراهيم لهم كيف استطاع الإنجليز شيئا فشيئا أن تكون لهم السطوة عليهم:

"وهذا من مهارة المحتلين فى فن التدرج ومهارة المجلس العالى مجلس النظار فى فن التهاون.. فاتخذوا كل حركة تصدر منا حجة علينا أمام أوروبا، لبقائهم ورسوخ أقدامهم فى مصر وأظهرونا فى أعين الدول أننا أمة طفلة وسجلوا علينا بهذا فى تقاريرهم الرسمية وغير الرسمية فصدقهم

---

(١) "نعم كان يجب علينا أهل مصر أن يكون هذا حالنا مع المحتلين، نتعلق بعرش الخلافة، ونأخذ بباب السلطنة، وندعو جلالة مولانا الأعظم أن- مصر ويحييها وإن كان دعاؤنا لا يزيد فى اهتمام جلالته لحماية مملكة من أعز ممالكه وممالك آبائه وأجداده فتحوها بأنفسهم وخاطروا فى فتحها بأرواحهم فكانت أغلى جوهرة فى التاج العثماني".
مقال: "المصريون والمحتلون" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد الخامس الصفحة الأولى المجموعتان الثالثة والرابعة. الفقرة الأولى والأخيرة من كل مجموعة.
تشير العلامة "_" إلى نقص كلمة صعبت قراءتها.

الناس؛ لأنهم لم يروا منا رجلا قام فى أوروبا يدافع عنا وعن حقوقنا وينفى ما يقال فينا.. هذا حالنا مع المحتلين اشتغلنا بالصياح والعويل فى إخراجهم من مصر، واشتغلوا فى إخراجنا من أطياننا، ووظائفنا وامتيازاتنا باللعب، وقد امتحنوا أغنياءنا.. فوجدوهم كما قال المرحوم السيد جمال الدين "إن المصريين اتفقوا بالشركات الأجنبية فتم لهم ما أرادوا بالجد ولم يتم لنا شيء مما أردنا على أن لا يتفقوا.." (فليعش مجلس النظار) فيجب على المصريين أن يسكتوا ويعملوا، فإنه كما يقال نصف عمل خير من ألف قول[1].

لم يتلعثم إبراهيم أو يتردد، كان نقده لاذع وحاد للمحتلين ولكن أيضا للمصريين. استخدم الضمير الشخصى "نحن" مبينا أن الأمر يعنيه مثلما يعنى جمهوره. أبرز إبراهيم أمله العمل لتغيير العديد من الأشياء التى اتسمت بأى شيء إلا النظام. عرف للمحتلين فضلهم وقدراتهم حتى لو كانت تستعمل ضد المصريين. وقد أقر بخمول المصريين وخمودهم. ولوصفهم استند إلى جملة الأفغانى مما اظهر واحدا من النماذج النهضوية. بنبرة تهكمية ساخرة أشاد بمجلس الوزراء مرة باللغة الفرنسية تلتها مرة أخرى باللغة العربية. ودعا فى نهاية الأمر المصريين إلى التزام الصمت والمضى فى طريق الإنجاز والعمل. لم يكن إبراهيم ينتقد حبا فى النقد، فقد كان يؤيد النقد البناء ولم يفلت من قلمه لا المحتلين ولا السلطان ولا الوزراء المصريين ولا المصريين أنفسهم. لم يتحكم فى خطابه محاباة ولا نزعة قومية وبقى مخلصا لمعتقداته النهضوية التى كانت ترتكز على تحليل الواقع والتعلم منه لمعالجته. هاجم الركائز التى أمل معرفة ما تستند إليه، حتى يستمر التغيير ويوصل الشرق إلى التقدم. تلا ذلك قول إبراهيم وتأكيده فى مقال له بعنوان: "نظار مصر"[2].

(١) مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد الخامس الصفحة الأولى المجموعتان الثالثة والرابعة. بدءا من نهاية العمود الثالث الصفحة الأولى المجموعة الرابعة، الفقرة الثانية بدءا من السطر الثالث حتى السطر الأخير، الصفحة الثانية المجموعة الأولى السطور العشرة الأخيرة، الصفحة الثانية المجموعة الثانية السطر الأول الصفحة الثانية المجموعة الثالثة. راجع الجملة الفرنسية وترجمتها إلى العربية فى السطر التالى والصفحة الثانية المجموعة الثالثة السطور من ١ إلى ٣.

(٢) مقال: "نظار مصر"، مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد الثامن الصفحة الأولى.

"نعم نحن لا نطلب من هؤلاء النظار أن يشاقوا المحتلين ويحادوهم ويعارضوهم فى إصلاحهم ويرادوهم كما كان يقع من بعض رؤساء النظار السالفين فإن ذلك أيضا من سوء الرؤية وأفن الرأي. ولكن المطلوب منهم أن يرشدوا المحتلين بآرائهم فيما يوعزون به إلى وجه السداد وسبيل المنفعة للجهتين.. ولا يظن حضرات النظار أن هذا السلوك على هذا النهج النافع مما يكدر المحتلين منهم أو يخفض من مكانتهم لديهم أو يوجب انحرافا عنهم؛ بل الأمر على العكس فإن المحتلين يودون إرضاء المصريين وإقناعهم أن كل ما يصدر عنهم إنما يقصد به مصلحة مصر داخلا ويهمهم أن لا يسمع من أعمالهم فيها خارجا إلا ما كان خليا من الانتقاد والاعتراض والمؤاخذة من الدول(١).

أعقب النداء الموجه إلى المصريين آخر استهدف الوزراء المصريين وبشكل غير مباشر المحتلين أيضا. كان إبراهيم ثابتا على مبادئه وقد علم السياسيين الطريقة التى ينتهجها؛ وهى الإيحاء للآخر أن الفكرة نابعة منه هو فى الأساس. وهو ما أخذ به طوال حياته العملية كما رأيناه من قبل مع السلطان عبد الحميد الثاني. لم يغير إذن حتى هذه الآونة لا أساليبه الأدبية ولا أساليبه فى المحاجاة. من هنا يمكن القول: إنه كان يتهم الوزراء المصريين بعدم التبصر وعدم التمتع برؤية واضحة. وصف لهم النهج الذى عليهم اتباعه حتى يستمع المحتلون لهم، وطمأنهم بشأن صورتهم فى أعين المحتلين خاصة أن البريطانيين كان من صالحهم الحفاظ على واجهة حسنة لهم على الصعيد الدولي؛ ونظرا لأن هدف الإنجليز الآخر هو الإيحاء للمصريين بأن وجود إنجلترا فى مصر ليس إلا لصالحهم، فقد طمأن إبراهيم من يتوجه إليهم بالحديث إلى عدم وجود أى خطر فى الاعتراض بحنكة على المحتلين ولم يمنعه ذلك من تحذير الوزراء من مواجتهم. كان المطلوب إذن هو إرشاد الإنجليز وليس إدارتهم ومعارضتهم بشكل مستمر.

---

(١) مقال: "نظار مصر"، مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد الثامن الصفحة الأولى العمود الخامس الفقرة الأولى والصفحة الثانية العمود الأول السطران ١-٢.

على هذا النحو، كان إبراهيم يلعب دور المستشار والناصح السياسى من خلال جريدته "مصباح الشرق". هل كان ذلك من مزايا مهنته أم من مثالبها؟ يبدو أن الأمر كان جاما للاثنين معا. وقد حاول إبراهيم انطلاقا منه أن يوجه الوزراء إلى الفائدة المشتركة بين الجانبين. ويبدو أنه كان مقتنعا أن واحدة من المراحل المؤدية إلى التوازن السياسى تكمن فى إيجاد حل وسط بين الإنجليز والمصريين. من هنا فقد دعا إلى نوع من الإجماع والتوافق.

بالإضافة إلى دوره كناصح ومستشار سياسى من خلال الصحافة، اضطلع إبراهيم بمهمة أخرى؛ وهى إرشاد الأمة بشكل عام والمصريين بشكل خاص؛ وصولا لهذا الهدف، كانت كل الموضوعات التى يتناولها تتسم بالاستمرارية.

تعلق هذا بالدرجة الأولى بالمقالات الافتتاحية، أما الأبواب الأخرى فقد كان يتعامل معها إما بالاستدعاء والتذكير عند الحاجة، أو بالربط بينها وبين بعضها عند الضرورة. من هذه النوعية نذكر على سبيل المثال التعيينات أو التكليفات الإدارية؛ وهى أخبار خالصة، غير أنها أحيانا تكون مصحوبة بتعليقات سياسية. يفصح الربط بين هذه التعليقات من بين ما يفصح عنه عن عدم تماسك الحكومة وعن عبثيتها. بهذا المنطق يواصل إبراهيم دراسته للعلاقات الجامعة بين المحتلين، ومن ثم احتلالهم بشكل خاص فى مقاله: (مصر وحدها) "كيف يتداخل المحتلون"[(١)].

ذكر إبراهيم أن هذا المقال تتمة للمقالات التى تحمل عنوان "مصر وحدها" التى تعد بدورها استكمالا للمقالات المنشورة بعنوان: "الشرق والغرب". فى متن هذه المقالات أوضح الكاتب الصحفى أنه باستعراض المجتمعين الشرقى والغربى تطلب الأمر تفحص المجتمع المصري. قاده هذا الموضوع إلى تناول الصلات بين المحتلين من ناحية والمصريين من ناحية أخرى؛ أى دراسة العلاقات بين مصر والغرب.

وصف الطبيعة المصرية والإنجليزية وقارن بينهما واستخلص من هذه المقارنة بعض النتائج: تعد سطوة الإنجليز وهيمنتهم طبقا لإبراهيم نتاج الحس

---

(١) مقال: "(مصر وحدها) "كيف يتداخل المحتلون" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ١٩ الصفحتان ١-٢.

القوى والإدارة الجيدة وليس القوة[١]. وبالتالى يعد تاريخ الاحتلال خير شاهد على ذلك[٢] كان هذا ما دفعه إلى استعراض كل ذلك والتعليق عليه واصفا ضعف المصريين وسياساتهم والسطوة الغربية على الشرق وهيمنة الإنجليز على مصر[٣].

إلا أن كل ذلك لم يمنع إبراهيم فى نهاية عرضه المفصل من إدراك أن "القلم واللسان عاجزان عن وصف التدرج الذى يتداخل به المحتلون وابتدائهم بالصغير لينتهوا منه إلى الكبير"[٤]. أصبح التاريخ الاستعمارى على هذا النحو بالنسبة إلى إبراهيم شاهدا ساعده فى الوصف والتفسير.

فى نطاق آخر يلبى الاحتياج ذاته وهو تحسين مصير الأمة وتطهير وإصلاح دولتها نجد مقالا بعنوان: "المصريون وحكومتهم"[٥] فيه يلمس إبراهيم عن قرب فى هذا المقال الأخير فحص إبراهيم عن قرب الصلات بين المصريين ورجال الحكومة المصرية. كان إبراهيم فيما سبق قد قسم الحكومات إلى نوعين: "حكومة تربيها الأمة"[٦] "وحكومة تربى الأمة"[٧] وينتمى إلى النوع الأول الحكومة النيابية[٨]؛ أما النوع الثانى فتمثله الحكومة القائمة[٩]. وفى حين يعد النوع الأول متحضرا فإن الثانى يوصم بعدم التحضر. بقى إبراهيم إذن ملتزما بمبادئه ولم يتوان عن المناداة بدولة دستورية ذات مجلس نيابى وممثلين للأمة. وقد أشار فى هذا

---

(١) "هذا سر تغلب الإنكليز على الممالك الشرقية بالرأى لا بالقوة" مقال (مصر وحدها) "كيف يتداخل المحتلون" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ١٩ الصفحة الأولى العمود الثالث.

(٢) مقال (مصر وحدها) "كيف يتداخل المحتلون" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ١٩ الصفحة الأولى العمود الثالث.

(٣) مقال (مصر وحدها) "كيف يتداخل المحتلون" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ١٩ الصفحة الأولى العمود الرابع.

(٤) مقال (مصر وحدها) "كيف يتداخل المحتلون" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ١٩ الصفحة الثانية المجموعة الرابعة.

(٥) مقال (المصريون وحكومتهم) مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد السابع الصفحتان ١-٢ المجموعتان ٤-٥ والمجموعتان ١-٣.

(٦) مقال: "المصريون وحكومتهم"، مصباح الشرق، ١٨٩٨ العدد السابع الصفحة الأولى، المجموعة الرابعة.

(٧) "الحكومة التى تقوم بتربية الأمة" مقال: "المصريون وحكومتهم" ١٨٩٨ العدد السابع الصفحة الأولى المجموعة الرابعة.

(٨) "حكومة نيابة الأمة" مقال: "المصريون وحكومتهم" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد السابع الصفحة الأولى المجموعة الرابعة.

(٩) "حكومة قائمة على رأس أمة" مقال: "المصريون وحكومتهم" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد السابع الصفحة الأولى، المجموعة الرابعة.

الصدد إلى أن الحكومة والأمة كلتيهما مسئولتان عن مصير الدولة، وأضاف إبراهيم شارحا أن اختلالا فى النظام السياسى، وضياع القيم والفجور والتردد فى اتخاذ خطوات عملية، وانعدام التكاتف هى كلها نتائج لانعدام المسئولية لدى الحكومة المصرية التى كانت دائمة الإخلال بواجباتها.

أبرز إبراهيم أن ذلك كله لا يعنى إعفاء الأمة من مسئوليتها؛ وإنما يعنى وجوب قياس درجة مساهمة كل طرف فى الأمر. توجه إبراهيم بعد ذلك الحديث إلى قارئه قائلا: "ولكنك شاهد معى أن الأمة لديها حجة قوية جعلتها تبقى فى هذه الحالة من عدم الحراك والنعاس. واقع الأمر أنه طالما لم تمد لها الحكومة يدها لتحذرها وتوقظها لن يحدث شيء. تابع إبراهيم حديثه متسائلا:

"وكيف تطلب من جملة الأمة المصرية رفع شأنها بيدها وارتقائها طباق المدنية بنفسها من غير أن تأخذ الحكومة بساعدها، وقد علمت أنها لبثت الدهور الطوال فى رق الحكومات المختلفة وأسرها تتصرف بها كيفما أرادت وحسبما شاءت، فأصبحت إرادة الأمة معطلة لا تعرف للخير مدخلا ولا للشر بابا ولا تعرف أن للنفس إرادة ذاتية تبعثها على الفعل سوى إرادة الحكومة؛ وهى إلى اليوم لم تفرغ بعد من التثاؤب والتمعلى عقب ذلك النوم الطويل فإن لم يأتها منهض ومعين من ذلك الجانب جانب الحكومة الذى تعودته مصدر إرادتها وحركتها عادت إلى مرقدها وانكمشت[(١)]. "سبات عميق" و"عزيمة خائرة" و"تقوقع على الذات" و"حكومة فاسدة" و"أمة خاضعة".

كانت هذه هى المصطلحات التى استخدمها إبراهيم لوصف الوضع فى مصر آملا أن يفيق المصريون وحكومتهم ويدركون جسامة الأمر. وصولا لهذا الغرض يرى إبراهيم أنه ينبغى أن يأتى مرشد يفيقهم من سباتهم ويقيمهم على إقدامهم... يلزمهم "منهض"[(٢)].

---

(١) مقال: "المصريون وحكومتهم" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد السابع الصفحة الثانية المجموعة الأولى الفقرة الأولى.

(٢) يبنى مصطلح منهض على أساس الجذر (ن هـ ض) وهو فعل ثلاثى (ينهض نهض) بمعنى (القيام أو الانتصاب وقوفا أو الانطلاق). وهذا يشرح كلمة نهضة التى تعنى القوة وطاقة التقدم والإفاقة والانطلاق والتجديد والتقويم. تمت صياغة منهض على وزن "مفعل" وهو المحفز لأداء فعل الوقوف أو القيام. والحق أنه ما لم نكن قد أخطأنا فإن هذا المصطلح لا وجود له فى أى قاموس حديث أو قديم. والحق أن إبراهيم وصحافة القرن التاسع عشر فقط وحدهما من استخدم هذا المصطلح.

٤- الوحدة بين الشهادة والخلافة والوطنية

قدم إبراهيم عدة اقتراحات للخروج من هذا الطريق المسدود منها "الوحدة" التي شكلت واحدا من الموضوعات المشتركة بين النهضويين؛ التي تحظى بإجماع الأغلبية. غير أنه رغم هذا الإجماع كان البعض يدعو إلى "جامعة إسلامية"، والبعض الآخر إلى "جامعة شرقية" إلى جانب بعض ثالث دعا بعد ذلك في القرن العشرين إلى "الجامعة العربية"؛ ولكن أيا ما كان الميل إلى "جامعة إسلامية"، أو جامعة عربية فإن موضوع وإشكالية الوحدة بقيا أساسيين أثناء فترة النهضة. وقد أولى إبراهيم هذا الأمر اهتماما منذ الإعداد الأولى "لمصباح الشرق" وشاهد ذلك مقال "الاتحاد الإسلامي"[١]، الذى أفاض من عنوانه وحتى نهايته في تباين ذلك شارحا الصلة الجامعة بين الوطنين الفرنسي والإنجليزي. هذه الصلة طبقا لما يراه إبراهيم كان يجاوز الوطن فرنسا أو الوطن بريطانيا العظمى بل مفهوم الوطن أساسا وهذا يعني ضمنيا الصلة الدينية، صلة المسيحية[٢]. من هنا فإن إبراهيم يرى أنه إذا تم الاعتداء على فرنسي أو إنجليزي في المشرق أو المغرب فإن كل الأمة باسم هذه الحرية الغامضة تسارع مدفوعة[٣]؛ بهذا الشعور إلى الدفاع عن الوطن[٤].

(١) مقال: "الاتحاد الإسلامي" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد الرابع الصفحة الأولى.

(٢) لنذكر هنا بالحروب الصليبية. فيما يتعلق بمعنى المصطلحين "الأمة" و"الوطن" راجع الهامش التالي. الفصلان الثاني والثالث والملحق السادس: معجم مصطلحات الصحافة العربية في القرن التاسع عشر.

(٣) الوطن مصطلح يشير في الأساس إلى البلد الأم. ألا أنه إبان القرن التاسع عشر كان يحمل أيضا معنى الأمة. في كل الأحوال يمكن القول: إنه قبل ظهور مصطلح nationalisme بمعنى القومية في القرن العشرين كان العرب يستخدمون مصطلح الوطنية. ومع ذلك فلا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن مفهوم القومية لم يكن في القرن التاسع عشر ذا ملامح وحدود واضحة، كما يشهد إبراهيم نفسه الذى يصف وحدة الصف الناتجة عنها كمحصلة لهذا الترابط الغريب الناشئ عن الوجود في "الوطن".
للمزيد حول هذا المصطلح راجع الفصلين الثاني والثالث، والملحق السادس "معجم لغة الصحافة العربية في القرن التاسع عشر". وللمعلومات الإضافية حول القومية العربية والقومية بشكل عام راجع:
Anderson ،2002 ،P 213
Carre ،2004 ،P 123
Khalaf Allah، 1959، P.89 -92
Hobsbawm، 1990 ،P 371.

(٤) وهذه الأمة الفرنساوية والأمة الإنكليزية قد بلغتا بقوة كلمة الوطن من العز والمتعة ما لم يبلغه أحد وقد صار الواحد من الأمتين بقوة هذا الاتحاد بعدد أمته، فلو أهين فرنساوي أو إنكليزي في أعلى جبال المشرق أوأعماق تخوم المغرب لأحس أفراد أمته جميعهم أنهم أهينوا ولطاروا بالجيوش والأساطيل إلى الانتقام له وإزالة ما غشى اسم الوطن من تلك الإهانة؛ فالإنكليزي الواحد والفرنساوي الواحد بيد نفسه أربعين كعدد أمته، وهذا كله بسر الاتحاد المكنون في كلمة الوطن. مقال: "الاتحاد الإسلامي" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ٤ الصفحة ١ العمود ٢.

أما بالنسبة إلى المسلمين فقد قال:

"أما المسلمون فلا وطن خاص لهم يرتبطون باسمه ويقاتلون عليه؛ لأن الأرض كلها وطن لهم.... ولقد فتح المسلمون بقوة هذا الاتحاد فى ثلاثين سنة أكثر مما فتح الرومانيون بقوة الوطنية فى ثلاثمائة سنة ولا ريب أن ما ربطه رب العالمين بالقرآن بين أجناس البشر أقوى مما ربطه البشر بينهم بقوة الوطنية"(١).

يوضح لنا هذا القول مفاهيم هذه المصطلحات لدى إبراهيم. فكلمة "وطن" تجمع فيما يرى عنده بين البلد الأم والأمة، أما مصطلح "الوطنية"؛ فمعناه يشمل أيضا القومية. ويبدو لنا الكاتب أن كان ممن انضموا إلى الجامعة الإسلامية داعيا إلى (الاتحاد الإسلامي)، فقد دعا إلى الوحدة بشكل متسق وثابت وذلك منذ ثالث جريدة أصدرها "الاتحاد"(٢) فى باريس عامى ١٨٨٠ و١٨٨٤. ومفهومه دينى بالدرجة الأولى فالأرض كلها على رحابتها وطنه، وكل مسلمى العالم أيا ما كانت أجناسهم إخوة له ومواطنون مثله. أما معنى القومية الأوروبية فقد تناوله إبراهيم على قدر استيعابه لها ومفهومه لها كما يسوقه لنا غير واضح المعالم الصلة التى وضعها الله للربط بين البشر على تلك التى أوجدها البشر بين بعضهم البعض. فى إيضاحاته المطولة ومحاجاته استند إبراهيم إلى القرآن والسنة لإثبات ما يفنده، ومن هنا فقد استخدم كأحد الأساليب الرئيسة فى خطابه التناص مع القرآن والسنة. وقد اختار أن يكون هذا الخطاب فى صورة مسلسلة؛ أى باستمرارية مقصودة. فقد كان ينهى دوما خطابه بعبارة "البقية تأتي"(٣).

---

(١) مقال: "الاتحاد الإسلامي" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد الرابع الصفحة الأولى العمودان الثانى والثالث.

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذه الجريدة راجع الفصلين الثالث والخامس والمجلد الثانى مادة البحث ٢ الفقرة (d).

(٣) مقال: "البقية تأتي" مصباح الشرق، ١٨٩٨ العدد الرابع الصفحة الأولى العمود الرابع.

في العدد الخامس والتسعين تحت عنوان: "الوطن فى الإسلام"(١). فى هذا المقال استمر إبراهيم فى مناقشة معنى هذين المفهومين الغربيين الذين قارنهما بما يقابلهما فى الإسلام. أخذ المقال صورة خطاب لعالم مسلم كبير. وكأنما باختياره نقله دون معارضة فحواه كان إبراهيم يشاطره الرأى، هذا بالإضافة إلى أن هذا المقال قد نشر فى الصفحة الأولى وكان يتناول مجالا أساسيًا فى المقال الافتتاحى لمصباح الشرق وهو السياسة. يبدأ الخطاب بالعود القهقرى إلى زمان اليونانيين والروم والذى كانت فيه "كلمة وطن لا تعنى المكان؛ وإنما توسعاته. من هنا فإن ما يطلقون عليه الوطن كان يعنى وحدة الأمة حول مبدأ واحد لا يتغير يرتكز على المساواة والإخاء، وهو أن يحب المرء لغيره ما يحبه لنفسه" على هذه الأسس بنيت الأمتان اليونانية والرومانية وازدهرتا. من هذا المبدأ ومن هذا التعريف يرى إبراهيم أن الغربيين قد استوحوا الكثير.

أما عند المسلمين فالوطن هو مجموع الأمة الإسلامية أيا ما كانت بقاع الأرض التى تضمهم. من هنا فإن الوطن بالنسبة إلى المسلم لا يعنى ما ذهب الغربيون إلى قوله فيه فهو ليس بمحل الإقامة. من هنا فقد كان هذا المبدأ وبلا جدال ضربا من الدعاية الغربية التى تهدف إلى تقسيم الأمة وإزاحتها من الوجود. وقد أكد إبراهيم من هذا المنطلق أنه من واجب كل مسلم فى أى بقعة من بقاع الأرض النظر إلى الدين والأمة الإسلامية فى مجموعهما وطنه وأسرته، مما يعنى أن الوطن والوطنية يتوجب حصرهما حول الخلافة الإسلامية ومقرها(٢). كان ما

---

(١) مقال: "الوطن فى الإسلام" مصباح الشرق ١٩٠٠ العدد ٩٥ ص١-٢.

(٢) "عند الأمم المتمدنة القديمة كالأمة اليونانية والأمة الرومانية"، ما يسمونه بالوطن، والوطن فى تعريفه الصحيح عندهم ليس المكان الذى نبت فيه الإنسان؛ بل هو عبارة عن التوسع فى هذا الميل ونقله فى كل فرد من أفراد الأمة، حتى يرى كل واحد من الأمة أن مجموعها أهله ووطنه، والوطن بهذا الاعتبار هو اجتماع الأمة على رأى واحد ومنفعة واحدة واحتياجات واحدة وحقوق واحدة وغرض واحد، وأساس ذلك كله المساواة والإخاء وأن يحب المرء لغيره ما يحبه لنفسه، على ذلك قامت دولهم وعظم شأنهم، ثم أخذ ذلك عنهم الأمم الغربية على ما تراه فيهم الآن؛ فالوطن عند المسلمين هو عبارة عن مجموعة الأمة الإسلامية فى جميع بقاع الأرض أن يعتبر الدين الإسلامى مجموعة وطنه والأمة الإسلامية بأفرادها أهله وإخوته، وأن يحصر ذلك فى مقر الخلافة الإسلامية".
مقال: "الوطن فى الإسلام" ١٩٠٠ العدد ٩٥ الصفحة ١ الأعمدة ١-٤.

يعنى إبراهيم إذن من خلال هذا المقال المروى قلب الوضع وجعل هذين المفهومين الأساسيين أركانا لا للدعاية الغربية ولكن لوحدة المسلمين.

كان إبراهيم يرى هذا الاتحاد الإسلامى وجوبيا حول سلطة سياسية شرعية فى سلطة الخلافة الإسلامية.

فى إطار هذه المقالات المتتابعة التى تحمل عنوان "الاتحاد الإسلامي"[١]؛ التى قارن فيها إبراهيم رؤساء دول العالم الإسلامى بنظرائهم فى أوروبا خاصة فى تناوله للمناسبات والاحتفالات الجامعة لأعضاء كل أمة، واصل كاتبنا تحليله. خاص هذا الجزء الثانى من موضوع الاتحاد الإسلامى إلى صياغة تعريف أكثر دقة للصلة الجامعة لكل المسلمين عبر العالم. أكد إبراهيم أنه يجمع المسلمين "كلمة واحدة؛ وهى الشهادة[٢]، وتربطهم رابطة واحدة هى رابطة الخلافة[٣]، وأنه هنا تحديدا تكمن قوتهم.

تساءل إبراهيم بعد ذلك "لم لا يتنبه المسلمون لأمر جامع ينفعهم فى دنياهم وأخراهم"[٤]، ولفت أنظارهم إلى أن "المجد القديم إن لم يحفظه مجد حديث انعكس به الافتخار إلى شنيع العار"[٥]، وأنهى مقاله بقوله: "ولنا عودة إلى هذا الموضوع فى عدد آخر"[٦]؛ غير أنه لم يوجد مقال تال يحمل العنوان ذاته. لم يمنعه هذا من معاودة الكتابة فى هذا الموضوع ولكن تحت عنوان جديد هو "بقاء الممالك وفنائها"[٧].

أثبت إبراهيم فى هذا المقال أن الممالك التى تبقى طويلا هى التى تلتف حكوماتها حول السلطة المركزية، وأن ما يخالف ذلك من فرقة وتبعثر يؤدى إلى تداعى هذه الممالك واختفائها من الوجود. والمقال الجلى الغربى الذى يسوقه إبراهيم هنا هو الروم، أما فى الجانب العربى والإسلامى فقد ذكر العباسيين فى المقدمة وأتبعهم فى المرتبة الثانية بالعثمانيين.

---

(١) مقال الاتحاد الإسلامي" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ٥ ص١.
(٢) وهى تعنى شهادة المسلم أن الله واحد وأن محمدا رسوله. هذه الشهادة هى ركن من أركان الإسلام الخمسة.
(٣) مقال: "الاتحاد الإسلامي" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ٥ ص١ العمود ٢.
(٤) مقال: "الاتحاد الإسلامي" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ٥ ص١ العمود ٢.
(٥) مقال: "الاتحاد الإسلامي" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ٥ ص١ العمود ٣.
(٦) مقال: "الاتحاد الإسلامي" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ٥ ص١ العمود ٣.
(٧) مقال: "بقاء الممالك وفنائها" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد ٧ ص١.

خلاصة القول وفقا لما جاء به إبراهيم: إنه وجد بى على المملكة الإسلامية التزود بركيزتين أساسيتين وحيويتين: الرابطة الإسلامية ومجلس الشورى. فهذه العناصر فى نظره هى الوحيدة القادرة على ضمان وجود قاعدة صلبة لحفظ المملكة الإسلامية وإدامتها. وتمثل هذه الروابط بالنسبة إليه أسمنت الوحدة و"أمنع الحصون وأحصن المعاقل"[١]. عاود إبراهيم تناول هذه التيمة بعد ذلك بفترة طويلة فى العدد التاسع والثلاثين من "مصباح الشرق" فى مقال بعنوان: "فوائد الاتحاد"[٢] لاحظ فيه أن:

"كل يوم تبدى لنا صروف الحوادث نوعا من فوائد الاتحاد والاتفاق بين الغربيين فنقرأه فى الجرائد بأعيننا ونسمعه بأذاننا فنستحسنه قولا ولا نقلده فعلا، فكم اتفق الغربيون على تأليف الشركات وتأسيس المشروعات فنجحوا باتحادهم.. أما نحن فمثلنا مثل أصحاب الفيل[٣].. "نتفق فى القول ونختلف فى الفعل"[٤].

كانت الصحافة إذن سمع الأمة وبصرها وقبلها لم تكن هذه الأمة تتعلم من التجارب والخبرات الإيجابية الخاصة بهؤلاء الغربيين؛ وهى التى تفيض إعجابا بهم. من هنا كان الغربيون يتقدمون بفضل وفاقات ودية، أما الشرقيون فكانوا على قول إبراهيم على شاكلة "أصحاب الفيل". بالرجوع إلى الحكاية القرآنية التى تروى ما كان من القوم الذين أتوا من اليمن إلى الحجاز لتدمير الكعبة وإحلال معبد آخر محلها. يقال: إن فيلا أو أكثر طبقا للروايات المتباينة كان فى طليعة هذه المجموعات التى ما لبثت أن لقت هزيمة منكرة. رفض الفيل التقدم تجاه الكعبة وأرسل الله فى التوقيت ذاته أسرابا من الطيور تقذف جموع أبرهة (قائدها) بالحجارة حتى أفنتهم عن آخرهم.

---

(١) مقال: "بقاء الممالك وفنائها" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ٧ ص١ العمود ١.
(٢) مقال: "فوائد الاتحاد" "مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٣٩ ص٣.
(٣) لمزيد من المعلومات عن أصحاب الفيل وقصتهم التى رواها القرآن ذاكرا أنها توافق عام مولد النبى محمد ﷺ راجع ماسون Masson 1967 الجزء الثانى السورة ١٠٥ "الفيل" ص٧٦٨.
(٤) مقال: "فوائد الاتحاد" "مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٣٩ ص٣ العمودان ٤-٥.

استخدم إبراهيم فى خطابه أحد الأساليب المحببة إليه وهو التناص فشبه الشرقيين بأصحاب الفيل، وهذا ما يعنى توقعه لاختفائهم من الوجود إذا ما بقوا على حالهم من الاستكانة والخمول. تمثل الحل الوحيد بالنسبة إليه لمواجهة هذا الخطر الوشيك في الوحدة.

فى العدد السابع والستين استشعر إبراهيم الحاجة إلى توضيح هدف الجامعة الإسلامية. كانت هذه الجمعية فى عرفه السبيل الوحيد لتحقيق الوحدة واكتساب قوى للدفاع عن نفسها.

من ناحية أخرى لم يكن هناك ما يخشى جانبه من هذه الوحدة الإسلامية من ناحية غير المسلمين[١]. فى فترة لاحقة وتحديدا فى مقال له بعنوان: "الجمعيات فى مصر"[٢]، نشر فى العدد ٩٣ من مصباح الشرق أبدى إبراهيم آسفا ملاحظة بشأن المصريين الذين تبوء كل محاولة من جانبهم لتأسيس جمعية بالفشل، فما إن يتلاقوا حتى يشجر بينهم النزاع. تساءل الكاتب بعد ذلك عما إذا كان هذا مرجعه وسرعان ما أبعد هذه الفرضية عن ذهنه لإدراكه أن هذا الأمر لا ينطبق إلا على المسلمين منهم وليس على المصريين الذين يعتنقون ديانات أخرى ويعيشون فى الأجواء ذاتها. وسرعان ما أردف أن الإسلام من كل ذلك براء بل إنه على العكس ينادى بالوحدة[٣]؛ وخلص إلى أن المشكلة قائمة.

---

(١) "وأما تخوف غير المسلمين من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية فهو أمر موهوم لا يقول به الأمن لم يكن له وقوف تام على أخلاق المسلمين وحسن معاشرتهم لمواطنيهم؛ لأن دعوة المسلم إلى الجامعة الإسلامية لا تزيده علما بدينه عما هو عليه قبلها ولكنها تكسبه اتحادا وارتباطا وقوة فى الدفاع عن نفسه".
"مصباح الشرق" ١٨٩٩ مقال التعليم القويم" العدد ٦٧ ص٢ العمود ١.

(٢) مقال: "الجمعيات فى مصر" مصباح الشرق، ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص٣.

(٣) "هل تعلم أيها القارئ ناشدتك الله ما السبب الذى ابتليت به مصر من فشل الجمعيات وانحلالها عقب انعقادها فإننا تحرينا فى إدراكه ولم نهتد إلى كشفه وإظهاره.. ولو كان داء هذا التفرق عاما بين سكان أهل مصر لقلنا: إنه من طبيعة الإقليم والجو، ولكننا نرى الأمر على المسلمين منهم ونرى بقية الطوائف بينهم يقيمون الجمعيات ويعقدون الشركات فتنتظم وتتسع وتنمو وتدوم لا يتطرق إليها أنماط ولا يعتورها انحلال ولا يقع بين أعضائها فشل، ثم ترى المسلمين ينظرون إليهم ويغبطونهم ولا يستطيعون أن يعملوا عملهم. أيسرهم أن يقوم عنهم الباحث فى أمرهم من غير دينهم أن عدم ائتلافهم واتحادهم ناشئ من أصل دينهم "وحاشى لدين الإسلام أن ينسب إليه ذلك فإنه أكثر الأديان حثا على الاجتماع وندبا إلى الاتحاد".
مقال: "الجمعيات فى مصر" مصباح الشرق ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص٣ الأعمدة ٣-٥.

٥- ما الحضارة؟ أن تمدن الآخر أم تسيطر عليه؟

استطرد إبراهيم فى تناوله للمشكلة آملا فى إيجاد حل لها لقناعته بأن أحد السبل الفعالة لإتمام ذلك هو تقديم شرح مفصل مدعم بالحجج لحقيقة العالم إلى الشرقيين. رأينا عاليه أن إبراهيم لجأ إلى عقد مقارنة بين الشرق والغرب. وقد اكتشف لدى الشرقيين تأخر وعدم مبالاة ملحوظين يقابلهما لدى الغربيين تنظيم وفعل لا يتطرق إليهما الشك.. من هنا فقد دعا الشرقيون إلى تقليدهم فى حدود ما يتوافق ويفيد الشرق. ما كان يضبب المشهد هى علاقات القوى بين الطرفين؛ التى تتمحور حول الإمبريالية والاستعمار. كان هذان العنصران يحولان دون الوصول إلى اقتباس متعقل ورشيد.

كانت الإمبراطورية العثمانية الممثل الأعلى للأقاليم الإسلامية والشرقية المعنية تتعثر فى خطواتها وتفقد توازنها.

يلزم إذن بصفة عاجلة كما يرى إبراهيم أن يتماسك العالم العربى والإسلامى خشية أن يختفي. فى هذا السياق الشامل والعاجل والمنذر لم يتوانَ إبراهيم عن الإشارة إلى مآخذ الغرب ومساوئهم، ومضى فى ملاحظته ومراقبته وهو يبحث عن كيفية تربية الأمة وتعليمهم.

من هذا المنطلق قام إبراهيم فى مقاله "مدنية قرن"[١] بنوع من الفحص والتفقد وحصر مكتسبات هذه الحضارة الغربية الجديدة. بدأ بإبراز فكرة أن كبار الباحثين الأوروبيين كانوا يعتقدون بالفعل أن هذه الحضارة القائمة[٢] سترقى إلى قمم لم يسبقها إليها أحد قبلها إلى درجة أن بلادهم[٣] ستصبح "جنة الله على الأرض"[٤] تحلو فيها الحياة. هؤلاء الباحثون طبقا لأقوال إبراهيم انطلقوا بأقلامهم فى هذا الاتجاه وسرعان ما اعتقدوا أن هذا الأمر سيستحيل واقعا. غير أن الزمن والقدر[٥]

---

(١) مقال: "مدنية قرن" مصباح الشرق، ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١.

(٢) مقال: "هذه المدنية الحاضرة" مصباح الشرق، مقال: "مدنية قرن"، ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ١.

(٣) "بلادهم" مصباح الشرق مقال: "مدنية قرن" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ١.

(٤) "جنة الدنيا" مصباح الشرق مقال: "مدنية قرن" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ١.

(٥) "الدهر" مصباح الشرق مقال: "مدنية قرن" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ١.

قررا شيئا مختلفا وأبرزا لهم مآخذ نسقهم ومنها "تفقات الحرب"[١]، التى تعد أهمها بما أن هذا "التقدم فى المدنية"[٢] بدلا من أن يقصيهم بعيدا عن علاقات القوى سارع بخطواتهم إليها. والمحصلة من كل ذلك أنهم اضطروا إلى الاعتقاد والاستناد إلى هذه السلطة تحديدا سلطة علاقات القوى[٣].

أما من وجهة النظر الدولية فإن سياساتهم لكونها مرتكزة على الأطماع[٤]. لم يستبعد إبراهيم أن يصبح الغربيون يوما هدفا لحرب مدمرة غاشمة[٥] قد أبرز إبراهيم من ناحية الوضع الداخلى لهذه البلاد الفقر ونقص المال حتى لدى حائزى الثروات من فرط الزيادات المطردة للاحتياجات والضرائب[٦].

حتى الحرية المطلقة[٧] كانت تضر بهم لدرجة قسمتهم إلى طبقات اجتماعية[٨]، وأحزاب سياسية. كان انسياقهم وانهماكهم فى الشهوات الشخصية[٩] وبحثهم الدءوب، عن سبل التسلية والترفيه[١٠] قد أوصلاهم إلى حد لا يؤمن معه بقاءهم[١١] كان إبراهيم يأسف لخضوع العالم للسلاح؛ ولكنه لم يكن فى مقدوره إنكاره. من هنا فقد دعا إلى تسليح المسلمين. بات واضحا فى ذهنه أن أمان المسلمين وحماية دولتهم كانا رهن التسلح وليس انتشار العلوم الأوروبية أو الصحافة

---

(١) "نفقات الحرب" مصباح الشرق مقال: "مدنية قرن" ١٩٠٠ العدد ٩٠ ص١.
(٢) "التقدم فى المدنية" مصباح الشرق مقال: "مدنية قرن" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ١.
(٣) "الاعتماد على سلطة القوة" مصباح الشرق مقال: "مدنية قرن" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ١.
(٤) "الأطماع" مصباح الشرق مقال: "مدنية قرن" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ٢.
(٥) "لم يأمن على تلك الدول من وقوعها فى الحرب والدمار" مصباح الشرق ١٩٠٠ مقال: "مدنية قرن" العدد ٩٣ ص١ العمود ٢.
(٦) "الاحتياجات والضرائب" مصباح الشرق مقال: "مدنية قرن" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ٢.
(٧) "الحرية المطلقة" مقال: "مدنية قرن" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٣ الصفحة ١ العمود ٢.
(٨) "الطبقات" مقال: "مدنية قرن" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ٢.
(٩) "الانهماك فى الشهوات والملاذ" مقال: "مدنية قرن" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ٢.
(١٠) "وانكبابهم على أسباب الترفه والتنعم" مقال: "مدنية قرن" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ٢.
(١١) "لم يأمن عليهم من الانقراض" مقال: "مدنية قرن" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ٢.

الحرة واقتناء آثار الغربيين فى مدينتهم"[١]. تابع إبراهيم الأمر وتوجه بحديثه إلى جموع قرائه، وذكرهم أن الغربيين قد سبقوهم وأن فشلهم قد ساهم فى تفوق وعلو شأن الغرب عليهم فى عقر دارهم"[٢]. وأردف قائلا:

"وتقليدنا له يمكنه من الانسياب فى أرضنا والاستبداد بموارد الثروة عندنا كما هو مشاهد الآن، فتكون مجارتنا له فى المدنية أحبولة يسلب منها المال وأسباب القوة، ويتركنا منغمسين فى مضار المدنية وأسباب ضعفها فتصير حالتنا إذ ذاك أعظم ضررا مما نحن عليه الآن. ومن عجائب أحكام الدهر أن يبقى رجالنا غافلين ذاهلين عن هذه النتائج مغرورين مفتونين بأضاليل المدنية الغربية مع قربها ودنوها منا وتهتدى إلى صواب الرأى فيها امرأة فى الصين. فقد أصدرت وصية الإمبراطور أمرا عاليا بالامتناع عن هذه المدنية الغربية بمعارفها وعلومها ومحاكمة من يعمل بها ويسير عليها ويتلقى تعاليمها وأن يرجع الناس كافة إلى التمسك بوصايا كونفشيوس[٣] وأحكامه ورأت أن ذلك هو الحاجز المنيع الذى تصد به سبيل التداخل الأجنبى فى بلادها"[٤].

كان التقليد غير الرشيد إذن هو الداء الواجب القضاء عليه، وهو فى رأى إبراهيم الفخ الذى مكن الغربيين من الوصول إلى غاياتهم الإمبريالية والذى باعد

---

(١) "سلامة المسلمين وحفظ دولتهم الآن فى قوة السلاح لا فى انتشار المعارف الغربية وحرية الجرائد واقتناء آثار الغربيين فى مدنيتهم مقال: "مدنية قرن" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ٣.

(٢) قلنا لك أن سبق الغربيين للشرقيين فى هذه الأبواب والسبل وتقصيرنا الآن عن بلوغ درجتهم مما يجعل للغربى الدرجة السابقة علينا فى بلادنا فيخلفنا دائما وراءه فى تقدمه مقال: "مدنية قرن" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ٤.

(٣) فيلسوف صينى (٥٥١ – ٤٧٩ قبل الميلاد) تحول فكره إلى فلسفة جديدة يطلق عليها الكونفوشيوسية. كما أنه كان مصدرا لأول القوانين الخاصة بالغيرية "لا تفعل فى الآخرين ما لا تحب أن يفعل بك".
لمزيد من المعلومات راجع cai ٢٠٠٦ ص١٥٤.

(٤) مقال: "مدنية قرن" مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ٤.

الشقة بين الشرقيين والغربيين وأوجد بينهما علاقة سائد ومسود. كان إبراهيم وقد تملكه الغضب يلوم على الساسة المصريين إهمالهم وعدم اكتراثهم وضياعهم أمام هذا الغرب وجعله ذلك يحاول لفت أنظارهم وكذلك أنظار قرائه (الأمة) بسوق الأمثلة. ذكر لهم مثال المرأة الصينية التى لم تكن بصيرتها بالنسبة إلى إبراهيم قابلة للمناقشة، هذه المرأة هى الإمبراطورية تسوهي[١]، التى وقفت عام ١٩٠٠ أمام الأطماع الغربية. سأل إبراهيم نفسه كيف أمكن للمسلمين بعد كل ذلك أن يكونوا منجذبين إلى هذه الحضارة الغربية. كان الوقت بالنسبة إليه قد حان لكى يعودوا هم أيضا إلى أصولهم الدينية والتقليدية. أكد إبراهيم فى نهاية حديثه على فكرة: "إن فى ذلك لعبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين"[٢] كانت هذه هى الرسالة الأخيرة من إبراهيم للقراء والساسة قبل أن يضعهم وجها لوجه أمام مسئولياتهم واختياراتهم.

غير أنه سرعان ما عاد إلى الاضطلاع بالمهمة ذاتها فى العدد الثامن والتسعين؛ أى بعد نحو خمسة أعداد فى مقال يلخص عنوانه رسالة إبراهيم: "فظائع الحضارة"[٣].

عرض الكاتب فى سطوره للداء والخطر الداهم الذى تمثله النقود[٤] خاصة داخل حضارة هى من بين كل الحضارات أكثرها تعرضا له وانزلاقا فى الهوة بسببه[٥].

---

(١) قد نجد هذا الاسم مكتوبا بطريقتين مختلفتين: تسو-هيز وتزو-هي هذه الإمبراطورة؛ إذ نظر البعض إليها باعتبارها ديكتاتورة، والبعض الآخر اعتبرها ثورية راجع فيما يخصها وخصوص الملاكمين Bourgerie et Lesouef 1998 ص٢٣١.

(٢) "إن فى ذلك لعبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين" مقال: "مدنية قرن" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٣ ص١ العمود ٤.

(٣) مقال: "فظائع الحضارة" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٨ ص١-٢.

(٤) "حب المال.. هذا الداء" مقال: "فظائع الحضارة" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٨ ص١ العمود ١.

(٥) "لا يعرف فى عصر من العصور أن هذا الداء بلغ من الحدة والشدة والانتشار والتعميم ما بلغه فى هذا العصر عصر الحضارة الغربية". مقال: "فظائع الحضارة" مصباح الشرق ١٩٠٠ العدد ٩٨ ص١ العمود ١.

ساق إبراهيم حوادث على سبيل المثال منها: قتل رجل لأخيه وخيانات زوجية؛ بسبب المال، وأعمال نشل، أو سرقات مدبرة ومنظمة بالإضافة إلى اللصوصية وقطع الطرق. وعوض فى المقابل بساطة الحياة البدوية (الريفية) فى الشرق حيث لا يملك الفلاح إلا القليل ويكتفى بالضروريات. والغريب أن ذلك لا يحول دون إحساسه بالسعادة والأمان فى حين أن ساكن الحضر الأوروبي[١] لا يستشعر ذلك بالضرورة أو لا يشعر به إلا نادرا.

ويفسر إبراهيم ذلك فى نهاية الأمر أنه لكل هذه الأسباب مجتمعة ما زال يردد لنفسه أن الفرصة سانحة. وذهب إلى حد القول: إن حكومة فاس الخاضعة للسلطة المطلقة ربما كانت أروع على النفس من الحكومة الجمهورية بالنسبة إلى النواب الباريسيين. وأن الحكومة المستبدة فى كابول ربما كانت أكثر بساطة من حكومة الحرية والنظام[٢] ختم إبراهيم مقاله داعيا القارئ إلى التأمل والتفكير فيما يحاول جاهدا عرضه عليه. وطلب منه الاحتكام إلى عقله وإدراك الفارق بين الأوضاع الشرقية والغربية مع ترك الجانب الجذاب فى هذه الحضارة جانبا[٣].

بهذا النسق الناقد للغرب وأنماط معيشته وعاداته أكمل إبراهيم تحليله المقارن للمجتمعات الشرقية والغربية ومضى يتأمل كيف تتقاسم هذه الحضارة الغربية وتنقل ما اكتسبته من الناحية الحضارية.. هذه الحضارة التى كانت تدعى تحضرها وخدمتها للإنسانية وتزعم أنها جد راغبة فى نقل معارفها وعلومها حتى ترى هذه المكونات المتباينة تنتشر وتصل إلى تكوين حضارة.

---

(١) عاد إبراهيم لتناول هذا الحدث فى مقالات أخرى فى "مصباح الشرق" وأقر بعدم انتسابه للغربيين وإن كان قد أكد تفاقمه فى الغرب منذ أن زاد استهلاك المستحدثات التى لا تتسم لا بالفائدة ولا بالإلحاح والضرورة.

(٢) "والله يعلم أن المراكشى فى حكومة فاس تحت سلطة الحكم المطلق ربما كان أروح بالا، وأخف آلاما، وأرشح صدرا، وأهدأ نفسا من النائب الباريسى مشاركا فى حكومة الجمهورية، وأن الأفغانى فى إمارات كابل تحت حكومة الاستبداد أهنأ عيشا، وأصفى حياة، وأطيب مقاما، وأرضى حالا من اللورد يملك شوارع من لوندرة فى حكومة الحرية والنظام".

(٣) "انظر ما نبسطه لك وتأمل ما نقول واحكم نفسك فى الفرق بين الحالتين ودعنى من اغترار المغترين.

مقال: "فظائع الحضارة" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٨ ص١ العمود ٥.

من هنا فقد وصف إبراهيم عدم تسامح الغربيين تجاه الشرقيين وعنادهم[١] الذى كانوا يحاولون إخفاءه عن أنظار الشرقيين والعالم أجمع فى حين أنه جزء لا يتجزأ منهم منذ العصور الوسطى[٢] يذكر إبراهيم فى هذا المقال بتناوله السابق للظاهرة ذاتها فى مقاله: "أفحش الظلم"[٣] المنشور فى العدد ١٢٧ وتوضيحه الجلى لوجوب إلغاء المزايا التى يحظى بها الأجانب فى مصر ما داموا يحتلونها[٤] هذا غير أن هذه القوى الأجنبية كانت تدعى العمل لصالح مصر، وأن مجيئها ما كان إلا لتعليم المصريين الآليات الحديثة للحكم؛ بغية الوصول بهم طبقا لأقوالهم إلى الحكم الذاتى وذلك فى زمن قياسي. إلا أن ما حدث يناقض ذلك فالمزايا المشار إليها فى تنامٍ على حساب الوطنيين[٥].

الواقع أنه باسم مهمته الحضارية تجاه الإنسانية وباسم العدالة لاحظ إبراهيم أن الغرب يتفانى بالفعل؛ لجعل التقدم والحداثة يسودان ولكن فى جزء واحد من العالم هو الغرب المسيحي. أما المسلمون فيلقون المظالم ويعانون منها حتى إنهم يرون أنفسهم مضطرين لترك أراضيهم. من هنا فقد خلص إبراهيم إلى أنه إذا كان الغرب مؤيدا للعدالة لسمع نداءات الاستغاثة من الجميع مسيحيين ومسلمين.

الحقيقة أن كل ذلك فى رأيه لم يكن إلا وسيلة كغيرها من الوسائل لخدمة مصالحهم الإمبريالية باسم السلام فى العالم. من هنا فإن عبارات مثل: "خدمة الإنسانية وحب العدالة" كانت تتسبب للشرقى فى الألم ذاته الذى توجعه به عبارات "العنف والظلم".

---

(١) مقال: "أسوأ التعصب" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ١٢٨ ص١-٢.

(٢) يرتدى أرباب السياسة الغربية أمام عيون المسلمين فى الشرق بكل رداء مفوف ويترامون لهم فى كل لباس مزخرف؛ ليستروا به ذلك الثوب الأسود ثوب التعصب اللاصق بأجلادهم منذ القرون الوسطى". مقال: "أسوأ التعصب" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ١٢٨ ص١ العمود ١ الفقرات ١-٥.

(٣) مقال: "أفحش الظلم" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ١٢٧ ص١-٢.

(٤) "وجود الاحتلال وحده كاف لإلغاء تلك الامتيازات" مقال: "أفحش الظلم" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ١٢٧ ص١ العمود ٥.

(٥) "تعصب الغربيين فى التمسك إلى اليوم بامتياز الأجنبى على الوطني" مقال: "أسوأ التعصب" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ١٢٨ ص١ العمود ١.

أنهى إبراهيم مقاله بقوله: إنه إذا كانت الحداثة قد سمحت للغربيين باكتساب القوى المالية والعسكرية، إلا أنها لم تزودهم بالتربية السليمة والعادات القويمة. من هنا فقد بقوا على ما كانوا عليه من تمدين فى القرن الثالث عشر(١).

أعاد إبراهيم فتح النقاش بعد عدة أعداد فى مقال له بعنوان:" توحش التمدن"(٢). الحقيقة أنه كان هناك تقرير(٣) لسياسى فرنسى يفضح ممارسات ابتزازية وجرائم اغتصاب مورست فى الصين دفعت كاتبنا إلى معاودة تناول الموضوع؛ مثل: التقرير له فرصة للعودة بقوة إلى الأفكار المطروحة وإثبات أن أفكاره وعباراته كانت صائبة وأن بعض الغربيين يرون مثله تماما هذا الجانب السلبى للحضارة الحديثة. كما أتاح له الاطمئنان إلى كون الحقيقة رغم كل هذه الأهوال سيمكنها يوما أن تسطع ما دام هناك غربيون يقولونها دون خوف حتى لو أضرتهم.

---

(١) فقد أنحلت الدول لنفسها فى ذلك تعلة إقامتها مقام الصك والعهد وهى "خدمة الإنسانية" و"حب الإنصاف" فتحكم على المسلمين حكم الظلم، وتسلك معهم سبيل الانتقام، حتى تلجئهم إلى الخروج من ديارهم وهجرة بلادهم، ثم تستولى على مساكنهم، وتعيث فى أرضهم، فهى إذا تخدم الإنسانية لأهل مذهب من المذاهب بذاته، وتحب الإنصاف لأرباب دين من الأديان بعينه. ولو كانت هذه الدول قائمة بخدمة الإنسانية على حقيقتها وحب الإنصاف على وجهه لتساوى لديها صوت الاستغاثة صادرا عن المسلم بصوت الاستصراخ صادرا عن المسيحى ولاهتمت برفع الظلم عنهما على السواء.. من هنا يتبين لك أن دول الغرب كلمتها فحشدت جيوشها وسيرت أساطيلها لتنزع من يد الدولة العلية إحدى ولاياتها بدعوى حفظ الإنسانية وحب الإنصاف.. فأى تعصب أسوأ من هذا التعصب وأى تحزب أفظع من هذا التحيز، لقد تشوهت فى ألسنتهم تلك الألفاظ الجميلة من "خدمة الإنسانية" و"حب الإنصاف" و"نشر العدل" وصار إذا سمعها الشرقى تولاه منها الفزع كما يتولاه من هذا التحيز لقد تشوهت فى ألسنتهم تلك الألفاظ الجميلة من "خدمة الإنسانية" و"حب الإنصاف" و"نشر العدل وصار إذا سمعها الشرقى تولاه منها الفزع كما يتولاه من ذكر ألفاظ "قسوة" و"العسف" و"الظلم".. هذه المدنية إن كانت أكسبتهم قوة الغنى وقوة السلاح فإنها لم تكسبهم فضيلة التربية وتهذيب الطبائع وأنهم بأخلاقهم فى القرن العشرين لا يزالون فى القرن الثالث عشر.
مقال: "أسوأ التعصب" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ١٢٨ ص١ الأعمدة ١-٥. ص٢ العمود ١.

(٢) مقال: "توحش التمدن" "مصباح الشرق" ١٩٠١ العدد ١٣٦ ص١-٢.

(٣) نص التقرير منقول ومترجم إلى العربية.

كان النواب والصحفيون من هؤلاء الرجال وفى ذلك لإبراهيم دليل أكثر إقناعا من أى خطاب كان يمكنه صياغته لصدوره من المصدر المشار إليه؛ أى من الغرب(١).

٦- الإصلاح: تغيير وتعليم

لمواجهة التحدى الإمبريالى واللحاق بصف الأمم المتحضرة شرع إبراهيم فى تناول ثيمة جديدة نهضوية. من هنا فقد نادى اعتبارا من العدد التاسع بالإصلاح فى مقال يحمل العنوان ذاته: الإصلاح(٢) شرح فيه ما يعنى بالإصلاح ومدى ضرورته بالإضافة إلى كيفية تطبيقه. استهل إبراهيم مقاله بتبيان أن الإصلاح واحد من الاحتياجات الطبيعية للإنسان الاجتماعي، ثم أوضح أن الحياة فى جماعة (فى مجتمع) تستلزم حدا أدنى من الإصلاحات المناسبة(٣) فى حال التعامل مع هذه الإصلاحات بعيدا عن سياقها رغبة فى تطبيقها كما هى دون مراجعة أو مواءمة، لن تكون حلاً لما تعقد من الأمور؛ وإنما مشكلة فى حد ذاتها.

جاوز عدم رضى إبراهيم سوء ممارسة الإصلاح إلى مصطلح "الإصلاح" ذاته. فهذه الكلمة كان قد شاع استعمالها لأغراض متباينة شتى حتى بهت معناها وأصبحت لا تعنى الكثير. أضحت وسيلة ضمن عدة وسائل فى أيدى الغربيين للوصول إلى طموحاتهم الاستعمارية. تساءل إبراهيم عن المنطق القائل بكيفية:

---

(١) "إننا مهما كتبنا وشرحنا فى سوء أفعال المدنية الغربية وبعد الغربيين عن التحلى بالفضائل التى ينتحلونها لأنفسهم، ومهما بالغنا فى كشف الحقائق عما يأتونه من الأعمال الشنيعة والأفعال الفظيعة تحت ستار هذه المدنية المموهة فلا يؤثر به قولهم عن أنفسهم بأقلام المنفردين بينهم يحب الفضيلة والميل إلى الحق.. وليس لنا بعد تعداد تلكم الفضائح وسردها بلسان أربابها أن نضيف إليها قولا من عندنا يشهد على بطلان هذه المدنية الغربية وسوء أفعالها إلا أن نتمدح بسيرة تلك البضعة من أفاضل الغربيين، الذين لا يبالون بذكر ما يلحق مدنيتهم من العار والشنار ولا يتأخرون عن التقبيح والتعنيف والتشهير والاعتراض والانتقاء على تلك الأعمال بأسنة أقلامهم فوق صفحات جرائدهم. ولا شك أن وجود هؤلاء الأفاضل دليل على أن الحق لا يعدم فى كل زمان أنصارا". مقال: "توحش التمدن "مصباح الشرق" ١٩٠١ العدد ١٣٦ ص١ الفقرة ١ العمود ١ الفقرة ٦ العمودان ٤-٥.

(٢) مقال: "الإصلاح" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ٩ ص١.

(٣) "أفق من الإصلاح المناسب لها" مقال: "الإصلاح" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ٩ ص١ العمود ١.

"طلب هذا الإصلاح الأوروبى لمملكة تكونت من أجناس مختلفة وألسنة متباينة وديانات متفرقة وعادات متناقضة وأقطار متباعدة وتربية لم تتم"[١].

لم يحتج الأمر بالنسبة إلى إبراهيم لدليل على أن من لديهم فقط مصالح فى الشرق هم من يطلبون شيئا على هذا النحو من التناقض والمروق[٢]. من هنا فقد دعا المسئولين مذكرا إياهم أنه من واجبهم، خاصة أمام موقف على هذه الشاكلة، عمل إصلاح مناسب وموائم للأمة المعنية حتى لا ينهار بناء الأمة من الداخل[٣] وقد حذرهم بعد ذلك من الإصلاحات الرديئة خاصة فيما يتعلق بالعدالة؛ وهى الثيمة التى انتقاها من كافة الثيمات الأخرى ليتناولها فى مقاله: "هذا ما كنا نحذره"[٤] ومقاله الآخر: "أفحش الظلم"[٥] اللذين لمس فيهما مسألة امتيازات المحتلين بالمقارنة بأبناء الوطن. فى إطار هذه الإشكالية، أكد إبراهيم للمحتلين أنهم لا يمكنهم أن يفاخروا المصريين بأى إصلاح ما لم يجدوا حلا لمشكلة[٦] الفروق وأشكال عدم المساواة الاجتماعية بين الغربيين والشرقيين المقيمين فى مصر.

وضع كل من التربية والتعليم فى المقدمة ووصفا باعتبارهما السبيلين الأساسين لهذا الإصلاح، فهما بالنسبة إلى إبراهيم[٧] الركيزتان اللتان تسمحان فى آن واحد بالوحدة المرغوبة وبوصول التغييرات المطلوبة إلى أكمل صورها. من هنا كان ضروريا فى رأى إبراهيم أن ينتشر التعليم بين الناس[٨] لتعليم الأشخاص

---

(١) مقال: "الإصلاح" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد التاسع ص١ العمود ٤.

(٢) "ولا ريب أن طالب الإصلاح على هذا المنهج وعلى هذا الوجه إنما يريد به ما ذكرنا من الإفساد آنفا"

مقال: "الإصلاح" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد التاسع ص١ العمود ٥.

(٣) "وصاحب الأمر لمثل هذه الأمة والولاية عليها تدعوه الحكمة والحزم إلى استعمال الإصلاح المناسب لها.. لئلا تهدم بناء الأمة من أساسه".

مقال: "الإصلاح" مصباح الشرق ١٨٩٨ العدد التاسع ص١ العمود ٥.

(٤) مقال: "هذا ما كنا نحذره" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٣٨ ص١ العمود ٥.

(٥) مقال: "أفحش الظلم" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ١٢٧ ص١-٢.

(٦) "وإذا لم يأخذ بيدها رجال الاحتلال فى هذا السبيل فلا يفخروا على المصريين بالإصلاح والنظام".

مقال: "أفحش الظلم" "مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ١٢٧ ص١-٢.

(٧) مقال: "التعليم القويم" "مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٦٧ ص١ – ٢.

(٨) "وجوب نشر التعليم بين الأفراد" مقال: "التعليم القويم" "مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٦٧ ص١ العمود ١.

هناك وفقا لما يراه كاتبنا عدة حواجز يجب اجتيازها أولها الفرد وثانيها الجماعة (الأمة) وثالثها الحكومة[١] للقيام بهذه المهمة هناك طريقتان ممكنتان وهما التعليم الدنيوى الوقتى والتعليم الروحاني[٢]. أكب إبراهيم على شرح ما يتضمنه تعليم الفرد والأمة والحكومة وأسلوب مساهمة الطريقتين المشار إليهما عاليه، وقد أوسع التعليم الروحانى والدينى شرحا ربما أكثر قليلا من التعليم الدنيوى الوقتي.

مثلها فى ذلك مثل معظم الدوريات النهضوية المؤيدة لهذه الرؤية التعليمية والتربوية قامت جريدة "مصباح الشرق" بعملية ترويج للمدارس بنشر مقالات شديدة الإيجاز تعلن عن فتح مدارس أو أقسام جديدة فى المدارس المقامة بالفعل[٣] أولت الصحيفة أيضا اهتماما للأزهر ووصفت مواقفه وقراراته فيما يتعلق بالعلوم الجديدة والأدب واللغة العربية[٤]. حتى نلخص الأمر، لنقل: إن إبراهيم كان يلوم على الأزهر إصراره على عدم مسايرة الزمن. وقد ثار ضد الموقف الأزهرى الرافض لتعليم العلوم الحديثة؛ بل والأدب متذرعا أن هناك ما يتهدد الأمة والفقه[٥] إذا ما تم تدريس هذه العلوم، هذا بالإضافة إلى أن اللغة العربية كانت فى صلب الموضوع، فباعتبارها أداة أساسية للتدريس كان لا بُدَّ أن تؤخذ فى الاعتبار بشكل أساسي.

إلا أن إبراهيم أسف لقرارات المدارس الأجنبية فى هذا الصدد وكذا لقرارات الأزهر. مجال واسع تمت مناقشته بعمق، وتسليط الضوء عليه وهو التدريس والتعليم والتربية المطلوب إعادة صياغته بين ما هو وطنى داخلى وأجنبى خارجى،

---

(١) "ولتعليم الإنسان فى الحقيقة ضروب فمنها تعليمه من حيث كونه فردا ومنها تعليمه من حيث هو أمة ومنها تعليمه من حيث هو حكومة".
مقال: "التعليم القويم" "مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٦٧ ص١ العمود ١.

(٢) "وليس أمامنا ها هنا إلا طريقان للتعليم طريق من الوجهة الدنيوية وطريق من الوجهة الدينية".
مقال: "التعليم القويم" "مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٦٧ ص١ العمود ٢.

(٣) راجع على سبيل المثال "مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٣٨ ص٣ مقال: "رسالة بحروفها" (مراسلة على حالتها القائمة).

(٤) راجع "مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٧٩ ص١-٢ مقال: "مستحسن غير لازم" (نوصى به غير أنه يمكن الاستغناء عنه) و"مصباح الشرق" ١٩٠٠ العدد ٩٩ ص١-٢ مقال: "العلم فى الإسلام".

(٥) القانون الإسلامي.

بين العلوم القديمة والعلوم الحديثة. من هنا فكل المسائل النهضوية تصب فى مسألة الشرق والغرب ومسألة الأنا والآخر، حتى إنه يمكننا القول: إن الثقافة والهوية بين الشمال والجنوب ظهرتا كإشكالية نهضوية على الأقل طبقا لصحافة هذه الفترة.

٧- الاقتصاد: البنك والشركات الأهلية، بورصة السوق والشركات الأجنبية

شكل الاقتصاد القومى عنصرا تحتيا فى الإشكالية الأساسية للنهضة، حتى إن استعمال مصطلح "وطني" قومى كان فى حد ذاته تطورا سياسيا وألسنيا. كانت الصفة المستخدمة قبلا هى "أهلي" وكان معناها متعلقا بالمواطن وشاملا لمعنى "مدني" ومتدرجا إلى "قومي". بعد فترة طغت كلمة "وطنى على كلمة أهلي". غير أننا نلاحظ أن هذا الاستعمال لم يكن منهجيا منظما فالجريدة الواحدة كان يمكنها مبادلة واحد بالآخر أو استخدام الاثنين معا فى الوقت ذاته مثال ذلك: البنك الأهلى، والبنك الأهلى المصرى، والبنك المصرى الأهلى، والبنك الأهلى الوطنى أو البنك الوطنى للدلالة على البنك المصرى الوطني(١).

من هذه الوجهة أخذ الضمير القومى يتشكل وتتحدد معالمه بشكل كبير بواسطة المجازفات والرهانات الاقتصادية التى بدأ المصريون ينشغلون بها تدريجيا. ويمثل محتوى مقال "البنك الوطني" (١٨٩٨ العدد العاشر، ٣)(٢) مثالا توضيحيا جيدا. ذكر إبراهيم فى هذا المقال القصير أن هذا المشروع ليس وليد الأمس؛ وإنما يرجع إلى زمن ثورة عرابي.

فى هذه الفترة المضطربة تناقش وتحدث رجال الثورة مع نواب المجلس لإنشاء هذا البنك الذى عرضوا جمع خمسة عشر ألف جنيه والأوراق المالية.

---

(١) نسوق هنا "مصباح الشرق" مثالا:
"البنك الوطني" ١٨٩٨ العدد ١٠ ص٣، "البنك المصرى الأهلي" ١٨٩٨ العدد ١٢ ص٢.
"البنك الأهلى المصري" ١٨٩٨ العدد ١٣ ص٣، استفتاح البنك الأهلى الوطنى ١٨٩٨ العدد ١٦ ص٣، نفقات البنك الأهلى الوطنى ١٨٩٨ العدد ١٦ ص٣، "وكيل البنك الأهلي" ١٨٩٨ العدد ٢٠ ص٣، "البنك الأهلي" ١٨٩٨ العدد ٣٧ ص٣، البنك الأهلى والعائلة الخديوية، ١٨٩٨ العدد ٥٤ ص٣.
(٢) "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٠ ص٣ مقال: "البنك الوطني".

غير أنهم رغم جهودهم المشتركة لم تقم للمشروع قائمة(١). ويذكر إبـــراهيم القارئ بنشأة الفكرة عائدا بالذاكرة إلى فترة القلاقل ١٨٧٩ - ١٨٨٢ التى كان قـــد شارك فيها جنبا إلى جنب مع شقيقه عبد السلام (راجع الفصل الرابع). بدت المسألة الاقتصادية إذن محددا لوجهة الشعور القومى والإحساس بالاستقلال ما دام تعلـــق الأمر باستقلاله المالي.

كانت هنا نقطة ارتكاز النقاش. فى مقال له بعنوان: "البنك الأهلى المصـري" (١٨٩٨ العدد ١٢، ٢)(٢)، فضح إبراهيم التدخل الإنجليزى وشرح أنه فى العادة من الناحية القانونية تتبع المؤسسات المحاكم الأهلية وأن المحاكم المختلطة فى مصر قد جاوزت وتخطت هذا القانون وتولت مسئولية بعض المؤسسات والـــشركات غيـــر التابعة وخاضعة لها قضائيا. وقد سلكت المحاكم السلوك ذاته بالنسبة إلـــى الـــسكك الحديدية وقطاعات أخرى عديدة. من هنا فقد بادرت الحكومة فور استشعارها الأمر بطلب دعم الدول لوضع هذه الشركات تحت سلطة قـــضاء المحـــاكم الأهليـــة(٣). والمدهش كما يقول لنا إبراهيم: إن البنك الذى يسمى نفسه بالأهلى كان قد طلب عـــدم الخضوع لقضاء المحاكم الأهلية والتبعية للمحاكم المختلطة. الواقع أنه لم يكن هناك عضو واحد مصرى فى هذا البنك الذى يقال عنـــه أهلـــي. أمـــا رءوس الأمـــوال

---

(١) "لا نتكلم فى هذا البنك بأكثر من قولنا: إن مشروعه قديم فإن جماعة سعوا فى إنشائه أيام الثورة العرابية ونعلم أنهم تكلموا مع أحد المشهورين من أعضاء مجلس النواب فى ذلك الوقت أن يجعلوا له مبلغ خمسة عشر ألف جنيه من أسهم الشركة حتى لا يعارض فى إنشاء البنك المذكور فتوقف فى هذا ولم ينجح المشروع".
مقال: "البنك الوطني" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٠ ص٣ العمود ٢.

(٢) مقال: "البنك المصرى الأهلي""مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٢ ص٢.

(٣) "جرت العادة فى قوانين الشركات أنها تكون خاصة لمحاكم البلاد الأهلية، وقد تعدت المحاكم المختلطة فى مصر هذا النظام وأدخلت الشركات فى اختصاصها، كما تعدت ذلك بالنسبة إلى مصلحة السكة الحديد.. ولما أحست الحكومة المصرية بضرر هذا التعدى وعسف هذا الحكم أخذت تخابر الدول فى رفع ذلك.. وأن تكون كل الشركات تحت حكم المحاكم الأهلية وما زالت دائبة تجتهد فى إقناع الدول للحصول على موافقتها، ولكن من أعجب ما يسمع الآن وأغرب ما يتحدث به الناس أن البنك الجديد الذى ينعتونه بالمصرى الأهلى والذى ستدخل فى جوفه المالية المصرية طلب بنفسه الخروج من دائرة المحاكم الأهلية والدخول تحت اختصاص المحاكم المختلطة.. وليس فيه من المصريين ألف ولا ياء".
مقال: "البنك المصرى الأهلي" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٢ ص٢ العمود ٤.

والأرصدة فكانت على النقيض مصرية[١]. أما المبالغ المربوطة فقد تحدث عنها إبراهيم مرات عدة فى مقالات مختلفة تناولت الموضوع ذاته[٢].

فى خط مواز للبنك الأهلى تحتل الشركات والمؤسسات وبورصة السوق مكانا كبيرا فى الخطاب الصحفى النهضوى، بمعنى أنه لا يمكن فصل الاقتصاد عن القضية الرئيسة؛ وهى الدخول فى بلاط القوى العالمية. لتنفيذ ذلك لم يكف إبراهيم عن الدعوة لإنشاء شركات وطنية[٣] وتحذير المصريين من بورصة السوق ومخاطرها[٤]. أسف إبراهيم لضياع الأرصدة الخاصة ببعض الأثرياء المصريين الذين لم يكتفوا بالخسائر المتراكمة فى البورصة المصرية وعرضوا أنفسهم للمزيد من الخسائر فى البورصة الأوروبية. لم تكن الطبقة الوسطى مدينة فالطبيب والمحامى وحتى المزارع انطلقوا فى المضاربة وتبديد رءوس الأموال. رأى إبراهيم أنه كان من الأفضل لهم الاستثمار فى الشركات الوطنية، فقد حققوا خسائر لصالح فوائد رأسمالية غربية. نادى إبراهيم باعتباره نهضويا وطنيا بضرورة الاستثمار فى الاقتصاد الوطنى بإيداع رءوس الأموال لصالح الشركات الوطنية.

فى إطار هذا البحث الاقتصادى ذى الطابع الوطنى أدرجت مسألة جنسية لا البنوك والشركات فقط ولكن الأفراد أيضا. كان هذا المفهوم فى السابق غائبا من العالمين العربى والإسلامى، ثم دخل تدريجيا فى النظام العربي. تناول إبراهيم هذا

---

(١) مقال: "البنك الوطنى المصري" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٣ ص٣ العمود ١.

(٢) للوصول إلى مقالات عن ثيمة محددة راجع المجلد الثانى مادة البحث ١ تصنيف مقالات "مصباح الشرق".

(٣) "شركات وطنية" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ مقال: "مصر وحدها" العدد ٢٧ ص١-٢ .
١٨٩٩ مقال: "فوائد الاتحاد" العدد ٣٨ ص٣.
١٨٩٩ مقال: "شركة ليمتد" القطر المصرى العدد ٥١ ص٣.

(٤) "البورصة أو المضاربة" فى "مصباح الشرق" ١٨٩٩ مقال: "سيل الشركات" العدد ٧٧ ص٣.
١٩٠١ مقال: "الترقى فى المضاربة" العدد ١٣٩ ص١.
١٩٠٠ مقال: "مرآة العالم" العدد ١٠٩، ١١٠، ١١١ .
للوصول إلى كافة المقالات التى تغطى هذا الموضوع راجع المجلد الثانى مادة البحث ١ تصنيف مقالات "مصباح الشرق".

الموضوع فى مقال له بعنوان: "أشيخ البلد"[١] نقض فيه منح الحكومة الجنسية المصرية لإيطالى ورفضها لسوريين رغم انتمائهم للعالمين العربى والعثمانى وتحدثهم بالعربية وميلادهم بمصر[٢]. توازى إذن التدخل الاقتصادى والسياسى وشكلا معا محركا وطنيا وقوميا للنهضويين. أضحى مصطلح "وطني" منذ ذلك الحين صفة فارضة لنفسها: أصبحت الاحتفالات العثمانية أو الخديوية احتفالات وطنية[٣] وأصبح هناك قاض وطني[٤] وغيرة وطنية... إلخ.

من هذا المنظور الوطنى الذى تولدت عنه شيئا فشيئا قومية مصرية نشأ ضمير وطنى ظهر فى صورة إرادة وتصميم على الاستئثار بالهوية والاقتصاد القوميين. تصدرت اللغة اعتبارا من هذا الحين كافة الأولويات فقط نبيط بها التعبير عن الهوية. واقع الأمر أنها لأداء هذه المهمة كان الأمر يتطلب أن تكون ناقلا للرسالة وقالبا يمنحها شكلا وصياغة. كان على اللغة إذن ترسيخ هذا التصور السياسى الاجتماعى وتثبيته فى الذهن والوجدان المصريين بحيث يصبح جزءا لا يتجزأ من ثوابت الفكر العربى العامة.

٨- اللغة العربية واللغات الأجنبية: سلطة سياسية

من هذا المنطلق احتلت اللغة قلب النهضة (انظر الفصل الثانى الفقرة الرابعة) صارت واصلة (أداة ووسيطا) وناقلا للفكر النهضوى المعبر عنه فى الدوريات[٥]. كانت اللغة العربية أداة تعبير النهضويين كما كانت الصحافة المكتوبة أداتهم فى الاتصال والتواصل. توسط اللغة العربية للمشهد، جعل منها سلاحا ذا

---

(١) مقال: "أشيخ البلد" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٢ ص٣ العمودان ٢-٣.

(٢) "وإنا لنعجب من الحكومة وقد سئمنا من العجب لأنها حكمت بمصرية رجل إيطالى الأصل والتابعية والمولد.. وقد حكم مجلس استئنافها بالأمس فى دعوى السوريين بأنهم ليسوا من المصريين مع التابعية العثمانية والجنسية العربية واللسان العربى والولادة المصرية". مقال: "أشيخ البلد" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٧ ص٣ الأعمدة ٤-٥.

(٣) "الاحتفال الوطني" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ١٧ ص٣ العمودان ٤-٥.

(٤) "القاضى الوطني" "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد ٧٧ ص١ ١٩٠٠ العدد ٩٩ ص١.

(٥) انظر: "مصباح الشرق"، ١٩٠١، العدد ١٤٨.

حدين: فاستخدامها كان إما متوائما وقادرا على ترجمة الفكر النهضوى وبثه وإما عاجزا عن أداء هذه المهمة. وحينها لم تكن أى حركة قادرة على اكتساب شكلا واضحا. وتكمن الإشكالية الداخلية فى المسألة اللسانية فى مستويات اللغة وتفاوتها بين العامية والفصحى بين لغة الحديث فى الحياة اليومية واللغة المكتوبة. تطلب الأمر تبين أيهما أصلح وأكثر قدرة على نقل الأفكار الضرورية لصحوة الأمة وقادتها، ولم يتم حسم الأمر لأى منهما، فقد كان هناك مؤيدون لكلتيهما بالإضافة إلى فريق يتبنى "لغة ثالثة" تقع بين الاثنتين.

أما بالنسبة إلى إبراهيم فنظرا لكون اللغة أحد الموضوعات المهمَّة فى جريدته "مصباح الشرق"؛ فقد اختصها ببعض من مقالاته. لم يكن إبراهيم يغفل حين يستشعر الحاجة لذلك عن الإشارة إلى مسألة اللغة، خاصة فى مقالاته السياسية. وقد أبرز سلطة وقدرة اللغة بصفة عامة فى مقال له بعنوان: "التفريق والتقسيم"[١].

اتخذ إبراهيم من اللغة الإنجليزية فى أميركا مثالا فشيوعها هناك وتعميمها لم يحل دون استقلال أميركا عن إنجلترا[٢]. من هنا يمكننا القول: إن تمكن لغة أجنبية من أمة يعد من قبل إبراهيم نوعا من التسلط، إلا أن ما مثله الوحدة من سطوة وسلطة تفوق نفوذ اللغة وتسلطها[٣]. وفى مقال له بعنوان: "الجملة الساقطة"[٤] أسف إبراهيم على الحيز العام الضيق والمحدود المخصص للغة العربية وساق المتحف المصرى وحديقة الأزبكية العامة وحديقة الحيوان بالجيزة كنماذج تطبيقية لهذه الظاهرة. ففى هذه الأماكن تتوارى اللغة العربية أمام اللغتين الإنجليزية والفرنسية "اللتين صيغت بهما الإرشادات العامة وبيانات تذاكر الدخول وحتى الشروح الموجودة بالمتحف وحديقة الحيوان.. لم ترد اللغة العربية فى كل هذه المحررات

(١) مقال: "التفريق والتقسيم"، "مصباح الشرق"، ١٨٩٨، العدد ١١، ص١.
(٢) "وما منح تعميم اللغة الإنكليزية فى أميركا عن استقلالها عن الإنكليز"، مقال: "التفريق والتقسيم"، "مصباح الشرق، ١٨٩٨ العدد ١١ الصفحة ١ العمود ٥ .
(٣) "وما تبلغ فائدة الإنكليز عن تسلط لغتهم على جميع اللغات ما تبالغه من انقسامنا وانشقاقنا". مقال: "التفريق والتقسيم"، مصباح الشرق، ١٨٩٨، العدد ١١ الصفحة ١ العمود ٥.
(٤) مقال: "الجملة الساقطة"، مصباح الشرق، ١٨٩٩، العدد ٦٩ الصفحة ٣ العمود ٥.

ولو فى شكل لغة مترجم إليها. وصل الأمر بإبراهيم إلى التأكيد لنفسه إن اللغة العربية مقارنة باللغات الأجنبية تحتل فى البلدان العربية المرتبة الأخيرة مما جعله يطرح على قرائه هذا التساؤل: "ما قولكم فى بلد لا لغة له ولا لسان يلزم فيها كل مواطن صحبة ترجمان؟"(١).

من هنا كانت دعوة إبراهيم فى مقاله: "رسائل الصابى والمحاكم الشرعية"(٢) لجميع الشرقيين ومنهم مؤيدى اللهجة العامية إلى تطوير اللغة العربية وتجديدها(٣) وقد ناشدهم فى هذا الصدد قراءة ما كتبه شكيب أرسلان من أن ضعف اللغة العربية أحد الأسباب المساهمة فى إضعاف الدول العربية وتدهورها.

إلا أنه أورد معارضته لدعوة الكاتب ورفاقه إلى استخدام لغة أقل فصاحة وأميل إلى الجوهر منها إلى الشكل وصرح أنه لزاما على العرب العودة فى التحرير والإنشاء إلى اللغة العربية الرصينة لغة المعري" و"الصابي"(٤).

---

(١) "أصبحت اللغة العربية فى البلاد العربية جملة ساقطة بين اللغات الأجنبية... فما قولك فى بلاد ليس لها لغة، والإنسان إذا سار فيها ابنها سار بترجمان".
مقال "التفريق والتقسيم" مصباح الشرق، ١٨٩٨ العدد ١١ الصفحة ١ العمود ٥.

(٢) مقال: "رسائل الصابى والمحاكم الشرعية" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٧٧ الصفحة ١.

(٣) "إحياء اللغة العربية" مقال: "رسائل الصابى والمحاكم الشرعية" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٧٧ الصفحة ١.

(٤) يجب على ذى غيرة على الدين وعلى اللغة العربية أن تجهد نفسه فى تجديد زمانها والعودة بها إلى رفعة مقامها، وإن كان هنالك فئة من الأدباء الذين يعتقدون الكمال المطلق فى كل ما يصدر اليوم عن الغربيين، ولا يجدون فى الماضى إلا كل نقص وتقصير، يرون أن هذه المزية آفة مضرة بترقى الشرقيين وأن الاشتغال لإحياء اللغة العربية ضرب من الهذيان وتعب غير مجد، وأن الكتابة باللغة العلمية أو الاقتصار من اللغة العربية على تفهيم المراد بأى عبارة وكان هو السبيل السواء والطريق الأحب حتى لقد كتب أديب عن كبرائهم عند اطلاعه على رسائل الصابى التى طبعها وعلق الشروح عليها الأديب الفاضل الأمير شكيب أرسلان أن مثل هذا الإنشاء من أساليب الضعف الذى ضعضع اللغة العربية... مثلا تم الحكم بأن مثل هذا الإنشاء اشتغال بالجوهر والآخر من باب الإشغال بالعرض... وقد قام منا جماعة فى هذا العصر يودون إرجاع الإنشاء إلى ما كان عليه فى عهد الصابى والمعري".
مقال: "رسائل الصابى والمحاكم الشرعية"، مصباح الشرق، ١٨٩٩ العدد ٧٧ الصفحة ١ العمودان ٢- ٣.

ويتوازى وفق ما رآه إبراهيم الدفاع عن اللغة العربية والدفاع عن الدين فكلا من التجديد استنادا إلى مكتسبات الماضى (الإحياء) وإلى مستجدات الحاضر (التجديد) ضروريان. حدد إبراهيم موقعا للرهان اللسانى النهضوى بين المتأتى من الداخل والمتأتى من الخارج، فقد رأى عدم الاكتفاء بأى من الفصحى والعامية وضرورة السعى بين الإحياء والتجديد؛ أى فى المجمل بين ما يتأتى من الخارج والداخل معا.

ودليل ذلك كتاباته ذاتها؛ فكونها كتابات صحفية أو أدبية يعى أنها كانت بلغة فصحى رصينة تم تكييفها. واقع الأمر أن إبراهيم كان تقليديا أكثر منه حداثيا وكانت كتاباته مقفاة. غير أنه لم يتردد قط فى الإقلال من القافية واستعمال جمل وتراكيب أكثر ليونة. كما أنه لم يحجم عن تبنى ما استجد من المصطلحات الحديثة التى بدأ إحلالها تدريجيا. فكما رأينا استخدم إبراهيم مصطلحات جديدة مثل: (كهرباء) و(بورصة) و(بترول) و(ويسكي) و(ماسونية) و(المنهذ) و(الجنسية) و(الطبقة المتوسطة فى الثروة) و(المعارف العصرية المفيدة).. إلخ(١).

عبر إبراهيم بوضوح عن وضعه وموقفه اللسانى قياسا على المغالين فى الحداثة والمغالين فى المحافظة وذلك بالإضافة إلى إيضاحه مفهومه للغة من الناحية التطبيقية. رأينا نموذجا للمجموعة الأولى ممثلا فى شكيب أرسلان، أما المجموعة الثانية فقد تحدث عنها فى مقال له بعنوان: "مستحسن غير لازم"(٢). ويتناول المقال الأزهريين الذين يأسف لاتجاهاتهم ومواقفهم اللسانية. رأى إبراهيم وقد تبدد بعض من أوهامه أن:

"بالغنا فى الاعتقاد بأن علينا حماية اللغة العربية فقط من الحداثيين غير المسلمين الذين يرغبون فى إلحاقهم باللغات الميتة واستبدالها باللغة الدارجة [...]

لم تكن للحظة نظن أن الزمن سيدير ظهره للإسلام لدرجة نضطر معها للدفاع عن اللغة العربية فى مواجهة من يمثلونه دينيا وقبل أئمته [...]

---

(١) لمعرفة المصطلحات التى استخدمها إبراهيم راجع الملحق الخامس بعنوان: "اقتباسات اصطلاحية فى مصباح الشرق".

(٢) مقال: "مستحسن غير لازم"، مصباح الشرق"، ١٨٩٩ العدد ٧٩ الصفحتان ١ – ٢.

يا إلهى يشدنى القلم شدًا لكتابة هذى الكلمات، وفى الأعماق بيت شعر يخالبنى بعنف ويلهب المداد.

قومى قومى هم قتلوا أميم أمى

فإذا رميت أصابنى سهمي"[١].

كان الموقف كما ينقله إبراهيم إذن مأسويا، فصراع النهضويين لم يكن مع الغربيين فقط؛ وإنما مع العلماء أيضا. اتسع مدى المشكلة اللسانية ونطاقها الصحيفة من خلال التبادلات الصحيفة. أشارت صحيفة "الوكيل"[٢] الهندية المسلمة وكانت جريدة "مصباح الشرق" تراسلها بانتظام إلى أن قلة قليلة تتقن اللغة العربية الحديثة. ومن هذا المنطلق اقترحت صراحة على إبراهيم أن يضم هنديا إلى القائمين على "مصباح الشرق"، حتى يتسنى له تعلم المفردات الجديدة التى تستخدمها الجريدة. في مقابل ذلك سيثرى هذا المتدرب إبراهيم بلغته فتصبح المبادلة عادلة للطرفين.

وطلبت الجريدة الهندية "الوكيل" من إبراهيم مواصلة إرسال أعداد صحيفته للفائدة التى يراها الجميع فيها فدونها عدد كبير من المعلومات الخاصة بالعالم الإسلامى ما كانت لتصل إلى الهند[٣]. كانت اللغة بشكل عام شيئا أساسيا.

فهى الأداة التى عبر بها النهضويون عن أنفسهم للحصول على استقلالهم الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والثقافي. غير أنه بالنسبة إلى إبراهيم كان أساسا التجديد ذاته ناقصا، وكان يعنى بذلك لغة قادرة على نقل أفكار الفكر وأهدافه،

---

(١) ولقد فرط الظن منا أنه ليس أمامنا فى جهادنا لحفظ اللغة العربية غير هؤلاء المتدينين من غير الدين الإسلامى الذين يريدون بها أن تدخل فى عداد اللغات البائدة... ولم يكن ليحوم بالخاطر أن الزمن يدور بالإسلام إلى أن يكون الجهاد فى حفظ لغته فى أهل هذا الدين المنتصبين أنفسهم فى مناصب أئمته.. اللوم أن القلم ليجرى مستحسن غير هذا وبين الشعر يجيش فى الفؤاد فيغلى به المداد:
قومى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت أصابنى سهمي.
"مصباح الشرق" ١٨٩٩ العدد ٧٩ الصفحة ٢ العمود ٢.

(٢) راجع مقال: "لكن الله ألف بينهم" مصباح الشرق، ١٩٠٠ العدد ١٣٥ الصفحتان ١- ٢.

(٣) المرجع ذاته.

فدونها لم يكن هناك شيء ممكن[١]. كانت المشكلة الرئيسة بالنسبة إليه أن اللغة لم تكن وحدها المتدنية؛ وإنما الأفكار أيضا فى حين أنه ما من حضارة تكون قادرة على التقدم والازدهار.

ما لم تتطور لسانيًا[٢]. تثبتت الأمة عند هذا الحد حتى إن الأمة المصرية كما لاحظ إبراهيم لم تعد تتكلم إلا العامية الفاسدة[٣]. والطامة الكبرى أن ما كانوا يستخدمونه من عبارات لم يكن فى نهاية الأمر ينتسب لا إلى العامية ولا إلى الفصحى ولم يكن بمقدور لا العامة ولا الخاصة فهمه[٤]. وقد أوضح إبراهيم أن الأمر لا يعنى توجيه النقد للتعليم الذى كان يلقى آنذاك إقبالا من أعداد لم يشهدها من قبل؛ وإنما تحديد مكمن العلة ومحاولة علاجها. تكمن المشكلة فى رأيه فى اختيارات الأزهر والمدارس الأخرى التى يجانبها التوفيق. واقع الأمر أن ذلك يتلخص فى اتباع طرق تدريس بالية واستخدام مقررات وكتب دراسية مزرية[٥]. وختم إبراهيم قوله: إنه لن يستقيم شيء بغير اللغة. كان إذا حاسما فى ضرورة تحسينها وضرورة حض العلماء على تشكيل لجنة تكلف بفحص وتحليل طريقة التدريس الواجب اتباعها فى تدريسها.

---

(١) راجع مقال: "ولا يزال ينقصنا الأساس الذى تبنى عليه" مصباح الشرق ١٩٠١ العدد ١٤٢ الصفحتان ١-٢.

(٢) "اللغة التى هى معيار الأفكار والأغراض ولا يمكن دونها حسن التفاهم وقدرة التعبير وإمكان التأثير فى القلوب وإقناع النفوس. مقال: "شقشقة اللسان وضعف البيان" "مصباح الشرق"، ١٩٠١، العدد ١٤٢ الصفحتان ١-٢.

(٣) وبقيت الأمم الشرقية ومنها الأمة المصرية على لغتها العربية دائبة فى الانحطاط مسترسلة فى النزول حتى اعتلت وتولاها الفساد.. حتى أصبحت الأمة المصرية اليوم.. لا تعبير بين أفرادها إلا بهذه اللغة الفاسدة العامية.
مقال: "شقشقة اللسان وضعف البيان"، "مصباح الشرق"، ١٩٠١، العدد ١٤٢ الصفحتان ١-٢ العمود ٤.

(٤) فإذا قدر الله أحدهم أن يدون ما يجيش فى صدره ويقيد ما يجرى على لسانه وضع أفكاره وآراءه فى عبارة لا هى عامية يفهمها العامة ولا هى عربية تقبلها قرائح الخاصة مقال: "شقشقة اللسان وضعف البيان"، "مصباح الشرق"، ١٩٠١ العدد ١٤٢ الصفحتان ١-٢.

(٥) ولسنا نقول: إن السبب فيه ناشئ عن الإهمال فى التعليم أو الإغفال فى الدرس أو الضعف فى الذهن فإن انكباب الناس على المدارس واجتهاد التلامذة لم يعهد له مثيل.. وإنما ذلك كله سواء كان بين طلبة الجامع الأزهر أو تلامذة المدارس هو سوء طريقة التعليم وسوء التلقين وسوء اختيار الكتب التى تدرس بها الآن علوم اللغة العربية وآدابها. مقال: "شقشقة اللسان وضعف البيان"، "مصباح الشرق" ١٩٠١ العدد ١٤٢ الصفحتان ١-٢.

لفت إبراهيم فى النهاية نظر من يطلبونه من الشرقيين اللحاق بالعصر الحديث دون العناية والانشغال سلفا بلغتهم إلى أنهم أشبه بمن يطلب من أبكم إلقاء خطاب[١].

تابع إبراهيم فى العدد التالى تحليله للموقف والوضع اللسانى فى مقاله: "ترديد وتذكير"[٢] وهاجم فى سطوره هبوط مستوى الأداء التحريرى والإنشائى باللغة العربية. فالإنشاء بالنسبة إليه مفتاح التقدم الذى يسمح بالولوج من أبواب العلوم والفنون وهو السبيل الوحيد للنجاح[٣]. وقد أمتن فور علمه بأن حديثه لقى صدى مواتيا لدى السلطات المعنية خاصة ما تعلق منه بتشكيل لجنة مكلفة بفحص مسألة اللغة العربية ودراستها[٤]. ويمثل هذا مساهمة نهضوية مويلحية للمسألة المزدوجة المتعلقة بالتعليم واللغة العربية. وحتى لا يطوى النسيان هذا المقترح الإصلاحى والنهضوى كما كان مألوفا من قبل، أعلن إبراهيم أنه لن يصدر مزيدا من أعداد "مصباح الشرق" إلا وبها تنويها بالإصدارات الجديدة مصحوبة بنقد من منظور وجوب استمرارية التحديث[٥]. من هنا نشأ النقد الأدبى الصحفى ويمكن القول: إن إبراهيم كان من مؤيديه والمحفزين على إظهاره إلى الوجود.

---

(١) لا يمكن لأمة من الأمم أن تخطو خطوات ثابتة فى طريق التقدم والارتقاء... إلا بتقدم لغتها... فما أولى هؤلاء الذين يكدون قرائحهم ويضيعون أوقاتهم فى اختيار وجوه التقدم والترقى للأمة المصرية أن يصرفوا هممهم إن أرادوا بها خيرا إلى النظر فى إصلاح شأن اللغة العربية وحث جماعة الفضلاء العلماء لتأليف لجنة تتكلف بوضع الطريقة السديدة لتعليم اللغة.. ومن يطلب منا قبل ذلك السعى فى وجوه الارتقاء وأسباب التقدم فهو كمن يطلب من الأخرس خطبة ومن الضرير خطا. والاشتغال بذلك اشتغال بالباطل. مقال: "شقشقة اللسان وضعف البيان"، مصباح الشرق١٩٠١ العدد ١٤٢ الصفحتان ١-٢.

(٢) مقال: "ترديد وتذكير" "مصباح الشرق"، ١٩٠١ العدد ١٤٣ الصفحتان ١-٢.

(٣) "لهذا الباب الذى هو المدخل لأبواب الترقى والتقدم بل هو المفتاح الذى تفتح به مغالق العلوم والفنون وتنجح به المطالب فى سياسة النفوس.
مقال: "ترديد وتذكير"، "مصباح الشرق"، ١٩٠١ العدد ١٤٣ الصفحتان ١-٢.

(٤) "وقد وقع ما كتبناه عند جماعة الفضلاء موقع التقبل والرضا ووضعوه موضع الاعتناء والاهتمام ووافقوا على رأينا وعلى وجوب تأليف لجنة للنظر فى أمر التدريس مقال: "ترديد وتذكير"، مصباح الشرق، ١٩٠١ العدد ١٤٣ الصفحتان ١-٢.

(٥) ولكن جرت العادة بيننا أن يعظم فينا التمنى ويعوزنا التصميم على العمل وإبراز الأمور النافعة من القول إلى الفعل؛ ولذلك نرى بأسا من تكرير القول وترديد الكلام فى هذا الموضوع إجمالا وتفصيلا.. وقد عزمنا منذ اليوم ألا يخلو ما يقع فى أيدينا من الكتب الجديدة والأشعار الحديثة من الحث والنقد وتبيين مواضع التفريط والتقصير مقال: "ترديد وتذكير" مصباح الشرق العدد ١٤٣ الصفحتان ١-٢.

في مقال بعنوان: "علينا ما يصعب وعليهم ما يسهل"[١] أسف إبراهيم متهكما وساخرا من اختبارات اللغة العربية بالغة الصعوبة التي كانت تعقد الإنجليز ويطلب منهم فيها تصريف الفعل في عبارة "ما ليش دعوة" وعرض بنفسه التصريف المطلوب.

وقد أنهى مقاله بالحديث عن اللغة الخاصة المستخدمة في الصحافة المكتوبة، ولام عليها اللجوء إلى لغة معينة بحجة عدم كفاية الوقت أو المساحة. وقد اعترض إبراهيم على ذلك بقوله: إن الصحف الأوروبية واقعة بشكل أكبر تحت ضغط الوقت وأن المساحة المتاحة أمامها أضيق ورغم ذلك فهي لم تهمل لغة التحرير، وقد دعا الصحافة المكتوبة المصرية إلى حذو الصحافة الأوروبية[٢].

٩- الصحافة المكتوبة: الأدوار والقيم والأهداف

كان فكر إبراهيم على دأبه جامعا بين الداخل والخارج بين مصادره الخاصة واستعاراته الخارجية. وقد اقترح من هذا المنطلق على الصحافة المصرية الاقتداء بالنموذج الصحفي الأوروبي. بغض النظر عن لغة تحريرها كانت الصحافة ذاتها موضوعا محوريا في الدوريات المصرية وشكلت ركيزة لانشغالاتها ومناقشاتها. وجدير بالإشارة هنا أن ميلها هذا لتحليل ذاتها ومعرفة كنه المهنة من قبل الصحفيين النهضويين أنفسهم سبب في إثرائها. بنقدهم لذواتهم ترك لنا صحفيو النهضة وصفا وإن أتسم أحيانا بالذاتية إلا أنه مباشر ودون وسيط لمهنتهم في القرن التاسع عشر. قاموا بتعريفنا بصحافة زمنهم كما عايشوها. سيمكننا بفضل شهاداتهم

---

(١) يذكرنا عنوان المقال: "علينا ما يصعب وعليهم ما يسهل" بعناوين في صحف أخرى من المجموعة محل البحث. راجع المجلد ٢، الملحق ١: "معلومات ومواصفات الصحف محل البحث".
مقال: "علينا ما يصعب وعليهم ما يسهل" مصباح الشرق ١٩٠١ العدد ١٥٤ الصفحة ٢.

(٢) ولا محل الاعتذار بأن ضيق الوقت يمنع من الوصول إلى هذا الغرض فإننا نجد الجرائد الأوروبية وهي أضيق وقتا وأسرع تحريرا تتفنن ما تشاء في تحيز العبارات الرائقة والجمل الفصيحة وتتنقل في أساليب التركيب. وفوق ذلك لا ترى جريدة منها خالية في كل يوم من بعض المواضيع التي تتجلى فيها براعة الإنشاء، وتتألق فيها فصاحة التحرير وبلاغة التحبير ولو أن الجرائد المصرية أخذت بنفسها في هذا الطريق وسارت على هذا النحو لتنفع الناس بالاطلاع عليها من جهة اللغة ولاكتسبوا منها تربية الملكات وحسن التنسيق في التعبير".
مقال: "علينا ما يصعب وعليهم ما يسهل"، "مصباح الشرق" ١٩٠١ العدد ١٤٣ الصفحتان ١-٢.

هذه إدراك أى الأدوار كانوا يرون أن على الصحافة الاضطلاع بهـا، وأى القـيم كانوا يعزونها إليها بالإضافة إلى المكانة التى كانوا يرونها لأنفسهم فى داخل ذلـك المجتمع الذى يناقشون مستقبله السياسى والاجتماعى والثقافى والاقتصادي.

وقضية الصحافة ليست بالهينة. ففى العدد الأول نجد أن الخطاب الافتتـاحى فى مجمله شكل لإبراهيم مساحة يعبر من خلالها عما يراه فى هذا الـصدد. كتـب يقول: "إن الصحف المنشورة حاليا فى مصر إذا ما استثنينا ما حظى منها بالشهرة، أشبه بالجراد المنتشر"(١). وأضاف قائلا: "هناك بين المحررين بعض الأميين الذين لا يقرءون حتى كتابهم الكريم(٢). أما الحرية المطلقة فهى فى رأيه آفـة(٣). أطلـق صفات الانتشار (بمعنى التدمير) "والأمية و"الآفة" على نوع من الـصحافة آنـذاك وعدد من الصحفيين وعلى حرية الصحافة المطلقة التى كان البعض يطالب بهـا. المعادلة كما تبدو أكثر من سلبية على الأقل فيما يتعلق بجزء من الصحافة المصرية المكتوبة. كان هناك إذن فى رأى إبراهيم نوعان من الصحافة: صـحافة شـهيرة يشاد بها وأخرى رديئة واسعة الانتشار. وقد أكد إبراهيم بعـد ذلـك فـى مقـال قصير عن دار النشر "البولاقي" أنه على الدوريات اليوميـة أن تتحـرى الحقيقـة بالبحث قبل النشر(٤).

يضاف إلى هذا المشهد ما يعرف برقابة الدولة على الـصحافة المـصرية. أشار إبراهيم فى مقال له بعنوان: "إفلاس الجرائد"(٥) إلى حرية الصحافة والرقابـة المفروضة عليها فى مصر وفى أوروبا خاصة فى إنجلترا. فعلى الرغم من وجود مجلس للنواب فى بريطانيا العظمى على سبيل المثال فإن الحكومة الإنجليزية كانت حريصة على إبقاء بعض المعلومات طى الكتمان. أما الحكومات الشرقية فلم يكـن

---

(١) "أصبحت الجرائد المنتشرة فى مصر الأدوات الشأن منها كالجراد المنتشر "مصباح الشرق" ١٨٩٨ العدد الأول الصفحة ١ العمود ١.

(٢) "وقد دخل فى زمرة المحررين أميون لا يقرءون الكتاب" مصباح الشرق، ١٨٩٨ العدد الأول الصفحة ١ العمود ١.

(٣) "آفة الحرية المطلقة" مصباح الشرق ١٨٩٨، العدد الأول، الصفحة ١ العمود ٢.

(٤) "فعلى الجرائد اليومية أن تبادر إلى نشر ما اتفق عليه من هذه التفاصيل عند تأكيدها". مقال: "أمر جديد فى مطبعة بولاق" مصباح الشرق، ١٨٩٩، العدد ٤٣ الصفحة ٣ العمود ٥ السطور الثلاثة الأخيرة.

(٥) مقال: "إفلاس الجرائد" مصباح الشرق، ١٨٩٩ العدد ٦١ الصفحة ٣ العمودان ١-٢.

هذا مسلكها، حتى إنه يمكننا القول: إنه لفترة طويلة لم يكن هناك سر سياسي[١]. ولدى اشتراك إنجلترا وهيمنتها على السلطة المصرية تغير الأمر فى مصر. فعلى الرغم من استشراف إنجلترا لقدر من المصلحة فى ذلك فإنها قررت حجب بعض المعلومات السياسية وإبقائها سرية. واقع الأمر أن هذه المعلومات بالنسبة إليها كان ضررها يفوق نفعها. ويسوق لنا إبراهيم على سبيل المثال أنه فى السادس من يوليو عام ١٨٩٩: "اشتدت الرقابة وقررت الدولة اعتبارا من هذا الأسبوع حجب المعلومات الخاصة بالدولة عن كافة الدوريات دون استثناء"[٢]. وقد نتج عن ذلك ما عانت منه الصحف اليومية من خواء[٣]. أسف إبراهيم لما آل إليه الحال فقد كان فى هذه المرحلة غير مؤيد للحرية المطلقة وغير راض عن الرقابة المفرطة.

أعلن إبراهيم فى مقاله "محاكمة صاحب المشير"[٤]؛ الذى نشر بعد عددين كيف أن صاحب جريدة المشير قد خضع للمحاسبة بناء على أمر مجلس الوزراء نظرا لتوجيهه سبابا للسلطان عبد الحميد الثاني. من هذا نرى أن الرقابة والعقوبات كانت ثلاثية المصدر: مصرية، وإنجليزية، وعثمانية.

أشار إبراهيم فى باقى ما أورده إلى تحذيرات الباب العالى فيما يخص تجاوزات الصحف المصرية[٥]. وهذه الإشارة من قبل إبراهيم إلى حدث كانت مساومات تتم فيه برقيا بين الحكومة المصرية والدولة العثمانية يدلنا على أمر من اثنين: إما أن الرقابة التى ابتدعت حديثا لم تكن قد عملت بعد بالكفاءة المطلوبة، وإما أن إبراهيم كان من هؤلاء الصحفيين أصحاب الحظوة وله مداخلة. وعلى ما يبدو كان الأمر الثانى هو الأرجح خاصة إذا ما وضعنا فى الحسبان الصفة المميزة لجريدة "مصباح الشرق"؛ وهى كونها من الصحف النادرة التى أوردت كما عاليا

---

(١) "سر بوليشنيل" مقال: "إفلاس الجرائد" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٦١ الصفحة ٣ العمود ٢.

(٢) "فوقع التشديد فى هذا الأسبوع بمنع أخبار الحكومة عن الجرائد بلا استثناء فيها".
مقال: "إفلاس الجرائد" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٦١ الصفحة ٣ العمود ٢.

(٣) "أصبحنا نرى الجرائد اليومية خالية" مقال: "إفلاس الجرائد" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٦١ الصفحة ٣ العمود ٢.

(٤) مقال: "محاكمة صاحب المشير"، مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٦٤ الصفحة ٣ العمود ٢.

(٥) "تعددت فى هذه مخابرات الباب العالى مع الحكومة المصرية، فمنها تلغراف ينبهها فيه إلى ما وصلت إليه حالة الجرائد فى مصر من الطعن، والخروج من الحد فى بلاد تابعة للدولة العلية محدودة من أملاكها وأنه لا يليق منها السكوت على مثل ذلك.
مقال: "الباب العالى والحكومة المصرية" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٧٢ الصفحة ٣ العمود ٣.

من البرقيات. فبينما كانت الصحف الأخرى تورد برقية أو برقيتين في كل عدد كانت مصباح الشرق تنشر صفحة، وهذا يعني أنها أسبوعيًا تنشر أربع صفحات.

مما لا شك فيه إذن كانت لإبراهيم مداخلة ومصادره التي توصله إلى البرقيات؛ وهي الوسيلة الرئيسة للاتصال السياسي والدولي آنذاك. وقد جعلت إمكانية الوصول إلى هذه المعلومات من مصباح الشرق صحيفة متميزة بين مثيلاتها وأضفت عليها قيمة سياسية لا مواربة فيها مما يفسر جزئيًا ما حظيت به من شهرة وما لقيته مقالاتها الافتتاحية من نجاح.

وفي هذا الصدد تشرح لنا الجريدة ما كان من تلقي القراء لها. يقول إبراهيم في مقاله: "تخفيض قيمة الاشتراك"[١] أنه نظرا لإقبال القراء على الجريدة وما أبدوه من اهتمام بها كان قد قرر تخفيض قيمة الاشتراكات[٢]. وأضاف أنه قد عقد العزم على نشر بعض من أبواب الجريدة التي حظيت بقبول القراء في كتاب يمكن لكل مشترك بالجريدة اقتناؤه بنصف ثمنه[٣] من هنا نرى أن الصحف المصرية في أول عهدها كانت تتمتع بعقلية تجارية ودعائية. أما عن قبول الصحف الأخرى لصحيفة "مصباح الشرق" فيمكننا استجلاءه أكثر من مقال قصير يشكر فيه إبراهيم الصحف الأخرى[٤] لنشرها بعضا من مقالاته الطويلة[٥]. وفي هذا دليل على أن مصباح

---

(١) مقال: "تخفيض قيمة الاشتراك" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٥١ الصفحة ٢ العمود ٤.

(٢) "إن ما رأيناه من إقبال الناس على مطالعة هذه الجريدة وما وصلت إليه من زيادة الانتشار... يدعونا الآن إلى تخفيض قيمة الاشتراك فجعلناه في مصر والممالك الشاهانية ثمانين قرشا في العام وأربعين قرشا لنصف سنة وفي الممالك الأجنبية خمسة وعشرين فرنكا وذلك من ابتداء ١٥ من أبريل الحاضر الذي تدخل فيه الجريدة في عامها الثاني".
مقال: "تخفيض الاشتراك" مصباح الشرق، ١٩٩٩ العدد ٥١ الصفحة ٢ العمود ٤.

(٣) "وإننا على عزم أن ننتخب من فصول الجريدة ما يروق القارئ فنطبعه كتابا على حدته بعد إعادة النظر عليه ويكون ثمنه للمشتركين بنصف القيمة التي نحددها له".
مقال: "تخفيض قيمة الاشتراك" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٥١ الصفحة ٢ العمود ٤.

(٤) مقال: "الشكر للجرائد" ، مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٧١ الصفحة ٣ العمودان ٤-٥.

(٥) "لا تخفى أن غرض هذه الجريدة الذي نرمي إليه بمقالاتها الافتتاحية هو أن يكون من ورائها شيء من النفع العام بانتشارها بين المسلمين؛ ولذلك فإننا نشكر جميع الجرائد الإسلامية في البلاد المختلفة، التي تنقل بعض تلك المقالات النافعة بتمامها على طولها لازدياد نشرها ونخص من بينها بالذكر جريدة المعلومات الغراء بالآستانة العلية وجريدة طرابلس بمدينة طرابلس.
مقال: "الشكر للجرائد" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٧١ الصفحة ٣ العمودان ٤-٥ تمكننا من التحقق من الأمر فقد وجدنا بعض مقالات مصباح الشرق في صحف منها على سبيل المثال جريدة "المنار": راجع المجلد الأول ١٨٩٨ - ١٨٩٩ العدد ١٩ الصفحات من ٣٥٩ إلى ٣٦٠ والعدد ٢٩ الصفحات من ٥٦١ إلى ٥٦٦.

الشرق كانت واحدة من صحف النهضة التى نالت بعض الشهرة وهو ما يعطينا فى الوقت ذاته فكرة عن الشبكة الصحفية التى كانت تربط النهضويين ببعضهم البعض وتفترض وجود صلات بينهم وتحالفات.

بالإضافة إلى ذلك يوضح لنا إبراهيم أن هذه المبادلات كانت تتم بين الصحف بالمطابع المصرية فى مصر ولكن أيضا عبر العالم. فى قوله لنا أى نوع من المقالات كانت الصحف الأخرى تنقل عن مصباح الشرق وتحديدا من صفحاتها الأولى يؤكد لنا إبراهيم التقدير والشعبية اللتين كانت مقالاته الافتتاحية تحظى بهما؛ ومن ثم فكره. هذا المقال الموجز يشير فى غمرة الأهداف التى ساقها هدف أساسى لإبراهيم وهو المصلحة العامة لجميع المسلمين وليس الشرقيين المسلمين منهم وغير المسلمين؛ وإنما المسلمين فقط على الأقل فى هذا المقال الموجز. وتشير هذه الأقوال إلى ميل إبراهيم إلى اتجاه "الجامعة الإسلامية" وقد طغى هذا الميل على الاتجاه القائل: "إن الشرق للشرقيين". بسبب ما كان سائدا وقتئذ من نظم الحماية وتفسخ الشرق الأدنى.

اجتاحت شهرة المقالات الافتتاحية المويلحية العالم الإسلامى من المغرب إلى المشرق. ودليل ذلك مقال موجز جاء فيه أن "مصباح الشرق" قد تمت استعارة مقالات منها فى الآستانة وطرابلس إلى جانب مقال هنرى بيريز[١] الذى يقر فيه أنه قد طالع "مصباح الشرق" فى الجزائر العاصمة. فى سعيه الحثيث لتأمل وتحليل الصحافة المكتوبة المصرية والأوروبية ساق لنا إبراهيم أفكاره بشأنها خاصة عندما تعلق الأمر بقضية "دريفوس" Dreyfus. بأسلوب ساخر تهكم إبراهيم فى وصفه لمبالغات الصحفيين الأوروبيين ولافتقادهم القدرة على التحديد والإيجاز حتى إنهم صاغوا برقية فى نحو مليون وثلاثمائة ألف كلمة[٢].

---

(١) ١٩٤٣ – ١٩٤٤ الصفحات من ١٠١ إلى ١١٨.

(٢) "من وقف على ما وصل إليه أرباب الجرائد فى أوروبا من التفنن فى إظهار الخفايا وكشف المكنونات واستطلاع الأسرار والمسابقة فى ذلك وشدة المنافسة رأى المعجب والمطرب ووقف موقف الدهشة والحيرة كيف أنهم يتكلفون ما لا يطاق من احتمال المشاق وبذل النفقات الطائلة للحصول على الخبر الحقير فضلا عن الخبر العظيم حتى لقد بلغ عدد الكلمات التى أرسلها المخبرون فى التلغراف من مدينة رين إلى جريدة الفيجارو الفرنسوية مليونا وثلاثمائة ألف كلمة فيما يتعلق بقضية "دريفوس".

مقال: "كلام بعد صمت خمسة أعوام" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٧٥ الصفحتان ١ – ٢ الأعمدة من ١ إلى ٥، ومن ١ إلى ٣.

عقب إرسال هذه البرقية، قامت جريدة "الفيجارو" بكتابة مقال سرعان ما ترجمته وتولت عرضه وتحليله صحيفة "مصباح الشرق". ومما ورد فيه من عبارات يمكن ملاحظة أنه لدى إبراهيم مفهوم محدد للمقال الصحفى الذى يتوجب فى عرفه أن يكون معقول الطول، محدد القصد ووجيز العبارة. من هنا ندرك أن هناك ضوابط وأخلاقيات صحفية واجبة التطبيق.

ومقالات إبراهيم من حيث الطول طويلة جدًا خاصةً ما كان ينشر منها فى الصفحة الأولى. ويبدو أنه لم يكن يرى ذلك، ففى رأيه لم تكن مقالاته بأطول ما ينشر فى الصحافتين المصرية والأوروبية آنذاك. ونحن فيما يتعلق بالصحافة المصرية نؤيده فيما قال. فواقع الأمر أنه كانت هناك مقالات تقع فى عشر صفحات وعشرين بل ربما فى أربعين صفحة. إلا أن الصفحة كانت فى هذه الحالات من القطع الصغير (A5) ولكن أيا ما كان الأمر كان هناك بصفة عامة اهتمام بالشكل والإخراج الصحفى، حتى إن الصحفيين أنفسهم كانوا يتناولون الأمر فى دورياتهم. وقد لوحظ أيضا فى هذه الفترة اهتمام بنوعية الصحف وبالتالى بنوعية المعلومات وهو ما يبدو قد احتل لدى إبراهيم مكانة رئيسة وشغله إلى حد التناول بالنكات والطرفات.

يروى إبراهيم فى هذا الصدد أن عددا من الصحفيين الأوروبيين الذين كانوا إما قد فقدوا وظائفهم فى القاهرة أو باريس، وإما قد اختلفوا مع الصحيفة التى يعملون بها بالقاهرة، قد قرروا معا تأسيس جريدة جديدة أسموها "الشعب"[١]. وقد أثار الاسم حفيظة إبراهيم وأطلق العنان لتهكمه فلم يكن فى رأيه عدد الصحف الموجودة بالقليل وقد قال فى ذلك: "كأن الشعب والأمة والوطن والقطر لا تزال فى حاجة إلى كثرة الخبط والخلط والتعكير والتكدير... ويفتح للتشويش بابا جديدا"[٢].

تابع إبراهيم ملاحظاته وتحليلاته بشأن الرقابة فى مقال له بعنوان: "الحجر على الجرائد"[٣]. أعطى إبراهيم فى بداية الأمر انطباعا بتفهمه الأسباب التى أوصلت الحكومة المصرية إلى منع الوصول إلى بعض المعلومات، ثم وصف الإجراءات الموضوعة التى يمكن بها إيصال المعلومات إلى علم الصحفيين؛ وهى

---

(١) راجع مقال: "شقاق بعد اتفاق" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٧٥ الصفحة ٣.
(٢) مقال: "شقاق بعد اتفاق" ١٨٩٩ العدد ٧٥ الصفحة ٣ العمود ٤.
(٣) مقال: "الحجر على الجرائد" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٨٨ الصفحة ٣ العمودان ٣- ٤.

فى مجملها تتلخص فى وضع ممثل واحد يكون له وحده حق الذهاب إلى "قلم المطبوعات" للحصول على المعلومات المسموح بنشرها. هذا الممثل أو المندوب يكون له على نمط الصحافة المطروحة للقراءة للجميع أن يسمع ويدون ما يمليه الموظفون المهيئون لهذا العمل.

هذا النهج كان يؤدى بالسامعين للقراءة العامة لمختلف الدوريات المصرية إلى أخذ انطباع بسماع جريدة واحدة. ويلفت إبراهيم النظر إلى أن الحكومة المصرية قد نبهت إلى أنها حال اكتشافها معلومات مغايرة لما يملى رسميًا ستفتح تحقيقًا وتوقع عقوبات. ويختم الرئيس مقاله ساخرا بأنه لم يعد مستبعدا أن ترى الحكومة مكتفية بجريدة واحدة لا غير كملحق "للوقائع المصرية"، ملحق يصبح طبقا لما يراه نقطة سوداء فى تاريخ الصحف اليومية المصرية(١). هكذا وكما عهدناه أوحى لنا إبراهيم أنه يتقبل الأمر؛ وذلك لكى يبرز بشكل أكبر وبسخرية لاذعة رفضه لتجاوزات هذا النهج. وتعد هذه الطريقة أحد الأساليب البلاغية والبيانية الأساسية فى كتابات إبراهيم وإحدى طرق المحاجاة فى خطابه. وقد استطاع إبراهيم بذلك تفادى لفت انتباه الرقابة التى لم تكن فى قراءتها لمقالات الصحف التى تراقبها تتعمق كثيرا. كما نرى فإن تأييد البداية يفضى إلى خاتمة غالبا ما تكون مناقضة ومعارضة.

---

(١) "ضاقت الحكومة ذرعا من تشويش الجرائد عليها بنشر الأخبار التى لا تريد أن تذاع بين الناس قبل تمامها لمصلحة تراها الحكومة فى ذلك، وقد أعيتها الحيلة فى الحيلولة بين موظفيها وأرباب الجرائد وأعجزها سد المنافذ من دوائرها على استراق السمع، فقررت طريقة رسمية تفتح بها أرباب الجرائد من أخذ الأخبار ومستخدميها من أعضائها، وهى أنها حصرت ما تريد إذاعته من الأخبار فى دائرة قلم المطبوعات وأمرت أن يذهب أحد موظفيه كل يوم إلى دوائر الحكومة ومصالحها وفى يده قلم وقرطاس، فتملى عليه كل دائرة ما يصرح لها بإذاعته من أخبار الحكومة حتى إذا أتى الرجل على جميع المصالح عاد إلى قلم المطبوعات بالقرطاس، وقد صار جريدة رسمية يومية فيقف محاطا بأرباب الجرائد الذين كانوا ينتظرونه فيقرأها عليهم كما تقرأ الجرائد فى المحافل والمجامع.. وقد قررت الحكومة أنها إذا رأت خبرا فى إحدى الجرائد زائدا عن النسخة الأصلية فتحت تحقيقا على مخبر الجريدة فإن لم تقف منه على الموظف الذى أخذ منه الخبر عاقبته بالحرمان من استنساخ الأخبار من قلم المطبوعات. ولا يبعد بعد هذا التضييق والتدقيق أن تكتفى الحكومة يوما من الأيام بطبع النسخ الأصلية ملحقا يوميا للوقائع الرسمية فيكون ذلك الملحق اليومى هو النقطة السوداء فى تاريخ الجرائد اليومية البيضاء".

مقال: "الحجر على الجرائد" مصباح الشرق ١٨٩٩ العدد ٨٨ الصفحة ٣ العمودان ٣ – ٤.

أما عن دور الصحافة المكتوبة فإن إبراهيم يرى أنها العنصر الأكثر تأثيرا[١] في وصول أى أمر إلى غايته من عدمه. وللرأى العام أهمية رئيسة. ويُعد التصويت بالأغلبية وأخذ ميول الجماهير فى الحسبان عنصران أساسيان فى تكوين الرأى العام، وهما كما يشير إبراهيم مما تركز الحكومة الإنجليزية اهتمامها عليه. من هنا نرى أن الصحافة تقع فى قلب السياسة باعتبارها وسيلة الاتصال الوحيدة بين قاع المجتمع وقمته. ولم يكن إبراهيم ينتقد هذا النهج بل على العكس تماما يؤيد[٢] أخذ الرأى العام فى الحسبان.

ولهذا الأمر وجاهته. ألم يكن منذ عام ١٨٧٠ يدعو إلى أخذ الجمهور فى الاعتبار؟ بقى إبراهيم إذن على ثوابته، لم يتغير خطابه وكذا أساليبه البيانية والبلاغية وطرق محاجاته. لم يتغير لديه قط إلا مصطلحاته ومفرداته التى تطورت؛ رغبة منه فى التأقلم والتكيف مع مضى الزمن قدما.

أما عن مسألة الصحافة فقد تناولها إبراهيم فى مقال له بعنوان: "كلام فى المطبوعات"[٣] بدأ نشره فى العدد ١٥٧ وهو آخر ما تولى إصداره فى جريدة "مصباح الشرق". ترك إبراهيم الصحيفة لمحمد المويلحى أكبر أبنائه الذى تولى فيها حتى ١٩٠٣/٨/١٥ كافة مهام الإدارة والتحرير. جدير بالذكر أن مقال: "كلام فى المطبوعات" المشار إليه عاليه نشر على مدى سبعة أعداد من ١٥٧ إلى ١٦٢ واستكمل فى العدد ١٨٢ واحتل فيها كلها الصفحتين الأولى والثانية.

لأى منهما كانت هذه السلسلة من المقالات؟ للأب الذى لم يكن قد استكمل الفكرة المتناولة فيها؟ أم للابن الذى فضل الكتابة على هذا النحو قبل إصدار أول

---

(١) "الجرائد هى العامل المؤثر" مقال: "أمس واليوم" مصباح الشرق ١٩٠٠ العدد ١١٩ الصفحتان ٢-٣ الأعمدة ١-٣-٤-٥.

(٢) "ومن تدبر فى نظام الحكومة الإنكليزية.. علم أنها هى الحكومة الوحيدة التى تأصل فيها الحكم برأى الإجماع والعمل بميل الجمهور... فرجال الحل والعقد فيها أسرى فى يد الرأى العام.. ولا يأتى لها العلم بوجهة الرأى العام ولا يبلغون لتأثير فيه إلا عن طريق الجرائد وقلما تباشر الحكومة أمرا قبل أن تمهد له تمهيدا فيها. فكانت الجرائد هى العامل المؤثر إن سودت شيئا اسود فى عين الحكومة والجمهور، وإن بيضته ابيض لديهما".
مقال: "أمس واليوم" مصباح الشرق ١٩٠٠ العدد ١١٩ الصفحتان ٢-٣ الأعمدة ١-٣-٤-٥.

(٣) مقال: "كلام فى المطبوعات"، مصباح الشرق ١٩٠١ العدد ١٥٧ الصفحتان ١ – ٢.

الأعداد التي اضطلع بمسئوليتها؟ الأمر في الواقع محدود الأهمية. فالجدير بالتوقف هنا هو منظور وتحليل القائمين على الصحافة لما يفعلونه، وإدراك الكيفية التي كان كل من الأب والابن يريا بها الصحافة المكتوبة، وسلسلة المقالات المشار إليها تجيب بإفاضة عن جميع هذه التساؤلات. هذا لا يمنعنا من القول وهو رأينا الشخصي، أن هذه المقالات من ناحية الشكل والأسلوب والمصطلحات المستخدمة وطريقة التعبير بشكل عام تبدو لنا صنيعة الأب لا الابن. ولكن أيا ما كان الأمر، ما يعنينا هنا أنها تتيح استعراض تاريخ المطبوعات والصحافة المكتوبة في كافة أنحاء العالم.

نجد على سبيل المثال أن "مصباح الشرق" في هذا المقال تعلن عن صدور جريدة جديدة بعنوان: "أبو زيد"؛ وهي جريدة يعزو الكتاب العرب تأسيسها وملكيتها إلى إبراهيم المويلحي، وإن كنا لم نجد شيئا يثبت صحة هذا الأمر. والمهم هنا ليس تحديد هوية مؤسسها أو رئيس تحريرها؛ وإنما مضمونها ومدى مساهمتها في النهضة الثقافية العربية.

حددت "مصباح الشرق" في هذا الصدد أن للدورية المصرية الجديدة طابعا كاريكاتوريا. مشيرة إلى كونها قد لاحظت وجود هذه الخاصية وأدركت مدى اجتذابها لجمهور عريض[1]. وأشارت الصحيفة إلى أنه بصفة عامة إذا كرس القائمون على التحرير جهودهم معا لتطوير المطبوعات وكانوا مبدعين وخلاقين ومتمثلين النموذج الغربي فسيرون إقبالا من الناس على صحفهم ومجالاتهم بشكل كبير. إلا أن مصباح الشرق رثيت للحال المزري للمطبوعات في مصر؛ بينما "يعتبر أهل الصحافة أنفسهم رأس الأمة المفكر وغذاء الملة الروحي اليومي". أما الناس فيعتبرونهم بمثابة معلميهم وقادتهم الذين كانوا يأملون على أيديهم الاهتداء إلى التقدم والحضارة الغربية[2].

---

(١) "وقد ظهرت في هذا الأسبوع في مصر جريدة "أبو زيد" على ذلك النمط في تصويرها الجد في قالب من الهزل فرأينا الناس عليها إقبالا يشهد رغبتهم في انتشار هذا النوع من الجرائد".
مقال: "كلام في المطبوعات" مصباح الشرق ١٩٠١ العدد ١٥٧ الصفحة ١ العمود ٢.

(٢) راجع الحواشي التالية.

وعند ذاك تساءل إبراهيم والحال كذلك عن تقاعس الصحفيين وسماحهم لأنفسهم بهذا التخاذل والامتثال لهذا التخلف والانحدار، ودهش لعدم كونهم السباقين للإقتداء بالغربيين لتحسين ممارستهم للمهنة[١].

استمرت صحيفة "مصباح الشرق" جامعة بين مصادرها الداخلية وما تجلبه من خارجها. لم تتردد فى وصف الحال المتردى الذى وصلت إليه الصحافة الشرقية مقارنة بالصحافة الغربية. كانت طبقا لما جاء بالصحيفة أشبه بطفل فى مراحل نموه الأولى[٢]، وصف إذن آل المويلحى فى صحيفتهما "مصباح الشرق" وتحديدا فى المقال الأخير الذى يعزى لإبراهيم وضع الصحافة فى مصر فى نهاية القرن. قدما تفاصيل عن المهنة وتنظيمها وسير العمل بها وأوضحا أنه ما إن تخرج دورية فى أوروبا حتى تنشأ مؤسسة موازية لهذه الأغراض. كما وصفا وظائف كافة الأطراف ومهامهم ورواتبهم.

استعرضا كذلك مكونات الصحيفة؛ مثل: عدد الأبواب ونوعيتها، والأهمية المعقودة على الصفحات الأولى والأحداث الداخلية والأبواب الأدبية. هذا المقال وما تلاه فى السلسلة التى حملت عنوان: "كلام فى المطبوعات"[٣] تكون بحثا عن تاريخ الصحافة المكتوبة فى الغرب والشرق. وفيما يلى وعلى سبيل المثال بعض من خطوطه العريضة:

---

(١) "ولكننا على كل حال نستدل من ذلك الإقبال عليها منذ ظهورها على أن المشتغلين بصناعة التحرير لو اجتهدوا فى ترقية المطبوعات والتفنن فى تحسينها على نسق المطبوعات الغربية لوجدوا من الناس إقبالا عظيما عليها وانتشارا كبيرا لما ينفع فى تهذيب النفوس وترقية الآداب... وعجب أشد العجب لأرباب الجرائد الذين يعتبرون أنفسهم حداة الأمة وهداة الملة ويعتبرهم الناس فى مقام المعلم المرشد والدليل الهادى للسير بهم فى طريق المدنية الغربية كيف أنهم يتقاعدون ويتكاسلون فى صناعتهم ويرضون لها بالتأخر والانحطاط ولا يأخذون هم فى مقدمة الناس فى تقليد الغربيين لتحسين صناعتهم وإتقانها؟".
مقال: "كلام فى المطبوعات" ١٩٠١ العدد ١٥٧ الصفحة ١ العمودان ٢-٣.

(٢) "والذى ينظر إلى الجرائد الشرقية وإلى الجرائد الغربية... يحكم فى الحال بأنها لم تبلغ إلا سن الطفولة".
"مصباح الشرق" ١٩٠١ العدد ١٥٧ الصفحة ١ العمود ٣.

(٣) مقال: "كلام فى المطبوعات"، مصباح الشرق ١٩٠١ العدد ١٥٧ الصفحتان ١ – ٢.

- تاريخ الصحافة المكتوبة الأوروبية (راجع العدد ١٥٧ الصفحتان ١-٢) راجع ما سبق.

- التاريخ المالى للصحافة المكتوبة (راجع العدد ١٥٨ الصفجتان ١-٢) ومورده الرئيسى من الإعلانات الدعائية.

- تاريخ الصحافة الأميركية والإنجليزية (الأنجلوسكسونية) (راجع العدد ١٥٩ الصفحتان ١ – ٢) ومنه أساسا تاريخ "التايمز" ومهنة المحرر. جدير بالذكر أنه بالنسبة إلى الدوريات كانت المؤسسات تشكل المحرك المالى ومثال ذلك المدرسة العليا للصحافة بباريس ومؤسسة الصحفيين فى الجمهورية الفرنسية.

أكد البحث على تنوع الدوريات فى فرنسا على النحو التالي:

٣٤ جريدة مخصصة للموسيقى.

٢٨ جريدة مخصصة للمسرح.

٢٧ جريدة مخصصة للغاز والكهرباء.

٢٦ جريدة مخصصة للأنبذة والكحوليات.

١٦ جريدة مخصصة للنساء.

١٤ جريدة مخصصة للنشر.

١٢ جريدة مخصصة للسكك الحديدية.

١١ جريدة مخصصة للطهو.

جريدتان مخصصتان للأمهات.

جريدة مخصصة للزواج.

- تاريخ الصحافة الشرقية المكتوبة (راجع العدد ١٦٠ الصفحتان ١-٢) وفيه تم التنويه أنه لا يوجد محرر واحد قبل هذا المقال قد تناول هذا التاريخ.

ويستعرض هذا التاريخ الصحف العثمانية مشيرا إلى الدوريات الأولى منها، ثم يتناول حرية التعبير والنقد والمعارضة.

• تاريخ الصحافة الشرقية – تابع – (راجع العدد ١٦١ الصفحتان ١-٢). الأمر يتعلق هنا أيضا بالصحافة العثمانية وحرية التعبير التى أدت إلى تكاثر الصحف الرديئة؛ نظرا لافتقاد الحرية. وقد وصل عدد هذه الصحف الرديئة فى مجملها إلى أربعمائة صحيفة. ولم يرد فى هذا التاريخ إلا الشيء النذير عن المطابع ودور النشر. وقد اختتم المقال بالحديث عن الصحف السورية – اللبنانية وورد به أسماء أقدمها.

• تاريخ الصحافة بشكل عام (راجع العدد ١٦٢ الصفحتان ١-٢) منذ عهد الرومان والإسكندر الأكبر ورونودو حتى عام ١٩٠٠. ويشمل هذا المقال الطباعة بأصولها الصينية وبالتالى الشرقية، إلى جانب الصحف الأوروبية الأولى التى تم ذكرها والإشارة إلى تواريخ صدورها. ومجمل ما ورد هنا يشكل دليلا مصغرا للصحافة المكتوبة وتاريخها.

• تاريخ الصحافة المصرية (راجع العدد ١٨٢ الصفحتان ١-٢) وهو أقلها استنادا إلى مراجع ومصادر، ولم ترد به سوى أسماء بعض الصحف مع شيء من مقالاتها على سبيل المثال لتبيان كيف تقدمت الصحافة المصرية فيما لا يزيد عن ثلاثين عاما طبقا لما جاء فى "مصباح الشرق".

كان تاريخ الصحافة المكتوبة إذن واحدا من الموضوعات المتناولة بالبحث والتحليل من قبل الصحفيين أنفسهم. التفتت صحيفة "مصباح الشرق" إلى هذا الأمر وكذلك الدوريات المعاصرة لها[١]. ونذكر هنا ختاما للأمر أن إبراهيم قد أعلن فى أكثر من موضع وليس فقط فى المقالات التى تم تخصيصها للصحافة المكتوبة،

---

(١) راجع "صحيفة الهلال" ١٨٩٨ الصفحات: ٧٣-١٨١، ١٤٦-١٤٧، ١٨٥، ٣٤٢، ٤٣٩-٤٤٠، ٥٤٢-٥٤٩، ٦٤٧، ٧٢٢-٧٢٤... إلخ.
راجع "صحيفة المنار" ١٨٩٨ -١٨٩٩ الصفحات: ١٢٤، ٣٣٩-٣٤١، ٣٩٩، ٥٢٣، ٦٥٥-٦٦١، ٩٣٤ بالإضافة إلى ١٩٠١ الصفحات ٥٧٢-٥٧٦.
"الأستاذ" ١٨٩٢ العدد ١٢ الصفحات ٢٠٨-٢١٠، ١٨٩٣ العدد ٣٨ الصفحات ٩٠٥ – ٩١٨.
"الجامعة" السنة الثالثة العدد ٧ الصفحات ٣٩٧ – ٤٠٣ العدد ٨ الصفحات ٥٦١-٥٦٨.
ستكون خلاصة الفكر الصحفى بشأن الصحافة المكتوبة فى القرن التاسع عشر موضوع أبحاثنا فى المستقبل. تم لنا حتى الآن تجميع بعض المعطيات فى هذا الصدد وكنا نود إدراجها فى هذه الدراسة إلا أننا رأينا أنها ستثقل النص ولا تحظى بالقيمة التى تستحقها.

أهدافه ومسلكه وبعبارة أخرى أخلاقياته الصحفية. وقد بين إبراهيم فى هذا الصدد وفى إطار علاقاته بالصحافة المكتوبة بشكل عام النموذج الصحفى الواجب الاحتذاء به من بين كافة النماذج المتاحة وهو الصحافة الأوروبية(١) تبينت أهدافه بوضوح: تحسين العادات وتعليم الناس(٢)، وأعلنت أدواته: التوقف عن المديح الذى تنقصه الأسانيد، الإفصاح عما يجب الإفصاح عنه مع الحرص على قول الحق والدعوة إلى عمل الخير والامتناع عن عمل الشر.

رأت صحيفة "مصباح الشرق" أنها فى ذلك تحديدا تختلف وتتميز عن الصحف الشرقية الأخرى(٣). بقى إبراهيم إذن على مدى حياته الوظيفية كلها وفيا لمبادئه. لم يكل من الإعلان عن طموحاته لأمته ولم يتوقف يوما عن الدعوة لعمل الخير والنهى عن عمل الشر والنداء بخلافة شرعية، وبالحرية والحق الدستوري. شرع فى ذلك منذ كتاباته فى صحيفة "الاتحاد" حتى أنفاسه الأخيرة فى مقالاته المنشورة فى "المؤيد". وقد ترجع بداياته فى هذا الصدد إلى "نزهة الأفكار" ١٨٧٠ أول صحفه على الإطلاق التى تعد أول صحيفة مصرية حرة. كان هدفه الأسمى والأعلى هو تربية الأمة وتعليمها.

أما مصادره فقد بقت جامعة لكل ما هو داخلى وخارجى فى آن واحد؛ أى شرقية وغربية. بقيت السخرية والمقارنة الأداتان الرئيسيتان فى مجموعة أدواته البيانية والبلاغية التى يستخدمها فى المحاجاة. فى صحيفته "مصباح الشرق" كشف إبراهيم غير مرة عن نظامه وقانونه الأخلاقى الصحفى وعن أدواته فى الخطاب.

---

(١) "وسلكنا بجريدتنا مسلك الجرائد الغربية" مقال: "لا تلومن إلا نفسك".
مصباح الشرق ١٩٠١ العدد ١٣٥ الصفحة ٣ العمود٣.

(٢) "ورأينا ذلك أشرف واجب تقوم به الجرائد فى تقويم الأخلاق وتهذيب النفوس".
مقال: "لا تلومن إلا نفسك"، مصباح الشرق، ١٩٠١ العدد ١٣٥ الصفحة ٣ العمود ٣.

(٣) "ولم نرضَ لأنفسنا إلا قول الحق، وإن أمرَّ مذاقه واتباع الشرع الشريف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وسلكنا بجريدتنا مسلك الجرائد الغربية فى الكف عن المديح والإطراء بغير استحقاق وفى المجاهرة بانتقاد الأعمال السيئة والأفعال الذميمة.
مقال: "لا تلومن إلا نفسك" مصباح الشرق ١٩٠١ العدد ١٣٥ الصفحة ٣ العمودان ٢- ٣.

كذلك كان الأمر فى الخطاب السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى لإبراهيم المويلحي. ولكن ماذا عن خطابه الأدبى خاصة ذى الطابع الروائى قياسا عل الخطاب المرجعى فى "مصباح الشرق"؟ فى طيات هذا الأخير سرد رئيس لم يلتفت إليه الكثيرون ولم تقدر قيمته رغم أهميته الواضحة.

هناك نصوص سردية أخرى غير منشورة تعلمنا أيضا الكثير فى هذا المضمار غير أنها حتى يومنا هذا ما زالت مجهولة. وتشكل دراستها العنصر النهائى الذى سيسمح لنا بتجميع واستخلاص الفكر النهوضى المويلحى بين الخطاب الصحفى المرجعى والخطاب الروائى الخيالي.

الفصل التاسع

مرآة العالم (١٨٩٩ - ١٩٠٠)
أعمال إبراهيم المويلحى الأدبية: بين الصحافة والأدب
حال العالم من خلال المقال المسلسل

"تقضت الأعمال الروائية الكبرى مبدأ الخيال الذى غذاها، وتقدمت إلى مرجعية لها فى عالم الواقع الذى يعد ببلوغ الغاية المنشودة adquerm[١]".

كان إبراهيم المويلحى من أولئك الذين ساهموا فى ابتداع تطبيقات نوعية جديدة، ذلك إلى جانب كونه مجدّدا وداعيا إلى التجديد مع احتفاظه بمركز وسط فى الأصالة والحداثة فى كافة المجالات المجتمعية ومنها اللغة العربية. والأمر هنا يتعلق بنوع من الوقائع والحوليات المروية والمنشورة فى صورة حلقات فى الدوريات المصرية، وكان من الممكن أن تكون هذه الوقائع مقالات أو قصصا خيالية مرجعيتها العالم الواقعي.

وكان من السهل إدراك ذلك سريعا؛ نظرا لكون الإحداث الواقعية المعاصرة مدرجة بها بكل دقائقها أو مأخوذة باعتبارها موضوعات رئيسة أو نقاط استدلال بها. بالإضافة إلى أكثر الحلقات المسلسلة شهرة التى نشرت فى صحيفة "مصباح الشرق": "مرآة العالم" ١٨٩٩ - ١٩٠٠ و"فترة من الزمان" ١٨٩٨ - ١٩٠٢ "كانت هناك نحو إحدى عشرة سلسلة مروية[٢] غير منشورة. هذه النصوص كانت على

(1) Rastier, 1996, p. 17, 16 -؛ citant Jacques, 1992, p 112.

(٢) راجع المجلد الثانى المجموعة ٢ والمجموعة ٣ حيث أعيد وضع هذه النصوص وقد نشرت تباعا فى الأعداد التالية من صحيفة "مصباح الشرق" تحت إدارة إبراهيم المويلحي (راجع المجموعة الثانية فى العدد ٧٠ (١٨٩٩) الصفحة ٣ "المصريون فى الغربة وأمراؤهم" والعدد ٧٣ (١٨٩٩) الصفحة ٣ "الرجل ذو الوزارتين" والعدد ٩٥ (١٩٠٠) الصفحتان ٢ - ٣ "وليمة فى المنام" والعدد ١٥٦ (١٩٠١) الصفحة ٣ "فصل السفر".
راجع تحت إدارة محمد المويلحى المجموعة الثالثة فى العدد ٢٠١ (١٩٠٢) الصفحتان ٢ - ٣ "حديث الفرح"، والعدد ٢٢٢ (١٩٠٢) الصفحة ٣ "جلسة فى غير مجلس"، والعدد ٢٢٧=

نمطها وإن اتخذت شكلا وطريقة مغايرة وتنتمى إلى ما نطلق عليه "القصص الخيالية الدورية المويلحية".

هذا النمط الصحفى – الأدبى هل يمثل استمرارية للمقالات الصحفية فى "مصباح الشرق" التى ينشر فى إطارها؟ إذا كان الرد بالإيجاب فما الكيفية التى يتم الأمر بها وأى العلاقات تربطه بوسيلة النشر هذه؟

كيف تطورت أعماله الأدبية واستطاعت أن تكون ذات كيان منفصل خارج نطاق الصحيفة التى ساهمت فى أول ظهور لها؟ وأى صلات، إذا أمكن الحديث عن صلة يربط بين هذه الأعمال وبعضها البعض؟ وأى دور لعبته الصحيفة فى هذه العلاقة الصحفية الأدبية فى "مصباح الشرق"؟ أيندرج الأمر تحت لفظة الإحياء أم لفظة الاقتباس أم الاثنتين معا[١]؟

ولعلمنا أخيرا أن إبراهيم المويلحى كان يقتدى بالصحافة الغربية فى تصميم صحيفته "مصباح الشرق" وتحريرها التى كان محمد المويلحى محررا بها يثور تساؤل: هل أخذا المقال المسلسل فى صورة حلقات من الصحف الغربية؟

وسواء كان الرد بالإيجاب أو بالنفى يدفعنا الفضول إلى معرفة المواصفات المشتركة بين سلسلة المقالات المويلحية، وتلك التى تماثلها فى الصحف الأوروبية خاصة الفرنسية التى أثبت محتوى مكتبة آل المويلحى قراءتهما لها[٢].

سؤال آخر يثور عن الصلات الجامعة للروايتين اللتين نشرتا فى صورة حلقات فى "مصباح الشرق" وعما تمثله المساحة التى أفردتها الصحيفة للسلسلتين من المقالات الروائية. كيف شغلت السلسلتان المساحة؟ كيف اقتسمتاها؟ وكيف تضامنتا فيها؟ كيف يمكننا فى نهاية الأمر تقييم المقالات الروائية فى ضوء إجمالى العمل الصحفى المرجعي؟

= (١٩٠٢) الصفحة ٣ "الناظر وصاحبه"، والعدد ٢٣٨ (١٩٠٣) الصفحة ٣ "بين ناظر وسائح"، والعدد ٢٤٢ (١٩٠٣) الصفحة ٣ "منتهى السلطة والقدرة"، والعدد ٢٥٤ (١٩٠٣) الصفحة ٣ "مواضيع النظار"، والعدد ٢٥٩ (١٩٠٣) الصفحة ٣ "عمل جليل".

(١) ناقشنا على مدة هذه الدراسة ما يعنى بالحيز الواقع بين الإحياء والاقتباس، بين العناصر الداخلية والخارجية، أى هذه المساحة الواقعة بين الأنا والآخر وبين الشرق والغرب. راجع فى هذا الصدد Hallaq & Toelle ٢٠٠٧ الصفحة ٧٨٤ خاصة الأجزاء الرابع والخامس والسادس بالإضافة إلى Toelle & Zakaria، ٢٠٠٣ الصفحة ٣٨٨.

(٢) راجع المجلد الثانى، الملحق السابع: "بعض القراءات لإبراهيم ومحمد المويلحي".

أى علاقة تربط بين هذه الكتابات الروائية المويلحية مع الكتابات السردية من النوع ذاته فى صحيفة "مصباح الشرق" ومع أنواع الكتابات الخيالية الروائية والسردية فى الصحف الأخرى محل البحث وصحف تلك الحقبة الزمنية بشكل عام؟ والاستفهام الأخير عما إذا كان من الممكن اعتبار هذه المقالات اليومية أشبه بمقالات مستمرة تشكل كتابات مقالية ذات نوعيات متباينة أو أعمال أدبية تكون فى مجموعها كيانا روائيًا خياليًا؟

فى محاولة منا للرد أو إيراد عناصر تساعد على الرد، سنحاول فى بادئ الأمر التعرف على هذه النصوص السردية المنشورة فى "مصباح الشرق"[1].

بتلخيص ما ترويه هذه النصوص والتقنيات السردية المستخدمة فى ذلك. سوف نستدعى تباعا روايات هذه الفترة وما تميزت به مما سيسمح لنا بالمقارنة المتدرجة، وستتم بعد ذلك مضاهاة النتائج فى ضوء وسيلة النشر المستخدمة صحيفة كانت أم كتابا. يلى كل ذلك دراسة لنوعية هذه النصوص السردية. استنادا إلى كل هذه المعطيات سندرس كيف وفى أى شيء تحديدا تكوّن هذه النصوص السردية والمقالات الصحفية كلا متكاملاً من عدمه وفى أى شيء تعد عنصرا يوميا زائلاً ومتبددا أو مقالاً مستمرًا، فيم انتماؤها للمقال وفيم انتماؤها للعمل الأدبي؟

فى مرحلة لاحقة سنرى أيضا كيف تكوّن الأدب العربى النهضوى، هذا الأدب المرحلى رغم استمراره، أدب النهضة العربية فى القرن التاسع عشر. مجمل القول: إننا سندرس أى الأدوار لعبتها هذه النصوص السردية الروائية والخيالية فى السيرورة النهضوية الصحفية وحدها باعتبارها سردا أدبيًا بالإضافة إلى كونها وحدة أو مجموعة صحفية.

(١) بالنسبة إلى المادة محل البحث كما ذكرنا فى كافة مراحل هذه الدراسة فهى النسخ الأصلية التى تم استخراجها وإعادتها إلى هيئتها الأولى (راجع المجلد الثاني) وليست منشورات حديثة. (Allen 2002, 2007 a & b) واقع الأمر أنه قبل ظهور هذه الأعمال المنشورة المثرية كناقد شرعنا فى أبحاثنا استنادا إلى النصوص الأصلية. اخترنا إذن عدم تغيير مصادرنا بعد مضينا فى البحث. وجدير بالذكر أننا قد لاحظنا فروقا بين النسخ الأصلية وتلك التى تم نشرها مما عزز اختيارنا للأولى. ونشير على سبيل المثال إلى أن سلسلة "فترة من الزمن" قد أعيد نسخها بالكامل وألحقت بها المقالات التى لم يتم ضمها إلى عملية نشرها فى صورة كتاب التى قام بها روجر آلن Rogen Allen (راجع ٢٠٠٢ (a) الصفحات ١١٩ – ٤٥٨ و ٤٥٩ – ٥٤٧ وأن مرآة العالم قد حدث لها الأمر ذاته (راجع Allen ٢٠٠٧ (a) الصفحات ٢٠٢ – ١٦١، و Djaballah Boulahbel ٢٠٠١ الصفحات ٣٧ – ٨٢).

١- البناء السردى وقصة وقائع المجتمعات وأخبارها: مرآة العالم

ستتم هنا دراسة "مرآة العالم"، وإظهار هذا النص الأدبى إلى النور مع تبيان القصة؛ أى المحتوى والبناء السردى وهو القالب الحاوي. ونعنى هنا بالمحتوى "موضوع السرد وما يرويه"؛ أى القصة كما يُعَرِّفها جينيت[١] أما الحاوى فطبقا لجينيت أيضا فهى السرد[٢] ذاته؛ أى الكيفية التى رويت بها القصة (الراوي[٣] والمسرود له أو المروى له[٤] التبئير[٥] زمن السرد)[٦][٧].

---

(١) فيما يتعلق بعلم الحكى أو السرد راجع جينيت ١٩٧٢ ص٢٨٢ و١٩٨٣ ص٣٤٥.

(٢) السرد: هو قص الأحداث وبعبارة أخرى هو إنتاج الحكاية. لدينا إذن الحكاية / السرد كما أنه لدينا التلفظ / المتلفظ به. وهذا يعنى أن لدينا فعل الإبداع / النص المبدع والسرد يحيلنا إلى التقنيات وإلى اختيارات الخلق والإبداع التى تتحكم فى إخراج النص (الخيالى وغير الخيالى لأن كل حكاية ليست بالضرورة خيالية) وتنظيمها (أو طريقة تقديمها).

(٣) الراوي: هو القائم بقص أو حكى القصة (يطلق على المحتوى أيضا لفظة المؤدى أو المدلول) والراوى هو أحد شخوص السرد ولا يجب الخلط بينه وبين المؤلف فهذا الأخير كائن من لحم ودم. الراوى الظاهر أو غير الظاهر ينتمى لعالم السرد فقط ولا ينتمى لغيره. ونظرا لكون وجوده لا يكون إلا فى النص أو بواسطته فالراوى هو المتلفظ الداخلي؛ أى الذى يتحدث فى داخل النص. مجمل القول: إن الراوى هو نتاج ألسنى لا يمكن تمييزه ووضع اليد عليه إلا فى النص. أما المؤلف فهو كائن حى لا يمكن إيجاده إلا فى الواقع. ولا يمكن للاثنين أن يتماثلا كما أنه لا يجب ذلك والراوى يمكن أن يكون داخل السرد أو خارجه. وهو فى داخله حين يساهم ويشارك فى القصة باعتباره من شخوصها ويكون خارجه حين يقتصر الأمر على حكيه لها دون أن يكون له دور فيها.

(٤) المسرود له – مثله فى ذلك مثل السارد أو الراوى – ليس إلا كائنا خياليا (ألسنى) لا وجود له إلا فى النص هو ذلك الشخص الذى يسمع القصة ويقرأها داخل النص. وهو غالبا ما لا يكون له إلا وجود مضمر وينظر إليه باعتباره القارئ النموذجى (المثالي). وهو حين يظهر يكون ذلك من خلال الرموز اللغوية (الألسنية) مثل الضمائر الشخصية (أنت أو أنتم) وهو بخلاف القارئ الذى ينتمى إلى ما هو خارج النص (السياق الظرفى – العالم الواقعي) ينتمى إلى النص (السياق – العالم السردى وبالتالى غير الواقعى والخيالي).
يمكننا إذن القول: إن السرد والسارد والمسرود له ينتمون إلى الإيهام بالواقع (صورة للواقع – تصور ذاتى وخيالى للواقع)؛ أى للنص، فى حين أن المؤلف والقارئ ينتميان إلى العالم الواقعي. لكل من هؤلاء وظيفة محددة سنشير لها تباعا فى الدراسة.

(٥) "هى واحدة من طرق السرد". وتحاول دراسة التبئير الرد على سؤال "من يرى؟" (Jouve، ١٩٩٧،٣٣). بتعيين من يرى طبقا لنمط السرد وليس من يتكلم (استنادا إلى الصوت). الأمر يتعلق إذن بتحديد ذلك الذى من خلاله يرى القارئ القصة؛ أى المبئر ونعنى الشخص الذى يرى فى النص وفقط فى النص.

(٦) سيكون علينا دراسة الزمن السردى (السرد الخاص بالعالم السردي؛ أى الروائي) ومقارنته بالزمن المرجعى (الزمن الحقيقى الخاص بالعالم الواقعي).

(٧) سلسلة ضامنى صحة الخطاب المنقول وصدقه.

"ومرآة العالم" هى قصة شاب يبحث عن حقيقة الإنسانية، عن فهم حقيقى للعالم والكيفية التى يسير بها. مدفوعا بفكرة المساهمة فى تحسينه وتطوير مجتمعاته، انطلق الراوى الداخلى موسى بن عصام فى مغامرته. بدأت سفرته التى كان الهدف منها اكتساب خبرة بالحياة بإسناد أتاح ظهور الراوى الخارجى من خلال عبارة "حدثنا"(١). قدم لنا هذا الراوى موسى بن عصام وقص لنا قصته فى تسع حلقات سنسميها هنا "مقامات"(٢). تحتل السفرة قلب الحكاية وتشكل القاعدة المكانية للقصة وموضوع السرد الذى يعد فى الوقت ذاته مكان السرد.

يصف لنا موسى بن عصام فى البداية ولعه بالقراءة والمعرفة ويحدد أن القول الربانى هو الذى يضاعف من ظمأه للمعرفة ويدفعه دوما لتعلم المزيد وتحدى المخاطر أثناء رحلاته الاستكشافية خاصة ما جاء منه فى هذه الآية(٣):

{قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ} [الأنعام: ١١]

على هذا النحو أضيف الأمر الإلهى إلى رغبة موسى بن عصام(٤) الشخصية مما جعل المغامرة أكثر عذوبة(٥). السارد موسى بن عصام داخلى وهو المنوط به

---

(١) فى أطروحة الـ "DEA" (راجع جاب الله – بولحبال ٢٠٠٥ – ١٥٤) التى قمنا بتقديمها وفى المقالات التى ستنشر لاحقا، قدمنا التسع حلقات فى تسع مقامات. ولسنا هنا بصدد مناقضة ما قلناه سابقا؛ وإنما بصدد تنميق أقوالنا. سنرى (راجع الفقرة ٤ من هذا الفصل) بتفصيل أكبر هذه المسألة الخاصة بنوع هذا الحكى وما يجاوره فى الباب ذاته.

(٢) بشأن هذه التسمية وبالتالى نوع "المقامة" وأخيرا نوع الحكى فى قصتى المويلحى راجع الفقرة الرابعة من هذا الفصل. من المراجع التى نرى العودة إليها نذكر هنا: Kilito , 1983, P 296.

(٣) السورة السادسة "الأنعام" الآية ١١.

(٤) نسوق هنا على سبيل الاستدلال على أسلوب النص المقطع الذى قمنا بتلخيصه عاليه: "ومما زاد فى شغفى وضاعف من كلفى لمتابعة الارتحال ومزاولة الانتقال حبا فى الاطلاع على كل البقاع قوله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ} [الأنعام: ١١] فاتحد الأمر بالرغبة فحلت لى الغربة." مرآة العالم – المقامة الأولى، الفقرة الثانية.

كل ما نحيل إليه من معلومات يُستقى من النسخة المعدلة لا من النسخة الأصلية وتتبعه المقامة والفقرة المراد الإشارة إليهما. لسهولة متابعة هذه الإحالات تم ترقيمها من ١ إلى ١٥٨ على مدى التسع مقامات. (راجع المجلد٢ المادة٢ الفقرة h).

(٥) فيما يتعلق بالنص راجع المجلد الثانى المادة ٢ الفقرة h حيث توجد النسخة المعدلة (المجموعة فى نص واحد وليس فى تسع مقالات مسلسلة). راجع الملحق العاشر الفقرة h فى النسخة الأصلية الورقية. =

رواية القصة لنا باستعمال الضمير الشخصى للمتكلم "أنا". وهو يشرح لنا أن الأرض هى السكن والوطن[1] للإنسان وبالتالى فلا يفترض أن يجهل الإنسان سكنه وأن ينطوى على نفسه وينزوي:

"وإنما الأرض والفضاء كتاب

فاقرءوه ونقبوا فى الكتاب"[2].

ويذكر السارد الداخلى بعد ذلك أن اكتشاف العالم على هذا النحو سيمكن البشر من كشف غوامض الطبيعة والآثار التى خلفتها البشرية منذ آلاف السنين. ويكمن ثراء الإنسان طبقا لما يراه فى البحث والاكتشاف، أما ضياعه وخسارته فيكمنا فى الانزواء ولهذا السبب تحديدا اختار موسى بن عصام أن يجوب العالم[3]. سافر دون أن تكون له وجهة، عبر الفيافى والبحار بحثا عن هذه المعرفة التى كان يتوق دوما لها.

فى رحلة بحرية له هبت عاصفة على السفينة التى كانت تقله فغرقت. رأى موسى بن عصام وكل من كانوا معه على متن السفينة الموت رأى العين كضحايا الحروب الذين تتلاطم فوق رءوسهم السيوف.. هزمتهم العاصفة وقال القدر كلمته.

= راجع المجلد الثانى المادة ١ الفقرة ؛ والملحق التاسع فى النسخة الأصلية الإلكترونية.
ونشير هنا إلى أن الجزء المحتجز هنا يلغى ذلك الذى استخدمناه فى أطروحة الـ DEA الخاصة بنا (راجع جاب الله – بولهبل ٢٠٠٥، ١٥٤) لأننا قد راجعناه اعتبارا من هذا التاريخ.
وجدير بالتنبيه أن إعادة النشر الحديثة للنص التى قام بها آلن Allen (٢٠٠٧، ٢٤٠) فى كتابه: "إبراهيم المويلحى – الأعمال الكاملة": "ليست إلا نشر لمجموعة نصوص لإبراهيم لا لأعماله الكاملة. والعنوان جيء به لمجموعة ما نشر ولم يكن من اختيار المؤلف. ونشير أخيرا بكل أسف أن الواجب يفرض علينا القول: إن هذا العمل المنشور، على الأقل فيما يخص نص "مرآة العالم" يختلف فى بعض المواضع عن النص الأصلي: راجع الصفحات اللاحقة ٣٣٢ – ٣٣٣ رقم ٩٤١.

(١) قناعة إبراهيم أن الأرض هى الوطن وهى سكن ومحل إقامة المسلمين لم تتغير. راجع الفصل الثامن الفقرة الرابعة.

(٢) "والأرض للمرء دار ومن العجز ألا يعرف المرء داره، وأن ينزوي....
وإنما الأرض والفضاء كتاب فاقرءوه ونقبوا فى الكتاب".
"مرآة العالم" المقامة الأولى، الفقرة الثانية.

(٣) "مرآة العالم" المقامة الأولى، الفقرة الثالثة.

ولكن يدا التقطته من هذا الخضم وألقت به فى جزيرة مهجورة[١]. من ذا الذى قام بذلك؟ يد من تلك التى التقطته؟ أين يكمن السارد الداخلي؟ فى أى العالمين، ما دام يقول: إنه رأى الموت رأى العين وأن القدر قد قال كلمته؟ هل قضى نحبه؟ هل انتقل إلى العالم الآخر أم بقى على قيد الحياة؟

يشكل هذا المقطع الخاص بالغرق وباليد التى ألقت به فى مكان غير واضح المعالم نوعا من الإسراع بالسرد والحبكة الروائية. يصف لنا السارد الداخلى فيه المكان القفر المهجور مبادرا إيانا القول: إنه ما إن ثاب إلى رشده وشكر ربه لإنقاذه ازداد قناعة ويقينا بما كان قد فكر فيه على الرغم من كل ما ألم به من أخطار. عندئذ واصل السير دون أن تكون له وجهة محددة على الرغم من الجو القائظ، ولمح آنذاك شيخا أهلك الزمن والدهر قواه وعافتهما نفسه، كانت تبدو عليه علامات التقوى وينبعث من قسماته نورا ربانيًا. ذكر موسى بن عصام أنه بعد أن ألقى عليه التحية بادره الشيخ بالقول: "حال الله بينك وبين الموت وأنقذك من الغرق. أدركتك إذن الرحمة الإلهية فما مطلبك يا ابن عصام؟

يقول السارد: "استشعرت حين نادانى باسمى وبدا عارفا بحكايتى بسطوة تنبعث منه، وأدركت حينئذ أن ما كان قصيًا قد دنا، وأننى على وشك تحقيق ما أهدف إليه[٢]. كان موسى بن عصام يحدث نفسه بذلك. استرد السارد الداخلى بعد ذلك خيط الحديث عن طريق الخطاب المباشر، وروى ما كان من لقائه بصاحب اليد وحواره معه (وليس ما كان فى مناجاة النفس) ذلك الذى سيطلق عليه لاحقا لقب "الشيخ". غير أن موسى بن عصام ما لبث أن أشار فى رده على محدثه إلى تفضيله مسمى "مولاي"[٣]. توثقت بين شخصيتى الحكاية الوحيدين صلة أشبه بما بين المعلم ومريده أو المعلم وصبيه.

---

(١) "وحدقنا فى وجه الموت تحديق النسر فى عين الشمس. ووقفنا وقفة المقتول بين السيف والرمس. وقد تغلبت جيوش العواصف، وقضى الأمر، وانكفأت السفينة فالتقمها البحر. وإذا بيد قذفتنى إلى جزيرة فقراء".
"مرآة العالم" المقامة الأولى الفقرة السابعة.

(٢) "فاستروحت منه ريح الولاية حين نادنى باسمى، وعلم علمى، واستبشرت بتقريب البعيد وتيسير ما أريد". "مرآة العالم" المقامة الأولى الفقرة الثامنة.

(٣) المفهوم الصرفى لكلمة "دنيل وهادى". راجع Jacqueline Chabbi ١٩٩٧ الصفحات ٧٩٣ – ٨٠٠ وقائمة المراجع التى تحيل إليها.

أفضى السارد للشيخ حينذاك تمام إدراكه أن الله قد أكسبه قدرات خارقة تسمح له برؤية ما تعجز البشرية عن رؤيته وأنه بالنسبة إليه لا يوجد شيء مستحيل.

أوضح موسى بن عصام للشيخ أنه الشخص الوحيد القادر على مساعدته للوصول إلى الهدف الذى من أجله ترك ذويه وعبر الأراضى والبحار. "حاجتى إليك أن تفصلنى عن جو الأرض إلى جو السماء فأرى هذه الكرة فى حركتيها حول الشمس وعلى نفسها، وأرى من عليها فى أحوالهم وأعمالهم لأتعظ وأعظ وأستيقظ وأوقظ وأذكر المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه فتكون سفينة الغرق بك سفينة النجاة. وأكون قد اجتنبت بك من تعب الحياة راحة الحياة"(١).

هذا مطلب النهضويين ومطلب السارد الداخلى ذلك الشخص الذى يمثل أولئك الرجال، المنتمين للنهضة العربية، الباحثين عن يقظتهم وعن إيقاظ الأمة والإنسانية (سكان الأرض). هذا المطلب خاصتهم. واقع الأمر أن علم المصطلحات شاهد على ذلك: "الاستيقاظ والإيقاظ، الاتعاظ والوعظ". ويعد مُعلم وهادى ومرشد المستقبل؛ أى موسى بن عصام الذى يتمنى أن يتعلم ليعلم وأن يستيقظ ليوقظ هو ذلك الشيخ الذى تفوق معارفه معارف البشر والذى تنبعث منه أنوار وهالة ربانية.

يسعى هذا الحكى إلى إحداث "تأثير الواقع". بواسطة هذا التأثير يحيلنا إلى العالم الواقعى مضيفا إليه العالم الروائى الخيالي؛ أى العالم السردى لهذا النص. ونجد هنا من ناحية أن لدينا الأرض والبحار والصحراء القفر التى يعرفها العالمان العربى والإسلامى، ومن ناحية أخرى أن لدينا جزيرة مهجورة نائية وشيخا بالإضافة للعناية الإلهية. يعنى ذلك أن لدينا عالما مألوفا وآخر مجهولاً، غامضا ومتزهدا. إلا أن كل ذلك لا يمنع وجود كل موضوعات النهضة الرئيسة التى تعد هى الأخرى مرجعا للعالم الواقعى والمألوف ما دامت معاصرة وتتم مناقشتها يوميًا فى الصحافة كما لاحظنا.

---

(١) "مرآة العالم" المقامة الأولى، الفقرة التاسعة.

يقوم الشيخ فى أول الأمر بتحذير السارد من مشروعه ويبرز له طابعه المحفوف بالمخاطر ويتثبت فى الوقت ذاته من مدى قوة إرادته. من هنا يمكن القول: إنه منذ السطور الأولى للقصة تتسلل شيئا فشيئا نوع من التناص بين الشخصية الرئيسة (الشيخ) والسارد (موسى بن عصام). وواقع الأمر أن اسم "موسى" نفسه ليس وليد الصدفة؛ وإنما هو اختيار سردى "يوحى بالفردية". وهو الاختيار السردى يمثل إحدى الأدوات الأكثر فعالية فى "تأثير الواقع" (Jouve ،١٩٩٧ ،٥٧) ويتضح لنا هنا أنه الأداة التى يمكن بها قياس آراء الجموع؛ أى أنه السمة والجُدة العامة والشائعة للمتلقى المأمول وهو الأمة. هذه الأمة التى نعلم جميعا أن "مصباح الشرق" تتوجه إليها وتوجه إليها كل المقالات بما فيها "مرآة العالم". نقصد هنا هذه الوجهة العامة الدينية الخاصة بالرسل، وموسى هنا تحديدا، الذى يعد نبيّا قرآنيا وتوراتيا أيضا. من هنا فإن حدث غرق السارد الذى يحمل اسم (موسى) وهو المعروف فى القرآن "بكليم الله"[١] ليس ببعيد عن القصة القرآنية الخاصة بسفينة الخضر[٢] معلم موسى وما كان من خرقها أثناء السفر لاختبار موسى كما يختبر الشيخ موسى بن عصام.

ونشير هنا إلى أن نجاة موسى بن عصام الأشبه بالمعجزة وفراره من قبضة الموت يقربانه من أنبياء وشخصيات مهمَّة أخرى فى الكتب المقدسة، شخصيات كلها نجت من الموت؛ مثل: إبراهيم ويوسف ومريم[٣]. ويمثل هذا الاختيار لاسم السارد الداخلى نوعا من الإيمان ببشرية واحدة ومتفردة هى صاحبة أديان التوحيد. واقع الأمر أنه لا يمكن اعتبار اختيار إبراهيم لاسم موسى وعدم اختياره لاسم أحمد أو أى مشتق من أسماء رسول الإسلام، أمرا غير ذى بال. وفى الاسم دلالة على سعة الأفق الدينى والسياسى أيضا هذا إذا أخذنا فى الحسبان الحماية الإنجليزية الواقعة آنذاك على مصر وأن القائمين عليها مسيحيون. قيمة أخرى تضاف لهذا

---

(١) ماسون Masson ١٩٦٧، الجزء الأول الصفحة ٥٨ LV III.

(٢) فيما يتعلق بقصة الخضر وموسى راجع الجزائرى (٢٠٠٣ ثلاثة أجزاء) وسورة الكهف ١٨ الآيات من ٦١ إلى ٨٢.

(٣) راجع ماسون Masson ١٩٦٧ الجزء الأول الصفحات ٥٢-٥٣ LII- LIII.

الاختبار أن به عرفانا بالتاريخ المصرى القديم، ذلك التاريخ الفرعونى الذى اكتشف المصريون آثاره وبقاياه مع المستشرقين فى القرن التاسع عشر. ويمكن فى نهاية الأمر القول: إن به ردا على النقاش الدائر حول عدم تسامح المسلمين تجاه الأديان الأخرى؛ أى حول التعصب(١).

الذى كثيرا ما تناولته الصحف المصرية والأجنبية فى هذه الفترة. الحقيقة أن تبنى موسى(٢) يترجم انتماء وبالتالى اعترافا بالأديان الموحدة الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام ما دامت كلها تعترف بموسى نبيا ورسولا(٣).

---

(١) راجع فى هذا الصدد بعض مقالات صحف هذه الفترة خاصة ما استخدمناه كمادة علمية ثانوية فى هذا البحث: صحيفة الأستاذ:

السنة الأولى (١٨٩٢) العدد ٢٠ الصفحات ٤٥٧-٤٦٧ "أشتات الشرق وعصبيات أوروبا".

السنة الثانية (١٨٩٣) العدد ٣٤ الصفحات ٧٧٩-٧٨٥ "العدوى الأوروبية للبلاد الشرقية".

صحيفة الجامعة:

المجلد الأول (١٨٩٨-١٨٩٩) العددان ٢١-٢٢ الصفحتان ٥١١-٥١٢ "أوروبا وتعصبها على الدين الإسلامي".

المجلد ١ (١٨٩٨-١٨٩٩) العددان ٢٣-٢٤ الصفحة ٥٦٦ "أوروبا وتعصبها على الدولة العثمانية".

صحيفة "المنار":

المجلد ١ (١٨٩٨-١٨٩٩) العدد ٢٦ الصفحات ٤٨٣-٤٩٣ "التعصب".

المجلد ١ (١٨٩٨-١٨٩٩) العدد ٢٧ الصفحات ٥٠٤-٥١٦ "التعصب".

المجلد ١(١٨٩٨-١٨٩٩) العدد ٢٨ الصفحات ٥٣٥-٥٤٢ "التعصب".

المجلد ٩ (١٩٠٦-١٩٠٧) العددان ٧-٩ الصفحات ٢٣٨-٤٢٧ "التعصب وأوروبا والإسلام".

أما "مصباح الشرق" ففى عام ١٩٠٠ نجد العدد ١٢٨ الصفحتان ١-٢ "أسوأ التعصب"

١٩٠١ العدد ١٥٦ الصفحتان ١-٢ "من المتعصب".

وتحت إدارة محمد المويلحي ١٩٠٣ العدد ٢٣٧ الصفحتان ١-٢ "تظلم لا تعصب".

راجع أيضا الفصل العاشر.

(٢) ونذكر هنا أنه يمثل نقطة تقاطع (أى نقطة التقاء أو انفصام تبعا للروايات) بين المسيحية والإسلام. و"موسى" معروف بوصفه رسول القانون والسياسة المتطوع لصد الاستبداد والحامل لرسالة كونية للبشرية جمعاء. ولا يجب علينا فى نهاية الأمر أنه يعد أيضا رسول النفى والغربة ونبى اليهود.

(٣) يشد روجر آلن Roger Allen انتباهنا وبحق إلى أن تكوين أسماء هذه الشخصيات يحوى حرفا أو حرفين من حروف العلة لإطالة الحروف الساكنة طويلا أما الأسماء فيها حرفان متحركان طويلان: عيسى (ى، ا) وموسى (و، ا) وهشام (ا) وعصام (ا)، وهو شكل مألوف فى المقامات الكلاسيكية: هشام (للهمذاني) همام (الحريري) فلسان (بيرم التونسي).

رفض الشيخ فى بادئ الأمر الاستجابة لطموحات السارد الداخلى الذى يخضعه للاختبار مثلما أخضع الخضر موسى. وعلى الرغم من هذا الاختيار الذى يتوافق مع كل الأديان السماوية تبقى مرجعيته إسلامية ما دامت تحيلنا إلى القرآن وإليه وحده. عندما تأكد الشيخ من دوافع موسى بن عصام وافق على أن يكون له دليلا ومرشدا ووضع يد موسى فى يده. عندئذ وجد موسى نفسه يحلق فى الأعلى. سأله الشيخ عما يرى فى تحليقه فرد موسى: "لا شيء. مسح الشيخ على عينى موسى فإذا به يرى، ومر بيده على أذنيه وصدره فإذا به يسمع وتتشرح نفسه وتتجلى أمامه الأشياء. قال الشيخ لموسى: "نظرتك من اليوم ثاقبة"[1]. يُعد هذا المشهد صعودا لموسى بن عصام وفى الوقت ذاته استجابة وواحد من الردود التى تلقاها النبى موسى عندما قال:

{رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي} [طه: ٢٥ – ٢٨].

حلق موسى بن عصام بقوة الكلمات التى قالها الشيخ فى تناص مع القرآن الكريم؛ أى بكلمة الله، مما أضفى على الشيخ طابعا ربانيًا وصبغ تحليق موسى بن عصام واكتسابه "للنظرة الثاقبة" بالصبغة ذاتها. فى قول الشيخ كذلك لموسى بن عصام: "نظرتك من اليوم ثاقبة"، وشائج تربطه بالآية ٢٢ من سورة "ق" فى القرآن الكريم: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ٢٢].

تحيط بالشيخ بطل القصة التى نحن بصددها هالة ربانية ويتسم بشيء من السلطوية يمنح بها السارد الداخلى الأداة اللازمة لإتمامه ما يرنو إليه، يمنحه النظرة الثاقبة؛ أى تلك التى تسمح له بتجاوز حدود النظرة البشرية[2].

عند هذا الحد بدأ حوار بين المعلم ومريده استمر حتى نهاية الحكى، يدعو فيه الشيخ، على مدى النص، طالبه إلى التأمل والملاحظة وهو ما يستجيب له هذا

(١) "مرآة العالم" المقام الأول، الفقرة ١٣.
(٢) حركة الصعود (إلى هذا المكان العالي) والارتقاء (إلى النظرة الثاقبة).

الأخير مع طرح العديد من الأسئلة. دعت هذه الأسئلة بدورها المرشد إلى توجيه أنظار مريده إلى المزيد من المشاهد بدا من خلالها العالم لموسى بن عصام كما تمنى دوما أن يراه.

هذه المشاهد نراها تباعا في الحلقات التي تكون نصنا "مرآة العالم".

والعنوان الذي تم اختياره للحلقات التسع متفرد وجذاب، كما أنه يعلن مسبقا ليس فقط الهدف من الحكي، ولكن أيضا ما كان إبراهيم المويلحي يأمل تحقيقه. كان مأمولا من "مرآة العالم" أن تكون انعكاسا لعالم يرى موسى بن عصام ضرورة رؤيته لكي تفهم الحياة بشكل أفضل ويمكن التحكم بكل مقدراتها.

وطبقا لما نراه يمكن للمقامة الأولى أن تحمل عنوان: "الرحيل، والصعود والتعاليم الأولى" (المقامة الأولى). وتوصل السارد إلى هذه التعاليم جاء بناء على تمتعه بالبصر الثاقب الذي منحه إياه الشيخ، والذي بواسطته أمكن لموسى بن عصام ملاحظة العالم على الأرض من موقعه السماوي. تبدأ الرحلة السماوية بملاحظتين تضعان على الساحة مشهد العالم الأولي وترسيان دعائم بعض القيم، "كالخير والشر" و"الملل والسأم" التي يقبل البعض عليها ويفر الآخرون منها. وفي هذا تذكرة من الشيخ لموسى بن عصام حتى يبقى واعيا بأن نوايا البشر الحسنة لا تحول دون بقاء القيم السلبية والإيجابية جزءا لا يتجزأ من الطبيعة البشرية.

أما في الحلقة الثانية التي نضع لها "الفقر والثراء والتكاتف القومي والاجتماعي" عنوانا فيتم تشخيص بعض السمات البشرية الطيبة والقبيحة، ونجد فيها على سبيل المثال رجلا ثريا أنانيا وبخيلا يرفض مساعدة المحيطين والقريبين منه مع محاولة منه حثيثة للإبقاء على مظهر الرجل التقي الورع الكريم. ويتكشف أمره عندما يضطر رغما عنه لاستضافة ثلاثة زوار (شخصيات ثانوية) يطوفون بالبيوت واحدا بعد الآخر يجمعون الهبات والتبرعات لمساعدة جرحى الحرب. ويحاول هذا الرجل في مواجهة الزائرين الثلاثة الذين يوقن بعدم حاجته إليهم، التماسك والثبات مع عدم إجابتهم إلى طلبهم. والملاحظة اللاحقة لهذه الوقائع تبرز لنا لقاء يجمع بين شخصين أحدهما حكيم والآخر ثري.

ظهر الأول فى هيئة متسول ليقيس مدى حكمة الثرى الذى لم يُخفِ احتقاره الواضح لمحدثه.

أما فى المقامة الثالثة التى تحمل عنوان: "مسألة السودان" (المقامة الثالثة) فقد تمت العودة بالحكى إلى الحرب اليونانية التركية (استنادا إلى مرجع تاريخى يتسم إذن بالمرجعية) من خلال صراع قوى بين شخصيتين إحداهما تتمتع بالقوة والسطوة، أما الثانية فهى لجندى صغير آل به الحال إلى شيء كبير من الضعف. ظهر الجندى راكعا أمام الثرى يستمع صاغرا لخطابه المخادع. وعلى غير توقع وخلافا لما اتسم به كليهما من قوة وضعف نجد أن النصر من نصيب الضعيف. تلا كل ذلك مسألة السودان وما اصطلح على تعريفه بالقوة المشتركة بين إنجلترا وفرنسا ونتائجها السياسية لا على السودان وحده؛ وإنما على مصر أيضا.

هذا المشهد تحديدا يبرز ما وقع من ظلم على المصريين والسودانيين.

فى الحلقة الرابعة التى نطلق عليها: "بورصة السوق وتوابعها فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر" (المقامة الرابعة) يدور الموضوع حول هذه القادمة الجديدة: بورصة السوق. يفضى إلينا السارد أن أمام عينيه ينتصب تمثال يقع أمام مبنى مهيب ظاهره يشى بالجلال والطابع الفردوسى، أما باطنه الخفى فشيطانى ويمضى فى حديثه واصفا لنا إياه عن الداخل، فيقول: إن الضجيج والفوضى والذعر هى السمات الغالبة فى هذا المكان الذى يتلاعن ساكنوه ويطأ بعضهم البعض. سأل السارد عند ذاك الشيخ عن طبيعة هذا المكان الذى يجمع الجمال إلى القبح فأجابه: إن التمثال لمؤسس المكان الذى يطلق عليه "البورصة" ويؤمه الناس للمضاربة. أستوضح موسى بن عصام الشيخ فى أمر البورصة وطلب مزيدا من الشرح عن المضاربة فأجابه إلى طلبه. وشملت الإجابة مفاهيم المصرف، والاستثمار، والإيداع، والاقتصاد الصناعى، وأعقبها مرورا على معانى كلمات العمولة، والسماسرة، والمؤسسات الزراعية والتجارية والصناعية؛ مثل: مؤسسة مركبات الترام." وجدير بالملاحظة هنا أن الأمر يتعلق بموضوعات تعيها جيدا الوسيلة التى قامت بالنشر. الواقع أن "مصباح الشرق" كما رأينا عالجت تفصيليا، على مدى عدة أعداد ولمدة طويلة هذه الموضوعات التى كانت محور مناقشات الفاعلين: الصحفيين والكتاب فى هذا العصر؛ أى محور مناقشات الصحافة العربية.

فى المقامة الخامسة وعنوانها: "الأقدار وإخفاقات المضاربين فى بورصة السوق فى مصر فى القرن التاسع عشر" (المقامة الخامسة). يتعلق الأمر أيضا بالبورصة فى هذا المكان الذى يرى الشيخ أن الأثرياء يصبحون فيها فقراء ويخسرون الأموال التى لا يملكونها وحيث يبيع السماسرة والبائعون بضائع خيالية ووهمية. هؤلاء السماسرة يحصدون نقود الأثرياء الحقيقية. أما أموال الفقراء الوهمية فيحولونها إلى ديون. كان المصريون يزدادون فقرا. لتبيان هذه الظاهرة الجديدة الخاصة بمضاربة البورصة زود المعلم مريده المتدرب ببعض الأمثلة التى توضح ليس فقط الكيفية التى يفقد بها المضاربون نقودهم ويستدينون، ولكن أيضا الكيفية التى يفقدون بها سعادتهم وقيمهم. هذه الشخصيات النهمة والمحبة لاكتناز المال كانت على هذا النحو تخسر نفوسها فى البورصة. جعل منهم اللهاث وراء المكسب السريع الخالى من أى جهد، أناس فاقدى الهدف والوجهة، حيارى ومنهكين من هذا الوهم المسمى بالبورصة، حاروا جميعهم فى هذا العالم غير المفهوم الطبيب منهم والمحامى، رب الأسرة والفلاح أضحوا ضحايا لهذه البورصة بادلوا فيها قيمهم المعنوية بأمل قيم مادية وهمية. هذا الموضوع ليس ببعيد عن التجربة الشخصية لإبراهيم المويلحى الذى أضاع ثروة أسرته فى بورصة السوق (راجع الفصل الثالث الفقرة الثانية). وبعيدا عن تجربة إبراهيم الشخصية يمكن القول: إن هذه الظاهرة شاعت فى القرن التاسع عشر كمشكلة اجتماعية فى الغرب ونشرت أعمالا وأبحاثا عديدة حول هذا الموضوع[١].

وقد استمر تناول موضوع البورصة فى المقامة السادسة التى احتفظت بذات عنوان المقامة الخامسة: "الأقدار وإخفاقات المضاربين فى بورصة السوق فى مصر فى القرن التاسع عشر". (المقامة السادسة).

---

(١) راجع الأعمال التالية:

Vercamer، 1904، P 159.

Kindleberger، 1994 (1978) P 341.

Colling، 1949، Ix – P 423.

Arbulu، 2007، P 249.

أما الحلقة السابعة فتتناول التقاليد، من هذا كان عنوانها: "التقاليد فى مصر" (المقامة السابعة). يرجع الحكى بإيجاز شديد إلى الملاحظات السابقة، ثم يسترسل فى وصف عملية دفن طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها أربعة أشهر.

تحتل النفقات التى تتكبدها الأسرة لتنظيم الجنازة مركز الصدارة فى المشهد، ويبرز الحكى العادات السيئة وهذا الخلط الواضح بين الدين والتقاليد. بعد موضوع الجنازة يتطرق الحديث للوصاية، ويتمحور المشهد حول وصى على يتمين يراه السارد ويلحظ مدى سوء نيته وعدم تقديره للمسئولية. فالوصى يحاول جاهدا التملص من واجبه كوصى وسلب ما يملكه اليتيمين اللذين أؤتمن عليهما.

تطرح المقامة قبل الأخيرة موضوع "النفاق البشري" (المقامة الثامنة) وهو العنوان الذى نختاره لها. من هنا فقد وصفت القصة الزيف والزور والخسة بعد أن استعرضت عدة أمثلة تبين بمالا يدع مجالا للشك عبثية بعض التقاليد المصرية. يعاود وصى اليتيمين الظهور فى موضع آخر فى صورة إنسان كاذب وغير جدير حتى فى حضور إمام. يتساءل موسى بن عصام عندئذ عن كيفية التمييز بين الأمور وبعضها البعض وعدم الخلط بين الأشرار والأخيار - شرح الشيخ لمريده كيفية التفرقة والتمييز على الرغم من المظاهر الخادعة بين الوفى والخائن بين الأمين وغير الأمين ويعلمه كيفية اكتشاف أبشع المهن؛ وهى فى تقديره انعدام الشرف.

فى الحلقة الأخيرة (المقامة التاسعة) لم يكن الموضوع المتناول يخص السودان أو الإمبراطورية العثمانية من خلال الحرب اليونانية - التركية أو البورصة والتقاليد فى مصر؛ وإنما الشرق والغرب. هناك توقف سردى يفتح المقامة التاسعة على موضوع الزمن والقدر وتأثيرهما على الحياة والعالم بشكل عام. بعد هذه المقدمة التى سنرى تفصيلاتها لاحقا يستعيد السارد الداخلى الحوار مبديا قلقه على مصير إقليمه وأهله والشرق والشرقيين قياسا وبشكل أساسى على الغرب. تتابع القصة فصولها ما بين الوصف والملاحظات مع مقارنة الشرق والغرب وتبيان الفروق والاختلافات بينهما. ألم تكن هذه موضوعات "مصباح الشرق" الأثيرة وألم يكن ذلك لب النهضة ومحورها؟ تم وصف الغرب من خلال مواقف ذات طابع غربى نموذجي؛ منها: حرية التعبير، والتعددية السياسية،

والحماية، والاستعمار، والفوضى، والفجور، والتهاون فــي الالتـزام بالعــادات، والجريمة، والسرقة... إلخ.

من هنا فإن هذه المقامة الأخيرة التي تعد شبه خاتمة -وسـنرى الأسـباب- يمكن أن تحمل عنوان: الغرب والشرق: الثقافتان، الهويتان والحضارتان في القرن التاسع عشر".

بعد كل هذه المشاهد يتساءل السارد عن الحل بعد ما كان يظن نفسه وأجياله في الغرب الذي كان يظنه بالنسبة إليه شاطئ الأمان، ها هو ذا يعود إلــى نقطــة البداية. طمأنه الشيخ وشرح له أن الحل يكمن في الإسلام وأن قادة الأمة يكفيهم هم والأمة العودة إلى الإسلام؛ لكي يصبح الشرق بمعزل ومأمن مـن الآفــات التــي يعرفها الغرب ذلك الغرب الذي يدعو الشيخ لغربلة ما فيه وانتقاء الأفضل.

لم يتغير تقييم الأمر، بقي كما هو يحض على تقليد الغرب ولكن مع إعمــال الفكر يحث على الإصلاح ولكن استنادا إلى لإسلام. من هنا فــنحن بـصدد حــل إسلامي حاسم حتى لا نقول حلاً جذريًا يترك انطباعا بأنه حل سريع ما زال فــي حاجة للتعريف مما أعطى إيحاء وإحساسا أن القصة مفتوحة النهاية. يقول الــنص ذاته: إن "الكلام يتلو" مستخدما العبارة ذاتها التي تنتهي كل حلقة. لكن البقية لم تأت. هل كانت حلقات القصة المجاورة هي التي تقوم بدور التتمة؟ أم كانــت مقــالات "مصباح الشرق" (وهي وسيلة النشر والإطار السياقي لهذه القصص) هــي التــي تتولى هذا الأمر؟

٢) التقاء ساردا مصباح الشرق: المفصلة بين "مرآة العالم" و"فترة من الزمن":

في خط مواز لنص "مرآة العالم" نشر نص آخر في هيئة حلقات في جريــدة "مصباح الشرق". كانت قصة "فترة من الزمن" تتقاسم وتجاور في الباب ذاته قصة "مرآة العالم" احتلت الاثنتان الصفحة الأولى من جريدة "مصباح الشرق" فيما بــين عامي ١٨٩٩ و ١٩٠٠.

كاتب القصة الأولى هو إبراهيم المويلحى، أما الثانية فهـــى لنجلـــه محمـــد المويلحى الذى شاركه تحرير الصحيفة، نشرت قصة "فترة من الزمن" على مـــدى اثنتين وخمسين حلقة فى الفترة من عام ١٨٩٨ وحتى ١٩٠٢ وهذا يعنى أنها فاقت زمنيا وعدديا قصة "مرآة العالم" التى لم تجاوز التسع حلقات. أعلن عن نشر قصة الابن فى العدد الحادى والعشرين المنشور بتاريخ ١٨٩٨/٩/٨ وانتهـــت حلقاتهـــا فى العدد السادس والتسعين بعد المائة الصادر بتاريخ ١٩٠٢/٣/١٤. تنـــاول هـــذا النص نحو خمسة وخمسين مقالا لم تَرْوِ القصة إلا فى اثنين وخمسين منها. حملت هذه المقالات الاثنتان وخمسين كلها عنوان: "فترة من الزمن" أما الـــثلاث مقـــالات الأولى فكانت عناوينها مكتوبة بالشعر(١).

---

(١) راجع المجلد الثاني: مادة البحث الأولى: تصنيف مقالات "مصباح الشرق" (١٨٩٨-١٩٠٣) الذى شمل الخمس وخمسين مقالا المشار إليها فى الفقرة التى تحمل عنوان: "مقالات فى الأدب" أو "المقالات الأدبية". الأمر ذاته بالنسبة إلى مقالات "مرآة العالم".

راجع أيضا آلن Allen ٢٠٠٢ ص ٤٥٩-٥٤٧ التى ضمت مقالات: "فترة من الزمن" المنشورة فى الجريدة وغير مدرجة فى النسخة المنشورة فى صورة كتاب عام ١٩٠٧.

راجع أيضا آلن Allen ٢٠٠٧ ص١١٩-٢٠٢ حيث وجد نص "مرآة العالم" و"ما هنالك" ومقالات أخرى لإبراهيم المويلحي.

لنلاحظ كما أشرنا من قبل أننا نعمل على النسخة التى نقلناها عن الأصل؛ أى من جريدة "مصباح الشرق". ولنلاحظ أخيرا أننا قد حصرنا فروقا بين النسخة الأصلية والنسخة المنشورة (آلن Allen ٢٠٠٧ الصفحة ٢٤٠).

راجع فيما يتعلق بالنسخة الأصلية الوسيلة أو الركيزة الإلكترونية والمجلد الثاني، مادة البحث ٢ الفقرة (h) والملحق العاشر.

ونسوق هنا على سبيل المثال بعضا من الاختلافات المشاهدة:

- الصفحة ١٦٣ الفقرات ٢-١-٤: إذا غبت عن بلد شهرا – (النسخة الأصلية: إذا غبت عن بلدك شهرا.
- فى السطر ذاته: فى ذلك الطرف (النسخة الأصلية: فى ذلك الظرف).
- السطر الخامس: بما مررت عليه (النسخة الأصلية: بما مرت عليه").
- السطر ١٦٤ الفقرة الأولى السطر الأول: فسرت الليلة وسراة اليوم (النسخة الأصلية فسرت عامة الليلة وسراة اليوم.
- الصفحة ١٦٤ الفقرة ٣ السطر ٢: وطيل الهيجاء. (النسخة الأصلية وطيس الهيجاء) وفى الفقرة الرابعة: مطعمة ميتانه (النسخة الأصلية مطعمة حيتانه).
- الصفحة ١٦٥: فتكون سفينة الغرق بك تعب الحياة راحة الحياة (النسخة الأصلية: فتكون سفينة الغرق بك سفينة النجاة. وأكون قد اجتنبت بك متعب الحياة راحة الحياة).

احتل النصان إذن على مدى أربع وستين عددا مساحة المقالات الافتتاحيـــة. وشكلا معا ثنائيا مشاركا للمقال الافتتاحى فى التعبير عن إيديولوجيـــة الـــصحيفة. نشر نص "فترة من الزمن" فى كتاب عام ١٩٠٧ وتوالت بعد ذلك طبعاته، أما مسلسل "مرآة العالم" فلم ينشر قط قبل ٢٠٠٥[١]، وقد أعيد نشره بعد ذلك عـــام ٢٠٠٧[٢]، وآخر مرات نشره فى دراســتنا هــذه. غيــر أنـــه قــد تــرجم إلـــى الألمانيـــة (راجع جوتفريد ويسمر ١٩٥٤) (Gattfried Wismer 1954) لكن عنــد النــشر لــم يصحب الترجمة النص الأصلي.

لن نقوم هنا بدراسة "فترة من الزمن" مثلما فعلنا مع "مـــرآة العـــالم" ولكننـــا سنرى ما تتفق فيه القصتان وما تختلفان فيه مع إبراز الصلات بينهما. واقع الأمر أن هناك العديد من الدراسات التى تناولت "فترة من الزمن"[٣]؛ بينما وكمـــا رأينـــا (راجع الفقرة الثالثة من الفصل الثالث) نقل الدراسات على "مرآة العالم" إلـــى حـــد الندرة أو عدم الوجود. يقينا الوصول إليه لم يكن يسيرا بالمرة ما دام نشره لم يكن قد تم بعد، ولكن ألم يتمكن المترجم الألمانى من الوصول إليه لترجمته عام ١٩٥٤؟

فى إطار هذه المقارنة وبالنظر إلى هذه الصلة الوثيقة بين العملين المويلحيين سنضيف النصوص السردية غير المنشورة لإبراهيم ومحمد المويلحى التى استطعنا حصرها وإعادتها إلى هيئتها الأصلية[٤]. ونرى إذا كانت تكوّن كلها معا كيانا واحدا أم لا، ثم ندرس الصلات وما تتماثل وتختلف فيه هذه الأعمال عن بعضها البعض من حيث الموضوع (المحتوى) ومن حيث البناء (الكيان الحاوي) حتى نتمكن فـــى نهاية الأمر من الوصول إلى طلة شاملة على النـــوع الـــسردى الـــذى اســـتخدمه المويلحى فى "مصباح الشرق".

---

(١) راجع جاب الله بولحبال، ٢٠٠٥، ص١٥٤.
(٢) راجع آلن Allen. 2007، ص٢٤٠.
(٣) راجع أعمال Roger Allen روجر آلن، وبطرس حلاق وهيدى طوالHeidi Toelle ولوك ويلى دوفلز Luc Willy Dehevvels ورندة صبري.
(٤) راجع المجلد الثانى المادة محل البحث ٢، ٣.

الهدف من قيامنا بكل ذلك هو وضع اليد على الكيفية التى يذوب بها هذا النوع الأدبى فى الكيان الصحفى، الذى يعد فى آن واحد وسيلته فى النشر والإطار السياقى له. من هنا فالأمر يتطلب أولا تحديد التفاعلات والتأثيرات المتبادلة بين النصوص الأدبية (السردية والروائية الخيالية) والصحيفة (الخطاب المرجعى جامع الأحداث المعاصرة)، ثم طرح التساؤل حول هذا النوع الأدبى الناشئ عن الصحيفة.

لعمل ذلك وحتى يتيسر الفهم سنشرع فى تلخيص محتوى كل صفحة من الاثنين:

"مرآة العالم" قصة شاب يبحث عن حقيقة العالم والبشرية. هذا الشاب ليس إلا السارد الداخلى موسى بن عصام وهو أحد بطلى القصة الرئيسيين. سافر الشاب مدفوعا بفكرة اكتشاف العالم، ووجد نفسه يقوم بسفرة تعليمية بصحبة شيخ ذى صلة بالسماء ينقل إليه قوة النظرة الثاقبة، الذى يصل السارد الداخلى بها إلى المعرفة التى طال البحث عنها. وهو بذا يصبح من مريدى هذا الشيخ الذى يستحيل معلما له حتى إنه يلقبه ويناديه "بسيدي". يتعرض موسى بن عصام لعدة مشاهد يحضرها ويشهدها بنفسه بفضل ما اكتسبه من نظرة ثاقبة أثناء صعوده. يتساءل السارد عقب كل رؤية؛ أى فى ذيل كل مشهد سردى وعلى هذه التساؤلات يجيبه الشيخ، ثم يدعوه إلى المزيد من المشاهدات.

تبدأ كل حلقة بعودة إلى المشهد أو المشاهد السابقة مما يسمح بعقد روابط وصلة بينها وإيجاد خيط سردى يجمعها. فى نهاية كل حلقة يذكر الشيخ موسى بن عصام ضرورة نقل ما رآه وفهمه إلى شعبه. من هنا فإن التسع مقامات هى أشبه التسع علامات الظاهرة التى أرسلها الله إلى المصريين عن طريق موسى[١]. وأمامنا خياران إما نعتبر الشيخ مثل: "الخضر" وإما نعتبره مثل: الله فى حديثه مع موسى نبى المسلمين. بأسلوب التناص هذا مع القرآن نكتشف رغبة سردية فى الإيحاء أن هذه القصة مقدسة ومهمة، وأن القول فى هذا السياق قول حق مصدره الحقيقة المؤكدة. هذا الإجماع يضفى على النص إجماعا يقره المسلمون والمسيحيون واليهود.

(١) {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [الإسراء: ١٠١].

"فترة من الزمن" هى قصة سارد يدعى عيسى بن هشام ليس ببعيد الشبه عن أحد بطلى مقامات (مقامات المغامرين) الهمذانى (٩٦٧-١٠٠٧) اسم عيسى؛ أى المسيح يشير هو أيضا إلى نوع من التناص الدينى يماثل استخدام اسم موسى ذى المكانة والدلالة فى عدة أديان، والذى يلقى فيه مؤمنو الأديان الثلاثة السماوية انعكاسا لهم.

تتفق القصتان المتقاربتان فى طابع وظاهر اسمى الساردين اللذين يرجعان فى أصلهما إلى الأديان الثلاثة الرئيسة فى العالم بين الغرب والشرق. هذا الخيار المشترك يشير إلى إرادة انفتاح على الآخر بل التواصل معه ونقل فكرة وجود تسامح ونقاط مشتركة بين القصتين المويلحتين. ونضيف فى نهاية الأمر إلى كل ذلك أن التناص مع القرآن يبدو بشكل إجمالى عنصرا مشتركا بين النصين.

هذا السارد عيسى بن هشام شاب غض رأى نفسه فى الحلم ذات ليلة. كان يجوب المقابر يفكر فى الحياة حين طلع عليه فجأة رجل من أحد القبور. فزع عيسى بن هشام وقال واصفا ما انتابه: "أحسست هول الفزع يصعقنى ويفقدنى العقل تماما؛ مثل: موسى أمام الجبل وقد دك (صبري، ٢٠٠٥، ٢٧). هنا أيضا نلتمس رابطا؛ وهى المرجعية لموسى الذى التقى ربه عند جبل سيناء. وهنا إشارة نراها وتلحظها رندة صبرى (٢٠٠٧ العدد السادس) – "إلى الآية الثالثة عشر من سورة الأعراف. لدى مجيء موسى للقاء ربه على جبل سيناء، صحب التجلى الإلهى تداعيا للجبل مما أوقع النبى مغشيا عليه". لهذا يمكننا القول: إن اختيار هذين الاسمين النبويين اختيار ذو دلالة وخلفهما رغبة وإرادة فى القيام بمهمة نبوية لا إخبارية بها الكثير من التنبؤ والتوقع. الواقع أن "مرآة العالم" تقوم بعمل موازنة بشرية بين الخير والشر (المقامة الأولى) وموازنة بشرية المجتمع المصرى (المقامات من ٢ إلى ٨) وأخيرا موازنة بين الغرب والشرق (المقامة التاسعة).

تستعرض "فترة من الزمن" القرن التاسع عشر من خلال مغامرات السارد الداخلى عيسى بن هشام والباشا العائد إلى الحياة. يتبع الباشا السارد الذى يصحبه إلى حيث يريد ويكتشف بدهشة بالغة وحيرة كم تغيرت الأشياء دون أى تطور ملحوظ. وتظهر هنا الحداثة كمكابح لسعادة الإنسان. فى هذه "الوقائع الساخرة"

لمصر فى القرن التاسع عشر تظهر صورة سلبية لحقيقة سردية مرجعيتها العالم التعبيرى للكاتب. تحتل الإشكالية النهضوية مركز الوقائع مثلما تحتل قضية الشرق والغرب مركز "مرآة العالم" وتشكل الحروب والغزوات (أى الإمبريالية الاستعمارية) والبورصة (أى الاقتصاد الرأسمالي) وتقليد الغرب باعتباره نموذجا حضارى الركائز والموضوعات السائدة.

إلا أنه على النقيض مما يجرى فى "فترة من الزمن" نجد السارد الداخلى لا يقود؛ وإنما يقاد ويتم إرشاده. فموسى بن عصام يسير على هدى الشيخ؛ بينما عيسى بن هشام يرشد الباشا. من هنا فجيلا ما قبل عام ١٨٨٢ وما بعده ممثلان الشباب المعاصر لزمن كتابة كلتا القصتين يقوم مرة بالإعلام (عيسى بن هشام) ومرة أخرى بتلقى المعلومة (موسى بن عصام). أما الجيل القديم فيظهر تارة فى هيئة باشا يمثل المحيط السياسى والنبيل لعصر محمد على وتارة أخرى فى هيئة شيخ يمثل المحيط الدينى للعلماء. خلاصة القول: إن المستويين السياسى والدينى المحددان زمنيا وغير المحددين قد تم ذكرهما وتشخيصهما. وكذلك الخلافة والسلطنة. وفقا لما يراه إبراهيم المويلحى فإن السلطة تتكون من مستويين أحدهما دينى والآخر سياسي. وفى حين لا يمكن التنازل عن الأول أو العهد به إلى الأجانب فإن ذلك يتيسر للثاني(١). وبالتالى فإن ترتيب الأشياء متماثل فى قصصه الروائية الخيالية وفى خطابه المرجعي.

من هنا فإنه من الدرك إلى الشرطة، ومن النيابة إلى المحاكم والمحامين ولجنة التفتيش، مرورا بمحكمة الاستئناف، والأوقاف، والأغنياء، وأبناء الأغنياء، ومن المحكمة الشرعية إلى قصر حفيد الباشا مع عدم إغفال الطب والأطباء فى مواجهة الطاعون والأوبئة، وذكر العلماء والأعيان والتجار والأرستقراطيين، وكبار الموظفين، والتقاليد يرتحل الباشا خلال هذه الفترة الخاصة "بفترة من الزمن" لينتهى

---

(١) "للخليفة على الأمة الإسلامية رئاستان رئاسة دينية ورئاسة سياسية.. وقد يجوز فى أحيان الدهر وصروف الحوادث أن ينقطع جانب عن الرئاسة السياسية فيندمج تحت حكم الغير لكن ذلك لا يقضى له مطلقا بالانفصال عن الرئاسة الدينية.
"مصباح الشرق" العدد الأول الصفحة الأولى العمود الخامس.

به الأمر إلى مهبط حضارى فى الغرب. واقع الأمر أن الباشا بعدما لاحظ وتفقد مواضع الحداثة فى الشرق ود لو رجع إلى منبع الحداثة؛ أى الغرب. ألم تكن هذه هى موضوعات "مصباح الشرق"؟ ألم تكن هى ذاتها المتناولة بشكل أشد تركيزا وبنوع من التركيب فى "مرآة العالم"؟

واقع الأمر أن موسى بن عصام لم يحضر مرافعة فى محكمة، ولم ير ما يحدث فى محكمة استئناف فى القاهرة، غير أنه يذكر المحامى والطبيب والتاجر والفلاح المصريين فى مواجهة بورصة السوق. أما بشأن التقاليد فنجده لا يذكر الأفراح إنما الجنائز. وعند ذكره للعلماء تحدث عن النفاق والمظاهر الخادعة للأئمة المزيفين. ولم يغفل عن وجهاء وأعيان القاهرة فقد وصفهم بالبخل (الثرى والزائرون الثلاثة) والعجرفة (الثرى والمتسول) والسرقة (الكفيل واليتيمان).

وتعد "مرآة العالم" على هذا النحو تكملة "لفترة من الزمن" أو نوعا من الخلاصة أو المحصلة شديدة الإيجاز لها تماما مثلما تعد "فترة من الزمن" جميعة "مصباح الشرق" هاتان القصتان إذن مكملتان لبعضهما البعض ولا يمكن فهمهما بمعزل عن وسيلة النشر المشتركة بينهما "مصباح الشرق". واقع الأمر أنهما تشكلان المحصلة الموضوعية لهذه الصحيفة نظرا لكون كل الموضوعات السائدة فيها هى ذاتها محور السرد فيهما. نجد إذن أن الخطاب الصحفى المرجعى قد استكمل بخطاب سردى خيالى فى صورة حلقات. يضطلع المقال العمودى إذن بمهمة الإكمال موفرا بذلك للقارئ (للأمة) الخيار فى الوصول إلى الخطاب النهضوى عن طريق المناقشة والحوار.

واقع الأمر أن القصتين قائمتان على الحوار. فحوارات البطلين فى القصتين تشكل إيقاع الزمن والسرد.

فى الجزء الثانى من "فترة من الزمن" الذى يحمل عنوان "الرحلة الثانية" والذى نشر عام ١٩٢٧؛ أى عشرين عاما بعد أول نشر فى صورة كتاب لما رواه لنا عيسى بن هشام لا يوجد وصف لباريس مقارنة بالقاهرة؛ وإنما وصف للحضارة الغربية.

يستعرض الكتاب هذه الحضارة مع إبراز ما أخذه الشرقيون عنها. وهنا يتم التأكيد على البعد الحضري، بعد العاصمة، محل الدراسة المفضل للمجتمعات وهو فى "فترة من الزمن" القاهرة وباريس. أما فى "مرآة العالم" فكانت الأقاليم فى الشرق والغرب هى محور البحث لا المدن. مثلت القاهرة الشرق تماما كما فى "فترة من الزمن" كل ذلك يؤكد الرؤية المفصلة فى "فترة من الزمن" والرؤية الشاملة فى "مرآة العالم".

لا يجب أبدا أن يغيب عن الذهن أن هذا المصرع الثانى من "فترة من الزمن" قد نشر تماما؛ مثل: المصرع الأول فى جريدة "مصباح الشرق" اعتبارا من العدد السادس عشر بعد المائة الذى صدر بتاريخ ١٩٠٠/٨/١٧ بعنوان واحد مشترك هو: "فترة من الزمن" ألحق به عنوان جانبى هو: (باريس). فى العدد المشار إليه كانت هناك مقدمة تسبق النص وتشير إلى الرسالة الأولى من حديث عيسى بن هشام التى كان موضوعها زيارة المعرض الدولى فى باريس. هذه الرسالة هى ما قيل: إن كاتبها محمد المويلحى كان قد أرسلها بعد أن سلم مجموعة أولى من مراسلاته وصف فيها زيارة الخديو لملكة إنجلترا، وكانت جريدة "مصباح الشرق" قد أفادت بنشرها فى أحد أعدادها السابقة(١).

يلتقى الساردان موسى بن عصام وعيسى بن هشام فى الظروف والملابسات المحيطة بالعملين وبالخلاف الجامع لهما وهو جريدة "مصباح الشرق" وتحديدا فى المقامة الرابعة من "مرآة العالم".

"شغل حديث عيسى بن هشام عن متابعة ما يحكيه موسى بن عصام، فمرت الأيام، حتى انقضت مدة العام، وسافر عيسى إلى المعرض فعاد موسى إلى ما انقطع من كلامه، وعدنا إلى ما يدور بينه وبين شيخه وإمامه"(٢).

---

(١) "هذه هى الرسالة من حديث عيسى بن هشام عن زيارة معرض باريس بعث بها إلينا السيد محمد المويلحى بعد رسالته التى نشرناها فى أحد أعدادنا الماضية عن زيارة سمو الجناب العالى الخديو لجلالة ملكة الإنكليز فى بلادها".
"فترة من الزمن"، مصباح الشرق، العدد ١١٦ الصفحة الأولى العمود ١.

(٢) المقامة الرابعة، "مرآة العالم" العدد ١٠٩ الفقرة ٦١.

من المهم ملاحظة أن الاسمين المذكورين هما: موسى بن عصام وعيسى بن هشام. لم يشر إلى أن محمد المويلحى هو الذى ذهب إلى المعرض العالمي؛ وإنما عيسى بن هشام. القصة التى تستكمل روايتها ليست قصة إبراهيم المويلحى بل قصة موسى بن عصام. وهذا يعنى أن هناك تركيزا واضحا على الفارق بين الكاتب والسارد. ويمكن القول: إن ضمير الجمع "نحن" المستخدم فى هذه المقدمة للحلقة الرابعة من "مرآة العالم" يشير إلى الجمهور الذى يندرج إبراهيم المويلحى بين أفراده وليس إلى موسى بن عصام والشيخ. وضمير الجمع "نحن" هنا أدائى بيانى وليس سرديا. ونلاحظ هنا أيضا أن الشيخ مشار إليه باعتباره معلما وإماما، من هنا فطابعه الدينى وسطوته كشيخ مؤكدين بالإمامة. ويوضح إبراهيم المويلحى فى مقدمة الحلقة الأولى من "فترة من الزمن" فى باريس أن الأمر متعلق برسالة منشؤها قصة حديث عيسى بن هشام التى أرسلها محمد المويلحي. هذا الجزء من الملابسات المحيطة بالعمل الأدبى تؤكد هوية كاتب النص، الأمر الذى كان لفترة طويلة محل نقاش. فقد ثار جدل عنيف فى مطلع القرن العشرين فى محاولة لاستجلاء اسم كاتب هذا العمل. ذهب البعض إلى أنه إبراهيم وإلى أن ابنه قد نسبه إلى نفسه، إلا أنه فى صحيفة "مصباح الشرق" التى لم يكن الوصول إليها ممكنا أو يسيرا (كما هو الحال فى يومنا هذا) كان الأمر أكثر من واضح، فالتوقيع الذى تنتهى به الحلقات المسلسلة فى "مرآة العالم" و"فترة من الزمن" يحدد بوضوح شخصية كاتب كل منهما.

فى العدد الحادى والستين وضع إبراهيم فى نهاية الحلقة حرف "الألف"، الأمر الذى أتى به أيضا محمد بدءا من العدد الثالث والستين الذى ظهر فيه حرف "الميم" فى نهاية الحكاية. سمحت مقدمة "مرآة العالم" التى نشرت بعد ذلك فى العدد التاسع بعد المائة بفهم أن الأمر يتعلق بقصتين من صحيفة "مصباح الشرق" إحداهما لموسى بن عصام أما الأخرى فلعيسى بن هشام.

أما فى العدد السادس عشر بعد المائة فقد أتاحت مقدمة الجزء الثانى من "فترة من الزمن" أخيرا يتبين مؤلفها الذى أطلق عليه "السيد محمد المويلحي" وتمت الإشارة إليه باعتباره راسل القصة إلى السارد عيسى بن عصام.

فى العدد السابع عشر بعد المائة قدم إبراهيم رسالة ابنه الثانية علـــى النحــو التالي: "فترة من الزمن" (باريس) رسالة مؤلفها السيد محمد المويلحى الثانية"(١).

ولنلاحظ هنا أيضا أن توقيع محمد المويلحى قد تغير اعتبارا من العدد الثالث والعشرين بعد المائة ليصبح حرفى ميم متتاليين "م. م" فى إشارة لمحمد المويلحى، وبذا لم يعد هناك مجال للشك ولا إمكانية للقول: إن حرف الميم المنفــرد "م" كـــان يعنى المويلحى وليس "محمدا".

تعلمنا إذن مقدمة العدد التاسع بعد المائة من المقامة الرابعة "مــرآة العـــالم" حقيقة مؤلفى القصتين المويلحيتين مؤكدة الصلة بينهما. هاتان القصتان كانتـــا إذن مجاورتين للباب الذى تقاسمتا مساحته. فقد أشارتا إلى المراجع ذاتها فهما من ناحية المواضيع المعالجة تتناولان الشرق والغرب والحداثة، أما مـــن الناحيـــة الألـــسنية فتشيران إلى القافية والتناص مع القرآن. لاحظنا فى "مرآة العالم" إلى جانب تعلـــق الأمر باسم السارد الداخلى والشخصية الرئيسة فى القصة أن مغـــامرات الـــسارد قريبة الشبه من بعض مغامرات موسى.

ولاحظنا أنه فى "فترة من الزمن" أنه منذ بداية الحكاية والسارد يذكر موسى ويقارن نفسه به. كما لاحظنا أنه فى بداية الرحلة الثانية لعيسى بن هشام المنشورة فى المقال المسلسل "فترة من الزمان" بالعدد السادس عشر بعد المائة من الجريدة أن القصة تبدأ على النحو التالي:

"ومذ ألقينا بباريس العصا واستقرت بنا النوى، قصدنا منها الطرقات الجامعة، والساحات الواسعة"(٢).

---

(١) "فترة من الزمن" (باريس) الرسالة الثانية لكاتبها السيد محمد المويلحى "مصباح الشرق" العدد ١١٧ الصفحة الأولى العمود الأول.

(٢) "مصباح الشرق" العدد ١١٦ الصفحة الأولى العمود الأول.

في الفصل الخامس الذى يحمل عنوان: "عروض ومنوعات مسرحية" أشير مرة أخرى إلى العصا: "لو كان سحرة فرعون وهامان قد لمحوها لعرفوا قدر العصا ومزاياها فى كل مكان وزمان" (صبري، ٢٠٠٨، ٧٣). تؤكد رندة صبرى فى الحاشية وجهة نظرنا فى كون المرجعية فى هذا الموضع لعصا موسى: فتقول: إن ذلك يرجعنا إلى "مناقب العصا"؛ أى إلى المناظرة التى وقف فيها موسى فى مواجهة سحرة فرعون. هذا الموقف تناوله القرآن فى عدة مواضع خاصة فى السورة السابعة منه "الأعراف" وتحديدا فى الآيات ١٠٤-١٢٠. فى هذه المبارزة نرى عصا موسى تفرض نفسها بمشاهد عدة لإثبات القوة وتجبر السحرة على الإذعان، والاعتراف بفشلهم (صبري، ٢٠٠٨ العدد الخامس، ١١٩). مما لا شك فيه أن هاتين القصتين المويلحيتين ليستا بغريبتين كل منهما عن الأخرى ولا يمكنهما أن يكونا هكذا. وقراءة كل منهما على حدة ممكنة؛ لأن لكل منهما ساردا خاصًا بها وحكاية مستقلة تماما.

بيد أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف والملابسات المحيطة بالقصتين والمصاحبة والمنشورة بذات إيقاع الحلقات، لما استطعنا تجاهل العلاقة المؤكدة بين هاتين القصتين اللتين تصنفان نفسيهما واقعتين بمعنى تحورهما حول الأحداث الجارية الخاصة بتلك الفترة.

إذا ما نحينا جانبا الموضوع الرئيسى والمشترك وهو علاقة مصر بالحداثة؛ أى علاقة الشرق والغرب فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وجدنا أن هذين النصين بهما الكثير من النقاط المشتركة، هذا بالإضافة إلى عدة نقاط خلافية مدرجة فى الجدول التلخيصى التالي:

	"مرآة العالم"	"فترة من الزمن"
الاسم النبوي	× موسى	× عيسى (المسيح)
المرجعية لموسى	مرجعية رئيسة ومستمرة	× مرجعية ثانوية ولكن حاضرة فى جزئى الحكاية

الإطار العالم الفوطبيعي	× سماوي (الرؤية الفوبشرية)	× أرضي (الحلم البشري)
ركيزة النشر	× جريدة "مصباح الشرق"	× جريدة "مصباح الشرق"
نوع النشر	× فى حلقات مسلسلة	× فى حلقات مسلسلة
الصفحة وباب النشر	× الصفحتان الأولى والثانية المقال الافتتاحي	× الصفحتان الأولى والثانية المقال الافتتاحي
عدد الأبطال الرئيسيين	٢ السارد والشيخ	٢ ثم ٣ السارد، والباشا وبعدهما بقليل العمدة ثم السارد والباشا والصديق والفيلسوف
القافية	× قوية	× متوسطة
المدة	قصيرة تسع حلقات	طويلة اثنتا وخمسون حلقة
زمن الأداء (سنوات النشر)	× (١٨٩٩-١٩٠٠)	× ١٨٩٨-١٩٠٢
زمن السرد	× القرن التاسع عشر (١٨٧٠-١٩٠٠)	× القرن التاسع عشر (١٨٨٢-١٩٠٠)
إيقاع الزمن	من خلال الحوارات والمشاهدات المباشرة	من خلال الحوارات والرؤى فى الحلم

نوع الحكاية أو القصة	× حوارية (ووصفية)	× حوارية (ووصفية)
نوع السرد[١]	× مقامة القرن التاسع عشر	× مقامة القرن التاسع عشر
مقال عمودى اجتماعى ساخر	مقال عمودى نقدى اجتماعي	نوع المقال الصحفي
المجتمع المصرى والحداثة ثم الشرق والغرب	المجتمع المصرى والحداثة، ثم الشرق والغرب	موضوع السرد
الشخصية الرئيسة يقود يعلم جيل ما بعد عام ١٨٨٢ الشاب	الشخصية الرئيسة تتم قيادته يتلقى العلم جيل ما بعد عام ١٨٨٢ الشاب	السارد
باشا جيل ما قبل عام ١٨٨٢ المجال السياسي	شيخ جيل ما قبل عام ١٨٨٢ (بوصفه شيخا) مجال العلماء	الشخصية الرئيسة (عدا السارد والشخصيات الأخرى)
"مصباح الشرق"	"فترة من الزمان"	تعد خلاصة ومحصلة:
× القاهرة، ثم باريس = الشرق ثم الغرب	× الشرق ثم الغرب	النظام الزمكاني (الزمانى والمكاني)

(١) فيما يتعلق بنوع هاتين القصتين، راجع الفصل التاسع الفقرة الرابعة، حيث تم التعريف بمقامة القرن التاسع عشر وتبريرها.

× معتدل	× قوي	التقليدية
× معتدل دعوة للتقليد المتعقل	× ضعيف دعوة إلى التقليد المتعقل	الحداثة
الجيل النهضوى بعد عام ١٨٨٢ جيل محمد المويلحي	الجيل النهضوى فى فترة ما قبل ١٨٨٢ جيل إبراهيم المويلحي	يمثل ويعطى صورة عن
× - ركيزة النشر - مرآة العالم العدد ١٠٩ (١٩٠٠ الصفحة ١ الفقرة ١) مصباح الشرق العدد ٥١ (١٨٩٩ الصفحة ١ المقال الافتتاحى السنة الثانية)	× - ركيزة النشر - مرآة العالم العدد ١٠٩ (١٩٠٠ الصفحة الأولى الفقرة ١) مصباح الشرق العدد ٥١ (١٨٩٩ الصفحة ١ المقال الافتتاحى السنة الثانية)	نقاط الالتقاء بين القصتين
التوقيعات	× "أ" اعتبارا من العدد الحادى والستين (١٨٩٩)	× "م" اعتبارا من العدد ٦٣ (١٨٩٩) ثم "م. م" اعتبارا من العدد ١٢٣ (١٩٠٠)
مصطلحات تعلن تتمة القصص	× "الكلام يتلو" (الخطاب مستمر)	× "الحديث يتبع" يستمر النقاش

٣- الصحافة المسلسلة والنقد الاجتماعي: قصص "مصباح الشرق" الأخرى غير المنشورة

إلى جانب هاتين القصتين الرئيستين المنشورتين فى جريدة "مصباح الشرق" وجدنا نحو أحد عشر نصا سرديا بالغ الإيجاز[١]وأعدناها إلى حالتها الأصلية النص الأول ويحمل عنوان: "المصريون فى الغربة وأمراؤهم"[٢] يروى المغامرات الفاشلة لوجيه مصرى شاب سافر إلى أوروبا وفقد نتيجة إهماله كل ما معه من نقود ووجد نفسه معدما. أثناء تفاوضه لحجز غرفة فى فندق، ترك جافظته وانطلق باحثا عن أسرته. لدى عودته لم يجد الحقيبة ولم يتدخل أحد لمساعدته حتي ولى عهد الأسرة الخديوية، وكان قد التقى به على متن الباخرة أثناء رجلته. فى إطار هذا الموقف شبه الشاب بموسى النبى الذى نسى الحوت الذى كان الخضر قد أودعه إياه[٣].

---

(١) راجع المجلد الثانى مادة البحث ٢، ٣ التى تم فيهما إعادة النصوص إلى حالتها الأولى.
نشرت هذه النصوص فى الأعداد التالية من "مصباح الشرق" فى مجموعتين. المجموعة الأولي بإشراف إبراهيم المويلحى (راجع مادة البحث ٢).

العدد	السنة	الصفحة	العنوان
٧٠	١٨٩٩	٣	"المصريون فى الغربة وأمراؤهم"
٧٣	١٨٩٩	٣	"ذو الوزارتين"
٩٥	١٩٠٠	٢-٣	"وليمة في المنام"
١٥٦	١٩٠١	٣	"فصل السفر"

أما تحت إشراف محمد المويلحى (راجع مادة البحث ٣).

العدد	السنة	الصفحة	العنوان
٢٠١	١٩٠٢	٢-٣	"حديث الفرح"
٢٢٢	١٩٠٢	٣	"جلسة فى غير مجلس"
٢٢٧	١٩٠٢	٣	"الناظر وصاحبه"
٢٣٨	١٩٠٣	٣	"بين ناظر وسائح"
٢٤٢	١٩٠٣	٣	"منتهى السلطة والقدرة"
٢٥٤	١٩٠٣	٣	"مواضيع النظار"
٢٥٩	١٩٠٣	٣	"عمل جليل"

من بين هذه النصوص بالغة الإيجاز والصغر نص "ذو الوزارتين" الذى أعيد نقله بعنوان: "دور الوزارتين في كتاب آلن Allen ٢٠٠٢ ص٥١٥-٥١٨، وكذلك نص: "حديث الفرح" ص٥٤٣-٥٤٧.

(٢) مقال: "المصريون في الغربة وأمراؤهم"، "مصباح الشرق" العدد ٧٠، ١٨٩٩ الصفحة ٣ راجع المجلد الثاني مادة البحث ٢ الفقرة (ز).

(٣) "ونسي المحفظة علي الطاولة كما نسي فتى موسي الحوت وفقدا القوت في سفرهما". مقال: "المصريون فى الغربة وأمراؤهم" مصباح الشرق العدد ٧٠، ١٨٩٩ الصفحة ٣.

من وجهة النظر السردية فإن السارد فى هذه القصة خارجي، فهو لا يشارك فى الحكاية خلافا للساردين فى قصتى "مصباح الشرق" الرئيستين. والنقطة المشتركة المركزية على الأقل فى هذه المرحلة، هى هذه المرجعية للنبى موسى؛ وهى أحد الثوابت فى الحكايات السردية المويلحية. جدير بالملاحظة أن هذه القصة تبدأ بمقدمة يوجه فيها للقارئ حديث مفاده أن:

"هذه القصة لا تحتمل تقديم المقدمات وشرح الشروح وتأويل المعانى، بل سردها عليك ببساطتها كما وقعت، تغنيك عن كل برهان وبيان على قدر المصريين فى أعين أمرائهم، وتقوم لك مقام كتاب تجمع فيه أشتات أخلاق أولئك الذين يتفيئون ظلال النعيم من ثمرات أيدى أولئك الضعفاء ودونك القصة بحقيقتها فاقرأ واحكم"(١).

الأمر يتعلق إذن بقصة محتواها مستقى من حكاية بحقيقتها كما وقعت (راجع الحاشية ٩٥٨)، يلاحظ أن الكاتب يدعو القارئ إلى القراءة والحكم بنفسه. الواقع أنه فى نهاية الأمر يعجز الشاب عن إرسال برقية لأهله فى مصر طلبا لنجدته، ويرى قصته وقد أخذت الشرطة علما بها منشورة فى الصحف. تعرف على الاسم المنشور رجل مالطى الجنسية كان قد عرف والد الشاب فذهب إلى الفندق وترك له رسالة قصيرة؛ عرفانا بصنيع كان والد الشاب قد أسداه له أعان المالطى الشاب على الخروج من مأزقه. أخذت الدهشة من الشاب مأخذها خاصة بالمقارنة بموقف ولى عهد مصر. أما المالطى فلم يشاركه الدهشة وعزا ذلك لقلة خبرته. وكلمة النهاية فى هذه القصة تبرز أهمية الخبرة وتبين أن المساعدة لا تجيء دوما من حيث نتوقع. ما تشير إليه هذه القصة أيضا أن إبراهيم ومحمد المويلحى شديدا الانتقاد للغرب والغربيين، ولكنهما أيضا يوجهان النقد للشرق والشرقيين كما تشهد بذلك كتابات كل منهما فى "مصباح الشرق". فهما يعرفان للغرب أفضالا بقدر ما يدركان له مثالبا.

---

(١) مقال: "المصريون فى الغربة وأمراؤهم" "مصباح الشرق" العدد ٧٠، ١٨٩٩ الصفحة الثالثة الفقرة الأولى.

هناك إذن سعة أفق وانفتاح ذهن تجاه هذا الآخر الذى تعرف له نقاطا إيجابية يشار إلى افتقادنا إياها.

أما النص الثانى شديد الإيجاز (ذو الوزارتين)[1] فيبدأ بعبارة: "يـروى أن". وهو يأخذ شكل حوار يذكر بالأسلوب الذى انتهجته جريدة "مصباح الـشرق" فـى قصتيها الرئيستين. تدور القصة حول نقاش يحتدم بين (أحد أرباب الجرائد) ووزير الأشغال العامة. يمثل الأول مراسلاً أو (مكاتبا) أما الوزير فيشار إليه (بالناظر).

يبدأ ممثل الجريدة بشرح أسباب زيارته للوزير. طبقا لما يطرحه فإن الناس متشككون ومرتابون بشأن عدد من الموضوعات وقد أتى لتبيان ذلك. وللقيام بهـذه المهمة يشرح للوزير كيف أنه يعتمد عليه لإيضاح الأمر ويأمل أن يحمل للناس منه ما هو فى صالحهم، إلا أن الوزير يبادره بأنه لا معلومات لديه يمكن أن تهم القراء ما دامت المدارس لحسن الحظ مغلقة والطلاب على درجة عالية من التفاهم فيمـا بينهم. وأضاف الوزير أن أرتين باشا يحمل عنه مسئولية ومهام الديوان وأن دنلوم سجل محله عند سفره. أما المشروع الوحيد ذو القيمة، أى ذلك الذى يدرسه فى هذه الآونة فمن المبكر جدًا الإفصاح عنه. عاجل الصحفى الوزير بالقول: إن الأمـر لا يتعلق بوزارة المعارف العمومية؛ وإنما بوزارة الأشغال العامة. انـدهش الـوزير لقوله وتساءل عما يمكن من الأمور أن يثير الاهتمام فى وزارة الأشغال العامـة، فأجابه الصحفي: إن الأمر يتعلق بالنيل. تعليقا على هذا الرد قال الوزير للصحفي: إنه يلاحظ عدم إلمامه (بنتائج الإصلاح فى مصر) فكل ما يتعلق بالنيـل قـد تـم تنظيمه ويجرى على خير ما يرام.

أردف الصحفى أنه على الرغم من ذلك فإن مياه النيل أقل وفرة عن ذى قبل وأن بعض الفلاحين من قلة المياه لم يتمكنوا من رى أراضيهم. علت الدهشة وجه الوزير وسأل الصحفى عن مصدر هذه المعلومات فأجابه الأخير: إن كل (الجرائد المصرية) تتناول هذا الموضوع كثيرا، بل لا تتحدث إلا عنه.

---

(١) قصة "ذو الوزارتين" "مصباح الشرق" العدد ٧٣ (١٨٩٩) الصفحة الثالثة راجع المجلد الثاني، مادة البحث ٢ الفقرة (i) وكتابا آلن Allen 2002 ص٥٤٣-٥٤٧، و١٩٧٤ ص١٣٩-١٨٠.

بلهجة ناصحة طلب الوزير من الصحفى عدم الاعتداد بما تكتبه (الجرائد المعارضة).

سارع الصحفى بالرد قائلا للوزير: إن الصحف المؤيدة والمعارضة تتفق فيما يتعلق بهذه المشكلة، وأبدى دهشته ألا يكون وزير الأشغال العمومية على دراية بالأمر. فقال له الوزير: إنه لا يقرأ الجرائد المعارضة أما الجرائد المؤيدة فقد توقف عن قراءتها بعدما صدر قرار بمنعها من نشر أى أخبار خاصة بالدولة. وأردف قائلا أنه لا يرى فائدة ترجى من قراءة الصحف كما أنه لم تصله أى معلومة رسميا بهذا الشأن. عاجله الصحفى بالرد: "لا جدال فى صدق ذلك ولكن سيكون هناك أكثر من ألف فدان[1] لن يمكن ريها هذا العام".

قال الوزير: "مثل هذه التقديرات قد تخص وزارة المالية خاصة فيما يتعلق بالضرائب. وأردف: "ماذا تمثل ألف فدان نسبة إلى خمسة ملايين من الأفدنة؟ استمر النقاش بين الاثنين بالدرجة نفسها من الزيغ وغيبة الجدية متطرقا (للبورصات والمضاربين) وميزانية الدولة واختلالها ومشكلة السودان... إلخ.

أنهى الصحفى لقاءه مع الوزير مقترحا عليه النظر إلى البلد والاهتمام بها لعمل ما يجب عمله. ضحك الوزير متهكما، وقال له: إنه عليه ألا يقلق وأنه إذا قامت حرب فى السودان واجتاح مصر الطاعون فإن الساسة المسئولين عن الدولة سيذهب كل واحد منهم إلى بلدة أوروبية.

قال السارد الخارجى (صحفى مصباح الشرق) عندئذ: إن الصحفى (الشخصية فى القصة) محدثا نفسه رأى أن الوزير لا يعرف شيئا عن شئون الدولة، وأنه أشبه بالنعامة التى يطلب منها السير فترد: إنها طائر. فإذا طلب منها الطيران نسبت نفسها للثديات. من هنا يمكن القول: إن الرقابة على الصحافة المصرية المكتوبة والتجاوزات والاختلالات السياسية، هى الأهداف التى تسعى القصة إلى كشفها مستخدمة السرد والشكل الروائى كقناع ساتر لها. استلزم الأمر عدم لفت

---

(١) وحدة قياس للأراضى الزراعية (تعادل ٤٢٠٠م٢) فى مصر تستخدم فى حساب مساحات الأراضى المستزرعة (صبري، ٢٠٠٨، ١٢٣).

أنظار الرقابة وإن كان الشكل الحوارى يسفر عن الشخصيات ومنها شخصية الوزير. نلحظ أخيرا رنة مسرحية تضفى على القصة طابعا ترفيهيا غير جاد بالمرة استخدمت لإظهاره السخرية والحوار وتعبير "ضاحكا" الذى يتخلل على استحياء سطور القصة.

تصل السخرية إلى أوجها خاصة عندما يقول الوزير للصحفي: إن المقياس الدال على الحال هو مرتبات الموظفين، وأنهم ما داموا يتقاضونها فهذا يشهد باستقرار الحال.

تبدأ القصة متناهية الصغر التالية (وليمة فى المنام)[١] دون مقدمة ودون تمهيد؛ وهى تدور حول وزير وسائقه وحارس العقار الذى يقطن فيه. طلب الوزير من هذين الأخيرين تبادل وظيفتيهما بل شغل وظائف أخرى جديدة عليهما ومنها وظيفة طاهٍ. أجابه الاثنان: إنهما قد تقدما فى العمر ولم يعد فى مقدورهما الاضطلاع بمهام جديدة. وأضاف حارس العقار أنه لا يرى نفسه فى هيئة الطاهى ولا يرى أن باستطاعته حلق ذقنه فى هذه المرحلة من عمره. أجاب الوزير مستخدميه: إنه بصدد عمل وليمة وأنه من الضرورى أن يكون كل شىء على أفضل حال. أنه نظرا لعدد المدعويين وعلو قيمتهم وقاماتهم فلا حيلة له فى ذلك. كان المتحاورون ثلاثتهم فرصة للحديث عن (الجرائد وقلم المطبوعات) و(الترتيب الغربى والعربى للمائدة) وحرية التعبير (والمناقشة والملحوظات وشورى القوانين) و(إصلاح المحاكم الشرعية)... إلخ.

أبدى الوزير فى نهاية النقاش أسفه لتعميم الحق فى إبداء الرأى بين كل الطبقات الاجتماعية[٢]، ورفض أى تعليق مصدرا أمره بالالتزام بميزانية الوليمة؛ ومن ثم بضرورة اضطلاعهم بمهمتين أو أكثر. انتهى الأمر بالوزير إلى وصف مستخدميه بالجهل مذكرا إياهم أن (الترقى فى هذا العصر) يلزم كل مستخدم بالتمرس على العمل بالمحكمة والميزانية والتعليم؛ أى أن تعدد الأنشطة وتنوع

---

(١) قصة: "وليمة فى المنام" مصباح الشرق العدد ٩٥ (١٩٠٠) الصفحتان ٢-٣ راجع المجلد الثانى مادة البحث ٢ الفقرة (أ).

(٢) "ومن شورى القوانين ونستعيذ بالله فقد سرى الملحوظات من هذا المجلس إلى كل الطبقات قصة "وليمة فى المنام" "مصباح الشرق" العدد ٩٥ (١٩٠٠) الصفحتان ٢-٣.

القدرات كلمة السر ومفتاح النجاح، همهم حارس العقار قائلا: "هذا مؤكد سيدي، غير أنه كلما ابتعد الإنسان عن بيئته الطبيعية وتدخل فيما لا شأن له به ولا معرفة تحولت حياته إلى هم دائم"[١]. هذه هى محصلة القصة وواضح تركيزها على الانحراف عن كل ما هو سوى فى المجالين السياسى والوظيفي.

أما القصة الرابعة التى تحمل عنوان "فصل السفر"؛ التى نشرت والجريدة تحت بإشراف إبراهيم المويلحى، فتحكى المناقشات التى سبقت السفر لقضاء عطلة الصيف. هذا الفصل الذى يسافر فيه عدد كبير من المصريين والموظفين ومعظمهم من الوجهاء إلى الغرب[٢].

هذا الموضوع تناولته صحيفة "مصباح الشرق" عدة مرات بالنقد والتحليل. والنص فى هذه القصة عبارة عن مناقشة بين شخصيتين إحداهما لم تقم بهذا الطقس الصيفى إلا مرة واحدة؛ بينما الأخرى اعتادت القيام به كل صيف منذ سنوات. لم تعر القصة اهتماما كبيرا لأسماء الشخصيات وأسمتهما (الأول والثاني). وقد شكلت (الدراهم والبنك العقارى والمال) و(الموطن والمسكن) و(المستحدثات الأوروبية) و(الأجناس والعادات والأخلاق) و(إتقان لغة الآخر للتخاطب) موضوعات رئيسة ناقشتها شخصيتا القصة. حاولت أولاهما إقناع الثانية أنه ليس من الضرورى الذهاب إلى أوروبا كل صيف. أما الثانية فقد تمسكت بموقفها بل ذهبت إلى حد الاستدانة لتتمكن من السفر. والقصة بذلك تبرز التقليد الأعمى الخالى من أى منطق وتشير إليه باعتباره آفة ساهمت فى تأصيل هذه العادة الصيفية. تنتهى القصة بالفشل حيث إن كل شخصية تتشبث بموقفها.

نشرت القصة متناهية الصغر التالية والجريدة تحت بإشراف محمد المويلحى فى العدد ٢٠١ عام ١٩٠٢ تحت عنوان: "حديث الفرح"[٣]. بدأت القصة بعبارة

---

(١) "نعم صدقت وخروج الإنسان عن دائرته ودخوله فى الأمر من غير بابه إغلاقا لباب راحته" قصة "وليمة فى المنام" مصباح الشرق العدد ٩٥ (١٩٠٠) الصفحتان ٢-٣.

(٢) قصة "فصل السفر" "مصباح الشرق" العدد ١٥٦ (١٩٠١) الصفحة ٣ راجع المجلد الثاني، مادة البحث ٢ الفقرة (أ).

(٣) راجع المجلد الثاني، مادة البحث الثالثة.

"حدثنا محدث قال" مما أضفى عليها جوّا خياليا، وجعل كل التركيز على سلسلة الرواة بعيدا عن مسئولية الكاتب الذى يظن أنه محمد المويلحي.

يروى السارد الذى يحمل اسم (المحدث) أنه حضر ذات يوم أحد الأفراح، وسمع هناك حديثا دار بين شاب من المدينة لا يتسم بالكثير من العقل ووجيه تبدو عليه الرزانة، محوره التقاليد والحداثة. كانت النقاط الرئيسة المتناولة هى أيها يحتفظ به وأيها يترك للاندثار وكيفية الاختيار بين هذه التقاليد وتلك؟ بينما الاثنان فى نقاشهما مر من جانبهما المحتفى به فى الفرح.

وقد وضع ذراعه فى ذراع حسناء أوروبية شابة سرعان ما استبدلها بأخرى. خرج الوجيه من الحفل مكفهر الوجه وقد أثار ما رآه دهشته.

وانتهت هذه القصة أيضا بالفشل وتراجع التقاليد الشرقية أمام التقاليد الغربية.

القصة الموجزة التالية وعنوانها: "جلسة فى غير مجلس"[1] قائمة هى الأخرى على الحوار وشخصياتها من الوزراء: وزير الخارجية، ووزير المالية، ووزير الحقانية بالإضافة إلى الرجل (ذى الوزارتين وذى الرئاسة)[2]. والهدف أيضا هو الكشف عن الزيغ والشكل السياسى غير السوى وخلل نظام الدولة المصري، بل أكثر من ذلك الخلل الناشئ عن الشراكة الإنجليزية – المصرية فى الحكم؛ وهى فى حقيقة الأمر خيالية.

تبدأ القصة بتساؤل من قبل وزير المالية حول تعدد انتقالات وزير الخارجية وكان قد علم بها من خلال الصحف. وشرح وزير الخارجية أنه لم يحدث أن شعر من قبل بثقل مهامه الوظيفية ومسئولياته، وأضاف: إنه لم يكن أعداؤه يتربصون به ويترقبون سقطته، لطلب إعفاءه من هذه المهام المتعددة. يرد فى القصة بعد ذلك ما آلت إليه وزارة الخارجية من فوضى؛ بسبب الانتقالات المتعددة لوزيرها، وتتطرق

---

(١) قصة "جلسة فى غير مجلس"، "مصباح الشرق" العدد ٢٢٢ (١٩٠٢) الصفحة الثالثة. راجع المجلد الثاني، مادة البحث ٣.

(٢) قصة كتبت بإشراف إبراهيم المويلحى فى العدد الثالث والسبعين (١٨٩٩) الصفحة الثالثة "ذو الوزارتين". راجع ما سبق.

سطورها لانضمام وزارة المالية للمحاكم الوطنية ولاجتياح العسكريين للإدارات. طلب وزير الخارجية فى رده على هذه الانتقادات تنحية هذه (المواضيع الفارغة) جانبا وتساءل باسم (الأخوة فى النظارة) عن الأسباب التى تجعل فى نظرهم وزير المالية يبقى فى مكانة هادئ الأعصاب على الرغم من (اشتداد حركة الوباء)؛ بينما يضطر هو لقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية ذهابا وعودة عدة مرات لتزايد الطلب على حفر القبور وبناء المدافن، ثم أردف قائلا: إنه لا يخاف شيئا قدر خوفه من الموت. رد وزير المالية لدى سماعه ذلك أن عليه ألا يخشى الموت ولا يخاف إلا الإقالة أو الإحالة إلى المعاش.

أما وزير الحقانية فكان يراعى الله والعدالة ويدفع زملاءه فى العمل إلى الاحتذاء به. ثار آنذاك جدل حول الإجراءات الوقائية التى يتوجب اتخاذها للحيلولة دون انتشار هذا الوباء. وقد انتهجت القصة عند هذا الحد التهكم أسلوبا لتكشف انعدام كفاءة رجال السياسة المصريين وأهليتهم. اقترح أحدهم الاتجاه إلى الله والتقرب من الشيوخ، ورأى آخر الترويح عن النفس بالذهاب إلى حفلات الاستقبال وارتياد المتاحف. ويتوقف النقاش فجأة حين يقف وزير الخارجية موجها حديثه إلى الجمع غير الرسمى قائلا:

"أستودعكم بالله جميعا فقد حان وقت السفر إلى مصر"(١).

تابعت الجريدة بعد عدة أعداد تناول السياسة المصرية من خلال قصة أخرى شديدة الإيجاز بعنوان: "الناظر وصاحبه"(٢). تروى القصة مناقشة دارت فى هيئة حوار بين ناظر الحربية وصاحبه. تمت الإشارة فى الحوار إلى ناظر الحربية تارة بمسماه الوظيفى كاملا وتارة أخرى بكلمة "الناظر" فقط. ومحور الحديث هنا أيضا وظائف الوزراء أو النظار وسلوكهم تجاه مسئولياتهم.

---

(١) قصة: "جلسة فى غير مجلس" "مصباح الشرق" العدد ٢٢٢ (١٩٠٢) ص٣.
(٢) قصة: "الناظر وصاحبه" "مصباح الشرق" العدد ٢٢٧ (١٩٠٢) ص٣ – راجع المجلد الثانى، مادة البحث الثالثة.

بدأ ناظر الحربية بحمد الله وشكره على عودته سالما من السفر وعلى الفراغ من العمل للاستمتاع[١]. مما أدهش صديقه الذى بادره بالقول: "كيف يتأتى لك القول: إنك قد فرغت من العمل وأنت الرجل "ذو الوزارتين"[٢] الذى يحتل وظيفتين تنازع عليهما علية القوم؛ أملاً فى الاضطلاع بمسئولية إدارة حرب المال[٣].

شرح الوزير لصديقه كيف أنه نادم لقبوله الحلول محل وزير المالية وروى له أنه قرر ذات يوم الذهاب إلى نظارة المالية، وأن حارس المدخل منعه الدخول من الباب المخصص لموظفى الدولة رغم إفصاحه عن هويته وأنه لحسن حظه تعرف عليه زميلان له وصلا فى تلك اللحظة مما مكنه من الدخول.

لدى وجوده أخيرا فى مكتب ناظر المالية الذى كان يحل محله سمع كيف أن ناظر الحربية يتململ من السأم لأنه ليس لديه ما يفعله فالمهام كلها يقوم بها غيره. استبدت به الرغبة فى الحظو بهذه الحرية وبإمكانية تمضية الوقت فى استقبال الزوار وقراءة الصحف. شاركه صاحبه الرأى فى ذلك مضيفا أنه لو أمضى الجميع أوقاتهم فى وزاراتهم بين الكتب والصحف لأصبحوا فى مستوى لياقته ومعرفته. هنا أيضا ختم التهكم الساخر النقاش الدائر بين الشخصيتين.

ظهرت قصة أخرى متناهية الصغر بعنوان: "بين ناظر وسائح"[٤] بعد ذلك بعدة أعداد وبها هى الأخرى حوار بين وزير أو ناظر وشخصية أخرى. هذه المرة لم تكن الشخصية صديقا أو زميل عمل؛ وإنما سائحا يسأله الوزير عما إذا كان قد استمتع بإقامته فى مصر؟ لم يجب السائح فقط بالإيجاب؛ وإنما ذكر أنه يحلم بأن تستحيل السنة كلها شتاء ليتمكن من الوجود دوما فى مصر من فرط طيب العيش

---

(١) "حضرنا والحمد لله من سفرنا وحللنا فى ربوعنا من الشغل إلى الفراغ وانتهينا من العمل إلى البطالة".
قصة: "الناظر وصاحبه": مصباح الشرق" العدد ٢٢٧ (١٩٠٢) ص٣.

(٢) شخصية مشتركة في ثلاث قصص متناهية الصغر.

(٣) "كيف تقول ذلك وأنت اليوم ذو الوزارتين وصاحب المنصبين الذين طالما تناطح عليهما قروم الرجال وتواثب عليهما الفحول والأبطال رئاسة الحرب ورئاسة المال".
قصة: "الناظر وصاحبه" "مصباح الشرق" العدد ٢٢٧ (١٩٠٢) ص٣.

(٤) قصة: "بين ناظر وسائح" "مصباح الشرق" العدد ٢٣٨ (١٩٠٣) ص٣ راجع المجلد الثانى مادة البحث الثالثة.

بها، وفرط النظام، والتنظيم اللذين لاحظهما. أيده الوزير فيما ذهب إليه وخفف بعض الشيء من غلواء المديح مؤكدا أنه ما زال هناك الكثير مما يجب عمله كما فى أماكن أخرى كثيرة فى العالم.

سأل السائح الوزير عما إذا كانت المناقشات حامية الوطيس فى المجلس التشريعى وتصل إلى السباب وإمكانية قيام انقلاب. نفى الوزير ذلك قائلا: إن المجلس التشريعى فى مصر ليس على شاكلة النموذج الأوروبي. فاسمه "مجلس الشورى" ولكن لا إمكانية لديه للاعتراض أو المعارضة؛ بل إنه لا قول له فى أى أمر، كل ما عليه الإنصات والامتثال. لدى سماع السائح ذلك سأل عما يرجى من وجود مجلس على هذا النحو فأجابه الوزير بأن هذا المجلس وسيلة لتدريب المصريين على الحياة البرلمانية حتى يتمكنوا بعد ذلك من السير على دربها. سأل السائح الوزير:

"أى مشروعات تحوز الآونة الحالية اهتمامكم"؟ أجابه الوزير: إن الوزارة لا تهتم اهتماما مباشرا بالمشروعات الحكومية، فهذا الأمر مستقر عليه مسبقا ويتولاه آخرون، وهذه المشروعات يتم إنجازها والانتهاء منها وفقا لما تفرضه الظنون. "ينصب إذن اهتمامكم على كتابة القوانين والمراسيم لصالح الرعايا؟" أجاب الوزير السائح على هذا التساؤل بقوله: "هذا الأمر أيضا ليس فى حيز اختصاصنا. واقع الأمر أننا رأينا من الأفضل الاستعانة بالقوانين الأوروبية وتأسيس مكاتب للترجمة تتولى نقلها إلى العربية، وبذا لا يكون علينا كتابتها. غالب الفضول السائح ودفعه للسؤال عما إذا كانت هذه القوانين تتفق وعادات وتقاليد أهل البلاد. أجاب الوزير: إنه لا يرى ذلك لا ضروريا ولا لازما وأن الأحرى تكيف المواطنين مع القوانين لا العكس.

لاحظ السائح فى نهاية اللقاء أن الوزير لا يعمل فى أى مجال فسأله تحديدا عن مهامه الوظيفية، واستخلص من رد الوزير أنه يشارك فى افتتاح المتاحف والمؤتمرات الطبية؛ لأن مصر هى جنة الله على الأرض، وأن وزراءها ينعمون بحياتهم فيها.

نشرت "مصباح الشرق" بعد عشرة أعداد منها قصة موجزة أخرى بعنوان: "منتهى السلطة والقدرة"[1] تجمع مرة ثانية بين الناظر وصاحبه ولكن هذه المرة حول ملذات السلطة ومباهجها.

يجتمع في السلطة النقود والحظ. سأل الصاحب الوزير إذا كان الوقت قد سمح له بقراءة بعض من الكتب التي تجلب من السعادة والرضا ما يفوق كل ما عداها في الحياة الدنيا. اعترت الوزير الدهشة من فكرة صديقه أن القراءة تجلب السعادة وقال معلقا عليها: إن القراءة وسيلة تعين العلماء على تحمل الحياة وتقليل قسوتها للطبقات الاجتماعية الأخرى، وأن العلم بالنسبة إليه وسيلة للحصول على المال، والسبيل الوحيد للوصول إلى السلطة التي تمثل له قمة السعادة على الأرض. سأله الصديق أن يفسر له كيف استطاع مع ثقل الأجواء الإدارية التي تحيط به أن يصل لهذه المكانة ويصبح له كلمة مسموعة. شرح له الوزير أنه يكفيه سبيلا أن يشي للمكاتب المختصة بأسماء الأشخاص الذين يتقاعسون عن أداء مهامهم. وتنتهي القصة بهذه الحقيقة القاسية التي تدفع الصديق إلى مغادرة المكان حزينا ملؤه القلق على مصير صغار العاملين وبسطاء الناس.

نلقى بعد نحو عشرة أعداد قصة وجيزة أخرى تحمل عنوان: "مواضيع النظار"[2] وهي مثل القصص السابقة ذات طابع حواري، وتدور حول نظار الخارجية والحربية والمالية والحقانية، بالإضافة إلى رئيس النظار وناظر المعارف العمومية. ينضم إلى هذا الجمع في نهاية القصة كاتب أول وكاتب ثان. تأخذ هذه القصة على استحياء شكلا مسرحيا. فتتخلل الحوار عبارات؛ مثل: "للهرب من الإجابة غطى ناظر الخارجية فاه كما لو كان يغالب نوبة عطس" موضوعة بين قوسين. وعلى الشاكلة ذاتها نجد في نهاية القصة: "ما إن انتهيا من هذه الكلمات حتى انصرفا" أو "قال السكرتير الأول للثاني وهو يغادر القاعة" وذلك بالإضافة إلى عدة مسرحيات؛ أي توجيهات من المؤلف لكيفية الأداء.

---

(١) قصة: "منتهى السلطة والقدرة" "مصباح الشرق" العدد ٢٤٢ (١٩٠٣) ص٣ راجع المجلد الثاني مادة البحث الثالثة.

(٢) قصة: "مواضيع النظار" "مصباح الشرق" العدد ٢٥٤ (١٩٠٣) الصفحة الثالثة. راجع المجلد الثاني، مادة البحث الثالثة.

أما النقاش بينهم فقد بدأ بأخبار منشورة فى الصحف عن تقرير اللورد كرومر مع التركيز بشدة على نوعية الصحف التى تناولته. بعد نقاش قصير حول الصحف والتقرير أبدى ناظر المعارف العمومية دهشته من رؤية ناظر الخارجية يستفيض بالحديث عنهما، بل سأل الناظر عن سبب ذلك، فأجابه أنه أدرك مع تقدم العمر أنه من المجدى والمفيد أن يولى بعض الاهتمام للعلوم والأدب. غيَّر ناظر المالية موضوع النقاش بسؤاله عما قيل فى التقرير عن مهامهم وطمأنه ناظر الخارجية قائلا: إنه لم يرد ذكرهم بخير أو بشر وأنهم يمكنهم اعتبار كل ما ورد بالتقرير بشأن الحكومة فى صالحهم. أبدى ناظر الحربية استياءه وانفعاله من تجاهل لورد كرومر لهم إلى هذا الحد، وحاول ناظر الخارجية تطييب خاطره مذكرا إياه بواقع الحماية المؤسف.

استمر النقاش دائرا بينهم فى جو شاعرى وجدانى أفصح كل واحد منهم فيه متهكما عن المثل أو القول المأثور الذى كان يرغب فى رؤيته فى هذا التقرير. ختم الرئيس حديثهم بقوله: إنه قد فاض به الكيل وأن الاضطراب قد غشى المجلس مذكرا إياهم بمقولة جان جاك روسو: "الإنسان الذى يفكر هو حيوان مريض". عندئذ غادر الوزراء المكان؛ بينما بقى السكرتيران مقلدين إياهم وباحثين بدورهما عن القول المأثور الذى يرغبان فى قراءته بالتقرير. انطلق أحدهما فى إلقاء العديد من الأقوال التى يحفظها عن ظهر قلب، فقاطعه الثانى قائلا: "تمهل ولا تكن كناظر المالية لا تلق بكل ما تحفظه دفعة واحدة"، حانت ساعة الغداء وكما يقول المثل الفرنسي:"مع البطن الخاوية لا آذان صاغية".

"عمل جميل"[(١)] قصة وجيزة أخرى تلحق بسابقاتها فى أعداد تالية من "مصباح الشرق". الشخصيات فيها تضم كالعادة مختلف الوزراء بصحبة الرئيس. وجدير بالذكر أن عدد المسرحيات (أو توجيهات المؤلف) زائد عن كل القصص السابقة وعلى الرغم من احتفاظ المؤلف بالشكل الحوارى فإنه قد قسم قصته هذه المرة إلى فصلين أو (دورين).

---

(١) قصة: "عمل جميل"، "مصباح الشرق" العدد ٢٥٩ (١٩٠٣) الصفحة الثالثة راجع المجلد الثاني، مادة البحث الثالثة.

يبدأ النقاش بتناول للفروق بين الوطنيين والمحتلين، ثم يطلب الرئيس من الجمع التركيز على أوراق اللعب، التى يحاول من خلالها معرفة ما يخبئه له المستقبل القريب. تتنبئه الأوراق أنه بصدد مشروع مهمّ يجرى تنفيذه وصفقات مالية محتملة بين الشعب والدولة. يدرك الرئيس أن ذلك قد يعنى مشروع السكك الحديدية بين مصر والحجاز، ويقرر العودة من فوره إلى القاهرة لجلسة غير عادية فى اليوم التالي. يلفت أحد الوزراء نظره إلى أن مثل هذه المبادرة من جانبه قد تثير حنق المحتلين غير أن الرئيس لم يكترث. ويذكره وزير آخر أن اليوم التالى يوافق الجمعة مما يستحيل معه اجتماع مجلس الوزراء فهناك صلاة الجمعة وبالتالى فهو يوم عطلة لجميع الإدارات. لم يثن ذلك من عزيمة الرئيس وبقى على موقفه. استجاب الجمع لرأيه وعقد الاجتماع فى اليوم التالى وفيه عرض الرئيس عليهم نشرة تحظر على الموظفين جمع الأموال من المصريين لإنشاء السكك الحديدية بين مصر والحجاز.

طلب الرئيس من وزرائه إبداء الرأى فى هذه النشرة. لم يبد ناظر الخارجية وجهة نظر، أما ناظر الحقانية فقد رأى أنه إذا تحددت ملامح هذا المشروع فسييسر الحج وطلب مهلة للتفكير. وهذا ما علق عليه ناظر الخارجية قائلا: إنه لا أحد منهم قادر على التنبؤ بالمستقبل ولا بما سيطرأ على المشروع. أما ناظر المالية فقد تساءل عما إذا كانت لهذا المشروع أسهم وسندات فى البورصة؟ وقد أجابه ناظر الخارجية على تساؤله بالنفي. انسل ناظر الحربية خارجا فى هدوء من القاعة قائلا فى نفسه: إنه من المؤسف رؤية ما تردى إليه الحال، هذه الفوضى وعدم المبالاة تجاه الإسلام والمسلمين. كان رأيه أنه من المحزن رؤيتهم يعملون ضد مشروعات الخليفة ويتجاوزون إلى حد عقد مجلس وزراء طارئ خلال شهر المولد النبوي. بل وفى وقت صلاة الجمعة، كل ذلك ليس إلا بهدف منع جمع الهبات والتبرعات لتيسير الحج. زيغ بعد زيغ، وحيد عن الجادة هى إذن ما يميز الوزراء فى نظر المويلحى.

ويمكننا فى القصتين الرئيستين والقصص الثانوية متناهية الصغر التى نشرت كلها فى "مصباح الشرق"، وضع اليد على نقاط اتفاق ونقاط اختلاف عدة. أولا نلاحظ أنها كلها نشرت فرادى، بمعزل كل منها عن الأخرى. فالقصص الموجزة

على شاكلة "مرآة العالم" و"فترة من الزمن" لا تلتقى فى عدد واحد من أعداد الصحيفة. هناك إذن إرادة ورغبة فى نشرها بالتبادل. كل قصة تضطلع إذن بالدور الأدبى المنوط بالعدد الذى تنشر فيه وتأخذ على عاتقها مهمة استكمال الشكل السردى فى جريدة "مصباح الشرق".

وفى وسعنا القول: إن القصص بالغة الإيجاز التى نشرت والجريدة تحت إشراف إبراهيم المويلحى محورها نقد السياسات وورثة العرش الخديوى والمقارنة بين الشرق والغرب. وهى تفضح نقص التلاحم والتكاتف الوطنى، والتقليد الأعمى للأوروبيين. أما القصص التى نشرت والجريدة تحت إشراف محمد المويلحى فتهتم كلها بالسياسة فى مصر باستثناء الأولى التى تتمحور حول التقاليد والحداثة.

يبدو الوزراء من خلالها عديمى الفائدة والكفاءة، وظائفهم مظهرية ونواياهم تناقض الصالح العام. وصفهم إذن يصب فى صالح المحتلين. وضعهم ليس إلا ألقابا خاوية من أى مهام وظيفية حقيقية.

هناك على الأقل وزير واحد فى قصص الأب والابن؛ وهى كلها ذات بناء حوارى وترتكز على سارد داخلي. قليل منها به سارد خارجي، باستثناء قصة[١] "حديث الفرح" ويمكننا القول: إن فكرة الإسناد تكاد تختفى أما الشكل المسرحى فيتزايد ويبرز اللجوء إليه.

فى جريدة "مصباح الشرق" لدينا ساردان رئيسان ولا نعرف إذا كان من يظهر بين الفينة والفينة فى القصص متناهية الصغر هو أحدهما أم أن هناك ساردا ثالثا؟ ونشير هنا إلى أن مقالاته ذات الطابع السردى والخيالى لم يستمر فيها شكل المقامة طويلا. لنقل: إن النقطتين الأساسيتين والمشتركتين بين القصتين الرئيستين والقصص متناهية الصغر الثانوية هما الشكل الخيالى السردى للقصة ومعاصرة المحتوى الذى يتم سرده. واقع الأمر أن الخيال هو ذلك القناع الذى سمح لإبراهيم المويلحى وابنه بالإفصاح عن الممنوع على الرغم من أى رقابة (التى يفضحانها ويشيان بها فى قصصهما). الموضوعات المتناولة السائدة هى ذاتها الطاغية على

(١) راجع المجلد الثانى، مادة البحث الثالثة.

الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية المصرية المعاصرة، والحقيقة أنها محاور المشروع الجارى تنفيذه آنذاك وهو مشروع النهضة.

أما الموضوعات الثانوية فتبدو كمحاولة مجهضة لقصة طويلة سردية فى حلقات شخصياتها وزراء مصريون. ونلاحظ أنه لا يوجد توقيع فى نهاية القصص المنشورة طوال سنوات تولى إبراهيم إدارة تحرير الجريدة ورئاستها وكذلك الأمر وقت شغل ابنه لذات المنصبين مما يجعلنا عاجزين عن الجزم إذا كان ذلك عملا مشتركا؛ لذا نرى أنه ينبغى دراسة هذه النصوص من ناحيتى الشكل والأسلوب وزوايا أخرى عديدة. الواقع أنه بالنسبة إلينا يقتصر الأمر على تبيان الشكل السردى العام، والمحتوى الموضوعى من منظور مقارن للمقالات المنشورة فى حلقات بجريدة المويلحى "مصباح الشرق" وبصفة خاصة فى ضوء "مرآة العالم" و"فترة من الزمن" ويمكننا ملاحظة أنه أيا ما كان نوع الخطاب المرجعى أو الخطاب الخيالى الروائى المويلحى سواء كان سرديا أو صحفيا تبقى الوسائل فى توصيلها متماثلة والموضوعات ثابتة. تحتل الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المعاصرة قلب المناقشات السائدة وتبقى السخرية والحوار والتهكم الوسائل المستخدمة من قبل إبراهيم ومحمد المويلحي.

٤- بين الأدب والصحافة المكتوبة: مقامة القرن التاسع عشر

نقلة لنوع أدبى فى اتجاه الرواية الاجتماعية

"من بين كافة المجالات التى ترتع فيها النظرية الأدبية يعد مجال الأنواع الأدبية بلا شك واحدا من أكثرها فوضى وارتباكا"(١).

استخدمنا فى حديثنا عن هذا النوع الأدبى عدة صفات؛ منها: مقامة، وحكاية، ورواية، وسرد، محاولة منا لتثبيته. الواقع أن السؤال عن أصل النوع غالبا ما يكون معقدا ونادرا ما يصل إلى إجابات نهائية. ومحاولتنا هنا لا يمكنها بالتالى ادعاء الوصول إلى الإجابة عن السؤال بشكل لا رجعة فيه؛ لذا نقترح طرح مناقشة

(١) شيفر Schaeffer ١٩٨٦ ص١٧٩.

بدلا من تقديم تعريف؛ أى محاولة مفتوحة منا قابلة للتغير حتى الاكتمال. الحقيقة أننا لا يمكننا قراءة الكتابات المويلحية بتريث من غير أن نسأل أنفسنا عن النوع الذى تنتمى إليه. والتساؤل عن النوع الأدبى الذى يجدر بنا أن ننسب نصا إليه هو تساؤل عن أصل النص وعن نقاط الالتقاء والاختلاف بينه وبين غيره من النصوص. وأى تناص قد تم اللجوء إليه فى كتابته وأى أفكار معيارية ومتدرجة اختيرت عن وعى أو تلقائيا فى صياغته. تحديد نوع النص وتحليله هو بمعنى آخر وضع اليد على معناه. ووراء المحتوى الموضوعى (الدلالي) والخواص الغالبة الأيديولوجية (topos، doxa، cliché) تساهم البنية (الشكل اللسانى واللغوي) هى الأخرى فى تكوين المعنى وبنائه. فالحكاية تختلف ولا يكون لها ذات التلقى إذا أخذت شكل الأقصوصة، أو القصة القصيرة، أو المقامة، أو القصة السردية، أو القصة الخيالية، أو الاثنين معا، أو الراوية الطويلة. ويمكننا الذهاب إلى أبعد من ذلك. والقول: إنه لن يتم فهم الحكاية ولا إدراك الرسالة، أو الرسائل التى تنقلها بالطريقة ذاتها إذا ما كانت واقعية، خرافية أو أسطورية. كما أن هذه الحكاية تصنف وفقا للأهداف التى ترمى إلى تحقيقها فهى قصة، أو رواية تعليمية، أو رواية تربوية، أو مادة للتسلية، أو جامعة للتسلية والتربية، أو وعظية، أو تاريخية، أو سياسية، أو اجتماعية. ويمكننا هنا أن نضيف أن وجود بعض أساليب البيان والأساليب البلاغية مثل: السخرية، والتهكم، والأسئلة الإنكارية أوغيابها، تؤدى دورا فى تحديد النوع الأدبى الرئيسى والأنواع الأدبية الثانوية المتفرعة عنه فى أى نص مكتوب. وبالتالى يمكن القول: إن النوع الأدبى ذاته متدرج ويتكون من مستويات متباينة من الأصول التى ساهمت فى نشأته.

والقصتان الرئيسيتان اللتان كتباهما إبراهيم ومحمد المويلحى أشبه بطريقتين متوازيتين ولكن متكاملتين استخدماهما وصولا لهدفهما وهو التعريف بالعالم. تمثل المساحة والفضاء فى "مرآة العالم" الأرض والكون والبحار والجزيرة الفاصلة المهجورة؛ وهى أماكن تذكرنا بالعالم الحقيقى وبالأحرى بالشرق والغرب. ويمثلها فى الوقت ذاته فضاء سماوى يعزى إلى الخيال والدين.

أما المساحة والفضاء فى "فترة من الزمن" بعيدا عن الرؤيا التى يعود فيها ميت إلى الحياة، فهى تشير إلى مصر وإلى الغرب؛ أى إلى عالم واقعي. والجانب الإلهى يبدو أكثر وضوحا فى "مرآة العالم" عنه فى "فترة من الزمن". فى القصة الأخيرة لا يمثل السمت الفوطبيعى سوى البعث إلى الحياة والإشارة إلى موسى مع تقدم مراحل المغامرة. أما فى "مرآة العالم" فالجانب الإلهى مستخدم بقوة خاصة خلال لقاء الشيخ وموسى بن عصام وأثناء تحليق الأخير. فى هذه القصة تكثر الدلائل الخيالية والدينية، فهناك حديث عن الدهر والعناية الإلهية، وهناك هيئة الشيخ السلطوية والتذكير المتكرر من جانبه لموسى بن عصام بنشر لين الحديث وأعذبه. يروى القصة سارد خارجى لا يتدخل بشكل مباشر سوى مرتين أولاهما فى البداية من خلال (الإسناد)، وثانيهما فى منتصف الرحلة لدى عودة موسى بن عصام بعد عام من الغياب (المقامة الرابعة، العدد التاسع بعد المائة من مصباح الشرق) ومسئولية الخطاب متروكة هنا إذن للسارد الداخلي؛ أى إلى موسى بن عصام.

بما ذكرناه عاليه نكون بشكل ما قد حددنا بعض سمات الأصل لهذه المحررات المويلحية فقد وصمت بكونها:

- نصا: بمعنى أن القد إلى ما كتب ويكون كيانا مرئيا نراه حاويا لحكاية.
- حكاية: كتنسيق لأقوال محكية تشكل محتوى (القصة).
- خيالية: إشارة إلى الجانب المخترع والمبدع من الحكاية المشار إليها سواء من ناحية المكان، أو الزمان، أو الشخصيات، أو الأحداث.
- سردية: فى إشارة لعملية الحكى التى تربط القصة وتبنيها.

ولكن إلى أى نوع أدبى ترجع قصتانا السرديتان والخياليتان؟ للوهلة الأولى تبدو المقامة هى الرد المناسب. إلا أنه بعد الفحص المتريث يتبين لنا أن هذا التصنيف واضح القصور. فالمقامات[١] تكوين من النثر والشعر يرجع فى أصله

---

(١) لمزيد من المعلومات حول المقامة راجع Hameen – Antilla، ٢٠٠٢ ص٥٠٢.

إلى القرن العاشر، وهو نوع أدبى ظهر على يد الهمذانى (٩٦٧ – ١٠٠٧) ومثله مثل غيره ليس مجهول المصدر فله سوابقه. وطبقا لما يسوقه لنا طرشونة Tarchouna (١٩٨٢، ٣٩).

"المقامة نوع أدبى إنساني ليس تلقائيا، فهو لم يولد فجأة فى الفترة من القرن الرابع إلى القرن الحادى عشر فى الحيز العربى الإسلامي؛ لأنه من وجهة النظر الشكلية هناك العديد من الحكايات القصيرة سبقتها فى نطاق الأدب السردى العربى، منها نوادر الجاحظ (تُوفِّى عام ٢٥٥ هجريًا ٨٨٩ ميلاديًا) فى كتاب "البخلاء"، وأحاديث ابن دريد (تُوفِّى عام ٣٢٨ هجريًا ٩٣٩ ميلاديًا) وابن قتيبة (تُوفِّى عام ٢٧٦ هجريًا ٨٨٩ ميلاديًا)، هذه الكتابات كلها مثل: "المقامة"، "قصص قصيرة" لها راو أو سارد وشخصية رئيسة".

"المقامة" إذن نوع ولد من أنواع أخرى قرينة سبقته. من هنا فإن "مقامات الهمذاني" (٩٦٧ – ١٠٠٧) لا تتأتى من فراغ إلا أنها يشار إليها باعتبارها شهادة الميلاد الحقيقية للنوع الأدبى المشار إليه. تترجم كلمة "مقامة" في اللغة الفرنسية إلى "séance"؛ وهى ترجمة تثير عدة مشكلات إلا أنها المقابل الوحيد حتى يومنا هذا منذ لجوء "سلفستر دي ساسي" Silvestre de Sacy إلى هذا المصطلح. وتعني كلمة "مقامة" في اللغة العربية (يقوم – مقام) القيام أو الوقوف لتنفيذ فكرة. تطور المعنى واكتسب دلالات أخرى "اجتماع – جمعية – معارك – مشاهد لأعمال حربية"، ثم نحا إلى وجهة أخرى وأصبحت دلالته: "خطب إيمانية ملؤها التقوى". والسمات المميزة للمقامة وفقا لما جاء به كيليتو Kilito هى الأسلوب الراقي والأنيق المليء بالسجع، وثيمة الصعلكة، والتسول، وإسناد الخطاب، وطريقة ثابتة في ربط السرد. يضاف إلى ذلك كله الارتحال والملاحظة المباشرة والتواجد الدائم للبطلين الرئيسين ودور الزمن مع ثيمة القدر والبحث الدائم عن المعنى، والعلوم، والتقاليد، والدين. والمقامة –هذا الفن العروضي– يتميز بنسق حوارى يسبقه إسناد يقدم للحكاية ويظهر على النحو التالي: حدثنا (س)[1]. أما الثيمات التي تناولتها المقامة قبل القرن التاسع عشر فيستوقفنا فيها جمعها لثيمات متفرقة. فقد كان فى وسعها الانتقال من

---

(١) راجع James Monroe ٢٠٠١ ص١ – ١٨ ما المقامة؟ ?What is Maqamah.

موضوع اجتماعي إلى موضوع دينى تنتقل بعده إلى موضوع فلسفي. شهدت المقامة فى القرن الثامن عشر[1] إثراء لثيماتها. فإلى جانب الحب والأحداث السياسية المعاصرة تخللتها ثيمات أخرى جعلت منها لا مجرد حكاية متسول صعلوك؛ وإنما قصة شخصيات أكثر احتراما وأحداث تلمس معشر القوم؛ أى أعطتها أبعادا جماعية. نذكر من هذه النوعية مقامات محمد بن الطيب العلمى ١٧٢١ ومقامات محمد الورغى (١٧٧٦).

ونذكر هنا أن الزراعة قد تم تناولها كثيمة فى مقامة أبو الفتح نصر الله الخوسانى (١٧٥٣). ولا تفوتنا الإشارة إلى أن مقامات المويلحى ليست أولى المقامات التى ترتكز على النموذج التقليدى الكلاسيكى، ويمكننا أن نذكر مقامات سابقة من القرن التاسع عشر السابقة[2] منها مقامات حسن العطار التى ظهرت عام ١٨٠٠ ومقامات ناصيف اليازجى التى تحمل عنوان: "مجمع البحرين" عام ١٨٥٦. ظهر عام ١٨٥٥ عمل يجمع بين المقامة والرواية الطويلة لفارس الشدياق بعنوان: "الساق على الساق". أما بين المقامة وأدب الرحلات فقد ظهر لعلى مبارك عام ١٨٨٢ / ١٨٨٣ عمل يحمل عنوان: "علم الدين".

تزامن على مدى القرن التاسع عشر نشر مقامات القدامى والحديثين من المثقفين، فنجد مقامات السيوطى عام ١٨٥٨ والحريرى عام ١٨٥٩ والهمذانى عام ١٨٨٩ منشورة، وفى الوقت ذاته قرض الكتاب الجدد ونشرهم لمقاماتهم إما فى صورة حلقات مسلسلة فى الصحف وإما بشكل مباشر فى كتب. ونذكر من هؤلاء الكتاب الأحداث عبد الله النديم وحافظ إبراهيم[3].

---

(١) راجع فيما يخص المقامة فى القرن الثامن عشر كتاب Hameen – Antilla، ٢٠٠٢ ص٣٤٦ – ٣٥١ وص٣٩٩ – ٣٠٤ وكذلك Hallaq et Toelle، ٢٠٠٧، ٧٨٤ ص٦٠ – ٦١ و٦٦ – ٦٩ ومرجع Toelle et Zakaria ٢٠٠٣، ص٣٨٨.

(٢) راجع Hameen – Antilla، ٢٠٠٢، Hallaq et Toelle، ٢٠٠٧ إلخ.

(٣) راجع Jihad، ص١٢٥-١٢٩.

استوحى النهضويون الكثير من المقامات القديمة والتقليدية مع إضافة لمساتهم للتجديد. وقد أدى الإحياء والاقتباس إلى ظهور أنواع أدبية عربية حديثة. "والمقامة" واحد من الأنواع الأدبية التقليدية (الكلاسيكية) التى أعاد الكتاب العرب استخدامه نظرا لكونه يمثل "شكلا مرنا يسمح بالكثير من التنويعات" (جهاد، ٢٠٠٧، ١٢٦) ومع ذلك لم تحتفظ "مرآة العالم" و"فترة من الزمن" بالمواصفات والسمات القديمة للمقامة.

فالسجع وهو الخطاب الإيقاعى وأن كان أظهر وأوضح فى "مرآة العالم" عنه فى "فترة من الزمن" إلا أنه إجمالا أقل من ذى قبل.

أما ثيمتا التسول والصعلكة فقد اختفت تماما. فروق أخرى نلاحظها منها أن الإسناد قد تم الإبقاء عليه، ولكن بشكل مبسط ومخفف قياسا على ما كان مألوفا فيما بين نهاية القرن العاشر والقرن الثامن عشر. ثيمتا الارتحال والسفر كذلك بقت ولكن شكل مبسط ومخفف قياسا على ما كان مألوفا فيما بين نهاية القرن العاشر والقرن الثامن عشر. ثيمة الارتحال والسفر كذلك بقت ولكن بشكل كلى فى قصتى آل المويلحي. أمر آخر نراه على مدى أحداث القصتين هو الملاحظة المباشرة بفضل نظرة موسى الثاقبة، ورؤى موسى فى الأحلام، هذا إلى جانب أن بطلى "مرآة العالم" و"فترة من الزمن" متواجدان فى كل مكان ودائما التحاور.

يلاحظ بالإضافة إلى كل ما سبق أن ثيمتا القدر والبحث عن المعنى والعلوم موجهتان ومركزا عليهما بشدة. الواقع أن إشكالية ما ستصير إليه الأمة المصرية أو بالأحرى الشرقية، أو العربية الإسلامية تحتل المكانة الرئيسة فى خطاب كل من النصين، هذا إلى جانب أن التقاليد والدين بين الشرق والغرب تشغل كل المساحة السردية. هذه المساحة السردية يخترقها زمنان: زمن سردى وآخر بيانى تعبيريا؛ وهى تترجم وتقدم لا ثيمات متباينة متراصة ورابط للسرد لا يتغير؛ وإنما مساحة سردية شاملة. من هنا فالأمر يتعلق برابط سردى يصل بين المقامات إلى بعضها البعض، مما يتعذر معه قراءتها متفرقة وفى ذلك تحديدا ما قدمه آل المويلحى من تجديد مع أشياء أخرى.

على هذا النحو تطورت المقامة طوال القرن التاسع عشر وأخذت منحى جديدا؛ مما أخرج إلى الوجود نوعا أدبيا جديدا هو مقامة القرن التاسع عشر؛ وهى مثلها فى ذلك مثل اللغة والأدب بأنواعه ثابتة ومتغيرة. ثباتها أساسا فى أسلوبها النثرى المسجوع حتى إن كان هذا السمت لا بعد حكرا على هذا العلم وخاصية محددة تلزم بمنح بطاقة "مقامة لأى نص" (Kilito ١٩٨٣، ١١٧).

أما طابع المقامة التطورى فيكمن فى مقدرتها على الولوج فى عدد كبير من الثيمات، وهذا من بداية نشأتها بالإضافة إلى قدرتها على التطور فى اتجاه أنواع أدبية أخرى وأنماط من الخطاب ومن الهياكل والبنيات السردية المتباينة.

نستخلص مما سبق أن تبنى هذا النوع الأدبى القديم وتكييفه وفقا لاحتياجات العصر المشار إليه أمور تتصف بالحكمة والحصافة "ولم يكن كتاب النهضة ليجدون فى الواقع أداة أفضل" (جهاد ١٢٦، ٢٠٠٧). لنقل: إن كل مقامة من مقامات القرن التاسع عشر قد ساهمت فى تطور النوع الأدبى الذى استقت منه بعضا من سماتها وتكوين نوع أدبى جديد نطلق عليه "مقامات القرن التاسع عشر" التى تعد مقامة المويلحى أنضج صورها. واحدة من الخصائص الجديدة لهذا النوع الأدبى هى نشرها فى دورية، وقد أضفى زمن النشر فى حلقات فى إطار مقال من مقالات الصحافة المكتوبة إيقاعا على قراءتها وتوافق مع ما بالمقامة من انتظام النغمة والوقع.

تميزت البنية السردية للمقامة الجديدة بكونها أقل جمودا وأكثر انفتاحا وأكثر ميلا إلى التعاقب والاستمرارية من المقامات القديمة، وقد بدا ذلك واضحا من مقامة إلى أخرى ومن عدد إلى العدد التالى له ومن مقال لآخر. والملاحظ أن وسيلة النشر الدورية تتفق وإيقاع ظهور مقامات القرن التاسع عشر، غير أن هذا ليس كل ما تميزت به. فوسيلة النشر هذه باعتبارها الإطار المحيط والضام للنص قد أضفت بعدا أيديولوجيا وتفسيرا تكميليا. من هنا يمكن القول: إن المقامة الحديثة أكثر ارتكازا على المرجعية من المقامة القديمة التى لم تكن تعبر عن مكنونها إلا بمحتوى نصها. أثرى الإطار المحيط مقامتى إبراهيم ومحمد المويلحى وأفادهما، ولكن حظت "مرآة العالم" بمصدر إضافى للإيقاع وهو الزمن السردى الموزون

الذى شكله تكرار المفردات فى الحوار. هذا الإيقاع يحيل إلى النظرة الفوطبيعية التى اكتسبها موسى بن عصام أثناء تحليقه فى فضاء الخيال.

من ناحية أخرى لدينا بعدا دينيا قويّا فى الإطار الروائى مرجعه التناص مع القرآن، من هنا اكتسبت مهمة السارد الداخلى قيمة نبوية. هذه المهمة مفادها نقل موسى لتعليمات الشيخ المكتسبة خلال الرحلة السماوية التى رأى فيها الحياة على الأرض عبر الزمن.

للقيام بهذه المهمة يردد موسى بن عصام دوما فى حواره: "فنظرت... فسألت.. ثم أعدت النظر... فسألت... ثم تحولت بنظري... فسألت... فقال: انظر إلى... فنظرت فوجدت[١] وتتعدد على مدى القصة الدعوات للتأمل بالمشاهدة: (ارجع البصر، ثم ارجع البصر، تأمل، انظر، ما تراه، زد نظرا تزدد فهما) ويفيدنا السارد المتعلم أنه قد أخذ هذه الدعوات فى الاعتبار وأدام النظر باهتمام (فجلت بنظرى فرأيت، فرأيتهم، فالتفت ورأيت، ملت بنظري، فلمحت، فنظرت، فرأيت، ما شاهدته، أرى، فتصور أمامى، ثم شاهدت فرأيت منظرا).

يدعو إذن الشيخ، بطل هذا العالم السماوى السارد المتعلم، بطل عصره إلى تأمل العالم والتمعن فيه. وتخاطب النص حاسة السمع من خلال الحوار بين البطلين فيقول السارد للشيخ "فأسمعتنى ما لو حدثنى به غيرك ما صدقته"[٢].

ونلاحظ هنا أنه قد تم استعمال فعل "حدث" بدلا من "حكي" و"قص" لإيصال معنى القيام بفعل الرواية.

وهنا تذكير ببنية المقامة التقليدية مضافا إليها تعريف بنوع من الحوارات يرتكز على النقاش من خلال القصة السردية.

هذه المناقشة كما رأينا تتمحور حول موضوعات وثيمات معاصرة مختلفة قياسا على زمن البيان. من هنا يمكن القول: إن المظهر الزمنى ذو دلالة ويشكل ركيزة للأزمنة التلقينية (السرد الراجع إلى العالم الروائى الخيالي) لرحلة السارد

---

(١) المقامة الأولى "مرآة العالم" الفقرة ١١ وقد تكرر الحال فى المقامات الأخرى.
(٢) راجع "مرآة العالم" المقامة الرابعة، الفقرة ٦٨.

الداخلي. وهو يشكل إطارا زمنيا للملاحظات والمشاهدات التى ترجع للزمن البيانى (الواقعى والمتعلق بالعالم الحقيقي) الذى يخلط بفعل الواقع الزمن السردى وزمن البيان. أضفى هذا الأسلوب نوعا من الواقعية وساهم فى الربط بين الخيال والواقع (الخاص بالمؤلف؛ أى بما هو خارج النص).

قياسا على ذلك يمكن القول: إن السارد فى "مرآة العالم" يحضر ويشهد المشاهد التى تعرض له دون أن يعيشها. هو لا يحلم بها ولا تشكل بالنسبة إليه رؤى؛ وإنما مشاهد وأحداث مباشرة يراها دون وسائط من علٍ كما لو كان واقفا خلف نافذة تطل على العالم. والمقامتان اللتان تجيئان فى المقدمة ليست بهما مؤشرات زمنية. أما الثالثة ذات الصلة الوثيقة بالسياق التاريخى المستقى من العالم الواقعى فتحدد الزمن الأرضى الذى يشكل مرجعيته وهو يقع بين عامى ١٨٩٦ و١٨٩٨ فيما يتعلق بواقعة السودان وعام ١٨٩٧ فيما يخص الحرب اليونانية – التركية. وترجعنا المقامات الرابعة والخامسة والسادسة إلى الوراء بعض الشيء وتحديدا إلى السنوات من ١٨٦٠ إلى ١٨٧٠ إذ لم تعرف بورصة السوق فى مصر (فى الإسكندرية) إلا عام ١٨٦٢.

والمقامتان السابعة والثامنة على شاكلة الأولى والثانية لا تمدنا بإشارات تحدد الزمكان (الزمان + المكان). وتقدم لنا المقامتان التاسعة والأخيرة محددات واضحة تضع زمن السرد فى العقد الواقع بين عامى ١٨٩٠ و١٩٠٠ مشيرة من بين أمور كثيرة أخرى إلى اغتيال الرئيس سادى كارنو Sadi Carnot الذى تم عام ١٨٩٤. هذا التفاعل الزمنى بين الزمن على وجه الأرض (البيانى والسياقى لمحيط النص الخارجي) والزمن السماوى (السردى والخيالى الخاص بالنص) يوضح كيف أن شكلى الزمكان هما فى حقيقة الأمر متوازيان. فالحقيقة أن التسلسل السردى لا يطابق الزمن الحقيقى، وإن كان يستعير أحداثه ويرتبها وفق نظام خاص به. فالزمن فى الرواية والخيال يعبر فوضى تمتد من ١٨٩٦ إلى ١٨٩٨ (المقامة الثالثة) ومن ١٨٦٠ إلى ١٨٧٠ (المقامات الرابعة والخامسة والسادسة) ومن ١٨٩٤ إلى ١٩٠٠ (المقامة التاسعة).

يتبع الزمن السردى منطقا موضوعيًا وضعه البطل الرئيسى (الشيخ) الــذى يختار بشكل ديالكتيكى ترتيب الرسائل المطلوب بثها ونقلها. هدفه هو بناء وعــى محدد بالتحاجى لدى الناقل (السارد الداخلي) طبقا لنظام مختار لنقل التعليمات بهذا النظام المضبوط.

يحضر "المتعلم – الرسول" كافة المشاهد كمتفرج تــارة لأحــداث عــصره (المقامتان الأولى والثانية) وتارة أخرى لأحداث عصور ماضية. الواقع أن السارد الداخلى كثيرا ما يؤكد أنه من المفيد أن يتذكر المرء ما مضى ويستعيده. من هنــا يمكن القول: إن مشاهداته مباشرة ولكن مرئية بطريقة فوطبيعية تسمح بالعودة إلى الماضى والعيش فى الحاضر؛ وهى ليست بالأحلام أو الــرؤى، تعبــر الزمكــان الدنيوى على وجه الأرض بشكل غير مرتب مكونة الزمن السردى للقصة. والقصة على هذا النحو محتفظة على الدوام بصلة بالزمن البيانى من خلال تواريخ الأحداث المشاهدة، ولكن مع وضع محددات مهمَّة فى الحسبان كالنهار والليل وساعات اليوم الأربع والعشرين والشهور والسنوات والعصور. ولم يمنع هذا كلــه موســى بــن عصام من القول أنه:

"أيا ما كان ممكنا للمرء أن يقرأه لا يوجد أفضل من التعلم عــن طريــق حضور الإنسان بشخصه لإحداث الماضى العــصور الغــابرة (...) لأن القراءة وحدها لا تكفى ولا تسمح باستخلاص القدر ذاته من الفائدة حتــى لو كرسنا لها الحياة كلها. فالمشاهدات المباشرة تفضلها ألف مرة وتسمح برؤية الأرض من الشرق إلى الغرب ومن جميع الزوايا؛ مثل: الكتــاب المفتوح"(١).

يعيش السارد إذن فى عصر لاحق للعصر الذى يشاهده، ومن هنــا فــالزمن بالنسبة إليه محدد سلفا مما يجعلنا نقول فى النهاية: إن هناك قيمة معطاة للزمن ما دام بالنسبة إلى السارد تاريخ الأزمان والعصور الماضية ليس كافيا لنقل كــل مــا ينبغى نقله والتعلم منه لخير البشرية. فقراءة التاريخ طبقا لرؤيته ليس لها إلا مردود

---

(١) راجع "مرآة العالم" المقامة السابعة الفقرة ١٢٣.

وقتى زائل على مستقبل الإنسان مقارنة بما تجلبه التجارب الفعلية للأحداث والوقائع التاريخية (السودان، واليونان، والإمبراطورية العثمانية، والحماية الإنجليزية) والاقتصادية (بورصة السوق) والاجتماعية (التكاتف والمساندة الوطنية) والدينية (الأمانة وكفالة اليتيم) والسياسية (العلاقة بين الشرق والغرب). كان ينبغي أن يكون الحل إذن هو التوجه إلي النقل الفورى والمستقبلى لقصص وحكايات الخبرة.

من هنا أمكن للسارد فى بحثه عن الحقيقة وعن فهم العالم وعن المعرفة، إظهار العالم الخارجى المحيط بالنص. هذا الأسلوب يجعلنا نصف هذا النص السردي والخيالي الذى نطلق عليه "مقامة القرن التاسع عشر" بالواقعية بمعنى أنه يستدعي التأثير الواقعى على مدى الأحداث والمشاهد كلها.

يذكر تودوروف Todorov فيما يتعلق بواقعية النص أن:"النص الأدبى لا يخضع لاختبار الحقيقة فهو ليس بحقيقى أو زائف؛ وإنما هو نص خيالي".

(١٩٨٧، ١٣) بهذه الصورة تظهر قصتا آل المويلحي. تشكل صلتها بالواقع وطريقة تناوله وفهمه ركائز تحليلهما. هذا السمت الأدبى ونعنى هنا أثر الواقع يجعلهما منتميتان للنصوص الواقعية ولنقل إلى الأدب الواقعي. رأينا على مدى تحليلنا للحكاية والقصة أن السعي وراء المعرفة يصحبه بحث عن الحقيقة فى إشكالية شاملة هى البحث عن السعادة. تكمن هذه السعادة فى أوج مظاهرها فى الحضارة التى تعد سببا وهدفا لهذا السعي. أما رؤية العالم فهى ترجمتها؛ وهى السبيل الذى يرى هؤلاء الأبطال في القصتين أن انتهاجه يوصلهم إلى هدفهم ومبغاهم وهو تغيير (إنقاذ) المجتمع العربي. يختلط البحث عن المعرفة والعلم وإدراك كنه العالم بهذه الطريقة فى زمن مزدوج؛ بسبب توازى الفضائيين السماوى والأرضى الذى يحظى فيه سارد "مرآة العالم" بالنظر الثاقب وكأنه وحى اختص به "أى الحقيقة التى لا تتفق مع أشباه الحقيقة" (تودوروف ١٩٨٧، ٩١) وهو ما يفسر اللجوء "إلي تأثير الواقع" وإلي الأحداث المعاصرة الآنية وشبه الآنية وإلى الدين فى القصتين اللتين نحن بصددهما. باستخدام هذا الأسلوب وفي مواجهة الفوضى السائدة يتسم العالم بأيديولوجية متدرجة تبغي أن تكون شاملة للعالم الإسلامي وللعالم بأسره أيضا. باعتبار أن الأدب الذي يوصف بالواقعي والكتابات التي تسعى للاتصاف

بالواقعية هى فى واقع الأمر تصوير للعالم قد يكون أمينا أو غير أمين، يبقى هـذا الأدب الذى يطلق عليه "واقعى" أثرا للواقع لا وجود له إلا فى النص الخيالى الذى يصفه وبواسطته. هذا الأدب إذن جزء من خيال، غالبا مثالى عن العالم المرجعـي الذى تسعى القصص لنقل أحداثه المعاصرة، غير أنها تبقى تصورا فرديّا بـسيطا لكاتب ينقله لنا من خلال سارد لا وجود له إلا فى النص ومن خلالـه. مـن هنـا فإنه وبدلا من أن يقول لنا الحقيقة التى طال البحث عنها، حتى إن فكر نقلها إلينـا فإن هذا الأدب هو محل الحوارات الأيديولوجية التى يتم فيها مناقشة هذه الحقيقـة المتفق عليها.

وكما رأينا من قبل فإن صلات التناص تلعب دورا غالبا وطاغيا فـي هـذا النوع من الأدب. من هنا نستخلص أن التناص جزء من هذه الحقيقة المتفق عليهـا التى تهدف إلى أن تصبح ذات فعالية على المستوى الجماعي. ويعـد قبـول هـذه التصورات الجماعية المختلفة اعترافا بها وافتراضا أنها قادرة على التـأثير علـى القارئ أو المتلقى وهو هنا المجتمع العربي.

ويمكننا هنا فى نهاية الأمر القول: إن آل المويلحى يقصدان الواقعية المثالية، وقد نحت كتابات الأب وابنه إلى البحث الدائب عن الحقيقة والسعادة.

ويشير (تودوروف، ١٩٨٧، ٦١) "إلى أنه يمكن تصور نمط ثالـث لتنظـيم القصة [...] لنقل: إنه أيديولوجية، بما أن هذه قاعدة مجردة، فكرة ينتج عنها العديد من الأمور التفصيلية المتباينة.

كل هذا النقاش وكل هذه المحاولات لإيجاد وتعريف النوع الأدبى الذى تنتمى إليه مقامات القرن التاسع عشر تبقى بلا شك فى حيز الفرضـيات التـى قـد تقبـل أو ترفض. ما يمكن الجزم به هو بقاؤها فى نهاية الأمر بعيدا عـن الحقـل الأدبـي الخاص بهذه النصوص. ولكن هل من الحكمة أو بالأمر الكافى محاولة تحديد نـوع مؤلف أدبى انطلاقا واستنادا إلى نظريات تالية له فى الترتيب الزمنى وأجنبية عنـه من الناحية الثقافية؟ الإجابة قطعا بالنفي. ثم هل من الممكن الاكتفاء ببعض النظريات فى التناول ومنها ما هو فى طور التكوين لمنظرين عرب مثل: طـه بـدر (١٩٩٢) الذى يعرفه الجميع باعتباره متخصصا ضليعا فى تطور الرواية الحربية الحديثة؟

الجدير بالذكر أن دراسته مثل دراستنا وكثير من الأبحاث المشابهة في هذا التخصص ترتكز على النظريات الغربية التي لا مناص من اللجوء إليها لعدم وجود بديل عنها يفضلها. نذكر هنا إن الإشارة إلى الرغبة في تصنيف وتحليل الأعمال المغايرة للثقافة التي تتبع منها النظريات المستخدمة كأداة للتحليل والتصنيف تبقى في اعتقادنا ضرورية والسؤال في نهاية الأمر هو: هل من الملح والملزم إلحاق كل نص بتصنيف محدد واتباعه لنوع واحد لا غير من الأنواع الأدبية؟ ألا يمكن أن تتعدد أصول العمل الأدبي كما تتعدد الموضوعات المتناولة فيه والعلوم التي يشير إليها؟

ونلفت النظر هنا إلى أن عدم تبعية "مرآة العالم" للنوع الأدبي الذي تنتقي إليه وعدم التزامها بقواعده لا يعني أنها غير ممثلة له، لأن تودوروف Todorov يقول في هذا الصدد: "مخالفة العمل الأدبي للنوع الذي ينتمي إليه لا يلغي وجوده. نكاد نقول إن العكس صحيح" (١٩٨٧، ٢٩) ألا تولد الأنواع الجديدة من تحول (تجاوز) العمل الأدبي للنوع الذي ينتمي إليه؟ بلى وهذا ما حدث بالفعل فقد حولت "مرآة العالم" وبدلت مقامة القرن العاشر إلى مقامة القرن التاسع عشر بكل ما تتصف وتتميز به. هذه المقامات الأخيرة تكون لحالها نوعا متعدد الأصول يشبه أغلب الظن كثيرا غيره. أوجدوا نوعا من النصوص الأدبية السردية الخيالية باستدعاء ثميات مختلفة مستقاة من أنواع أدبية متعددة.

ذكر رولير- توريه Roller -Theuret (٢٠٠٦، ١٥) أن تأويل وتفسير الكون المحيط، أصبح واحدا من السمات المميزة للرواية والملحمة وهو أيضا سمة من سمات مقامات المويلحي والمقامات الأخرى المعاصرة لها؛ مثل: "مجمع البحرين" لناصيف اليازجي، و"ليالي سطيح" لحافظ إبراهيم. فالرواية الغمارية picaresque تجمع المادة الروائية بربط الحلقات، والرواية المسلسلة تخضع لقواعد جديدة أقل تقنية منها توجيهية (رولير- توريه، ٢٠٠٦، ١٥). وهذا يعني بالنسبة إلينا تطورا للنوع الغماري وصولاً إلى النوع المسلسلي.

لم تحل طريقة النشر ذات الطبيعة الدورية دون إقدام محمد وإبراهيم المويلحي، فقد اختارا عدم الرضوخ والتقيد بالنشر أسبوعيًا. هي إذن كتابات سلسلة ولكن غير خاضعة لإيقاع النشر؛ وإنما ملتزمة للأيدولوجية التوجيهية للجريدة.

الواقع أن الموضوعات المتناولة نثريا هى ذاتها التى تتم مناقشتها فى الخطاب الصحفي، خاصة ما كان منه سياسيًا. والعلاقة بين القصص السردية الخيالية والخطاب المرجعى فى داخل صحيفة "مصباح الشرق" هى تحديدا ما يدعم ويقوى "التأثير الواقعي" فى القصص الخيالية. من هنا فالمألوف والمُعاش فيها يومى، وتصوير العالم فيها رئيسى، والسؤال هنا ألم يكن الأمر متعلقا به من البداية إلى النهاية؟ يذكر لنا رولير- توريه أن واحدة من السمات المميزة للنوع الأدبى المناضل وهو القصة الفلسفية هي: "إن المؤلف يتصدى لعصره (...) من هنا اللامعقول لا يمنع من إبراز الواقع وتقديمه على نطاق واسع". (٢٠٠٦، ٦٢) وهو حال القصص المويلحية وكثير من القصص المعاصرة لها؛ مثل: "المرافعة الوطنية لعبد الله النديم"[١]. هاجم إبراهيم المويلحى وولده باعتبارهما نهضويين متميزين فى عصرهما ولكن ذلك لم يجعل من كتاباتهما قصصا فلسفية، وهذا يشهد أن قصتيهما قد تم بناؤهما من مجموعة ملامح أدبية متعددة مختلفة المشارب. وقد أضاف رولير - توريه أن "الرواية قد نسجت من تجربة إنسانية وقامت بتنمية خيال شخصي. (٢٠٠٦، ٧٨). من هنا فإن المؤلف يقدم لنا العالم من خلال عيون الشخصيات. بقت الرواية رغم كل ذلك نوعا "هامشيًا فى ترتيب الأنواع الأدبية" (باجو Pageaux، ٢٠٠٦، ١٣).

يرى باجو:

"إنه لا يوجد شكل نقى خالص فى الأدب وأنه بغرض وجود أنواع فليس بالإمكان وضع اليد على كنهها. واسترجاعا لما يدعو إليه جون روسيه (Jean Rousset ١٩٦٣) فإن ما ندركه فى العمل الأدبى هو التكامل المتزامن للبنية والفكرة، ذلك المزيج من الشكل والتجربة التى يتساند ويتعاضد فيها الأصل؛ أى المنشأ والنمو (...) فالمادة "تفرض الشكل الخاص بها على الشكل العام".

---

(١) "الأستاذ" السنة الأولى (١٨٩٢) العدد الخامس ص٩٧ – ١٠٧ هذا النص محل بحثنا الآن لإصدار لاحق.

من المفترض إذن فهم السمات المميزة لكل نوع ومحاولة تحديدها وتسميتها. أما إدراك ماهيتها بشكل إجمالى فهذا مما يصعب حتى الآن الوصول إليه. إذا ما اعتبرنا أن النوع هو ما يُجمع عددا من النصوص على التعرف على ذاتها فيه فهل يتطلب الأمر وجود نصاب محدد حتى يمكن الاعتراف بالنوع وفهرسته؟ أم أن عملاً أدبيًا واحدا كاف لإيجاده؟ أم أن هناك حدّا أدنى من الأعمال مطلوب توفره؟ لسنا خبراء فى هذا الشأن وإن كنا لا نظن ذلك.

هذا يعنى إغفال النصوص غير القابلة للتصنيف واستبعاد إنتاج أدبى يمكن كما رأينا أن يكون ذا قيمة، وجديرا بالاهتمام، ومثريا، ومجدّدا وجالبا للمعرفة. يبقى هدفنا ومبغانا أن نحدد خصائص النوع الدبى الذى ينتمى إليه نصنا وهو أمر قد يكون محل اعتراض، وقد توجد اقتراحات مقابلة أو على العكس من ذلك يكون حاضا على التعمق والمضى قدما فى البحث - ما نقوم به ليس أكثر من محاولة قابلة للتحسين. ما يمكننا الجزم به هو أن طابع النوع الذى تنتمى إليه "مرآة العالم" منفتح، ونعنى هنا مقامة القرن التاسع عشر ليست الغمارية (Picaresque)؛ وإنما المسلسلة الساخرة (الناقدة) والاجتماعية (الواعظة).

ونشير هنا إلى أن تعدد الثيمات المعالجة وصعوبة تحديد الثيمة الغالبة من بين الثيمات الفرعية الرئيسة هما سبب تعذر وضع تعريف واضح للنوع الأدبى الذى تنتمى إليه "مرآة العالم". إلا أن الفحص المتريث الدقيق يكشف لنا أن الثيمة الغالبة فى النهضة، وهذا يعنى أن كل الثيمات الفرعية المتناولة ما هى إلا المشكلات الرئيسة لهذه الحركة المجتمعية. حقيقى أن التقاليد والشأن السياسى والاقتصادى والثقافى والدينى تشغل منفردة حيزا كبيرا إلا أنه يجمعها كلها نقطة مشتركة هى الحال والوضع الذى سيؤول إليه المجتمع، وهو بالضبط ما هدف إليه المشروع وعمل من أجله وما تتوجه إليه كل الكتابات.

وفى تصنيفنا "لمرآة العالم" يمكننا القول: إنها ليست بعد بالرواية وليست مقامة تماما، بل مقامة رغم كل شيء موجهة ومعلمة تذكرنا بالروايات التربوية التى تنشئ لا فردا فقط؛ وإنما جمعا كاملاً، جمع العالم العربي؛ وهى عمل ينشد الوعظ ويبغى أن يكون انعكاسا لصورة العالم، لسرده ويدرك أنه ليس بمعزل عن

عالم مؤلفه إبراهيم المويلحى الذى يستدعى ذكرياته (الخاصة بالأعوام ١٨٧٠-١٩٠٠) وتجاربه وخبراته (فى بورصة السوق) - بالتالى يمكن القول: إن هذه الحكاية تجمع إلى الأثر الواقعى أثر السيرة الذاتية مما يجعلها فى نهاية الأمر "عينة اجتماعية ثقافية" (رولير- توريه ٢٠٠٦، ١٤٦). والسؤال هنا هل كان لهذه الحكاية من وجود بغير هذا العالم المرجعي؟ ماذا يتبقى منها دون هذه الأحداث المستمدة من عالم الواقع؟ إذا ما نحينا جانبا كل ما يتعلق بهذا العالم سوف نلاحظ أنه لا يتبقى من هذا النص حكاية ولا مغامرة ولا بحث ولا حتى سبب وجود. هذه المقامات إذن ودون أدنى شك ذات صلة وثيقة بعالم مؤلفها رغم تركه مهمة الحديث لسارد داخلى يسبقه سارد خارجى للوهلة الأولى ليس إلا مؤلفها. من هنا فإن هذه القصة الأدبية تتفق تماما وهدف الأدب الذى لا ينحو إلى اجترار لذكريات ورواية الحياة؛ وإنما إلى إضاءة ما بقى معتما؛ فالأدب هو الحياة الحقيقية، الحياة بعد اكتشافها أخيرا ووضوح جنباتها (الزمان عود على بدء) (رولير- توريه ٢٠٠٦، ١٧٤).

تعيدنا "مرآة العالم" إلى روايات الأفكار التى تكون غالبا قصصا محورها كشف أسرار العالم وعمل جرد لكل ما غمض فيه. تقف مقامة القرن التاسع عشر عند ملتقى الأنواع الأدبية هذا على الأقل ما يمكننا القول بشأنها منظورا إليها من جانب الأنواع الأوروبية ومن زمن آخر غير زمنها. منشأ "مرآة العالم" إذن هو حرية التعريف الخاصة بالأنواع الأدبية المعروفة بتعدد أصولها وانفتاحها وافتقادها أحيانا للقواعد؛ نظرا إلى كونها أساسا قليلة العدد. "كل أشكال الخلط والمزج ممكنة وكل طرق التناول لها ما يبررها. لم توجد الرواية وفقا لقواعد، واستقلالها نابع بلا شك من الاستنكار الذى أبقاها منظرو الأنواع الأدبية فيه باستبعادهم إياها من قراراتهم الجذرية الحاسمة" (رولير - توريه، ٢٠٠٦، ١٧٧).

عن وعى أو عن غير وعى تغذت "مرآة العالم" من كل هذه الأنواع الأدبية. من مجمل خروقات "مرآة العالم" لكل هذه الأنواع وصلت إلى هذا النوع الجديد المسمى بمقامة القرن التاسع عشر الساخرة والناقدة، التى مهدت الطريق للرواية الاجتماعية العربية، تلك التى تعد "فترة من الزمن" أول إرهاصاتها وليست أقلها بل الوحيدة من نوعها. وسبب ذلك أن هذين العملين المتجاورين فى باب الصحيفة يلبيان من حيث الأصل والنشأة متطلبات عصرهما. فلكل عصر نسقه من الأنواع

الأدبية الذى غالبا ما يكون ذا صلة بالأيديولوجية السائدة. فالأنواع مثلها فى ذلك مثل أى مؤسسة أو تنظيم تشى بالسمات المكونة للمجتمع الذى تنتمى إليه (تودوروف، ١٩٨٧، ٣٥). بالإضافة إلى هاتين القصتين المويلحيتين اللتين توصفا "بالعملين الرائعين"، كتب إبراهيم ومحمد المويلحى حكايات سردية وخيالية، محاولات أخرى منهما لإثراء وتثبيت هذا النوع الأدبى الجديد؛ وهى محاولات مجهضة مسبقا. ولكن يبقى أن نشرها معا ودراستها يهمنا خاصة لتحديد وتعريف هذا النوع الجديد الذى يعد طليعة الرواية العربية على الطريقة الغربية.

بالإضافة إلى هذه الحكايات المويلحية هناك كتابات أخرى غذت هذه المرحلة من إرهاصات الرواية العربية من كل الأنواع التاريخية والخيالية والاجتماعية. شكلت هذه البدايات للرواية العربية واحدة من الأدوات الرئيسة للاتصال فى النهضة. بواسطة هذه الكتابات تم بث ونقل هذا المشروع التهذيبى والتعليمى والاجتماعى للنهضة الثقافية العربية فى شكل حلقات منشورة فى الصحف النهضوية. من هذه الأعمال الواقعة بين مقامات القرن التاسع عشر والرواية (العربية فى طور التكوين) هناك مؤلفات سليم البستانى المنشورة فى "الجنان" فيما بين عامى ١٨٧٠ و١٨٨٤ وأعمال جورجى زيدان المنشورة فى مجلته "الهلال" بين عامى ١٨٩٢ و١٩١٤ وكتابات فرح أنطون المنشورة فى مجلة "الجامعة" عام ١٩٠٣.

شكلت كل هذه الأعمال مجتمعة بدايات الرواية العربية هذا النوع عسير التصنيف الذى كان يتغذى ويتطور متملصا من أى تحديد أو احتجاز. أليس هذا هو الانطباع الذى تركته أغلب روائع الأعمال فى هذا العصر، عصر بدايات الأدب العربى الحديث؟

تزخر "مرآة العالم" و"فترة من الزمن" بالعديد من الأشكال النوعية مما يجعلنا نقول بانتمائها إلى نوع أدبى جديد يقع بين الإحياء والاقتباس بين التقليدى داخلى النمو والحديث خارجى النمو. هذان النصان المتجاوران فى "مصباح الشرق" يطرحان لوحة للمجتمع الشرقى والغربى أيضا؛ أى بمعنى آخر للعالم. يصل بنا هذا التصوير إلى إثبات واقع مؤسف لبشرية فى حالة ضياع. فى رحلتهما، بحثا عن العلم والمعرفة إلى البحث عن السعادة وصل بطلا القصتين المويلحيتين إلى النتائج ذاتها.

على الرغم من اختلاف رحلة كل بطل عن الأخرى والمرونة المسبقة لأحدهما (عيسى) قياسا على الآخر (موسى) فإن المحصلة متطابقة؛ وهى الفشل ليس فشل المصريين أو الشرقيين والشرق فحسب؛ وإنما فشل الغرب والغربيين أيضا؛ أى إجمالا فشل العالم والإنسانية. بفروق طفيفة نجد الحل المقترح والمقدم من كليهما يكاد يكون واحدا. فالشيخ يطمئن مريده ورسوله، وكان قد دعاه من قبل إلى نقل التعليمات والمعلومات المكتسبة إلى شعبه[١] ويعلمه أن عليه ألا يقلق بشأن الشرق. فطبقا لرأي الشيخ ما دام الإسلام أساسا وركيزة يركن الشرق إليها لن تطاله مساوئ هذه الحضارة الغربية و(هذه المدنية)؛ لأنه كلما ظهرت آفة فى داخل هذه المدنية سيكون لدى الإسلام الترياق الشافى منها. من هنا رأى ضرورة حض العقلاء ورؤساء المسلمين على العودة إلى الإسلام؛ لأنه إذا رغب رؤساء المسلمين العيش سعداء وفى أمان فمن الضرورى طبقا لرأيه إبعاد الناس عن الإفراط فى تقليد المدنية الغربية ودفعهم للاقتراب من الإسلام؛ لأنه بهذه الطريقة وبهذه الطريقة فقط ستتحقق المدنية الحقة والحضارة النافعة[٢]. من هنا نلحظ أن الجملة الخاتمة فى "مرآة العالم" أكثر حسما من تلك التى ختمت "فترة من الزمن"

وهناك حل مفترض واحد قد تم طرحه وتقديمه باعتباره "الوحيد" الممكن. لم يقل أحد بذلك صراحة إلا أن هناك بعض التقليد وبعض الاقتباس من هذا الغرب بقيا مسموحا بهما ما دام الشيخ قد طلب من رؤساء المسلمين إبعاد الأمة عن التقليد المفرط للغرب ولم يمنعه. لم يدع مباشرة إلى تقليد متعقل مثلما كان إبراهيم المويلحى قد عودنا فى "مصباح الشرق"؛ وإنما دعا إلى الابتعاد عن الإفراط وإلى تقصى المصادر والمنابع النقية؛ وهى والحال على هذا النحو المصادر الدينية. وقد نمت وتكاملت "مرآة العالم" من الناحية الهيكلية والبنيوية بين الإحياء والاقتباس، بين التقليدى والحديث. أما من وجهة النظر الأيديولوجية فإن النمو الداخلى ينحو إلى السيادة مقلصا الاقتباس. من هنا يمكن القول: إن الصراع بين قديم النهضة وحديثها ممثل ومصور بشكل جيد، فالصدام والصلات بين الشرق والغرب مقدمة فيها بشكل متوسع.

---

(١) "هذا وإنى أكتفى الآن بما ذكرته لك لتقرأه على قومك لعلهم يرجعون".
"مرآة العالم" المقامة الرابعة الفقرة ٧٥ الجملة الأخيرة.

(٢) راجع الحوار الأخير بين موسى والشيخ، "مرآة العالم" المقامة التاسعة الفقرة الواقعة فى الصفحات ١٥٥-١٥٨.

في خط مواز لكل ذلك يصرح عيسى بن هشام إلحاقا لأمنية الباشا في معرفة أفضل بالحضارة الغربية، التي لم يأخذ عنها المصريون إلا أسوأ ما فيها، أنه قد راوده دوما مشروع زيارة الغرب للإلمام بهذه الحداثة والتثبت منها. من هنا فإن الرحلة الأولى التي قام بها بطلا "فترة من الزمن" تنتهي بحلم السفر إلى أوروبا. بعد بضع سنوات وتحديدا عام ١٩٠٢ يعلن السارد الخارجي (المقامة الرابعة، الفقرة الأولى) سفر عيسى بن هشام لحضور معرض باريس الدولي (١٩٠٠) وعودة موسى بن عصام في "مصباح الشرق" في نهاية الرحلة الثانية، تلك التي قام بها الباشا الصديق وعيسى بن هشام بصحبة الفيلسوف الفرنسي يذهل الصديق مما رآه في الغرب "ويذكرنا من بين عيوب الحضارة الغربية أمثلة تنذر الآذان الصاغية" (المويلحي، ٢٠٠٨، ١٠٢). وإثبات الحال على هذا النحو مكدر ومحزن. فالغرب لم يعد نموذجا يحتذى به للشخصيات الرئيسة لا في "فترة الزمن" ولا في "مرآة العالم" لنقل: إنه رغم ذلك أقل انتقاصا للقيمة. والحل ليس مقدما من قبل شرقي؛ وإنما من جانب غربي فالفيلسوف الفرنسي هو الذي يختم القصة داعيا إلى اقتباس معتدل ومتعقل قال لصديقه:

"ما تقوله مبالغا فيه يا صديقي العزيز حتى لو كان فيما تعرضه الكثير من الصحة والحقيقة. فهذه الحضارة مع ما بها من عيوب تمثل عدة امتيازات. لا تبخسوها حقوقها ولا تحاولوا التقليل من قيمتها. اقتبسوا منها أيها الشرقيون ما يمكنكم الإفادة منه وما يناسبكم واطرحوا جانبا ما يمكن أن يتسبب في أذاكم ويتناقض وطبيعتكم. حاولوا الإفادة من اختراعاتها التقنية الرائعة لإحباط شراسة أعدائكم والشره للمال للمحتلين".

"نقل مزايا الغرب إلى الشرق مع البقاء على فضائل عاداتكم وجميل تقاليدكم، فبهذه الحصانة وحدها لن تكونوا في حاجة إلى التشكل على عادات غيركم. تمتعوا بيسر مدخولاتكم ورفاهية أوطانكم واشكروا الله على ما خصكم به"[1].

---

(١) المويلحي، ٢٠٠٨، ص١٠٢، ترجمة رندة صبري.

بهذه الطريقة يمكن القول: إنه لا عيسى بن هشام ولا موسى بن عصام اللذين يمثلان الجيل النهضوى الشاب، جيل ما بعد عام ١٨٨٢، قد أفصحا بشكل مباشـــر عن رأيهما فى الحضارة الغربية. لم يقل أى منهما أيضا كيف للـشرق أن يواجـه الغرب وما ينبغى له الاقتباس منه. كلاهما قد تركا هذه المسئولية للغير: أحـــدهما لشرقى والآخر لغربي، أحدهما لتقليدى والآخر لمحدث. ورغم الاختلافات من حيث النشأة أو الأيديولوجية فقد وصل الاثنان إلى واقع أن تقليد الشرق للغرب يجـب أن يكون معتدلا ومتعقلا، وبالتالى قاصرا على ما يلائم الشرق، وهو بالضبط مـا لـم يتوقف الخطاب المويلحى إجمالا على المناداة به دواما عبر "مصباح الشرق". مـن هنا يمكن القول: إن التجانس والتماسك والثبات هى أعمدة الفكر المويلحي. وأيا ما كان نوع الخطاب المستخدم فإن الأقوال المويلحية بقت مركزة على عصرهم وعلى مشكلاته وأموره ذات الطابع المجتمعي. هذه الكتابات المويلحية منشؤها اجتماعي، مصدره النهضة العربية؛ وهى تكون أدبها وخطابها ووقائع أخبارها ومحـصلتها. وعلاقة القوى بين الشرق والغرب موضوعة فى المقدمة لدى كليهمـا. لـم ينكـر المحتل فى أى منهما ولكن الشرقى مثل الغربى أفصح لفظا عما يستشعره تجاهـه. بين صلات الاقتباس والقوة يبقى الشرق أمام الغرب دوما فى مرحلة تكوين وإعادة بناء. الأمر إذن ليس أن يولد ولكن أن يقوم ذاته ويتقدم، وأن يجد لنفسه مكانا فـى داخل هذا العالم الذى يشكل الشرق والغرب ضفتيه. عدوان لا يفترقان.. هذان هما الشرق والغرب اللذان زارهما موسى بن عصام وعيسى بن هشام، أحدهما يقـوده تقليدى، والآخر يرشد تقليديا. يتعلق الأمر بنقل مزايا أحدهما للآخر، والحفاظ على تقاليد أحدهما بالنسبة إلى الآخر كان مطلوبا شيء من التـوازن لتفـادى التكيـف والتأقلم وللبقاء على الحال والحفاظ على الذات فى عينى الآخر وعينى النفس. ورد رغم كل شيء ذكر الله فى نهاية خطاب الفيلسوف الغربي، مرجعية ربمـا شـكلية وربما للقول بوحدانية الله عند الشرقيين فى الغرب؟ أيا ما كان الأمر لدينا عالمان، وزمنان، وقصتان، ولقاءان، وخاتمتان، وإثبات مشترك وهو الذى وفقا لـه يجـب أن يكون الاقتباس بين الحضارات مناسبا ومتوائما.

جعل ذلك من "مصباح الشرق" ملتقى ضفتى العالم والقرن التاسع عشر الموزع بين الحداثة والإمبريالية.

ويقع العمل الأدبى "مرآة العالم" فى مرحلة جديدة من تاريخ النثر العربى الحديث مضيفا إليه نوعا من السرد المتصل فى إطار تقليدى مسجوع وهو إطار المقامة. فى هذا العمل وصف لكافة الأحداث المعاصرة السياسية والاقتصادية والثقافية والتقليدية والاجتماعية. اهتمت "مرآة العالم" مثلها فى ذلك مثل "فترة من الزمن" بالزمن الذى تم إنجازها فيه وقدمت عنه ما يشبه كشف الحساب. وموضوعها إجمالا هو النقل الذى يبدو ذا صبغة نبوية؛ بسبب التناص القرآنى الموجود فى كل مكان. اقترح إبراهيم ومحمد المويلحى تحقيقا لهذا الهدف النهضوى لتحويل الشرق وتغييره فى مواجهة الغرب الإمبريالى والاستعمارى الالتجاء إلى القراءة للانتباه واسترداد الوعي. قدم الاثنان من خلال الخطاب والسرد فى صحيفة "مصباح الشرق" - ركيزتهما فى الاتصال- لوحة كاملة لعصرهما. تزامل تطور السرد مع أنواع الخطاب والتعاليم التى تضمنتها كتاباتهما الصحفية والأدبية. جوب العالم هو إذن خط سير السرد فى قصتى آل المويلحي؛ حيث يعبر موسى بن عصام وعيسى بن هشام على التوالى الزمن الأرضى والزمن السماوى بفضل النظرة الثاقبة الخارقة أو الحلم. من المثل المستخلص من تجربة الحياة ينضو العالم أرديته ويتجلى من خلال عيون ساردى "مصباح الشرق"؛ وبذا أمكنهما تقديم شهادتهما إلى الأمة وولاتها والعالم أجمع.

ما رواه لنا موسى بن عصام يلخص التجارب الاجتماعية والسياسية فى القرن التاسع عشر. وهو يشكل خلاصة ما حكاه لنا عيسى بن هشام بالتفصيل. "مرآة العالم" هى وقائع أخبار مجتمع يجمع كل ما تقدمه "فترة من الزمن" فيما يشبه الرواية النقدية والاجتماعية. من هنا يمكننا القول: إن موسى بن عصام يقدم لعيسى بن هشام "مرآة العالم" فى عصره فيقوم عيسى بن هشام بدوره برسم تفاصيل اللوحة.

ومن خلال هذه اللوحة يحاول ساردا النهضة المشار إليهما بكل ما أوتيا من قوة الإفصاح عن إشكالية مصير الشرق فى مواجهة الغرب فى القرن التاسع عشر؛ بحيث تعى الأمة وضعها وتتحرك لتحسينه. ويبذل الاثنان قصارى جهدهما من خلال "تأثير الواقع" لنقل حقيقة العالم فى عصرهما.

صنع آل المويلحى بهذا الخطاب السردى إذن "مصباح مرآة العالم لفترة من الزمن" بمعنى آخر قدَّما مرآة لعالم القرن التاسع عشر مما يعنى أنهما لم يقدما منتجا وقتيا زائلا؛ وإنما جعل كل من إبراهيم المويلحى ومحمد المويلحى من صحيفتهما "مصباح الشرق" مساحة للبحث عن مرشد نهضوى بين الواقع والخيال، بين الأرض والسماء. رغبا فى أن تكون رحلتهما من الشرق إلى الغرب على هيئة الإسراء الذى ذهب خلاله النبى محمد ﷺ إلى القدس حيث صلى بصحبة إبراهيم وموسى وعيسى. ارتقى المعراج إلى السماوات ليلتقى ربه، ورأى الجنة والنار وعاد أخيرا إلى أهله ليصطدم بجحودهم وكفرهم.

ما كان الساردان المويلحيان ليلبسا ثوب الأنبياء ويجرا الزمان والمكان دون أن يصلا إلى أهدافهما. بقيت أقوامهما الذين وجَّهَا لهم كتاباتهما على صممهم لدعواهما تماما مثلما صدت أقوام إبراهيم وموسى وعيسى نداء أنبيائهم ودعواهم.

والمحصلة التى نختتم بها سطورنا هنا هى أن إرشاد الإنسانية بالدين أو الحداثة من خلال الكلم (الكتابة فى هيئة خطاب أو حكي) يبقى غامضا ودون صدى على الأقل فى رأى آل المويلحي.

الفصل العاشر

خاتمة النهضة

"إن مقدم جريدة إلى العالم فى مصر كما فى غيرها من البلدان هو قوة تنهض. كيف ستكون هذه القوة وماذا ستفعل؟ الفضول يستبد بالجميع"[1].

١- فى ملتقى النهضة: كشف حساب الصحفيين النهضويين ومحصلتهم فى القرن التاسع عشر.

فى مواجهة تحديات قرن النهضة، يبدو أن مصر طبقا لأقوال المويلحى كانت فى "حركة لا شرقية ولا غربية" (رندة صبرى ٢٠٠٥). وعلى النقيض من ذلك نجد أن الإشكالية التى أفضت إلى هذا الوضع هى ذاتها وبعمق شرقية وغربية فى آن واحد. بقى محور مشكلات النهضة نتاج الصلات بين الشرق والغرب. سواء أكانت صلات قوة أو تبادل. كما رأينا من قبل فإن المستقبل المجتمعى الشرقى تصدر المناقشات التى قامت الصحافة بنقلها وكانت ركيزتها فى النقل والنشر. فى قلب هذه الصحافة نوقش وفى نهاية الأمر أقيم مشروع التغيير والتقويم. من خلال هذه الصحافة المكتوبة قامت صفوة من الصحفيين المتعلمين ونصبت نفسها تلقائيا مرشدا للأمة العربية. بدءا من مصر، شاطئ الأمان والسلام والحرية آنذاك (وهو أمر نسبى بالطبع) مقارنة بلبنان وسوريا عمل العرب المسلمون منهم والمسيحيون على تغيير المجتمع العربى والمسلم. ولإتمام هذه المهمة أصدروا عددا من الصحف والمجلات من كل نوع ضاربين عرض الحائط بالرقابة المعلنة والمقنعة. دارت موضوعاتهم حول مسائل النهضة الأساسية ومشاكلها؛ وهى كيفية جعل الأمة قادرة على الإمساك بمقاليد أمورها والتحكم فى مصيرها. بأى الطرق والوسائل يمكن

---

(١) جول مونييه Jules Munier ١٩٣٠، ص٨.

تربية الشرقيين وتعليمهم؟ وكيف يمكن تدارك التأخر العلمى المتراكم قياسا على الغرب؟ كيف السبيل إلى عمل ذلك مع الحفاظ على القيمة اللغوية والشخصية للغة العربية؟ أى الأشياء جديرة بالأخذ وأيها يتوجب تركه؟ بعد اقتباس ما اقتبس ما الذى ينبغى عمله فى هذا الجديد الذى تم جلبه وكيف لنا أن نفعل ذلك مع أخذ الإسلام فى الحسبان؟

إجمالا؛ أى الاستراتيجيات الشاملة والفرعية ينبغى تبنيها حتى يستعيد الشرق العربى والإسلامى مكانة بين الحضارات التى توصف بالحديثة؟ طرح النهضويون بعد أكثر من عشرين عاما من المناقشات والفكر المختمر فيما بين عامى ١٨٧٠، ١٩٠٢ سؤالا جديدا على أنفسهم، وكالعادة عبر الصحافة المكتوبة، عما إذا كانت هذه "النهضة الجديدة حقيقية؟"[١].

آثار فرح أنطون هذا النقاش المهم الذى عملنا به من خلال "مصباح الشرق" أفادنا محمد المويلحى أن هناك نقاشا دائرا فى مجلة "الجامعة" من خلال إحدى مقالاته "مجلة الجامعة بحث أدبى اجتماعى فيه فائدة عمومية"[٢]، ونقل لنا صيغة الدعوة التى تلقاها من الجامعة للمشاركة فى النقاش. وهو على قدر علمنا أول نقاش صحفى من نوعه، أول نقاش تذكر فيه بوضوح النهضة بمسماها ومعالمها. آخذ تاريخ النهضة، اعتبارا من أول يناير ١٩٠٢ منحى جديدا. كانت النهضة قد اكتسبت بالإضافة إلى الاسم الذى منحت إياه عام ١٨٩٩[٣] من قبل معظم الصحف العربية فى مصر؛ مثل: "الهلال"[٤] و"المنار"[٥] مناقشين ومتحاجين؛ أى مندوبين لها

---

(١) "هل هذه النهضة حقيقية أم لا؟ "الجامعة" الجزء الثالث (١٩٠١ - ١٩٠٢) العدد ٦ ١٩٠٢/١/١ ص٣٩٥ -٤٠٣.

(٢) "مجلة الجامعة بحث أدبى اجتماعى فيه فائدة عمومية" "مصباح الشرق" العدد ١٩٤، ١٩٠٢ (٢٧ من فبراير) ص٣.

(٣) بعيدا عن الصحافة رأينا أن هذا المصطلح قد تم استعماله عام ١٨٧٠ غير أنه بقى حتى عام ١٨٩٩ غير مستعمل بكثافة على الأقل فى الدوريات.

(٤) "النهضة المصرية الأخيرة" "الهلال" المجلد السابع ١٨٩٨-١٨٩٩ العدد ٢٠ ص٦١٠-٦١١ (١٨٩٩/٧/١٥).

(٥) "النهضة الإسلامية فى مصر" "المنار" الجزء الثانى ١٨٩٩ العدد ٦ ص٢٤١-٢٤٨ (١٨٩٩/٧/١).

وممثلين. وهؤلاء كانوا الصحفيين العرب الذين كانوا يكتبون للأمة وتطورها بدءا من عام ١٨٧٠ وحتى عام ١٩٠٢ وربما حتى بعد ذلك. من صحفيين هواة وعصاميين تحول هؤلاء إلى صحفيين – ممثلين لمجتمعهم الذى كانوا قد أرسوا فيه نمطا جديدا للاتصال والتواصل بالكتابة وهو الصحافة. أغلب هؤلاء متقفون وقد وضعوا حبهم للكلم وللغة العربية فى خدمة القضية الشرقية الشاملة المنطقة من المغرب إلى المشرق حتى الهند المسلمة.

بدأ المقال المشار إليه "النهضة الأدبية الحديثة فى مصر والشام، واقترح على الكتاب والقراء هل النهضة نهضة حقيقية أم لا، الأمور الواجب الاتفاق عليها بين أرباب الصحافة"[١] بالإشارة إلى آفة كانت فى هذه الفترة قد استشرت فى الوسط الصحفى وهو افتقاد الاهتمام بالقراءة وبالصحف وبالمجلات العربية المنشورة فى مصر وسورية وأميركا، بالإضافة إلى عدم استشعار عرفان تجاه الصحفيين الذين سبق لهم التصريح باستثمارهم الكثير من أوقاتهم فى تحرير صحفهم وكتابة مقالاتهم. هذا الموقف جعل فرح أنطون الذى كان يفكر فى كتابة ملخص لتاريخ النهضة الأدبية العربية الحديثة[٢] ينصرف عن مشروعه ويحوله إلى نقاش مفتوح للكتاب والقراء حول الموضوع ذاته مقترحا بعض الخطوط والأسئلة الموجهة:

١- ما رأيكم فى الصحافة الحاضرة من مجلات وجرائد وكم واحدة تطالعون منها؟

٢- ما الواجب صنعه فى رأيكم لتحسين حالتها وهل لديكم نصيحة خصوصية لها؟

٣- هل تعتقدون بوجود نهضة أدبية حقيقية فى الشرق وهل هى جارية على قاعدة طبيعية مقتضاها الارتقاء تدريجيًا؟

٤- هل لديكم نصيحة خصوصية للشرق والشرقيين وخصوصا المصريين والعثمانيين كالعودة إلى إدخال شيء جديد ونبذ شيء قديم؟

٥- ما رأيكم فى مجلة الجامعة بنوع خصوصى وهل لديكم نصيحة خصوصية لها؟[٣].

---

(١) جريدة "الجامعة" الجزء الثالث (١٩٠١-١٩٠٢) العدد ٦ ١/١/١٩٠٢ ص٣٩٦-٤٠٣.
(٢) جريدة "الجامعة" الجزء الثالث (١٩٠١-١٩٠٢) العدد ٦ ١/١/١٩٠٢ ص٣٩٦.
(٣) جريدة "الجامعة" الجزء الثالث (١٩٠١-١٩٠٢) العدد ٦ ١/١/١٩٠٢ ص٣٩٦.

أنهى فرح أنطون خطابه مشيرا إلى أنه بعد نشر الإجابات والنقاش سيخلص إلى عشر أو اثنتى عشرة مادة، ويكون منها قانونا ودستورا للصحافة الجيدة(١). الصحافة والنهضة زوجان لا يفترقان عرفا على هذا النحو بواسطة ممثليها أنفسهم والعاملين بها. وتثبت الأسئلة الموجهة فى هذا النقاش حول النهضة الثقافية العربية ذلك بوضوح، ولا حاجة لقول المزيد. والهدف النهائى لفرح أنطون يفصح عن الكثير بشأن العلاقة بين الصحافة والنهضة.

من السؤال عما إذا كانت النهضة الجارية حقيقية، تتفرع تساؤلات عن نوعية الصحافة التحريرية، عن العلاقات بين الشرق والغرب، بين القديم والحديث وعن الكيفية التى تقاد بها هذه الحركة ويتم تطويرها إلى منتهاها. تم تحديد الركيزة؛ أى مكان ومساحة الاتصال والتواصل لهذه الحركة بوضوح وهو الصحافة العربية المكتوبة، وكانت إشكاليتها اعتمادها على قاعدة غير طبيعية بالقدر الكافى وغير متدرجة على النحو المطلوب. محدثوه تم التعرف عليهم باعتبارهم الشرقيين الذين عليهم الاختيار بين القديم والحديث. وبالتالى فالصحافة العربية والشرق والغرب والقديم والحديث هى المصطلحات التى تسمح بفتح هذا النقاش وامتدادا بالولوج فى هذه النهضة وإجمالا القرن التاسع عشر العربي.

استمر النقاش فى العددين ٧ (١٩٠٢ ص٤٧٧ - ٤٨٤) و٨ (١٩٠٢ ص٥٦١ -٥٦٧) ويلاحظ أن هناك مقالات أخر على المسألة النهضوية قد نشرت قبل وبعد هذا النقاش. واقع الأمر أنه كما رأينا عام ١٨٩٩ طرح جورجى زيدان فى مجلته "الهلال"(٢) ورشيد رضا فى مجلته "المنار"(٣) مسألة النهضة وقد قاما بذلك باعتبارها نهضة مصرية. أفاد جورجى زيدان أن هناك نهضات أخر قد سبقتها، أما رشيد رضا فقد ركز على طابعها الدينى ودرسها من منظور إسلامى على شاكلة

---

(١) "ومتى فرغنا من نشر الأجوبة نستخرج منها كلها ١٠ أو ١٢ مادة تكون دستورا للصحافة الصحيحة". "الجامعة" الجزء الثالث (١٩٠١-١٩٠٢) العدد ٦ ١٩٠٢/١/١ ص٣٩٧.

(٢) "النهضة المصرية الأخيرة".
مجلة الهلال المجلد السابع ١٨٩٨ - ١٨٩٩ العدد ٢٠ ص٦١٠-٦١١ ١٥/٧/ ١٨٩٩.

(٣) "النهضة الإسلامية فى مصر".
مجلة المنار الجزء ٢، ١٨٩٩ العدد ٦ ص٢٤١ - ٢٤٨ ١٨٩٩/٧/١.

الصورة العقدية لمجلته. قدم جورجى زيدان عرضا تاريخيًا للنهضة بدءا من عصور الفراعنة التى شهدت جذورها وحتى عصر محمد على الذى يعد أساس الانطلاقة الأولى.

تناول جورجى زيدان بعد ذلك عصر الخديو إسماعيل وقدم دلائل عليها، ثم أنهى حديثه بضروراتها.

بدأ نقاش "الجامعة" كما لو كان قد ترك أثرا وعلامة فى تاريخ النهضة العربية بصفة عامة من ناحية؛ بسبب نوايا من دعا إليه، من ناحية أخرى بسبب المدى الذى أخذه فى داخل الجماعة النهضوية. اقترح هذا المقال فى واقع الأمر عمل دستور للنهضة. انطلاقا من نقاش النهضة العربية تطلب الأمر عمل دستور للصحافة الصحيحة، أليس فى ذلك دليل داحض على أن الصحفيين الفاعلين فى القرن التاسع عشر كانوا فى قلب حركة تغيير الشرق العربى وبالتالى النهضة؟ التزاما بهدف الوحدة الذى وضعته لنفسها نجحت هذه المجلة فى جمع الصحفيين الفاعلين وصحفيين دوريات النهضة حولها. لبث "مصباح الشرق" كواحدة منها، النداء؛ ومن ثم كان آل المويلحى وهما صحفيان متعلمان ومثقفان ممن شاركوا فى النهضة.

قامت "مصباح شرق" هى الأخرى بتقييم الأمر ولكن على طريقتها. أنهى إبراهيم مشاركته فى الجريدة الوحيدة التى يملكها عام ١٩٠١ بمقال عنوانه: "كلام عن المطبوعات". استمر نشر هذا المقال لعدة أعداد بعد استلام محمد المويلحى إدارتها. وقد ذكرنا من قبل (راجع الفصل الثامن، الفقرة التاسعة) أنه من المحتمل أن يكون الأب قد قام مسبقا بتحريرها؛ كما أنه من الممكن أن يكون الأب قد بدأها ويكون الابن قد أكملها وأنهاها. هذه المجموعة المتتالية من المقالات كانت تتناول تاريخ الصحافة عبر العالم من الشرق إلى الغرب. وأيا ما كان الأمر فقبل آخر مقال افتتاحى له نشر فى الصفحة الأولى من "مصباح الشرق" كتب إبراهيم ما يمكننا اعتباره آخر مقال افتتاحى له بعنوان: "من المتعصب[1]؟ ناقش إبراهيم فى

---

(١) "من المتعصب؟" مقال نشر فى "مصباح الشرق"، ١٩٠١ العدد ١٥٦ ص١-٢.

هذا المقال مسألة الشرق والغرب وتحديدا من جانبها الاستعمارى ولمس فيها من بين ما تناول أمر الجزائر وتونس ومصر والهند. وبعد أن قام إبراهيم المويلحى تحذير الشرقيين وكشف عيوبهم دون أى تحفظ ها هو ينذر الغربيين قائلا:

"لو أنصف الغربيون لعلموا أن لا تعصب عند المسلمين لديهم بالمعنى المعروف لديهم، وأنه إن نشأ فيهم شيء من هذا القبيل فإنما بذره وولده فى نفوسهم تعصب الغربيين عليهم بسوء المعاملة وقبح التولع برمى الدين الإسلامى بالنقائض والمعائب والسعى فى إذلاله بعد إذلال نفوس أهله تحت أحكامهم. وما يولد الشرور ويثير غضب القلوب؛ مثل: التعنت والاعتداء بالباطل، فإذا استمر الغربيون على ما هم فيه من إيذاء المسلمين فى دينهم يتخذون كل حادثة من أصغر الحوادث ذريعة للتشنيع عليهم وللحط من دينهم لا يبعد أن ينمو فى نفوس المسلمين غراس التعصب، الذى يخشاه الغربيون ويتقونه، فيكونون هم أول الجانين على أنفسهم والمسببين لتأسيس ما يحاولون رفعه وانتزاعه من المسلمين. ولا غرابة أن يقول المسلمين يوما من الأيام: إن الأمم الغربية ما زالت تحكمنا بالتعصب حتى علمتنا كيف يكون الخروج من حكمها بالاتجاه إلى التعصب"(١).

هذا الخطاب مثله مثل كل ما جاء فى "مصباح الشرق" كان مجدّدا. الواقع أن كافة أنواع الخطاب والمقالات والحكايات ووقائع أحوال المجتمع والمقالات المويلحية من كل نوع ما زالت حتى يومنا هذا مناسبة. فمسائل الشرق والغرب والأنا والآخر والحداثة والتطور ما زالت من الأمور المعاصرة فى القرن الحادى والعشرين، وإذا كان إبراهيم المويلحى ومعاصروه يتساءلون عما إذا كانوا فى عصر الجاحظ من عدة قرون مضت فنحن بدورنا نسأل إذا كنا قد بارحنا القرن التاسع عشر أم ما زلنا به؟ الشعارات بلا شك تغيرت فمن الحضارة والعمومية ارتقينا إلى الديمقراطية وتداخل الثقافات ولكن هل تغيرت حقّا صلاتنا بالآخر؟ بقى السؤال مطروحا بالنسبة إلى إبراهيم المويلحى وما زال على حاله فى يومنا هذا.

---

(١) مقال: "من المتعصب؟"، "مصباح الشرق" ١٩٠١ العدد ١٥٦ ص١-٢.

الخاتمة:

كان فكر إبراهيم المويلحى أشبه بكل أنواع الفكر التى تفضح وتنقد دون حدود أو تحفظ تجاه بنى الجنس ولا تجاه الغرباء، يتساوى الجميع أمام مخالب القلم المويلحى الشرقيون تعرضوا مثلهم فى ذلك مثل الغربيين لانتقادات حادة. لم تتلعثم أو ترتجف يد إبراهيم فى أى من كتاباته. من ١٨٧٠ إلى ١٩٠٦ وحتى آخر أنفاسه انتقد وفضح، ولكن دوما بهدف التوجيه وضبط اتجاه المسار. والقارئ لكتاباته سرعان ما يكتشف ثباتها وتجانسها. أيا ما كانت نوعية ما يكتب – خطاب صحفى أو أدبى – تبقى كتابة إبراهيم المويلحى على اندفاعتها، اندفاعة النهضة. كان جهده لكى يعى الشرقيون ما عليه حالهم وعمله لكى يحسنوا مقدراتهم فى صالح هذه النهضة. لم يحل هذا دون توجيه النقد لها ولما يخالفها؛ أى للغرب. نصب إبراهيم نفسه مرشدا للأمة العربية والإسلامية بدعوته إلى الاقتباس المتعقل ولتجديد المصادر العربية. مثله فى ذلك مثل رب الأسرة. سلك إبراهيم سلوكه تجاه أصدقائه وأعدائه جامعا النقد إلى الحزم والقسوة وموجها طورا المديح لها وطورا آخر اللوم والاعتراض.

لكى تسترد الحضارة الشرقية مكانها، صرف إبراهيم جل وقته، وقت القرن التاسع عشر، وأمضى حياته فى بناء هذه الحركة الرامية إلى التقويم المجتمعي. كان بلا شك ممن كرسوا حياتهم للقضية النهضوية وشكلت كتاباته جزءا من تاريخ النهضة لم يكن متناقضا وجدانيا ولا كاتبا صغيرا، لا يوجد ما يبرر إذن إلا ينكب على دراسته الباحثون الغربيون مثل الشرقيين إلا كونه يعلن الحقائق المحرجة التى يفضل الكثيرون إبقاءها طى الكتمان إلى الأبد.

الشرق خطر داهم يا كلود ونظرا إلى كونك تتعهد النفوس فإنك تحسن صنعا بإثارة أحد نصفى القارة القديمة ضد الآخر. غير أن هذا نوع من الاجتياح؛ وهى الصرعة أو النمط الخالد.. ويمكن أن يطلق عليه أيضا البربرية.

رد "كلود لأجل" من فوره: هذا يطلق عليه حضارة(١).

الشرق والحضارة الغازية المغيرة، هذه هى مصطلحات ذلك العصر، مصطلحات القرن التاسع عشر الذى عاش خلاله إبراهيم المويلحى وشارك فيه فى حركة العالم العربى المعروفة بالنهضة. لمواجهتها جندت مصر وسائل منوعة وقدرات هائلة. مدفوعة وملؤها الحماسة من قبل الغرب؛ أى ذلك الآخر، قامت مصر من بين أقطار عديدة فى الشرق بالمبادرة بفضل مشروع بدأ من القمة، من محمد علي باشا. كانت مبادرته "الخارجية – الداخلية" مصدرا بالطبع نسبيًا للحرية والتشجيع لصفوة فكرية مصرية فى طور التكوين. انتمى إبراهيم المويلحى إلى هذه الصفوة حتى إن كانت كتاباته ومساره السياسى والصحفى قد أغفلا طويلا. يـعد هذا الرائد النهضوى الذى لم يدرسه أحد والذى يُذكر على استحياء من طلائع عصره. أما كتاباته فهى مصدر مهمّ للمعلومات يعلمنا بالتفصيل كل شيء عن عصره وعن النهضة العربية. الواقع أن هذه النهضة قد وافق توقيتها ظهور كتابات إبراهيم، بل كانت أحد الموضوعات المتناولة بها ووجدت نصوصه مكانا فى مختلف أنواع الدوريات العربية. هذا يجعلنا نقول: إن مسألة الشرق؛ أى المسألة العربية والإسلامية من المغرب إلى الهند الإسلامية كانت أصل ومحرك مشروع إعادة الحياة والتنقية والتقويم للمجتمع العربى والإسلامي. وللتواصل فيه استخدمت الدورية كوسيلة. من هنا فقد أصبحت الصحافة مركزا للتبادل والنقاش، وسرعان ما فرضت نفسها فيه المسائل المتعلقة بالهوية والوجود على المستويين القومى والدولي. وقد شكلت المسائل الدولية كنه التفكير النهضوى وبشكل أعم أساس الفكر العربى آنذاك، وعليها تحديدا، حاول النهضويون ومنهم إبراهيم الإجابة.

---

(1) Camille Mauclair. L'Orient vierge, roman epique de lan 2000.
Paru a Geneve en 1897,cite par Georges corme ،2002 ،p. VI.

أى الإجابات قدم إبراهيم المويلحي؟ فى أى المراحل وإلى أى مدى ساهمت كتاباته فى النهضة العربية؟ ما الذى أضفته هذه الكتابات على الحركة؟ وأى مكانة احتلتها فى داخل الإطار النهضوي؟ وماذا يتبقى منها مما يمكن اعتباره معاصرا الآن وقد مر قرن من الزمان عليها؟

يقع بحثنا بين الصحافة والأدب. ويرجع ذلك إلى طبيعة المادة محل البحث التى سبق لنا إيضاح اختلاط أصولها. واستنادا إلى ركيزة يومية وتعنى هنا الجريدة أو المجلة كتب النهضويون وتواصلوا مع قرائهم الذين يشكلون الأمة. لم تكن كتاباتهم صحفية على الأقل على النحو الذى أصبحت عليه هذه الكتابة منذ بداية القرن العشرين ولا بالطبع على الهيئة التى نراها بها اليوم. كانت آنذاك كتابات شديدة التقليدية غارقة فى اللغة الفصحى الرصينة. وسرعان ما أثارت ترجمة الأعمال الأجنبية فضولا خصبا أوجد أعمالا مقتبسة نشرت فى هيئة حلقات مسلسلة فى الصحافة. وقد أعادت هذه الأعمال الاهتمام والانتباه للأنواع الأدبية الداخلة فى الثقافة العربية ومنها المقامة.

الواقع أنه فى علاقة القوة هذه بين الشرق والغرب؛ التى كان الشرق يحاول فيها إيجاد مكان له بين الحضارات الحديثة والحفاظ على هويته على المستوى العالمي، أضحت الكتابة سلاحا سياسيًا. عملت الكتابة من خلال الدوريات واستطاعت بفضلها التواصل عبر العالم العربى والإسلامى وربما أبعد من ذلك اعتبارا من عام ١٨٧٩ مع نفى واستبعاد بعض الصحفيين العرب. وصولا لهذا الهدف قام الكتاب الصحفيون العاملون باختراع وصقل أسلوب صحفى خاص جعل ما يكتب أقرب إلى البحث والدراسة من كل نوع منه إلى المقال الصحفى على النحو الذى نعرفه اليوم. كانت مقالات إبراهيم المويلحى طويلة نسبيًا وشديدة التفصيل، وقد استخدم فى كتابتها كافة أساليب المحاجاة والبيان ومنها السخرية والأسئلة الإنكارية الموجهة بشكل محوري. بالإضافة إلى هذه الأساليب لجأ إبراهيم المويلحى إلى التناص مع القرآن والأمثلة التاريخية. هذه الأساليب لم يكن اللجوء إليها قاصرا عليه، ولكنه وحده تعامل معها على هذا النحو مما جعل كتابته لاذعة

صارمة خشنة ونابضة. من هنا كان تأثيرها صادقا، ومكثفا، وواقعيّا ومزعجا في آن معا. هذا الإحساس المختلط شكل قوته الحقيقية وجعل أعداءه يخشونه وهم يتساءلون عن فحوى عباراته. أما باقي القراء، أي الأمة، فقد كانوا يحبون هذه النبرة الاستفزازية حتى ولو استهدفتهم؛ لأنهم كانوا يوصفون على أنهم ضحايا للسلطان – الخليفة، وفي الوقت ذاته بوصفهم مذنبين لخضوعهم وانصرافهم عن الحراك والإقدام. قليلون هم من كانوا يهاجمون ويجابهون الساسة الشرقيين والغربيين ونادرون من اختلفوا مع القائمين على الحكم وعلى الحاكم بشخصه.

وأكثر ندرة من كل هؤلاء أولئك الذين مع هجومهم على كل هؤلاء الرجال شنوا هجوما أيضا وفي الوقت ذاته على الأمة. كان شعاره فضح الشر وترتيب الخير، ولم يفلت من نقده اللاذع غير المحدود أي مذنب. وهذا ما قد يكون سبب تنحيته جانبا. الواقع أنه بعد دراسة كافة كتاباته لا يبدو لنا ظاهرا سببا مقبولا؛ لذلك اللهم إلا الحرج والضيق اللذين تسببت فيهما أقواله حتى إنهم ذهبوا إلى كتمانها إلى الأبد.

ولكن هذا لم يمنع من استشهاد كثير من الكتاب بأقواله ومقتبسات من كتاباته، فلم يكن أحد ليتجاهل والد المؤلف القدير لبدايات الرواية العربية محمد المويلحي. غير أن ذلك كان يتم بحرص ودون تفاصيل كثيرة. تم ذلك من جانبهم رغم أنه كان في هذه الكتابات ما يستدعي التأني والتدبر وغالبا بالاستشهاد فقط بما سبق قوله. من هنا فقد خلفت أسطورة وبقت طويلا الصيغة الوحيدة التي تجعل من إبراهيم البطل المجهول.

لم يكن هذا ولا ذاك؛ وإنما ببساطة أحد رواد النهضة وواحد من أوائل الصحفيين. واقع الأمر أن أول صحيفة أصدرها تمثل أول دورية تم طرحها بمبادرة خاصة وحرة في مصر (نزهة الأفكار، ١٨٧٠). ويبدو أن مبادرته الأولى؛ وهي تأسيس هيئة للعلوم (جمعية المعارف ١٨٦٨) هي الأولى من نوعها. أما جريدتاه الثانية والثالثة فهما فريدتان من ناحيتي المحتوى وسياق العرض والنشر ("الخلافة" ١٨٧٩، و"الاتحاد" ١٨٨٠و ١٨٨٤). كان الأمر عبارة عن هجوم مباشر (مجهول

الهوية وسرعان ما تم الكشف عنها) على السلطان العثمانى وعلى شرعيته: كان إبراهيم ينادى بخلافة عربية؛ وهى مطالبة كان الأول فى المناداة صراحة بها عبر الصحافة العربية فى المنفى. لاحقا تم طلبها دون مواربة من خلال ("أم القرى" للكواكبي). وفى الوقت ذاته (١٨٨٣-١٨٨٤) شارك إبراهيم فى تحرير المجلة العربية الشهيرة "العروة الوثقى" لجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده الذى كان قريبا منه كما أثبتت ذلك من بين آخرين شهادة مريد الأفغانى المعاصر له: رشيد رضا. بعد عدة سنوات قدمت "ما هنالك" عام ١٨٩٦ فرصة لإبراهيم لتكرار أمنياته فى إصلاح الإمبراطورية العثمانية حتى تكون الخلافة جديرة وشرعية. هنا أيضا هو رائد فى الأمر. جاءت بعد ذلك الأعمال الأدبية التى قاومت الشمولية الحميدية من قبل أحد معاصرى إبراهيم الذين كانوا مثله يطالبون بالخلافة الغربية وهو الكواكبى الذى كتب مهاجما الاستبداد الحميدى فى كتابه: "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" عام ١٩٠١. بعد منع "ما هنالك" جاءت مقالاته متتابعة فى "المقطم" وبينت لديه اتجاها مواليا للمصريين ومؤيدا لهم. هذا الاتجاه أصبح عام ١٨٩٧ أساسيًا فى كتابات إبراهيم المويلحي.

لوحظ أن هناك انقطاعا واضحا وإن لم يكن كاملا بعد توقف "ما هنالك" ولم يصبح إصلاح الإمبراطورية العثمانية؛ أى الإمبراطورية الإسلامية من أولوياته. أصبحت مصر مركز معاركه النهضوية وعاود خطابه المؤيد للخديوية الذى لم ينكره قط، وإن كان أرجأه طوال مدة إقامته فى إسطنبول؛ حيث عمل عضوا فى مجلس فى التعليم العثماني. لم يحدث أن ألقى خطابا مناهضا للخديوية حتى حين ألمت به الأحداث المزعجة فى باريس وقت تخلى عنه الخديو السابق إسماعيل، كما لم يتوقف إبراهيم من ١٨٩٨ حتى نهاية حياته عن الدعوة فى صحيفته الشهيرة "مصباح الشرق" (١٨٩٨-١٩٠٣)، ثم فى "المؤيد" (١٩٠٤-١٩٠٥) إلى تطهير وتطوير المجتمع المصرى خاصة والمجتمع العربى والإسلامى بشكل عام. لم تتخلف الصحف والدوريات آنذاك؛ ومنها "الهلال" عن الإعلان عن صدور "مصباح الشرق". صحف أخرى؛ مثل: "المنار" أشارت إلى بعض من مقالاتها ونقلت عنها ما كتبت.

لم يكن إذن إبراهيم المويلحى بطلا؛ وإنما واحدا من الرجال العظام فى عصره الذين عملوا مثله فى مجلاتهم أو صحفهم وبأساليبهم وقناعاتهم الشخصية على تغيير مصير الشرق العربى والإسلامي. لم يكن أيضا بطلا غير مكتمل أو غير مستقر مثلما قال جورجى زيدان وانطلاقا من هذا الرأى كانت هناك رتوش وإضافات فى حقه.

على شاكلة عصره، اقترب وانصهر إبراهيم بمهارة مع زمانه بهدف إسداء خدمة لوطنه كله. تدرج مفهوم الوطن لديه من كوكب الأرض إلى وطنه الكبير الإمبراطورية الإسلامية التى يمثلها العثمانيون، وأخيرا وطنه الصغير مصر. لم يكن إبراهيم ازدواجى الهوى ولا ذا فكر غير مكتمل؛ وإنما محنكا ماكرا وقادرا على التخطيط المدروس.

كان يرغب فى الإعلان عن رؤيته للعالم على الجميع. ربما استبد به الغرور والطمع بعض الشيء، واعتقد أن مفهومه عن السياسة والإصلاحات هو الأفضل. هذا مؤكد غير أن الشيء الأساسى بالنسبة إلينا هنا ليس تقسيم مدى صلاحية أفكاره ولكن أن نقدم محصلتها ورسم مسارها النهضوي.

وصولنا إلى فكر إبراهيم المويلحى ميسور بفضل كتاباته التى يمكن مراجعتها والاطلاع عليها حتى وقتنا هذا والشهادات المختلفة، بالإضافة إلى الدراسات التى كان هو محورها. فقد نشرت كل كتاباته فى الصحافة. من كل هذه الكتابات تعد "ما هنالك" العمل الوحيد الذى صدر فى صورة كتاب بعد نشره فى دورية. ويلاحظ أن كل خطبه كانت أساسا سياسية واجتماعية. التزاما بالأولوية السياسية – الاجتماعية التى وضعها إبراهيم لنفسه لم يكتف بكتابة خطبه المرجعية؛ وإنما لجأ أيضا إلى الخيال.

فى إطار الانطلاق فى طريق الترجمة والاقتباس ظهرت فى الصحافة العربية أعمال أدبية فى هيئة حلقات مسلسلة وبعيدا عن الاقتباس، حاول النهضويون التجديد وإضافة لمسة خاصة على هذا الأدب الصحفى الجيد. وأكثر من ذلك، حاولوا عبر ممارسة هذا النوع من الكتابة إثبات أن اللغة والأدب العربيين لديهما قابلية للإبداع الأدبي. كان الرهان إذن مزدوجا وذا طبيعة متعلقة بالهوية: كان الأمر بالنسبة إليهم هو التعبير عن ذواتهم من خلال اللغة والأدب. وبالتالى احتل

التجديد اللغوى والأدبى مركز الصدارة فى النهضة. استمرت النهضة بسبب طابعها السياسى والاجتماعى موضوعا للمناقشة من خلال الوسيلة الوحيدة للتواصل آنذاك؛ وهى الصحافة المكتوبة. لم يكتف النهضويون فى سبيل إعلاء شأن النهضة بالكتابة الصحفية على النحو المألوف لهم فأضافوا إليها الكتابة الأدبية. من هنا بدأت المقالات المسلسلة تأخذ شيئا فشيئا مكانا فى أعمدة بعض الدوريات "كالهلال" و"الأستاذ" و"الجامعة"... إلخ و"مصباح الشرق". تميزت كل منها بأسلوبها وذلك بالإضافة إلى الأنواع الأدبية التى اختارتها. "فالهلال" اختارت الرواية المسلسلة التاريخية، و"الأستاذ" فضلت الرواية المسلسلة السياسية والرواية المسرحية بعض الشيء، و"الجامعة" اختارت فيما اختارت الرواية المسلسلة الرومانسية. أما "مصباح الشرق" فاختارت الرواية المسلسلة السياسية الاجتماعية الناقدة والساخرة.

استخدم إبراهيم المويلحى بهذه الطريقة المقال المسلسل ليحكى بشكل دورى ومن خلال أعمدة المقال الافتتاحى فى جريدته الوقائع والأحداث التى كان خطابه المرجعى يتناولها فى الباب ذاته، باب المقال الافتتاحي. ظهرت على هذا النحو أخبار المجتمع فى الصحف والمجلات العربية على اختلاف أنواعها الصحفية. فقد كان من الممكن أن تكون مجلات أدبية متخصصة أو جريدة سياسية أسبوعية؛ مثل: "مصباح الشرق".

لم تكن "مصباح الشرق" جريدة سياسية فقط. فقد كانت تضاف لها صفة "أدبية". كانت "مصباح الشرق" بحجمها ودورية صدورها ونمطها الصحفى جريدة سياسية – أدبية. فيما يخص مقالات إبراهيم الأدبية المسلسلة التى يجاور فيها السرد الخيال ليعطيا معا صورة للعالم المرجعي، قام الكاتب وكذلك ولده محمد باستخدام البنية القديمة للمقامة وجدداها بشكل يلائم القرن الذى يعيشان فيه.

من هنا يمكن القول: إنهما قد استعانا بالتراث الأدبى العربى الخاص بهما (إذن المصدر داخلي) وبالاقتباس الحديث من العصر (المصدر خارجي). وقد أوجدا بهذا المزيج نوعا أدبيا جديدا متعدد الأصول وناقلا وعابرا لها يأتى تفرده من مجموع عدة عناصر؛ نذكر منها: نوع النشر الصحفي الدورى، والثيمة الرابطة بين نوعى الخطاب (المرجعى والخيالى الروائي) فى ركيزة النشر، وأخيرا الثيمات

المتناولة والأساليب البيانية وطرق المحاجاة المستخدمة فى معالجتها. تمت إذن على هذا النحو مناقشة كل ما هو سياسى واجتماعى عن طريق سرد خيالى دورى، لا أسبوعى ولا شهري، وإنما حسب وتيرة الأحداث الجارية المرجعية. قامت هذه المقالات المسلسلة بالتناوب بين ساردين متجاورين فى الباب ذاته فى جريدة "مصباح الشرق" بنقد المجتمع المصري. من خلال هذا النقد كان الهدف الرئيسى فى الواقع هو تحليل للعالم بين الشرق والغرب. بدأ الأدب العربى والرواية العربية فى اكتساب شكل مقال بعد الآخر، بصورة دورية وأمكن للتأثير الواقعى للسرد الجديد فى النثر العربى إعطاء فكرة عن الأحداث المعاصرة السياسية والاجتماعية. تم اعتبارا من هذه الفترة إقرار رابط لا يمكن إغفاله بين الصحافة والأدب وقد استتبع ذلك وجود فترة وسيطة، بين بين، بين الشرق والغرب بين الإحياء والاقتباس، بين ما هو نابع من الداخل ووارد من الخارج. أظهر هذا البين بين إلى الوجود حركة اجتماعية عربية بل وكتابة جديدة أيضا، كتابة وقائع المجتمع ووقائع الصحافة العربية الوليدة. هذان النوعان الجديدان، أوجدا ما بين اقتباس وتجديد أشكالا مبتكرة من الكتابة منها المقامة الحديثة الناقدة والاجتماعية. برزت فى هذا النوع الأخير مساهمات إبراهيم وابنه محمد وكثير من النهضويين.

يعد آل المويلحى من الرواد باعتبار أن الجيل الجديد من مقاماتهم بعث الحياة فى نوع المقامة القديمة التى استمدت منها مع تبنيها لكتابة سردية تربط المقامات بعضها بالبعض الأخر، مع وضع رابط سردى وموضوع أساسى وتناول ثيمات سياسية واجتماعية – اقتصادية مع اقتراح محاولة وضع خاتمة.

لا يمكن قراءة أى من المقامات المويلحية بمعزل عن مجموعة المقامات كلها، فهناك رابط جديد تماما يجمعها. فمداخلات السارد الخارجى فى "مرآة العالم" التى كتبها إبراهيم (١٨٩٩-١٩٠٠) والسارد الداخلى فى "فترة من الزمن" التى كتبها محمد (١٨٩٨-١٩٠٢) تشكل جسرا سرديا بين القصتين؛ وهى خاصية لا توجد إلا فى المقامات المويلحية.

هذه الروايات المسلسلة المويلحية لم يصبها أذى من عملية النشر الدورية، بل على العكس كانت ميزة إضافية لتشوق القارئ لها كما لو كانت هناك سياسة تسويقية لخدمة القضية النهضوية؛ وهى النجاح فى جعل الأمة تقرأ لتعلم بالوضع الحقيقى

فتتمكن من معالجته. وقد شارك المويلحيان بأعمالهما ومقالاتهما المسلسلة الصحفية – الأدبية شارك آل فى تطوير النثر العربى فى اتجاه ما أصبح الرواية العربية الحديثة فى مطلع القرن العشرين. من هنا يمكن اعتبار مجموعة المقالات الصحفية المسلسلة ثانيًا سرديا للمقال الافتتاحى "لمصباح الشرق" وبشكل عام لأيديولوجيتها. كانت المقالات المرجعية الخطاب المفصل؛ وقد امتد على مدى أكثر من مقال. هذه الكتابة المتصلة كانت تشى بالطبع المستمر للخطاب المويلحي. وتعد معالجة وقائع المجتمع فى مقالات مسلسلة سردية وخيالية روائية نوعا من اتباع الجدية بالتسرية؛ بحيث يمكن تمرير الوسائل لمن لم يدركوا ما يحويه الخطاب المرجعي. كان الخطابان المرجعى منه والروائى الخيالى يقدمان مسلسلين بطريقة دورية بها استمرارية معلنة ("البقية آتية" "تابع مع ما قبله") كانت إذن الرغبة الواضحة المصرح بها فى الكتابة المتابعة سمتا من سمات الصحافة العربية فى القرن التاسع عشر، وكانت الجسور السردية بين الروايتين الخياليتين فى "مصباح الشرق" إحدى طرق التعبير عن هذه الرغبة فى الكتابة المتصلة. تربط هذه الجسور بين المقامتين المويلحيتين وتنضم إلى كافة الروابط الأخرى؛ مثل: الثيمات النهضوية المتناولة ومنها مشكلة السودان، وبورصة السوق، والإمبريالية والعلاقات بين الشرق والغرب.

تكمل إذن "مرآة العالم" قصة "فترة من الزمن" التى تتناول بشكل مفصل كل مسائل العصر؛ أى مسائل النهضة. "فمرآة العالم" محصلة متناهية الصغر "لفترة من الزمن" وهذه الأخيرة بدورها محصلة "مصباح الشرق". يطرح الفكر المويلحى نفسه بشكل متدرج فى تسع مقامات (خاصة بإبراهيم)، ثم اثنتى وخمسين مقامة (خاصة بمحمد) وأخيرا إحدى وستين مقامة (لإبراهيم ومحمد معا) بالإضافة إلى مائتين وستة وستين عددا من جريدة "مصباح الشرق" تضم فى صفحاتها الإحدى وستين مقامة الخاصة بآل المويلحي؛ أى الأب والابن معا.

هاتان الروايتان إذن مكملتان لبعضهما البعض وتكونان المحصلة الثيمية لوسيلة وركيزة النشر الخاصة بهما "مصباح الشرق" ما دامت كل الموضوعات الغالبة على مقالات الجريدة يتم سردها بهما. ويمكننا هذا من القول: إن الخطاب المرجعى الصحفى مستكمل بالخطاب الصحفى السردى والخيالى الروائى فى هيئة حلقات.

من هنا فإن حكى الوقائع يضطلع بالمهمة ويستكملها؛ وبذلك يتيح للقارئ اختيارا جديدا وهو استيعاب الخطاب النهضوى بالمناقشة والحوار.

وتتضم إلى القصتين الرئيستين حكايات أخرى متناهية الصغر بشكل دوري. هذه الحكايات تتناول هى الأخرى الأحداث السياسية والاجتماعية المعاصرة. تظهر فيها السياسة بشكل جلى من خلال قصص للوهلة الأولى خيالية تطرح انحرافات النظام والنية والإدارة السيئتين لمن يسوئون البلاد ويملكون السلطة. شخصيات هذه القصص تنتمى غالبا إلى فئتى الوزراء والأعيان المصريين. أما تلك التى تقتصر شخصياتها الرئيسة على الوزراء فتظهر كمجموعة حلقات مسلسلة جديدة. وتعد هذه الحكايات متناهية الصغر دون أدنى شك رابطا مؤكدا مع محتوى "مصباح الشرق": لنقل أولا: إن ركيزة النشر ونوعيتها متماثلة وأن السياسة والحوار أساسيان فيها، وأن اللجوء فيها إلى الشكل السردى للتسرية وللهروب والالتفاف على الرقابة هى الاستراتيجية المختارة. نخلص من ذلك إلى أنه سواء كان الخطاب مرجعيا أو خياليا روائيا، سرديا أو صحفيا، فإن الأساليب المستخدمة متماثلة والثيمات ثابتة، فالأحداث الجارية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية تحتل قلب المناقشات، والأساليب التى يستخدمها آل المويلحى هى دوما الحوار والسخرية والتهكم. يوصلنا كل ذلك إلى القول: إن القصتين الرئيستين للوالد وولده أشبه بطريقين متوازيين ومتكاملين استخدماها وصولا إلى هدفهما المشترك وهو تعريف الأمة بالعالم وبالجنس البشري.

يتيح لنا كل ما سبق القول: إن التقاليد والأديان بين الشرق والغرب تشكل المساحة السردية الخاصة بهذه المقامات. يعبر هذه المساحة الزمن فى هيئتين: هيئة سردية وأخرى بيانية روائية؛ وهى ليست بالثيمات المتفرقة الموضوعة جنبا إلى جنب وطريقة سرد ثابتة غير متغيرة للربط، ولكن مساحة سردية إجمالية شاملة وهو ما يجعلنا نقول :إن آل المويلحى قد أبدعا وجددا من الناحيتين الأدبية والصحفية، لمسة تجديد إضافية تحسب لهما، هو النشر الدورى الذى يهدهد الإيقاع ويبرز الأيديولوجية المنادى بها؛ لترابطها وتواؤمها مع أيديولوجية وسيلة النشر وركيزته. ويمكننا أخيرا القول: إن واحدة من خصوصيات القصتين المويلحيتين هى طابعهما النبوى، لا من خلال أسماء أبطالهما فقط ("موسى" و"عيسى") ولكن من

خلال هدفهما العميق؛ وهو إرشاد الأمة والإنسانية إلى ما فيه أمانها وسلامها. استهدفت القصتان التماثل مع خطاب (نبوة) المرشد النهضوى الذى طال انتظاره. تتسم الخاتمة التى توصلا إليها بكونها وسيطة وغير نهائية على شاكلة العصر الذى لم يكن فيه ممكنا تفادى "البين بين" بين البحث عن المعرفة والعلوم تتفتح من "مرآة العالم" إلى "فترة من الزمن" نافذة تطل على العالم بين الشرق والغرب.

من أعالى السماء التى شهد منها سارد "مرآة العالم" مسرح الحياة الحديثة، إلى العالم الدنيوى الذى يعيش فيه سارد "فترة من الزمن" هذه الحياة، يصل بطلا القصتين اللذان يتجاوران فى الباب ذاته فى الصحيفة، وتختلف رحلتاهما إلى الحقيقة ذاتها: نعم للاقتباس ولكن بروية واعتدال وتبصر.

هاتان القصتان ليستا بعد بالروايتين وإن كانت "فترة من الزمن" أقرب إلى الرواية. وفقا للنوع الأدبى التقليدى هاتان القصتان ليستا مقامات بالضبط؛ وإنما تنتميان إلى هذا النوع إذا افترضنا أنه يتطور. تقع "مرآة العالم" بين المقامة والأخبار والوقائع المسلسلة التابعة لنوعية السرد الروائى والمستخدمة للتأثير الواقعي؛ بهدف إظهار العالم الواقعى كأمر شائع معروف من الجميع. وهذه القصة التربوية التعليمية تذكرنا بالروايات التى تربي المجتمعات لا الفرد، كما تذكرنا بروايات الأفكار التى تميط الغموض عن العالم وتتطوع لجرد مكوناته. تقع مقامة القرن التاسع عشر الحديثة بالتالى فى ملتقى الأنواع الأدبية بين الرواية المنشئة ورواية الأفكار والمقامة الغمارية Picaresque الحديثة ذات الطابع الاجتماعى الساخر. وهذه القصة تعلن إرهاصات الرواية العربية على الطريقة الغربية، طور من أطوار تكوين الرواية العربية؛ أى واحدة من محاولاتها الأولى مما يعنى أنها تمثل نوعا غير سابق التصنيف، يتغذى وينمو ليصبح أعسر فى الانتساب إلى أى نوع أدبى قائم. مثلت هذه البدايات للرواية العربية واحدة من أدوات النهضة فى التواصل. من هذا المنفذ تمكن المشروع الوعظى التعليمى والاجتماعى للنهضة العربية من الانتقال والانتشار فى هيئة حلقات عن طريق الصحف والمجلات النهضوية. مطالعتها كان يعادل التجول فى العالم وقراءتها كان نوعا من استعادة الوعي.

بقى إبراهيم ملتزما بأفكاره ومُثله طوال الفترة الممتدة من كتابته فى بدايات الصحافة العربية المكتوبة التى كان فيها العدد الواحد عبارة عن مقال من أربع صفحات (من القطع A3) -كما فى جريدة "الاتحاد" لإبراهيم المويلحى- إلى العصر الوسيط الذى كانت المقالات يتراوح طولها بين عدة أسطر وخمس صفحات (من القطع A4)، كما فى جريدة "مصباح الشرق". حياة إبراهيم الصحفية إذن هى نموذج متناهى الصغر لتاريخ الصحافة المصرية المكتوبة؛ وهى تعكس منها مراحل مهمَّة؛ مثل: وصول الصحافة الشعبية والحرة المكتوبة إلى مصر عام ١٨٧٠ وظهور أول جريدة مصرية مؤيدة للخلافة العربية عام ١٨٧٩ وصدور أول جريدة مصرية ذات تأثير دولى عام ١٨٨٠.

ويمكننا فى نهاية الأمر القول: إن كتابه "ما هنالك" نموذج فريد للنثر العربى قادر على عكس صورة السياسة آنذاك، وهو أكثر من ذلك رواية شاهد عيان على الحياة السياسية العثمانية فى العصر الحميدى خلال الفترة من ١٨٨٥ إلى ١٨٩٥.

يقدم إبراهيم فى كتابه هذا وصفا للدولة العثمانية مصحوبا بالتعليقات والنقد بهدف رؤيتها تغير من سياستها. مع هذه الطموحات الإصلاحية يحذر إبراهيم الإمبراطورية العثمانية ويتنبأ بسقوطها إذا لم تجنح إلى التغيير. كانت طموحاته فى رؤية العالم العربى والإسلامى يفيق من غفلته رؤية مثالية ومغال فيها ولكن ذلك كله لم يجعل منه رجلا مزدوج الهوى. كان على العكس من ذلك تماما شجاعا عنيدا وصلبا، حتى إنه حاول تأليف واحد من أوائل الكتب الموجزة فى الدبلوماسية العربية فى عصره كمرشد للسلطان – الخليفة. ودون أدنى تقييم منا للقيمة السياسية لنص الكتاب، فهذا مما لا يتسع له هنا المجال يمكننا أن نقول قياسا على المحتوى إن "ما هنالك" تقرير سياسى ودبلوماسى به ملاحظات ومشاهدات مباشرة من الحياة السياسية فى اسطنبول فى العقد الواقع بين ١٨٨٥ و١٨٩٥. واقع الأمر أن هذا المؤلف كتاب موجز يرشد إلى كيفية الخروج من الأزمة السياسية التى عرفتها الإمبراطورية العثمانية فى تلك الفترة. وهو يقوم مقام البرنامج الإصلاحى بين نموذج داخلى (عربى وإسلامي: الخلافة والسلطنة) ونموذج خارجى (غربي: المبدأ الدستوري) إجمالا نموذج انفتاح على الآخر من جانب ممثل للشرق العربى والإسلامي.

يمثل "ما هنالك" بهذه الطريقة واحدة من الرؤى النهضوية للإصلاح السياسي. من المؤكد أن هذه الرؤية أولية ولكنها واقعية ومعلمة، نوع من أنثروبولوجيا الحياة السياسية. من أهدافها الرئيسة كانت هناك العدالة والحرية اللتان ما كان يكتب لهما- في رأى إبراهيم- أن تكونا فاعلتين إلا عن طريق دستور ممثل للأمة. من هناك فقد كانت "المصطلحات الرئيسية"؛ أى الأكثر دلالة والأكثر انتشارا فى "ما هنالك" هي: "الحق، وحرية الفكر، وأحرار التفكير، والحكام، والأشرار، والحاكم السيئ، والإمبراطورية المتداعية، والظلم، والتدخل الأجنبى، والخلافة والسلطنة، والإرشاد، والإفاقة، والإيقاظ...".

كان هذا الكتاب وصفا للنظام العثمانى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر قبل سقوطه كما تنبأ إبراهيم فى صفحاته ذاتها. من هنا فهذا العمل يقدم لنا ما يحدث خلف الستار وفى كواليس الإمبراطورية العثمانية الحميدية ويكشف الحقائق خالصة دون مبالغات وبدون نفاق للسلطان عبد الحميد الثانى بمنظور التقرير الذى يثبت الحال وليس النقد كما كان الحال فى "الإتحاد".

من هنا فإن كتاب "ما هنالك" يندرج تحت قائمة الأعمال السياسية النهضوية التى تضم الانشغالات والهموم والمشاكل والإحباطات والطموحات النهضوية. وهو يحوى أول نقد شامل للتاريخ السياسى الحميدي. أما إبراهيم فيبدو من خلال الكتاب كالمدافع المتحمس عن الإصلاحات الواجب القيام بها فى رأس الدولية العثمانية. من هنا فقد كان ينقل أصداء المطالب التى كانت تعبر عنها الأوساط الليبرالية فى الإمبراطورية العثمانية.

وهذا يجعل من "ما هنالك" تقريرا صريحا يشى بشجاعة مؤكدة لدى إبراهيم وبفكر سياسى إصلاحي. وقد أكد جاكوب لوندو Jacob Landau (١٩٨٧، ٨١) أن أكثر توصياته أهمية قد تم تبنيها بعد نشره باثنى عشر عاما؛ أى بعد وفاة إبراهيم عام ١٩٠٦ الذى أطلق عليه عام ثورة الشبان الأتراك؛ وهى طبقا لمصطلحات الكاتب ثورة الأوساط الليبرالية العثمانية.

فى كل الكتابات المويليحية نرى استخداما ثابتا ودائما للتهكم والسخرية والأسئلة الموجهة الإنكارية والأمثلة. يضاف إلى أساليب البيان والمحاجاة هذه اللجوء إلى التناص القرآنى، وكان مستعملا كفكر إلهى موحَّد ويعد إحدى أهم أدوات المحاجاة فى البلاغة المويلحية. بفضل هذا التناص القرآنى وأحيانا بفضل السنة والتاريخ كان تناول المحظورات أيسر. من هنا يمكن القول: إن التناص فى ذلك العصر مساحة خطابية شاملة تتحرك فيها الآراء الغالبة والتصورات الأيديولوجية الجماعية التى كان يتم استدعاؤها والتذكير بها أو يصبوا المتكلم إلى جعلها جماعية. من هنا كان التناص يمثل قوة فى المحاجاة تشكلت من أنواع من الخطاب الخارجى يمثل هو طابعها الأدبي. وقد اكتسب وجوده أهمية مزدوجة؛ لأنه يشارك فى التطور الأدبى وسيرورة المحاجاة فى الكتابات المويلحية والنهضوية بصورة عامة. وللتناص القرآنى قدرة بلاغية أخرى فهو الشاهد الأعلى على الأحداث المروية والأحكام الصادرة والحلول المقترحة. استخدم لتقديم أمثلة وأدلة وحجج وللتحذير. من هنا فقد كان يعطى للخطابين المرجعى والخيالى الروائى قيمة لا جدال فيها. وبالتالى ساهم التناص فى تنظيم الخطاب وفى سوق الحجج الخاصة به بل أكثر من ذلك؛ لأنه كان الحجة المرجعية. ونضيف هنا أنه باستخدام التناص باعتباره أداة للتحاجى، لا مجرد مظهر بسيط أو انعكاس لغوى، حاول النهضويون ومن ضمنهم المويلحى أن يضعوا علامات وتصورات إيديولوجية جديدة. نصل من ذلك كله إلى أن اللجوء إلى التناص القرآنى والتناص بشكل عام كان أشبه بالفكرة الجماعية المطلقة وأداة من أدوات المحاجاة الرئيسة فى البلاغة النهضوية التى بواسطتها كان مطلوبا أن يتم التفسير بالقدر ذاته الذى يتم به الإقناع.

بالإضافة إلى التناص القرآنى الذى كان سمة رئيسة، استخدم إبراهيم فى محاجاته أساليب أخرى لم تخل من التهكم والسخرية. فبالإضافة لهذين الأخيرين نجد الاستفهام العبثى والسؤال الإنكارى الموجه والاستطراد والأمثلة وإظهار السخط.

حددت العجلة والخطورة نبرة خطاب إبراهيم، من هنا ترك صدى آمرا، ووشت كثرة استعماله للروابط المنطقية بالتزام وتعهد القائل (المتلفظ). وتشكل الحكم؛ وهى حكايات مجازية تتضمن تعليمات أخلاقية أو دينية، نوعا من الاستطرادات كان إبراهيم يحاول من خلالها الإقناع، ونضيف هنا أن إبراهيم لم يتردد فى استعمال الأقواس ليضمن النص رأيه. من هنا يمكننا القول: إن كتابة إبراهيم المويلحى هى مجموع كل هذه الأساليب التى كان التناص القرآنى ينظم حججها، وقد ساهمت السخرية والتهكم والتفكير باستخدام منطق عبثى فى ضبط إيقاع المحاجاة. لم تتصف أى من الخواتيم المقدمة منه بالحدة والقطع إلا فى بعض الحالات النادرة كما فى "ما هنالك" و"الاتحاد" ومالت فى معظمها إلى الإيحاء والتخفى بمساعدة الردود المتنكرة فى صيغة استفهامات والسخرية. من اليسير وضع اليد على المصطلحات البارزة فى فكر إبراهيم المويلحى فهى شديدة الوضوح ودائمة التكرار فى كتاباته فى الفترة من ١٨٧٠ إلى ١٩٠٥. من هذه المصطلحات نذكر: الحقوق الأساسية والعضوية، والحرية، وتكوين برلمان دستورى، والخلافة والإمامة الشرعيتين. وبرنامج إبراهيم يشبه إلى حد كبير الاهتمامات والانشغالات النهضوية المهمّة التى كان التغيير الاجتماعى المرتقب يمثلها. وهذا يفسر لم كانت خطب إبراهيم المويلحى المرجعية مثلها فى ذلك مثل الروائية الخيالية تتمحور حول مشكلات اللغة والأدب العربى الحديث؛ ومكانة الشرق العربى والإسلامى بين الأمم التى يقال عنها متحضرة، والتطور والحداثة، والعدل خاصة بين الشرقيين والغربيين، واقتصاد السوق الخاص بنظام القرن التاسع عشر الرأسمالي. بقى إبراهيم طويلا فى الحيز الواقع بين المحافظة والحداثة مما جعله نصف محافظ ونصف حداثى يبحث عن نموذج مناسب للشرق العربى الإسلامي. كان موزعا بين التقاليد الدينية والسياسية والحداثة الغربية ذات الطابع السياسى والاجتماعى والاقتصادى، ولكنه لم يمل من الدعوة إلى الانفتاح الرشيد على العالم خاصة الأوروبى، بل أبدى استعدادا للاقتباس واستخدام كل ما هو خارجى المنشأ القادم من ذلك الآخر، بشرط عدم فقدان الهوية الشرقية العربية والإسلامية. لتنفيذ ذلك اقترح

إبراهيم دون كلل نماذج جديدة دائمة الأقلمة مع التطورات والظروف. لم يحد قط عن الأهداف النهضوية التى كانت فى الوقت ذاته أهدافه وهي: إصلاح المجتمع العربى والشرقى ليستعيد مكانه بين الأمم المتحضرة. لم يغير قط وجهته؛ وإنما استراتيجيته فى الاتصال والتواصل وتناوله السياسي. استرشادا بمصالح الأمة توافق إبراهيم مع الأحوال السياسية القومية والدولية واستخدام وسيلة الاتصال المتاحة ليعبر عن مكنون نفسه.

لم يتجه قط إلى حيث كانت مصالحة ولكن إلى حيث استشعر أنه يجدر به التوجه. خاطر أكثر مرة، لعلمه أنه مهما كانت كتاباته مجهولة الاسم فإن نظام التجسس الحميدى الذى يعرفه جيدا يجعل احتمال كشفه كبيرا ويعد "ما هنالك" مثالا صارخا على ذلك. حاول إبراهيم كرجل سياسة محنك قريب من الحاشيتين الخديوية والسلطانية بكل ما أوتى من لياقة وقدرة على الإطراء إيضاح بعض الحقائق المتعلقة بالعدالة الاجتماعية وبالسياسة بشكل عام. فى إطار هذه الحرب الإعلامية ذات الهيئة الوعظية التأديبية والأيديولوجية لم يعدم إبراهيم وسيلة لإيقاظ الأمة ويصارحها بما كان الساسة. كل صوب وحدب يحاولون إخفاءه عنها؛ وبذا يمكن القول: إن كلماته الصحفية المرجعى منها والخيالى الروائى كانت مساهمته فى المشروع الإصلاحى والنهضة. كرس تفكيره للبحث عن نموذج، أو عن برنامج إصلاحى مناسب. فى الحيز الواقع بين الشرق والغرب أو بعبارة أخرى فى "البين – بين" وكل أنواع "البين – بين" المندرجة تحته، بحث إبراهيم عن الحل الوسط الذى يعاد فيه النظر على ضوء ما يحاك من مؤامرات قومية ودولية. فيما بين الأنا وهذا الأخر الذى ثبتت مساوئه ومحاسنه صرح إبراهيم المويلحى بمعتقداته وقناعته هذا بالإضافة إلى تهيئاته وإحباطاته وتناقضاته، وهذه الأخيرة كانت شائعة بين النهضويين وسببها إعادة الغرب التفكير والنقاش فى قدرتهم على إدارة شئونهم، كان على الأمة التحول من "أمة طفلة" إلى أمة قادرة على الدفاع عن نفسها، هذا إلى جانب إشكالية التعايش معا والتعصب تجاه الآخر. وأمام اعتراف إبراهيم وتصريحه بأن عليه الزود عن نفسه وعن الهوية العربية والإسلامية، انتهى الأمر به إلى فقدان الأمل فى إصلاح الوطن الأكبر: العالم، والوطن الإسلامي؛ ومن ثم

فقد قرر تركيز جهوده على "الوطن – مصر". يأسا أو تراكما لخبرات طويلة تناثرت فيها هنا وهناك محاولات فاشلة للتواصل، قرر إبراهيم ترك فكرة إنقاذ الأمة الكبيرة وركز ذهنه على المسألة المصرية والحماية الإنجليزية. أصبح الاستعمار الأوروبى هدفه الأول. والساسة المصريون الخاضعون للإنجليز هدفه الثاني. لم يكن الوقت بالنسبة إلى إبراهيم سانحا للكفاح ضد الاستبداد الحميدى، بل كان متاحا لمقاومة الإمبريالية الأوروبية والغربية.

بين النظام والتجانس الفردى من ناحية والأمل فى تجانس جماعى من ناحية أخرى بدت خلفية فكر إبراهيم من خلال أنواع الكتابة المتعددة، ذات طبيعة صحفية بين السياسة والأدب. من هنا ظهرت فى الصحافة العربية الوليدة وتلك التى فى طور التكوين آنذاك أنواع من الخطاب الصحفى والأدبى والأنثروبولوجى والنقدى، وكلها ذات صبغة سياسية.

تطورت هذه الكتابات شيئا فشيئا من المقال متناهى الصغر والمؤلف فسيفسائى التكوين إلى المقال الصحفى المتعارف عليه. فى أثناء ذلك ألف إبراهيم ومعاصروه مقالات مسلسلة متتابعة أعطت فى مجملها أعمالا طبع البعض منها فى هيئة كتاب، وإن كان أغلبها ينتظر الجمع والدراسة. وهذا ما حاولنا عمله بالنسبة إلى أعمال إبراهيم المويلحى على الأقل لبعض منها؛ لأن المهمة فى حاجة لاستكمال بعمل مؤلف نقدى لكتاباته المسلسلة. ويمكننا القول: إن إبراهيم المويلحى واحد من الرواد الذين ساهموا فى اتجاه وتطور الصحافة المكتوبة والأدب العربى الحديثين.

ومساهمات إبراهيم النهضوية أكثر من مشهودة. يشى ذلك كله بدور الصحافة العربية المكتوبة فى النهضة ودورها فى تطوير وحفر مكانة للأنواع النثرية العربية.

جعل ذلك كله من الصحيفة الوسيلة الإعلامية الوحيدة للتواصل. مما حدا بالنهضويين لاستخدامها للاتصال بالأمة وفيما بينهم. من خلال الإصدار الدورى استطاع الفكر النهضوى أن يكون ذاته ويكوِّن من يتوجه إليه بالحديث وهو الأمة. شكلت الصحيفة محيطا وسياقا إضافيا للغة والأدب العربيين الحديثين وهما فى طور التكوين، وأصبح الصحفيون الأدباء فاعلين فى السياسة وفى المستقبل الاجتماعى الاقتصادى والثقافى لمجتمعاتهم.

أما النهضة فقد باتت بواسطة الصحافة المكتوبة وبفضلها شيئا ملموسا، مما جعل هناك شبكة كاملة من الكتاب الصحفيين والقوميين تشكلت وأصبح لها كيان ومقالات وكتابات عدة انكبت على تدارس الحضارات وتغطية كافة جوانبها. من هنا بدأ عالم الصحافة المكتوبة العربية فى التكون، وأضحت عناوينها ذات أصداء فى كل الأرجاء، وشيئا فشيئا تحولت إلى قوة سياسية قادرة على تشكيل الحكومات وإسقاطها من هنا يمكننا القول أنه مقارنة بالصحافة الأوروبية والغربية كانت الصحافة العربية بلا شك متأخرة. ولكن ذلك لم يحل دون لمعانها واتسامها بالهمة والنشاط.

بزغت حضارة الجريدة العربية واتسعت تدريجيًا سلطاتها رغم الإجراءات المتعسفة المقيدة ورغم الرقابة. هذه الصحافة المكتوبة كانت على النحو الذى رأيناه المساحة الوحيدة المتاحة للتواصل النهضوى، فمن خلالها تطور الأدب الذى يعد أبلغ تعبير عن العصر القائم وعن كل رسائله إلى العصور التالية له، وإلى الشكل المعاصر الذى نراه عليه اليوم. ونظرا إلى كون الكتاب نادرا ومرتفع الثمن فقد نشرت أغلب الكتابات النهضوية فى بادئ الأمر فى الصحافة المكتوبة، وقد جعل هذا من المقال المسلسل الروائى وغير الروائى والخيالى وغير الخيالى نوعا أساسيًا من كتابات النهضة.

الواقع أن الطابع المؤقت لدورية النشر وقابلية وسيلة النشر للإلقاء فى القمامة بالشيء العملي.

إلا أنه فى تلك الآونة تؤكد الشواهد مما يقرأ فى الصحافة وما بقى لنا من المكتبات الشخصية، التى آلت إلينا من هذا العصر أن الصحيفة لم يكن ينظر إليها باعتبارها وسيلة أو ركيزة إعلامية مؤقتة وزائلة يتم التخلص منها بعد القراءة، ففى نهاية كل عام وبعد انقضاء مدة الاشتراك السنوى كانت تتم عملية جمع للأعداد وتجليدها مثل الكتاب. ونقول فى نهاية الأمر أنه أيا ما كان تقدير القراء لمدة دوام الكتابات الصحفية فإنها بالنسبة إلى محرريها وفى عرفهم تتمتع بالدوام والاستمرارية؛ بل إن الأمر كان كذلك لبعض من القراء منذ ظهور الصحافة المسلسلة الخيالية، ثم الروائية على شاكلة الصحافة الغربية؛ أى خارجية الأصل

والمنشأ. غير أنه سرعان ما تمت أقلمة هذا النموذج وفقا للخصائص الأدبية العربية ونشأ عنها أنواع أدبية جديدة فتحت بدورها الطريق أمام الرواية العربية الحديثة. من هنا يمكن القول: إن تاريخ الصحافة المكتوبة يرجع إلى الحضارة ما دامت تساهم فى تكوينها وتطورها. فهى حضارة فى حضارة تفوقها حجما لأنها تساهم فى تكوين تصورات ثقافية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية وأدبية.

وهذا ما حدث فى فرنسا، فى زمن الثورة وعلى مدى القرن التاسع عشر، وهو الحال ذاته فى عدة بلدان فى العالم مثل: كندا والبرازيل.

كانت الصحافة العربية المكتوبة إذن ركيزة النهضة فى القرن التاسع عشر وموضع التعبير عنها بامتياز، من هنا فإن دراسة النهضة العربية فى ذلك العصر لا يمكن أن تتم دون الإمعان فى تحليل تفاصيل الصحف والمجلات. من هنا نلحظ أن الجانب الصحفى من النهضة يمثل أكثر كثيرا من مجرد حقل من حقول تاريخها، فهي على الأقل فى القرن التاسع عشر المركز البؤرى، الذى أوجد أدب الدوريات الذى بدوره أتاح مكانا لأدب الكتب، الذى يعد من الناحية التقنية أقل سرعة فى الزوال. ولكن أيا ما كانت رغبة الكتاب الصحفيين فى جعل كتاباتهم خطابا مستمرا والحفاظ على ركائزها الدورية لا يجب إغفال أن جزءا كبيرا من كتاباتهم، وكتابات إبراهيم المويلحى أكبر مثال على ذلك، ما زال إما مجهولا وإما مفقودا إلى الأبد.

ما يمكننا بعد كل ذلك قوله هو أن الصحافة والأدب قد أثر كل منهما فى الآخر وبالتالى أثرا بشكل تبادلى كل منهما فى تطور الآخر وبلغا من المدى أقصاه. أما الأدباء – الصحفيون فقد علت تساؤلاتهم حول دور الصحافة والأدب العربى الحديث وكذلك حول النهضة. وقد دارت كثير من المناقشات الصحفية حول دور الصحافة المكتوبة والصحفيين. ومن هنا أدرك إبراهيم المويلحى ومعاصروه بشكل جماعي وملفوظ الحركة ذاتها والدور الذى تلعبه الصحافة فيها.

وقد نسبت إلي الصحافة إخفاقات كما عرفت لها إضافات. وعُرضت بها وبواسطة الصحفيين أنفسهم أمور منها دراسة متفحصة لمهنة الصحفي، ودعوة لعمل قانون لأخلاقيات الصحافة، وتأسيس لمدرسة عليا تدرس قواعدها. وقد أصبحت

النهضة بعد مناقشتها والإفصاح عن مكنوناتها من خلال مناظرات الصحافة وحلقات نقاشها شعار الأحزاب السياسية التى لم يكن رؤساؤها منذ وقت جد مبكر سوى هؤلاء الصحفيين الفاعلين. وبذا انتهت نهضة القرن التاسع عشر تاركة المكان لمرحلة لاحقة لها هى "نهضة القرن العشرين".

مر أكثر من قرن على تلك المرحلة، ورغم ذلك بقت صحافة القرن التاسع عشر وأدبها المسلسل معاصرين خاصة فى كل ما يتعلق بالعلاقات بين الشرق والغرب وآمال العالمين العربى والإسلامي. ويشير هذا الأخير حتى الآن إلى ذلك فى صحافته الحالية ويرجع إليها. هناك إذن ما يدعو للتساؤل عن مراحل هذه الحركة وبعضها أقل ظهورا ووضوحا من البعض الآخر وإن كانت كلها موجودة. من هنا فإن الصحافة المكتوبة لم تكن مجرد حاو فقد تركت أثرا على عملية التحرير، وعلى الثيمات التى تناولها النهضويون وبالتالى على فكرهم. وجه النهضويون القراء، وقد أوجد مجمل هذا الأسلوب المتبع فى الصحافة هذا المشروع الاجتماعى العربى فى القرن التاسع عشر. وقد انضم إبراهيم المويلحى لهذه الحركة طيلة حياته وأثرت كتاباتها وحركاتها فى تاريخ هذه الحقبة (عباس حلمى الثانى ١٩٩٦، ١٦٤) إلا أنه بقى منها الكثير مما يجب دراسته.

إذا ما أخذنا فى الحسبان الصحافة وهى "عضو دفاعى ذو أهمية حيوية للثقافة المهددة" (ماسينيون Massignon ١٩٣٠، ٣٢٤) وأبقينا فى الذهن أن الشرق العربى والإسلامى – سواء أكان محقا فى ذلك أم غير محق – قد استشعر نفسه كذلك، فإننا لا نملك إلا الاهتمام بأداة التواصل هذه. وتثبت هذه الدراسة ذلك، فلا يمكننا الاكتفاء بالرغبة فى فهم الأحداث الجارية دون استيعاب أسسها وركائزها. من هنا تظهر أهمية الأبحاث التى تتناول الصحافة العربية منذ نشأتها وحتى يومنا هذا. ويمكننا أيضا القول إنه فى ذلك العصر تم نشر وتوصيل الأساسى فى المقالات الأساسية خاصة المقالات "المستوحاة" التى تحاول جاهدة الطبع فى ذهن الجمهور المسلم ببطء معنى نظام الجماعة وتأخذ شكل "الفتاوى".

هل يمكننا الآن وقد عرفنا كل هذه المعطيات اعتبار دراسة عصر النهضة بلا فائدة؟ أو الشروع فى دراسته ودراسة العصور التالية له دون أن نأخذ فى الحسبان الأساس الاتصالى لهذه الحركة لا بشكل عام؛ وإنما بشكل متعمق؟

هل يمكننا التغافل عن هذا الجزء من تاريخ الأحداث والتاريخ السياسى والأدبى والصحفى لحركة ينتسب لها حتى اليوم جزء كبير من العرب والمسلمين؟

المرجح أن الإجابة بالنفى، ولنقل إنه على العكس من ذلك تماما تبدو دراسة الصحافة المكتوبة والأشكال المختلفة للاتصال والتواصل التالية لها أساسية لفهم الأحداث الماضية بشكل أفضل، واستيعاب أحداث الحاضر، ولم لا يكون لاستشراف أحداث المستقبل أيضا. لفهم الصحافة الحالية فى العالم العربى بأنواعها؛ وهى التى ترجع غالبا إلى الثوابت وإلى التصورات الموروثة من الماضى يجب فى البداية دراسة مصادرها بالتفصيل: ينبغى إجمالا جمع الصحف الرئيسة التى ساهمت فى وضع أسس لهذا الميراث النهضوى وعمل ليس فقط حصر لها إنما فحصها وتصنيفها وترتيبها وفهرستها مع عمل الشيء ذاته للطبعات المختلفة وللدراسات النقدية< وفى مرحلة لاحقة عمل ذلك لكل الدوريات التى صدرت بعد ذلك حتى يومنا هذا. للقيام بهذه المهمة دون الغرق فى كم غزير من المعلومات يتوجب عمل معايير انتقاء لتحديد المادة العلمية محل البحث بشكل نهائى بفضل الفحص المبدئي. ترتيبا على ذلك تكون هذه المادة العلمية فقط هى التى تخضع للتحليل وللطبعة النقدية.

ويمكننا القول: إنه قياسا على المادة العلمية الخاصة ببحثنا فقط- وهى كتابات إبراهيم المويلحى- ما زال هناك الكثير الذى يجب عمله. بالإضافة إلى هذا المخزون الكبير من الصحافة العربية هناك دراسات أخرى تفرض نفسها. فعملية تحديد المادة العلمية الصحفية محل البحث وتقديمها وحصر ثيماتها الغالبة وكافة أنواع الخطاب بها (سياسي، واجتماعي، وثقافي، وديني... إلخ) توجه بذاتها البحث إلى تداخل بين العلوم وتفاعل بين العصور. وهنا تحديدا حقل بحثى قد يكون من المفيد معرفته لفهم أفضل للعالم بين الشرق والغرب.

ويمكننا القول: إنه بعيدا عن هذا الهدف الإنسانى فإن دراسة الصحافة العربية منذ ظهورها إلى الوجود حتى يومنا هذا ستسمح بتوضيح وإظهار لتاريخ أدب الدوريات العربى الحديث وبوضع اليد على الرابط الذى يجمعه بالصحافة المكتوبة وربما يُمكن أيضا من جمع مادة بحثية أدبية تستحق إعادة الاكتشاف أو مادة غير منشورة حتى الآن على شاكلة ما قمنا بتجميعه لبحثنا من كتابات إبراهيم المويلحى الذى وصفه محمد عبده بأنه "جاحظ" عصره.

المؤلفة فى سطور:

مارى كلار بولحبال

ولدت فى ليون عام ١٩٧٤

- أستاذة الدراسات العربية والإسلامية بمدرسة اللغات الشرقية ومعهد العلوم السياسية بباريس.
- متخصصة فى المجتمعات العربية المعاصرة وتأثير الصحافة فى تكوين الرأى العام الغربى عن العالم العربى.
- حصلت على درجة الدكتوراه فى باريس فى موضوع "الصحافة والأدب المنشور فى حلقات".
- صدر لها كتاب فى تعليم اللغة العربية "مداخل إلى اللغة العربية"، وشاركت فى كتاب الصحافة المكتوبة فى الشرق الأوسط.

المترجم فى سطور:

د. سونيا محمود نجا

- حاصلة على البكالوريوس فى الاقتصاد والعلوم السياسية "شعبة العلوم السياسية" – جامعة القاهرة.
- الليسانس فى اللغة الفرنسية وآدابها – جامعة الإسكندرية.
- الماجستير فى اللغة الفرنسية وآدابها – جامعة الإسكندرية.
- الدكتوراه فى اللغة الفرنسية وآدابها – جامعة الإسكندرية.
- الترجمة – جامعة السوربون.

ومن أهم أعمالها:

١- مترجمة إلى العربية:

1. Carre, Jean – Marie, "Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1956 Tome 1 440 pages.

الناشر: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى ٢٠٠٦.

2. Saiah- Baudis, Ysabel, "Oum Kalsoum L' étoile de L'Orient, Editions Du Rocher, 2004 325 pages.

الناشر: المركز القومى للترجمة ٢٠٠٨.

٢- مترجمة إلى الفرنسية

١- كتاب "عمارة من أجل عالم متغير" عن أعمال مؤسسة أغاخان.

الناشر مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٧

٢- الطاهر الحداد، كتاب "امرأتنا فى الشريعة والمجتمع" ١٩٣٠.

الناشر مكتبة الإسكندرية ٢٠١١

٣- عبد العزيز جاويش. كتاب "الإسلام دين الفطرة".

الناشر مكتبة الإسكندرية ٢٠١٢

المصحح اللغوى: نعيمـــة عاشور
الإشـــراف الفنى: حســـن كـــامل